فالشكر هنا موجه من العبد للرب ، والزيادة من الرب إلى العبد . وإياك أيها الإنسان أن تصنع الأشياء شكليا ، مثل الطفل الذى يصون لعبته لحظة أن يرى الأب . ومن فور أن يختفى الأب من أمام عينى الطفل فهو يفسد اللعبة ، والله ليس كالأب أبداً ، فالأب قدراته محدودة ، ولكن الله هو الخالق الأعلى الذى لا تخفى عليه خافية أبداً وسبحانه شاكر ، وهو أيضاً عليم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾

إنه سبحانه وتعالى يريد أن يحمى آذان المجتمع الإيمانى من « قالات السوء » .. أى من الألفاظ الرديئة ؛ لأننا نعلم أن الناس إنما تتكلم بما تسمع ، فاللفظ الذى لا تسمعه الأذن لا تجد لسانا يتكلم به ، ونجد الطفل الذى نشأ فى بيت مهذب لا ينطق ألفاظا قبيحة ، وبعد ذلك تجىء على لسانه ألفاظ قبيحة وحينئذ نتساءل : من أين جاءت هذه الألفاظ على لسان هذا الابن ؟ ونعرف أنها جاءت من الشارع ؛ لأن البيئة الدائمة للطفل ليس بها ألفاظ رديئة ، وعندما يتقصى الإنسان عن مصدر هذه الألفاظ ، يعرف أن الطفل المهذب قضى بعضاً من الوقت فى بيئة أخرى تسربت إليه منها بعض الألفاظ الرديئة .

إذن فاللغة هى بنت المحاكاة . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ونعلم أن اللغة ليست جنسا وليست دما ، بمعنى أن الطفل الإنجليزى لو نشأ فى بيئة عربية ، فهو يتحدث العربية . ولو أخذنا طفلا عربيا ووضعناه فى بيئة إنجليزية فسيتكلم الإنجليزية .

واللغة الواحدة فيها ألفاظ لا يتكلم بها لسان إلا إن سمعها ، وإن لم يسمعها الإنسان فلن ينطق بها . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى المجتمع الإيمانى من قالات السوء التى تطرق آذان الناس لأنها ستعطيهم لغة رديئة ؛ لأن الناس إن

تكلمت بقالات السوء ، فسيكون شكل المجتمع غريبا ، وتتردد فيه قالات سوء فى آذان السوء ، فكأن الحق سبحانه يوضح : إياكم أن تنطق ألسنتكم بأشياء لا يحبها الله ، فليست المسألة أن يريح الإنسان نفسه فقط بنطق كلمة ، ولكن نطق هذه الكلمة سيرهق أجيالاً ؛ لأن من يسمع الكلمة الرديئة سيرددها ، وسيسمعها غيره فيرددها ، وتتوالى القدوة السيئة . ويتحمل الوزر الإنسان الذى نطق بكلمة السوء أولاً .

وقالات السوء هذه قد تكون بالحق وقد تكون بالباطل ، فإن كانت فى الحق مثلا فلن نستطيع أن نقول : إن كل الناس أهل سوء . وقد يبتدىء إنسان آخر بسباب ، ويجوز أن يدعى إنسان على آخر سبابا . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى الآذان الإيمانية من ألسنة السوء ، لذلك يقول : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » ومقابلها بالطبع هو : أن الله يحب الجهر بالحسن من القول . وساعة يحبك الحق المجتمع هذه الحبكة الإيمانية ، أيعالج ملكة على حساب ملكة أخرى ؟ . لا .

ونعلم أن النفس فيها حب الانتقام وحب الدفاع عن النفس وحب الثأْر وما يروح به عن نفسه ويخفف ما يجده من الغيظ . والمثل العربى يقول : « من استُغْضِب ولم يغضب فهو حمار » ؛ لأن الذى يُستغضب ولا يغضب يكون ناقص التكوين ، فهل معنى ذلك أن الله يمنع الناس من قول كلمة سوء ينفث بها الإنسان عن صدره ويريح بها نفسه ؟ لا ، لكنه ـ سبحانه ـ يضع شرطاً لكلمة السوء هو : « إلا من ظُلِم » ؛ لأن الظلم هو أخذ حق من إنسان لغيره . وكل إنسان حريص على نفسه وعلى حقوقه . فإن وقع ظلم على إنسان فملكات نفسه تغضب وتفور ، فإما أن ينفث بما يقول عن نفسه ، وإما أن يكبت ويكتم ذلك .

فإن قال الله : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » واكتفى بذلك ، لكان كبتاً للنفس البشرية . وعملية الكبت هذه وإن كانت طاعة لأمر الله لأنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، ولكن قد ينفلت الكبت عند الانفعال ، وينفجر ؛ لذلك يضع الحق الشرط وهو وقوع ظلم . فيوضح سبحانه : أنا لا أحب الجهر بالسوء من القول ، وأسمح به فى حدوده المنفثة عن غيظ القلوب ؛ لأنى لا أحب أن أصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن الغضب جمرة توقد فى القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فلينم فإن لم يزُل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء »(١) .

أى أن يتحرك الإنسان من فور إحساسه بالغضب ؛ فيغير من وضعه أو يقوم إلى الصلاة بعد أن يتوضأ أو يغتسل ؛ لأنه بذلك ينفث تنفيثاً حركياً ليخفف من ضغط المواجيد على النفس الفاعلة ؛ تماماً كما يفك إنسان صماماً عن آلة بها بخار ليخرج بعض البخار .

إذن فمن وقع عليه ظلم له أن يجهر بالسوء . والجهر له فائدتان : الأولى : أن ينفث الإنسان عن نفسه فلا يكبت ، وثانياً : أنه أشاع وأعلن أن : هذا إنسان ظالم ، وبذلك يحتاط الناس فى تعاملهم معه . وحتى لا يخدع إنسان نفسه ويظن أنه بمنجاة عن سيئاته ، فلو ستر كل إنسان الظلم الذى وقع عليه لاستشرى الظلم فى عمل السيئات . ولكن إياك أن تتوسع أيها العبد فى فهم معنى كلمة « ظلم » هذه ؛ لأن الذى ينالك ممن ظلمك إما فعل وإما قول . وعليك أيها المسلم أن تقيس الأمر بمقياس دقيق على قدر ما وقع عليك من ظلم .

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يعطينا فى الاستثناء إلا على قدر الضرورة . ويوضح : إياكم أن تزيدوا على هذه الضرورة ، فإن كان ظلمكم بقول فأنا السميع . وإن كان ظلمكم بفعل فأنا العليم ، فلا يتزيد واحد عن حدود اللياقة .

وبذلك يضع الحق الضوابط الإيمانية والنفسية فأزاح الكبت وفى الوقت نفسه لم يقفل باب الطموح الإيمانى . لقد سمح للعبد أن يجهر إن وقع عليه ظلم . لكن إن امتلك الإنسانُ الطموحَ الإيمانى فيمكنه ألا يجهر وأن يعفو . إذن فهناك فارق بين أمر يضعه الحق فى يد الإنسان ، وأمر يلزمه به قسرا وإكراها عليه ؛ فمن ناحية الجهر ، جعل سبحانه المسألة فى يد الإنسان ، ويحب سبحانه أن يعفو الإنسان ؛ لأن المبادىء

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب ، والترمذى من حديث أبى سعيد دون قوله (توقد) . ورواه أحمد وأبو داود .

القرآنية يتساند بعضها مع بعض . وسبحانه يقول :

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

فإن أباح الله لك أن تجهر بالسوء من القول إذا ظلمك أحدٌ ، فقد جعل لك ألاّ تجهر بل تعفو عنه ، وغالب الظن أن صاحب السوء يستخزى ويعرف أن هناك أناساً أكرم منه فى الخلق ، ولا يتعب إنسانٌ إلا أن يرى إنساناً خيراً منه فى شيء . وعندما يرى الظَالمُ أن المظلوم قد عفا فقد تنفجر فى نفسه الرغبة أن يكون أفضل منه .

إذن فالمبدأ الإيمانى : « ادفع بالتى هى أحسن » جعله الله مجالاً محبوباً ولم يجعله قسراً ؛ لأنك إن أعطيت الإنسان حقه ، ثم جعلت لأريحيته أن يتنازل عن الحق فهذا إرضاء للكلِ . وهكذا ينمى الحق الأريحية الإيمانية فى النفس البشرية ؛ لأنه لو جعلها قسراً لأصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك إذا رأيت إنساناً قد اعتدى على إنسان آخر ، فدفع الإنسان المعتدى عليه بالتى هى أحسن وعفا وأصلح فقد ينصلح حال المعتدى ، وسبحانه القائل : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

فإذا تمادى من بعد ذلك فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لا يكذب أبداً ، ولا بد أن الخلل فى سلوكك يا من تظن أنك دفعت بالتى هى أحسن .

قد يكون الذى دفع بالتى هى أحسن قد قال بلهجة من التعالى : سأعفو عنك ، ومثل هذا السلوك المتكبر لا يجعل أحداً وليًّا حميًا . لكن إن دفع حقيقة بالتى هى أحسن تواضعاً وسماحة ، فلا بد أن يصير الأمر إلى ما قاله الله : (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) . والتفاعلات النفسية المتقابلة يضعها الله فى إطارات واضحة وسبحانه القائل :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

وذلك حتى لا يستشرى المعتدى أيضاً ، فهناك إنسان إذا تركناه مرة ومرة . يستشرى ، لكن إذا ما أوقفناه عند حده فهو يسكت ، وبذلك نرحم المجتمع من استشراء الفساد . ويُصعب الحق المسألة فى رد الاعتداء .

ويثور سؤال : من القادر على تحقيق المثلية بعدالة ؟ . ونجد على سبيل المثال إنسانا ضرب إنساناً آخر صفعة على الوجه ، فبأية قوة دفعٍ قد ضرب ؟ وفى أى مكان ضرب ؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتساوية أمر صعب . ومادام المأمور به أن أعتدى بمثل ما اعتدى به على ؛ ولن أستطيع تحقيق المثلية ، ولربما زاد الأمر على المثلية ؛ وبعد أن كنت المعتَدَى عليه صرت المعتدِى ، بذلك يكون العفو أقرب وأسلم .

والعمليات الشعورية التى تنتاب الإنسان فى التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد فى النفس تدفع إلى النزوع . والعملية النزوعية هى رد الفعل لما تدركه ، فإن آذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك فأنت تبذل جهدًا لتكظم الغيظ ، أى أن تحبس الغيظ على شدة . فالغيظ يكون موجوداً ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط . وعلى المغتاظ أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقى الغيظ فى القلب .

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

هذه مرحلة أولى تتبعها مرحلة ثانية هى :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

فإذا كان المطلوب فى المرحلة الأولى منع العمل النزوعى ، فالأرقى من ذلك أن تعفو ، والعفو هو أن تخرج المسألة التى تغيظك من قلبك . وإن كنت تطلب مرحلة أرقى فى كظم الغيظ والعفو فأحسنٍ إليه ؛ لأن من يرتكب الأعمال المخالفة هوٍ المريض إيمانياً . وعندما ترى مريضاً فى بدنه فأنت تعاونه وتساعده وإن كان عدواً لك . وتتناسى عدواته ؛ فما بالنا بالمصاب فى قيمه ؟ إنه يحتاج منا إلى كظم الغيظ ، أو العفو كدرجة أرقى ، أو الاحسان إليه كمرحلة أكثر علواً فى الارتقاء .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبيح أن تعتدى بالمثل ، ثم يفسح المجال لنكظم الغيظ فلا نعتدى ولكن يظل السبب فى القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى العفو وأن نخرج المسألة من قلوبنا ، ثم يترقى ارتقاء آخر ، فيقول سبحانه : (والله يحب المحسنين) ، ومن فينا غير راغب فى حب الله ؟ وهكذا نرى أن الدين الإسلامى يأمر بأن يحسن المؤمن إلى من أساء إليه .

وقد يتساءل إنسان : كيف تطلب منى أن أحسن إلى من أساء إلى ؟ والرد : أنت وهو لستما بمعزل عن القيوم ؛ فهو قيوم ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وكل شيء مرئى له وكلاكما صنعة الله ، وعندما يرى الله واحداً من صنعته يعتدى عليك أو يسيء إليك فسبحانه يكون معك ويجيرك ، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدَى عليه . إذن فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه فى جانبك ، وتكون تلك الإساءة فى جوهرها هدية لك .

وعندما نفلسف كل المسائل نجد أن الذى عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم وثأر لنفسه ؛ لأنه إن انتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، وحين يعفو فهو يجعل المسألة لله وقدرته سبحانه غير محدودة ، إن أراد أن يرد عليه ، وبعطاء غير محدود إن أراد أن يرضى المعتدى عليه . هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العافى المحسن . وهو السميع العليم بكل شيء . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝١٤٩ ﴾

لقد عرفنا أن الحق لا يسمح لك بالجهر بالسوء من القول إلا إذا كنت مظلوماً . وهذا يعنى أن المسألة تحتمل الجهر وتحتمل الإخفاء ، فقال : « إن تبدو خيراً » أى إن تظهر الخير ، أو تخفى ذلك ، أو تعفو عن السوء . وكل هذه الأمور من ظاهر وخفى من الأغيار البشرية ، لكن شيئاً لا يخفى على الله . ولا يمكن أن يكون للعفو مزية

إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة ، فإن كان عاجزاً لما قال : عفوت . وسبحانه يعفو مع القدرة . فإن أردت أن تعفو فلتتخلق بأخلاق منهج الله ، فيكون لك العفو مع القدرة . ولنا أن نعلم أن الحق لا يريد منا أن نستخزى أو نستذل ولكن يريد منا أن نكون قادرين ، ومادمنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة وهذه هى المزية الإيمانية ؛ لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً .

والناس تنظر إلى العاجز الذى يقول : إنه عفا ـ وهو على غير قدرة ـ تراه أنه استخزى . أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منهج الله فليأخذ من عطاءات الله فى الكون ، ليكون قادراً وعزيزاً بحيث إن ناله سوء ، فهو يعفو عن قدرة « فإن الله كان عفواً قديراً » .

وقلنا من قبل : إنك إذا لمحت كلمة « كان » على نسبة لله سبحانه وتعالى كنسبة الغفران له أو الرحمة ، فعلينا أن نقول : كان ولايزال ؛ لأن الفعل مع الله ينحل عن الزمان الماضى وعن الحاضر وعن المستقبل ؛ فهو سبحانه مادام قد كان ، وهو لا تناله الأغيار ، فهو يظل إلى الأبد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

وسبحانه يريد أن يجعل من قضية الإيمان قضية كلية واحدة لا أبعاض فيها ، فليس إعلان الإيمان بالله وحده كافياً لأن يكون الإنسان مؤمناً ؛ لأن مقتضى أن تؤمن بالله يحتاج إلى رسول يعرفك أن الخالق هو الذى سخر لك قوى الكون واسمه الله .

وأنت لا تهتدى إلى معرفة اسم القوة الخالقة لك إلا بوساطة رسول منزل من عند الله .

ونعرف أن عمل العقل فى الاستنباط العقدى عاجز عن معرفة اسم خالق الكون ؛ لأن الإنسان قد طرأ على كون منظم ، وكان من الواجب عليه أن يلتفت لفتة ليعلم القوة التى سبقت هذا الوجود وخلقته وأن الإنسان قد طرأ على وجود متكامل . وقد يسمع الإنسان من أبيه ـ مثلاً ـ أن هذا البيت بناه الأب أو الجد ، وذلك الشىء فعله فلان ابن فلان . لكن لم يسمع أحداً يقول له : « ومن بنى السماء ؟» ولم يسمع أحداً يقول : « ومن خلق الشمس ؟» ، مع أن الناس تدعى ما ليس لها ، فكيف يُترك أعظم ما فى كون الله بدون أن نعرف من أوجده ؟ .

إننا نجد الناس تؤرخ للشىء التافه أو المهم نسبياً فى حياتهم ، نجد دراسات عن تاريخ أحجار ، ودراسات عن تاريخ صناعة الأشياء ؛ تاريخ المصباح الكهربى الذى اخترعه اديسون وقام بتوليد الكهرباء من مصادر ضئيلة ويسيره ، باختصار ، نجد أن كل شىء فى هذا الوجود له تاريخ ، وهذا التاريخ يرجع بالشىء إلى أصل وجوده . وأنت إن نسبت أى صنعة مهما كانت مهمة أو تافهة نكتشف أن واحداً تلقاها عن واحد ، ولم يبتكرها هو دفعة واحدة .

إن كل مبتكر أخذ ما انتهى إليه سابقه وبدأ عملاً جديداً إلى أن وصلت المخترعات بميلادها ، ومن يصدق أن مصباحاً يُضىء وينطفىء ويحترق يصنعه إنسان ونعرف له تاريخاً ، وبعد ذلك ننظر إلى الشمس التى لم تخفت ولم تضعف ولم تنطفىء ولم تحترق ، والمصباح ينير حيزاً قليلا يسيرًا ، والشمس تنير كوناً ووجوداً ، ألا تحتاج الشمس إلى من يفكر فى تاريخها ؟

لقد سبق لنا أن قلنا : إن الإنسان حينما ينظر إلى الكون نظرة بعيدة عن فكرة الدين وبعيداً عن بلاغ الرسل عن الخالق وكيفية الخلق ومنهج الهداية ، فهو يقول لنفسه : تختلف مقادير الناس باختلاف مراكزها وقوتها فيما يفعلون ، هناك من يجلس على كرسى من شجر الجميز . وآخر على كرسى مصنوع من شجر الورد ، وثالث يجلس على حصيرة .

إن الإنسان يعيش بصناعات غيره من البشر حسب قدره ومكانته ؛ فالريفى أو البدوى يشعل النار بصك حديدة بحجر الصوان ويحتفظ بالنار لمدة ليستخدمها لأكثر من مرة ، وعندما يرتقى فى استخدام النار يستخدم « مسرجة » ، ولمّا ازداد تحضرا استخدم « مصباح جاز » بزجاج ولها أرقام تدل على قدرتها على الاضاءة .

فهناك مصباح رقم خمسة ، ورقمها دليل على قوتها الخافتة ، وتتضاعف قوة « المصباح » من بعد ذلك حسب المساحة المطلوب إنارتها . ولمّا ارتقى الإنسان أكثر استخدم « الكلوب » . ولمّا ارتقى أكثر استخدم الكهرباء أو النيون أو الطاقة الشمسية ، فإذا ما أشرقت الشمس فكل إنسان يطفىء الضوء الذى يستخدمه ، فنورها يغنى عن أى نور . وفى الليل يحاول الإنسان أن تكون حالة الكهرباء فى منزله جيدة خشية أن ينقطع سلك ما فيظلم المكان . فما بالنا بالشمس التى لا يحدث لها مثل ذلك .

إننا نجد الإنسان على مر التاريخ يحاول أن يرقى إلى فهم طلاقة قدرة الحق ، وإن لم يأت رسول ، أما أسماء القدرة الخالقة فلا يعرفها أحد بالعقل بل بوساطة الرسل . فاسم « الله » اسم توقيفى . فكيف يتأتى ـ إذن ـ مثل قول هؤلاء : سنؤمن بالله ونكفر برسله ؟ كيف عرفوا ـ إذن ـ أن القوة التى سيؤمنون بها اسمها الله ؟ لا بد أنهم قد عرفوا ذلك من خلال رسول ؛ لأن الإيمان بالله إنما يأتى بعد بلاغ عن الله لرسول ليقول اسمه لمن يؤمن به .

وهل الإيمان بالله كقوة خفية قوية مبهمة وعظيمة يكفى ؟ أو أن الإنسان لا بد له أن يفكر فيما تطلبه منه هذه القوة ؟ وإذا كانت هذه القوة تطلب من الإنسان أن يسير على منهج معين ، فمن الذى يبلغ هذا المنهج ؟

لا بد إذن من الرسول يبلغنا اسم القوة الخالقة ومطلوبها من الإنسان للسير على المنهج ، ويشرح لنا كيفية طاعة هذه القوة . فلا أحد ـ إذن ـ يستطيع أن يفصل الإيمان بالله عن الرسول ، وإلا كان إيماننا بقوة مبهمة . ولا يجترىء صاحب هذا اللون من الإيمان أن يقول : إن اسم هذه القوة « الله » ؛ لأن هذا الاسم يحتاج إلى بلاغ من رسول .

إذن فعندما يسمع أحدنا إنساناً يقول : أنا أؤمن بالله ولكن لا أؤمن بالرسل : علينا أن نقول له : هذا أول الزلل العقلى ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإيمان ببلاغ جاء به رسول ؛ لأن الإيمان بالله لا ينفصل عن الإيمان بالرسول .

والحق سُبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقية المخلوقات ، ولا نجد من يدعى أن آدم هو أول من عمر هذا الوجود .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

ومن الممكن أن نقول : إن هناك خلقاً كثيرًا قد سبقوا آدم فى الوجود ، ولكن آدم هو أول الجنس البشرى . وعندما خلقه الله علمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يسير فى الوجود ، فلو لم يكن قد تعلم الأسماء لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده ، ولما استطاع ـ على سبيل المثال ـ أن يقول لابن من أبنائه : انظر أأشرقت الشمس أم لا ؟

إذن كان لا بد لآدم من معرفة الأسماء كلها من خلال معلم ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يتكلم كلمة إلا بعد أن يكون قد سمعها . والواحد منا سمع من أبيه ، والآباء سمعوا من الأجداد ، وتتوالى المسألة إلى أن تصل إلى آدم ، فممن سمع آدم حتى يتكلم أول كلمة ؟ لا بد أنه الله ، وهذه مسألة يجب أن يعترف بها كل إنسان عاقل . إذن قول الحق فى قرآنه :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

هو كلام منطقى بالإحصاء الاستقرائى ، وهو قول يتميز بمنتهى الصدق .

والإنسان منا عندما يعلم ابنه الكلام يعلمه الأسماء . أما الأفعال فلا أحد يعرف كيف تعلمها . الإنسان يقول لابنه : هذا كوب ، وهذه منضدة ، وذلك طبق ، وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه : « شرب » معناها كذا ، و« أكل » معناها كذا . إذن فالخميرة الأولى للكلام هى الأسماء ، وبعد ذلك تأتى المزاولات والممارسات ليتعلم الإنسان الأفعال .

لقد ترك الحق لنا فى كونه أدلة عظيمة تناسب عظمته كخالق لهذا الكون . والرسول هو الذى يأتى بالبلاغ عنه سبحانه ، فيقول لنا اسم القوة : « الله » ، وصفاتها هى « كذا » ، ومن يطعها يدخل الجنة ، ومن يعصها يدخل النار ، ولو لم يوجد رسول نظل تائهين ولا نعرف اسم القوة الخالقة ولا نعرف مطلوبها ، وهذا ما يرد به على الجماعة التى تعبد الشمس أو تعبد القمر أو النجوم ونقول لهم : هل أنتم تعبدون الشمس ؟ لعلكم فعلتم ذلك لأنها أكبر قوة فى نظركم .

لكن هناك سؤال هو : « ما العبادة » ؟ الإجابة هى : العبادة طاعة عابد لمعبود ، فماذا طلبت منكم الشمس أن تفعلوه وماذا نهتكم ومنعتكم الشمس ألا تفعلوه ؟ ويعترف عبدة الشمس : لم تطلب الشمس منا شيئاً . وعلى ذلك فعبادتهم للشمس لا أساس لها ؛ لأنها لم تحدد منهجا لعبادتها ، ولا تستطيع أن تعد شيئا لمن عبدها ، فإله بلا منهج لا قيمة له . وهكذا نرى أن عبادة أى قوة غير الله هى عبادة تحمل تكذيبها ، والإيمان بالله لا ينفصل أبداً عن الإيمان بالقوة المبلغة عن الله إنها الرسل .

ويشرح الرسول لنا كيف يتصل بهذه القوة الإلهية ، وتشرح القوة الإلهية لنا كيفية اتصاله بالرسول البشرى بوساطة خلق آخر خلقته هذه القوة المطلقة ؛ لأن الرسول من البشر ، والبشر لا يستطيع أن يتلقى عن القوة الفاعلة الكبرى . ونحن نفعل مثل هذه الأشياء فى صناعتنا . ونعلم أن الإنسان عندما يريد أن ينام لا يرغب فى وجود ضوء فى أثناء نومه ، فيتخذ الليل سكنا ويتمتع بالظلمة ، لكن إن استيقظ فى الليل فهو يخاف أن يسير فى منزله بدون ضوء حتى لا يصطدم بشىء ، لذلك يوقد مصباحاً صغيراً فى قوة الشمعة الصغيرة ليعطى نفسه الضوء ، ونسميها « الوناسة » .

ولا نستطيع توصيل هذا المصباح الصغير بالكهرباء مباشرة ، وإنما نقوم بتركيب محول صغير يأخذ من القوة الكهربية العالية ويعطى للمصباح الصغير ، فما بالنا بقوة القوى ؟

إن الله جعل خلقاً آخر هم الملائكة ليكونوا واسطة بينه وبين رسله . وهؤلاء الرسل أعدهم سبحانه إعداداً خاصاً لتلقى هذه المهمة . إذن فالذين يريدون أن يؤمنوا بالله ثم يكفروا برسله نقول لهم : لا ، هذا إيمان ناقص . ووضع الحق

سبحانه وتعالى الإيمان بالرسل كلهم فى صيغة جمع حتى لا تفهم كل أمة أن رسولها فقط هو الرسول المنزل من عند الله ، بل لا بد أن تؤمن كل أمة بالرسل كلهم ؛ لأن كل رسول إنما جاء على ميعاده من متطلبات المجتمع الذى يعاصره ، وكلهم جاءوا بعقائد واحدة ، فلم يأت رسول بعقيدة مخالفة لعقيدة الرسول الآخر ؛ وإن اختلفوا فى الوسائل والمسائل التى تترتب عليها الارتقاءات الحياتية . وقد خلق الحق أولاً سيدنا آدم وخلق منه زوجته حواء ، اثنين فقط ثم قال سبحانه :

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

كان الاثنان يعيشان معاً وأنجبا عدداً من الأبناء ، وتناسل الأبناء فصار مطلوباً لكل أسرة من الأبناء بيتاً ، وكل بيت فيه أسرة يحتاج إلى رقعة من الأرض ليستخرج منها أفراد الأسرة خيرات تكفى الطعام . وكل فرد يحتاج على الأقل إلى نصف فدان ليستخرج منه حاجته للطعام . وكلما كثر النسل اتسعت رقعة الوجود بالمواصلات البدائية ، فهذا إنسان ضاقت به منطقته فرحل إلى منطقة أخرى فيها مطر أكثر ليستفيد منه أو خير أكثر يستخرجه . وتنتشر الجماعات وتنعزل . وصارت لكل جماعة عادات وتقاليد وأمراض ومعايب غير موجودة فى الجماعة الأخرى . ولذلك ينزل الحق سبحانه وتعالى رسولاً إلى كل جماعة ليعالج الداءات فى كل بيئة على حدة . وسخر الحق سبحانه وتعالى بعض العقول لاكتشافات الكون ، وبعد ذلك يصبح الكون قطعة واحدة ، فالحدث يحدث فى أمريكا لنراه فى اللحظة نفسها فى مصر . وزادت الارتقاءات . ولذلك كادت العادات السيئة تكون واحدة فى المجتمع الإنسانى كله ، فتظهر السيئة فى أمريكا أو ألمانيا لنجدها فى مجتمعنا . إذن فالارتقاءات الطموحية جعلت العالم وحدة واحدة : آفاته واحدة ، وعاداته واحدة . وعندما يأتى الرسول الواحد يشملهم كلهم .

ولذلك كان لا بد أن يأتى الرسول الخاتم الجامع صلى الله عليه وسلم ؛ لأن العالم لم يعد منعزلاً ، ليخاطب الجمع كله ، وهو خير الرسل ، وأمته خير الأمم إن اتبعت تعاليمه . ومن ضرورة إيمان رسول الله والذين معه أن يؤمنوا بمن سبق من الرسل . والذين يحاولون أن يفرقوا بين الرسل هم قوم لا يفقهون . فاليهود آمنوا بموسى عليه السلام وأرهقوه وكفروا بعيسى . وعندما جاء عيسى عليه السلام آمن به بعض ،

وعندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم آمن به بعض وكفر به بعض . ولذلك سمى الحق كفرهم بالنبى الخاتم : (ثم ازدادوا كفراً) . أى أنه كفر فى القمة ، فلن يأتى نبى من بعد ذلك . واكتمل به صلى الله عليه وسلم موكب الرسالات .

إذن فالمراد من الآية أن الإيمان فيه إيمان قمة ، تؤمن بقوة لكنك لا تعرف اسم هذه القوة ولا مطلوبات هذه القوة ولا ما أعدته القوة من ثواب للمطيع ولا من عقاب للعاصى . ولذلك كان ولا بد أن يوجد رسول ؛ لأن العقل يقود إلى ضرورة الإيمان بالله والرسل . وجاء الرسل فى موكب واحد لتصفية العقيدة الإيمانية لإله واحد ، فلا يقولن واحد : لقد آمنت بهذا الرسول وكفرت ببقية الرسل . والآية التى نحن بصددها الآن تتعرض لذلك فتقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

ونحن نعلم أن « كفر » معناها « ستر » . والستر ـ كما نعلم ـ يقتضى شيئا تستره ، والشىء الذى يتم ستره موجود قبل الستر لا بعد الستر . والذى يكفر بوجود الله هو من يستر وجود الله ؛ فكأن وجود الله قد سبق الكفر به . إذن فكلمة الكفر بالله دليل على وجود الله . ونقول للكافر : ماذا سترت بكفرك ؟ وستكون إجابته هى : « الله » . أى أنه آمن بالله أولاً .

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله » هم الحمقى ؛ لأن هذا أمر غير ممكن ، وكل رسول إنما جاء ليصل المرسل إليهم بمن أرسله . ولذلك نجد قوله الحق :

﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

إنه حدث واحد من الله ورسوله . لذلك نجد أن الحمقى هم من يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله : « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض » لهؤلاء نقول : إن الإيمان قضية كلية ، فموكب الرسالة من الحق سبحانه وتعالى يتضمن عقائد واحدة

ثابتة لا تتغير . والحق يقول :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة النساء)

وهذا يؤكد أن قضايا العقائد إنما جاءت من نبع واحد لعقيدة واحدة . فماذا - إذن - يريدون بمسألة الإيمان ببعض الرسل والكفر بالبعض الآخر ؟ يريدون السلطة الزمنية . وكان القائمون على أمر الدين قديماً هم الذين يتصرفون فى كل أمر ، فى القضاء وفى الهندسة وفى كل شيء ، لذلك وثق فيهم الناس على أساس أنهم المبلغون عن الله الذين ورثوا النبوات وعرفوا العلم عن الله . ونجد العلوم الارتقائية فى الحضارات القديمة كحضارة قدماء المصريين كالتحنيط وغيرها تلك التى مازالت إلى الآن لغزاً ، إنما قام بأمرها الكهنة ، وهم - كما نعلم - المنسوبون إلى الدين . كأن الأصل فى كل معلومات الأرض هى من هبة السماء . لماذا إذن أخرج البشر وسنّوا قوانين من وضعهم ؟ لقد فعل البشر ذلك لأن السلطة الزمنية استولى عليها رجال الدين .

ما معنى كلمة « سلطة زمنية » . كان الناس يلجأون إلى رجل الدين فى كل أمورهم ، ويفاجأ رجل الدين بأنه المقصود من كل البشر ، ويغمره الناس بأفضالهم ويعطونه مثل القرابين التى كانت تعطى للآلهة ، فيعيش فى وضع مرفّه هو وأهله ويزداد سمنة من كثرة الطعام والمتعة . وعندما يأتى إليه أحد فى مسألة فهو يحاول أن يقول الرأى الذى يؤكد به سلطته الزمنية ، فإذا ما جاء رسول ليلغى هذه الامتيازات ، يسرع بتكذيبه ؛ ليظل - كرجل كهنوت - على قمة السلطة . ولذلك قال فيهم الحق :

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

أى استبدلوا بآيات الله ثمنا قليلا من متاع الدنيا . فأخذوا الشيء الحقير من متاع الدنيا وتركوا آيات الله دون أن يعملوا بها .

وعندما نبحث فى تاريخ القانون . نجد قانوناً إنجليزياً وآخر فرنسياً أو رومانياً ، ونجد أن المصادر الأولى لهذه القوانين هى ما كان يحكم به الكهنة . والذى جعل

الناس تنعزل عن الكهنة هو استغلالهم للسلطة الزمنية . والتفت البشر الذين عاصروا هؤلاء الكهنة أن الواحد منهم يقضى فى قضية بحكم ، ثم يقضى فى مثيلاتها بحكم مخالف ، ويغير من حكمه لقاء ما يأخذ من أجر ، فتشكك فيهم الناس ، وعرفوا أنهم يلوون الأحكام حسب أهوائهم ؛ لذلك ترك الناس حكم الكهنة ، ووضعوا هم القوانين المناسبة لهم .

إذن فالسلطة الزمنية هى التى جعلت من أتباع بعض الرسل يتعصبون لرسلهم . فإذا ما جاء رسول آخر ، فإن أصحاب السلطة الزمنية يقاومون الإيمان برسالته حتى لا يأخذ منهم السلطة الزمنية . ولذلك يعادونه ؛ لأن الأصل فى كل رسول أن يبلغ أتباعه والذين آمنوا به ، أنه إذا جاء رسول من عند الله فعليكم أن تسارعوا أنتم إلى الإيمان به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا أخذ الله الميثاق من النبيين بضرورة البلاغ عن موكب الرسالة حتى النبى الخاتم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى أنهم يحاولون أن يفرقوا بين الله ورسله بأحكامهم التى كانوا يتبعون فيها أهواءهم للإبقاء على السلطة الزمنية ، من أجل أن يقيموا أمراً هو بين بين ، وليس فى الإيمان « بين بين » ؛ فإما الإيمان وإما الكفر . والنظرة إلى كل هذه الآية نجدها فى معظمها معطوفات ، ولم يتم فيها الكلام وهى فى كليتها مبتدأ ، لا بد لها من خبر ، ويأتى الخبر فى الآية التالية :

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾

و« الكافرون حقاً » مقصود بها أن حقيقة الكفر موجودة فيهم ؛ لأننا قد نجد من يقول : وهل هناك كافر حق ، وكافر غير ذلك ؟ نعم . فالذى لا يؤمن بكل رسالات السماء قد يملك بعضاً من العذر ، لأنه لم يجد الرسول الذى يبلغه . أما الذى جاءه رسول وله صلة إيمانية به ؛ وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحى ، فإن كفر هذا الإنسان فكفره فظيع مؤكد . « أولئك هم الكافرون حقاً » .

ونلحظ أن الحق ساعة يتكلم عن الكافرين لا يعزلهم عن الحكم والجزاء الذى ينتظرهم ، بل يوجد الحكم معهم في النص الواحد . ولا يحيل الحق الحكم إلى آية أخرى : « أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » وقد جاء هنا بالجزاء على الكفر ملتصقاً بالكفر ، فسبحانه قد جهز بالفعل العذاب المهين وأعَدّه للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوفه . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الجنَّة عرضت عليّ ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت »[1]

لقد أعد الحق الجنة والنار فعلاً وعرضها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو شاء الرسول أن يأتى المؤمنين بقطاف من ثمار الجنة لفعل . فإياكم أن تعتقدوا أن الله سيظل إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرى كم واحداً قد كفر فيعد لهم عذاباً على حسب عددهم ، أو كم واحداً قد آمن فيعد لهم جنة ونعيماً على قدر عددهم ، بل أعد الحق الجنة على أن كل الناس مؤمنون ولهم مكان فى الجنة ، وأعد النار على أن كل الناس كافرون ولهم أماكن فى النار . فيأتى المؤمن للآخرة ويأخذ المكان المعد له ، ويأخذ أيضاً بعضاً من الأماكن فى الجنة التى سبق إعدادها لمن كفر . مصداقاً لقوله الحق :

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

---

(١) رواه البخارى فى الأذان ، وابن ماجه فى الإقامة ، وأحمد .

فسبحانه لم ينتظر ولم يؤجل المسألة إلى حد عمل الإحصائية ليسأل من الذى آمن ومن الذى كفر ، ليعد لكل جماعة حسب تعدادها ناراً أو جنة ، بل عامل خلقه على أساس أن كل الذى يأتى إليه من البشر قد يكون مؤمناً ، لذلك أعد لكل منهم مكاناً فى الجنة ، أو أن يكون كافراً ، فأعد لكل منهم مكاناً فى النار . ونجد السؤال فى الآخرة للنار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾

(سورة ق)

فالنار تطلب المزيد للأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخلها لأنه آمن بالله . ويرث الذين آمنوا الأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخل الجنة لأنه كفر بالله وبرسله وفرق بين الله ورسله وقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويأتى من بعد ذلك المقابل للذين كفروا بالله ورسله وهم المؤمنون ، هذا هو المقابل المنطقى .

والمجىء بالمقابلات أدعى لرسوخها فى الذهن . مثال ذلك عندما ينظر مدير المدرسة إلى شابين ، كل منهما فى الثانوية العامة ، فيقول : فلان قد نجح لأنه اجتهد ، والثانى قد خاب وفشل . هذه المفارقة تحدث لدى السامع لها المقارنة بين سلوك الاثنين .

وهاهو ذا الحق يأتى بالمقابل للكافرين بالله ورسله :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) ﴾

ويؤكد الحق هنا على أمر واضح : هو : « ولم يفرقوا بين أحد منهم » وكلمة « أحد » فى اللغة تطلق مرة ويراد بها المفرد ، ومرة يراد بها المفردة ، ومرة يراد بها المثنى مذكراً أو المثنى مؤنثاً أو جمع الإناث وجمع التذكير . وهكذا تكون « أحد » فى

هذه الآية تشمل كل الرسل ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النساء)

فكلمة أحد يستوى فيها المذكر والمؤنث والمثنى والمفرد والجمع . وكما قال الحق عن الذين يكفرون بالله ورسله أو يفرقون بين الرسل : « أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً » . يقول الحق فى هذه الآية عن الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم : « أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » فكل مقابل قد جاء معه حُكْمُه . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ ﴾

هذا خطأ منهم فى السؤال ، وكان المفروض أن يكون : يسألك أهل الكتاب أن تسأل الله أن ينزل عليهم كتاباً . وقد حاول المشركون فى مكة أن يجدوا فى القرآن ثغرة فلم يجدوا وهم أمة فصاحة وبلاغة ولسان ، واعترفوا بأن القرآن عظيم ولكن الآفة بالنسبة إليهم أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

هم اعترفوا بعظمة القرآن ، واعترافهم بعظمة القرآن مع غيظهم من نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم مضطربين فكرياً ، لقد اعترفوا بعظمة القرآن بعد أن نظروا إليه . . فمرة قالوا : إنه سحر ، ومرة قالوا : إنه من تلقين بعض البشر ، وقالوا : إنه شعر ، وقالوا : إنه من أساطير الأولين . وكل ذلك رهبة أمام عظمة القرآن . ثم أخيرا قالوا : ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ .

ولكن ألم يكن هو القرآن نفسه الذى نزل ؟ إذن . فالآفة ـ عندهم ـ أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك من الحسد :

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النساء)

لأن قولهم لا يتسم أبداً بالموضوعية ، بل كل كلامهم بُعْدٌ عن الحق وتخبط . لقد قالوا مرة عن القرآن : إنه سحر ، وعندما سألهم الناس : لماذا لم يسحركم القرآن إذن ؟ فليس للمسحور إرادة مع الساحر . ولم يجدوا إجابة . وقالوا مرة عن القرآن : إنه شعر ، فتعجب منهم القوم لأنهم أمة الشعر ، وقد سبق لهم أن علقوا المعلقات على جدار الكعبة ، لكنه كلام التخبط .

إذن فالمسألة كلها تنحصر فى رفضهم الإيمان ، فإذا أمسكتهم الحجة من تلابيبهم فى شيء ، انتقلوا إلى شيء آخر .

ويوضح سبحانه : إن كانوا يطلبون كتاباً فالكتاب قد نزل ، تماماً كما نزل كتاب من قبل على موسى . وماداموا قد صدقوا نزول الكتاب على موسى ، فلماذا لا يصدقون نزول الكتاب على محمد ؟ ولا بد أن هناك معنى خاصاً وراء قوله الحق : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . ونعلم أن الكتاب نزل على موسى مكتوباً جملة واحدة ، وهم كأهل كتاب يطلبون نزول القرآن بالطريقة نفسها ، وعندما ندقق فى الآية نجدهم يسألون أن ينزل عليهم الكتاب من السماء ؛ وكأنهم يريدون أن يعزلوا رسول الله وأن يكون الكلام مباشرة من الله لهم ؛ لذلك يقول الحق فى موقع آخر :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

الحق ـ إذن ـ قسم الأمور فى الحياة الدنيا ، فكيف يتدخلون فى مسألة الوحى وهو من رحمة الله : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . وهم قد نسبوا التنزيل إلى رسول الله ، ورسول الله ما قال إنى نزّلْت ، بل قال : « أنزل علىّ » .

ويقال فى رواية من الروايات أن كعب بن الأشرف والجماعة الذين كانوا حوله أرادوا أن ينزل الوحى على كل واحد منهم بكتاب ، فيقول الوحى لكعب : « يا كعب آمن بمحمد » .

ويُنَزِّلُ إلى كل واحد كتاباً بهذا الشكل الخصوصى . أو أن ينزل الله لهم كتاباً مخصوصاً مع القرآن . وكيف يطلبون ذلك وعندهم التوراة ، ويوضح الله تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم : لا تستكثر منهم يا محمد أن يسألوك كتاباً ينزل عليهم لأنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وطلبهم تنزيل الكتاب ، هو طلب لفعل من الله ، وقد سبق لهم الغلو أكثر من ذلك عندما قالوا لموسى : (أرنا الله جهرة) . وهم بمثل هذا القول تعدوا من فعل الله إلى ذات الحق سبحانه وتعالى ، لذلك لا تستكثر عليهم مسألة طلبهم لنزول كتاب إليهم ، فقد سألوا موسى وهو رسولهم رؤية الله جهرة : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .

ولحظة أن ترى كلمة « الصاعقة » تفهم أنها شىء يأتى من أعلى ، يبدأ بصوت مزعج . وقلنا من قبل أثناء خواطرنا حول آية فى سورة البقرة :

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ ﴾

(من الآية ١٩ سورة البقرة)

أى أنهم يضعون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق ، وهذا دليل على أن صوت

الصاعقة مزعج قد يخرق طبلة الأذن ، ودليل على أن ازعاج الصاعقة فوق طاقة الانسداد بأصبع واحدة ؛ لأن الإنسان ساعة يسد أذنيه يسدها بطرف الأصبع لا بكل الأصابع . وبلغ من شدة ازعاج الصوت أنهم كلما وضعوا أناملهم فى آذانهم لم يمتنع الصوت المزعج .

إذن فالصاعقة صوت مزعج يأتى من أعلى ، وبعد ذلك ينزل قضاء الله إما بأمر مهلك وإمّا بنار تحرق وإما بريح تدمر « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » والظلم هو أن تجعل حقاً لغير صاحبه ؛ ولا تجعل حقاً لغير صاحبه إلا أن تكون قد أخذت حقاً من صاحبه . وسؤالهم هذا لون من الظلم ؛ لأن الإدراك للأشياء هو إحاطة المُدْرِك بالمُدْرَك .

وحين تدرك شيئاً بعينك فمعنى ذلك أن عينك أحاطت بالشيء المدَرَك وحيَّزته بالتفصيل ، وكذلك الأذن عندما تسمع الصوت ، وكذلك الأنف عندما تشم الرائحة ، وكذلك اللمس لمعرفة النعومة أو الخشونة ، وكذلك الذوق ليحس الإنسان الطعم . إذن فمعنى الإدراك بوسيلة من الوسائل أن تحيط بالشيء المُدْرَك إحاطة شاملة جامعة .

فإذا كانوا قد طلبوا أن يروا الله جهرة ، فمعنى ذلك أنهم طلبوا أن تكون آلة الإدراك وهى العين محيطة بالله . وحين يحيط المُدْرِك بالمُدْرَك ، يقال قدر عليه . وهل ينقلب القادر الأعلى مقدوراً عليه ؟ حاشا لله . وذلك مطلق الظلم ونهايته ، فمن الجائز أن يرى الإنسان إنسانا ، ولكن لا يستقيم أبدا ولا يصح أن ينقل الإنسان هذه المسألة إلى الله ، لماذا ؟ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

ومادام الله إلها قادراً فلن ينقلب إلى مقدور .

ونحن إن أعطينا لواحد مسألة ليحلها ، فهذا معناه أن فكره قد قدر عليها . وأما إذا أعطيناه مسألة ولم يقدر على حلها ففكره لم يقدر عليها . إذن فكل شيء يقع تحت دائرة الإدراك ، يقول لنا : إن الآلة المدرِكة قد قدرت عليه .

والحق سبحانه وتعالى قادر أعلى لا ينقلب مقدوراً لما خلق . « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » . وكان يكفى بعد أن أخذتهم الصاعقة أن يتأدبوا ولا يجترئوا على الله ، ولكنهم اتخذوا العجل من بعد جاوز الحق بهم البحر وعَبره بهم تيسيرا عليهم وتأييداً لهم وأراهم معجزة حقيقية ، بعد أن قالوا :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

فقد كان البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ولا مفر من هلاكهم ؛ لأن المنطق الطبيعى أن يدركهم فرعون ، وآتى الله سيدنا موسى إلهامات الوحى ، فقال :

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لقد لجأ موسى إلى القانون الأعلى ، قانون الله ، فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر ، ويتفرق البحر وتصير كل فرقة كالطود والجبل العظيم ، وبعد أن ساروا فى البحر ، وأغرق فرعون أمامهم ، وأنجاهم سبحانه ، لكنهم من بعد ذلك كله يتخذون العجل إلهاً !!

هكذا قابلوا جميل الله بالنكران والكفران . « ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين الذى آتاه الله لموسى عليه السلام هو التسلط والاستيلاء الظاهر عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم ، وجاءوا بالسيوف لأن الله قد أعطى سيدنا موسى قوة فلا يخرج أحد عن أمره ، والقوة سلطان قاهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا

مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

إذن اجتراؤهم فى البداية كان فى طلب رؤية الله جهرة ، ثم العملية الثانية وهى اتخاذهم العجل إلها . ويعالج الله هؤلاء بالأوامر الحسية ، لذلك نتق الجبل فوقهم :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

مثل هؤلاء لا يرضخون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فإما أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة وينفذوا المطلوب منهم ، وإما أن ينطبق عليهم الجبل ، وهكذا نرى أن كل اقتناعاتهم نتيجة للأمر المادى ، فجاءت كل الأمور إليهم من جهة المادة . « وقلنا ادخلوا الباب سجدا » . أى أن يدخلوا ساجدين ، وهذا إخضاع مادى أيضاً . وكان هذا الباب الذى أمرهم موسى أن يدخلوه ساجدين هو باب قرية أريحا فى الشام . « وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت » وسبحانه قال عنهم :

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « السبت » لها اشتقاق لغوى من « سبت » و« يسبت » أى سكن وهدأ . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الفرقان)

أى جعل النوم سكنا لكم وقطعا لأعمالكم وراحة لأبدانكم . « وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت » أى نهاهم الله أن يصطادوا فى يوم السبت . ويأتى يوم السبت فتأتيهم الحيتان مغرية تخرج أشرعتها من زعانفها وهى تعوم فوق الماء ، أو تظهر على وجه الماء من كل ناحية ، وهذا من الابتلاءات . « ويوم لا يسبتون لا تأتيهم » أى أن الأيام التى يكون مسموحاً لهم فيها بالصيد لا تأتى لهم الأسماك ، ولذلك يحتالون ويصنعون الحظائر الثابتة من السلك ليدخلها السمك يوم السبت ولا يستطيع الخروج منها .

لقد احتالوا على أمر الله . هكذا يبين الحق سبحانه وتعالى مراوغة بنى إسرائيل . وفعل الله بهم كل ذلك ولكنهم احتالوا وتمردوا وردّوه ، وحين يهادن الحق القوم الذين يدعوهم إلى الإيمان فسبحانه يُقَدر أنه خلقهم ويُقدر الغريزة البشرية التى قد يكون من الصعب أن تلين لأول داع ، فهو يدعوها مرة فلا تستقبل ، فيعفو . ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو ، ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو . وأخذ الله عليهم العهد الوثيق المؤكد بأن يطيعوه ولكنهم عصوا ونقضوا العهد ، وبعد ذلك يقول لنا الخبر لنتعلم أن الله لا يمل حتى تملوا أيها البشر . فسبحانه يقول من بعد ذلك :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾

لقد نقضوا كل المواثيق والأشياء التى تقدمت . ومعنى الميثاق هو العهد المؤكد الموثق . ونقض الميثاق هو حله ، وهذا ما يستوجب ما يهددهم الله به ، وكفروا بآيات الله التى أنزلها لتؤيد موسى عليه السلام ، وقتلوا أنبياء الله بغير حق . وادعوا ـ تعليلاً لذلك ـ أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية ، أى أن قلوبهم مغلفة مغطاة أى جُعل عليها غلافٌ ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ولا يدخل فيها ما هو خارج عنها . وأرادوا بذلك الاستدراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال ولا يدخل فيها إيمان . وسبق أن تقدم مثل هذا فى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونقول : أهى القلوب خُلقت غلفاً . . أى أن القلوب خلقت مختوماً عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ، أم أنتم الذين فعلتم الختم وأنتم الذين صنعتم الغلاف ؟

وسبحانه أوضح فى آيتى سورة البقرة أنه جل وعلا الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . فالختم على القلب حتى لا يتعرفوا إلى الدليل ؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد . والختم على الأسماع والأبصار هو الختم على آلات إدراك الدلائل البينات على وجود الحق الأعلى ؛ فمقر العقائد مختوم عليه وهو القلب ، ومضروب على الآذان وعلى البصر غشاوة ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا ؛ لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين فلماذا خصّهم الله بذلك التكوين ؟ ولماذا لم يكن الذين اهتدوا مختوماً لا على قلوبهم ولا على أسماعهم ولا على أبصارهم ؟

غير أن الواحد منهم يبرر لنفسه وللآخرين انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول : « خلقنى الله هكذا » وهذا قول مزيف وكاذب ؛ لأن صاحبه إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ؛ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً فهو للشريك وليس لله . إذن فالختم جاء كنتيجة للكفر .

وقدمت آيات سورة البقرة الحيثية : أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتى الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وهنا فى آية سورة النساء : « وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . فالكفر جاء أولاً ، وفى ذلك رد على أى إنسان يقول : « إن الله لا يهدينى » . ولا يلتفت إلى أن الله لا يهدى من كفر به ، وكذلك الفاسق أو الظالم ، والمثال الأكبر على ذلك إبليس الذى كفر أولاً ، وبعد ذلك تركه الله لنفسه واستغنى عنه .

ولنا هنا وقفة لفظية مع قوله الحق : « فبما نقضهم » لأن الفهم السطحى لأصول الأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت « ما » هنا ؟ وبعضهم قال : إن « ما » هنا زائدة . ونقول : إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ؛ لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده ويكون فضولاً وزائدا على الحاجة ولا فائدة فيه ، ولكن عليك أن تقول : « أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف » ، خصوصاً ونحن فى هذا العصر نعيش

كأمة بلاغتها مصنوعة ، ولا نملك اللسان العربى المطبوع . ولولا أننا تعلمنا العربية لما استطعنا أن نتكلمها . أما العربى الفصيح الذى نزل عليه القرآن فقد كان يتكلم اللغة العربية دون أن يجلس إلى معلم ، ولم يتلق العلم بأن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب بل تكلم اللغة بطبيعته وملكته .

أما نحن فنعيش فى زمن مختلف . وطغت علينا العجمة وامتلأت آذاننا باللحن ، وصرنا نُعلّم أنفسنا قواعد اللغة العربية حتى نتكلم بأسلوب صحيح .

وقد جاءت القواعد فى النحو من الاستنباط من السليقة العربية الأولى التى كانت بغير تعليم . واستقرأ العلماء الأساليب العربية فوجدوا أن الفاعل مرفوع والمثنى يُرفع بالألف ، وجمع المذكر السالم يُرفع بـ « الواو » ؛ وهكذا أخذنا القواعد من الذين لا قواعد لهم بل كانوا يتكلمون بالسليقة وبالطبيعة والملكة .

لقد سمع العربى قديماً ساعة نزل القرآن قوله الحق : « فبما نقضهم » ولم يتنبه واحد منهم إلى أن شيئاً قد خرج عن الأسلوب الصحيح ، ونعلم أن بعضاً من العرب كانوا كافرين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصدقون القرآن ، ولو كانت هناك كلمة واحدة تخرج عن المألوف فى اللغة لصرخوا بها وأعلنوها . ولكن القرآن جاء بالكلام المعجز على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغهم به ، موضحاً : جئت بالقرآن معجزة تعجزون عن محاكاته ؛ مع أنكم عرب وفصحاء .

والمتحدِّى يحاول دائماً أن يتصيد خطأ ما ، ولم يقل واحد من العرب إن فى القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب القرآنى يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق : « فبما نقضهم » هى فى الأصل : بنقضهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه ، و« ما » جاءت هنا لماذا ؟ قال بعض العلماء : إنها « ما » زائدة ، وهى زائدة للتأكيد . ونكرر : إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ، لقد جاءت « ما » هنا لمعنى واضح . والحق فى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿ مَا جَاءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وقالوا : إن أصل العبارة « ما جاءنا بشير » ، وإن « مِن » جاءت زائدة حتى يتسق اللفظ . ونقول : لو أن العبارة جاءت كما قالوا لما استقام المعنى ، ولإيضاح ذلك أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يقول واحد : « ما عندى مال » فهذا نفى أن يكون عند القائل مال ، ولعل لديه قدًرا من المال القليل الذى لا يستأهل أن يسميه مالاً . ولكن إذا قال واحد : « ما عندى من مال » فالمعنى أنه لا يملك المال على إطلاقه أى أنه مفلس تماماً ، ولا يملك أى شيء من بداية ما يقال إنه مال . إذن « ما جاءنا بشير » ليست مثل قوله : « ما جاءنا من بشير » . فالمعنى أنه لم يأتهم أى رسول بشير أو نذير من بداية ما يقال إنه رسول .

إذن فقوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم » أى بسبب نقض الميثاق فعلنا بهم كذا . لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة ؟ السبب فى ذلك هو وجود ما بعد « الباء » وقبل المصدر ، أى أنهم نقضوا العهد بكل صورة من صوره ، فنقض العهد والميثاق له صور متعددة فـ (ما) هنا استفهامية جاءت للتعجيب أى على أيَّة صورة من صور نقض ونكث العهد لعناهم ؟ لعناهم لكثرة ما نقضوا من العهود والمواثيق . والحق قد قال :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولم يقل : فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، طبع الله على قلوبهم . فوجود « بل » يدلنا على أن هناك أمراً أضربنا عنه . فنحن نقول : جاءنى زيد بل عمرو . أى أن القائل قد أخطأ ، فقال : « جاءنى زيد » واستدرك لنفسه فقال : « بل عمرو » . وبذلك نفى مجىء زيد وأكد مجىء عمرو .

والحق قال : « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . كان المقتضى فى الأسلوب العادى أن يقول : « بكفرهم وبقتلهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم » . ولكن سبحانه لم يقل ذلك لحكمة بالغة . وحتى نعرف تلك الحكمة فلنبحث عن المقابل لـ « طبع الله على قلوبهم » ، المقابل هو « فتح الله على قلوبهم بالهدى » .

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم : (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها) .

وهكذا نرى عظمة القرآن الذى يأتى بالمعنى الدقيق ويجب أن نفكر فيه ونتدبر كل كلمة منه .

الحق ـ إذن ـ يقدم الأسباب لما صنعه بهم بالحيثيات ، من نقضهم للميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وبقتلهم للأنبياء بغير حق ؛ لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى ، بل طبع الله على قلوبهم بالكفر . فوجود « بل » دليل على أن هناك أمراً قد نفى وأمراً قد تأكد . والأمر الذى نفاه الله عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان ، والأمر الذى تأكد أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر . وفى آية أخرى قال عنهم :

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فقلوبهم ليست غلفاً ، ولكن هى لعنة الله لهم وإبعاده لهم وطردهم واستغناؤه عنهم ؛ لذلك تركهم لأنفسهم فغلبت عليهم الشهوات . ولماذا ذيل الحق الآية بقوله : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » ؟ لأن المقصود به عدم إغلاق باب الإيمان على إطلاقه أمام هؤلاء الناس ، وهو ـ كما عرفنا من قبل ـ « صيانة الاحتمال » . فقد يعلن واحد من هؤلاء إيمانه الذى خبأه فى نفسه ، فكيف يجد الفرصة لذلك إن كان الله قد قال عنهم جميعاً « طبع الله على قلوبهم » ؟

إن الذى يَرْغَبُ فى إعلان الإيمان منهم لا يجد الباب مفتوحاً ، ولكن عندما يجد الحق قد قال : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » فهو يعلم أن باب الإيمان مفتوح للجميع . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

ويقول قائل : ألم يقل الحق من قبل إن « كفرهم » هو سبب من أسباب طبع الله

على قلوبهم ؟ وأقول : إياك أن تقول إن هناك كلمة فى القرآن مكررة لأن الذى يتكلم هو الله سبحانه وتعالى الذى لا ينسى شيئاً ، ولا يكرر من غير داع ، والكفر أيضاً على درجات ، مرة يكون الكفر بالله ، ومرة يكون الكفر بآيات الله ، وثالثة يكون الكفر بالرسل ، ورابعة يكون الكفر ببعض النبيين ، وخامسة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية .

إذن فألوان الكفر شتى . والكفر فى الآية السابقة كان كفراً بآيات الله ، أما كفرهم فى هذه الآية فالحق يشرحه : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » . لقد كفروا بعيسى عليه السلام ، وقالوا البهتان العظيم على مريم ، هذا كفر بآيات الله وبرسول من عند الله .

وقوله الحق : « وبكفرهم » هو عطف على « نقضهم » وعلى « كفرهم بآيات الله » وعلى « قتلهم الأنبياء » وعلى « قولهم قلوبنا غلف » . ونلاحظ هنا أن الحق لم يذكر الباء التى جاءت فى أول الآية السابقة حين قال : « فبما نقضهم ميثاقهم » .

وهذا يدل على أننا أمام مناط الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى . فقد كان يكفى ارتكابهم لأى واحدة من هذه الأعمال المذكورة لكى يطبع الله على قلوبهم ، ولكنهم ارتكبوا كل الأعمال المذكورة مجتمعة ، ولم يرتكبوا فعلاً واحداً منها . وهذا دليل على أن الله لا يترصد لعبيده ، ولا يتصيد ويحتال ليوقعهم فى الكفر ولكن يحنن العباد إلى الإيمان .

لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة : نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وادعوا أن الله طبع على قلوبهم .

وحين جعل هذه الأفعال الأربعة جريمة واحدة فهذا فضل ورحمة منه .

وبعد ذلك يذكر لهم جريمة أخرى : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » وهنا نجد أنه سبحانه قد ساوى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة ؛ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة عيسى عليه السلام وهو نبى من أولى العزم

من الرسل بأشياء قد تكون ضمن الأسباب التى فتنت بعض الناس فيه ، لقد خلقه الله خلقاً خاصاً . فسبحانه خلق الناس جميعاً من آدم عليه السلام الذى صوره الله من طين ثم نفخ فيه الروح ، وجاء الخلق من التزاوج .

أما عيسى عليه السلام فقد خلقه الله بطريقة خاصة ، فكيف كفروا به وكيف يتهمون أمه مريم عليها السلام وهى البتول ؟ .

ومن الجائز أن تُتهم المرأة وترمى وتوصف بكل شيء : كاذبة ، سارقة ، أو دميمة ، لكن الاتهام فى العرض : لا . والحق هنا يحدد موضوعين للكفر : قولهم البهتان على مريم وهو كفر بالله ، وكفرهم بعيسى الذى جاء بميلاد على غير طريقة الميلاد العادية على الرغم من أن هذا تكريم له ولذع لليهود الذين غرقوا فى المادية حتى إنهم قالوا : (أرنا الله جهرة) .

بل إن الحق رزقهم برزق غيبى لا يعرفون أسبابه : فى التيه رزقهم بالمن والسلوى ، والمن فى لون القشدة وطعم العسل الأبيض وهو شيء يقع على أوراق الشجر فى بعض البيئات ، والسلوى طائر يشبه السُّمانى ، وكانوا يأخذون المن من الأشجار ويجمعونه ويأكلونه رزقاً يأتيهم ولا يزرعونه ولا يتعبون فيه . لكنهم قالوا : لا ، نحن نريد أن نزرع نباتاً ينمو من الأرض ولا ننتظر الغيب ، لأن الغيب قد يضن علينا .

﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

هم ـ إذن ـ لا يثقون بما فى يد الله ، ويريدون الأمر المادى ، ولذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى لفتة قسرية ، ويأتى بأمر يناقض قانون المادة من أساسه ؛ وهو ميلاد عيسى عليه السلام بأسلوب غير تقليدى ، والإنسان يأتى إلى الدنيا من أب وأم ، ويأتى الحق بعيسى مخلوقاً من أم دون أب ، فانتقضت المادية ، وهم كماديين غفلوا عن الخلق الأول :

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن فلماذا الفتنة فى عيسى عليه السلام ؟. لقد نقض أمامهم الأساس التقليدى المادى لمجىء الإنسان إلى الدنيا من ذكر وأنثى ، وجاء عيسى عليه السلام من أم دون أب . ليثبت سبحانه طلاقة القدرة وأنه جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر مُسَبَّباً فعليهم أن يأخذوا الأسباب ، أما سبحانه وتعالى فهو مسبِّبُ الأسباب وخالقها وهو القادر ـ وحده ـ على ايجاد الشىء بتنحية كل الأسباب .

ونعلم أن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء ، إما أن ينشأ الشىء من وجود الشيئين ، هذه هى الصورة الأولى . وإما أن ينشأ الشىء من عدم وجود الشيئين وهذه هى الصورة الثانية . وإما أن ينشأ الشىء من وجود الشىء الأول وعدم وجود الشىء الثانى ، وهذه هى الصورة الثالثة ، وإما أن ينشأ الشىء من وجود الشىء الثانى مع عدم وجود الشىء الأول ، وهذه هى الصورة الرابعة .

تلك هى الصور الأربع لوجود شىء ما . ولم يشأ الله أن يجعل الخلق ـ وهو الإنسان المكرم الذى سخر له الحق كل ما فى الكون ـ على نحو واحد ؛ حتى لا يقولن أحد : إن السببية مشروطة للوجود .

بل المسبَّب هو المشروط فى الوجود بدليل أنه سبحانه خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ، وخلقنا جميعاً نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم .

هذه هى القسمة العقلية الواضحة ، فليست المسألة عنصرية موجودة ، ولكن قيمة واقتدار واجد . وقدرة الحق تتجلى أيضاً أمامنا حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم . لكن يشاء سبحانه أن يكون الاثنان عقيمين فهو القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

(سورة الشورى)

إذن فليست المسألة مدار أسباب تُوجَد ، بل مسَبِّبِ يريد أن يُوجِد ، وأراد الحق

أن يكون مجىء عيسى عليه السلام بهذه الصورة ليلفت بنى اسرائيل لعلهم يخرجون من ضلالات المادية ، فأوجده من أم دون أب ، فكان هذا آية على طلاقة قدرته ، ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير مراد الله ، فكذبوا عيسى ، وقد حدث التكذيب من قبل أن يتكلم عيسى بالإنجيل . ووقفوا أمام رسالته بعنف ، والذى يدلنا على أنهم قوم كذابون ، هو رغبتهم فى استمرار السيطرة الدينية لهم ، وكان عندهم شريعة تقتضى الرجم للزانية ، فلماذا إذن لم يتهموا مريم بالزنا عندما ولدت عيسى ؟ ولماذا لم يعاقبوها حسب شريعة التوراة ؟ ولماذا انتظروا إلى أن يجىء عيسى عليه السلام بالإنجيل ليقولوا : يا فاعل يا ابن الفاعلة . كان انتظارهم دليلاً على أن ميلاد عيسى عليه السلام كان آية بينة صدعتهم وصدتهم عن ذلك ، فقد نطق عيسى عليه السلام بعد ميلاده ولم تتكلم مريم قط ؛ لأن ما حدث أمر فوق منطقها ، وجهزها الله لهذا الموقف ، وأمرها بالصمت عندما يسألونها ، وأن تشير إلى المولود الذى فى المهد :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة مريم)

وانبهروا انبهاراً فتت فيهم القوى ، فقوى الخصومة ساعة ترى هذا لا تجد إلا الانهيار ، فالحق أبلج ، والباطل لجلج . إذن كان الأمر بيدهم وفى توراتهم أن من يزن يرجم ، فلماذا لم يرجموا أم عيسى إذن ؟ . لابد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين حقدهم تختل ، المعجزة الباهرة هى كلام عيسى ابن مريم فى المهد : (إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً) وجعلت المفاجأة أقوى الأقوياء فيهم ينهار ، وتخور قواه .

هذا من ناحية اليهود ، فماذا عن ناحية بعض أتباع عيسى عليه السلام ؟ . إن صبياً يتكلم فى المهد هو معجزة بكل المقاييس ، فكيف تخلو كتبهم من قول عيسى فى المهد : « إنى عبدالله » وكان لابد أن تكون الكلمة مدروسة بعناية ، وألا تنسى . وحفظ جنود الله سبحانه وتعالى الكلمة ، التى تؤكد بشرية عيسى عليه السلام .

وعندما نقول هذا الكلام فليس الهدف منه تصحيح عقائد أحد ، ولكننا فقط

نريد أن يتضح منطق الإيمان فى عقول المسلمين ، أما أبناء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يعتقدون ، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآننا متضحاً أمام أعيننا ، ولا يجرؤ أحد أن يميل به .

« وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » ونحن كمسلمين نستنكف أن نقول ما قالوه من بهتان على مريم البتول ، والبهتان هو الكذب الشرس . فهناك لون من الكذب قد يكون مقبولاً ، ولون من الكذب غير مقبول : فأن يقول قائل عن رجل ورع : إنه شرب الخمر ، والقائل يعلم أنه كاذب ، فهذا كذب ثقيل شرس ، يتحير ويتعجب من يسمعه ؛ وهذا هو البهتان . ولم يستح ويمتنع اليهود حينما رموا مريم ـ الطاهرة بأمر الله ـ بالبهتان مع أنهم علموا أن لمريم سابقة خير واستقامة .

لقد كان ماضى مريم ناصعاً ، عاشت فى المحراب متبتلة لمن خلقها ؛ لذلك يصف الحق هذا البهتان بأنه عظيم ؛ لأنه جرح مريم فى عرضها ، ولو رجعوا إلى تاريخهم قبل ميلاد عيسى من مريم لوجدوا أن كل واحدة من بنات بنى إسرائيل كانت تستشرف أن يكون النبى المولود بعد موسى من بطنها . وكانوا يعرفون أن النبى القادم من بعد موسى ستلده عذراء ، وأبلغ بنو إسرائيل بناتهم بكيفية مجىء النبى القادم عيسى ابن مريم ، تماماً مثل قضية البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ومن رحمة الله بمريم نفسها أن الله جعل لها التمهيدات التى تثبت لها أمام نفسها أنها بريئة ، وأن العملية كلها قد تمت بـ« كن » من الله ، لم يجعل الله المسألة سرّاً عن مريم فتحمل بأمر قوله : « كن » دون أن تدرى ، لا . بل أراد سبحانه أن تكون عملية مادية . وجاء الملك لمريم ونفخ فيها بالحمل . وعرفت هى السبب مادياً بالملك والنفخ حتى لا تتهم نفسها أو تشك بأن شيئاً قد حدث لها وهى نائمة أو غير ذلك .

لقد أراد الله المسألة على تلك الصورة ليجعلها أمراً يقطع الشك لديها ، وهى التى بُشرت به ـ إيناساً لها ـ عندما كانت صغيرة قبل البلوغ وجاءها زكريا وهو الكفيل لها والذى يأتيها بالطعام ودخل عليها المحراب فوجد عندها الرزق وسألها :

(أنى لك هذا) أجابت :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

لقد نطقت مريم البتول من قبل : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ومن الحساب أن يكون للمرأة زوج لترزق بالولد ، ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ومن العجيب أنها فى هذا القول نبهت زكريا إلى قضية كانت فى بؤرة شعوره ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد شجعت مريم زكريا على أن يدعو ربه ، وتلك سلسلة تمهيدية ليطمئن إحساس مريم أن ولادتها لعيسى عليه السلام إنما جاءت بـ «كن » وجاء لها الحق بفاكهة الصيف فى الشتاء ، وعندما قالت لسيدنا زكريا : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » تنبه ودخل من هذا الباب ، فدعا ربه على الرغم من علمه أن امرأته عاقر ، وأنه بلغ من الكبر عتياً ، ومفهوم لنا معنى قول الرجل عن نفسه إنه بلغ من الكبر عتيا ؛ أى أنه لم يعد يملك القدرة على الإنجاب . وهذه القضية تعطينا سبقاً قرآنيا لكثير من قضايا العلم :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(من الآية ٤ سورة مريم)

هذا القول هو أشبه بمذكرة تفسيرية لبلوغه من الكبر عتيا . ويثبت العلم الحديث أن العظام هى آخر وعاء لتغذية الإنسان ، فإن امتنع الإنسان عن الطعام فالدهون التى فى جسده تغذيه . وإن امتنع الماء عن الإنسان وهو المكوِّن لتسعين فى المائة من وزنه يمتص الإنسان الماء من خلايا الجسم والعضلات واللحم . ولذلك يقال فى المثل

العربى : سنة أذابت الشحم ، وسنة أفنت اللحم ، وسنة محت العظم .

فكأن البداية تكون التغذية من الشحم ومن بعد ذلك من اللحم ومن بعد الشحم واللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم . وهذه هى التى جاءت على لسان سيدنا زكريا : (قال رب إنى وهن العظم منى) . فآخر مخزن للتغذية لم يعد به ما يمكن أن يستمد منه زكريا طاقة الإنجاب .

وما الذى يغذيه العظم من الجسم ؟ إنه يغذى المخ ، وهو السيد الأعلى الذى يدير كل جارحة فى الجسم ، وتعمل كل جارحة فى خدمته ، ويعيش المخ بطبيعة الحال كل عمره فى خدمة الجوارح ، يرتب لها قدرات العمل والتفكير والإحساس والسلوك ، ومادام المخ موجوداً ، فكل شىء يتم تعويضه .

ولذلك يحاولون ـ الآن ـ تعريف الموت طبياً ، فيقولون : لا يحدث الموت مادامت خلايا المخ حية ؛ فإذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . ومن عجيب الأمر أن سيد الإنسان له مكان فى أعلى الجسم إنه هو المخ ، داخل الجمجمة ، أما النبات فسيده فى الجذور . وإن لم تجد الجذور مياها تذيب بها العناصر فى الأرض فالنبات يأخذ غذاءه من الورق ، وبعد أن يذبل الورق يأخذ النبات غذاءه من الفروع الصغيرة . وعندما تذبل تلك الفروع وتجف ولا ينقذ النبات إلا مجىء بعض الماء للجذور . وكذلك المخ بالنسبة للإنسان .

فكأن مريم شجعت سيدنا زكريا عندما قالت أمامه : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فدعا سيدنا زكريا الله أن يرزقه بالولد ، فجاءه الولد . وهذه القضية نطقت بها مريم وتمت تجربتها فى سيدنا زكريا . وبعد ذلك جاءها البشير بميلاد المسيح عيسى ابن مريم :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

كيف يصوغ القرآن هذه الصياغة ، وكيف تقول هى :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد كانت سيدتنا مريم البتول تحسن الاستقبال عن الله ، فساعة سمعت أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، عرفت أن نسبه لها يعنى أنه بلا أب . وعرفت أن الحق سبحانه ما نسبه إليها إلا لأنه لا أب له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾

ونلاحظ أن الآية تبدأ بواو العطف على ما قبلها ، وهو قوله الحق :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويعطف سبحانه على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وأكثر ما يدهش فى هذا القول هو كلمة « رسول الله » ، فهل هى هنا من قولهم ؟ إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللجاجة المطلقة ، ولو قالوا : إنهم قتلوه فقط لكان الجرم أقل وطأة ، ولكن إن كانوا قد عرفوا أنه رسول الله وقتلوه

فهذا جرم صعب للغاية . أو أن كلمة « رسول الله » هنا فى هذه الآية ليست من مقولهم الحقيقى وإنما من مقولهم التهكمى .

وأضرب المثل لأوضح هذا الأمر . . كأن يأتى شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتى له شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماعته : لقد ضربت الفتى القوى فيكم . إذن قد يكون قولهم : « رسول الله » هو من قبيل التهكم ، أو أن كلمة « رسول الله » هنا هى من قول الحق سبحانه وتعالى مضافاً إلى قولهم ليبشع عملهم .

« وقولهم : « إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فكأن الحق لم يشأ أن يذكر عيسى ابن مريم إلا مرتبطا أو موصوفاً بقوله : « رسول الله » لنعلم بشاعة ما فعلوه ، فعيسى ابن مريم رسول الله على رغم أنوفهم ، وخاصة أن الكلام فى مجال انكارهم وجحودهم لنعم الله ، وكفرهم بآيات الله ، وكأن الحق يسخر منهم ؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدى مهمته . وجاء بكلمة « رسول الله » هنا كمقدمة ليلتفت الذهن إلى أن ما قالوه هو الكذب .

وبعد ذلك يقول لنا سبحانه : « وما قتلوه وما صلبوه » . وكلمة « وما صلبوه » هنا هى لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلنونه للناس ، وهم قد فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب ، فقد قتلوا شخصاً شبهه الله لهم ولم يكن هو المسيح وصلبوه من بعد ذلك ، وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب . ويقطع الله عليهم هذا الأمر ، فيقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وقد لفتنا سبحانه من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح تم استقبالها من بنى إسرائيل بضجة ، فعلى رغم علمهم خبر مجىء المسيح بالميلاد من غير أب ، وعلى رغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف أن يكون لأية واحدة منهن شرف حمل المسيح ، وعلى رغم ذلك قالوا البهتان فى مريم التى اصطفاها الله . وكذلك كان لمسألة الوفاة ضجة .

واقتران الضجتين : ضجة الميلاد وضجة الوفاة معاً فى رسالة السيد المسيح يدلنا

على أن العقل يجب أن تكون له وحدة تفسيرية ، فساعة يتكلم العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لا بد أن يستشعر الإنسان أن الأمر قد جاء على غير سنة موجودة ، وساعة يبلغنا الحق أن بنى إسرائيل بيتوا النية لقتل عيسى ابن مريم ، وأن الله رفعه إليه تكون المسألة قد جاءت أيضا بقضية مخالفة ، ولا بد أن نصدق ما بلغنا الله به ، وأن يتذكر العقل أن الميلاد كان مخالفاً ، فلماذا لا تكون النهاية مخالفة أيضاً ؟

وكما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب ، لا بد أن نصدق أن الحق قد رفعه فى النهاية وأخذه ، فلم يكن الميلاد فى حدود تصور العقل لولا بلاغ الحق لنا ، وكذلك الوفاة لا بد أن تكون مقبولة فى حدود بلاغ الحق لنا . والميلاد والنهاية بالنسبة لعيسيٍ ابن مريم كل منهما عجيبة . وإن فهمنا العجيبة الأولى فى الميلاد فنحن نعتبرها تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب ؟ وإن حدثنا الحق أن عيسى ابن مريم خرج من الحياة بأمر عجيب فنحن لا نستعجب ذلك ؛ لأن من بدأ بعجيب لا عجب أن ينتهى بعجيب .

وسبحانه وتعالى حكم وقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وكلمة « شبه لهم » هذه هى دليل على هوج المحاولة للقتل ، فقد ألقى شبهه على شخص آخر . وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ، ليس فيها حزم التبيّن من المتربصين القتلة . ونعلم أن الحواريين وأتباع سيدنا عيسى كانوا يلفون رءوسهم ويدارون سماتهم ، ولذلك قال الحق لنا : « ولكن شبه لهم » أى أنهم قد شبه لهم أنهم قتلوه .

واختلفت الروايات فى كلمة « شبه لهم » ، فمن قائل : إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل خوخة ، والخوخة هى باب فى باب ، وفى البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد ، وفى سقف البيت توجد فتحة وكوّة اسمها (روزنة) أو (ناروظة) .

فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة ، ودخل خلفه رجل اسمه « تطيانوس » وعندما

رأى سيدنا عيسى هذا الأمر ألهمه الله أن ينظر إلى أعلى فوجد شيئاً يرفعه ، فلما استبطأ القومُ « تطيانوس » خرج عليهم فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بين « تطيانوس » وعيسى ، وألقى الله شبه عيسى على « تطيانوس » فقتلوه . أو أن عيسى عليه السلام حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال لهم عيسى : أيكم يُلقى عليه شبهى وله الجنة ؟ فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟ وقدم عيسى عليه السلام الجائزة الكبرى لأى مؤمن ، وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ، ويقال له « سرخس » . فألقى شبه المسيح عيسى عليه ، فقتل اليهود « سرخس » .

وقالوا : إنه حينما عرف بعض الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رُفع ، خافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى ، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله . ولذلك جاء القتلة بشخص وقتلوه وألقى على هذا القتيل شبه عيسى وأعلن القتلة أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا نبى الله عيسى لليهود ، ولما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى وسأل المتربصون الحواريين : أيكم عيسى ؟ فتيقظت ملكة التوبه فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن يقول : « أنا عيسى » . ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم : « أيكم عيسى » . إلا وهو عيسى بالفعل ؛ لأن مشهد المتربصين يوحي أنهم سيقتلون عيسى . وقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تثبت . أو أن واحداً باع عيسى لقاء ثلاثين ديناراً وتشابه عليهم فقتلوا الواشى ، ولم يظفروا بعيسى ابن مريم . ونحن كمسلمين لا نهتم اهتماماً كبيراً بتلك الروايات . فالمهم أنهم قالوا قتلنا عيسى . وصلبناه .

وقرآننا الذى نزل على رسولنا صلى الله عليه وسلم قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وقال الحق لنا : إنه رفع عيسى إليه ، وانتهت المسألة بالنسبة لنا ؛ لأننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولاً فإن صدقناها آمنا ، لا . نحن نؤمن أولاً بمُنَزِّل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء منه سبحانه ، وهو قال ذلك فآمنا به وانتهت المسألة .

إن البحث فى هذا الأمر لا يعنينا فى شىء ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . ويدلنا هذا القول على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل ، وهو أمر متوقع فى مسألة مثل هذه ، حيث يمكن أن تختلط الأمور .

إننا نرى ذلك فى أية حادثة تحدث مع وجود أعداد كبيرة من البشر وأعينهم مفتوحة ، وعلى الرغم من ذلك تختلف فيها الروايات . بل وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ومع ذلك تختلف الروايات ، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه فى زمن قديم لا توجد به كل الاحتياطات التى نراها فى زماننا ؟ إذن فاضطراب الآراء والروايات فى تلك الحادثة أمر وارد ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه » .

فعيسى باق ؛ لأن الحق لم يأت لنا بخبر موت عيسى . ويبقى الأمر على أصل ما وردت به الآيات من أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى ابن مريم . وكمسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء ؛ لأن المبدأ ـ مبدأ وجود بشر فى السماء ـ قد ثبت لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، فقد حدثنا صلى الله عليه وسلم أنه عُرج به إلى السماء ، وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى ، إذن فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض وهو لايزال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء أمر وارد . والخلاف يكون فى المدة الزمنية ، لكنه خلاف لا ينقض مبدأً ، سواء صعد وبقى فى السماء دقائق أو ساعات أو شهوراً . فإن حاول أحد أن يشكك فى هذه المسألة نقول له : كل أمر قد يقف العقل فيه يتناوله الحق سبحانه وتعالى تناولاً موسعاً . فسبحانه خالق رحيم لا يورد نصاً بحيث يتوقف العقل أمامه ، فإن قبل العقل النص كان بها ، وإن لم يقبله وجدت له مندوحة ، لأنه أمر لا يتعلق بصلب العقيدة .

فهب أن إنساناً قال إن عيسى لم يرفع بل مات ، فما الذى زاد من العقائد وما الذى نقص ؟ ذلك أمر لا يضر ولا ينفع . ومثل ذلك الإسراء ، جاء فيه الحق بالقول القرآنى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى

﴿ بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١ ﴾
(سورة الإسراء)

ولم يقل الحق أى قول فى أمر المعراج ، لأن الإسراء آية أرضية ، انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . ونعلم أن رسول الله لم يذهب إلى بيت المقدس قبل الإسراء ، بدليل أن كفار مكة أرادوا إحراج الرسول فقالوا له : صف لنا بيت المقدس . وهم واثقون من عدم ذهابه إليه من قبل . وكان فى الطريق قوافل لهم رآها صلى الله عليه وسلم ، ووصف صلى الله عليه وسلم بيت المقدس وقال لهم عن أخبار قوافلهم . وجاءت القوافل مثبتة لصدق محمد صلى الله عليه وسلم .

إذن كان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم آية أرضية يمكن أن يقام عليها الدليل . ولذلك جاء بها الحق صريحة فقال : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

لكن المعراج لم يذكره الحق صراحة ، فلم يكن من قريش ولا من أهل الأرض من رأى سدرة المنتهى ، ولم يكن لأحد من أهل الأرض القدرة على أن يصف طريق المعراج .

إذن فالآيات التى يقف فيها العقل يتناولها القرآن تناولاً موسعاً رحمة بالعقول ؛ لأن الإنسان إن اعتقد بها فهذا أمر جائز ، وعدم الاعتقاد بها لا يؤثر فى أصل العقيدة ، ولا فى أصول التكليفات ، ومدارها التصديق . ومادام الحق سبحانه وتعالى قد فوض رسوله أن يعطينا أحكاماً . إن عملنا بها جزانا الله الثواب ، وإن لم نعمل بها نالنا العقاب « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فكيف لا يفوضه فى أن يقول لنا بعضاً من الأخبار ؟!

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - وذكره البخارى فى صحيحه أنه قال :

« والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر

الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها » . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً »[١] .

هذه أخبار أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن لا توجد قضية عقدية تقف مستعصية أمام عقول المسلمين خاصة . أن البعض قد يقول : إن الحق سبحانه قد قال :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة آل عمران)

وقد شرحنا من قبل فى خواطرنا عن سورة آل عمران كل الشرح لهذه المسألة . قلنا : إن علينا أن ننتبه إلى « واو العطف » بين « متوفيك » و« رافعك » .

ومن قال إن « واو العطف » تقتضى الترتيب ؟ إن « واو العطف » تقتضى الجمع فقط كقولنا : « جاءنى زيد وعمرو » ، هذا يعنى أن زيداً جاء مع عمرو . أو أن زيداً جاء أولاً ، أو أن عمراً جاء أولاً وتبعه زيد ، فـ« الواو » لا تقتضى الترتيب ، وإنما مقتضاها الجمع فقط

لكن إن قلنا « جاءنى زيد فعمرو » فزيد هو الذى جاء أولاً وتبعه عمرو ؛ لأن « الفاء » تقتضى الترتيب ، أما « الواو » فتأتى لمطلق الجمع ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وسبحانه قال : « إنى متوفيك ورافعك إلىَّ » هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن التوفى قد تم قبل الرفع ، ودليلنا أن الحق سبحانه أنزل فى القرآن آيات تدل على مثل هذا ، كقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾

(من الآية ٧ سورة الأحزاب)

فسبحانه أخذ الميثاق من محمد صلى الله عليه وسلم وجمع معه سيدنا نوحاً وإبراهيم ، فهل هذا الجمع كان قائماً على الترتيب ؟ لا ؛ لأن نوحاً متقدم جداً فى

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

الموكب الرسالى وسبق سيدنا رسول الله بسنوات طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون .
إذن فـ « الواو » لا تقتضى الترتيب فى الجمع . ولماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر الرفع ؟ جاء الحق بذلك ليشعر عيسى أن الوفاة أمر مقطوع به ، لكن الرفع مجرد عملية مرحلية .

أو جاء قوله الحق : « إنى متوفيك ورافعك إلىَّ » ؛ لأن الإنسان المخلوق لله مكون ومركب من مادة وفى داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن ينهى حياة إنسان ما ، فهو يقبضه بدون سبب وبدون نقض فى البنية ، ويموت حتف أنفه ، أما إذا ما ضرب إنسان إنساناً ضربة عنيفة على رأسه فالمضروب أيضاً يموت ، لأن الروح لا تحل فى جسم به عطب شديد .

إذن فالحق أوضح لعيسى : أنا آخذك إلىّ وأرفعك متوفياً وليس بجسدك أىُّ نقضٍ لبنيتك أو هدم لها أو لبعضها ، بل آخذك كاملاً . فـ « متوفيك » تعنى الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل .

ونحن ـ كما عرفنا من قبل ـ نفرق بين القتل والموت . فالموت هو أن تُقبض الروح حتف الأنف ، أما القتل فهو هدم للبنية فتزهق الروح ، والدليل على ذلك أن الحق فى كتابه الكريم قال :

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

إذن فحين قال بنو إسرائيل : إنهم قتلوا عيسى ابن مريم كذبهم الحق وقال : « وما قتلوه وما صلبوه » . ورفعه الله إليه كاملاً ، وسبحانه وتعالى يقول : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً) . ويوضح الحق سبحانه وتعالى : لم يتيقنوا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم ، لكنهم شكوا فيمن قُتل ، فلم يعرف المتربصون لقتله أقتلوا عيسى أو تطيانوس أو سرخس ؟

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين ، فبعد أن نفى سبحانه نبأ مقتل عيسى

ابن مريم قال : « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » . والنسبة الأولى المذكورة هنا هى الشك ، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران . والنسبة الثانية هى اتباعهم للظن ، وهو نسبة راجحة . لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكاً ثم انقلب ظناً .

وينهى الحق ذلك بعلم يقينى « وما قتلوه يقيناً » وسبحانه ينفى بذلك أنهم قتلوه يقيناً ، واليقين ـ كما نعلم ـ هو الأمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير ، وله مراحل هى : مرحلة العلم ، واسمها علم اليقين ، ومرحلة العين ، واسمها عين اليقين ، ومرحلة الحقيقة ، واسمها حق اليقين .

وعندما يخبرنا واحد من الناس أن جزءا من نيويورك اسمه « مانهاتن » . وأن مانهاتن هذه هى جزيرة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة ، وفيها ناطحات سحاب ، وجاء هذا الخبر ممن لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم ير نيويورك ، فيصير مضمون الخبر عنده علماً متيقناً ؛ لأن الذى أخبر به موثوق به . وإن جاء آخر ووجه للسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها ولبى السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك ، هنا تحول الخبر من « علم اليقين » إلى « عين اليقين » . وإن جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به فى كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو « حق اليقين » .

وأسمى أنواع اليقين هو « حق اليقين » ، وقبلها « عين اليقين » ، وقبل « عين اليقين » « علم اليقين » . وحينما عرض سبحانه المسألة قال :

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة التكاثر)

هو سبحانه يعطينا علم اليقين ، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه ، وسيرى المؤمنون وهم على الصراط النارَ وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق ؛ لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل

النار ، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة . والكافرون بالله هم الذين سيرون الجحيم حق اليقين . ويأتى « حق اليقين » فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

فكل مكذب ضال سينزل إلى الحميم ويصلى الجحيم ويعانى من عذابها حق اليقين . إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم : « وما قتلوه يقيناً » يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث ، تصديق علم يقين لأن الله هو القائل . والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا فى ذلك . وأما من باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين . والذى حدث هو ما يلى :

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

لقد رفعه العزيز الذى لا يغلبه أحد على الإطلاق ، فهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد ، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم ، فالله غالب على أمره ، وهو العزيز بحكمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

و« إن » هنا هى « إن » النافية ، وهى غير « إن » الشرطية . وإليكم هذا المثال عن « إن » النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

يصحح الحق هنا الخطأ الذى وقع فيه هؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم بقول الواحد منهم لزوجته : « أنت علىّ كظهر أمى » ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

فيوضح سبحانه : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . و« إن » فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا الآن عنها هى « إن » النافية .

كأن الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته . وهذا شرح لمعنى « إن النافية » . وقد يقول قائل : ما حكاية الضمائر فى هذه الآية ؟ فالآية بها أكثر من ضمير ، مثل قوله الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وعلى من تعود « به » ؟ وعلى من تعود الهاء فى آخر قوله « موته » ؟ هل هو موت عيسى أو موت أى واحد من أهل الكتاب ، فالمذكور عيسى ، ومذكور أيضاً أهل الكتاب ، فيصح أن يكون القول كالآتى :

لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن بعيسى ، ويصح أيضاً : لن يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب ، ولأن الضمير لا يعرف إلا بمرجعه ، والمرجع يبين الضمير . فإن كانت هناك ألفاظ سبقت . . فكل منها يصح أن يكون مرجعاً ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه كقول الحق :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة فاطر)

والمعمَّر هو الإنسان الذى طعن فى السن ، ولا ينقص من عمر هذا المعمَّر إلا كما أراد الله ، والهاء فى « عمره » تعود إلى بعض من المعمَّر . ذلك أن كلمة « معمَّر »

مكونة من عنصرين هما « ذات الرجل » و« عمر الرجل » ، فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير ، فيكون المعنى هو : وما يعمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير . وماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان ؟ مثل قوله الحق :

﴿ رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾

(من الآية ٢ سورة الرعد)

هنا نجد مرجعين : « السماء » و« العمد » فعلى أى منهما تعود الهاء الموجودة فى كلمة « ترونها » ، هل تعود « الهاء » إلى المرجع الأول وهو السموات ، أو للمرجع الثانى وهو « العمد » ؟ يصح أن تعود « الهاء » إلى السموات . . أى خلق السموات مرتفعة قائمة بقدرته لا تستند على شيء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمد . أى بغير العمد التى نعرفها ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية . أو رفع السموات « بغير عمد ترونها » أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر . وهكذا يصح أن يُنسب الضمير ويعود إلى أحد المرجعين .

والآية التى نحن بصددها ، نجد أنه قد تقدم فيها شيئان هما المسيح وأهل الكتاب ، وفيهما ضميران اثنان . فهل يعود الضميران على عيسى ، أو يعودان على أهل الكتاب ؟ أو يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب ؟ وأى منهما الذى يرجع على عيسى ، وأى منهما الذى يرجع على أهل الكتاب ؟ أو أن هناك مرجعاً ثالثاً لم يُذكر ويعلم من السياق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ونجد أن الضميرين قد يرجعان إلى المرجع الثالث ، أى إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذى بشر بمجيئه عيسى ابن مريم ، وتواتر الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولماذا التقى النصارى مع اليهود فى مسألة القتل والصلب ؟ هم معذورون فى ذلك ؛ لأن الحق لم يأت ببيان فيها آنئذ . وقوله : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » يدل على أنهم معذورون إن قالوا ذلك . ولكن كان الواجبُ أن يتمردوا على مسألة الصلب هذه ، إن كان فيه ألوهية أو جزء من ألوهية ، وكان من الواجب أن يخفوا مسألة الصلب . ويأتى الإسلام ليبرىء عيسى عليه السلام من هذه المسألة ويعين أتباع عيسى على تبرئته منها .

ولكن لم يلتفت أتباع عيسى إلى قول الإسلام فى هذه القضية « ولكن شبه لهم » وكان يجب أن يلتفت إليها أتباع المسيح . وحين يقص الحق كل ذلك فهو يحكم من بعد ذلك حكماً إلهياً : (بل رفعه الله إليه) النصارى يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب . ونحن المسلمين نقول بالرفع ولا صلب ، رفعه الله إليه وسينزل . وحكمة ذلك أنه لم يوجد رسول من الرسل السابقين فُتن فيه قومه فجعلوه بعضاً من إله أو إلهاً فلم تسكت السماء عن ذلك ، فرفعه سبحانه وسينزله ليسفه هذه القضية ، وبعد ذلك يجرى عليه قدر الله فى خلقه وهو الموت .

إن الذين يقفون فى هذه المسألة يجب ألا يقفوا ، لأن مسألة سيدنا عيسى عليه السلام بدأها الله بعجيبة خرقت النواميس لأنه وُلد من أم دون أب . فإن كنتم قد صدقتم العجيبة فى الميلاد ، فلماذا لا تصدون العجيبة فى مسألة الرفع ؟

وإن قال واحد منا : لقد مات عيسى عليه السلام . نقول : ماذا تقولون فى نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أصعد إلى السماء معروجاً به إليها ؟ ألم يكن رسول الله حياً بقانون الأحياء ؟ نعم كان حياً بقانون الأحياء . وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا ، إذن فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حى ثم ينزل إلى الأرض وهو حىٌّ ليس عجيبة .

والخلاف بين رفع عيسى وصعود محمد صلى الله عليه وسلم بالمعراج خلاف فى المدة . وهذا لا ينقض المبدأ ؛ فالمهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته ، وظل فترة من الزمن بحياته ، إذن فمسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد فى شريعتنا الإسلامية . ولتأكيد هذه المسألة يقول الحق :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة النساء)

السامع السطحى لهذه الآية قد يقول : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ، وأقول : لا . لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم ، وليس الإيمان المراد لله ، آمنوا به إلهاً أو جزءًا من إله وهو ما يسمى لديهم بالثالوث ـ الآب والابن وروح القدس ـ ولكن الله يريد أن يؤمنوا به رسولاً وبشرًا وعبدًا .

وإذا قال الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » فمعنى هذا : ما أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت .

والضمير فى قوله: « إلا ليؤمنن به » يرجع إلى عيسى . والضمير الآخر الموجود فى « قبل موته » قد يرجع إلى عيسى أى قبل موت عيسى ولن يموت عليه السلام الموتة الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودمه ليقول لهم : أنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمد الخاتم ، وأنتم مخطئون فى اتهامكم لأمى ، والدليل على خطئكم هو أننى جئت مبشراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبدالله ، وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول . فلن يأتى عيسى - عليه السلام - بتشريع جديد بل ليصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وحين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ، ماذا سيقول الذين فُتِنوا فيه ؟ لاشك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أن كل كتابى من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبد قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية عندما تبلغ الروح الحلقوم وتتردد فى الحلق عند الموت . فقد يصح أن تكون الآية عامة « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » ويعود الضمير فيها إلى كل كتابى قبل أن يموت .

إن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويغلق دونها باب اليقين ويدفعها إلى ذلك غرور الحياة ، فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق ، انتهى كل شىء يُبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين ؛ ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها ويقينها ، وتستيقظ النفس البشرية لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ويسقط غرور الحياة ، ويراجع الإنسان منهم نفسه فى هذه اللحظة ، ويقول : أنا اتبعت هوى نفسى . ولكن أينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبَه ؟ لا ؛ لأن مثله فى ذلك مثل إيمان فرعون ، فقد قال حين أدركه الغرق :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة يونس)

فيسمع صوتَ الحق فى تلك اللحظة :

﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة يونس)

فلم ينتفع فرعون لحظة الغرق بالإيمان .

ويقول ـ سبحانه ـ :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويذيل الحق الآية : « ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » وهذا يؤكد أن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصروا نزوله فى الدنيا ، وسوف يشهد يوم القيامة على الذين ادعوا له بالألوهية :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ويعاود الحق سبحانه الكلام عن فظائع اليهود فيقول :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾

هو سبحانه يوضح أن تحريم بعض الطيبات على بنى إسرائيل جاء نتيجة لمواقف يعددها الله ، لقد ارتكبوا ما ارتكبوا من ذنوب كبيرة وظلموا أنفسهم وظلموا

غيرهم ، وصدوا عن دين الله ، بمعنى أنهم لم يدخلوا فى الإسلام .

وتستمر الحيثيات للتحريم لبعض الطيبات لتزيد على هذين الموقفين :

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

وأى ظلم يتحدث عنه الحق فى قوله : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ؟. الظلم معناه أن يحكم واحد لغير ذى الحق بحق ، وقمة الظلم أن يحكم واحد بأن لله شريكاً ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وحيثيات حكم الله بتحريم أشياء كانت حلالاً لبنى إسرائيل متعددة . وحين يحرم الله شيئاً فمن المؤكد أنه محدود بالنسبة للمحلَّل ؛ فالمحرم قليل ، وبقية ما لم يذكره الله إنما يدخل فى نطاق الحلال .

مثال ذلك قوله الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ

ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

(سورة الأنعام)

يورد الحق هنا المحرمات وهى أشياء محددة محدودة ، أما النعم كلها فحلال . ومن هذا الأمر نفهم اتساع مدى رحمانية الحق بالخلق ، فقد وهبنا الكثير والكثير من النعم التى لا تعد ولا تحصى ولم يحرم إلا القليل . وتحريم القليل جاء لتبقى كل نعمة فى مجالها .

فإذا قال إنسان : حرم الله هذا الشيء لأنه ضار نقول : ما تقوله جائز ، ولكن ليس الضرر هو سبب الحكم لِكل المحرمات ، فقد يحرم سبحانه أمراً لتأديب قوم ما . ـ ولله المثل الأعلى ـ نرى المسئول عن تربية أسرة قد يحرم على ولد فيها لوناً من الطعام أو جزءاً من مصروف اليد ويكون القصد من ذلك هو العقوبة .

ولماذا استحق بنو إسرائيل عقوبة التحريم ؟. لقد جاءوا من خلف منهج الله وأحلوا لأنفسهم ما حرم الله . وماداموا قد زاغوا فأحلوا ما حرم الله فالحق يرد عليهم : لقد اجترأتم على ما حرمت فحللتموه ، ومن حقى أن أحرم عليكم ما أحللت لكم قبل ذلك ، حتى لا يفهم الإنسان أنه بتحليله لنفسه ما حرم الله قد أخذ شيئاً من وراء الله فلا أحد يمكنه أن يغلب الله . ولذلك يحرم سبحانه عليه شيئاً من حلاله .

والتحريم إما أن يكون تحريم تشريع ، وإما تحريم طبع أو فطرة أو ضرورة . نجد الرجل الذى أسرف على نفسه فى تناول محرمات كالخمر ـ مثلاً ـ يحرم الله عليه أشياء كانت حلالاً له ، ويقول له الطبيب : تهرأ كبدك وصار من الممنوع عليك أن تأكل صنوفاً كثيرة من الطعام والشراب . وهكذا نرى ظلم الإنسان لنفسه ، وكيف نتج عنه تحريم أشياء كانت حلالاً له .

ومن أسرف على نفسه فى تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلاً فأكَله فوق ما تدعو به الحاجة ، نجد سنة الله الكونية تقول له : لقد أخذت أكثر من حقك . وعطلت فى جسدك القدرة على حسن استخدام السكر فصرت مريضاً ، إياك أن

تتناول السكريات مرة أخرى . ويشتهى المريض السكر والحلوى ويملك القدرة على شرائهما ، ولكنها محرمة عليه ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول له : بظلم منك لنفسك حرمت ما أحللته لك .

وآخر يملك الثروات والخدم والمزارع الشاسعة ، ويقوم له الآخرون بطحن الغلال ، ويأمر بأن يصنعوا له الخبز من أنقى أصناف الدقيق الخالى من أية قدر من « النخالة » ، ويصنعون له الخبز الأبيض ، ويأكله بينما الاتباع يصنعون لأنفسهم الخبز من الدقيق الأقل نقاوة ، فتقول له سنة الله : ستأكل الخبز المصنوع من النخالة بأمر الطبيب علاجاً لأمعائك لأنك أسرفت على نفسك فى أكل الخبز المصنوع من أنقى أنواع الدقيق وليأكل رعاياك وعمالك الخبز المصنوع من أفخر ألوان الدقيق ، فبظلم منك حرمنا ما أحل لك .

وعندما نَرى إنساناً قد حُرِمَ من نعمة من نعم الله التى هى حلال له ، نعلم أنه قد حلل لنفسه شيئاً حرمه الله عليه ، أو أسرف فى استعمال حق أحله الله له ، ولا أحد منا يفلت من رقابة الله . إذن فالتحريم قد يكون بالتشريع ، إذا كانت العقوبة التحريم من المشرع ، وقد يكون تحريماً بالطبع والفطرة إن كان فى الأمر إسراف من النفس .

ولنقرأ دائماً هذه الآية : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » وكذلك الذين يأخذون مالاً بالربا ، لقد أخذوا الربا ليزيد مالهم ، لماذا تريدون المال ؟. أتريدون المال لذات المال ؛ أم لهدف آخر ؟. صحيح أن المال رزق ، لكنه رزق غير مباشر ؛ لأنه يَشْترى به الأشياء التى ينتفع بها الإنسان ، وهى الرزق المباشر . وقلنا قديماً : هب أن إنساناً فى صحراء ومعه جبل من ذهب لكن الطعام انقطع منه ، وجبل الذهب فى مثل هذه الحالة لا ينفع ، بل يصبح رغيف الخبز وكوب الماء فى تلك الحالة أغلى من الذهب . والذى يزيد ماله بالربا ، أيريد تلك الزيادة من أجل المتع ؟. سبحانه يمحق ذلك المال ويُذهبه فى كوارث .

ومن أراد أن يبقى له ما أحل الله إلى أن يأتى أجله فعليه ألا يبيح لنفسه أى شيء

حرمه الله . وبذلك يظل متمتعاً بنعم الله عليه . فالحق هو القائل : (وما ربك بظلام للعبيد) .

الإنسان - إذن - هو الذى يظلم نفسه مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهكذا ظلم اليهود أنفسهم فحرم الله عليهم طيبات أُحِّلت لهم . ومن الذى نقل الأمر الطيب إلى أمر غير طيب ؟ . إنه الإنسان . ولكن هل نقل ذات الشىء أو حكم الشىء ؟ . لقد نقل حكم الشىء ، فجعل الشىء الحرام شيئاً حلالاً . « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » .

كيف يكون باستطاعتهم الصد عن سبيل الله ؟ . لقد ظلموا أنفسهم وأخذوا الربا وتلك أمور تجعلهم فى ناحية الضلال وفى جانب الباطل ، وليت الأمر وقف عند هذا . بل أرادوا أيضاً إضلال غيرهم ، وهذا هو مضمون الصد عن سبيل الله . وجعلهم هذا الأمر أصحابَ وزر آخر فوق أوزارهم ، فلم يكتفوا بضلالهم بل تحملوا أوزار إضلال غيرهم .

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

وقد يسمع متشكك هذا القول . فيتساءل : كيف يناقض القرآن بعضه فيقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

ونقول : إن لكل وزر طريقاً وحساباً ، فالإنسان يحمل وزر ضلاله وحده إن لم يضل به أحداً غيره ، ولكن إن حاول إضلال غيره فهو يتحمل وزر هذا الإضلال .

ويقول الحق فى تكملة ظلمهم لأنفسهم : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم

أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » ، وقد تعرضنا للربا من قبل . وقد أخذوا الرشوة ، وهو أكل لمال الناس بالباطل ؛ وكذلك السرقة ، والغش فى السلع ، كل ذلك أخذ مال من الناس بغير حق ، وما أخذ بغير الحق فهو باطل ، وأعد سبحانه لهم مسبقاً عذاباً أليماً . ولكل إنسان مقعدان : مقعد من الجنة إن قُدّر إيمانه ، ومقعد من النار إن قُدّر كفره ، ولا مجال للظن بإمكان ازدحام الجنة أو ازدحام النار ، فقد خلق الله مقاعد الجنة على أساس أن كل الناس مؤمنون ، وجعل مقاعد النار على أساس أن كل الناس كافرون .

ولذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنين)

وحين يتبوأ المؤمن مقعده فى الجنة يورثه الله المقعد الآخر الذى أعده للكافر ؛ فقد كان للكافر قبل أن يكفر مقعدٌ فى الجنة لو اختار الإيمان . وقد أعد الحق العذاب الأليم لهم أى الشديد إيلامه ، وهو مهين أيضا أى أن فى قدرته قهر أى إنسان يتجلد للشدة ، فلا أحد يقدر على الجَلَد أمام عذاب الله .

وهل هذا هو كل ما كان من أهل الكتاب ؟ . ألم يوجد فى أهل الكتاب من كان يدير مسألة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فى عقله ، ويبحث فى القضايا والسمات التى جاءت مبشرّةً به صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ؟ . كان من بينهم من فعل ذلك ، ويورد الحق سبحانه وتعالى التاريخ الصادق ، فيستثنى من أهل الكتاب الراسخين فى العلم فيقول :

﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ

أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

إذن لم يعمم الله الحكم على أهل الكتاب ، الذى سبق بكفرهم وظلمهم لأنفسهم وأخذهم الربا وغير ذلك ، بل وضع الاستثناء ، ومثال لذلك « عبدالله بن سلام » الذى أدار مسألة الإيمان برسول الله فى رأسه وكان يعلم أن اليهود قوم بُهت .

فقال لرسول الله : إنى أومن بك رسولاً ، والله لقد عرفتك حين رأيتك كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد .

ويقول الحق عن مثل هذا الموقف : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . ولا أحد يتوه عن معرفة ابنه ؛ كذلك الراسخون فى العلم يعرفون محمداً رسولاً من الله ومبلغاً عنه ، والراسخ فى العلم هو الثابت على إيمانه لا يتزحزح عنه ولا تأخذه الأهواء والنزوات . بل هو صاحب ارتقاء صفائى فى اليقين لا تشوبه شائبة أو شبهة .

« لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، وقوله الحق :« بما أنزل إليك » هو القرآن ، وهو أصل يُرد إليه كل كتاب سابق عليه ، فحين يؤمنون بما أنزل إلى سيدنا رسول الله ، لابد أن يؤمنوا بما جاء من كتب سابقة .

والملاحظ للنسق الأسلوبى سيجد أن هناك اختلافاً فيما يأتى من قول الحق : « والمقيمين الصلاة » فقد بدأ الحق الآية : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة » .

ونحن نعلم أن جمع المذكر السالم يُرفع بالواو وينصب ويُجر بالياء ، ونجد هنا « المقيمين » جاءت بالياء ، على الرغم من أنها معطوفة على مرفوع ، ويسمى علماء اللغة هذا الأمر بـ« كسر الإعراب » ؛ لأن الإعراب يقتضى حكماً ، وهنا نلتفت لكسر الحكم . والأذن العربية التى نزل فيها القرآن طُبِعَتْ على الفصاحة تنتبه لحظة كسر الإعراب .

لذلك فساعة يسمع العربى لحناً فى اللغة فهو يفزع . وكلنا يعرف قصة العربى الذى سمع خليفة من الخلفاء يخطب ، فلحن الخليفة لحنة فصرّ الأعرابى أذنيه ، أى جعل أصابعه خلف أذنيه يديرهما وينصبهما ليسمع جيداً ما يقول الخليفة ، ثم لحن الخليفة لحنة أخرى ، فهب الأعرابى واقفاً ، ثم لحن الثالثة فقال الأعرابى : أشهد أنك وُلِّيت هذا الأمر بقضاء وقدر . وكأنه يريد أن يقول : « أنت لا تستحق أن تكون فى هذه المكانة » .

وعندما تأتى آية فى الكتاب الذى يتحدى الفصحاء وفيها كسر فى الإعراب ، كان على أهل الفصاحة أن يقولوا : كيف يقول محمد إنه يتحدى بالفصاحة ولم يستقم له الإعراب ؛ لكن أحداً لم يقلها ، مما يدل على أنهم تنبهوا إلى السرّ فى كسر الإعراب الذى يلفت به الحق كل نفس إلى استحضار الوعى بهذه القضية التى يجب أن يقف الذهن عندها : « والمقيمين الصلاة » .

لماذا ؟ لأن الصلاة تضم وتشمل العماد الأساسى فى أركان الإسلام ؛ لأن كل ركن من الأركان له مدة وله زمن وله مناط تكليف . فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفى أن يقولها المسلم مرة واحدة فى العمر ، والصوم شهر فى العام وقد لا يصوم الإنسان ويأخذ برخص الإفطار إن كانت له من واقع حياته أسباب للأخذ برخص الإفطار . والزكاة يؤديها المرء كل عام أو كل زراعة إن كان لديه وعاء للزكاة . والحج قد يستطيعه الإنسان وقد لا يستطيعه . وتبقى الصلاة كركن أساسى للدين . ولذلك نجد هذا القول الكريم :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

وأركان الإسلام - كما نعلم - خمسة وهى واضحة ، ومن الجائز ألا يستطيع المسلم إقامتها كلها بل يقيم فقط ركنين اثنين ، كالشهادة وإقامة الصلاة . وحين يقول الحق : « والمقيمين الصلاة » . يلفت كل مؤمن إلى استمرارية الودادة مع الله ؛ فهم قد يودُّون الله شهراً فى السنة بالصيام ، أو يودُّون بإيتاء الزكاة كلما جاء لهم عطاء من أرض أو من مال ، أو يودون الله فقط إن استطاعوا الذهاب إلى الحج . وبالصلاة يودُّ المؤمن ربَّه كل يوم خمس مرات ، هى - إذن - إعلان دائم للولاء

لقد قلنا : إن الصلاة جمعت كل أركان الدين ، ففيها نقول:« أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ونعلم أننا نُزكى بالمال ، والمال فرع العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ؛ والإنسان حين يصلى يُزكى بالوقت . والإنسان حين يصلى يصوم عن كل المحللات له ؛ ففى الصلاة صيام ، ويستقبل المسلم البيت الحرام فى كل صلاة فكأنّه فى حج .

إذن فحين يكسر الحق الإعراب عند قوله : « والمقيمين الصلاة » إنما جاء ليلفتنا إلى أهمية هذه العبادة . ولذلك يقولون : هذا كسر إعراب بقصد المدح .-فهى منصوبة على الاختصاص-ويخص به الحق المقيمين الصلاة ؛ لأن إقامة الصلاة فيها دوام إعلان الولاء لله . ولا ينقطع هذا الولاء فى أى حال من أحوال المسلم ولا فى أى زمن من أزمان المسلم مادام فيه عقل .

ويقول الحق من بعد ذلك : « والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » كأن كل الأعمال العبادية من أجل أن يستديم إعلان الولاء من العبد للإيمان بالله . والإيمان ـ كما نعلم ـ بين قوسين : القوس الأول : أن يؤمن الإنسان بقمة الإيمان وهو الإيمان بالله . والقوس الثانى : أن يؤمن الإنسان بالنهاية التى نصير إليها وهى اليوم الآخر . ويقول سبحانه جزاءً لهؤلاء : « أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » هو أجر عظيم ؛ لأن كل واحد منهم قد شذ عن جماعته من بقية أهل الكتاب ووقف الموقف المتأبى والرافض المتمرد على تدليس غيره ، ولأنه فعل ذلك ليُبيِّن صدق القرآن فى أن الإعلام بالرسول قد سبق وجاء فى التوراة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ

وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾

ونعلم أن الحق حينما يتكلم ، يأتى بضمير التكلم . وضمير التكلم له ثلاثة أوجه ، فهو يقول مرة : « إنا » ومرة ثانية : « إننى » وثالثة يخاطب خلقه بقوله : « نحن » . وهنا يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا » . ونشاهد فى موقع آخر من القرآن الكريم قوله الحق :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وفى موضع ثالث يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

لأن الذكر يحتاج إلى صفات كثيرة ومتنوعة تتكاتف لتنزيل الذكر وحفظه . وحين يخاطب الله خلقه يخاطبهم بما يُجلى مواقع الصفات من الكون الذى نعيش فيه . والكون الذى نعيش فيه يمتلىء بالكائنات التى تخدم الإنسان ، وهذه الكائنات قد احتاجت إلى الكثير لتهيىء للإنسان الكون قبل أن يوجد الإنسان ، وذلك حتى يأتى إلى الكون ليجد نعم الله له ؛ فالإنسان هو الذى طرأ على كون الله .

هذا الكون الذى صار إلى إبداع كبير احتاج إلى صفات كثيرة لإعداده ، احتاج إلى علم عن الأشياء ، وإلى حكمة لوضع كل شىء فى مكانه ، ولقدرة تبرزه ، وإلى غنى بخزائنه حتى يفيض على هذا الموقع بخير يختلف عن خير الموقع الآخر ، وساعة يكون العمل مُتطلباً لمجالات صفات متعددة من صفات الحقّ ، يقول سبحانه : « إنّا » أو « نحن » . وعندمّا يأتى الحديث عن ذات الحق سبحانه وتعالى يقول : « إنى أنا الله » . ولا تأتى فى هذه الحالة « إنّا » ولا تأتى « نحن » .

والحق هنا يقول : « إنَّا أوحينا إليك » أى أنه أوحى بمنهج ليصير الإنسان سيداً فى

الكون ، يصون نفسه والكون معاً ، وصيانة الكائن والكون تقتضى علماً وحكمة وقدرة ورحمة ؛ لذلك فالوحى يحتاج إلى صفات كثيرة متآزرة صنعت الكون . ورحمة من الله بخلقه أن جعل لهم مدخلاً فيقول على سبيل المثال :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

هو الذى أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خلقه أى دخل فى هذا ؛ لأن الماء إنما يتبخر دون أن يدرى الإنسان ، ولم يعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة . وعرفنا كيف يتكون السحاب من البخار ، ثم ينزل المطر من بعد ذلك . إذن لا دخل للإنسان بهذا الأمر ؛ لذلك يقول الحق : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً » . ويأتى من بعد ذلك إنصاف الحق للخلق ، فيقول : « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » . ولم يقل : « فأخرجت » . بل أنصف الحق خلقه وهم المتحركون فى نعمه بالعقول التى خلقها لهم ، فسبحانه يقدر عمل الخلق من حرث وبذر ورى وذلك حتى يخرج الثمر .

إذن الأسلوب القرآنى حين يأتى بـ« إنى » يشير إلى وحدة الذات ، وحين يأتى بـ« إنَّا » يشير إلى تجمع صفات الكمال ؛ لأن كل فعل من أفعال الله يقتضى حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدرة وحكمة وقبضاً .وبسطاً وإعزازاً وإذلالاً وقهارية ورحمانيةً ، لذلك لا بد من ضميرالتعظيم الذى يقول فيه النحويون : إن « نحن » و« نا » للمعظم نفسه . وقد عظم الحق نفسه ؛ لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون . ولذلك نجد بعض العارفين الذى لمحوا جلال الله فى ذاته وجماله فى صفاته يقولون :

فسبحان رب فوق كل مظنة .٠. تعالى جلالاً أن يُحاط بذاته
إذا قال « إنى » ذاك وحدة قدسه .٠. وإن قال « إنَّا » ذاك حشد صفاته

وعندما ننظر إلى هذه المسألة ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى أنصف خلقه لعلهم يعرفونه ، فجعل لهم إيجاد أشياء وخلق أشياء . وحين يتعرض سبحانه لأمر يكون له فيه فعل ويكون لمن أقدره سبحانه من خلقه فيه فعل ، فهو يأتى بنون التعظيم لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى أمدهم بهذه القدرات .

وحين أوجد الحق خلقه من عدم ، جعل لخلق من خلقه إيجاداً ؛ ولكنْ هناك فرق بين إيجاد المادة ، وإيجاد ما يتركب من المادة.فقد خلق سبحانه كل شيء من عدم ، ولكن جعل لخلقه أن يخلقوا أشياء لكن ليست من عدم . وما ضَنَّ سبحانه وتعالى عليهم بأن يذكرهم بلفظ الخلق فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكأنه سبحانه وتعالى جعل من خلقه خالقين ، لكن الخالقين من خلقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كونوا مركباً من موجود فى مواده . فأخذوا من مواد خلقها الله فركبوا وأوجدوا . والإنسان الذى صنع كوب الماء لم ينشىء الكوب من عدم محض وإن كانت « الكلية » فى الكوب غير موجودة فجزئيات إيجاد الكوب موجودة ، فالرمل موجود فى بيئات متعددة ، وموجود أيضاً ما يصهر الرمل ، والعقل الذى يأخذ تلك العناصر ، والفكر الذى يصنع من الرمل عجينة ، ومصمم الآلات التى تصنع هذا الكوب موجود . إذن فقد أوجد الإنسان كوباً من جزئيات موجودة . فالفارق ـ إذن ـ بين خلق الله وخلق خلق الله ؛ أن الله خلق من عدم محض ، لذلك وصف ذاته بقوله : (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

فأنتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات الله ولم تخلقوا من غير مخلوق لله ؛ فهو سبحانه وتعالى أحسن الخالقين . وكما أنصف الحق خلقه بأن نسب لهم خلقاً ، فلا بد من أن يصف نفسه بأنه أحسن الخالقين . وأيضاً إن خلق الخلق ـ كما قلنا وأنا لا أزال أكررها لتستقر ثابتة فى الأذهان ـ يجمد الشىء على ما أوجدوه عليه ، فيخلقون الكوب ليظل كوباً فى حجمه وشكله ولونه ، ولكنهم لم يخلقوا كوباً ذكراً وكوباً أنثى ليجتمعا معاً وينشئا أكواباً صغيرة تنمو وتكبر ، ولكن الله ينفخ بسرّ الحياة فى كل شىء فيوجده ، لذلك هو أحسن الخالقين .

ولو نظرت إلى كل شىء فى الوجود لوجدت فيه سر الذات الفاعلة ، فلو نظرت إلى ذات نفسك ، لوجدت لك وسائل إدراك ، لوجدت لك سمعاً ، ولوجدت لك عيناً ، ولوجدت لك أنفاً ولمساً وذوقاً ، ولكن لبعض الآلات تحكم فى اختيارك ، فأنت حين تفتح عينيك ترى وإن لم ترد أن ترى تغمض عينيك . ولكن إذا أردت

ألا تسمع ، أتستطيع أن تجعل فى أذنك آلة تقول « لا أسمع » ؟ وأنت تفتح فمك لتأكل وتتذوق ، ولكن أنت لا تفتح أنفك لتشم . أنت تمد يدك لتلمس . وقل لى بالله أى انفعال لك أن أردت أن تضحك ؟ ما الآلة التى فى بدنك تحركها لتضحك ؟ أنت لا تعرف شيئاً إلا سبباً مثيراً يضحك ، لكنك لا تعرف ما هى الآلات التى تعمل فى جسمك لتضحك . وكذلك حينما تبكى ما هى الآلات التى تعمل فى ذاتك لتجعلك باكياً ؟ أنت لا تعرف . ولذلك جعل الله الإضحاك والإبكاء مع الإيجاد بالحياة ، والعدم بالموت جعل ذلك له سبحانه وتعالى .

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾

(سورة النجم)

جعل الحق فى ذاتك الإنسانية أشياء تفعل ولكنك لا تعرف بأى شىء تفعل ولا بأى شىء تنفعل . والأذن ليس لها ما يسدها عن السمع ؛ لذلك لا يأمرك الحق بألا تسمع أى شىء ، ولكن الأثر الصالح يأمر : (لا تتسمّع إلى القيلة) .

لم يقل الأثر الصالح « لا تسمع إلى قيلة » لأن الإنسان لا يستطيع أن يصم أذنيه عما يدور حوله ، لكنه يستطيع ألا يتسمّع بألّا يلقى بأذنيه إلى ما يقال . إذن فقد جعل الحق التكليف فى مقدور اختيارات المسلم ولذلك قال :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

واستخدم هنا كلمة « رأيت » لأن المسلم لا يملك شيئاً يسد به أذنيه حتى لا يسمع حديث الذين يخوضون فى آيات الله ، لكن أمر الله الذين يسمعون ذلك أن يسيروا بعيداً معرضين عن هؤلاء الخائضين . وسبحانه يوضح لنا ما خفى عنا ، وكل شىء فى الكون وإن كان ظاهره أنه « يفعل » ، لكنه فى الحقيقة هو مقهور لما ينفعل لمرادات الله بأمر الله . ولذلك يقول العارفون بالله : من جميل إحسانه إليك أن فعل ونسب إليك .

فسبحانه وتعالى الذى يفعل كل شىء ، وليس على الإنسان إلا توجيه الآلة

الفاعلة . ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان حين يكون قوياً لا يمكنه أن يعطى قوته لضعيف ، فلا أحد منا يقول لضعيف : خذ قدراً من قوتى لتساعدك على التحمل ، بينما يوضح الله للضعيفِ عملياً : تعال إلى أعطك من مطلق قدرتى قدراً من القوة لتفعل .

إذن القوة فى المخلوق لا يعطيها أبداً لمثله ، بل يعطى أثرها . مثال ذلك عندما لا يستطيع شخص أن يحمل شيئاً ثقيلاً ، فيأتى آخر قَوِىّ ليحمله عنه ، والقوى بفعله إنما يعدى أثر قوته للضعيف ، لكنه لا يستطيع أن ينقل قوته إلى ذات الضعيف ليحمل الشىء الثقيل .

والله لا يعدى أثر قوته فحسب ولكنه يمنح ويعطى قوة إلى كل ضعيف يلجأ إليه وإلى كل قوى أيضاً . وسبحانه يتفضل بالغنى والسعة لكل غنى وفقير وبرحمته إلى كل رحيم ، وبقدرته لكل قادر ، وبحكمته لكل حكيم . إذن فكل هذه مستمدات من الحق سبحانه وتعالى . هذا هو كلامنا فى « إنَّا » .

وحين يتكلم الحق قائلا : « أوحينا » فهو سبحانه يأتى بصيغة الجمع . وما الوحى ؟ قال العلماء الوحى : إعلام بخفاء ؛ لأن وسائل الإعلام شتى ، وسائل الإعلام هى التى تنقل قولاً يقوله المبلِّغ فيعلم السامع ، أو هو إشارة يشير بها فيفهم معناها الرائى . وهذه إعلامات ليست بخفاء . بل بوضوح . وعندما يقول : « أوحينا » فهو يعنى أنه قد أعلم ، ولكن بطريق خفى . وحين تطلق كلمة « وحى » يكون لها معانٍ شتى ، فكل إعلام بخفاء وحى . لكن من الذى أوحى فى خفاء ؟ ومن الذى أوحى إليه فى خفاء ؟ وما الذى أوحى به فى خفاء ؟ نجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى أجناس الوجود ، وقال عن الأرض وهى الجماد :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾

(سورة الزلزلة)

أى أن الحق قد ضبط الأرض على مسافة زمن قيام القيامة ، فتتحدث عندئذ

ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نقدر العمر الافتراضى لما نصنع لينتهى فى وقت محدد . إذن فقد أوحى الله للجماد وهى الأرض .

ويترك لنا سبحانه فى صناعة المخلوقين ما يقرب لنا صنعة الخالق ، فعندما يريد الإنسان أن يستيقظ فى الثالثة صباحاً ، وهو وقت لم يعتد فيه هذا الإنسان على الاستيقاظ ، فهو يضبط المنبه ليصدر عنه الجرس فى الوقت المحدد ، كأن الإنسان بهذا الفعل قد أوحى للمنبه ، كذلك الحق صنع الأرض وأوحى لها : فى الوقت المحدد ستنفجرين بحكم تكوينى لك . ويوحى الحق إلى جنس الحيوان :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

(سورة النحل)

هذا إعلام بخفاء من الله للنحل . فقد جعل الله فى تكوينها الغرزى ما يؤدى إلى ذلك . وهناك فرق بين التكوين الغرزى والتكوين الاختيارى ؛ فالتكوين الغرزى يسير بنظام آلى لا يعدل عنه ، أما التكوين الاختيارى فيصح أن يعدل عنه .

ومثال آخر على الآلية نجد الحاسب الآلى المسمى العقلى الإلكترونى ويقوم الإنسان بتخزين المعلومات فيه ، وهذا الحاسب الآلى لا يستطيع أن يقول لواضع المعلومات فيه : لا تقل هذه الحقيقة ، ولا يستطيع أن يمتنع عن إعطاء ما فيه لمن يطلب هذه المعلومات إن كان يعرف كيفية استدعائها . فلا اختيار للحاسب الآلى .

ويختلف الوضع فى العقل البشرى الذى يتميز بالقدرة على انتقاء المعلومات ويعرف كيف يدلى بهذه المعلومات حسب المواقف المختلفة ، ويتحكم بوعى فيما يجب أن يُستر وفيما لا يجب ستره ، بل إن العقل البشرى قد يكذب ويلون المعلومات . وهو قادر على تغيير الحقائق والتحكم فيها ، بينما الحاسب الآلى المسمى بعقل إليكترونى لا يقدر على ذلك ؛ لأنه يدلى بالمعلومات حسب ما تم « برمجته » به وتخزينه ووضعه فيه ، وهكذا يرتقى الإنسان فى الفكر .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ، أعطى لكل كائن الغرائز التكوينية التى

تناسبه ، أعطى الإنسان القدرة على الاختيار بين البديلات ، أما بقية الكائنات فقد أخذت حكم الغريزة . والكائن الذى يسير بحكم الغريزة لا اختيار له ، ولذلك تسير كل أموره مستقيمة بناموس ثابت .

ونرى هذا الأمر بوضوح فى حكم قهر السموات والأرض والكواكب التى لا اختيار لها ؛ فهى تسير حسب القوانين التى وضعها الله لها ، وكذلك النبات . فالإنسان قد يزرع شجرة فتنمو بالتسخير الغرسى الذى وضعه الله فيها ، وتمتد الشعيرات من الجذور فى باطن الأرض ؛ لتمتص ـ بتسخير الله لها ـ بعض العناصر المحددة فى التربة ، وينتفع نبات ما بمادة معينة قد لا تصلح لنبات آخر .

ويأتى علماء النبات ليعملوا فى حقل دراسات نمو النباتات ، وقد يكون بعضهم ضعيف الإيمان بالله ، أو أن قدرات الخالق لا توجد فى بؤرة شعوره دائماً . فيقول : إن النبات يتغذى حسب خاصية الأنابيب الشعرية . وخاصية الأنابيب الشعرية ـ كما نعرفها ـ هى صعود السائل إلى الأنابيب التى تكون الواحدة منها لا يزيد قطرها واتساعها على قطر الشعرة . ويصعد فيها السائل إلى ما فوق سطح الإناء . وكل سائل فى أى إناء إنما يأخذ استطراقاً واحداً . وعندما نضع الأنابيب الشعرية فى قلب هذا الإناء ، فالسائل يصعد داخل هذه الأنابيب فوق مستوى الإناء ؛ لأن الضغط الجوى داخل الأنابيب يختلف بالنسبة لحجم المياه عنها فى داخل الإناء . وظن العلماء أن النبات يتغذى بهذه الطريقة .

ونقول لهؤلاء : كيف هذا والنبات يختار عناصر معينة من السائل ؛ بينما الأنابيب الشعرية يصعد فيها الماء بكل العناصر الموجودة فى الماء ؟ . إنك أيها العالم الذى غاب الله عن بؤرة شعورك قد تدعى أن الطبيعة هى التى تفعل ذلك ، ولا تلتفت إلى حقيقة واضحة وهى أن النبات ينتقى بالتسخير الربانى الخاص بعضاً من العناصر الموجودة فى التربة ، لا بخاصية الأنابيب الشعرية .

وصدق القول الحق :

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾

(سورة الأعلى)

فسبحانه الذى قدر فهدى كل شىء إلى احتياجاته . ويقول الحق أيضاً :

﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

إذن فسبحانه يوحى لكل نبات بخاصية تكوين غريزى تختلف عن النبات الآخر ؛ لذلك نجد الفلاح يضع شجرة الفلفل بجانب عود القصب ، بجانب شجرة الرمان ، فنجد الفلفل يخرج وله مذاق حريف ، والقصب له مذاق حلو ، والرمان له مذاق فيه الحلاوة والحموضة ، إنه مختلف عن القصب وعن الفلفل ، وهذا الاختلاف لم يتم بخاصية الأنابيب الشعرية . ويقول آخر : هذا الاختلاف إنما حدث بظاهرة الانتخاب الطبيعى . ونقول : لماذا لا تقول الانتخاب الإلهى وتستريح ؟ .

إذن فالوحى هو إعلام بخفاء ، وقد يكون مطموراً فى تكوين الشىء بحيث إذا جاء وقته ينفعل ، تماماً مثلما يدق جرس المنبه فى الميعاد المحدد . والوحى إلى الحيوان يتحدد فى قوله الحق :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

ومن العجيب أن العالم الأمريكى الذى رصد حياته لدراسة النحل فى أطواره وأصنافه وأجناسه وبيئاته ، قال : أول إنتاج للنحل كان فى الجبال وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل كان فى الخلايا التى عثر عليها فى الجبال . وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله فى الشجر العالى الذى لا يملكه ، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البساتين والبيوت والخلايا ومما يعرشون . ولم يقرأ هذا العالم القرآن ليعرف المراحل الثلاث التى جاءت به ، لكنه درس بصدق البحث التجريبى ، وخرج بالنتيجة نفسها التى جاء بها القرآن . وفى كل وقت وزمان نجد عالماً من الكافرين يكتشف أشياء تؤيد وتؤكد قضية الإيمان عند المؤمنين . أما الوحى بالنسبة للإنسان فيأخذ أشكالاً أخرى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

ولم يأت إلى أم موسى رسول يُوحى إليها . لكن الأمر قد استقر فى ذهنها ، وقد تعب العلماء كثيراً ليقربوا معنى الوحى لأذهاننا ، فقالوا عنه : إنه عرفان يجده الإنسان فى نفسه ولا يعرف مصدره ، ومع هذا العرفان دليل أنه من الله . ولذلك لا يطلب العقل عليه دليلاً . والذى يصّدق على هذا هو أننا سمعنا قول الحق : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » .

وبالله عليكم ، اجمعوا الدنيا كلها وقولوا لامرأة : إن خفت على ابنك فألقيه فى البحر ، هل تصدق الأم ذلك ؟! لا يمكن ، لكن أم موسى أخذت هذا الأمر كقضية مسلم بها ، فساعة دخل الإيحاء من الله إلى قلبها ، أو الإعلام بخفاء إلى وجدانها آمنت به ، ومادام الإعلام من الله فلا شيطان يزاحمه ، بل يدخل إلى النفس فتستقبله استقبال اليقين والإيمان بلا مناقشة . وألقت أم موسى بابنها بعد أن أرضعته . وأراد الله أن يطمئنها . فأوضح لها : أَنَا أصدرت الأمر إلى البحر ليلقى الرضيع إلى الساحل . وأصدرت الأوامر ليلتقطه العدو فرعون . وأصدرت الأوامر أن يقوم بيت فرعون بتربيته .

وبعد ذلك هناك وحى للحواريين . يقول الله :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهناك وحى للملائكة كقول الحق :

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

الوحى ينتظم ويشمل ـ إذن ـ كل أجناس الوجود بطريقة خفية عند عالم خفى

عنا ، وهم الملائكة ، وعالم ملحوظ لنا ولأمثالنا مثل الحواريين ، ومثل أم موسى .

وساعة يقول : « أوحينا » ينبهنا إلى أن الإعلام بخفاء أمر غير مقصور على الله ؛ ذلك أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم :

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

ويقول أيضاً عن الشياطين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن الوحى هو إعلام بخفاء ، وليس الأمر مقصوراً على الحق سبحانه وتعالى ، بل يصح أن يكون الوحى من الله ، أو من الشياطين ، أو من جنود الشياطين .

وقد يكون الوحى إلى الجماد وإلى الحيوان وإلى الملائكة وإلى الإنسان .

وعندما نحدد معنى الوحى فإننا نقول :

الوحى فى اللغة إعلام بخفاء من أىّ ـ سواء أكان من الله أم من الشياطين ـ ولأىّ ما ـ سواء للأرض أو للحيوان أو للإنسان ـ وفى أىّ ـ سواء فى خير أو شر ـ.

وكلمة « وحى » تصلح لأى معنى من هذه المعانى بحيث إذا أطلقت انصرفت إليه . ولكن هى بالمعنى الشرعى لا تطلق إلاّ على الإعلام بخفاء من الله لرسوله ، ومثل ذلك حدث لمعنى الصلاة ، فالصلاة معناها اللغوى الدعاء ، وهناك الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، والصلاة المكتوبة هى الأقوال والأفعال ، وأخذ

الشرع معنى الصلاة واصطلح على أن كلمة الصلاة حين يطلقها الفقيه تنصرف إلى الأقوال والأفعال المخصوصة المبتدأة بالتكبير والمختتمة بالتسليم .

وفى هذا المعنى الشامل للصلاة نجد سيدنا عمر - رضى الله عنه - وقد دخل عليه حذيفة فسأله : كيف أصبحت ؟. أجاب حذيفة : أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق وأصلى بغير وضوء ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا على بن أبى طالب لكان لسيدنا عمر شأن آخر مع حذيفة .

وسأل علىٌّ عمر : ما يغضبك يا أمير المؤمنين ؟. قال عمر : سألت حذيفة كيف أصبحت فقال كذا وكذا . فقال على - كرم الله وجهه - : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتنة ، أى يحب ماله وولده ، فالحق قال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، وهو يكره الموت والموت حق ومن فينا يحبه يا أمير المؤمنين ؟ وهو يصلى بغير وضوء على النبى صلى الله عليه وسلم ، وله فى الأرض زوجة وله ولد وهو ما ليس لله فى السماء .

إذن فقد أخذ حذيفة الفتنة على معنى مخصوص ، وكذلك الموت ، والصلاة . وضربت هذا المثل لأفرق بين المعانى الشرعية والمعانى اللغوية .

ونوضح الفارق بين معنى الوحى الاصطلاحى والمعنى اللغوى ، المعنى اللغوى للوحى هو : إعلام بخفاء من أىّ لأىّ بأى . والوحى بمعناه الشرعى : إعلام بخفاء من الله لرسوله . وكل الألوان الأخرى من الوحى نأخذها بالمعنى اللغوى .

وقوله الحق هنا فى الآية التى نحن بصددها : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح » . و« أوحينا » هنا قد جاءت للإعلام بخفاء من الله لرسول من رسله . ونعلم أن صفات الكمال للحق سبحانه وتعالى هى صفات الكمال المطلق . وكل الخلق مقدورون لقدرته سبحانه . ولا يمكن لأحد أن يتصل اتصالاً مباشراً بالأعلى المطلق . ولا يستطيع أحد أن يتحمل ذلك حتى الرسول . ولذلك يأتى الحق بنورانيِّين من الملائكة ليأخذوا منه ليعطوا للرسول . ويسبق ذلك إعداد الرسول لهذه المهمة .

إذن فالمسألة تمر بمراحل تصفية ، الأعلى يعطى للملائكة ، والملائكة يعطون للمصطفى من الخلق ، والمصطفى مصنوع على عين الله ليتلقى الوحى ، ومن بعد ذلك يعطى الرسول لغيره من البشر . وكل ذلك لتقريب مسافات الالتقاء . وعلى رغم تقريب مسافات الالتقاء تحصل الهزة من آخر مرحلة حين يستقبل من أدنى مرحلة ، فحين يستقبل الرسول الوحى من ملك تحدث له هِزّة . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن أول لقاء له مع الوحى :

(حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى . فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربّك الأكرم)[1] .

وكان جبينه يتفصد عرقاً ، ورجف فؤاده ودخل على زوجه خديجة بنت خويلد فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع . وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ فهذا الملك جبريل متصل ببشر هو محمد بن عبدالله ولا بد أن يحدث ذلك للرسول ، وذلك حتى يتكيف ليستقبل من المَلَك .

لكن أتظل هذه الرجفة المتعبة ؟ . لا ، إن الوحى يَفتر لفترة وتذهب عنه متاعبه فيشتاق الرسول إليه ويصير قادراً على تحمل متاعبه ، مثل تفصد الجبين بالعرق ، ومثل الثقل فى الحركة حتى إذا جاءه الوحى وهو على دابة فهى تئط وتئن ، وإن جاءه الوحى وهو جالس وفخذه على فخذ واحد من الصحابة ، فيكاد ثقل الرسول يرض عظام الرجلِ ويكسرها ، كل ذلك من المتاعب تحدث للرسول فى أثناء الوحى ؛ لأن تغييراً كيماوياً يحدث فى بدنه صلى الله عليه وسلم ليتأكد أن الكلام الذى يتلقاه ليس كلاماً عادياً ، لكنه كلام قد جاء بإعجاز ، وأنه من عند الله .

---

(١) رواه البخارى من حديث عائشة أم المؤمنين .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد كان للوحى صلصلة كصلصلة الجرس . وكأن هذا الصوت إعلان أن زمن وساعة الوحى قد جاءت فاستعد لها يا رسول الله . وعندما تعب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البداية ، كان من رحمة الله به أن جعل الوحى يفتر عنه ، فيشتاق صلى الله عليه وسلم للوحى بسبب حلاوة ما أوحى إليه ، ويجعله هذا الشوق مستشرفاً للمتاعب . وعندما فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خصومه : رب محمد ودعه وجَفاه . ولم يتذكروا أن لمحمد رباً إلاّ فى هذه المسألة بعد أن اتهموه بالكذب ولم يمتلكوا الذكاء حتى يعبروا عن هذا الأمر بتعبير لا يتناقض مع موقفهم السابق منه . وحين رأى الحق الإجهاد الحاصل لرسوله جعل الوحى يفتر ، حتى تبقى حلاوة ما يوحَى به ويذهب التعب ويشتاق رسول الله إلى ما يُوحى إليه .

إن الشوق وتلك المحبة يجعلان رسول الله لا يشعر بوطأة الألم المادى البشرى ، والإنسان منا حين يذهب إلى حبيب له يسير فى الشوك والوحل ولا يبالى . إذن ففتور الوحى كان لتربية الشوق فى نفسه صلى الله عليه وسلم ليستقبل الوحى ، ولينتبه كل منا حين يقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن ما سيأتى لك من بعد ذلك سيسرك . ويقول الحق بعدها :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشرح)

وحين عرض الحق هذه المسألة بهذه الكيفية أراد أن يبلغنا : لا تظنوا أن رب محمد ـ كما يقولون ـ قد جفاه ، لا ، بل يعده ليستقبل أكثر مما جاء من قبل ، فسنن الكون أمامكم ، لكن كفرهم أعمى أبصارهم وبصيرتهم ، ويقول سبحانه :

﴿ وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الضحى)

وسبحانه يقسم بما شاء على ما شاء . والضحى هو ضحوة النهار وهى محل الحركة

والكدح والجهد والجد والتعب ، والليل محل الراحة والسكون .

كأن الحق يوضح : إنكم إن نظرتم فى آية الكون لوجدتم أن الله قد جعل الضحى للكدح والليل لنسكن فيه ، وفتور الوحى هو سكون ليعاود محمد نشاطه فى حركة الوحى الجديدة ، هو الحق ـ سبحانه ـ يقسم : « والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى » أمجىء الليل بعد النهار ضن من الله على الناس بالنهار ؟ لا ، إنما الليل عطاء من الله ليسكنوا وليستقبلوا النهار الجديد .

وأنزل سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها حينما سأل اليهود النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ .

فيأمره الحق أن يوضح : أنا قد أوحى الله إلىَّ كما أوحى إلى الرسل السابقين ، فهل أنتم شككتم فى وحى الله لموسى ؟ أشككتم فى وحى الله لمن سبق موسى ؟ صحيح أنكم شككتم فى مسألة عيسى ، لكن لنضع الأمر الذى تكذبون فيه جانباً ولنأخذ ما أنتم مصدقون به ، فيقول سبحانه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » .

إذن فأنت يا محمد لست بدعاً فى هذه المسألة : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ويمر العلماء على هذه المسألة مروراً سريعاً ، لكننا نقف عندها ونقول : قد يوحى هذا القول أن أول وحى كان لنوح . والحقيقة أن الوحى الأول كان لآدم من قبل ، لكنْ هناك فارق بين الوحى لآدم والوحى للأنبياء من بعده .

ومثال ذلك نوح ، فنوح طرأ على أمته وكانت أمته موجودة ثم جاء هو إلى هذه الأمة مبشراً ونذيراً . أما آدم عليه السلام فقد طرأت عليه أمته ، لذلك لم يرسله الله بمعجزة ، فهو أب للجميع . والأبناء يقلدون الآباء ، بل حتى أبناء الملاحدة يقلدون آباءهم . وقد أوحى الله لآدم وقال له : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمَن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وإرسال الهدى لآدم هو مجىء الوحى إليه .

ولماذا جاء نوح فى هذه الآية أولاً ؟ لأن نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قد

طرأ على أمته ؛ لذلك احتاج إلى وحى وإلى معجزة . وأرسل الله نوحاً إلى الناس كافة ؛ لعموم الموضوع ، فلم يكن هناك من البشر غيرهم . لكنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله للناس كافة ؛ لأن الإسلام هو الدين الخاتم . وكان قوم محمد موجودين . وكذلك كان غيرهم موجوداً .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم » . لماذا قال الحق : « والنبيين من بعده » أى من بعد نوح ؟، ولماذا قال : « وأوحينا إلى إبراهيم » وذكر أسماء الأنبياء من بعد إبراهيم ؟

يقول العلماء : هنا عطف خاص على عام لزيادة التنبيه على شرف هؤلاء ، « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » ، وكأن الحق يقول : حين يسألك اليهود - يا محمد - أن تنزل عليهم كتابا من السماء قل لهم : إن الله أوحى إلىَّ كما أوحى إلى الأنبياء السابقين ؛ فلست بدعا من الرسل . وحتى لو أنزل إليهم محمد كتاباً فى قرطاس ولمسوه بأيديهم لقالوا : هذا سحر مبين ، كما قال :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فالمنْكِر يريد الإصرار على الإنكار فقط . وليست المسألة جدلاً فى حق وإنما هى لَجَاج فى باطل .

ويتابع سبحانه وتعالى أسماء الأنبياء الذين أوحى الله إليهم : « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » ونلحظ أنه جل وعلا ذكر الوحى عاماً ؛ لكنه حينما جاء لداود ذكر اسمَ كتابِه « الزبور » ولم يأت فى الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين مثل نزول التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ؛ لأن ما جاء به داود فى الزبور أمر تُجمع عليه كل الشرائع ، وهو تحميد الله والثناء عليه فلم توجد فى الزبور أية أحكام .

وقد يقول قائل : إن عيسى أيضاً لم تنزل عليه أحكام فى الإنجيل . ونقول : لأن الإنجيل يلتحم بالتوراة ؛ وجاء بالوجدانيات الدينية وكانت التوراة موجودة قبله وفيها الأحكام . ولذلك فمن عجيب أمر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أنهم على رغم اختلافهم فى قمة الأمور وهى مسألة عيسى وأم عيسى ، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا ويسموا الكتابين « العهد القديم والعهد الجديد » ويَعْتبروهما كتاباً واحداً يسمونه الكتاب المقدس .

وما معنى « الزبور » ؟ المادة كلها مأخوذة من « زَبَرَ البئر » ، فعندما يقوم الناس بحفر بئر ليأخذوا منها الماء ، يخافون أن ينهال التراب من جوانبها عليه فتطمر البئر ؛ لذلك يصنعون لجدران البئر بطانة من الحجارة ، وفى الريف المصرى نجد أنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت .

وكلمة « زَبَرَ البئر » تؤدى معنى كل عملية لإصلاح البئر ؛ ثم أخذ الناس هذه الكلمة فى معانٍ مختلفة ، فسموا العقل « زَبْرًا » لأنه يعقل الأمور . وإذا كان السياج من الحجارة يعقل التراب عن البئر ويمنعه ، فكذلك العقل يحمى الإنسان من الشطط وليضبط الإنسان حريته فى إطار مسئوليته ليفكر ، ويعقل الغرائز عن الفكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال . ويخطىء الناس فى بعض الأحيان فى فهم معنى « العقل » ؛ ويظنون أن العقل هو إطلاق الحبل على الغارب للأفكار دون انتظام أو مسئولية ، ونقول : افهموا أولاً معنى كلمة العقل حتى تعرفوا مهمته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

والرسل الذين ذكرهم الله فى الآية السابقة ليسوا كل الرسل الذين يجب الإيمان

بهم تفصيلا فحسب ، فكما علمونا فى الأزهر الشريف يجب أن نؤمن بخمسة وعشرين رسولا وقد نظمهم بعض الشعراء فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا
ذو الكفل ، آدم ، بالمختار قد ختموا

وفى سورة الأنعام نجد قوله الحق :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وفى هذه الآيات ثمانية عشر رسولاً ، وبالإضافة إلى سبعة هم إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، هم إذن خمسةوعشرون رسولاً ذكرهم الله ، لكن الآية التى تسبق الآية التى نحن بصددها لم يذكر الله كل أسماء الرسل . وذكر أسماء بعض الرسل فى سورة الأنعام وبعضهم فى سورة هود وبعضهم فى سورة الشعراء . ويقول الحق :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى أن الخمسة والعشرين رسولاً ليسوا كل الرسل الذين أرسلهم الحق إلى الخلق ، فقد قال :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

أى أنه قد قص علينا أعلام الرسل الذين كانت أممهم لها كثافة أو حيّز واسع أو لرسلهم معهم عمل كثيف ، ولكن هناك بعض الرسل أرسلهم سبحانه إلى مائة ألف أو يزيدون مثل يونس عليه السلام :

﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وكان العالم قديماً فى انعزالية . ولم يكن يملك من وسائل الالتقاء ما يجعل الأمم تندمج . وكان لكل بيئة داءاتها ، ولكل بيئة طابع مميز فى السلوك ، ولذلك أرسل الله رسولاً إلى كل بيئة ليعالج هذه الداءات ، ولا يذكر الداءات الأخرى حتى لا تنتقل من مجتمع إلى مجتمع آخر بالأسوة . وحين علم الحق بعلمه الأزلى أن خلقه بما أقدرهم هو سبحانه على الفكر والإنتاج والبحث فى أسرار الكون سيبتكرون وسائل الالتقاء ؛ ليصير العالم وحدة واحدة ، وأن الشىء يحدث فى الشرق فيعلمه الغرب فى اللحظة نفسها ، وأن الداءات ستصبح فى العالم كله داءات واحدة ؛ لذلك كان ولابد أن يوجد الرسول الذى يعالج الداءات المجتمعة ، فكان صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم والرسول الجامع والرسول المانع .

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويتكلم الحق سبحانه عن تاريخ النبوات مع قومهم بكلمة « قصصنا » ولذلك حكمة ، فالقصص معناه أنه لا عمل فى الأحداث للرسول ، بل تأتى الأحداث فى السياق كما وقعت . وسبحانه يعلم أزلاً أن خلقه سيبتكرون فناً اسمه « فن القصص » .

ومن العجيب أنهم يسمونه فن القصص ، وينسج المؤلفون حكايات خيالية أو حكايات ليس لها واقع . وعندما يأتون إلى التاريخ الواقع يزيد المؤلف جزءا من الأحداث أو يضيف من خياله أشياء ، ويقولون هذه متطلبات إتقان فن القص ،

ويحرمون أنفسهم من أمانة النقل . ولذلك يأتى الحق ليوضح لنا أن القص الخاص بالرسل وبغيرهم فى القرآن قصص واقعى ، حقيقى ، حدث فعلاً .

وكلمة « القصص » مأخوذة من قص الأثر أى أن نسير مع القدم كما تَذهب ، فلا نذهب هنا ولا نذهب هناك . وحكايات الأنبياء فى القرآن واقعية . ومن رواية الحق لا من رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يرويه الحق لخلقه ليسيروا على المنهج . وما يرويه الخلق بعضهم لبعض للتسلية أو غير ذلك . ونجد روايات الخلق تزدحم فى بعض الأحيان بخيال البشر ، مثل روايات جورجى زيدان عن الإسلام والأنبياء ، وعندما سألوه لماذا أضاف من عنده إلى الواقع ، أجاب الإجابة التقليدية : فعلت ذلك من أجل الحبكة القصصية .

ويجب أن نميز ونفرق بين روايات الخلق وقصص الحق ونضعه فى بؤرة الشعور حتى لا يُدخل أحد من خياله على قصص القرآن ما ليس فيه ، وحتى لا يأتى واحد ذات يوم ويقول : إن كل القصص واحد . فنحن فى القرآن لسنا أمام مؤلف ، بل أمام الخالق الأعلى الذى يروى لنا ما يعلمنا . وسبحانه علم أزلاً ما سيدور فى كونه ، لذلك قال :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾
(سورة يوسف)

وسبحانه قد قص على الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن أحسن القصص ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيعالج أجناس العالم التى توزعت على جميع الرسل من إخوانه ، ومادام عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل من إخوانه ، فلا بد أن يوضح سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده : أنّه حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثاً إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت دأءات ذلك المجتمع هى كذا وكذا . ومحمد صلى الله عليه وسلم ـ كما نعلم ـ مَوْكولٌ إليه علاج كل أجناس البشر وكذلك أمته من بعده ، ولابد أن يعرفوا أخبار كُل المجتمعات والرسل : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) .

إذن فكلمة « قصص » تدل على أنها حكايات لحركة العقيدة التى كانت مع كل الرسل . والتاريخ ـ كما نعلم ـ هو ربط الأحداث بأزمانها ، فمرة نجعل الحدث هو المؤرَّخ له ، ثم نأتى بأشخاص كثيرين يدورون حول الحدث . ومرة نجعل الشخص هو الأصل والأحداث تدور حوله ، فإذا قلنا كلمة « سيرة » فنعنى أننا جعلنا الشخص هو محور الكلام ؛ ثم تدور الأحداث حوله . وإن أرخنا للحدث ، نجعل الحدث هو الأصل ، والأشخاص تدور حوله .

مثال ذلك : عندما نأتى لنتكلم عن حدث الهجرة ؛ نجعل هذا الحدث هو المحور ، ونروى كيف هاجر رسول الله ومعه أبو بكر ، وكيف هاجر عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة ، وبذلك تكون الهجرة هى المحور وكيف دار الأشخاص حول هذا الحدث الجليل .

ومثال آخر : عندما نروى سيرة من السير ، مثل سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، نجعل النبى صلى الله عليه وسلم محور الحديث والتاريخ ، ونروى كيف دارت الأحداث فى حياته .

إذن فأخبار وقصص الرسل تكون هى المحور ونلتقط الأحداث التى مرت عليهم ؛ لأن الرسالات حين تأتى الناسَ بمنهج السماء ؛ تنقسم إلى قسمين : قسم نظرى يريد الحق أن يعلمه لخلقه بواسطة الرسول ، وهو القسم العلمى ، فتلك قضايا يجب أن يعلموها . وقسم عملى ؛ لأن الحق يريد من خلقه أن يعلموا ويريد منهم ـ أيضا ـ بعد أن يعلموا أن يطوعوا حركة حياتهم على ضوء ما علموا . فليست المسألة رفاهية علم ، ولكنها مسئولية تطبيق ما علموا فى محور « افعل » و« لا تفعل » . ولو كانت المسألة أن يعلم الخلق فقط ، لكان من الممكن أن نقول : ما أيسرها من رحلة .

لقد وجدنا كفار قريش عندما طلب الرسول منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، قاوموا ذلك . ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تقال لقالوها . لكنهم عرفوا مطلوب الكلمة ، وعرفوا أنه لن توجد سيادة ولا عبودية ولا أوامر لأحد غير الله ، ومعنى ذلك المساواة المطلقة بين العباد .

إذن فكل تكليف من السماء إنما نزل ، والقصد من العلم به هو العمل به ، أى توظيف العلم تطبيقاً ، فلا قيمة لعلم دون عمل . وعندما يبلغ الرسول القوم : هذا هو الحكم ، ومطلوب من كل واحد منكم أن يطوِّع حركة حياته على ضوء هذا الحكم . وتجىء الأحكام دائماً فى طاقة البشر .

وهناك أناس قد علموا وعملوا وهذه هى قصصهم ، هذه قصة فلان وقصة فلان . فالقصص يعطينا الجانب العملى المطلوب للمنهج ، ولذلك قصَّ لنا الحق قصص الرسل فى القرآن . ويبلغنا الحق بالنسب الإيمانى ، ويعلمنا النسب المعترف به عند الأنبياء ، فيحكى قصة نوح عليه السلام ، عندما أوْحى إليه بضرورة أن يصنع السفينة ، وسَخِر قومُه منه ، وبعد أن صنعها جاءه الأمر الإلهى بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . ويقول الحق :

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

(سورة هود)

قوله الحق « إلا من سبق عليه القول » كان يجب ألا تمر على فطنة نوح ؛ ذلك لأنها تتضمن أن هناك أناساً من أهله لن يؤمنوا ، فيقول لابنه :

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

(من الآية ٤٢ سورة هود)

وكان الرد :

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

فقال نوح :

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

وبعد أن غرق ابن نوح وابتلعت الأرض ماءها ، نادى نوح ربه فقال :

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة هود)

نحن - إذن - أمام لقطة قصصية فى قصة نوح . يلفتنا بها الحق إلى مسألة بنوة الرسالات ، فالبنوة هنا منهجية . ومن يتبع النبى هو الذى يكون من نسبه . ومن لا يتبع النبى فليس من نسبة ؛ لذلك قال الحق : (يا نوح إنه ليس من أهلك) . فأهل النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبى . ويشرحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال عن سلمان الفارسى :

(سلمان منا أهل البيت)[1] .

ولم يقل : إن سلمان عربى ، أو إنّه من المسلمين ، لكنه قال : إنه من أهل البيت . وقد أوضح الحق ذلك فى قصة ابن نوح : (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) .

وخاض فى معنى « ليس من أهلك » بعض الخائضين باللغو وقالوا : إن أم ابن نوح قد فعلت السوء ، ولهؤلاء نقول : استغفروا ربكم وانظروا إلى حيثية الحكم :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إذن فنسبة الأبناء للآباء من الأنبياء نسبة عمل لا نسبة دم ولا نسبة عن زواج أو إنجاب ، أما الذين قالوا السوء فى امرأة نوح فعليهم أن يستغفروا الله ، فالحق

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك . والطبرانى فى الكبير عن عمرو بن عوف .

سبحانه منزه عن التدليس على رسوله . وهب أن أم الولد قد فعلت ذلك ـ معاذالله ـ فما ذنب الولد حين تصير أمه إلى هذا ؟ لا دخل للولد بذلك ، لكن قول الله : « إنه عمل غير صالح » يدل على أن ثبوت البنوة الإيمانية يكون بالعمل فقط .

ولننظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهله وعشيرته . . فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين ، جعل النبى صلى الله عليه وسلم يدعو بطون قريش بطنا بطنا : يا بنى فلان أنقذوا أنفسكم من النار حتى انتهى إلى فاطمة فقال : يا فاطمة ابنة محمد انقذى نفسك من النار لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحمًا سأبلها ببِلالها)[1] .

ويضرب الله المثل فى الزوجات ؛ فيقول :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾

(سورة التحريم)

وليس المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية ؛ لكن لنستدل على أن الرسول وإن كان رسولاً ليس له من القدرة على أن يقهر زوجه وامرأته على عقيدة ؛ فهى تملك حرية الاعتقاد ؛ فلا ولاية هنا للرجل على المرأة فى العقيدة حتى إن ادعى الألوهية ؛ كفرعون مثلاً يقول الحق عن امرأته :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾

(سورة التحريم)

هذه اللقطات تدلنا على أن قضية الإيمان لا ينفع فيها النسب أو الزواج . فالابن هو العمل الصالح ، والحيثية فى ذلك قول الحق عن ابن نوح : « إنه عمل غير صالح » فلم يذكر ذات الابن ولكنه ذكر العمل .

ولكل نبى قصة يذكرها الحق ليتضح المنهج فى أذهان الناس . ويأتى الله بالمثل فى

(١) رواه الإمام أحمد . ورواه مسلم فى الإيمان ، والبخارى فى الأدب والترمذى فى التفسير والنسائى فى الوصايا .

المصطفَيْنَ الأخيار الذين اصطفاهم الله لهداية الناس مثل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام . الذى يبتليه ـ سبحانه ـ فى أول حياته بالإحراق فى النار . كان إبراهيم شاباً يمتلىء بالأمل فى الحياة ، فماذا كان من إبراهيم ؟

أراد الحق نجاة إبراهيم من النار . وتركهم يتمكنون منه ويضعونه فى قلب النار . ولم تمطر السماء لتطفىء النار ، وكل ذلك لتكون حجة الحق واضحة ، وحتى يكون كيد الله كاملاً لهؤلاء الكافرين . إن إبراهيم عليه السلام لم يهرب منهم ، ولم تمطر السماء ، بل ظلت النار ناراً ويعطل سبحانه ناموس النار حين دخول إبراهيم إليها .

(روى عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه فى النار قال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك . قال : ثم رموا به فى المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . فقال جبريل فاسأل ربك . فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى.فقال الله : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم)[1] .

وفى هذا غيظ ودحض لمكر الذين مكروا بإبراهيم . إذن يعطينا الحق فى القصص القرآنى المثل لنجمع من حياة كل رسول العبر ونستفيد منها ، لنكون بحق خير أمة أخرجت للناس ؛ لأننا أخذنا تجارب كل رسول وجعلناها منهجاً لنا فى حياتنا .

وقد ابتلى الحق إبراهيم فى أول حياته فى نفسه ، وابتلاه فى أخريات حياته فى ابنه ، ونجح إبراهيم فى الابتلاء الأول حين كانت حياته أهم بالنسبة إليه من كل شىء ، وحين يتقدم فى السن ، فمن المفروض أن تكون كل حياته لمن بعده من الأبناء فيبتليه الله فى ابنه . لم يقل له : إن ابنك سيموت وعليك بالصبر . ولم يقل له : إن واحداً سيقتل ابنك وعليك بالصبر ؛ بل يأمره بذبح ابنه ، تلك قمة الابتلاء . لأنه لم يأت بوحى مباشر كالنفث فى القلب أو الكلام من وراء حجاب أو يرسل له الله ملكا يبلغه ما يريد ، بل برؤيا منامية : (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى

---

(١) تفسير القرطبى وذكر نحوه ابن كثير فى تفسيره والزمخشرى فى الكشاف .

أذبحك) . ويقول إبراهيم لابنه المسألة كما رآها فى المنام . والرؤيا عند الأنبياء حق .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يرد إسماعيل على أبيه بأن هذه المسألة هى مجرد رؤيا ؟ ولماذا لم يأخذ إبراهيم ولده على غرة دون أن يقول له ؟ .

ونقول : إن إبراهيم من فرط وشدة حنانه وحبه لابنه آثر أن ينال الابن الثواب العظيم والجزاء الجليل بأن يقتل ويقدم حياته امتثالا لأمر الله ، فقال إبراهيم :

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وها هوذا قول إسماعيل :

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ولم يقل إسماعيل لأبيه : « افعل الذبح » ولكنه قال : « افعل ما تؤمر » أى أن إسماعيل لم يأخذ الكلام على أنه كلام من أبيه ، بل أخذه كأمر من الله . ولو أخذه أبوه على غرة قد يتحرك قلب الابن غيظاً على أبيه وحقداً عليه فيعتدى على الأب ، وهنا نجد حنان الأب على الابن جعله يخبره بالأمر الآتى من السماء ؛ والشأن فى حنان الأب على الابن أن ييسر له كل أمور حياته . أما حنان الحنان فهو تيسير كل خير بعد مماته ؛ لذلك لم يشأ إبراهيم أن يحرم إسماعيل من الامتثال لأمر الله ؛ فينال الاثنان معاً شرف الامتثال لله . وأعطاه كل الحنان فى الزمان الأبقى والزمان الأخلد فى الدار الآخرة ؛ حتى نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد منا إلا الامتثال لقضائه وقدره ، ويقول الحق :

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

هذا شرف الامتثال فى التسليم لله . . ففى البداية أسلم إبراهيم أمره لله ، وعندما عرض الأمر على ابنه سلم الابن أمره لله ، فنال الاثنان منزلة الشرف فى التسليم لأمر الله . ونجح الاثنان فى الاختبار ، فقال الحق :

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد أنقذ الحق إبراهيم وابنه من مسألة الذبح ، ولهذا نقول دائماً : لا يُرفع قضاء من الله على خلقه إلا أن يستسلم الخلق للقضاء ، والذين يطيلون أمد القضاء على نفوسهم هم الذين لا يرضون به . وأتحدى أى إنسان أن يكون الله قد أجرى عليه قضاء مرض فيرضى به ويعتبر أن ذلك صحة اليقين ، ولا يرفع الله عنه المرض . فالإنسان بالصحة يكون مع نعمة الله ، ولكنه بالمرض يكون مع الله .

فقد حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده !! أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟)[1] .

من إذن يجرؤ على الزهد فى معية الله ؟ وعندما يعرف المريض أنه فى مرضه الذى يتأوه منه هو فى معيةالله لاستحى أن يقول : « آه » ، ولكننا لا نطلب من المريض ألا يقول « آه » ، ولكن نطلب منه أن يتوجه إلى الله ويقول : « ولكن عافيتك أوسع لى » .

وقول الحق : (فلما أسلما وتله للجبين) هذا القول يدلنا على أن القضاء لا يُرفع إلا بالرضا به ، فإن رأينا واحداً قد استمر معه القضاء فلنعلم أنه لم تحن ولم تأت عليه لحظة رضى فيها بالقضاء . ولم يرفع الله القضاء فقط عن إبراهيم ، ولم يُفْد إسماعيل فقط بذبح عظيم ، بل بشر الله إبراهيم بولد آخر هو إسحاق :

﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وها هى ذى لقطة أخرى نأخذها من القصص القرآنى مع سيدنا موسى ؛ لنتبين ماذا يصنع المنهج الإيمانى فيمن اقتنع به ، وحدثت هذه القصة فى وقت تهيئة سيدنا

(١) من حديث أبى هريرة رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب البر .

موسى للرسالة ، حدثت هذه الواقعة وهو ذاهب إلى شعيب ، ولم يكن رسولاً بعد ، مما يدل على أن فطرية الإيمان كانت موجودة عنده ، وأن الله قد صنعه على عينه ، لقد ورد ماء مدين ووجد الفتاتين تذودان وتطردان الماشية عن الماء ، فماذا دار بينه وبينهما من حوار ؟. وكيف كانت رؤيته لهما أولاً :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القصص)

وفى قول المرأتين : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » قدر من المبادئ فخروجهما من البيت سببه أن الأب شيخ كبير ، ومع أنهما فى ضرورة وخرجتا للعمل فلم تنس واحدة منهما أنها أنثى يجب أن تحترم أنوثتها فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء » أى أنهما ستسقيان من بعد أن يذهب الزحام من الرجال حول البئر . إذن فقد أخذت بنتا شعيب الضرورة فى حجمها ولم تتخذ إحداهما من الضرورة حجة لإهدار الأنوثة والتزاحم للوصول إلى البئر . فماذا حدث من موسى ؟. (فسقى لهما) .

تلك الهمة الإيمانية التى وُجدت فى موسى قبل أن يصير رسولاً ، وذلك ما يوضحه لنا الحق حتى لا يقول إنسان : كيف أكون مثل رسول من عند الله ؟.

كأن الهمة الإيمانية التى وَصَفتها تلك اللقطة القصصية توقظ مسئولية كل مؤمن ليسلك مثل هذه السلوك . فعندما يرى امرأةً قد خرجت عن محيط بيتها لأى عمل ، فعليه أن يقضى لها حاجتها حتى ترجع إلى بيتها وذلك دون أن يتخذ من ذلك ذريعة ووسيلة إلى أمر ينزل بهمته وينال من مروءته . ولو انتشرت بيننا تلك الهمة الإيمانية لما وجدنا امرأة فى الطريق إلا للضرورة . لقد أوضحت لنا تلك اللقطة القصصية حرص المرأة على موضعها وموقعها من الستر ، فتقول واحدة من المرأتين لأبيها شعيب بعد أن استقدمه ليجزيه أجر ما سقى لهما :

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة القصص)

كأن المرأة لا يحل لها أن تتحرك فى الكون هذا اللون من الحركة الواسعة ، ويسمع شعيب وهو الرجل العاقل لابنته فكيف يستأجر رجلاً وعنده ابنتان ، فيفكر شعيب ويعثر على الحل الصحيح بفطنة إيمانية ، فيستدعى موسى ويقول له :

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة القصص)

وفى مثل هذه الحالة سيكون موسى متزوجاً بواحدة ومُحرَّماً على الأخرى .

وهذه اللقطات القصصية نلتفت إليها لنتعلم منها الفطنة الإيمانية . وها نحن أولاء مع موسى وقد ناداه الحق ليجعله رسولاً ، ولنر صفاء النفس الإيمانية وهى تتلقى مهمة الرسالة ؛ إن موسى يرغب فى أن يكون أداؤه للرسالة كاملاً ؛ لذلك يطلب من الحق أن يرسل معه أخاه هارون :

﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة القصص)

هو يرشح معه هارون للرسالة لأنه حريص على النجاح فى دعوته لأن لسانه ثقيل لرتَّة ولُثغة وتردد فى النطق من أثر الجمرة التى أصاب بها لسانه وهو صغير ، والرسالة تحتاج إلى بيان وبلاغة فيطلب مساعدة أخيه ولم يستنكف ذلك . فما بالنا بما هو حادث وحاصل فى أيامنا ، حين يختار الحاكم رئيساً للوزراء فلا يطلب معاونة الأكْفَاء ، بل قد يخشى أن يكون له نائب له كفاية عالية فوق كفاءته .

واللقطات القصصية فى القرآن تعلمنا الكثير ، وأراد الحق أن يثبت بها للأمة المحمدية دقة المنهج الإيمانى ، فمادام قد أرسل لنا منهجاً لنعلمه ، فهو يطلب منا أن نطبق هذا المنهج ونوظفه فى حياتنا . وليس ذلك بدعا ، بل هو موجود فى قصص الرسل الذين عَلِموا المنهج فطبقوه فى ذواتهم أولاً ؛ لأن الآفة أن نعلم العلم ولا نطبقه .

وفى زماننا يقال ويشاع : إن التعليم الدينى فى المدارس لا يأتى بثمار طيبة فى سلوك

الطلاب . ونقول لمن يرددون ذلك : أنتم لا تفهمون طبيعة التعليم الدينى ؛ فتعليم الدين لا يمكن أن يتساوى مع تعليم الجغرافيا أو الهندسة وغيرهما من العلوم ؛ لأننا عندما نعلم طالباً الهندسة فهو يستطيع أن يكون عالماً متفوقاً فيها ويأخذ المعطيات والنظريات ويتفوق فى المجال الهندسى ، ولكن لم تطلب منه أية نظرية هندسية أن يعدل سلوكه فى الحياة بأن ترشده فى السلوك اليومى : افعل كذا ولا تفعل كذا .

فالنظريات الهندسية لا تتدخل فى حياة الطلاب ، لكن الطالب عندما يتعلم الدين إنما يتعلم أن يفعل الأمر الدينى ، ولا يفعل الأشياء المنهى عنها . والصعب فى التعليم الدينى هو التطبيق العملى . وعندما لا يرى التلميذ التطبيق العملى من الذين يعلمونه الدين أو من الأسرة ، فإنه لا يتعلم الدين ، فيقال للطالب : الدين ينهى عن الكذب ، لكن الطالب يجد الكذب سلعة رائجة فى المجتمع . ويقول الدين له : الصلاة عماد الدين وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يجد الطالب من يصلى أمامه أو يجد من يصلى ولا يقيم عمارة الدين باتباع ما تأمر به الصلاة من نهى عن المنكر ، إذن ففشل التعليم الدينى لا يأتى من ناحية غياب المعلم ولكن من عدم وجود التطبيق العملى للسلوك الدينى .

ونعود للقص القرآنى . جاء القصص ليوضح لنا التطبيق للجانب النظرى من الدين ، وطبَّقهُ الرسل على أنفسهم . وأنتم يا أمة الإسلام لستم أقل من أحد ، بل أنتم خير أمة أخرجت للناس ، وعليكم أن تأخذوا الخير الذى حدث فى موكب الرسالات كلها وتطبقوه فى ذواتكم .

هذا هو معنى قوله الحق : « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك » . وقد جاء لنا القرآن بعيون القصص حتى نأخذ منها لقطات العبرة . ويقول قائل : ومن هو الرسول ؟

يقول العلماء : هناك رسول وهناك نبى . وأقام بعضهم مشكلة حول هذا الأمر ، فقال بعضهم : كل رسول نبى ولا عكس . ونقول لأصحاب هذا الرأى : لو نظرنا إلى المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى لأرحنا أنفسنا جميعاً ، فالقرآن يقول :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالنبى أيضاً مرسل من الله ، وعلى ذلك فكلاهما - النبى والرسول - مرسل من عندالله ، لكنْ يوجد فرق بين أن يرسل الحق تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مستوعباً لأشياء وأحكام لم تكن موجودة فى الرسالة السابقة عليه ، وبين أن يأتى إنسان مصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة ، فالأنبياء قد أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يَأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو من أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه . هذا هو الزائد فى مهمة الرسول .

إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل الحق الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيطبقوا ما أرسل به الرسل السابقون عليهم ، وهذا أمر لا يأتى إلا فى الأمم التى لها سجل فِى المكابرة مع الرسل .

ولذلك نجد أن اللجاجة دفعت بنى إسرائيل إلى التفاخر بأنهم أكثر الأمم أنبياء ، صحيح أنهم أكثر الأمم أنبياء . لكن علينا أن نعرف أن النبوات والرسالات إنما تأتى لتشفى الناس مما بهم من داءات ؛ فعندما نقول عن إنسان إنّه أكثر الناس تردداً على الأطباء ، فمعنى ذلك أن أمراضه كثيرة ، وكذلك بنو إسرائيل كانت داءاتهم كثيرة . وكثرة الرسل إليهم لا ترفع من منزلتهم . بل تدل على كثرة أمراضهم .

إذن فالرسول والنبى كلاهما مرسل . والفارق أن الرسول معه تشريع سماوى ليبلغه ويطبقه ، والنبى مرسل للتطبيق ، فإن جئنا لمعنى الرسول اصطلاحياً ؛ فهو الموحِي إليه بشرع يعمل به وأمره الله بتبليغه . ويذيل الحق الآية : « وكلم الله موسى تكليماً » ولاشك أن موسى كان من هؤلاء النبيين الذين شملهم قوله الحق : « إنا أوحينا » . ولسائل أن يسأل فيقول : ولماذا خص الله موسى بقوله : « وكلم الله موسى تكليماً » ؟ .

ونقول : الوحى الذى يوحى الله به لأنبيائه هو الوحى الاصطلاحى الشرعى الذى نتكلم عنه دون الوحى اللغوى الذى سبق أن أفضنا فيه . والحق سبحانه وتعالى قد بين الطريقة التى يخاطب بها أنبياءه المصطفين لأداء رسالتهم إلى خلقه ، فقال :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾

(من الآية : ٥١ سورة الشورى)

إذن ، فطريقة التقاء الحق بالأنبياء ؛ إما أن تكون بالوحى ، وإما أن تكون من وراء حجاب ، وإما أن تكون بإرسال رسول كجبريل عليه السلام . فإذا ما نظرنا إلى الآية وجدنا أن الوحى ينقسم إلى ثلاثة أقسام : وحى خاص ، وكلام من وراء حجاب ، وإرسال رسول ، وكل هذه الأقسام الثلاثة تدخل فى إطار الوحى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً » .

أى ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا إلهاماً وقذفا فى القلب ، أو يكلمهُ « من وراء حجاب » وهو كلام من الله يسمعه الرسول ، لكنه لا يرى المتكلم وهو الله . أما الوحى بواسطة الرسول ، فهو نزول جبريل إلى الرسول بما أوحى به الله .

فإذا ما نظرنا إلى قوله الحق : « وكلم الله موسى تكليماً » فكأنه سبحانه قد خصه بهذه العبارة ليدل على أنه أوحى لموسى بطريقين ، أولاً : بالطريق الذى أوحى به إلى غيره من الأنبياء ، ثانياً : بالطريق الخاص وهو كلام الله الذى بدأ به موسى بالوادى المقدس .

وقوله الحق : « تكليماً » يدفعنا إلى التساؤل : لماذا جاء الحق بالمصدر هنا ؟ . لأن مطلق الوحى بأى وسيلة سماه الله كلاماً . إذن فالنفخ فى الرُّوع كلام ، والكلام من وراء حجاب كلام ، وإرسال الرسول بالوحى كلام . والكلام هو ما يدل على مراد المتكلم من المخاطب ، بدليل أن الله سمى الوحى فى صوره الثلاث كلاماً « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » .

والخفاء فى الوحى إما أن يكون خفاء فى الأسلوب ، أى لا يسمعه أحد غير الرسول ، وقد لا يسمعه الرسول ويكون بقذف الكلام فى رُوع الرسول وقلبه وهو يؤدى مؤدى الكلام أى الدلالة على ما فى نفس المتكلم الذى يريد نقله للمخاطب .

أما أن يقول الحق : إنه « تكلم » مع موسى ، فهذا نقل من الخفاء إلى العلن ، أو يرسل الحق رسولاً بالكلام الموحى به . وحين قال سبحانه : « وكلم الله موسى تكليماً » إنما ينبهنا إلى أن الوحى لموسى ليس من الكلام الذى قسمه الحق فى قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » ؛ لأن الله قال فى كلامه لموسى : « وكلم الله موسى تكليما » .

ووقف العلماء هنا وقفة عقلية وقالوا : كيف يتكلم الله إذن ؟ . ونقول : إن كل وصف لله ويوجد مثله لخلقه إنما نأخذه بالنسبة لله فى إطار : (ليس كمثله شيء) فإن قلت : إن لله وجوداً وللإنسان وجوداً ، فوجود الإنسان ليس كوجود الله ، وإن قلنا : إن لله علماً ، وللإنسان علماً ، فعلم الإنسان ليس كعلم الله ، وإن قلنا : إن لله قدرة ، وللإنسان قدرة ، فقدرة الإنسان ليست كقدرة الله ، وإن قلنا : إن لله استواء على العرش وللإنسان استواء على الكرسى ، فاستواء الله ليس كاستواء الإنسان . إذن فلابد أن تؤخذ كل صفة من صفات الله التى يوجد مثلها فى البشر فى إطار قوله :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

وبذلك ينتهى الخلاف كله فى كل ما يتعلق بصفات الحق .

فالحق له يدان وله وجه ، ولكن لا يمكن للإنسان أن يصور يد الله كيد البشر ، بل نأخذها فى إطار « ليس كمثله شيء » وكذلك وجه الله . ومادمنا نأخذ صفات الله فى إطار « ليس كمثله شيء » فلا داعى للمعركة الطاحنة بين العلماء فى الصفات وفى تأويل الصفات ، ولا داعى أن ينقسم العلماء إلى عالم يؤوّل الصفات وعالم لا يؤول ؛ لا داعى أن يقول عالم : إن يد الله هى قدرته فيؤول ، وعالم آخر لا يؤول ويقول : لا . إن لله يداً ويسكت . ونقول للعالم الذى لا يؤول : قل : إن لله يداً وهى تناسب قوله : « ليس كمثله شيء » . وإذا كنا نحن قد عرفنا فى عالمنا أن الأشياء تختلف مواجيدها فى الناس باختلاف الناس ، فلا بد من أن نعرف أن الله لا مثيل له .

وعلى سبيل المثال : يتلقى الإنسان دعوة لمائدة عمدة قرية ما ، فيقدم له ألوان

طعام تناسب مقام القرية ومنصب القيادة فيها ، ويتلقى الإنسان دعوة لمائدة محافظ مدينة فيقدم له طعاماً يناسب مقام المدينة ومنصب القيادة فيها . ويتلقى الإنسان دعوة رئيس الدولة فيقدم له طعاماً يناسب مقام الدولة وهيبة منصب القيادة فيها ، إذن لا تتساوى مائدة طعام العمدة فى قرية مع مائدة طعام المحافظ مع مائدة طعام رئيس الدولة ، فإذا كان فى البشر يوجد الشيء الواحد وهو ملون بألوان مقامات المخلوقين فكيف لنا بمقامات الخالق ؟! « ليس كمثله شيء » .

فإذا كان الحق قد أخبرنا أنه كلم موسى تكليماً فى قصة الوادى عندما آنس موسى ناراً وذهب إلى النار . فقال الحق :

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة طه)

قال له الحق كل ذلك ، وبدأه سبحانه بالكلام . وبعد ذلك جاء لموسى الوحى على طريقة مجىء الوحى للأنبياء .

والحق سبحانه وتعالى أوحى لنبيه صلى الله عليه وسلم على شتى ألوان الوحى . فقد جاء الوحى لرسول الله إلهاماً ، وجاء الوحى لرسول الله من وراء حجاب ، وجاء الوحى لرسول الله من خلال رسول .

ومثال الوحى إلهاماً هو الحديث القدسى ، وكذلك التشريع النبوى الذى تركه لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومثال الوحى من وراء حجاب هو التكليف بالصلاة ، فلم تفرض الصلاة بواسطة جبريل ، بل فرضت من الله مباشرة .

ولا أدخل فى نقاش لا جدوى منه حول : أحين فرض الحق على رسوله الصلاة كلمه وسمع منه رسول الله ، أم أن رسول الله قد رأى الله وهو يتكلم معه . لا داعى

للخوض فى أمر لم يخبرنا الله عن كيفيته ، والأدب مع الله يقتضى ذلك . قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

وإن القرآن لم يثبت بأية طريقة من طرق الوحى إلا بإرسال رسول ، فكل وحى القرآن جاء بواسطة جبريل ، فلم تأت آية بالنفخ فى الرُّوع . إنما جاء بالنفخ فى الروع الحديث القدسى ؛ لأن النفخ فى الروع قد يتصور واحد أنه خاطر من الجن أو أمثال ذلك . وجاءت كل الآيات القرآنية بواسطة جبريل ؛ بمقدمات بدنية ، ويحدث تغير كيماوى فى نفس رسول الله فلا يشك أبدًا فى أنه جبريل . وأراد الحق أن يكون الوحى بالقرآن بطريقة لا شك فيها .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع صوتاً كصلصلة الجرس ؛ وبعد ذلك يتفصد جبين الرسول عرقاً ، ويثقل جسم رسول الله حتى إن كان على دابة فهى تئط وتئن ويثقل عليها وتكاد أن يمس بطنُها الأرض . وإن كان رسول الله يلاصق فخذه فخذ أحد الصحابة ، فيكاد أن يرض فخذ الصحابى ، وتلك علامات مادية كونية ، لا يمكن أن يحدث فيها لبس .

ولقد قالوا من قبل استنادا إلى ظاهر قوله :

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾

(سورة طه)

لو لم يرسل الحق الرسول لكان لهم حجة . ونقول للعلماء : لنفهم هذه المسألة حتى نوضح لكم أنكم تختلفون فى أمر كان يجب عليكم ألا تختلفوا فيه . أبالعقل يعلم الإنسان مطلوب الله منه ؟ أم أن العقل يهدينى إلى وجود قوة أعلى خلقت هذا الكون وتدبره ؟ . وما اسم هذه القوة ؟ . وما مطلوب هذه القوة ؟ . أيعرف العقل ثواب من يتبع المنهج وعقاب من يخرج عن المنهج ؟ . كل هذه أمور لا يعرفها العقل ، فالعقل حجة فى الإيمان بقوة عُليا فوق ذلك الكون وهى التى خلقته وتدبره وتديره ، أما الرسول فهو مبلغ بمطلوبات المنهج واسم القوة التى أرسلت والشرائع التى يجب أن يسير على هداها الإنسان ، إذن فليس هناك خلاف بين الرأيين .

وأسأل : من الذى اكتشف الكهرباء ؟. إنه العقل البشرى الباحث وراء أسرار الله فى الكون ، ولا أحد يجهل هذه المسألة . وكذلك أسأل : من أول من تكلم فى النسبية ؟ إنه أينشتين . وإن سألنا : من أول من تكلم فى الجاذبية الأرضية ؟. إسحاق نيوتن ، وكل واحد اكتشف شيئاً فى الكون صرنا نعرفه . والذى صمم توليد الكهرباء التى تنير وتضىء وندير بها المصانع ، وجعل من سوق الكهرباء صناعة رائجة تعمل فيها القدرات المالية ليشترى الإنسان مصابيح تنير حيزاً محدوداً ، ومصانع تعمل فى خدمة الإنسان .

أبالله عليكم تعرفون اسم مصمم مولدات الكهرباء ومصمم ومكتشف المصباح الكهربائى ، ولا تدرون اسم من خلق الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم . ولم يَدَّع أحد لنفسه صناعة الشمس ، ولا يوجد ابتكار فى الكون إلا ومعلوم مَن أبدع هذا الابتكار . فالذى صنع المصباح إنما ينير به حيزاً محدوداً مهما كبر ضوء المصباح ، وبعد محيط دائرى معلوم يتلاشى الضوء ويصير الأمر إلى ظلمة ، فما بالنا بالشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف نهار .

إن خلق الشمس يحتاج إلى قدرة تناسب خلقها ، وتحتاج إلى حكمة تناسبها ، وليس لهذه الشمس محيط من الزجاج ينكسر ونغيره مثلما نفعل مع المصابيح . كان لابد للعقل البشرى أن يفهم أن هذه الكائنات التى فى الكون لها صانع يناسبها . ولا يمكن أن يكون صانعها من الخلق ويسكت عن حقه فى صناعة هذه المعجزات ، ونحن نرى بعضاً من الناس فى بعض الأحيان تدعى ملكية ما ليس لها ، فإذا ما جاء الخالق وأبلغنا بواسطة الرسل بصناعته للكون ولم يوجد له مُعارض ، فهل هذه الأشياء والكائنات من خلقه أو لا ؟. إنها من خلقه إلى أن يوجد له معارض .

هذه هى مهمة العقل أى أنّه يهتدى إلى القوة التى تخلق وتدبر أمر هذا الكون ولا يغنى العقل عن الرسل ، ولكن العقل يؤمن فى القمة الإيمانية بأن هناك قوة مبهمة عالية تناسب عظمة هذا الكون الذى طرأ عليه الإنسان ، ولا يعرف اسم القوة ولا يعرف مطلوب القوة فى « افعل » ، و« لا تفعل » ، ولا يعرف العقل ماذا ادخرت القوة من ثواب للمحسن وعقاب للمسىء . لذلك لابد من وجود رسول .

إن الحجة ـ إذن ـ تكون من شقين : الشق الأول الخاص بالعقل هو فى الإيمان بالقوة العليا المبهمة ، والشق الثانى الخاص بالرسل هو الإيمان بالبلاغ عن الله اسما وصفة ومطلوباً وجزاء ، هكذا نرى فاتفقوا أيها العلماء ولا ضرورة للخلاف .

أقول ذلك حتى لا يتمادى الذى يتصيدون لدين الله وأضيف : اتفقوا أيها العلماء على أشياء محددة لأنكم تشتتون الناس بهذه الخلافات ؛ فالرسول هو الحجة فى الأشياء التى لا دخل للعقل فيها .

ونعرف تاريخياً أن آفة الفلسفة أنها تضع وتتخذ عدداً ضيقاً من المجالات لتبحث فيها ، وكانت الفلسفة قديماً هى أمُّ العلوم مجتمعة ، فالهندسة كانت فرعاً منها ، وكذلك كل الرياضيات ، وأيضاً المواد العلمية كالكيمياء والفيزياء وكذلك أصول اللغات .

لكن عندما رأى العلماء أصحاب التجارب المعملية أن الفلاسفة يدخلون فى متاهات نظرية ولا يدخلون إلى مجال التجارب العلمية التطبيقية ، تركوا الفلاسفة وأسسوا العلوم التجريبية منفصلة عن الفلسفة . وأنتج العلم التجريبى لنا كل هذه الاختراعات والاكتشافات المعاصرة التى تسهل علينا الحياة ونستفيد منها .

لقد ظل الفلاسفة على حالهم يبحثون فى النظريات بعيدين عن مجال التجارب العلمية التطبيقية . ولا تلتقى مدرسة فلسفية بمدرسة أخرى ؛ لأنهم يختلفون حيث الجهل طبيعة مسيطرة على الغيب الذى يبحثون عنه ولا يمكن الاهتداء أبداً إلى أسرار الغيب ، إنما الغيب يبلغ به الرسل .

والمثال الذى أضربه دائماً وأكرره حتى يستقر فى الأذهان : لنفترض أننا نجلس فى حجرة ثم دق الجرس ، هنا تستوى عقولنا جميعاً فى أن طارقاً بالباب ، ولا نختلف فى هذا الأمر . لكن عندما ندخل فى تصور من الطارق ؟ يقول واحد : « الطارق رجل » وثانٍ يقول : « الطارق امرأة » وثالث يقول : « الطارق رجل شرطة » ورابع يقول : « صديق لنا » وخامس يقول : « بشير » وسادس يقول : « نذير » ، يحدث ذلك لأننا دخلنا إلى متاهات التصور . وأقول : هذه الأمور لا تُترك للعقل ، فلو

أردتم راحة أنفسكم لآمنتم بالتعقل ، تعقل أن هناك طارقاً بالباب ، ثم تتركون للطارق أن يعلن عن نفسه ويقول لكم : أنا فلان واسمى كذا وصفتى كذا وجئت إليكم من أجل كذا ، وبذلك نتفق جميعاً .

لكن الفلاسفة أدخلوا التصور فى التعقل . ولا يمكننا أن نعرف اسم الخالق بالعقل أبداً ولا مطلوبه . بل لابد أن يبلغ عن نفسه ، فإذا انشغل العفل بأن هذا الكون العظيم لابد له من قوة خالقة ، فلماذا لا تبلغنا عن نفسها ؟ . وإذا ما جاء رسول من أجل أن يحل اللغز الوجودى الذى يعيشه البشر فيبلغنا أن القوة الخالقة اسمها الله . هنا أراح الحق النفس البشرية بما كانت تتمنى أن تعرفه ، ومن عقل العاقل أن يفرح بمجىء الرسول ويستشرف إلى السماع عنه ؛ لأن الرسول إنما جاء يحل اللغز الشاغل للنفس البشرية من تفسير مَن خلق الكون بهذه الدقة ، وما هى مطلوبات هذه القوة ؟

ويحسم الرسول الخلاف عندهم ويحل اللغز الشاغل للبال . ولذلك نرى الإمام عليا ـ كرم الله وجهه ـ أمام سؤال من أحدهم :

ـ أعرفت محمداً بربك ؟ أم عرفت ربك بمحمد ؟ .

فأجاب الإمام علىّ وكان باب العلم : لو عرفت ربى بمحمد لكان محمد أوثق عندى من ربى ، ولو عرفت محمداً بربى لما احتجت إلى رسول ، ولكنى عرفت ربى بربى وجاء محمد فبلغنى مراد ربى منى .

هكذا حدد لنا سيدنا علىّ المسألة . . فالعقل الفطرى يؤمن بقوة مبهمة وراء هذا الكون هى التى خلقت وهى التى رزقت وهى التى أمدت بقيوميتها وقدرتها ، وبعد ذلك تجىء الرسل من أجل تعريفنا باسم القوة ومطلوبها منا .

والذين يختلفون حول دور العقل فى الحجة ودور الرسول فى الحجة ، عليهم ألا يتوهوا فى متاهات نحن فى غنى عنها ؛ لأن العقل لا يمكن أن يكون الحجة بمفرده ، والرسول إنما هو مبلغ عن القوة ، وقد يقول قائل : إذن لابد لكل رسول من رسول ، وقد يبلغ التفلسف الطريق المسدود .

لكن عندما نعلم أن الحق قد صنع كل رسول على عينه معصوماً ليبلغ ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا محمد بن عبدالله استطاع أن يصنع أمة فى ثلاث وعشرين سنة ليمتد خيرها إلى يوم القيامة ، فعل صلى الله عليه وسلم ذلك مبلغاً عن الله ليهدى أمته إلى كيفية عمل الطيب والابتعاد عن العمل الخبيث . وخلق الله محمداً على خلق عظيم . وهكذا نعرف أن الحق قد أراح العقل من ضرورة البحث عن اسم القوة الخالقة ومطلوبها فأرسل الرسل .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

نعرف أن البشارة تكون بأمر سار يأتى من بعد . والنذارة هى إخبار بأمر مسىء يأتى من بعد . والعزيز سبحانه لا يُغلب . والحكيم سبحانه وضع كل شىء فى موضعه ، لماذا ؟. لأن الرسل يبشرون وينذرون بأن هناك جنة وناراً وحساباً ، فإياكم أن تظنوا أن الذى كفر بقادر على أن يصنع شيئاً لنفسه ؛ والله عزيز وغنىٌ عن خلقه جميعاً .

ونعلم أن الحق لا يجرم سلوكاً إلا بنص ، وقبل أن يعاقب فهو يضع القواعد التى لا يصح الخروج عنها . وحين يقول الحق : « وكان الله عزيزاً حكيماً » فعزته وحكمته هى التى أتاحت لنا أن نعرف منهجه . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ

بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

وساعة نسمع « لكن » فمعنى ذلك أن هناك استدراكاً . وقوله الحق : « لكن الله يشهد » نأخذ منها بلاغاً من الحق . خصومك يا محمد لا يشهدون أنك أهل لهذه الرسالة ، ويستدرك الله عليهم ويوضح لهم أنه سبحانه هو الذى خلق الإنسان وهو أعلم بقانون صيانته . ومنهج الله إلى البشر بواسطة الرسل هو قانون صيانة ذلك الإنسان .

وإذا كان أهل الكتاب لا يشهدون بما أنزل الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وينكرون ما فى كتبهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم كرسول خاتم ، فإن الله يشهد وكفى بالله شهيداً .

لقد أنزل القرآن بعلمه ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو الذى خلق كل الخلق ويعلم ـ وهو العليم ـ ما يصلح للبشر من قوانين . وفى أعرافنا البشرية نجد أن الذى يصنع الصنعة يضع قانون صيانتها لتؤدى مهمتها كما ينبغى ، كذلك الله الذى خلق الإنسان ، هو سبحانه الذى وضع له قانون صيانته بـ« افعل » و« لا تفعل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الملك)

ونجد الإنسان منا يذهب بساعته إلى عامل إصلاح الساعات فيكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بخالق الإنسان . إنّ العبث الذى يوجد فى العالم سببه أن الناس قد استقبلوا خلق الله لهم ، ولم يدع أحد أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أن يقننوا قوانين صيانة للإنسان خارجة عن منهج الله .

ونقول : دعوا خالق الإنسان ، يضع لكم قانون صيانة الإنسان بـ« افعل »

ولا « تفعل » وإن أردتم أن تشرِّعوا ، فلتشرعوا فى ضوء منهج الله ، وإن حدث أى عطب فى الإنسان فلنرده إلى قانون صيانة الصانع الأول وهو القرآن ؛ لأن المتاعب إنما تنبع من أن الإنسان يتناسي فى بعض الأحيان أنه من صنعة الله ، ويحاول أن يصنع لنفسه قانون صيانة بعيداً عن منهج الله ، والذى يزيل متاعب الإنسانية هو أن تعود إلى قانون صيانتها الذى وضعه الخالق تبارك وتعالى .

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون » والملائكة تشهد لأنها نالت شرف أن يكون المبلغ لرسول الله منهم وهو جبريل عليه السلام ، وهم أيضاً الذين يحسبون حسابات العمل الصالح أو الفاسد للإنسان ويكتبونها فى صحيفته ، وهم كذلك الذين حملوا ما فى اللوح المحفوظ وبلغوا ما أمروا بتبليغه وهم يعرفون الكثير « وكفى بالله شهيداً » لماذا لم يقل الله هنا وكفى بالله وبالملائكة شهوداً ؟. لأن الحق سبحانه وتعالى لا يأخذ شهادة الملائكة تعزيزاً لشهادته .

ونحن لا نأخذ شهادة الملائكة تعزيزاً لشهادة الله وإلا كانت الملائكة أوثق عندنا من الله . وسبحانه يؤرخ شهادة الناس وشهادة الملائكة ، لكنك يا رسول الله تكفيك شهادة الله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾

إنّ كُفر الكافر إنما يعود عليه ، وهو يملك الاختيار بين الكُفر والإيمان ، لكن أن يصد الكافر غيره عن الإيمان فهذا ضلال متعدّ ؛ لقد ضل فى نفسه ، وهو يحاول أن يضل غيره ؛ لذلك لا يحمل وزره فقط ولكن يحمل أوزار من يضلّهم .

وكيف يكون الصدّ عن سبيل الله ؟. بمحاولة أهل الضلال أن يمنعوا آيات الهُدى

من أن تصل إلى آذان الناس ، فيقولوا ما رواه الحق عنهم :

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة فصلت)

ولو فهموا معنى هذه الآية لما قالوا ما جاء فيها ، فقولهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » أى اصنعوا ضجة تشوّش على سماع القرآن ، وهم قد علموا أن هذا القرآن عندما يصل إلى الأسماع فإنه يبلغ الهداية ، ولو كان القرآن غير مؤثر لما قالوا ذلك ، إذن هم يعترفون بأنهم يُغلَبُون عندما يصل صوت القرآن إلى آذان البشر المدعوين إلى الهداية .

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً » . كان يكفى أن يقول الحق « قد ضلوا » ، لكنه جاء بالمصدر التأكيدى « قد ضلوا ضلالاً بعيداً » أى إنه الضلال بعينه ، وهو فوق ذلك ضلال بعيد .

وعندما ننظر فى كلمة « بعيد » ، نعرف أن الشىء البعيد هو الذى بينه وبين مصدره مسافة زمنية طويلة . والذى يضل قصارى ضلاله أن ينتهى بانتهاء حياته ، لكن الذى يعمل على إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتد ، أى أن الضلال سيأخذ فى هذه الحالة زمناً أكبر من حياة المُضل ، ويتوالى الضلال عن المضلين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلال ممتداً .

والضلال المعروف فى الماديات البشرية هو ـ على سبيل المثال ـ أن يسير الإنسان إلى طريق فيضل إلى طريق آخر . وقصارى ما يضل فيه هو أن يذهب إلى مفازة ـ أى صحراء ـ ولا يجد ماء ولا طعاماً فيموت . لكن الضال المضل يجعل ضلاله يأخذ زمن الدنيا والآخرة وبذلك يكون ضلاله ممتداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ

لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

والحديث هنا يبدأ عن الكفر والظلم « إن الذين كفروا وظلموا » . والكفر هو ستر الوجود الأعلى ، والظلم معناه أنهم عاشوا بمنهج بشرى لا يؤدى لهم متاعاً ولا سعادة فى حياتهم الدنيا ، وبذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم . ومن بعد ذلك يقودهم هذا المنهج إلى عذاب الآخرة . والذى كفر ستر وجود الله وحرم نفسه بستر الوجود الأعلى من المنهج الذى يأتى به الله إنه بذلك قد ضل ضلالاً بعيداً . وسبحانه القائل :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

والذى يأخذ بهوى نفسه وبمنهج البشر فإن له معيشة ضنكا ضيقة شديدة . ولا يظنن ظان أن الذى يأخذ ويتناول الأمور بهواه قد أخذ انطلاقاً بلا حدود وراحة لا نهاية لها ، لا ؛ لأن الذى يفعل ذلك قد يرتاح مرة لكنه يقابل التعب ويعيش فيه ولا ينفك عنه من بعد ذلك ، وهكذا يظلم نفسه .

وقد يقول قائل : لقد ظلموا أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود ظالم ومظلوم . فمن هو الظالم ومن هو المظلوم ؟. كل واحد منهم الظالم . وكل واحد منهم المظلوم ؛ لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة ، ملكة شهوات تريد أن تنطلق إلى الشهوات ، وملكة قيم تريد أن يحفظ الإنسان نفسه ويسير على صراط القيم المستقيم .

وفى حالة من يكفر ولا يتبع منهج الله إنما يترك الفرصة لملكة الشهوات أن تظلم

ملكة القيم . والإسلام إنما جاء ليوازى بين الملكات لتتساند فى النفس البشرية ، فلا يطغى سيال ملكة على سيال ملكة أخرى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذا هو حكم الحق فى الذين يكفرون ويظلمون أنفسهم ، لن ينالوا مغفرة الله وليس أمامهم إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

فبعد أن وصف لنا ـ بإيجاز محكم ـ سلسلة المعارك التى نشأت بين الرسول واليهود مرة ، ومرة أخرى بينه وبين المشركين ، وها هوذا سبحانه يخاطب الناس جميعاً ، ليصفى مركز منهج الله فى الأرض ، فيقول منبهاً كل الناس : لقد جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام تصفية لكل الرسالات التى سبقت ، وعلى الناس جميعاً أن يميزوا ، ليختاروا الحياة الإيمانية الجديدة ؛ لأن الرسول قد جاء بالنور والبرهان ، البرهان الذى يرجح ما هو عليه صلى الله عليه وسلم على ما هم عليه ، والنور الذى يهديهم سواء السبيل .

لقد كان الناس قبل رسول الله على مِلَلٍ وعلى أديان ونحل شتى ، فجاء البرهان

بأن الإسلام قد جاء ناسخاً وخاتماً . والبرهان هو تعاليم هذا الدين وأدلته ، فلا حجة لأحد أن يتمسك بشيء مما كان عليه . وجاء محمد بالنور الذى يهدى الإنسان إلى سواء السبيل ، وهذه تصفية عقدية شاملة ، أو كما نقول بالعامية « أوكازيون إيمانى » تتخلص به البشرية من كل ما يشوب عقائدها ، ولتبدأ مرحلة جديدة .

« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم » والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير مهما تغيرت عليه الظروف ؛ لأن الحق صدق له لون واحد ، فإذا ما رأيتم جميعاً حادثة واحدة ، ثم جاء كل واحد منكم فأخبر بها إخبار صدق فلن تختلف رواية الحادثة من واحد لآخر . أما إن سولت نفس بعض الناس لهم أن يتزيدوا فى الحادثة فكل واحد سيحكى الحادثة على لون مختلف عن بقية الألوان ، وقد يسافر خيال أحدهم فى شطحة الكذب ويسترسل فيه .

إذن فالذى لا يتغير فى الحق هو أن يحكوا جميعاً الرواية الواحدة بصدق ولو كانوا ملايين الناس ، لكن إن سولت نفوس بعضهم الكذب وحسنته له وأغرته به لاختلفت الرواية ؛ لأن الكذب مشاع أوهام ولا حقيقة له . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : لقد جاءكم الرسول بالحق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما جئتم إليه من أى لون ، سواء فى العقديات أو فى العباديات أو فى الأخلاق أو فى السلوك . وستجدون كل شيء ثابتاً لأنه الحق .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى لنا مثلاً فى هذا الحق :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

كل وادٍ يأخذ ماء على قدر حجمه ، وساعة ينزل السيل من الجبال يحمل معه التراب والقش والأشياء التى لا لزوم لها ،وهو ما نسميه « الريم » وهو الزَّبَد الرابى . وكذلك الحديد أو النحاس أو الذهب الذى نصنع منه الحلى أو أدوات المتاع ، وعندما نضع هذه المعادن فى النار ، نجد الزَّبَد يفور على سطح هذه المعادن

عندما تنصهر ، وتسمى هذه الأشياء الخبث . ويوضح الحق لنا كيف يضرب الحق والباطل ·

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومهما اختلطت بالحق أشياء فهو كحق يبعد ويطرد هذه الفقاقيع والخبث وينحيها عنه . فإن علا الباطل يوماً على الحق فلنعلم أنه علو الزَّبَد الذى يذهب جفاء مرميا به ومطروحا ، وسيظل الحق هو الحق . وسبحانه يقول : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم » . والإيمان هو اعتناق العقيدة بوجود الإله الأعلى ، والبلاغ عنه بواسطة الرسل ، وأن للحق ملائكة ، وأن هناك بعثاً بعد الموت ، وحساباً . ويقتضى الإيمان أن نعمل العمل وَفق مقتضياته وذلك هو اختيار الخير ، ولنعلم جيداً أن الإيمان لا ينفصل عن العمل .

وماذا يحدث لو لم يؤمن الناس ؟ ها هوذا الحق يقول : « وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً » وسبحانه غنى ، وسيظل كَونُه الثابت ـ بنظرية القهر والتسخير ـ هو كونه ، ولن يتغير شىء فى الكون بكفر الكافرين ، سوى سخط الكون عليهم لأنه مسخر لهم ؛ لأن الكون ملك لله ، ولن تتغير السماء ولا النجوم ولا القمر ولا المطر ولا أى شىء .

ونقول لك : لو نظرت إلى الدنيا لوجدت الفساد فيها ناشئاً مما فعلته وأحدثته يد الإنسان على غير منهج الله ، أما الشىء الذى لم تدخل فيه يد الإنسان فهو لا يفسد ، ولم نر يوماً الشمس وقد عصيت عن الشروق أو الغروب ، وكذلك القمر لم تختل حركته ، وكذلك النجوم فى الأفلاك ، وتسير الرياح بأمر خالقها ، وكل شىء فى الكون منتظم الحركة ، اللهم إلا الأشياء التى يتدخل فيها الإنسان ، فإذا كان قد دخلها بمواصفات منهج الله فهى منسجمة مع نفسها ومع الكون ، وإن دخلها بغير مواصفات منهج الله فلن تستقيم ، بل تفسد .

ولذلك قال الحق :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

إن الأمر الفاسد إنما يأتى من داخل نفوس البشر عندما يضلون عن منهج الله ، ولذلك نقول : أشكى الناس أزمة ضوء ؟. لا ؛ لأن الشمس ليست فى متناولنا ، وكذلك لم يشك الناس أزمة هواء ، لكنهم يشكون أزمة طعام ؛ لأن الطعام ينبت من الأرض ، فإما أن يكسل الإنسان مثلاً فلا يعمل ، وإما أن يعمل ويخرج ثمراً فيأخذه بعضهم ويضنوا ويبخلوا ولا يعطوه لغيرهم ، وهذا سبب من أسباب الفساد الناشىء فى الكون .

وجاء الحق لهم بما يمكن أن يكون فتحاً يدخلون فيه بالإيمان بمنهج الرسول الخاتم ، ويكفرون عن أخطائهم مع أنبيائهم ومع محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ ﴾

يبدأ الحق بأمر موجه لأهل الكتاب: « لا تغلوا فى دينكم » والغلو هو الخروج عن حد الاعتدال فى الحكم ، لأن كل شيء له وسط وله طرفان ، وعندما يمسك شخص طرفاً نطلب منه ألا يكون هناك إفراط أو تفريط . وقد وقع أهل الكتاب فى هذا

المأزق ، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط وتفريط ، لقد كفر اليهود بعيسى واتهموا مريم بالزنا ، وهذا غلو فى الكُرْه ، وغالى النصارى فى الحب لعيسى فقالوا : إنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ؛ وهذا غلو ، ويطلب الحق منهم أن يقفوا من أمر الدين موقف الاعتدال: « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » .

إن أمر المنهج لا يحتاج إلى غلو ، ولذلك جاء محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله بالدين الوسط الذى يضع كل أمر فى نصابه . وشرح لنا بإخبارات النبوةوإلهامها ما سوف يحدث للإمام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ، وقد حدث ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالخوارج كفَّروا علياً ، والمسرفون بالتشيع قالوا : إنه نبى ، وبعضهم زاد فى الإسراف فجعله إلهاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ ـ كرم الله وجهه ـ :

« إن فيك من عيسى مثلا . أبغضته اليهود حتى بهتوا أُمَّهُ ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس له » .

وكما قال سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ : « ألا وإنه يهلك فىّ اثنان : محبٌ يقرظنى بما ليس فىّ ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى ، ألا إنى لست بنبىّ ولا يوحى إلىّ ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما استطعت ، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتى فيما أحببتم وكرهتم »[1] .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عليّاً أن المحب الذى يغالى فى حبه ليس مع علىّ وكذلك الكاره المبغض ؛ فالذى يحب عليا بغلو جعل منه إلهاً أو رسولاً ، والذى أبغض علياً جعله كافراً . وكذلك النصارى من أهل الكتاب جاءوا إلى عيسى فأحبوه بغلو وجعلوه إلهاً أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، فيقول لهم الحق : « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » . وقوله الحق : « عيسى ابن مريم رسول الله » رد على غلو اليهود الذين رفضوا الإيمان بعيسى ، وقالوا فى عيسى وأمه البهتان العظيم .

١ ـ رواه الإمام أحمد فى مسنده .

وقوله الحق عن عيسى ابن مريم : « رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » رد على غلو النصارى الذين نصبوه إلهاً أو جعلوه ابناً لله أو ثالث ثلاثة ، فعيسى عليه السلام هو ابن مريم وعندما بشرها به الحق وقالت :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

قالت ذلك بفطنة الصديقية التي جعلتها تنبه إلى أنها لم يمسسها بشر ، ومادام الحق قد نسبه إليها فليس له أب ، سيولد عيسى دون أن يمسسها بشر ، ويوضح سبحانه ذلك عندما يقول : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » . فعيسى روح من الحق ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنبياء)

وما معنى « كلمته » ؟. هذا القول يدل على أن الروح نفخت ثم جاءت كلمة « كن » التي قال عنها سبحانه :

﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد احتاج وجود عيسى إلى أمرين : « روح » و« كن » . والشبهة عند النصارى مردها إلى أن عنصر الذكورة لم يلمس مريم ؛ وقالوا : مادام الله قد قال : إن عيسى روح منه فهو جزء من الله ، ونسوا أن كل شيء من الله ، وسبحانه القائل :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الجاثية)

فهل هذا يعني أن « الأرض » قطعة من الله وكذلك الشمس ؟. لا . فإذا كانت الشبهة قد جاءت من غياب عنصر الذكورة مع وجود عنصر الأنوثة لكان من الواجب منطقياً أن تكون الشبهة في آدم قبل أن تكون الشبهة في عيسى ؛ لأن آدم جاء من غير ذكورة ولا أنوثة ؛ فلا أب له ولا أم له ؛ لقد قال القرآن بمنتهى البساطة ومنتهى الوسع :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولا يملك أحد القيد على فضل الله ووسعه ، ومسألة آدم كانت أدق ، لكن الله بتفضله يساوى بين خلق عيسى وخلق آدم ، وهذا هو التلطف فى الجدل . وأخبرنا سبحانه عن عيسى أنه جاء بأمر منه ، وقال فى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

إذن فآدم قد احتاج إلى الأمرين نفسيهما : «كن» ، و«النفخ فيه من الروح» ، وعندما ننظر إلى هذه المسألة نجد أننا لا بد أن نتعرض لقضية خلق آدم ، حتى نعرف كيف تسلسلت مسألة الخلق ، سواء أكان الخلق ملائكة أم خلق آدم أم خلق حواء أم غيرهم من الخلق ، كذلك خلق عيسى . لقد كان خلق آدم غيباً عن آدم ، وليس لآدم نفسه ولا لمن جاء بعده أن يتكلم كيف خُلق ؛ لأن هذه مسألة لا دخل لأحد بها ، ويقول لنا الحق محذرا من أن نستمع إلى قوم يقولون بغير ذلك عن الخلق فقال :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولا يمكن ـ إذن ـ أن نستمع إلى هؤلاء الذين افترضوا أن أصل الإنسان قرد أو غير ذلك ؛ لأن الذى يتكلم عن الخلق بغير علم من عند الله ، فهو يتكلم فى أمر لم يشهده . والخلق الأول أمر لا يمكن أن يدخل المعمل التجريبى ؛ لأن المعمل التجريبى إنما يحلل مواد موجودة بالفعل . إذن فالحكم على أمور بغير ما أخبرنا بها الله أمر باطل . ولم يكن هناك أحد مع الله ساعة خلق الخلق ليقول لنا كيف تم ذلك . وعَلِمْنا هذه المسائل بإخبار الخالق لنا فهو الأعلم بنا ، والخالق أخبرنا أنه خلقنا من ماء وتراب وطين وحمأ مسنون وصلصال كالفخار ، وحدثنا بذلك فى آيات متعددة . والذين يريدون أن يكذبوا القرآن يقولون : إن القرآن لم يأت بخبر واحد عن خلق

الخلق ، فمرة يقول إن الخلق كان من ماء ومرة كان من تراب ، ومرة كان من طين ، ومرة كان من صلصال .

ونقول : أحين يتكلم الحق عن مراحل الخلق فهل فى هذا تضاد ؟ . أصل الخلق ماء ، خلطه الحق بتراب ، وبعد وضع الماء على التراب صار الإثنان طيناً ، ثم إذا تركنا الطين إلى أن يختمر ، يصير حمأ مسنوناً ، وبعد ذلك يصير صلصالاً ، ومن بعد ذلك خلق منه الحق آدم . إذن فكل شيء تكلم عنه سبحانه فى خلق آدم إنما يتفق مع كل الآيات التى جاءت عن هذا الخلق . وهو القائل عن آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وبعد صنع الله القالب الذى يشبه التمثال الذى نراه ، ولكن تنقصه الحركة والحياة ، فيأتى النفخ فى الروح بكلمة « كن » . إذن نحن نحتاج إلى روح وإلى كلمة . والروح عنصر وجودى . وعندما تختلط بالقالب تحدث الحياة ، ولا بد من بعد ذلك من الإرادة بكلمة « كن » . ولذلك نجد الإنسان قد يصنع نفس خلطة الإنسان الكيماوية لكنها لا تصير إنساناً ؛ لأن الأمر ينقص الإذن بميلاد الإنسان .

وساعة يتكلم الحق عن خلق آدم وهو أمر لم نشهده ، فذلك من رحمته بنا ، ويترك لنا سبحانه فى الكون دليلاً على صدقه عن خلق آدم ، فإذا كنا لم نشهد خلق الحياة فنحن نشهد نقيض الحياة وهو الموت ، الذى يحدث فيه أولاً خروج الروح ، ومن بعد ذلك ينتفخ الجسم كأنه الحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء ، وبعد ذلك يتحلل إلى تراب . هذه هى مراحل الموت التى تبدأ من خروج الروح ويتصلب الجسم إلى أن يَرِم ثم يتبخر الماء ، وتبقى العناصر فى الأرض .

وإذا كنا لم نعرف كيف بدأت الحياة ، فنحن نعرف كيف انتهت الحياة أمامنا بالأمر المشهدى ، وجعل سبحانه أمر انتهاء الحياة أمامنا دليلاً على صدقة فى إخبارنا بالحياة وكيف بدأت ؛ لأن نقض الحياة يكون بالموت ، ونقض أى شيء إنما يتم على عكس طريقة بنائه . وآخر أمر دخل فى الإنسان هو الروح ، ولذلك فهى أول ما يخرج من الإنسان عند الموت . وبعد ذلك يتصلب الجسم ، وبعد ذلك يصير رمة وهى الحمأ المسنون . وبعد ذلك يتبخر الماء ويبقى أخيراً التراب .

وقد حللوا الإنسان حديثاً . فوجدوا فيه عناصر كثيرة ، ثم حللوا طينة الأرض الخصبة التى يخرج منها الزرع الذى يقتات منه الإنسان ، فوجدوا هذه الطينة مكونة من هذه العناصر .

ومن العجيب أن العناصر المكونة للإنسان هى نفسها المكونة لطين التربة الخصبة ، مما يدل على تأكيد الصدق فى أن الله خلقنا من طين ، وجعل استبقاء حياتنا مما يخرج من هذا الطين بعناصره المختلفة ، حتى يمد كل عنصر من الطين كل عنصر من الوجود الإنسانى . ولما قاموا بتحليل الإنسان مقارناً بتحليل التربة وجدوا أن أضخم عنصر فى تكوين الإنسان هو الأوكسجين ونسبته على ما أذكر سبع وستون بالمائة ، وبعده عنصر الكربون ، ونسبته على ما أذكر تسع عشرة بالمائة ، إلى أن تنتهى العناصر المكونة للإنسان والتربة إلى المنجنيز ونسبته تقل عن واحدة بالمائة ، وأهم هذه العناصر هو :
الأوكجسين ، الكربون ، الهيدروجين ، النتروجين ، الكلور ، الكبريت ، الكالسيوم ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، الصوديوم ، الحديد ، اليود ، والسيلوز ، والمنجنيز . هذه هى أهم وأكثر العناصر المكونة لتركيب الإنسان وهى العناصر نفسها الموجودة فى تركيبة الطين وبعضها عناصر مكونة للمركبات العضوية وبعضها عناصر غير عضوية وبعضها عناصر وظائفها ثابتة ومعروفة.ويسأل أهل الذكر فى تفاصيل ذلك .
وبطبيعة الحال فالذين قاموا بتحليل التربة وعناصر الإنسان لم يكونوا علماء دين ، ولم يكن فى بالهم إقامة الدليل على صدق الله فى القرآن ، ذلك أن بعضهم يجهل مسألة القرآن كلها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أجرى على لسان رسوله حديثاً يشرح لنا حقيقة إثبات صحة كل ما فيه ولو جاء على لسان رجل فاجر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] .

فسبحانه ـ إذن ـ أراد أن ينصر الدين بالكافرين ، وجعل بعضاً منهم يصلون إلى أشياء لو أنهم علموا أنها ستخدم قضايا الهدى لما أعلنوها . ومن حكمة الله أن جعل الكافرين غير قادرين على إغفال نصرة الدين ، وجعل سبحانه بعضاً منهم يخدمون

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد والقدر ، ورواه مسلم فى الإيمان ورواه أحمد ، والدارمى فى السيرة .

الدين على رغم أنوفهم . ونريد أن نأخذ من هذه المسألة فهماً عميقاً ، يتسم باللطف والسماحة ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان الأول من طين ، وهناك آية أخرى قال عنها الحق :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وآية ثالثة قال فيها سبحانه :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

إذن فخلق آدم احتاج إلى أمرين : النفخ من روح الحق ، والأمر « كن » ، وهما الأمران أنفسهما فى مسألة خلق عيسى ، روح من الحق ، وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وهذه دليل صدق لقوله الحق :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة آل عمران)

والحق قد قص لنا أنه خلق آدم من طين وصنع القالب وسواه بيديه :

﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة ص)

فإذا كان الهيكل الذى خلقه الله ونفخ فيه الروح ، ودبت فيه الحياة ثم تناسل النسل من آدم إلى أن تقوم الساعة ، فهل مجىء عيسى على الصورة التى جاء بها يكون أمراً عسيراً على الله ؟ . لا . وساعة أنجب آدم أول ذرية له ؛ ألم يخرج لحظتها حيوان منوى من آدم إلى البويضة فى رحم حواء ؛ وأراد به الله ميلاد أول نسل من آدم وهو جزء من آدم ، وهذا الحيوان المنوى له مادة وله حياة ، ومادته معروفة ، وحياة هذا الحيوان المنوى هى التى تسمح له بالحركة لتلقيح البويضة ، هذه المادة مخلوقة من آدم ، والحياة التى فيه من روح آدم ، وآدم نفسه خلقه الله بيديه ، وهذا إثبات أن الحيوان المنوى هو جزء مما خلقه الله بيديه وهو آدم ، وفى الحيوان المنوى حياة مما نفخه

الله من روحه ، وانتقل إلى رحم حواء وأخصب البويضة وولدته حواء ، واستمر ميلاد حيوانات منوية حية تخصب بويضات حية ليستمر الخصب والنسل والأحفاد .

إننا إذا سلسلنا نسل آدم إلى أن تقوم الساعة ، فكل ذرة من ذرات من يوجد آخر الدنيا مكونة من شيء به خلق من خلق الله فى القالب ، وفيه شيء من نفخ الله فى الروح ؛ ولم يطرأ عليه موت أبداً ؛ فلو طرأ عليه موت أو فناء لما صلح أن ينجب مثله . وهكذا نعلم أن كل واحد فينا به جزء من القالب الذى صنعه الله بيديه ، وفيه جزء من نفخ الروح .

وأكرر المثل الذى أضربه دائماً ليستقر فى أذهان الناشئة ؛ لو جئنا بسنتيمتر مكعب من سائل ملون مركز ، وأضفناه إلى لتر من الماء ، ثم أخذنا قطرة من لتر الماء سنجد بها جزءا ضئيلاً من السنتيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا هذه القطرة وأضفناها إلى برميل من المياه فيصير فى البرميل جزء من السنتيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا من البرميل قطرة من المياه ، وأضفناها إلى البحر فإن جزءا من السنتيمتر الملون يصير بالبحر . إذن فكل نسل آدم ـ إلى أن تقوم الساعة ـ فيه جُزَىْء ـ من آدم عليه السلام .

ونلحظ أن كثيراً من المفكرين والمثقفين فى الغرب صاروا يبتعدون عن فكرة بنوة عيسى لله . وعندما يدخلون فى نقاش حول هذه المسألة يقولون:إنها بنوة حب . وإذا كانت المسألة بنوة حب ، فالله يحب جميع عباده ونصير نحن مثل المسيح ويصير المسيح مثلنا . فالخلق كلهم عيال الله ، والحديث القدسى يقول :

(الناس كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم بعياله)[1] .

ولو أخذنا هذا القول بالدقة التجريبية المعملية نجد أن هذا القول صدق وحق ؛ لأننا جميعاً قد صدرنا عن قدرة الله وإرادته وكل منا فيه شيء من صنع الله منذ بداية خلق آدم ، إذن هو بشر مثلنا ويتميز عنا بأن السماء اختارته رسولاً . أما القول بالثالوث . فبعضهم يقول : نقصد بالثالوث ثالوث الصفات . وهل ثالوث الصفات

---

(١) رواه ابن عدىّ عن ابن مسعود . ورواه مسلمٌ فى العتق .

تأتى فيه إضافيات ؟. كالقول « بالآب والابن والروح القدس » ؟ لن يوجد أب إلا إذا وُجد ابن ، ولن يوجد ابن إلا إذا وجد أب .

إننا نعلم أن هناك حقائق ثابتة وهناك حقائق إضافية ؛ فالإنسان يكون ابناً وأباً ، فهو ابن بالنسبة لوالده ، وهو أب بالنسبة لابنه ، وكل هذه صفات إضافية ، وصفات الحق يُفترض فيها أنها تجتمع لا أن تكون إضافية ، وعندما يقال : « الأب والابن والروح القدس » فهذا القول لا يحمل صفات إلهية ، بل صفات إضافية ، وحاول بعضهم أن يقول : « إن فاتحة الكتاب يوجد فيها التثليث ؛ لأنكم تقولون بسم الله الرحمن الرحيم ، أنتم تفتتحون القرآن بثلاث صفات هى الله والرحمن والرحيم » وقلت لهم : نحن نقول « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا نقول « بسم الله و الرحمن والرحيم » .

وما الذى يجعل الحق يُنجب ابناً منذ أكثر من ألف وتسعمائة سنة ؟. ثم يترك سبحانه الأزمان السابقة على ميلاد المسيح محرومة من ميلاد ابن له ؟. لماذا يترك الله الأزمان كلها بدون ابن لله ، ويختص البشرية بابن له منذ حوالى عشرين قرناً فقط ؟. ثم ما المدة الزمنية التى شرفها الله بابنه بأن أوجده فيها ؟

أتكفى ثلاثة وثلاثون عاماً فقط ـ وهى عمر المسيح ـ لتشريف البشرية بوجود ابن الله ؟. ولماذا يحرم الله ـ إذن ـ بقية الأزمان من بدء الخليقة إلى يوم القيامة من هذا الشرف ؟.

ونسأل أيضاً لماذا يريد أى كائن إنجاب ابن ؟. إنه يرغب ذلك ليضمن استبقاء الحياة ؛ لأن الإنسان يعرف أنه سيموت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة وهو الباقى أبدا ، وليس فى حاجة لاستبقاء حياته فى أحد من البشر . ويؤكد لنا ذلك فى سورة الإخلاص .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

(سورة الإخلاص)

وهم يقولون: « إله واحد » ، ومرة أخرى يقولون: « إله أحد » . وواحد لا تساوى « أحد » والدارسون للغة والمنطق يعرفون أن هناك شيئاً اسمه « الكل » وشيئاً اسمه « الجزء » وشيئاً اسمه « الكلى » وشيئاً اسمه « الجزئى » .

« فالكلى » يطلق على ماله أفراد مثل الإنسان : كخالد ومحمد وعلىّ ، و« الكل » يُطلق على ماله أجزاء ، مثال ذلك الكرسى نجده مكوناً من أشياء ؛ كالخشب والغراء والمسامير وغير ذلك من مواد . فالكرسى - إذن - « كُلّ » لأنه مصنوع من مواد كثيرة . وحقيقة الخشب تختلف عن حقيقة المسمار ؛ لذلك فالكرسى « كُلّ » لأنه مكون من أشياء كثيرة مختلفة الحقائق . ولا يصح أن نطلق على أى شيء من مكونات الكرسى اسم « كُل » . فلا نقول: « المسمار كرسى » أو « الخشب كرسى » ؛ لأن الكرسى يُطلق على مجموع الخشب والمسامير والغراء والطلاء فى شكل وترتيب معين .

ومثال آخر ، كلمة « إنسان » وهى كلمة تطلق على كثيرين ، ولأن الحقائق متفقة نطلق على الإنسان كلمة « كُلّى » .

ويصح أن نطلق على أى كائن يتمتع بالصفات المتفق عليها للإنسان لقب إنسان ، فنقول محمد إنسان وزيد إنسان ، وعلىٌّ إنسان . « فالكل » له أجزاء ، وللـ« كلى » جزئيات ، ويكون الكل شيئا واحداً ولكنه ذو أجزاء ، فقد يكون عندنا كرسى واحد . ولكن لهذا الكرسى أجزاء .

وهل نقول على الحق سبحانه وتعالى :انه « كل » أو « كلى » ؟. لا نقول على اسم الحق « كل » أو « كلى » ؛ لأنه اسم لا يطلق على كثيرين فليس كليا لأنه واحدٌ ، وليس له أجزاء ؛ لأنه أحد ، وليس له أفراد لأنه واحد . فلا يقال لله سبحانه وتعالى « كل » أو « جزء » أو « كلى » أو « جزئى » ، فلو كان كُلِّياً لكان - كما قلنا - له أفراد ولو كان « كُلًّا » لكان له أجزاء ، ولكن الله واحد لا أفراد له ، وأحد لا أجزاء له .

ولذلك يَرُدُّ القرآن على أى قائل بغير هذا ، فيقول :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة البقرة)

وقد قلت كل ذلك لنفهم قوله الحق :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وقوله الحق: « انتهوا » أى اقضوا على كلمات الباطل ، و« خيراً لكم » أى تمسكوا بكلمات الحق ، وفى قوله: « انتهوا خيراً لكم » تخلية وإبعاد لكلمات الباطل ، نأخذ ذلك من قوله : (انتهوا) وتحلية لكلمات الحق ونأخذها من قوله ـ سبحانه ـ : (خيراً لكم) .

ويقول الحق : « إنما الله إله واحد » أى أنه سبحانه لا أفراد له ، ويضيف : « سبحانه أن يكون له ولد » ، وساعة نسمع كلمة « سبحانه » فلنفهم أنها تنزيه للذات الخالقة .

ولذلك نجد كلمة « سبحانه » تأتى فى الأمور العجيبة التى يقف فيها العقل ، وعلى الرغم من وجود كفار فى هذا الوجود ، وعلى الرغم من وجود مجترئين على الله فى هذا العالم ، وعلى الرغم من وجود من ينعتون البشر بألفاظ الألوهية ، إلا أن إنساناً واحداً لم يجترىء على أن يقول لمخلوق كلمة: « سبحانك » ،ولذلك نقول لله عز وجل « سبحانك أيضاً فى سبحانك » . كذلك لم نجد أحداً من أى ملة أو عقيدة أو دين قد سمى نفسه باسم « الله » ، وهو سبحانه يتحدى به حتى الكفرة والملاحدة أن يسمى هذا الاسم لمسمى أى مسمى . وبالله هل يوجد واحد من المتبجحين الكافرين يسمى ابناً له « الله » ؟ .

حتى هذه لم توجد ؛ لأن هذا الكافر غير واثق أنه على حق . ومن الجائز أن يفعل ذلك فتحدث له كارثة . ولو كان هناك كافر واحد مؤمن بما يقول بأنه لا إله لهذا الكون لسمّى ابناً له « الله » . لكن أحداً لا يجترىء على هذه :

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وكان هذا التحدى موجوداً من قبل أن تنزل هذه الآية . فماذا عن الذى جاء بعدها بزمن ؟ وهل اجترأ أحد على أن يسمى ابناً له « الله » ؟ لم يجترىء أحد على هذه أيضاً على الرغم من أنهم يسمون بكل شىء ؛ وكان عندنا فى القرية واحد أطلق على ابنته اسماً طويلاً عجيباً . لقد سمّاها « ورد انتشى فى دندشة روح الفؤاد والملك وفا » وهو حرّ فى ذلك ، لكن لم يجرؤ أحد على الإطلاق أن يسمى ابنه « الله » ، وهذا دليل على أن الملاحدة والكفار على باطل . ويخاف أى منهم أن يجترىء على هذه المسألة ، ويتحدى الحق بسبحانك ويتحدى بالذات « الله » ، ولذلك فليقل كل واحد « سبحانك » وهو مطمئن ، « ولا تقال إلا لك » ، واستقرئوا وتتبعوا المدائح التى قيلت للناس جميعاً ، أقال واحد من البشر لواحد من البشر « سبحانك » ؟

ما قالها أحد قط . وهكذا يتحكم الله فى أمرٍ للإنسان اختيار فيه ، ولا يجرؤ إنسان على إطلاق هذه الأسماء على أحد من البشر . « إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض » و« الولد » كما نعلم يكون مما فى السموات أو مما فى الأرض ؛ فكيف يكون له وملكه ، وهو ابنه ؟ إن هذا الادعاء لا يستقيم أبداً ، ولذلك يذيل الحق الآية : « وكفى بالله وكيلا » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

مصدر الشرف للإنسان أن يحس ويشعر بتجلى الله عليه بعبوديته له ، وسبحانه عندما أراد أن يتجلى على نبينا الخاتم صلى الله عليه وسلم ويسرى به إلى المسجد الأقصى ؛ قال :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

ولم يقل : « سبحان الذى أسرى برسوله » ولكنه قال : « سبحان الذى أسرى بعبده » ؛ لأن « العبودية » عطاء علوى من الله ، فكأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عندما تناهى فى العبودية لله نال تناهى الخير ، فمن إذن يستنكف أن يكون عبداً لله ؟ لا يستنكف المسيح ذلك ، وكذلك الملائكة لا تستنكف أن تكون عبيداً لله . « ولا الملائكة المقربون » ويسمون ذلك ارتقاء فى النفى ، مثلما يقول فلاح : لا يستطيع شيخ الخفر أن يقف أمامى ولا العمدة .

إذن فالملائكة فى الخلق أحسن من البشر . ولذلك قال الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال بعض العلماء : إن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر والأصل فى اللغات أن توضع الألفاظ أولاً لمحسّات ، ثم تنتقل من المحسّات إلى المعنويات ؛ لأن إلف الإنسان فى أول تكوين المدركات له إنما يكون بالحسّ ، كما قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن مادام سبحانه قد قال : « لا تعلمون شيئا » فالذى يأتى من بعدها إنما يأتى كوسيلة للعلم ، وهى حواس السمع والإبصار والقدرة على تكوين الخبرة . ومثال ذلك عندما ندرس فى الفقه موضوع الغصب . والغصب هو أن يأخذ أحد حق غيره قهراً وعلانية ، وهو غير السرقة التى يأخذها السارق خفية . وغير الخطف ؛ لأن الخطف هو أن تمتد يد لتشد شيئاً من أمام صاحبه ويجرى الخاطف بعيداً ، أما الغصب فهو الأخذ عنوة .

وكلها ـ الغصب ، والسرقة ، والخطف ـ هى أخذ لغير الحق . والغصب مأخوذ من أمر حسىّ هو سلخ الجلد عن الشاة . وسُمِّىَ أخذ الحق من صاحبه غصباً ، كأنه أخذ للجلد . ونقل المعنى من المُحسّات إلى المعنويات . وفى الآية التى نحن بصددها يقول الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » . و« يستنكف » مثلها مثل « يستفهم » ، ومثل « يستخرج » .

إذن فهناك مادة اسمها « نكف » ، و« النُّكْف » عملية حسّية تتمثل فى أن يزيل الإنسان دمعة العين بأصبعه . ولنفرض أن إنساناً يعلم أن له كرامة فى البيت وجاء له ظرف نفسى جعله يبكى ، فدخل عليه ابنه أو زوجته ، فهو يحاول إزالة الدمع بأصبعه . « واستنكف » معناها أزال « النُّكْف » . والنكف معناه أن يزيل الدمع بأصبعه . وإزالة الدمع بالأصبع تعنى أن صاحب الدمع يستكبر أن يراه أحد باكياً لأنه مقهور على أمر قد كان ، وهذه العملية لا تحدث إلا عندما يريد الإنسان أن يستر بكاءه عن أحد .

وانتقلت هذه الكلمة من المعنى الحسىّ إلى أى مجال فيه استعلاء ، مثلما يستنكف إنسان أن يسير فى طريق إنسان آخر ، أو أن يجلس مع آخر ، أو يجلس فى مقعد أقل من مقعد آخر .

ويشرح ذلك المعنى الدارج بأن المسيح لا يجد غضاضة أن كان عبداً لله ، ولا يستكبر على ذلك بل هو يُشرف به . والملائكة المقربون أيضاً تشرف بهذا الأمر ، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم وليس لهم عمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله . وهى عبودية ليست لمن يَسْتَذِل ، لكنها لمن يُعزّ ، وليست عبودية للذى يأخذ ولكنها للذى يعطى . والذى يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون .

ويضيف الحق : « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » المستنكفون ؛ أو الذين على طريقة الاستنكاف ، ومن يشجعهم على ذلك ؛ كل هؤلاء يصيرون إلى جهنم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

لماذا لم يأت الله بشرط الآية الثانى الذى يتحدث عن المستنكفين والمستكبرين مقدماً على شطر الآية الأول ؟. ولماذا لم يواصل الحديث عن الذين استنكفوا واستكبروا ليستكمل ما جاء بشأنهم فى الآية السابقة ويبيْن كيف أن مصيرهم إلى العذاب حيث لا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ثم بعد ذلك يحدثنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟.

ذلك أن الحق ساعة يتكلم عن جماعة خرجت عن المنهج فهو لا يمنحهم ثواب هؤلاء الذين لم يخرجوا عن المنهج ، فيأتى أوّلاً بثواب الطائعين ليستشرف إليه الخارجون عن طاعة الله ، ثم يحرمهم من هذا الثواب لتكون حسرة الخارجين عن المنهج أشد . « والضد يظهر حسنه الضد » .

لقد قال الحق : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله » ونعلم أن الأجر على العمل . لماذا الفضل إذن ؟. لقد عرفنا من قبل أن العمل جاء فيه حديث شريف :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن **يتغمدنى الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسنا**

فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب)[١] .

والحق قد قال :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

وفطن الناس إلى ذلك فقالوا : « اللهم بالفضل لا بالعدل » ؛ لأن الفضل هو الذى يعطينا المنازل المتميزة ، وقد يضيعنا العدل .

ويقول الحق مرة أخرى عن هؤلاء الذين استنكفوا واستكبروا : « وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » أى أنهم لن يجدوا من يشفع لهم عند الله ، ولا من ينصرهم ولا أحد بقادر أن يرد عنهم العذاب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

والبرهان هو الإعجاز الدال على صدق المبلغ الأخير عن الله ، وهو الحجة الدامغة .

وقد يقول قائل : ما هو البرهان وما هو النور ؟ . ونعلم أن كل رسول يأتى بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن ربه قد تكون المعجزة بعيدة عن المنهج ، ثم يعطيهم الرسول المنهج ببلاغ من الله ؛ مثال ذلك أن معجزة سيدنا موسى كانت العصا لكن منهجه هو التوراة . إذن فالمعجزة هى البرهان على صدق الرسول فيما بلغ عن ربه ، وقد

(١) رواه البخارى فى كتاب الطب . والرقاق ، ومسلم فى المنافقين ، وابن ماجه فى الزهد والدارمى فى الرقاق ، وأحمد .

لا يكون للمعجزة صلة بالمنهج ، فعيسى عليه السلام كانت معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل .

أما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو النبى الخاتم فقد تجلت معجزته فى أنها عين منهجه ، إنها القرآن ولم تنفصل المعجزة عن المنهج ؛ لأنه رسول عام إلى الناس كافة وإلى أن تقوم الساعة . هذا هو البرهان . أما « النور » فقد جاء أيضاً من أمر حسىّ ؛ لأن النور يمنع الإنسان من أن يتعثر فى مشيته أو أن يخطىء الطريق أو أن يصطدم بالأشياء فيؤذيها أو تؤذيه . إذن النور الموجود فى القرآن هو حقائق القيم ، أما نور الله فى الماديات فهو أمر معروف للكافة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

لقد آمنوا بالله واعتصموا به ، ما معنى الاعتصام ؟ . قديماً كان الرجل عندما يقع فى هوة يصرخ ليجذبه إنسان خارج الهوة بيده ، وهذا هو الأصل فى الاعتصام ، أى يستمسك الإنسان بمن ينقذه من هاوية أو كارثة ، والحق يعطى الأسباب ، فإذا جاءت الشمس وسار فيها إنسان فقد أعطاه الله الشجرة ليستظل بها . وإذا ما نزل المطر فيمكن أن نستتر منه بمظلة ، وإذا عطش إنسان فالله يعطيه سبباً ليأخذ كوب ماء ، والعاقل هو الذى يذكر عند كل سبب من أوجد السبب .

فإياك أيها المؤمن أن تغتر بالأسباب ؛ لأن عدم الاغترار بالأسباب يحمى الإنسان . فعندما تأتيه أمور فى ظاهرها شر ، فمادام مجريها عليك هو الله فهى خير بالتأكيد ، لكنك لا تعلم .

وما أضل علم الإنسان فى كثير من المسائل ؛ فالإنسان قد يحسب أمرا أنّه هو الحسن ، فيظهر له بعد حين أنه السوء ، وقد يعتبر إنسان أمرا هو السيىء ، فيظهر له بعد حين أنه الحسن ، ولا يوجد واحد منا إلا وفى حياته أشياء كان يظنها خيرا ؛ فإذا بها شر ، أو كان يظنها شراً فإذا بها خير . والشر هو ما يأتيه الإنسان لنفسه بعمله ، أما الأمور التى تقع على الإنسان فحكمتها تمشى على مقتضى علم الله لا على مقتضى هوى البشر .

إننا نجد من يقول : إننى أدعو الله بكذا ولا يستجيب لى . ونقول : إنك تدعو بأشياء تظنها الخير لك ؛ لكن الله يعلم أن هذه الأشياء ليست هى الخير ؛ لذلك لا يعطيها لك ، فإن كنت مؤمناً بالله ومعتصماً به فأنت تهمس لنفسك : ألِىَ فى هذا الأمر مدخل أم لا مدخل لى فيه ؟ . فإذا كان لك فيه مدخل فاللوم على نفسك . وإن كان الله قد أجراه عليك فهو خير لك ولله حكمة فى ذلك .

وحَظِّى من الدنيا سواء لأننى
رضيت بحكم الله فى العسر واليسر
فإن أقبلت كان الجزاء على النجا
وإن أدبرت كان الجزاء على الصبر

« فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » . وماداموا قد آمنوا بالله واعتصموا به فسيهديهم صراطه المستقيم ، وعاقبة الهداية وثمرتها فسرها وبيّنها قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وقال لنا الرسول صلى الله عليه وسلم :

(من عمل بما عَلِم ورّثه الله عِلْمَ ما لم يعلم)[1] .

أى يصير مأموناً على العلم ؛ لأن العلم الذى أخذه عن الله وظّفه فى خدمة غيره ،

(١) أبو نعيم فى الحلية ، اتحاف السادة المتقين للزبيدى ، ورواه السيوطى فى الدرّ المنثور والقرطبى فى التفسير ، والفوائد المجموعة للشوكانى .

ولم يدخره أو يعطله . ويختتم الحق سبحانه وتعالى سورة النساء بقوله :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

والاستفتاء هو طلب الفتيا . ومعناها إرادة معرفة حكم شرعى لله فى أمر لا يجد السائل علماً له فيه . وكان الصحابة يستفتون رسول الله ، مع أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم :

(ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه)[١] .

وجاء القرآن فى كثير من الآيات بـ « يسألونك » . كأن الحق يعلمنا أن الصحابة أرادوا أن يثبتوا أنهم أحبوا منهج الله فأرادوا أن يبنوا حياتهم كلها على منهج الله ، ولو كانوا قد كرهوا منهج الله لما سألوا ، لقد وجدوا أن الإسلام قد جاء ، ووجد أشياء فى

(١) رواه أحمد والنسائى ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

الجاهلية وأقرها ، ووجد أشياء قام بتغييرها ؛ ولم يرد الصحابة أن يصنعوا الأشياء على أنّها امتداد لصنع الجاهلية ، بل أرادوا أن يصنعوها على أنها حكم للإسلام ؛ لذلك جاءت أسئلتهم الكثيرة . والفتوى تكون فى حكم . والسؤال يكون فى حكم وفى غير حكم . وهم يطلبون الفتوى فى الكلالة ، ودقة القرآن فى إيجاز السؤال : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » وقد تقدم من قبل الحديث عن الكلالة :

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إلا أن الذى تقدم هناك كان عن الصلة من ناحية الأم ، وسؤال جابر بن عبدالله كان عن الصلة من ناحية الأب .

فعن جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنه ـ قال :

(مرضت مرضا فأتانى النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وهما ماشيان فوجدانى أغمى علىّ ، فتوضأ النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم صبّ وَضوءه علىّ فأفقت فإذا النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت يا رسول الله كيف أصنع فى مالى ؟ كيف أقضى فى مالى ؟ فلم يجبنى بشىء حتى نزلت آية الميراث »[١] .

وفى رواية أخرى عن الإمام أحمد فقلت : إنه لا يرثنى إلا كلالة ، فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض . وبعض العلماء قال : إن كلمة « كلالة » مأخوذة من كلال التعب ؛ لأن الكلالة فى الشرع هو من ليس له ولد ولا والد ، والإنسان بين حياتين ؛ حياة يعولها والد ، وعندما يكبر ويضعف تصير حياته يعولها ولد ؛ لذلك فالذى ليس له والد ولا ولد يعيش مرهقاً ؛ فليس له والد سبق بالرعاية ، وليس له ولد يحمله فى الكبر ؛ لذا سمى بالكلالة .

وبعضهم قال : إنها من الإكليل ؛ أى التاج . وهو محيط بالرأس من جوانبه والمقصود به الأقارب المحيطون بالإنسان وليس لهم به صلة أعلى أى من الآباء ، أو من أدنى أى من الأبناء .

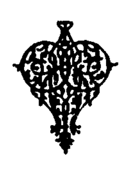
---

١ ـ أخرجه البخارى .

« إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » أى إن الكلالة هى أن يموت أحد وله أخت شقيقة أو أخت من أب فهى ترث النصف ؛ وإذا ماتت هذه الأخت فالأخ يرثها سواء أكان شقيقاً أم أخاً لأب . وإن ترك الرجل الكلال أختين أو أكثر فلهما الثلثان مما ترك ذلك الأخ . وإن كان له إخوة من رجال ونساء ، فها هوذا قول الحق : « وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين » . أى أن للذكر من الإخوة مثل حظ الأنثيين .

ويختم الحق الآية : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم » .

أى أنه الحق يبين أحكامه خشية أن يصيب القوم الضلال . وقد علم سبحانه أزلاً بكل سلوك ، وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً . وبذلك انتهينا بعون الله من خواطرنا فى سورة النساء .




سورة المائدة



نستقبل الآن سورة المائدة التى تلى سورة النساء فى الترتيب المصحفى . ونعلم أن القرآن له ترتيبان ؛ ترتيب نزول ، وترتيب مصحف . وربما يحلو لبعض الناس الذين يحاولون أن يأخذوا على الإسلام شيئاً أن يقولوا : لماذا لم يرتب القرآن حسب نزوله بحيث يبدأ بأول آية نزلت منه ، وينتهى بآخر آية نزلت فيه ؟

ونقول : نزل القرآن لا كتاب منهج فقط ، لكنه منهج ومعجزة ، ورسالته صلى الله عليه وسلم جامعة لجميع الأمم فى جميع العصور إلى أن تقوم الساعة ؛ لأنها جامعة ومانعة فلن يأتى بعد الرسول رسول ؛ لذلك ينفرد صلى الله عليه وسلم بمعجزة تبقى بقاء رسالته إلى أن تقوم الساعة ، وبمنهج يغطى كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة .

وكان الرسل يرسلون إلى أمم مخصوصة فى أمكنة مخصوصة لزمان مخصوص ؛ لأن العالم كان فى شبه انعزال لعدم وجود الآلات التى تيسر الالتقاء بين الناس ، وشاء الله سبحانه أن يختم الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لتكون على موعد مع رشد العقل البشرى فى أن يجعل العالم كله وَحدة بحيث إن ظهر داء فى الشرق فهو ينتقل إلى الغرب فى الوقت نفسه ولذلك يجب أن يكون العلاج والمعالج واحداً .

أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فقد انفرد بمعجزة تبقى ، وتظل موجودة مع المنهج ، ليستطيع كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : منهج الإسلام هو القرآن ومعجزة نبى الإسلام هى القرآن ، لكن لو جاءت المعجزة على طبيعة وطريقة ونمط المعجزات السابقة لإخوانه السابقين من الرسل لانتهت بانتهاء زمانها بحيث تصبح خبراً وتاريخاً ، ونحن نعلم أن البحر قد انشق لموسى نعرفه خبراً ولكن لم نشهده مشهداً ، ونعرف أن عيسى عليه السلام أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله ، ولكننا لا نرى ذلك الآن إلا خبراً ، ولولا أننا نؤمن بالقرآن ، وهو الذى قصّ علينا مثل هذه الأمور ربما كنا نتوقف فيها .

والذين يقولون إن الإعجاز كان للبلاغة والفصاحة وللمنطق وللبيان وأمة العرب أمة بيان نقول : لقد فاقت هذه المعجزة ما كان لدى العرب من بلاغة وفصاحة وأعجزهم وأفحمهم القرآن ، وعندما نقلنا المنهج إلى الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان أو إلى الإيطاليين أو إلى أية أمة من العالم ظل المنهج على إعجازه .

وهكذا نرى أن الله قد أراد أن يكون فى القرآن جانب يظل معجزاً لكل الأقوام ، وهى المعجزات التى لا تختلف فيها اللغات ولا تختلف فيها الأمم ، وهى المعجزات العقلية ، بمعنى أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته الأمية ، وهو الأمى لم يُعرف له نشاط فى علم ولا نشاط فى ثقافة ؛ ويأتى بأشياء تتحقق بعد مضى القرون ويعترف بها الذين لا يؤمنون بأنه جاء بها من عند الله .

لقد حاول بعضهم أن يرفعوا محمداً إلى مرتبة الألوهية ؛ ذلك أنه قال بأشياء منذ أربعة عشر قرناً وتتحقق الآن ، لا يقولها إلا عالم بما يكون فى كونه ، ولكنهم عرفوا أن رسول الله أقرّ ببشريته . وينزل بالمنهج مواكبا للأحداث ، وينزل بالمعجزة فى مسألة الكونيات التى تشترك فيها كل الأمم والتى لا تختص بلغة دون لغة .

نزل المنهج ليحكم العالم من أمة أمية ، لم ترق إلى وضع وسنّ قانون أو دستور ولم تتعود على ذلك . فقد كانت أمة من الرُحل وسكان الصحراء لم يجمعها قانون واحد ، بل كان لكل قبيلة قانون ، ولكل بطن قانون ، ولكل أسرة فى كل بطن قانون . وجاء الرسول مبعوثا من عند الله إلى الأمة الأمية لينشىء لها منهجاً يغطى كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة . وإذا ما فزع قوم من قضية من قضايا مجتمعهم لا يجدون حلاً لها إلا حلاً لو نظرنا نحن إليه لوجدنا أنه إما أن يتطابق مع ما جاء به الإسلام ، وإمّا أنه لا يخرج عن إطار الإسلام وأحكامه .

وإذا كان القرآن فى الأحكام قد جاء حسب الأحداث التى وقعت ، فهذا من إرادة الحق للخير بمن نزل فيهم القرآن . ونجد فى القرآن أسئلة سيتعرض لها رسول الله ، وكثرة الأسئلة التى تعرض لها رسول الله تُعتبر من الظواهر الصحية فى الإيمان ؛ لأن الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان أحكام بأشياء . أرادوا - كما قلنا - إقامة حياتهم على ضوء المنهج الذى عشقوه ، ولم يكونوا كبنى إسرائيل الذين قال رسول الله فى شأنهم :

(إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شدّدوا شدّد الله عليهم ، وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بُيِّنت لهم آخر الأبد)[1] .

---

١ - تفسير الإمام ابن كثير .

أى لو لم يقولوا : (وإنا إن شاء الله لمهتدون) . لما اهتدوا إلى تلك البقرة .

وهناك أشياء أقرّها الإسلام كما كانت فى الجاهلية لأنها أمور عقلية ومنطقية ؛ لأن الإسلام لم يأت ليزيل نظماً عاصرها ، وإنما جاء ليزيل الفساد فقط . أما الصالح بطبيعته فليبق . وإن لم يكونوا قد اهتدوا إليه فالإسلام يشرح لهم الأمر ؛ لذلك كان لابد أن ينزل نص قرآنى لكل أمر كبير فى حياتهم ، وحين يجىء النص القرآنى بعد أن تتطلبه الأحداث ، يتمكن فى القلوب . وضربنا مثلاً لذلك :

هب أن رجلاً لديه صندوق أدوية بالمنزل ، وطرأ على بعض أهله حالة صحية تستدعى دواءً معيناً ؛ ولأن الرجل لا يعرف موضع هذا الدواء ، فإنه يبحث محتويات الصندوق جميعاً ليهتدى إلى الدواء المطلوب ، وقد يمضى وقت طويل ولا يهتدى إلى ما يريد . لكن لو أن هذا الرجل لا يملك أى دواء بالصندوق ، وأصاب ابنه صداع يسير فإنه يطلب أن يشتروا له قرصاً من الأسبرين من الصيدلية . فهذا القرص قد جاء لحالة الصداع وعلاجها وانتهى الأمر .

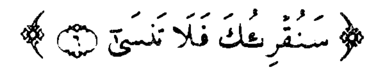
إذن فعندما يأتى الحل عند وقوع الحادثة فهو تثبيت لليقين . وقد يكون الحل موجوداً فى القرآن . لكنه يغيب عنهم ولا يستطيعون الوصول إليه . ولهذا ترك الحق الأحداث تجرى وجعلهم يلتفتون ويتجهون إلى السماء لتنجدهم بالحل . ويأتى الحل عند الحادثة فلا يصير فى الأمر خلاف أو تعب . لذلك كان لا بد أن يكون للقرآن نزول حسب الأحداث ، وحين تتم الأحداث ويتم المنهج بعد ثلاث وعشرين سنة من بدء نزول القرآن يشاء الله سبحانه أن يكون ترتيب القرآن ترتيباً مصحفيا .

إن كلا من الترتيب المصحفى والترتيب النزولى يعطى معجزة للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فيه سور طوال ، وآيات كثيرة ، ويعلمه جبريل : ألحق هذه الآية بالمكان الفلانى . ويقرأ النبى هذه الآيات فى الصلاة ويزيد عليها الآيات الجديدة ، وتتجلى عظمة الرسول حين يصلى بالآيات ويزيد عليها بما نزل عليه ، وتلك مسألة مقصودة . ويقف رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة معتمداً على أن الذى أنزل عليه القرآن قال له :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

وعندما يقرأ الرسول فهو يقرأ الذى نزل عليه فى اليوم نفسه متصلا بما نزل عليه من عام قبل ذلك ، وتلك معجزة بكل المقاييس ؛ لأن الفرد العادى إذا تكلم فى موضوع ما لعشر دقائق ثم يسأله أى فرد من بعد ذلك بساعة : هل تسمح بإعادة ما كنت تقول منذ ساعة ؟ . فإنه لن يستطيع أن يتذكر بالحروف والمعانى ما قاله من قبل . لكن ها نحن أولاء أمام رسول يأمر صحابته أن يكتبوا ويأمر الحافظين للقرآن أن يحفظوا ، ثم يقف فى الصلاة ليقرأ الآية التى نزلت من عام ملحقة بآية نزلت بعدها بستة أشهر ملحقة بآية نزلت بعدها بشهر ، ملحقة بآية نزلت بعدها بالأمس . وكان هذا دليلاً على أن أمر هذا القرآن ليس بيد محمد ، بل بأمر رب محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى رتّب حروف القرآن ليقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقاً لقوله الحق :



﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

ويأتى جبريل كل عام ليرتب مع محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ويدارسه فى رمضان . ويأتى جبريل فى رمضان الأخير فى العام الأخير من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرض عليه القرآن مرتين .

إذن فالمسألة ليست نزول قرآن فحسب ، ولكنها نزول للقرآن ثم ترتيب للقرآن على صورة تخالف الحالة والصورة التى نزل عليها . فلو كان القرآن قد ترتب حسب النزول ، لقال بعضهم إنه مجرد تعبير عن مواقف مختلفة . لكن الحق أراد أن يعيد ترتيب القرآن ليكون معجزة أبدية . فالقرآن ليس بأمر محمد صلى الله عليه وسلم . وكل حرف نزل بهذا الترتيب مقصود به إثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبلغ بالقرآن ، فما كان لعقل بشرى أن يرتب هذا الترتيب . بل رتبه الذى أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، إنه الله ـ سبحانه ـ وتعالى جل شأنه .

وهكذا جاءت سورة المائدة بعد سورة النساء فى الترتيب المصحفى ، وعندما ننظر إلى « سورة المائدة » . نعلم أولاً ما معنى المائدة ؟ إنها الخوان عليه الطعام والشراب

أو الطعام نفسه ، وقد سميت بهذا الاسم لأن عيسى عليه السلام دَعَا ربّه أن ينزل مائدة من السماء بعد أن ألح الحواريون عليه بأن ينزلها الله فقال سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام .

﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية : ١١٤سورة المائدة)

ويختار الحق المناسبة الجميلة فيبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ ﴾

البداية ـ إذن ـ عن ضرورة الوفاء بالعقود وتحليل تناول بهيمة الأنعام كطعام . وسورة المائدة ـ كما نعلم ـ جاءت فى الترتيب المصحفى بعد سورة النساء التى تتضمن الكثير من العقود الإيمانية ؛ فقد تضمنت سورة النساء عقود الإنكاح والصداق والوصية والدَّين والميراث ، وكلها أحكام لعقود ، فكأن الحق سبحانه وتعالى من بعد سورة النساء يقول لنا : لقد عرفتم ما فى سورة النساء من عقود ، فحافظوا عليها وأوفوا بها .

ونلحظ أن سورة البقرة جاءت بعدها سورة آل عمران ، وفى كلتيهما حديث عن الماديين من اليهود ، وسورة النساء والمائدة تواجه أيضاً المجتمع المدنى بالمدينة بعد أن كان القرآن بمكة يواجه مسألة تربية وغرس العقيدة الإلهية الواحدة والنبوات . وقد خدمت سورة البقرة وسورة آل عمران مسألة العقيدة المنهجية والأنبياء ، وسورة النساء تتضمن حسم العقيدة الحكمية .

وها نحن أولاء أمام سورة المائدة التى يقول فيها الحق : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا

بالعقود » والحق يخاطب المؤمنين بالاسم الموصول ، ولم يقل : يا أيها المؤمنون » ، وهذا يدل على أن الإيمان ليس أمراً عابراً يمر بالإنسان فترة من الزمن ؛ ولكن الإيمان أمر يتجدد بتجدد الفعل حتى ينفذ المؤمن الأحكام التى جاء بها العقد الإيمانى . وحين يتوجه الحق بخطابه للذين آمنوا ، إنما يؤكد لنا أنه لا يقتحم على أحد حياته ليكلفه ، وإن كان سبحانه كرب للعالمين قد خلق الخلق وأوجد الوجود وسخّره للخلق .

الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يستخدم هذا الحق ليأمر البشر بالإيمان ، بل دعا الناس جميعاً أولاً إلى الإيمان ، فمن آمن ينزل إليه التشريف بالتكليف ويكون القول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنتم بالله إلهاً . والإله لابد له من صفات تناسب الألوهية ، كطلاقة القدرة والجاه والحكمة والقهر . وسبحانه لا يكلف مَن لم يؤمن به ، بل يدعو من لم يؤمن إلى الإيمان ، ولذلك نجد أن كل آيات الأحكام تبدأ بالقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم » ؛ لأن لكل إيمان تبعة .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ونعرف أن اللغة بها أسرة ألفاظ ؛ فـ « أوفوا » على سبيل المثال فيها « وفى » . والمضارع هو « يفى » ، وفى أفعالها « أوفى » و« وفَّى » ، حسب المراحل المختلفة قوة وضعفاً وكثرة وقلة ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النجم)

وقد قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بالكثير من الإنجاز :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولا بد أن يكون قوله الحق : « وإبراهيم الذى وفَّى » شرحاً لما قام به إبراهيم من مواجهة الابتلاء،فالتوفية هى الإتمام . والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » أى عليكم يا من آمنتم بالله أن تتموا العقود . والتمام إما أن ينطلق إلى الأفراد ويشملها فلا ينقص فرد ، وإما أن يلتفت إلى الكيفيات فلا تختل كيفية ، هذا هو التمام . وقد يأتى إنسان بكل فصول الكتاب ويقرأها ، فيكون قد وفى قراءة كل الأجزاء ، ولكن الحق يريد أن يتقن الإنسان تنفيذ كل جزئية فى كتاب التكليف .

وسبحانه طلب منا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن نقيم الصلاة وأن نؤتى الزكاة وأن نصوم رمضان وأن نحج البيت إن استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وقد يؤدى شخص كل هذه الأعمال وبذلك يكون قد قام بأداء التكليف ، لكن هناك إنسان آخر يؤدى كل جزئية بتمامها فلا يختصر شيئاً منها بل إنّه يوفيها بلا تدليس .

والحق هنا يخاطب المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » أى أننا أمام « إيمان » و« عقد » . وشرحنا معنى الإيمان ، أما العقد فهو العلاقة الموثقة بين طرفين ، وعلى كل طرف أن يلتزم بما عليه وأن يأخذ ما له . وسمى العقد عقداً ؛ لأن العقد هو الربط ، أى شىء لا ينحل من بعد ذلك . ولذلك نسمى ما يستقر فى مواجيد الناس ونفوسهم « عقيدة » . لأنها الأمر المعقود ، وليس الأمر الطارىء الذى يأتى اليوم وينتهى غداً . والشىء المعقود فى نظر الفقه هو الأمر الذى لا يطفو إلى العقل ليُبحث من جديد ، بل إنه مستقر وثابت فى القلب . ويأمر سبحانه بالوفاء بالعقود . والعقود ـ كما نعلم ـ هى جمع لـ « عقد » وبالإسلام عقود كثيرة ، تبدأ بالعقد الأول وهو عقد الذر :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ويريد سبحانه الوفاء بهذا العهد الأول فلا يأتى الإنسان ساعة التطبيق ويفر منها ، ثم نأتى إلى عهد الاستخلاف فى الأرض وبه استخلف فيها آدم وذريته من بعده ، وإياك أن تظن أنك الأصيل فى الكون حين تدوم لك الأسباب وتدين لك بعض الوقت . لا تظن أن الأشياء قد دانت لك بمهارتك أنت فقط ، وحين تبذر البذور فى الأرض وتروى الأرض فاعلم أن الزرع ينبت بتسخير الله أرْضَه لك .

وإياك من الظن لحظة تركب المهر أنك الخيال الفارس الذى روّض المهر ، لا ، إنه تسخير الحق للفرس . ونجد الفرس فى بعض الأحايين يجمح ليقع الفارس من فوق ظهره ، لعلنا ننتبه إلى الجزئية التى لا يصح أن تغيب عنا ، فلو لم يذلل الله الخيل لنا لما استطعنا أن نركبها .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وعلى المؤمن أن يتذكر أيضاً أن الحق سبحانه ذلل الجمل لصاحبه ، وجعل الطفل الصغير يأمر الجمل فيرقد على الأرض ؛ ليضع عليه الأحمال الثقيلة ، ويأمره فيقوم . أما إن واجه الثعبان أو الحية فهو لا يجرؤ على تذليلهما ، وهذا لفت من الحق للخلق لقدرته المطلقة ؛ فقد ذلل لهم الكبير ، وأفزعهم أضعاف ذلك من الثعبان ذى الجسم الصغير .

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

ومن التذليل يأتى رضوخ بقية الكائنات للإنسان ؛ فالحمار عند الفلاح يحمل السماد للأرض من بقايا فضلات الإنسان والحيوان ، ولا ينطق الحمار معترضاً ، ويأتى الفلاح ليرتقى فى حياته ويصير شيخاً للخفر ، فيأمر أن يستحم الحمار ، ويشترى له السرج ليركبه وهو ذاهب للقاء المأمور فى المركز ، ولم يعص الحمار فى الحالتين . إنه التذليل .

إياك أن تظن أن مهارتك وحدها أيها الإنسان هى التى ذللت لك الكائنات ، فلو اعتمد الأمر على المهارة وحدها ، لذلل الإنسان البرغوث الصغير الذى يهاجمه فى أى وقت ، وقد يفزعك ذلك البرغوث الصغير طوال الليل . وقد تسهر أسرة بأكملها من أجل قتل برغوث واحد .

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ولذلك أمرنا الحق أن نقول قبل البدء فى أى عمل « بسم الله الرحمن الرحيم » . وإياك أن تقبل على العمل بقوتك وحدها . فالعمل إنما ينفعل لك لأنه سبحانه قد أخضعه لك . وأنت تبدأ العمل باسم الله لأنه سبحانه الذى استخلفك وأخضع لك الكائنات المذللة .

ثم هناك ذلك العهد الذى قال فيه الحق لآدم :

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

والعهد الذى قال فيه الحق :

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

وهذا عهد لكل البشر ، والمسلمون عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة بأن ينصروه ويمنعوا عنه ما يمنعون عن أنفسهم . وعاهدوا الرسول فى الحديبية .

إن الحق سبحانه يأمر بالوفاء بكل العقود ، وكل ما نتج عن قمة العقائد وهو الإيمان بالله ؛ فما جاء من الله الذى آمنت به يُعتبر عقداً أنت شريك فيه ، لأن القعد يكون دائماً بين طرفين ، ولم يرغم الله أحداً على الإيمان به ، ولكن الإنسان يؤمن بالله اختياراً . ومادام المؤمن قد آمن بالله من طوع اختياره ، فلا بد أن يتبع منهجه .

ومن آمن هو الذى يذهب إلى الحق قائلاً : يارب إن ما تأمر به سأفعله . وهذا اعتراف بالعقد . وكتابة أى عقد إيمانى هو تنفيذ لهذا العقد والتوقيع مع الله ، وبذلك يشترك العبد مع الله فى هذا التعاقد ؛ لأن إيمان العبد بالله يجعله طرفاً فى العقد . والإله يشرع له ، وينفذ العبد التشريع ليتلقى الجزاء الأوفى .

العقد إذن قد يكون بين العبد وربِّه ، أو بين العبد وخلق الله المساوين له ، أو بين العبد ونفسه ، لكنهم أطلقوا على العقد الذى بين الإنسان ونفسه اسماً هو « العهد » وهو النذر ، كأن ينذر العبد الصيام أو الصلاة ، ويجب على العبد تنفيذ ما نذر به مادام عاهد الله على ذلك . والعقد الذى بين العبد وغيره من البشر وكذلك العقد بينه وبين نفسه إنما ينبعان من العقد الأساسى وهو العقد الأول . . إنّه الإيمان بالله .

إذن فقوله الحق : « أوفوا بالعقود » أى نفذوا ما أمر الله به حلالاً ، وامتنعوا عن

الشيء الذى جعله الحق حراماً . ولا داعى ـ إذن ـ للاختلاف فى معنى « العقود » والتساؤل : هل هى العقود التى بين العبد وربه ، أو بين العبد والناس ، أو بين العبد ونفسه ، فكل ما نبع من العقد القمة هو عقد على المؤمن وإلزام عليه أن يوفى به .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام » سبحانه يستهل السورة بالوفاء بالعقود ، ثم إعلان تحليل بهيمة الأنعام . ونعرف أن الإنسان قد طرأ على الكون ، وأنه سبحانه قد خلق الكون أولاً . ثم خلق الإنسان فيه ، وهذا من رحمة الله بالإنسان فلم يخلق الإنسان أولا ، بل خلق له الشمس وأعد الكون قبل أن يخلق الإنسان ، وحين طرأ الإنسان على الكون وجد فيه قوام الحياة من الجماد ومن النبات ومن الحيوان .

وقمة المسخرات للإنسان هي الحيوان ؛ لأن الجماد والنبات يخدمان الحيوان ، ويشترك الحيوان مع الإنسان فى أنّ له حياة ودماء وجوارح . وجاء الحق هنا بالإعلان عن أعلى المنزلة فى خدمة الإنسان وهو بهيمة الأنعام « أحلت لكم بهيمة الأنعام » ويأمرنا بأن نوفى بالعقود ، وله سبحانه وتعالى كل الحق فقد قدم لنا الثمن بخلق الكون مسخراً لنا وقمة المخلوقات المسخرة هى الأنعام . كأن « أحلت لكم بهيمة الأنعام » حيثية مقدمة من الحق . ونلحظ أنه جاء هنا بصيغة المبنى للمجهول فى « أحلت » ؛ لأن الإيمان جعلنا طرفاً فى أن تكون بهيمة الأنعام حِلاً لنا .

ووقف العلماء عند « بهيمة الأنعام » . وفى اللغة العربية نجد صيغة « فعيل » التى تأتى بمعنى « فاعل » وتأتى بمعنى « مفعول » ، مثلما نقول « الله رحيم » أى أنه راحم ؛ هو « فاعل » ، ونقول « فلان قتيل » أى مقتول أى مفعول به . و« بهيمة الأنعام » هنا تأتى بأى معنى ، أهى بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول ؟ ، و« بهيمة » إن نظرنا إلى أنها مبهمة ، لأن أمورها مجهولة يصعب إدراكها علينا ولا نعرف حركتها أو إشاراتها أو لغاتها التى تتفاهم بها فتكون فعيلة بمعنى مفعولة . وتصلح أن تكون فعيلة بمعنى فاعل ؛ لأنها لا تفهم ، ونحن المبهمون عليها . ونقول : هى محكومة بالتسخير .

ولم يصنف الإنسان طعامها وهو العلف إلا بعد أن رآها وهى سائبة حرة تتجه إلى العلف لتأكله ، إذن فهى التى علمت الإنسان صنف طعامها . فلا يقولن إنسان :

إنها بهيمة لا تفهم ، وليعرف أنها لم تخلق لتفهم مسائل الإنسان ، لأنها مسخرة له وقد يتعلم هو منها .

ودليلنا أن الله امتن على بعض المصطفين من خلقه بأن علمهم منطق الطير ، فقد حزّ فى نفس الهدهد أن رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وهو الطائر فقد فهم أن السجود لا يكون إلاّ لله الواحد القهار لا للشمس ، وهكذا نرى الإنسان يتعلم الكثير من أخلاق الحيوانات وعاداتها ؛ ولذلك نجد هواة تربية الحيوانات يتعرفون على طعام هذه الحيوانات بعد أن يتتبعوها ويعرفوا ماذا تأكل ، وعن أى شىء تبتعد ، والفلاح يقدم البرسيم للجاموس ولا يقدم له النعناع ؛ لأنه رأى الجاموس وهو حرّ لا يأكل النعناع بل يأكل البرسيم ، وقال الحق على لسان النمل :

﴿ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

نحن إذن الذين لا نفهم لغةَ النمل ، ونجد البهيمة محكومة بالغريزة ، لكن الإنسان يملك العقل ، لكنه يغطى عقله بالهوى .

وقول الله : « أحلت لكم » دليل على أن الذى أحلها ، جعل التحليل لها فى التسخير بدليل أن الحبل إن التف حول رقبة جاموسة أو رقبة خروف وقبل أن يختنق نجد الحيوان يمد رقبته ، فيقول الناس : لقد طلب الحلال ، فنادوا الجزار . وكأنه ـ وهو الحيوان ـ يطلب الذبح لينتفع الناس به ، وكأنه يحس بالخسارة إن ضاع لحمه بلا فائدة ، وهذا دليل على أنه مذلل ، أما الحيوان غير المحلل فمن العجيب أنه لو حدث معه ذلك لما مد رقبته .

والأنعام هى المذكورة فى قوله الحق :

﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

وكذلك قول الرحمن :

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

إنها ثمانية أزواج ؛ ثم أحل الحق رسول الله صلى الله عليه وسلم الظباء وحمر الوحش ، ولم يحرم إلا كل ذى ناب كالسباع وكل ذى مخلب من الطير ، ولو لم يقيد الله هذا التحليل لانصرف بدون قيد ، ولأسأنا إلى أنفسنا بأكل الميتة والموقوذة والمتردية ، ولكن الحق أنقذنا من ذلك وحرم علينا تلك الأشياء الضارة .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » إذن فمن حق الله عليكم أيها المؤمنون أن توفوا بالعقود ؛ لأنه قدم لكم الكون بكل أجناسه وكل عناصره لخدمتكم . وأحلّ أقرب الأجناس إلى الإنسان لما فيه من حياة وحس وحركة ، فيقول : « غير محلى الصيد وأنتم حُرُمٌ إن الله يحكم ما يريد » ولو لم يضع الحق ذلك التشريع لأكَل الإنسان - وهو مُحْرِمٌ - بهيمة الأنعام ، وقد حرم سبحانه الصيد فى أثناء الإحرام ، وكذلك فى حمى الحرم . والحَرَم - كما نعلم - مركزه الكعبة ، وحول الكعبة المسجد .

وتختلف مناطق الإحرام وتسمى الميقات المكانى ، فالميقات المكانى للحج والعمرة لمن كان خارج الحرم (ذو الحليفة) وذلك للمتوجه من المدينة وهى (آبار على) ، والجحفة وهى الآن (رابغ) للمتوجه من مصر والشام المغرب ، و(يَلَمْلَم) للمتوجه من تهامة ، و(قَرْن المنازل) للمتوجه من نجد اليمن ونجد الحجاز ، و(ذات عرق) للمتوجه من المشرق والعراق وغيره .

أما الميقات المكانى للحج لمن بمكة فهو مكة نفسها ، أما ميقات العمرة المكانى لمن بالحرم فهو الخروج لأدنى الحل وهى الجعرانة ثم التنعيم (مسجد عائشة) ثم الحديبية .

والميقات الزمانى للحج شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، أما ميقات العمرة الزمانى فهو جميع السنة إلاّ إذا كان محرما بحج أو بعمرة أخرى أو كان ذلك قبل النفر لانشغاله بالرمى والمبيت فيمتنع الإحرام بها . والتنعيم والجعرانة والحديبية ، تلك هى حدود الحرم . والصيد فى حدود الحرم حرام ، فى كل زمان وعلى كل إنسان ، أما فى غير الحرم ، فالصيد حرام لمن كان محرماً فقط ، وغير المحرم من حقه الصيد .

وبذلك يؤدب الحق سبحانه وتعالى خلقه ويجعلهم على ذكر دائم للمنهج فيأتى لهم فى مكان ويقول لهم : الصيد محرم فى هذا المكان ، والطعام والشراب محرم فى هذا الزمان ؛ كصوم رمضان . وعدة الشهور عندنا كمسلمين اثنا عشر شهرا . أربعة منها حُرُم . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وفى الميقات يحرم الصيد على الحاج فقط ، وهذا انضباط إيمانى . وعندما يأتى الإنسان إلى الميقات فهو يحرم ، أى يغير وضعه ويلبس لباساً خاصا بالحج ، يلبسه كل الناس ليكون الكل سواسية ؛ لأن الناس إنما يتميزون بهندامهم وهيئاتهم ، فيأمر سبحانه أن يطرح الإنسان هذا التمايز من فور الإحرام . وما كان من الحلال أن يفعله المسلم قبل الميقات وقد منعه الإسلام منه لا يجرؤ على أن يفعله بعد الميقات والإحرام .

ويستطيع المسلم قبل الميقات أن يحلق ويتطيب ويصطاد ويقطع من النبات ؛ لكنه ما إن يبدأ الإحرام يمتنع عن ذلك حتى يستعد لما يشحن أعماقه بالوجود مع المنعم لا مع النعمة ، هذا هو التهيؤ للدخول إلى بيت المنعم ، ولذلك يضع المسلم النعمة على جانب ليبقى مع المنعم . ويمنع الإنسان أن يصيد فى الحرم محرماً كان أو غير محرم ليشعر الكل أن الحرم لله فقط . وتستعد كل النفوس للقاء المهابة . ويمتنع الإنسان من أول الميقات عن أشياء كثيرة بداية من الصيد والاستمتاع بالحقوق الزوجية ؛ ثم يدخل منطقة يحرم فيها الصيد على كل الناس كرمز للمهابة .

ويحج المسلم فى حياته مرة واحد كأداء للفريضة ؛ وفى كل مرة تحج وتقصد بيت ربّك يوضح الله لك فيها : لا تنشغل بالنعم لأنك ذاهب إلى المنعم ، ويمحو سبحانه بالحج كل الذنوب . « غير محلى الصيد وأنتم حُرُم » فإن أردناها محرمين فهى صحيحة ، وإن أردناها للحرم فهى صحيحة ؛ لأن الصيد محرم فى منطقة الحرم للحاج أو لغيره .

ويذيل الحق الآية : « إن الله يحكم ما يريد » وسبحانه بدأ الآية بقوله :« يا أيها الذين آمنوا » هكذا نرى أن التذييل منطقى يتفق فيه آخر الآية مع صدرها ؛ لأن الله حين يخاطب المؤمنين الذين آمنوا به ، فمن لوازم الإيمان أن ينفذوا حكم الله الذى

آمنوا به ، ومادام المؤمن قد آمن بالله إلهاً فليتجه إلى ما يريده الله من أحكام ليفعلها لكن عمومية الآية قد تجعل واحداً يعزل عجز الآية عن صدرها ، رغبة فى التشكيك فى الإسلام ، فيقول : إن الله يقول إنه يحكم ما يريد ، وقد أراد من الناس من يؤمن ومن لا يؤمن ، فكيف يقول: « يحكم ما يريد » ، بينما لا يؤمن الكل ؟ .

ونقول : لا تعزل عجز الآية عن صدرها ؛ لأن الله إنما يخاطب فى هذه الآية من آمن به رباً ، ومن آمن بالإله يعمد ويقصد ويتجه إلى ما يريده الله من حكم ليطبقه . ولا يعتقدن أحد أنّ الكافرين خارجون عن إرادته سبحانه فى قوله : « إن الله يحكم ما يريد » فالذى تمرد على حكم الله يقتضيه المنطق أن يظل متمرداً على حكم الإله .

لكن المتمرد على حكم الله التكليفى الشرعى لا يجرؤ ولا يملك أن يكون منطقياً مع نفسه ، فإن حكم الله عليه بالضعف . فليقل للضعف : لا ، أنا لن أضعف وأنا قوى . لا أحد يملك من مثل هذا الأمر شيئاً . المتمرد يأخذه ملك الموت وهو غير مريض ، فماذا إذن يصنع تمرد المتمرد إزاء الموت ؟

إذن هناك أمور يخضع فيها الإنسان ـ كل إنسان ـ لحكم الله . وخضوع الإنسان لحكم الله فى بعض الأمور أقوى من خضوع المؤمن لها ؛ لأن المؤمن حين آمن بالله يستقبل الموت ـ على سبيل المثال ـ كحكم من الله ، أما المتمرد الذى لا يصلى ولا يؤدى أى أمر تكليفى ، ويتعرض للأغيار بما فيها الموت ، فهو يعانى من كل ذلك مشقّة وَحِدّة تفوق حدة استقبال المؤمن للأغيار أو الموت .

إذن فقوله الحق : « إن الله يحكم ما يريد » هو قضية عامة ؛ لأن الذى تمرد على حكمه سبحانه فيما له فيه اختيار ،كان من الواجب أن يكون منطقياً مع نفسه ، فيتمرد على حكم يجريه الله عليه ، وذلك بعكس كثير من الأحكام الوضعية فإنها لا تقوى على هذا التمرد ، ويكون هنا حكم الله أقوى ؛ لأن المتمرد لن يجرؤ على الرد على أمر الله . فلا يظنن ظان أن الله جعل للاختيار فى العبد طلاقة ، لكنه جعل للاختيار فى العبد تقييداً ، وللقدرة القادرة طلاقة ، فإن تمرد متمرد على الإيمان ؛ فلن يجرؤ على التمرد فى أشياء أخرى . إذن فالله يحكم ما يريد .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

بداية هذه الآية تقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » وهى تأتى بعد آية أُحلّت أشياءَ ، كأن الحق يقول للعبد : مادمت قد أعطيت فأنا أمنع عنك ؛ أعطيتك أشياء وأمنعك أشياء . وسبحانه حين يحظر على الإنسان شيئاً ويمنعه منه ؛ فهو يعطى هذا الشيء لأخ مؤمن ، ومادام الأمر كذلك فلا يستطيع ولا يصح أن تنظر إلى الشيء المسلوب منك فقط بل انظر إلى المسلوب من غيرك بالنسبة لك .

وعلى سبيل المثال حين يأمرك الحق : « لا تسرق » ، فأنت شخص واحد ، ويقيد سبحانه حريتك بهذا الأمر ، وقيد فى الوقت نفسه حرية كل الناس بالنسبة إليك . وعندما تقارن الأمر بالنسبة لنفسك تجد أنك المستفيد أساساً ؛ لأن كل الناس ستطبق حكم الله بألا يسرقوا منك شيئاً ، وفى هذا خدمة لكل عبد . وهب أن واحداً سرق ، إنه لن يستطيع أن يسرق من كل الناس . ولو سرق ألف من الناس شخصاً واحداً فما الذى يبقى له ؟!

وحين يأمر الحق العبد ألا ينظر إلى محارم غيره ، فظاهر الأمر أنّه تقييد لحركة

العبد ، لكن الواقع أنه سبحانه قيد حركة الناس كلها من أجل هذا العبد ، وأمرهم ألا ينظروا إلى محارم غيرِهم .

إذن ساعة ترى أيها المسلم نهياً أمر به الله ، فلا تصب النهى عليك . ولكن صب النهى أيضا على كل الناس بالنسبة لك . وساعة يقول الحق: «ياأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » أى لا تجعلوا شعائر الله حلالاً . والشعائر هى معالم الدين كلها . ونقول « هذه الدولة شعارها النسر » معنى ذلك أننا إذا رأينا الشعار نعرف البلد . وكذلك أعلام الدول ، فهذا علم لمصر ، وذاك علم لانجلترا ، وثالث علم لفرنسا ، وكل محافظة فى مصر ـ على سبيل المثال ـ تضع لنفسها شعاراً وعلماً ، إذن فالشعار هو المَعْلَم الذى يدل على الشيء . وشعائر الله هى معالم دين الله المتركزة فى « افعل » و« لا تفعل » زماناً ومكاناً ، عقائد وأحكاماً .

لكن الشعائر غلبت على ما نسميه مناسك الحج ، وأول عملية فى مناسبك الحج هى الإحرام ، أى لا نهمل الإحرام . ومن شعائر الحج الطواف ، فلا تحل شعائر الله ، ووجب عليك أن تطوف حول البيت ، وكذلك السعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، ورمى الجمار ، كل هذه شعائر الله التى أمر ألا يحلها المؤمنون ، أى أمر ـ سبحانه ـ ألا يتهاونوا فيها ؛ لأن هذه الشعائر هى الضابط الإيمانى . وأن ننظر إلى أن أمر الله لكل حاج أو معتمر بالإحرام هو أمر بالعزلة لبعض الوقت عن النعمة ؛ لأن الإنسان يذهب للحج فى رحلة إلى المنعم . وأن الإنسان يغير ملابسه بملابس موحدة ولا يتفاضل فيها أحد على أحد ؛ لأن الناس فى الحياة اليومية تتفاضل بهندامهم ، وتدل الملابس على مواقعهم الاجتماعية . وعندما يخلعون جميعاً ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً ، تكون السمة المميزة هى إعلان الولاء لله .

وكذلك عندما يأتى الأمر بألا يقص الإنسان شعرة منه سواء أكان عظيماً فى مجتمعه أم فقيراً ويتراءى الناس جميعاً وينظر بعضهم إلى بعض فيجدون أنهم على سواء على الرغم من اختلاف منازلهم وأقدارهم وتكون ذلة الكبير مساوية لذلة الصغير . وذلك انضباط إيمانى لا بين الإنسان والمساوى له ، ولكنه الانضباط مع الكون كله ، بكل أجناسه . فالشجرة بجانب الحرم محرم على كل إنسان أن يقطعها أو يقطع جزءا منها . وبذلك يأمن النبات فى الحرم ، وكذلك الحمام والحيوانات وأيضاً يأمن

الإنسان ؛ لأن الجميع فى حَرمِ رب الجميع ، وتلك مسألة تصنع رعشة ورهبة إيمانية فى النفس البشريةِ . وتكون فترة الحج هى فترة الانضباط الإيمانى . وتتوافق فيها كل أجناس الوجود . فالإنسان يتساوى مع الإنسان ولا يلمس الحيوانَ وكذلك النباتَ ، ويبقى الجماد وهو خادم الجميع من أجناس الكون ؛ لأن الحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الحيوان ، والجماد يخدم الكل ، وهو خادم غير مخدوم . ويصنع الحق حماية للجماد فى الكعبة نفسها ، فيأمر الناس باستلام الحجر الأسود أو بتقبيله إذا تيسر ذلك أو بالإشارة إليه .

فهذا السيد العالى ـ الإنسان ـ على النبات والحيوان يأتى إلى جماد فيعظمه ويوقره ، فالذى لا يستطيع تقبيل الحجر الأسود عليه تحيته بأن يشير إليه بيده ، حتى يكون الحج مقبولاً منه ؛ لذلك يتزاحم الناس للذهاب إلى الحجر الأسود ، وهكذا يكون الجماد مصوناً فى بيت الله الحرام . ويعوضه الله بأن جعله منسكاً ، وجعله شعيرة وجعل الناس تزدحم عليه وتقبله بينما لا يقبل الإنسان الحيوان أو النبات ، لكنه يقبّل الجماد أدنى الأجناس . وهذه قمة التوازن الوجودى . فالإنسان المختار المتعالى على الأجناس يذهب صاغراً لتقبيل أو استلام الحجر الأسود بأمر الله .

ويرجم الإنسان حجراً آخر هو رمز إبليس ، وذلك حتى يعرف الإنسان أن الحجرية ليست قيمة فى حد ذاتها ، ولكنها أوامر الآمر الأعلى ، حتى لا يستقر فى ذهن الإنسان تعظيم الحجر ، فالحاج يقبل حجراً ويرجم ويرمى حجراً آخر .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » ؛ لأن الله جعل الشعائر لتحقق الانضباط الإيمانى ، وبقاء ذكر الاستخلاف لله فلا يدعى أحد أنه أصيل فى الكون ، بل الكل عبيد لله . والوجود كله هو سلسلة من الخدمة ؛ فالإنسان يخدم الإنسان ، والحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الإنسان والحيوان ، والجماد يخدم الكل ؛ لكن لا أحد أفضل من أحد ، بل الجماد نفسه مسبح بحمد الله ، وقد لا يسبح الإنسان .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وهذا الأمر بعدم الحل لشعائر الله جعل كل شعيرة تأخذ حقا من التقدير والاحترام ، ولا يظنن ظان أن شعيرة من الشعائر ستأخذ لذاتها تقديساً ذاتياً ، بل كله تقديس موهوب من الله ويسلبه الله .

« لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام » أى لا تحلوا الشهر الحرام ، أى عليكم أن تحرموا هذا الشهر الحرام ، فقد جعله الله شهراً حراماً لمصلحة الإنسان ، ويحمى به سبحانه عزة وذلة الإنسان أمام عدوه ، يحمى انكسار نفس الضعيف أمام القوى . فالقوىّ القادر على القتال قد تهفو نفسه إلى أن يتوقف عن الحرب فترة يلتقط فيها الأنفاس ، ولو فعل ذلك لكان إعلاناً للتخاذل أمام الخصم ، ولذلك يأتى الحق بزمان يقول فيه : أنا حرمت الحرب فى الأشهر الحرم . هنا يقول المقاتل : لقد حرم الله القتال فى الأشهر الحرم ، وتلك حماية للإنسان ، وليذوق لذة الأمن والسلام والطمأنينة ؛ فقد يعشق الإنسان القوى السلامَ من بعد ذلك .

لماذا إذن جاء الحق هنا بالشهر الحرام بينما نحن نعرف أن الأشهر الحرم أربعة ؟ إن نظرنا إلى الأشهر الحرم كجنس فهى تطلق على كل شهر من الشهور الأربعة ، وإذا اعتبرنا الشهر الحرام أشهر الحج وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، فالمعنى صحيح ونعرف أن الأشهر الحرم أربعة ، ثلاثة متصلة ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد منفصل هو رجب ، وسبحانه وتعالى يعلم أن كل فعل من الأفعال لابد له من زمان ولابد له من مكان . فحين لا يوجد حدث ، لا يوجد زمان ولا مكان ، ولم يأت الزمان والمكان إلا بعد أن أحدث الله فى كونه شيئاً . ولا يقولن واحد : متى كان الله ولا أين كان الله ؛ لأن « متى » و« أين » من مخلوقات الله . وجعل سبحانه لكل حدث زماناً ومكاناً . ولذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليحمى عزة الناس وليجعل لهم من تشريعه الرحيم ستاراً يستتر فيه ضعيفهم ، ويراجع فيه قويهم لعله يرعوى ويرجع عن غيّه وظلمه فأوجد أماكن محرمة ، وأزمنة محرمة ، والأماكن المحرمة هى التى عند الحرم :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

حيث يُؤَمِّن الإنسان أخاه الإنسان إذا ما دخل الحرم . وكذلك فى الزمان جعل سبحانه الأشهر الحرم .

لقد أخذ الحق الحدث للزمان والمكان . وكان القوى قديماً يحارب ويقترب من النصر . وعندما يهل الشهر الحرام يستمر فى الحرب ، ثم يعلن أن الشهر الحرام هو الذى سيأتى بعد الحرب ، ولذلك يأمر سبحانه بعدم تغيير زمان الشهر الحرام ؛ لأن الله يريد بالشهر الحرام أن ينهى سعار الحرب .

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا الهدى » والهدى هو ما يهدى إلى الحرم ؛ وهو جمع هدية ، وهناك من يقدم للكعبة هدية ، ومجموع الهدايا تسمى هدياً . وهدى الحرم إنما جعله الله للحرم ؛ فالحرم قديماً كان بوادٍ غير ذى زرع ، ولم تكن به حيوانات كثيرة . وكانوا يأتون بالهدى معهم عندما يحجون ، لذلك حرم الله الاقتراب من الهدى لأنها هدايا إلى الحرم . والحجيج أفواج كثيرة ، وعندما يأتى أناس كثيرون فى وادٍ غير ذى زرع يحتاجون إلى الطعام ، ولا يصح أن يجعل المؤمن الهدى لغير ما أُهدى إليه ، فقد يشتاق إنسان صحب معه الهدى إلى أكل اللحم وهو فى الطريق إلى الكعبة فيذبحه ليأكل منه ؛ وهذا الفعل حرام ؛ لأن الهدى إنما جاء إلى الحرم ويجب أن يُهدى ويقدم إلى الحرم . وعلى الإنسان أن يصون هدى غيره أيضاً .

« ولا القلائد » وهى جمع « قلادة » والقلادة هى ما تعلق بالرقبة . وقديماً كان الذاهب إلى الحج يخاف على الهدى أن يشرد منه ، لذلك كانوا يضعون حول عنق الهدى قلادة حتى يعرف من يراه أنه « هدى » ذاهب إلى الحرم . والهدى الأول هو الهدى العام الذى لا قلائد حول عنقه ، والقلائد تعبر عن الهدى الذى توجد حول رقابه قلائد وتدل عليه وتكون علامة على أنه مهدى إلى الحرم ، وقد يكون النهى هنا حتى عن استحلال القلادة التى حول رقبة الهدى حتى لا تضيع الحكمة . والحق سبحانه وتعالى حين يعبر بعبارة ما فهو يعبر بعبارة تؤدى المعنى ببلاغة .

وكانوا قديماً عندما لا يجدون قلادة يأخذون لحاء الشجر وقشره ويقطعون منه قطعة ويربطونها حول رقبة الهدى ، وذلك حتى يعرف الناس أن هذا هدى ذاهب إلى الحرم . ويضمن سبحانه اقتيات الوافد إليه . لا من القوت العادى ولكن يطعمه من اللحم أيضاً ، ويجعل ذلك من ضمن المناسك . أليس هو من دعا هؤلاء الناس إلى الحج ؟ أليس هؤلاء هم ضيوف الرحمن ؟!

إن الإنسان منا يقوم بذبح الذبائح لضيوفه ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه

وتعالى ؟ لذلك جعل الهدى طعاماً لضيوفه . وتزدحم الناس فى منى وعرفات بكثرة لا حدود لها ، ولابد أن يكرمهم الله بألذ وأطيب الطعام ، والفقير يذهب إلى المذبح ويأخذ من اللحم أطيبه ويقوم بتجفيفه فى الهواء والشمس ويخزنه ليطعم منه طويلا وهو ما يعرف ويسمى بالقديد . والحق سبحانه وتعالى يأتى بالحكم بطريقة لها منتهى البلاغة ، فهو يحرم حتى قلادة الهدى أن يلمسها أحد .

ويقول سبحانه : « ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً » أى لا تمنعوا أناساً ذاهبين إلى بيت الله الحرام ولا تصدوهم عن السبيل ، فهم وفد الله . وقد جاء هذا القول قبل أن يُنَزِّل الحق قوله :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكان غير المسلمين يحجون بيت الله الحرام من قبل نزول هذه الآية ، فلم يكن الحكم قد صدر . ونتساءل : هل الكافرون بالله يبتغون فضلاً من الله.؟. نعم ففضل الله يغمر الجميع حتى الكافر ، لكن رضوان الله لا يكون على الكافر . والفضل من التجارة التى كانوا يتاجرون بها ، وفضل الله موجود حتى فى أيامنا هذه على الكفار أيضاً .

لكن كيف يتأتى رضوان الله على الكافر ؟. إنه رضوان الله المتوهم فى معتقدهم . فهم يعتقدون أنهم يفعلون ذلك إرضاء لله . وتتجلى دقة القرآن حين يقول : « فضلاً من ربهم ورضوانا » ، فلم يقل : فضلاً من الله ورضواناً ؛ لأن العبد المؤمن هو من يختص بتنفيذ التكاليف الإيمانية .

ولله عطاءان : عطاء الربوبية ، فهو المربى الذى استدعى إلى الكون المؤمن والكافر ـ وسبحانه ـ سخر الأسباب للكل ؛ هذا هو عطاء الربوبية ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية فيتمثل فى « افعل » و« لا تفعل » . ويقول الحق هنا : « يبتغون فضلاً من ربهم » . إذن فجناحا المنهج الإيمانى ـ افعل ولا تفعل ـ ليست فى بالهم . ومن بعد ذلك يقول الحق : « وإذا حللتم فاصطادوا » أى إذا انتهى الإحرام ، وبعد أن يخرج الحاج من الحرم ويتحلل من إحرامه فمن حقه أن يصطاد .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » وقبل أن ينزل تحريم زيارة المشركين للبيت الحرام كان من حسن المعاملة ألا يأخذ المؤمنون الكفار الذين يزورون البيت الحرام فيعتدوا عليهم انتقاماً لما فعله الكفار من قبل ؛ لذلك أمر الحق المؤمنين ألا يقولوا : ها هم أولاء قد جاءوا لنا فلنرد لهم الصاع صاعين مثلما فعلوا معنا فى صلح الحديبية عندما منعونا من البيت الحرام . لأنكم أيها المؤمنون قد أخذتم من الله القوامة على منهجه فى الأرض ، والقائم على منهج الله فى الأرض يجب ألا تكون له ذاتية ولا عصبية أسرية ، ولا عصبية قبلية ؛ لأنه جاء ليهيمن على الدنيا كلها ، ومن الصَّغار أن ينتقم المؤمن من الكافر عندما يأتى إلى بيت الله . ولا يليق ذلك بمهمة القوامة على منهج الله .

ولذلك قال الحق لرسوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحينما أمر الحق رسوله أن يحكم بين الناس فذلك الحكم يقتضى عدم تمييز المؤمن على الكافر ؛ لأن المسلمين هم القُوَّام ، وهم خير أمة أخرجها الله للناس كافة . ولو فهم الناس أن خير الأمة الإسلامية عائد عليهم لما حاربوها .

فنحن ـ المسلمين ـ لسنا خيراً لأنفسنا فقط ، ولكننا أمة لخير الناس جميعاً . ولذلك قال الحق : « لا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى لا يصح أن يحملكم الغضب على قوم أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام عام الحديبية . وعندما يسمع الكافر أن الله سبحانه وتعالى يوصى من آمن به على من كفر به ماذا يكون موقفه ؟ إنه يلمس رحمة الرب . وفى ذلك لذع للكافر لأنه لم يؤمن ، لكن لو اعتدى المؤمن على الكافر رداً على العدوان السابق ، لقال الكافر لنفسه : لقد رد العدوان .

أما حين يرى الكافر أن المؤمن لم يعتد امتثالاً لأمر الله بذلك ، عندئذ يرى أن الإسلام أعاد صياغة أهله بما يحقق لهم السمو النفسى الذى يتعالى عن الضغن والحقد والعصبية ، ويعبر الأداء القرآنى عن ذلك بدقة ، فلم يأت الدين ليكبت عواطف أو

غرائز ولا يجعل الإنسان أفلاطونياً كما يدعون . ولم يقل : اكتموا بغضكم ، ولكنه أوضح لنا أى : لا يحملكم كرههم وبغضهم على أن تعتدوا عليهم . فسبحانه لا يمنع الشنآن ، وهو البغض ، لأنه مسألة عاطفية .

فسبحانه يعلم أن منع ذلك إنما يكبت المؤمنين وكأنه يطلب منهم الأمر المحال . لذلك فالبغض من حرية الإنسان . ولكن إياك أن يحملك البغض أو الكره على أن تعتدى عليهم .

ونرى سيدنا عمر يمر عليه قاتل أخيه زيد بن الخطاب ، يقول له أحدهم : هذا قاتل زيد ، فيقول عمر : وماذا أصنع به وقد هداه الله إلى الإسلام ، فإذا كان الإسلام جبّ الكفر ألا يجب دم أخٍ لعمر ؟ ولكن عمر - رضى الله عنه - يقول لقاتل أخيه :

عندما ترانى نحّ وجهك عنى . قال ذلك لأنه يعرف دور العاطفة ويعرف أنه لا يحب قاتل أخيه ، فقال قاتل أخى عمر : وهل عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ فقال عمر : لا . بل تأخذ حقوقك كلها . فقال قاتل أخى عمر : لا ضير ؛ إنما يبكى على الحب النساء . فالإيمان هو الذى منع عمر من أن ينتقم من قاتل أخيه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى أنه سبحانه لا يمنع مواجيد المؤمنين ووجدانهم وضمائرهم وقلوبهم التى تنفعل بالبغض والكره ؛ لأنه يعلم أن ذلك لا يطيقه الإنسان ؛ لأنها أمور عاطفية . والعواطف لا يقنن لها بتشريع . ولكن اعلموا أن هذه العواطف لا تبيح لكم الاعتداء .

وهكذا يتدخل الإسلام فى الحركة الإنسانية ليفعل الإنسان أمراً أو يتجنب فعل أمر ما ؛ فالإسلام لا يتدخل إلا فى النزوع وهى تعبير عن مرحلة لاحقة للإدراك الذى يسبب للإنسان العاطفة محبة أو كراهية ، ثم يعبر الإنسان عن هذه العاطفة بالنزوع ؛ لأن مظاهر الشعور ثلاثة : إدراك ، ووجدان ، ونزوع ، فحين يمشى إنسان فى بستان فيه أزهار ويرى الوردة فهذا إدراك ، ولا يمنع الإسلام هذا

الإدراك . وعندما يعجب الإنسان بالوردة ويحبها فهذه حرية ، لكن أن تمتد اليد لتقطف الوردة فهذا ممنوع .

إن التشريع لا يتدخل فى العملية النزوعية فقط إلا فى مجال واحد وهو ما يتعلق بالمرأة . إن الإسلام يتدخل من أولى المراحل من مرحلةالإدراك . فالرجل حين يرى امرأة جميلة فهذا إدراك ، وعندما ينشغل قلبه بحبها فهذا وجدان ، لكن أن يقترب منها الإنسان فهذا نزوع .

لقد رأف الحق بالرجل أن أمره أن يغض البصر من البداية ؛ لأن الإنسان لن يستطيع مطلقاً أن يفصل بين الإدراك والوجدان والنزوع . فكل من الإدراك والوجدان يصنعان تفاعلاً فى التركيب الكيماوى للرجل . فإما أن يعف الإنسان نفسه ويكبت أحاسيسه ، وإما ألا يعف فيلغ فى أعراض الناس ، لذلك يخدم الشرع الإنسان من أول الأمر حين يأمره بغض البصر :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(سورة النور)

هنا يتدخل الشرع من أول مرحلة الإدراك ، فبعدها لا يمكن فصل النزوع عن المواجيد ؛ لأن رؤية المرأة تحدث تفاعلاً كيماوياً فى نفس الرجل ، وكذلك الرجل يحدث تفاعلاً كيماوياً فى نفس المرأة . أما الوردة فلا تحدث مثل هذا التفاعل . ويستطيع الإنسان اقتناء زهرية للورود .

إذن فالمراد أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع المؤمن أن تجيش عواطفه البشرية بالبغض وبالكره ؛ لأن ذلك انفعال مطلوب للإيمان . وبعض من أعداء الإسلام يقول : آيات القرآن تتعارض ؛ لأنه يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

﴿ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾
(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

والنسب الإيمانى يمنع ذلك .

ويقول القرآن فى موضع آخر

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾
(من الآية ١٥ سورة لقمان)

والذى يتعمق جيداً يعرف أن المعروف يصنعه الإنسان مع من يحب ومن لا يحب . أما الودّ فهو عمل القلب ، وهذا ما نهى عنه الله بالنسبة للمشركين به ، أما المعروف فالمسلم مطالب أن يفعله حتى بالنسبة لمن يكرهه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » إذن فالحق لم يمنع البغض . ولكنه منع النزوع المترتب على الشنآن ولو وُجد سبب من الأسباب كما حدث فى صلح الحديبية . وبعد ذلك يأمر : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

وهذه الآية هى التى تجعل مسألة الإيمان قضية عالمية ، وكلمة « تعاون » على وزن « تفاعل » ، والتفاعل يأتى من اثنين ؛ مثلما نقول « تشارك » ؛ فهى تقتضى اثنين ؛ كأن نقول : تشارك زيد وعمرو أو : شارك زيد عمراً أو شارك عمرو زيداً . وكلاهما متساو . . اللهم إلا تغليب واحد بأن يأتى فاعلا مرة ومفعولا مرة ثانية ، والفاعل فى هذه الحالة فاعل ومفعول فى آن واحد ، والمفعول أيضاً فاعل فى الوقت نفسه .

ومثال ذلك قولنا « قاتل فلان فلاناً » أى أن الاثنين اشتبكا فى قتال أى مفاعلة . وساعة يأتى اثنان فى فعل واحد ، فهناك فاعل ومفعول . وهناك فرق بين أن تقول : أعن فلاناً ، فالمطلوب هنا أمر لواحد بالمعاونة لآخر .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا يختلف عن القول : تعاون مع فلان ، أى أن تتشاركا معاً فى المعاونة . ومسائل الحياة أكثر من أن تستوعبها موهبة واحدة . فأنت حين تبنى بيتاً تحتاج إلى من يحفر الأساس ويبنى الجدران . ومن يصنع الطوب ومن يصنع الأسمنت ومن يصنع الحديد ، ولا يستطيع إنسان واحد أن يتعلم كل هذه الحرف ليبنى بيتاً ، لكن التعاون خصص لكل إنسان عملا يقوم به ، فهناك متخصص فى كل جزئية يحتاج إليها الإنسان فى حياكة الملابس ، والطب ، والصيدلة وغيرها من أوجه احتياجات الحياة ، والحق يأمر : « وتعاونوا » ليسير دولاب الحياة ويستفيد الإنسان من كل المواهب لقاء إخلاصه فى أداء عمله ، و« تعاونوا » هى أن تأتى بشىء فيه تفاعل ما ، ومعنى الشىء الذى فيه تفاعل أنه يوجد « مُعين » و« مُعان » .

ولكن المعين لا يظل دائما معينا ، بل سينقلب فى يوم ما إلى أن يكون مُعانا ، والمعان لا يظل مُعانا ، بل سيأتى وقت يصير فيه مُعينا ، وهذا هو التفاعل الذى تحتاج إليه أقضية الحياة التى شاءها الله للإنسان الخليفة فى الأرض والمطالب أن يعبد الله الذى لا شريك له ، وأن يعمر هذه الأرض . ولا تتأتى عمارة الأرض إلا بالحركة فيها ، والحركة فى الأرض أوسع من أن تتحملها الطاقة النفسية لفرد واحد ، بل لا بد أن تتكاتف الطاقات كلها لإنشاء هذه العمارة .

إننا حين نبنى عمارة واحدة نستخدم أجهزة كثيرة لطاقات كثيرة بداية من المهندس الذى يرفع مساحة القطعة من الأرض ويرسمها ، وإن شاء الترقى فى صنعته يصنع نموذجا مجسدا لما يرغب فى بنائه ، وبعد ذلك يأتى الحافر ليحفر فى الأرض ، ثم من يضع الأساس ، ومن يضع الحديد . ومن يصنع « الخرسانة » المسلحة .

ثم يأتى من يرفع البناء ، ومن يقوم بالأعمال الصحية من توصيلات للمياه والمجارى ، ثم يأتى من يصمم التوصيلات الكهربائية ، وهكذا تتعاون طاقات كثيرة لبناء واحد ، ولا تتحمله طاقة إنسان واحد .

إذن فالتعاون أمر ضرورى للاستخلاف فى الحياة . ومادام الاستخلاف فى الحياة يقتضى من الإنسان عمارة هذه الحياة ، وعمارة الحياة تقتضى ألا نفسد الشىء الصالح بل نزيده صلاحا ، وحين يقول الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على

الإثم والعدوان » أى أنه يريد كوناً عامراً لا كوناً خرباً . والشىء الصالح فى ذاته يبقيه على صلاحه . إذن فعمارة الحياة تتطلب منا أن نتعاون على الخير لا على الإثم .

والبر ، ما هو؟ البر هو ما اطمأنت إليه نفسك ؛ والإثم ما حاك فى صدرك وخشيت أن يطلع عليه أحد ، فساعة يأتى إليك أمر تريد أن تفعله وتخاف أن يراك غيرك وأنت ترتكبه فهذا هو الإثم ؛ لأنه لو لم يكن إثما لأحببت أن يراك الناس وأنت تفعل ذلك . إذن قوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو أمر لكل جماعة أن تتعاون على الخير ، وهذه مناسبة لأقول لكل جماعة :

تعاونوا معاً بشرط ألا تجعلوا لجمعياتكم نشاطاً يُنسب إلى غير دينكم . مثال ذلك الجمعيات المسماة بـ « الروتارى » أو « الماسونية » ويقال : إن نشاطها خيرى . ونقول : كل جمعية خيرية على العين والرأس ولكن لماذا تكونونها وأنتم تقلدون فيها الغرب ؟ لماذا لا تصنعون الخير باسم دينكم فيعرف العالم أن هذا خير قادم من بلاد مسلمة . والخير كل الخير ألا نأخذ هذه الأسماء الأجنبية ونطلقها على جمعياتنا حتى لا يظنن ظان أن الخير يصنعه غيرنا . وإن كان للواحد منا طاقة على العمل الخيرى ؛ فليعمل من خلال الدين الإسلامى . وليعلم كل إنسان أن الدين طلب منا أن تكون كل حياتنا للخير . وهذا ما يجب أن يستقر فى الأذهان حتى لا يأخذ الظن الخاطىء كل مَن يصيبه خير من هذه الجمعيات بأن الخير قادم من غير دين الإسلام .

إننا مكلفون بنسبة الخير الذى نقوم به إلى ديننا ؛ لأن ديننا أمرنا به وحثنا عليه ، وليعلم كل مسلم أنه ليس فقيراً إلى القيم حتى يتسولها من الخارج ، بل فى دين الإسلام ما يغنينا جميعاً عن كل هؤلاء . وإذا كنا نفعل الخير ونقدم الخدمة الاجتماعية للناس فلماذا نسميها هذا الاسم وننسبها إلى قوم آخرين ، ولنقرأ جميعاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فعلى الإنسان منا أن يعمل الخير وهو يعلن أن الإسلام يأمره بذلك ، ولا ينسب

عمل الخير إلى « الروتارى » أو غير ذلك من الجمعيات . فنسبة الخير من المسلم إلى جمعيات خارجة عن الإسلام حرام على المسلم ؛ لأنه تعاون ليس لله ، والحق يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو يريد منا أن نبنى الخير وأن نمنع الهدم ، وعلى كل منا أن يعرف أنه لا يستطيع وحده أن يقيم كل أبنية الخير .

وقد نسأل الفقير صاحب الثوب الواحد من أين أتى برغيف الخبز ، فيشير إلى بقال أعطاه هذا الرغيف . ونلتفت إلى أن الله قد سخر هذا البقال أن يأتى بالخبز ليشترى منه كل الناس ، ويتصدق ببعضه على الفقير . وهذا تيسير أراده الله . وعندما نذهب إلى المخبز ، نجد أن الدقيق جاء إلى المخبز من المطحن ، وفى المطحن نجد عشرات العمال والمهندسين يعملون من أجل طحن الدقيق الذاهب للمخبز ليعجنه واحد ، ويخبزه آخر ، ويبيعه ثالث .

ويجب أن نلتفت هنا إلى قدرة الله الذى سخر بعضا من المولين الذين فكروا فى خير أنفسهم واشتروا هذه الآلات الضخمة للطحين وإنضاج الخبز ، وهى آلات لا يستطيع الفرد أن يشتريها بمفرده ، لارتفاع ثمنها وتأتى من الدول الأجنبية ، وتلك الدول فيها من المعامل والعلماء الذين يدرسون الحركة والطاقة من أجل تصميم هذه الأجهزة ، ليأكل الإنسان رغيفاً واحداً .

هذه هى مشيئة الحق من أجل أن تنتظم كل حركة الحياة ؛ فالرغيف يعرضه البقال ، وعمل فيه الخباز ومن قبله الطحان ، والعجان ومن استورد الآلة ؛ ومن صممها ، وشاركت فيه المدرسة التى علمت المهندس الذى صمم الآلة ؛ كل ذلك عمل فيه تعاون من أجل خدمة رغيف الخبز ، على الرغم من أن الإنسان منا لا يفكر فى رغيف الخبز إلا ساعة أن يجوع .

إذن فحركة الحياة كلها تم بناؤها على التعاون . لكن ماذا إن تعاون الناس على الإثم ؟ إنهم إن فعلوا ذلك يهدمون الخير ؛ لأن التعاون على الإثم إنما يبدأ من كل من يعين على أمر يخالف أمر الله ، وأوامر الله تنحصر فى « افعل » و « لا تفعل » ، ما ليس فيه « افعل » و« لا تفعل » فهو مباح ، إن شئت فعلته وإن شئت لا تفعله .

والذى يأمر بتطبيق « افعل » ويحزم الأمر مع « لا تفعل » وينهى عنه ويجرِّم من يفعله هو متعاون على البر والتقوى .

ومن يعمل ضد ذلك ؛ يتعاون على الإثم والعدوان ؛ لأنه ينقل الأفعال من دائرة « افعل » إلى دائرة « لا تفعل » . وينقل النواهى من « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » ؛ هذا هو التعاون على الإثم .

وقوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ضَمِن عمارة الكون وضَمِن منع الفساد فى الكون . فالذى يرتشى والذى يسهل عملية الرشوة ، وهو الوسيط والسفير بين الراشى والمرتشى ويُسمَّى الرائش والذى يحمل الخمر والذى يدلس ، كل هؤلاء متعاونون على الإثم والعدوان ، حتى البواب الذى يجلس على باب عمارة ويعلم أن بها شقة تدار لأعمال مشبوهة ويأخذ ثمن ذلك هو متعاون على الإثم .

نقول لكل هؤلاء : إياكم أن تفتنوا بما يدره عليكم فعل الإثم ؛ لكن لننظر مصير كل منكم فلن يترك الله أمثالكم دون أن ينهى الواحد منهم حياته بمأساة ، حتى المرأة التى استنزفت الناس بجمالها ، تنتهى حياتها بالضنك من العيش ثم لا تجد مأوى إلا القلوب الرحيمة التى لم تفتتن بهذا الجمال ولم تتمتع به فى الحرام ؛ لأن الرجل إن نظر إلى امرأة أعانته على الإثم سيتذكر كل المصائب التى جاءته منها فيكرهها .

لقد أراد الحق بهذا عدالة فى الكون ليستقيم ، وكل من يأخذ شيئا من إثم يكتوى بنار هذا الإثم فى الحياة ، وكل فرد فيكم مطالب بعمل حصر وإحصاء للمال الذى جاءه من عرقه وحلاله ويكتبه ، والقرش الذى جاءه من حرام . وبعد ذلك يقوم بعمل حصر وإحصاء للكوارث التى أصابته . وكم كلفته من مصاريف .

إنه لو فعل ذلك لوجد أن الكوارث تأخذ كل الحرام وتجور على المال الذى كسبه من حلال . ولا تختلف هذه المسألة أبداً ولا يتركها الله للآخرة ؛ فسبحانه يريد أن يعدل نظام الكون ، وإلا كيف يشهد من لا يؤمن بيوم الحساب قدرة الله على إجراء التوازن فى كونه ؟ إن الحق أراد الحساب فى الدنيا حتى لا يعربد من لا يؤمن بيوم الحساب فى كون الله .

إن كل معربد سوف يرى مصير معربد سبقه . كذلك الذين يتمتعون بثمرات الإثم فى هذه الدنيا يجب أن يفطنوا إلى نفوسهم قبل أن يفوتهم الأوان ، المعذور فقط هم الأطفال الذين لا نضج لهم ولا دراية ؛ لأنهم يعيشون من أموال الإثم . لكن ما إن يبلغ الولد الرشد وكذلك البنت ثم ترى مالا يتدفق عليها من مصادر غير حل ، عليها أن تستحى من شراء « فستان » من هذا المال أو أن تأكل منه لقمة خبز ، وليفطن الإنسان أن الله قد أباح للإنسان أن يسأل عن مصدر المال حتى لا يأخذ لنفسه من المال الموبوء الخبيث . وأن يسأل الإنسان الصدقة خير من أن يصرف على نفسه مالاً موبوءا . ولن يترك الحق مثل هذا الإنسان سائلا أبداً .

وليكتب كل واحد منكم هذا القول الكريم أمامه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وليجعلها ميزاناً يزن بها صور الذين يراهم فى الكون ؛ حتى ولو كانت صورة سائق التاكسى الذى يدلس على رجل وامرأة فى طريق مظلم ويأخذ أجراً على هذا ، ليحسب هذا الرجل النقود التى ستأتى من هذا الباب ، وليحسب النقود التى ستخرج على ألم فيه ، أو ألم فيمن يرعى من ولد أو بنت .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وصور العدوان شتى يعانى منها المجتمع وتهزه بعنف ، عدوان على الوقت لأن الإنسان يأخذ أجراً على العمل ولا يقوم به ، وعدوان يضرُّ به إنسانا بأن يأخذ حقه أو أن يرتشى ، كل ذلك عدوان . وحتى يصير المجتمع مجتمعا إيمانيا سليما لا بد أن يحافظ على قضية الاستخلاف فى الأرض ، وأن يعلم أن هذا يقتضى عمارة الكون وعدم الإفساد فيه .

« ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » فكأن هذه المخالفات السابقة التى تحدث هى نتيجة عدم التعاون على البر ، ونتيجة التعاون على الإثم والعدوان ، ولهذه المخالفة عقاب شديد ، أما التقوى فمعناها أن نفعل ما أمر به الله أن نفعله ، وأن ننتهى عما نهى الله عنه ، فلا ننقل فعلاً من دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » وكذلك العكس . وبذلك نجعل بيننا وبين الجبار وقاية .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً ؛ فيقولون : بعض من آيات القرآن تقول : « اتقوا النار » ، وبعض الآيات تقول :

« اتقوا الله » فهل للنار وقاية ؟ وهل لله وقاية ؟ وهؤلاء لا يفهمون أن « اتقوا » تعنى : اجعل وقاية بينك وبين ما يؤذيك ويتعبك ، فـ «اتقوا الله » تعنى اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية وهى الدرع التى يقيمها الإنسان بتنفيذ أوامر الله بـ « افعل » والامتثال لنواهي الله بـ « لا تفعل » .

وعندما تجعل بينك وبين الله وقاية ، فأنت تجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وهكذا تتساوى « تقوى الله » مع « اتقاء النار » .

ويذيل الحق الآية « إن الله شديد العقاب » . إنّ ما يجعل الناس تتهاون فى التعاون على البر ويجترئون على الإثم أنهم لا يجدون من مجتمعاتهم رادعاً ، ولو وجدوا الردع من المجتمع لحمى المجتمع أفراده من الإثم . وإن صار للمجتمع وعى إيمانى لقاطع المخالفين وأشعرهم بأنهم منبوذون ، وساعة يرى أمثال هؤلاء الناس أنهم منبوذون من المجتمع الإيمانى فهم يرجعون إلى المنهج الحق .

فما يغرى الناس على الجرائم الكبيرة إلاّ تهاون المجتمع فى الجرائم الصغيرة . ولذلك يلفتنا الحق أنه لن يترك الأمر كما تركه بعض من خلقه ؛ لأن الخلق قد يجاملون وقد لا يقفون أمام ما يفعله بعضهم من آثام ، لكن الله شديد العقاب ، سيأتى العقاب فى وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع فى أن تتعاون على الإثم فعليك أن تخاف الله ؛ لأن عقابه شديد .

وكيف يأتى العقاب إلى المذنب ؟ لا نعرف ؛ لأننا لسنا آلهة ، ونجد العقاب يتسلل إلى المذنب فى نفسه كمرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج من يحب . وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها وهذه هى شدة العقاب .

وبعد ذلك يأتى الحق بأمر تحريم أشياء بعد أن حلل الله أشياء فى قوله : « أحلت لكم بهيمة الأنعام » . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين تخصيصا لما أحل من الأنعام . . فقد حلل الله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر

اثنين . وألحق الرسول بها الظباء وبقر الوحش ، وكل ذات أربع من حيوان البحر ، وكان قول الله : « إلا مايتلى عليكم » مؤذناً بأن هناك تحريماً قادماً سيأتى ، ويبين الحق بالقرآن ما يحرمه الله :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

الآية تبدأ بقوله : « حرمت عليكم الميتة » ونلحظ أن البداية فعل مبنى للمجهول. على الرغم من أن الفاعل فى التحريم واضح وهو الله . ولم يقتحم سبحانه على أحد ، فالإنسان نفسه اشترك فى العقد الإيمانى مع ربه فألزمه ـ سبحانه ـ والعبد من جانبه التزم ؛ لذلك يقول الحق : « حرمت » ، حرمها سبحانه كإله وشاركه فى ذلك العبد الذى آمن بالله إلها .

والميتة هى التى ذهبت منها الحياة أو خرجت منها الروح بدون نقض للبنية ، أى ماتت حتف أنفها ، فذهاب الحياة له طريقان : طريق هو الموت أى بدون نقض بنية ، وطريق بنقض البنية ؛ فعندما يخنق الإنسان كائنا آخر يمنع عنه النفس وفى هذا إزهاق للروح بنقض شىء فى البنية ؛ لأن التنفس أمر ضرورى ، وقد يزهق الإنسان

روحا آخر يضرب به بالرصاص ؛ لأن الروح لا تحل إلا فى جسد له مواصفات خاصة .

لكن هناك جوارح يمكن أن تبقى الروح فى الجسم دونها ، والمثال على ذلك اليد إن قطعت ، أما إن توقف قلب الإنسان فقد يشقون صدره ويدلكون هذا القلب فينبض مرة أخرى بشرط أن يكون المخ مازال حيا ، وأقصى مدة لحياة المخ دون هواء سبع دقائق فى حالات نادرة . فما أن يصاب المخ بالعطب حتى يحدث الموت . ولذلك عرف الأطباء الموت الإكلينيكى بأنه توقف المخ . إذن فهناك موت ، وهناك قتل ، وفى كليهما ذهاب للروح .

وفى الموت تذهب الروح أولاً ، وفى القتل تذهب الروح بسبب نقض البنية . والميتة هى التى ذهبت منها الحياة بدون نقض البنية ، ومن رحمة الله أن حرم الميتة ؛ لأنها ماتت بسبب لا نراه فى عضو من أعضائها ، حتى لا نأكلها بدائها .

وكذلك حرم الدم ، وهو السائل الذى يجرى فى الأوردة والشرايين ويعطى الجسم الدفء والحرارة وينقل الغذاء ، وللدم مجالان فى الجريان ؛ فهو يحمل الفضلات من الكلى والرئة ، وهناك دم نقى يحمل الغذاء ، والأوعية الدموية بها لونان من الدم : دم فاسد ودم صالح . وعندما نأخذ هذا الدم قد يكون فيه النوع الصالح ويكون فيه أيضاً النوع الذى لم تخرج منه الشوائب التى فى الكلى والرئة ، ولذلك يسمونه الدم المسفوح ، أى الجارى ؛ وكانوا يأخذونه قديما ويملأون به أمعاء الذبائح ويقومون بشيه ويأكلونه .

وهناك دم غير فاسد ، مثال ذلك الكبد ، فهو قطعة متوحدة ، وكذلك الطحال ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أحلت لكم ميتتان ودمان ، فأما الميتتان : فالسمك والجراد ، وأما الدمان : فالكبد والطحال)[1] .

إذن فالكبد والطحال مستثنيان من الدم ، لكن إذا جئنا للدم المسفوح فهو حرام . والحكمة فى تحليل السمك والجراد هى عدم وجود نفس سائلة بهما ، فليس

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والدارقطنى .

فى لحمها دم سائل ، وعندما نقطع سمكة كبيرة لا ينزل منها دم . بل يوجد فقط عند الأغشية التى فى الرأس ولا يوجد فى شعيراته . وعندما يموت السمك ويؤكل فلا خطر منه ، وكذلك الجراد .

ويأتى بعد ذلك فى سلسلة المحرمات « ولحم الخنزير » . ولا يقولن مؤمن : لماذا حرم الله لحم الخنزير ؟ لقد ذهب العلم إلى كل مبحث ليعرف لماذا حرم الله الميتة وكذلك الدم حتى عرف العلماء أن الله لا يريد أن ينقل داء من حيوان ميت إلى الإنسان ، وكذلك حرم الله الدم لأن به فضلات سامة « كالبولينا » وغيرها .

ولكل تحريم حكمة قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خافية . والقرآن قد نزل على رسول أمى فى أمة أمية لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد ، وطبق المؤمنون الأوائل تعاليم القرآن لأن الله الذى آمنا به إلها حكيما هو قائلها ، وهو يريد صيانة صنعته ؛ وكل صانع من البشر يضع قواعد صيانة ما صنع . ولم نجد صانع أثاث ـ مثلا ـ يحطم دولاب ملابس ، بل نجده باذلا الجهد ليجمل الصنعة ، ومادام الله هو الذى خلقنا وآمنا به إلها ؛ فلا بد لنا أن ننفذ ما يأمرنا به ، وأن نتجنب ما نهانا عنه ، ولا يمنع ذلك أن نتلمس أسباب العلم ، رغبة فى ازدياد أسباب الإيمان بالله ومن أجل أن نرد على أى فضولى مجادل ، على الرغم من أنه ليس من حق أحد أن يجادل فى دين الله ؛ لأن الذى يرغب فى الجدال فليجادل فى القمة أولاً ؛ وهى وجود الله ، وفى البلاغ عن الله بواسطة الرسول ؛ فإن اقتنع ، فعليه أن يطبق ما قاله الله . فالدين لا يمكن أن نبحثه من أذنابه ، ولكن يبحث الدين من قمته . ونحن ننفذ أوامر الله . ولذلك نجد أول حكم يأتى لم يقل الحق فيه : يا أيها الناس كتب عليكم كذا ، ولكن سبحانه يقول : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنت بى خذ الحكم منى .

وأكرر المثل الذى ضربته سابقاً : أثمن ما عند الإنسان صحته ، فإذا تعرضت صحته للاختلال فهو يدرس الأسباب ؛ إن كان يرهقه الطعام يختار طبيبا على درجة علم عالية فى الجهاز الهضمى ، ويكتب الطبيب الدواء ، ولا يقول المريض للطبيب : أنا لن أتناول هذا الدواء إلا إذا قلت لى لماذا وماذا سيفعل هذا الدواء .

إذن فالعقل مهمته أن ينتهى إلى الطبيب الذى اقتنع به ، وما كتبه الطبيب من تعاليم فعليك تنفيذها ، وكذلك الإيمان بالله ، فمادام الإنسان قد آمن بالله إلها فعليه أن ينفذ الأوامر فى حركة الحياة بـ « افعل » و« لا تفعل » ، والمريض لا يناقش طبيبا ، فكيف يناقش أى إنسان ربه : « لم كتبت على هذا » ؟

والطبيب من البشر قد يخطىء ؛ وقد يتسبب فى موت مريض ، وعندما نشك فى قدرة طبيب ما نستدعى عدداً من الأطباء لاستشارة كبيرة . وننفذ أوامر الأطباء ، ولا يجرؤ أحد أن يناقش الله سبحانه وتعالى بل نقول : كل أوامرك مطاعة .

إننا ننفذ أوامر الأطباء فكيف لا ننفذ أوامر الله ؟ إن الإنسان يضع ثقته فى البشر الخطائين ، ولا يمكن ـ إذن ـ أن تعلو على الثقة فى رب السماء ؛ لذلك فالعاقلون هم الذين أخذوا أوامر الله وطبقوها دون مناقشة ؛ لأن العقل كالمطية يوصل الإنسان إلى عتبة السلطان ، ولكن لا يدخل معك عليه ، وحين تسمع من الله فأنت تنفذ ما أمر به .

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » وقد أثبتت التحليلات أن بلحم الخنزير دودة شريطية ودودة حلزونية وعددا آخر من الديدان التى لا يقهرها علاج .

والمحرمات من بعد ذلك « وما أهل لغير الله به » أى رفع الصوت به لغير الله كقولهم : باسم اللات والعزى عند ذبحه ، ولا يقال عند ذبحه : « الله أكبر بسم الله » ؛ لأن الإنسان منتفع فى الكون الذى يعيش فيه بالأجناس التى طرأ عليها ، لقد وجد الإنسان هذه الأجناس فى انتظاره لتخدمه لأنه خليفة الله فى الأرض ، والحيوان له روح ولكنه يقل عن الإنسان بالتفكير ، والنبات تحت الحيوان ، والجماد أقل من النبات . وساعة يأخذ الإنسان خدمة هذه المسخرات ، فعليه أن يذكر الخالق المنعم ، وعندما يذبح الإنسان حيوانا ، فهو يذبحه بإذن الأكبر من الإنسان والحيوان والكون كله ، يذبحه باسم الخالق .

إن هناك من ينظر إلى اللحم قائلاً : أنا لا آكل لحم الحيوانات لأنى لا أحب الذبح للحيوان شفقة ورحمة ، لكن آكل النبات . ونقول : لو أدركت ما فى النبات من حياة أكنت تمتنع عن أكله ؟ لقد ثبت فى عصرنا أن للنبات حياة ، بل وللجماد حياة أيضاً ؛ لأنك عندما تفتت حصوة من الصوان أو أى نوع من الأحجار ، فأنت تعاند بدقات

المطرقة ما فى تلك الحصوة من تعانق الجزيئات المتماسكة ، وقد تفعل ذلك وأنت لا تدرى أن فيها حياة .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

والصالحون من عباد الله يعرفون ذلك ويديرون أعمالهم وتعاملهم مع ما سواهم من المخلوقات جميعا ـ حيوان أو جماد ـ على أنها مسبِّحة لذلك لا يمتهنون الأشياء ولا يحتقرونها مهما دقت وحقرت وإنما يتلطفون معها حتى لو ذبحوا حيوانا فإنهم يرحمون ذلك الحيوان فلا يشحذون ولا يسنون السكين أمامه ولا يذبحون حيوانا أمام حيوان آخر فضلا على أنهم يطعمون ويسقون ما يريدون ذبحه لأنهم يعلمون أنه مسبح ولكنهم فعلوا فيه ما فعلوا لأن الله أباح لهم ذلك ليستديموا حياتهم بأكله فهم أهل تكليف من الله، أما ما عداهم فهم أهل تسخير .

« وما أهل لغير الله به » تشرح لنا أن الحق هو الذى حلل لنا أن نأكل من الذى له حس وحركة ، كالحيوان الذى يتطامن للإنسان فيذبحه ، ولا بد للإنسان أن يعرف الشكر لواهب النعمة ، فـ « بسم الله أكبر » تؤكد أنك لم تذبحه إلا باسم من أحله لك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن فالأكل من ضمن التذليل ، وعندما تذبح الحيوان لا بد أن تذكر من ذلل لك ذلك . ويحرم الحق أكل المنخنقة ، أى الحيوان الذى مات خنقاً ؛ لأن قوام الحياة ثلاثة ؛ طعام ، شراب ، هواء ، وهذا من حكمة الخالق الذى خلق الصنعة ورتب الأمر حسب الأهم والمهم ، فالإنسان قد يصبر على الجوع إلى ثلاثين يوماً ؛ لأن ربنا سبحانه وتعالى قدر لك ـ أيها الإنسان ـ ظروف الأغيار ، فجعل فى جسمك مخزونا لزمن قد تجوع فيه ، وجعل للإنسان شهوة إلى الطعام ، وغالبا لا يأكل الإنسان ليسد الرمق فقط ، ولكن بشهوة فى الأكل .

إن ربنا يوضح لنا : أنا أحترم شهوتك للطعام ، ولتأخذ حركتُك الضروريَّ لها

من الطاقة ، والزائد سيُخزن فى الجسم كدهون ولحم ، فإن جاء يوم لا تجد فيه طعاماً أخذت من الدهون المخزونة طاقة لك . وهذه من دقة الصنعة ، وإن قارنتها بسيارة صنعها الإنسان إذا ما فرغ منها الوقود فإنها تقف ولا تسير ، أما صنعة الخالق فهى لا تقف إن توقف الطعام بل تستمر إلى ثلاثين يوماً ، وربما حن على الإنسان قلب إنسان آخر فأحضر له الطعام ، وربما احتال الإنسان ليخرج من مأزق عدم وجود الطعام .

إن المرأة العربية وصفت الشدة والعوز فقالت : « سنة أذابت الشحم ، وسنة أذهبت اللحم ، وسنة محت العظم » أى أن الأمر درجات ، فالإنسان يتغذى من دهنه ثم من لحمه ثم من عظامه ، ويصبر الإنسان على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة ، وعشرة أيام ، حسب كمية المياه المخزونة فى الجسم . أما الهواء فلا يصبر عنه الإنسان إلا بمقدار الشهيق والزفير ، فإن حُبس الهواء عن الإنسان مات . فالنَفَس هو أهم ضرورة للحياة ، ولذلك نجد من حكمة الحق سبحانه أنه لم يملّك الهواء لأحد ؛ لأن أحداً لو امتلك الهواء بالنسبة لإنسان آخر فقد يمنع عنه الهواء لحظة غضب فتنتهى منه الحياة .

واللغة العربية فيها من السعة ومن دقة الأداء ما يدل على أن هناك أسرارا للمعانى ، تلتقى عند شىء ما ، فمثلاً إذا قلت : نَفْس ، أو نفيس ، أو نَفَس ، نجد أنها ثلاث كلمات مكونة من مادة واحدة هى « النون والفاء والسين » ، النفس هى اتصال الروح بالمادة فتنشأ الحياة بها ، ويلهم ربنا النفس فجورها وتقواها ، والنَّفَس : وهو الريح تدخل وتخرج من فم وأنف الحى ذى الرئة حال التنفس ولا تدوم الحياة إلا به ، ومادام أساس الحياة هو النفَس فيجب ألا تكون حياتك إلا من أجل نفيس ، ويجب أن تحترم خلق الله لك وألا يكون سعيك فى الدنيا إلا من أجل نفيس ، ولا نفيس إلا الإيمان .

وفى اللغة العربية أمثلة كثيرة لما يسمى بالجناس ، فنحن نسمى الأكل فى الميعاد « وجبة » ، ونسمى المسئولية « واجبا » ونسمى دقة القلب « الوجيب » . ولذلك عندما أراد الشعراء أن يتفننوا جاء واحد منهم بلفظين متماثلين ولكل منهما معنى مختلف فقال :

رحلت عن الديار لكم أسير وقلبى فى محبتكم أسير

فأسير فى الشطر الأول بمعنى أمشى ، وأسير فى الشطر الثانى من البيت بمعنى مأسور ومقيد .

فالمنخنقة إذن هى التى منع عنها النفس ، ومادام مَنْع النفس أوصلها إلى الخنق فهى إلى الموت ، فلماذا جاء ذكرها مرة أخرى بعد الميتة ؟ لقد جاء ذكر المنخنقة لأن الإنسان قد يلحقها بالذبح ، فإن سال منها دم ، وطرفت فيها عين أو تحرك الذيل فهى حلال . أما إن لم يلحقها الإنسان وذبحها ولم يسل منها دم فهى حرام ، ويحرم الحق الموقوذة ، وهى البهيمة التى يتم ضربها بأى شىء إلى أن تصل للموت ، فهى قد ماتت ، بنقض بنية وكذلك المتردية التى وقعت من ارتفاع حتى ماتت ، وكذلك « النطيحة » أى التى نطحها حيوان آخر إلى أن ماتت . « وما أكل السبع » وهو ما يبقى من أكل السبع من لحم ما افترسه من حيوان مأكول ، « إلا ما ذكيتم » ، والذكاة هى الذبح الذى يسيل منه الدم وتأتى بعده حركة من المذبوح . والمقصود بقوله : « إلاما ذكيتم » هو المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، فإن أدركها الإنسان وذبحها وسال منها دم وصدرت منها حركة فهى حلال .

هذا هو رأى على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وهو مفتى الإيمان . وابن عباس ـ رضى الله عنه ـ وهو حَبْرُ الأمة قال ـ أيضا ـ فى قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الميتة والدم ولحم الخنزير ومقصود به المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وهذا يوضح لنا أن هناك حيوانات شرسة قد لا يقوى الإنسان عليها . وأحياناً قد يقدر الإنسان عليها فيقوم بتكتيفها بالحبال ، وأحيانا يضربها بآلة لتختل وتضعف قليلا ويتملكها الجزار ليذبحها .

ونلاحظ أن الحق لم يحدد الحيز من الجسم الذى أصيبت فيه الموقوذة سواء أكان البطن أم الرأس أم الظهر ، فالحيوان المضروب رميا بالحجارة قد تأتى الأحجار فى الرأس أو البطن أو الظهر ، فمن الجائز أن يضرب الإنسان الحيوان الشرس ليستطيع أن يذبحه .

والحجة عندنا فى التحليل أو التحريم هى : أيسيل منها الدم ساعة الذبح أم لا ؟

وهل يصدر عن جسمها حركة ولو طرفة عين ؟ فإن توافر ذلك فى الذبيحة فهى حلال ، وهكذا نعرف أن قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الثلاثة الأول وهى : الميتة والدم ولحم الخنزير ومعها ما أهل لغير الله به لأنه محرم بطبيعة الإيمان العقدى .

« وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النصب » ويحرم الحق ما أكله السبع إلا إذا كان الحيوان الذى أكله السبع لم يمت واستطاع واحد أن يذبحه الذبح الشرعى . وسبحانه يحرم ما لم يذبح بالأسلوب الشرعى ، فلا يحل ذَبْح بعظم أو بِسِنّ والذى ذبح على النصب ، أى المذبوح على الأحجار المنصوبة كالأصنام فهو حرام ، والكلام هنا عقدى ، والتحريم هنا بعارض عقدى .

و« النُّصُب » من الألفاظ التى وردت مفرداً ووردت جمعاً . فـ« نصُب » هى جمع ، مثلما نجمع كلمة « حمار » ونقول « حُمُر » ، وفى هذه الحالة يكون مفردها « نِصاب » ، ومرة تكون « نصب » مفرداً ، مثلها مثل « طُنُب » وهو الحبل وجمعها « أطناب » أى حبال ، وفى هذه الحالة يكون جمع « نُصُب » هو « أنْصَاب » .

والنُّصُب هى حجارة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الذبائح تقرباً للآلهة . والتحريم هنا بسبب عقدى مثله مثل تحريم ما أهل لغير الله به ، فما أهل لغير الله فيه شرك بالله فافتقد ذكر الله الذى ذلل للإنسان هذا الحيوان القريب من الإنسان فى الحس والحركة وغير ذلك . وكذلك أيضاً ما ذبح على النصب محرم ؛ لأن النصب غير واهب ولا معط ، والواجب أن نتقرب إلى الواجد الواهب .

« وأن تستقسموا بالأزلام » واستقسم أى طلب القسمة ، وكانت القسمة فى بعض الأحيان عملية محرجة فيريدون إلصاقها بغيرهم ، وهنا يقال : « إن الأزلام هى التى أمرتنى » . والأزلام هى قداح من الخشب مكتوب على بعضها : « أمرنى ربى » ومكتوب على البعض الآخر : « نهانى ربى » وبعض من هذه القداح غفل بغير كتابة . وكان المشرك إذا أراد السفر فهو يذهب إلى سادن الكعبة أو الكاهن ، ويخرج السادن أو الكاهن الأزلام من الكيس ، ويحرك القداح ويختار المشرك قِدْحاً ، فإن قرأ عليه « أمرنى ربى » يسافر إلى المهمة التى يريدها ، وإن لم يقرأ عليه ووجده غفلا فهو يعيد الكَرَّة ؛ فإن وجد « نهانى ربى » لا يسافر .

ونسأل : من هو الرب الذى أمر ؟ هل هو الرب الأعلى ، أو الرب الذى كانوا يعبدونه ؟ وأى إله كانوا يقصدون ؟ إن كان المقصود به الإله الأعلى ، فمن أدراهم أن الله أمر بهذا السفر أو نهى عن ذلك السفر ؟ إن ذلك كذب على الله . وإن كان الذى أمر هو الرب الذى يعبدونه ، فهذا أمر باطل من أساسه ، إذن فـ « استقسم » أى أنّه طلب حظه وقسمته بواسطة القداح . وكان الاستقسام يتم فى مسائل الزواج أو عدم الزواج ، والكلام هنا فى هذه الآية عن الأكل ؛ فالسياق عن تحليل ألوان الطعام فلماذا هذا الاستقسام ؟

من هذا نعرف أنهم كانوا فى الجاهلية يخضعون للون من الاستقسام بالأزلام ، كانت عندهم عشرة قداح وكان مكتوبا عليها أسماء ، فواحد على سبيل المثال مكتوب عليه « الفذ » وعليه علامة واحدة . أى أن الذى يسحب هذا القدح يأخذ نصيبا واحداً ؛ أما المكتوب عليه « التوأم » فيأخذ نصيبين ، والمكتوب عليه « الرقيب » يأخذ ثلاثة أنصباء ، والمكتوب عليه « الحِلس » يأخذ أربعة أنصباء ، والمكتوب عليه « النافر » يأخذ خمسة أنصباء ؛ والمكتوب عليه « المُسْبل » يأخذ ستة أنصبة ، والمكتوب عليه « المُعلّى » يأخذ سبعة أنصبة ، والباقى ثلاثة أنواع مكتوب على كل واحد منها إما « المنيح » وإمّا « السفيح » وإمّا « الوغد » .

وعندما يقومون بذبح الجمل كانوا يقسمونه إلى ثمانية وعشرين نصيباً بعدد الأنصبة التى ينالها الأشخاص السبعة الأوائل ، أما من خرج لهم « المنيح » أو « السفيح » أو « الوغد » فلا نصيب لهم ويدفعون ثمن الذبيحة .

إذن فقوله الحق : « وأن تستقسموا بالأزلام » أى أن مسألة طلب القسمة بواسطة الأزلام هو أسلوب مجحف وحرام ، وهو لون من الميسر ، والاستسقام بالأزلام خلاف القرعة ، فالقرعة تكون بين اثنين متساويين ولا يريد أحدهما أن يظلم الآخر ، فيخرجا الهوى من الاختيار .

مثال ذلك : اثنان من البشر يملكان بيتاً ، وتحرى كل منهما العدل فى القسمة ويلجآن إلى القرعة بأن يكتب كل منهما اسمه فى ورقة ثم يضعا الورقتين فى إناء ضيق ويحضر طفل صغير لا يعرف المسألة ويغمض عينيه ويشد ورقة من الاثنتين ، فيأخذ كل واحد النصيب الذى حددته القرعة .

ومثال آخر : الرجل المتزوج بأكثر من واحدة ، عليه أن يقرع بين النساء إن أراد صحبة إحداهن فى سفر ، والقرعة هنا حتى لا تغضب واحدة من الزوجات ، وحتى لا يكون الهوى هو الحكم ، وبذلك يخرج من دائرة لوم مَن لا تخرج قرعتها .

ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فعندما أراد صلى الله عليه وسلم ألا يكسر خاطر أى واحد من الأنصار عندما هاجر إلى المدينة ، وتطلع كل واحد من الأنصار إلى أن ينزل رسول الله فى بيته ، وحاول كل واحد أن يمسك بزمام الناقة وأن يجعلها تقف أمام بيته ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(خلوا سبيلها فإنها مأمورة)[1] .

فعندما تميل الناقة وتقف عند أى بيت لن يقول أحد : إن النبى آثر فلاناً على فلان . جعلها الرسول فى يد من لا يقدر أحد على أن يخالفه عليه ، وكذلك فالاستخارة غير الاستقسام . إذن فالاستقسام بالأزلام هو المحرم شرعاً ؛ لأنها عملية غير مناسبة وهى ظالمة ، ووردت هنا فى سياق ألوان الطعام .

ويقول سبحانه عن كل تلك الألوان من المحرمات ؛ إنَّ ارتكابها فسق . « ذلكم فسق » والفسق هو الخروج عن الطاعة . والمعانى ـ كما علمنا من قبل ـ مأخوذة من المحسّات ؛ لأن إلف الإنسان فى أول إدراكاته بالمحسات ، فهو يرى ويسمع ويشم ، وبعد ذلك تأتى الأمور العقلية .

وأصل الفسق هو خروج الرطبة عن قشرتها ؛ فالبلحة عندما ترطب تنكمش الثمرة داخل القشرة وتخرج منها عندئذ يقال : « فسقت الرطبة » أى خرجت من قشرتها ، وكذلك من يخرج عن منهج الله يسمونه فاسقاً ؛ تماماً مثل الرطبة ، وفى هذا رمزية تدل على أن شرع الله سياج يحيط بالإنسان ؛ فالذى يخرج عن منهج الله يكون فاسقاً . وإياك أيها المسلم أن تخرج عن شرع الله ؛ لأن الرطبة عندما تخرج عن القشرة فالذباب يحوم حولها ويصيبها التراب وتعافها النفس ، فَكَان دين الله كإطار يحمى الإنسان بالإيمان .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، وأخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى .

وهذه الأحكام كلها تبنى قضية الدين ، قضية عقدية فى الألوهية ، قضية البلاغ عن الألوهية بواسطة الرسالة . وأحكام تنظم حركة المجتمع بالعقود والأمانات والأنكحة وغيرها ، كل هذه الأحكام تصنع هيكل الدين العام . وقد مر هيكل الدين العام بمرحلتين : المرحلة المكية وكان كل هدفها التركيز على العقيدة والإيمان بوحدانية الله والنبوات والبلاغ عن الله ، وبعد ذلك فى المرحلة المدنية جاءت سورة النساء وسورة المائدة لتتكلما عن الأحكام .

وبالعقيدة وبالبلاغ عن الله وبالأحكام يكتمل الدين ؛ لذلك يقول الحق : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » كأن الكافرين كان لهم أمل فى أن يحبطوا هذا الدين وأن يبطلوه وأن ينقضوه ، وكذلك المؤمنون بأديان سابقة أو بكتب سابقة كانوا يحبون أن يطرأ على القرآن الأفعال التى مارسوها مع كتابهم من النسيان والترك والتحريف ، وسبحانه هو القائل عن أصحاب الكتب السابقة :

﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

إذن فقد أرادوا أن ينسى المسلمون ـ أيضاً ـ حظاً من القرآن ، لكن الحق يخبر بأنهم يئسوا أن ينسى المسلمون حظا مما ذكروا به ؛ لأن الصحابة حفظوا القرآن فى الصدور وكتبوه فى السطور ومن لسان الرسول مباشرة . ولم يحدث مثلما حدث مع الرسل السابقين . فقد تم تسجيل هذه الكتب المنزلة عليهم بعد ثلاثة أو أربعة قرون ، بل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن من فور نزول كل نجم من الآيات ، وكان يأمر بوضع الآيات بترتيب معين .

إن على الذين كفروا أن ييأسوا من أن ينسى المسلمون حظاً مما ذكروا به . وهؤلاء القوم من أهل الكتاب لم ينسوا حظاً مما ذكروا به فقط ، بل أيضاً حرفوا الكتاب عن مواضعه وكتموا ما أنزل الله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة البقرة)

وهم يئسوا من أن يكتم المسلمون ما أنزل الله ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتى بحكم فى شىء ، ثم يغير الله ذلك الحكم ، فلا يستحى رسول الله أن يبلغ : أن الحكم الذى قلته لكم قد غيره الله لى . وهل يستنكف أن يعدل الله له ؟وهذا دليل على أمانة البلاغ عن الله ، لذلك يئس الكافرون بألوانهم المختلفة من أن ينسى المؤمنون حظا مما ذكروا به ؛ لأن تسجيل القرآن كان أمينا بصورة لا نهاية لها ، وظل القرآن مكتوباً فى السطور ومحفوظاً فى الصدور .

والحق يعلن عن يأس الكفار من مشركين وأهل كتاب بقوله : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » يئسوا لأن المراحل التى مرت بالكتب السابقة لن تمر بهذا الدين . وقد توهم أهل الكتاب أن الإسلام سيمر بما طرأ عليهم ، وظن بعضهم أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب من ترك لدينهم وإهدار له . وكذلك ظن بعض كفار قريش أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب ، فقد كانت عندهم التوراة وهم مع ذلك لا يتبعون كتابهم ، فيرد الحق على كل هؤلاء : اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » .

وقوله : « اليوم » يعنى الزمان الذى مضى والزمان المستقبل ، فقد أتم الله دين الإسلام ورضيه لنا وفتحت مكة للمسلمين ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وصار القرآن مكتوباً ومحفوظاً . وبذلك تأكد يأس الكافرين والمشركين أن يُنسى القرآن أو أن يُكتم القرآن ؛ لأن من أنزل عليه الكتاب ، كان إذا جاء أمر يتعلق به فهو يقوله . وعندما مال قلب المسلمين ذات مرة إلى تبرئة المسلم الذى سرق وأن تلصق التهمة باليهودى البرىء ، هنا نزل من القرآن قوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد أمر الحق أن يكون النبى هو الحكم العدل حتى ولو كان حكماً ضد مسلم . ويأمر الحق رسوله أن يستغفر الله إن كان قد ألم به خاطر أن ينصر المسلم الخائن على اليهودى الذى لم يسرق ، إنها سماحة دين الإسلام .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » . ولقد تم دين الله . ودخل الناس إلى الإسلام أفواجا . ولن يُنسى القرآن . ولن يكتم القرآن أحد . ولن يحرف القرآن أحد . ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتمان وتحريف ، أو الإتيان بأشياء أخرى والقول والزعم بأنها من عند الله ، وهى ليست من عند الله . إذن فقد يئس الذين كفروا من أن يتزيد المسلمون فى دينهم . ولن توجد بين المسلمين تلك المثالب والعيوب التى ظهرت فى الأقوام السابقة .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » لقد يئسوا من أن يُغلب الإسلام ، بل إن الإسلام سَيَغْلب . وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم » وقد حكم سبحانه ألا يأتى أمر يحقق لأعداء الإسلام الشماتة به ، أو أن تتحقق لهم الفرصة فى انكسار الإسلام ، فلا تخشوهم أيها المسلمون لأنكم منصورون عليهم ، ولن تدخلوا فى أسباب الخيبة التى دخلوا فيها . وعليكم أيها المؤمنون بخشية الله .

ولو أراد أحد تغيير شىء من منهجه سبحانه فسيلقى العقاب ، وسبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فكتاب الله معكم وترك فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهجه ، فإن خالفتم المنهج فستتلقون العقاب ، كما هزم الله المسلمين فى أُحُد أمام المشركين لأنهم خالفوا المنهج . فما نفعهم أنهم كانوا مسلمين منسوبين للإسلام بينما هم يخالفون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فلا خشية من المسلمين لأعدائهم . ولكن الخشية تكون لله ، فإن خفتم فخافوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله . ومادام سبحانه هو الآمر : لا تخش أعداء الله لأنه زرع فى قلوبهم اليأس من أن ينسى المسلمون المنهج ، أو أن يتزيدوا فى الدين ، أو يكتموا الدين ، فهم لا يحرفونه ولا يزيدون فيه . إذن فالعيب كل العيب ألا تطبقوا منهج الله .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » والإكمال هو أن يأتى الشىء على كماله ، وكمال الشىء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه . وقد أتم الله استمرار النعمة بتمام المنهج .

لقد رضى الحق الإسلام ديناً للمسلمين . ومادام رضى سبحانه الإسلام منهجاً، فإياكم أن يرتفع رأس ليقول : لنستدرك على الله ؛ لأن الله قال : « أكملت » فلا نقص . وقال : « أتممت » فلا زيادة . وعندما يأتى من يقول : إن التشريع الإسلامى لا يناسب العصر . نرد : إن الإسلام يناسب كل عصر ، وإياك أن تستدرك على الله ؛ لأنك بمثل هذا القول تريد أن تقول : إن الله قد غفل عن كذا وأريد أن أصوب لله ، وسبحانه قال : « أكملت » فلا تزيد ، وقال : « أتممت » فلا استدراك ، وقال : « ورضيت » فمن خالف ذلك فقد غَلَّب رضاه على رضا ربه .

إن الخالق سبحانه هو أعلم بخلقه تمام العلم ، ويعلم جل وعلا أن الخلق ذو أغيار ، وقد تطرأ عليهم ظروف تجعل تطبيق المنهج بحذافيره عسيراً عليهم أو متعذراً فلا يترك لهم أن يترخصوا هم ، بل هو الذى يرخص ، فلا يقولن أحد : إن هذه مسألة ليست فى طاقتنا . فساعة علم الحق أن هناك أمراً ليس فى طاقة المسلم فقد خففه من البداية . ومادمنا ذوى أغيار ، وصاحب الأغيار ينتقل مرة من قوة إلى ضعف ، ومن وجود إلى عدم ، ومن عزة إلى ذلة ؛ لذلك قدر سبحانه أن يكون من المؤمنين بهذا المنهج الكامل من لا يستطيع القيام لمرض أو مخمصة ، فرخص لنا سبحانه وتعالى : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » .

إذن فالحق قد ذكر أن شيئاً من الأغيار قد يطرأ على النفس البشرية ، ومادام استبقاء الحياة يتطلب القوت ، والإنسان قد يمر بمخمصة وهى المجاعة التى تسبب الضمور فى البطن ، هنا يرخص الحق للجائع فى مخمصة أن يأكل الميتة أو ما فى حكمها بشرط الاضطرار لاستبقاء الحياة ، فلا يقول واحد على سبيل المثال :

أنا مضطر لأن أتعامل مع البنك بالربا لأنى أريد أن أتاجر فى مائة ألف جنيه وليس معى إلا ألف جنيه . وهذا ما هو حادث فى كل الناس . هنا أقول : لا . عليك بالتجارة فى الألف التى تملكها ولا تقل أنا مضطر للتعامل فى الربا . فالمضطر هو الذى يعيش فى مجاعة وإن لم يفعل ذلك يموت أو يموت من يعول . وقد رخص الشرع للإنسان الذى لا يملك مالاً أن يقترض من المرابى إن لم يجد من يقرضه ليشترى دواء أو طعاماً أو شيئا يضطر إليه لنفسه أو لمن يعول . والإثم هنا يكون على المرابى ، لا على المقترض لأنه مضطر .

ولذلك قال الحق : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم » ، أى أنه كاره للإثم وإن ذهب إليه . ولذلك يباح للمضطر على قدر دفع الضرورة . لدرجة أن رجال الشريعة قالوا : إن على الإنسان المضطر ألا يأكل من الميتة أو ما فى حكمها بالقدر الذى يشبع ، بل يأخذ أقل الطعام الذى يمسك عليه رمقه ويبقى حياته فقط . فإذا كان يسير فى الصحراء فعليه ألا يأخذ من الميتة أو ما فى حكمها إلاَّ قدراً يسيراً لأنه لا يجد شيئاً يتقوت به .

إذن فمعنى اضطر فى مخمصة شرط أن يكون غير متجانف لإثم ، أى لا يكون مائلاً إلى الإثم فرحا به ، فعليه ألا يأخذ إلا على قدر الضرورة . ومادام على قدر الضرورة فهو لن يحمل معه من هذه الأشياء المحرمة إلا ما يقيم أوده ويمسك روحه . والمضطر هو من فقد الأسباب البشرية . وسبحانه وتعالى قد بسط أسبابه فى الكون ومد بها يديه إلى خلقه ، وأمر الأسباب : استجيبى لهم مؤمنين كانوا أو كافرين ، فالذى يزرع ويحسن الزراعة والرى والبذر والحرث فالله يعطيه ، والذى يتقن عمله كتاجر تتسع تجارته وتزيد أرباحه .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

إن عطاء الأسباب هو عطاء الربوبية . والمضطر هو من فقد أسبابه . ولذلك فالحق يجيب المضطر إذا دعاه . وقد يقول قائل : إننى أدعو الله ولا يجيبنى . ونقول : إنك غير مضطر لأنك تدعو ـ على سبيل المثال ـ بأن تسكن فى قصر بدلاً من الشقة التى تسكنها ، وأنت تدعو بأن يعطيك الله سيارة فارهة وأنت تملك وسيلة مواصلات عادية . فالمضطر ـ إذن ـ هو الذى فقد الأسباب ومقومات الحياة .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وقد ضربنا من قبل المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ بتاجر يستورد بضائع تصله من الخارج فى صناديق ثقيلة . تحملها السيارات الضخمة ، ويقوم أحد العمال أمامه بحمل صندوق ضخم ، فغلب الصندوق العامل . وهنا يقفز التاجر ليسند العامل .

وهذه هى المساندة فى المجال البشرى ، إذن فلا يَردّ واحد أسبابَ الله من يده ويقول من بعد ذلك : يارب أعنى ؛ لأن الله فى تلك اللحظة يوضح للعبد : إنّ عندك أسبابى ومادامت أسبابى موجودة ، فلا تطلب من ذاتى إلا بعد أن تنفد أسبابى من عندك ؛ لذلك يباح للمضطر أن يأخذ القدر الذى يردّ به السوء عن نفسه .

« فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » ومادام سبحانه قد رخص لنا ذلك ، فما الداعى أن يذيل الآية بمغفرته ورحمته ؟ ولنفهم أن الإنسان يأخذ الغفر مرة على أنه ستر العقاب عنه ، وقد يكون الغفر سترَ الذنب عن العبد لأن الله رحيم . وهذا ما يشرح لنا ما قاله الحق لرسوله :

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الفتح)

فسبحانه يغفر بستر العقاب ، ويقدم الغفر لستر الذنب فلا يقارفه الإنسان ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾

فبعد أن بين الحق ما حرم وما أحل ، نجد أن المحَلَّل غير محصور ، بل المحصور هو المحرم ؛ لأن الحق حينما حرم عشرة أشياء ، فإن هذه الأشياء العشرة ليست هى كل الموجودات فى الكون ، فالموجودات فى الكون كثيرة . وسبحانه وتعالى حين خلق آدم وجعله يتناسل ويتكاثر للخلافة فى الأرض ؛ قدر فى هذه الأرض مقومات استبقاء الحياة لذلك النوع .

والاستبقاء نوعان : استبقاء حياة الذات للإنسان ، واستبقاء حياة نوع الإنسان ، واستبقاء حياة الذات تكون بالتنفس والشراب والطعام ، واستبقاء حياة النوع تكون بالإنكاح والتناسل .

إذن يوجد بقاءان لاستمرار الخلافة : البقاء الأول : أن تبقى الحياة وذلك بمقوماتها ، والبقاء الثانى : أن يبقى نوع الحى وذلك بالتكاثر . وحتى تبقى الحياة ويتكاثر الإنسان لا بد من وجود أشياء وأجناس تخدم الإنسان وتعطيه الطاقة .

وطمأننا سبحانه وتعالى على الرزق حينما قال :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهو بذلك يخبرنا بأنه قدر فى الأرض أقواتها ، وقدر هذه الأقوات للإنسان الخليفة فى الأرض ، لتقيت الإنسان لهذه الحياة ، ويُبقى الإنسان نوعه بالإنكاح . وحين يعد العبد النعم التى وفرها له الحق يجدها لا تحصى . ولم يحاول الإنسان على طول تاريخه أن يحسب ويحصى نعم الله فى الأرض ؛ لأن الإقبال على الإحصاء يكون نتيجة المظنة بالقدرة على الإحاطة بالنعم . وقد عرف الإنسان بداية أنه لا يقدر على الإحاطة بنعم الله ؛ فلم يجرؤ أحد على أن يعدها . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

وقد استخدم « إن » وهى للأمر المشكوك فيه . إذن فهى نعم كثيرة لا نقدر على إحصائها . ونسأل : أيقول الحق لنا النعم المحللة أم الأشياء المحرمة ؟ وبما أن المحلل كثير لا نهاية له ، وبما أن المحرم محصور ؛ لذلك يورد لنا الأشياء المحرمة . وقد بين لنا الحق عشرة أشياء محرمة من النعم . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى

حينما تكلم عن عدم قدرة الإنسان على إحصاء نعمه سبحانه وتعالى قال فى آية :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

وقال فى آية أخرى :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

وظاهر كلام الناس يقول : إنها عبارات تقال وتتكرر ، ولكننا نقول : يجب أن ننتبه إلى أن النعمة تحتاج إلى من يعطيها وهو المُنعِم ، ومن تعطى له وهو المنعم عليه . إذن فنحن أمام ثلاثة عناصر : نعمة ، ومُنعِم ، ومُنْعَمٍ عليه . أما من جهة النعمة وأفرادها فلن يقدر البشر على إحصائها لأنها فوق الحصر . ومن جهة المنعم فهو غفور رحيم . ومن جهة المنعم عليه فهو ظلوم كفار . لماذا يأتى الله لنا بمثل هذه الحقائق ؟

إنه سبحانه لو عاملنا بكفرنا وجحودنا وظلمنا لمنع النعمة ، ولكن استدامة نعمة الله علينا فضل منه ورحمة لأنها تشملنا حتى ولو كنا ظالمين وكنا كفارا ؛ لذلك كان من اللازم أن يأتى بهاتين الآيتين ، فمن ناحية النعمة لن نقدر على حصرها . ومن ناحية المنعم فهو غفور رحيم . ومن ناحية المنعم عليه فهو ظلوم كفار . ولذلك فعندما يرتكب الإنسان ذنبا فإن أهل الإيمان يقولون له : لا تيأس ؛ فربك هو ، هو ، إنه غفور رحيم . ولذلك لا تستحى أيها العبد أن تطلب من ربك شيئا على الرغم من معصيتك ، فالله غفور رحيم . وعندما ننظر إلى مقومات الأشياء ، فإننا نعرف المقوم الأساسى .

لكن هناك مقومات تخدم المقوم الأساسى . ومثال ذلك نحن نأخذ القمح وندرسه ، ونصنع منْ حبوب القمح دقيقا لنصنع منه خبزاً . ويحتاج القمح إلى مقومات كثيرة حتى يخرج من الأرض ـ وهو مقوم أساسى ـ إن القمح يحتاج إلى رى منتظم وحرث وخلاف ذلك ، إذن فالذى خلقنا قدر لنا هذه الأشياء ، ومادام قد قدر لنا كل هذه الأشياء ، فعلينا أن نسمع تعاليمه . وهو قد أوضح : إياك أن تظن أن كل ما خلقت من خلق فأنا مُحِلّه لك ؛ لأنى قد أخلق خلقاً ليس من طبيعته أن

تتناوله ، وليس من طبيعتك أن تتناوله ، ولكن لهذا المخلوق عمل فيما تتناوله كالحرث والرى والتسميد للقمح ، إنها وسائل وأسباب للحصول عليه . فإذا ما قال قائل : مادام هو سبحانه قد خلق هذه المحرمات فلماذا حرمها ؟

ونقول : هذه الأشياء ليس لها عمل مباشر فيك ولكن لها عمل آخر فى الكون . وإذا كنا نحن البشر نصنع آلة ما ، ويقول المخترع لنا : قد صممت هذه الآلة ـ على سبيل المثال ـ لتدار بالديزل ، وآلة أخرى تدار بالبنزين ، والبنزين أنواع ، ولو جئنا للآلة التى تدار ببنزين ووضعنا لها سولارا ، ما الذى يحدث لها ؟ إنها تفسد ، هذا فى المجال البشرى فما بالنا بخالق البشر ؟

لقد صنع الحق صنعته وهى الإنسان ووضع المواصفات التى تسير هذه الآلة ، وعلينا أن نخضع لتعاليمه حتى لا تفسد حياتنا فلا نخرج عن تلك التعاليم ؛ لأنك عندما تخالف وتخرج عما وضعته لصنعتك من نظام ، فالآلة التى من صناعتك تفسد .

وفى حياتنا آلاف الأمثلة . . فالذى صنع الكهرباء ووضع العلامات للأسلاك السالبة والأسلاك الموجبة ، لنأخذ الضوء أو الحركة . وإذا ما حدث خطأ فى هذه التوصيلات الكهربية ؛ نفاجأ بحدوث قطع فى الكهرباء ، وقد تحدث حرائق نتيجة شرارة من الاتصال الخاطىء .

إذن فكل تكاثر وإنجاب من كل سالب وموجب أى ذكر وأنثى لا بد أن يكون على مواصفات من صنعه وإلا يحدث قطع ودمار ، فإن تزوجنا بشرع الله ورسوله ، استقامت الحياة ، وإن حدث شىء على غير شرع الله ، تشتعل الحرائق فى الكون .

ولذلك تجد العجب أمامك عندما تشهد عقد قران ، تجد ولى الزوجة وهو مبتسم منشرح يوجه الدعوات للناس لأن شابا جاء يتزوج ابنته ويقدم الحلوى ، لكن لو كانت هذه العروس تجلس فى المنزل وحاول شاب أن يتلصص لرؤيتها ، فما الذى يحدث فى قلب والدها ؟ إنه يغلى من الضيق والغضب والتوتر ومن الذى يتلصص لأنه ذهب إلى الفتاة بغير ما أحل الخالق . لكن عندما يدق الباب ويخطبها من أبيها ؛

فالأب يفرح ، فقد جاء فى الأثر : (جدع الحلال أنف الغيرة) .

ونجد الأب ينتقل من موقف الغيرة إلى موقف الفرح يوم زفاف ابنته ، وتذهب الأم صباح اليوم التالى للزفاف لترى حالة ابنتها ولتطمئن ، هل الابنة سعيدة أو لا ؟ إذن . فلا يقولن أحد:إن الله خلق أشياء فلماذا حرمها ؟، لأن الله خلق تلك الأشياء ولها عمل فيما أحل ، ومادام سبحانه قد جعل لهذه الأشياء عملاً فيما أحل . فليس لك دخل إلا بالحلال .

ولذلك يقول الحق رداً على تساؤل المؤمنين : « يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » أى أن كل طيب قد حلله الله ، وكل خبيث حرمه الله ، فلا تقولن : هذا طيب فيجب أن يكون حلالاً ، وهذا خبيث فيجب أن يكون حراما ، ولكن قل : هذا حلال فيجب أن يكون طيبا ، وهذا حرام فيجب أن يكون خبيثا . وإياك أن تحكم أولا بأن هذا طيب وهذا خبيث ثم تبنى على ذلك التحريم والتحليل ، فأنت لا تعرف مثلما يعرف خالقك عن كيفية وجدوى ترتيب الأشياء بالنسبة لك ، حتى لا تقع فى دائرة الذين يستطيبون المسائل الضارة ؛ كهؤلاء الذين يتناولون المخدرات والسموم والخمور ، بل يجب أن تحرص على فهم ما أحل الله فستراه طيبا ، وترفض ما حرم الله لأنه خبيث ، فلا تظن أبداً أن كل طيب ظاهريا محلل لك ؛ لأن هذا الشىء الطيب فى ظاهره قد يكون خبيثا .

وعليك أن تترك تحديد الطيب والخبيث لخالقك ، فهو أدرى بك وبالمناسب لك . أمّا أنت فتعرف الشىء الطيب من تحليل الله له . وتعرف الخبيث من تحريم الله له . والحكم هنا يكون للتكليف ، فالله هو الذى خلق ، والله هو الذى يعلم الصالح للإنسان . فالمسألة إذن ليست العناصر ؛ ولكنها إرادة الخالق لتلك العناصر ، فهو الذى قدر فهدى .

الخلاصة إذن فى هذا الموضوع هى : أن الحق أحل للمؤمنين الطيبات وكل شىء أحله الله يكون طيباً ، وكل شىء حرمه الله يكون خبيثاً ، فلا تنظر أنت إلى الآراء البشرية التى يقول بعضها على شىء إنه طيب فيكون حلالاً ، وإن ذلك الشىء خبيث فيكون حراماً ، فأنت وغيرك من البشر لا يعرفون ترتيب الأشياء ولا فائدتها

ولا مضرتها بالنسبة لك . والدليل : أن البشر يتدخلون فى بعض الأحيان فى تحريم أشياء بالنسبة لبعضهم البعض ، فنجد الطبيب يقول للمريض : أنت مريض بالسكر فلا يصح أن تتناول النشويات والسكريات .

فإذا كنا نسمع كلام الطبيب وهو من البشر ، أفلا يجدر بنا أن نستحى ونستمع لأمر الخالق ؟! بل نتجاسر ونسأل : لماذا حرمت علينا يا رب الشيء الفلانى ؟ وقد يخطيء الطبيب لكن الله لا يمكن أن يخطيء . فهو ربنا المأمون علينا ، فما أحله الله يكون الطيب وما حرمه يكون الخبيث ، وهذه قضية يتعرض لها أناس كثيرون ، فعلى سبيل المثال نسمع من يستشهد الاستشهاد الخاطيء وفى غير موضوعه بقول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ويقول : إن عملى يأخذ كل وقتى . ولا فسحة عندى لإقامة الصلاة ، والله لم يكلفنا إلا ما فى الوسع . ونقول : وهل أنت تقدر الوسع وتبنى التكليف عليه ؟ لا . عليك أن تسأل نفسك : أكلفك الله بالصلاة أم لا ؟. فإذا كان الحق قد كلفك بالصلاة ، وغيرها من أركان الإسلام فهو الذى علم وسع الإنسان فى العمل . ويجب أن تقدم التكليف أولاً لتعرف طاقة الوسع من بعد ذلك . وكذلك أسأل نفسك عما حلله الله واعرف أنه طيب وما حرمه الله فهو خبيث .

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » وإذا سألنا ما تلك الطيبات ؟ عرفنا أنها غير ما حرم الله ، فكل غير محرم طيب ، أو أنهم سألوا عن أشياء سيكون الجواب السابق هو الإجابة الطبيعية لها ، وقدم الله الإجمال الذى سبق أن شرحناه . وبعد ذلك يكون المسئول عنه فى مسألة الصيد بالكلاب ، فجاء لهم بالبيان فى مسألة الصيد بالكلاب . وكانت تلك مسألة مشهورة عند العرب فى الجاهلية ، وكذلك صيد الطيور . فقال : « قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح » فقد وضع الحق القضية العامة أولاً ، ثم خصص بعد ذلك .

لقد كانت مسألة صيد الجوارح موضوع سؤال من عدى بن حاتم ـ رضى الله عنه ـ عن الصيد بالكلاب وبالطيور . وعلينا أن نحسن الفهم عن القرآن بحسن

الفهم عن النص ، فالحق يقول هنا : « أحل لكم الطيبات وما عَلَّمْتُم من الجوارح » فهل الكلاب والفهود والنمور التى تصطاد بواسطتها هى المحللة لنا لأننا علمناها الصيد ؟ لا . « أحل لكم الطيبات » هى قضية منتهية . وبعد ذلك فهنا كلام جديد هو : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم » .

إذن فالذى أُحل هو ما أمسكت ما علمت من الجوارح ، وليست الجوارح التى يعلمها الإنسان ، أى أن الحق أحل لنا الطيبات وأكل ما أمسكت علينا الكلاب التى علمناها الصيد . و« الجوارح » مفردها « جارح » ومعناها « كاسب » ، ولذلك تسمى أيدينا جوارح ، وعيوننا جوارح ، وآذاننا جوارح ؛ لأننا نكسب بها المدركات . فالعين جارحة تكسب المرئى ، والأذن جارحة تكسب المسموع . والأنف جارحة تكسب المشموم . واللمس جارحة لأننا نكسب بها الملموس . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنعام)

و« ما جرحتم » أى ما كسبتم ، إذن فالجارحة هى الكاسبة . وقوله الحق : « وما علمتم من الجوارح » مقصود به الحيوانات التى نعلمها كيف تصطاد لنا ، وسميت جوارح ، لأنها كاسبة لأصحابها الصيدَ ، فالإنسان يطلقها لتكسِب له الصيد ، أو أنها فى الغالب تجرح ما اصطادته . وكلا المعنيين يصح ويعبرِّ .

والأصل فى ما عَلّم الإنسان من الجوارح هو الكلاب ، وألحق بالكلاب غيرها مثل الفهود والنمور والصقور . والحق قال : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله » أى ما بذلتم من جهد فى تدريب هذه الجوارح للصيد ، فالإنسان لا يطلق الكلب أو الصقر ليصطاد ، لكنه يقوم ـ أولاً ـ بتدريب الحيوان على ذلك .

ومثال ذلك : عندما يقوم مدرب القرود بتدريب كل قرد على الألعاب المختلفة ، وكذلك مدرب « السيرك » الذى يقوم بتدريب الأسود والفيلة ، فهذا الفيل الضخم يقف بأربعة أرجل على اسطوانة قطرها متر واحد ، وذلك كله ممكن بالتدريب بما علمكم الله وألهمكم أيها البشر وبما أعطاكم من طول البال وسعة الحيلة .

ونتنبه هنا إلى نقطة هامة : إن الإنسان يقوم بتدريب الحيوان على ألعاب ومهام مختلفة ولكن الفيل ـ على سبيل المثال ـ لا يقدر على تدريب ابنه الفيل الصغير على الألعاب نفسها . وهذا هو الفارق بين الإنسان والفيل ، فابن الإنسان يتعلم من والده وقد يتفوق عليه ، لكن تدريب الحيوان مقصور على الحيوان نفسه ولا يتعداه إلى غيره من الحيوانات من الجنس نفسه أو الذرية فلا يستطيع الحيوان الذى درّبته وروّضته وعلمته أن ينقل ذلك إلى ذريته ونسله فلا يستطيع أن يعلم ابنه .

وكلمة « مكلب » تعنى الإنسان الذى يعلم الكلاب ويدربها على عملية الصيد . وقال البعض : إن « مكلب » أى الرجل الذى يقتنى الكلاب ؛ لكنا نقول : إن الإنسان قد يقتنى الكلاب لكنه لا يقوم بتدريبها ، إذن المكلب هو الذى يحترف تدريب الكلاب ، ومثله مثل سائس الخيل الذى يدرب الخيل ؛ فالحصان يحتاج إلى تدريب قبل أن يمتطيه الإنسان أو قبل أن يستخدمه فى جر العربات .

ولماذا ذكر الله « المكلبين » ولم يذكر مدربى الفهود ؟ . لأن الغالب أن الكلب شبه مستأنس ، أما استئناس الفهد فأمر صعب بعض الشيء . و« مكلبين » تعنى المنقطعين لتعليم الكلاب عملية الصيد . ويعرف معلم الكلاب أن الكلب قد تعلم الصيد بأنه إذا ما أغراه بالصيد فإن الكلب يذهب إليه . وإذا ما زجره المدرب فهو يرجع من الطريق . وإذا ما ذهب الكلب إلى الصيد بعد تعليمه وتدريبه وأمره المدرب أن يحمل الصيد ويأتى ؛ فالكلب يطيع الأمر . ويأتى بالصيد سليماً ولا يأكل منه . فهذه أمارة وعلامة على أن الكلب تعلم الصيد ويمكن تلخيصها فى هذه الخطوات : إذا أرسلته للصيد ذهب ، وإذا زجرته انزجر ، وإذا استدعيته جاء ويأتى بالصيد سليماً لا يأكل منه . فإن أكل الكلب من الصيد فهو غير معلم ؛ لأنه أمسك الصيد على نفسه ، ولم يمسكه على صاحبه . ولذلك حدد الحق عملية الصيد بقوله عن الحيوانات التى تؤدى هذه المهمة : « مما أمسكن عليكم » .

ومن ضمن عملية التدريب هناك إطار إيمانى ، فالتدريب العضلى هو عملية يعلمها المكلِّب للكلب ، أما الإطار الإيمانى فهو ذكر اسم الله على الصيد : « واذكروا اسم الله عليه » وذلك حتى يكون الصيد حلالاً ، ولا يقع فى دائرة « ما أهل لغير الله به » . وإذا ما هجم الكلب على الصيد وقتله ، يكون الصيد حلالاً ، إن كان

صاحب الكلب قد قال : « بسم الله والله أكبر » قبل أن يرسل الكلب إلى الصيد . وإن لم يذكرٍ اسم الله فعليه أن ينتظر إلى أن يعود الكلب بالصيد ، فإن كان فى الصيد الحياة فليذكه أى يذبحه ، ويذكر اسم الله ، وإن مات الصيد قبل ذلك فلا يأكل منه . وكذلك إذا ما اصطاد الإنسان بالبندقية . . إن ذكر اسم الله أولاً وقبل أن يطلق الرصاصة فليأكل من الصيد .

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » هذه هى القضية العامة ، ومن بعد ذلك يحدد لنا الحق ألا نأكل الكلاب ، ولكن هذه الكلاب التى نعلمها الصيد وتصطاد لنا ما نأكله بشرط أن تذكر اسم الله على الصيد قبل إطلاق الكلب للصيد ، أو بعد أن تذبح الصيد الذى اصطاده الكلب ، فذكر اسم الله مسألة أساسية فى تناول النعم ، لأننا نذكر المذلل والمسخر ، ولا يصح أن نأخذ النعمة من وراء صاحبها دون أن نتذكره بكلمة .[1] .

ويذيل الحق الآية بقوله : « واتقوا الله إن الله سريع الحساب » وتقوى الله فى هذا المجال تعنى ألا يؤدى الإنسان هذه الأمور شكلياً ، وعلى المؤمن أن يتقى الله فى تنفيذ أوامره بنية خالصة ودقة سلوك ؛ لأنه سبحانه سريع الحساب بأكثر من معنى ، فمهما طالت دنياك فهى منتهية . ومادام الموت هو نهاية الحياة فالحياة قصيرة بالنسبة للفرد . وإياك أن تستطيل عمر الدنيا ؛ لأن عمر الدنيا لك ولغيرك فلا تحسب الأمر بالنسبة إليك على أساس عمر غيرك الذى قد يطول عن عمرك . إذن مدة الحياة محدودة ، ومادام الموت قد جاء ، فعلى المؤمن أن يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[2] .

والإنسان منا يعرف من خبر القرآن أن الموت مثل النوم . لا يعرف الإنسان منا كم ساعة قد نامها ، ونعرف من خبر أهل الكهف أنهم تساءلوا فيما بينهم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

---

(١) وذهب بعض الفقهاء إلى حل الأكل من الذبيحة أو الصيد الذى لم يذكر اسم الله عليه واكتفى بالتسمية عند الأكل ، هذا إذا لم يكن الذبح أو الصيد قد أهل به لغير الله .

(٢) ابن أبى الدنيا فى الموت وأخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال ، والزبيدى فى اتحاف السادة المتقين .

﴿ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

إذن هم لم يتبينوا أنهم ناموا ثلاثمائة عام وتسعة أعوام إلا بعد أن سألوا، وكذلك من يموت فهو لن يدرى كم مات إلا يوم البعث . أو أنه سبحانه سريع الحساب أى أن له حساباً قبل حساب الآخرة ، وهو حساب الدنيا . فعندما يرتكب العبد المخالفات التى نهى عنها الله ، ويأكل غير ما حلل الله ، فهو سبحانه قادر على أن يجازى العبد فى الدنيا فى نفسه بالأمراض أو التعب أو المرض النفسى ، ويقف الأطباء أمام حالته حائرين . وقوله الحق : « إن الله سريع الحساب » يصح أن تكون السرعة فى الحساب فى الدنيا ويصح أن تكون فى الآخرة .

أو أنه سبحانه سريع الحساب بمعنى أنه يحاسب الجميع فى أقل من لمح البصر ، فالبعض يظن ظناً خاطئاً أنهم سيقفون يوم القيامة فى طابور طويل ليتلقى كل واحد حسابه . لا ، هو سبحانه يحاسب الجميع بسرعة تناسب طلاقة قدرته . ولذلك عندما سئل الإمام على - كرم الله وجهه - : كيف سيحاسب الله كل الناس فى وقت واحد ويقال إن مقداره كنصف يوم من أيام البشر ؟ . فقال الإمام على : فكما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد هو قادر على حسابهم فى وقت واحد .

فسبحانه لم يجعل البشر تقف طابورا فى الرزق ، بل كل واحد يتنفس وكل واحد يأكل ، وكل إنسان يسعى فى أرض الله لينال من فضله . ولا أحد بقادر على أن يحسب الزمن على الله ؛ لأن الزمن إنما يُحسب على الذى يحدث الحدث وقدرته عاجزة ، لذلك يحتاج إلى زمن .

إننا عندما ننقل حجراً متوسط الحجم من مكانه فإن ذلك لا يكلف الرجل القوى إلا بعضاً من قُوَّته ، لكن هذا العمل بالنسبة لطفل صغير يحتاج إلى وقت طويل ، فما بالنا بخالق الإنسان والكون ؟ وما بالنا بالفاعل الذى هو قوة القوى ؟ هو لا يحتاج إلى زمن ، وهو سريع الحساب بكل المعانى .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

سبحانه يبدأ الآية بتكرار الأمر السابق : « اليوم أحل لكم الطيبات » . وأعادها حتى يؤكد على أن الإنسان لا يصح أن ينظر إلى الأمر الطيب إلا من زاوية أنه محلل من الله .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن كيفية تناول المحللات ، وأسلوب التعامل مع الصيد . تأتى هنا لوقفة ، فسبحانه يقول : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » فهل كل طعام أهل الكتاب حل لنا ؟ إن بعضهم يأكل الخنزير . لا ، بل الحلال من طعام أهل الكتاب هو الطعام الذى يكون من جنس ما حلل الله لكم ، ولا يستقيم أن يستنكف الإنسان من أنه طعام أهل كتاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل من الإنسان الذى ارتبط بالسماء ارتباطا حقيقيا كالمسلمين ، ومن ارتبطوا بالسماء وإن اختلف تصورهم لله ، يريد سبحانه أن يكون بينهم نوع من الاتصال لأنهم ارتبطوا جميعا بالسماء ، ويجب أن يعاملوا على قدر ما دخلهم من إيمان باتصال الأرض بالسماء .

إياك أن تقول بمقاطعة أهل الكتاب لا ، ولكن انظر إلى طعامهم فإن كان من جنس الطعام المحلل فى الإسلام فهو حلال . ولا يصح أن تمنع واحداً من أهل الكتاب من طعامك ؛ لأن الله يريد أن ينشىء شيئا من الألفة يتناسب مع الناس الذين سبق أن السماء لها تشريع فيهم ويعترفون بالإله وإن اختلفوا فى تصوره .

وضرب لنا ـ سبحانه ـ المثل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففى أول مجىء الدعوة الإسلامية ، واجهت معسكرا ملحدا يعبد النار ، ولا يؤمن بالإله وهو معسكر فارس ؛ ومعسكراً يؤمن بالإله وهو معسكر الروم ؛ كانت هناك قوتان فى العالم : قوة شرقية وقوة غربية . وعندما يأتى رسول ليأخذ الناس إلى طريق الله ، فلا بد أن يكون قلبه وقلوب المؤمنين معه مع الذين آمنوا بإله وبمنهج ورسالة ، ولا يكون قلبه مع الملاحدة الذين يعبدون غير الله .

ولنر العظمة الإيمانية فى الرسول عليه الصلاة والسلام . نجد الذين يؤمنون بالله ويكفرون به كرسول أولى عنده ممن يكفرون بالله . ولذلك عندما قامت الحرب بين فارس والروم كانت الغلبة أولا لفارس . وكانت عواطف الرسول والذين آمنوا معه مع الروم ؛ لأنهم أقرب إلى معسكر الإيمان الوليد وإن كانوا يكفرون بمحمد فقد كانوا يؤمنون بالله ، وأن هناك منهجا وهناك يوم بعث ، ولذلك يضربها الحق مثلا فى القرآن ليعطينا عدة لقطات ، وأولى هذه اللقطات هى أن المسلمين فى جانب من عنده رائحة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾

(سورة الروم)

وتبدأ هذه الآيات بخبر عن هزيمة الروم ، ثم نبوءة من الحق بأنهم سيغلبون فى بضع سنين . ويوم نصرهم سيفرح المؤمنون بنصر الله . وتنظر القوة الإسلامية التى جاءت لتؤسس دينا واسعا جامعا مانعا إلى معركة بين دولتين عظميين كلتيهما على أقصى ما يكون من الرقى الحضارى ، هذه القوة الإسلامية تتعاطف مع الروم وتحزن ـ القوة الإسلامية ـ لأن الفرس قد غلَبت . فيأتى الحق بالخبر اليقين وهو سَتَغْلِبُ الروم .

وبالله من الذى يستطيع أن يحكم فى نهاية معركة بين قوتين عظميين ؟ إنه حكم لا يستغرق يوما ، حتى ولو كان قائله عرف أن هناك مددا قادما للقوة التى ستنتصر ،

إنه حكم يستغرق بضع سنين . فمن الذى يستطيع أن يتحكم فى معركة ستحدث بعد بضع سنين ؟ لا يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجازف بهذا الحكم ، وهو لا يعرف استعدادات كل قوة وحجم قواتها وأسلحتها ، لكن الأمر يأتى كخبر موثق من الله :

﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾

(سورة الروم)

وهذا كلام موثق ، لأنه قرآن مسطور يقرأه المؤمنون تعبداً . وعندما سمع أبو بكر الصديق هذه الآية ، قال : لقد أقمت رهاناً بأن الروم ستنتصر بعد ثلاث سنين ، وطالبه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمد مدة الرهان لأن الله قال : « فى بضع سنين » والبضع ما بين الثلاث إلى التسع ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبى بكر - رضى الله عنه - فزايده فى الخطر ومادّه فى الأجل فجعلت مائة قلوص (ناقة) إلى تسع سنين . كأن هذا الأمر قد لقى الوثوق الكامل من المؤمنين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بالنصر .

لقد أوردنا ذلك هنا حتى نفهم أن عواطف الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مع الذين يؤمنون بكتاب وبرسول . ونحن هنا نجد الحق يحلل لنا مطاعمة أهل الكتاب حتى تكون هناك صلة بيننا وبين من يؤمن بإله وبمنهج السماء : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » .

وأوضح الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى حينما قال :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝ ﴾

(سورة الممتحنة)

فسبحانه يريد أن نوازن فى أسلوب تعاملنا فلا نساوى بين ملحد مشرك ومؤمن بصلة السماء بالأرض وإن كفر برسول الله . وأن يكون هناك قدر محدود من التواصل الإنسانى . فالذى يحل للمؤمنين من طعام أهل الكتاب هو الذى يكون حلالا فى منهج الإسلام . ويجب أن ينتبه المسلم إلى أن بعض أطعمة أهل الكتاب تدخلها الخمور وعليه الامتناع عن كل ما هو محرم فى ديننا وليأكل من طعامهم ما هو حلال لدينا . فلا يشرب المسلم خمراً ، ولا يأكل المؤمن لحم الخنزير .

والطعام كما نعلم وسيلة لاستبقاء الحياة . وها هوذا ينتقل إلى استبقاء النوع وهو التناسل ؛ فقد أحل الله لنا أن نتزوج من بناتهم « والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » .

والمحصنة لها معنيان : وهى إما أن تكون الحرة فى مقابل الأمة ، وإما أن تكون المتزوجة ؛ لأن الإحصان يعنى الوقاية من أن تختلط اختلاطا غير شريف . وكانت الحرة قديما لا تفعل الفعل القبيح . وكان البغاء مقصورا على الإماء ؛ لأن الأمة لا أب لها ولا أخ ولا عائل ، وهى مُهْدَرة الكرامة . ولذلك نجد أن هندًا زوجة أبى سفيان عندما سمعت عن الزنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم تساءلت : يا رسول الله أَوَ تزنى الحرة ؟! كأن الحرة لم تكن لتزنى فى الجاهلية ؛ لأن الحرة تستطيع أن تمتنع عكس غيرها .

والمحصنة أيضاً هى المتزوجة . ويساوى الحق بين المحصنة من المؤمنات والمحصنة من أهل الكتاب ، والمراد هنا الحرة العفيفة ويشترط وضع المهر لكل واحدة منهن . وبعض العلماء يقول : عندما تتزوج مسلمة يكفى أن تسمى لها المهر ، لأن الدين الواحد يعطى الأمان العهدى ، أما الزواج من كتابية فيجب أن يحدد الإنسان المهر وأن يقرره وأن يوفى بذلك . فالإيتاء هو أن يسمى الإنسان المهر ويقرره ويشهد عليه الشهود . ويستطيع أن يجعل الإنسان المهر كله مؤخراً . والشرط أن يكون الرجل محصناً أى متعففاً .

ويحدد الحق : « غير مسافحين ولا متخذى أخدان » أى صدائق لهم دون زواج ،

والسفح هو الصب . والمرأة البغى هى من يسفح معها أى رجل ، والخدن هى الخليلة أو العشيقة دون زواج ، والخدن كذلك يطلق على الذكر كما يطلق على الأنثى . وإياك أن تفكر فى أمر إقامة علاقة زواج متعة ، بل لا بد أن يكون الإقبال على الزواج بنية الزواج التأبيدى لا الزواج الاستمتاعى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » ؛ لأن فائدة الإيمان أن يستقبل المؤمن الأحكام ممن آمن به إلها وينفذها . فإن سترت شيئا من أحكام الله التى آمنت بها فقد كفرت بالإيمان . والحق لا يضره أن يكفر الناس جميعا ؛ لأنه هو الذى خلق الخلق بداية وهو متصف بكل صفات القدرة والكمال .

إذن فالعالم كله لا يضيف إلى الله شيئا ، فقبل أن يخلق الله الإنسان كانت كل صفات الكمال موجودة لله . وكل ثمار الطاعة والعبادة والإيمان إنما تعود على الإنسان . فإن جاء الإنسان إلى الأحكام التى شرعها الله له ، وستر حكما منها فكأنه كفر بقضية الإيمان . وإن أنكر جزئية من جزئيات الإيمان ، فهذا لون من الكفر ، ويا ليت من يفعل ذلك أن يقول : « إن هذه الجزئية صحيحة ولكن لا أقدر على نفسى » .

ففى هذه الحالة يكون الإنسان مؤمنا عاصيا يستغفر الله أو يتوب ، أما الكفر فلا . والكفر بالإيمان يؤدى إلى حبط العمل . وهذا دليل على أن الحق يخاطب إنسانا يلتزم فى بعض الأشياء ولا يلتزم فى البعض الآخر . وهنا يوضح الحق للإنسان : إن ما أديت من خير فى أعمالك سيذهب بثوابه ويحبط جزاءه ما منعت تنفيذه من أحكام الله ، وجاء الحق بكلمة « حبط » التى تدل على أن العمل بطل وذهب ذهابا لا يعود . فالماشية حين تأكل طعاما لم ينضج بعد وإن كان من جنس ما تطعم مثل البرسيم فى بدايته ويسمى « الرِّبة » ، هذا اللون من الطعام عندما ترعى فيه البهائم يحدث لها انتفاخ فى البطن وتموت .

والعرب تسمى هذا الداء الحُباط . فالحَبَط إذن هو انتفاخ البطن فى الماشية التى تأكل أكلا غير مناسب لها . ويظن صاحبها أنها قد سمنت بينما هى تموت فى الواقع .

وكذلك يكون العمل على غير ما شرع الله . والحق بدأ قضايا الإيمان فى هذه السورة بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

فكل عقد إيمانى يتعلق بالوحدانية لله وبالبلاغ عن الله ، وكل عقد عُقد بين المؤمنين بعضهم بعضا ، وكل عقد عقده الإنسان بينه وبين نفسه ؛ هذه العقود مطلوب الوفاء بها ، ومن يكفر بهذه الأشياء فقد حبط عمله . وحبط العمل يأتى نتيجة أن الإنسان أنهى عمله وختمه بهذا اللون من الكفر وظن أنه عمل عملا صالحا . لكن العمل يحبط تماما كما تذهب البهيمة لترعى شيئا لا يتناسب معها فينتفخ بطنها . فيخيل للرائى أن ذلك شبع وأن ذلك عافية ، ثم لا تلبث أن تنفق وتموت . كذلك عمل الذى يكفر بالإيمان ، يظن أنه عمل شيئا ولكن ذلك الشيء متلف له . والآيات القرآنية تكلمت عن هذا المعنى كثيرا ؛ فالحق يقول عن الكافرين بالله :

﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

ونعلم أن السراب هو شيء من انعكاسات الضوء يخدع الرائى السائر فى الصحراء فيظن أنه ماء ، ويسير إليه الإنسان فلا يجده ماء ، هكذا يكون عمل الذى يكفر بآيات الله . إنها أعمال تبدو متوهمة النفع . وقول الحق سبحانه : « ووجد الله عنده » أى أن مثل هذا الإنسان يفاجأ بوجود الله ، كأن مسألة وجود الإله لم تكن بخياله من قبل ، والإنسان لا يأخذ أجره إلا لمن عمل له . فهل عمل الواحد من هؤلاء لله حتى يأخذ منه أجراً ؟ . لا . لم يعمل لله ، ولذلك نجد أن بعض السطحيين فى الفهم يقولون : كيف لا يجزى الله الجزاء الحسن هؤلاء العلماء الذين اخترعوا العلاجات للأمراض ، والعلماء الذين ابتكروا الأشياء التى تنفع الناس ؟ كيف لا يحسن الله جزاءهم فى الآخرة ؟

ونقول : لقد فعلوا ذلك ولم يكن الله فى بالهم ، كان فى بالهم الإنسانية ، وقد أعطتهم الخلود فى الذكرى وأقامت لهم التماثيل ومنحتهم أوسمة ووضعت فيهم

المؤلفات لتمدحهم . هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس . وهؤلاء الكافرون بتقدمهم فى العلوم ؛ مسخرون للإنسان المؤمن ؛ فالمؤمن يستفيد من الكهرباء ، وينتفع بها المسلمون ليقرأوا القرآن والعلم والذكر . ويستفيد المسلم من الطائرات فيذهب بها إلى الحج وزيارة المدينة المنورة ، وينتفع بها كذلك فى شئون دنياه ، وعلى المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب حتى لا يكونوا أذلة وعالة على غيرهم . والحق يسخر علم الكفار للمؤمنين ، ولا يثاب الكفار على هذا العمل من الله . ولذلك يقول الحق عن أعمالهم مرة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

وها هوذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالإنسان الذى يستر الإيمان بعضه أو كله ، هو إنسان حابط العمل ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ؛ لأن النجاح فى الآخرة نتيجة لعمل الدنيا . ومادام قد عمل لغير الله فى الدنيا فلا بد أن يكون من الخاسرين فى الآخرة .

وقوله الحق : « وهو فى الآخرة من الخاسرين » يوضح لنا ضرورة ألا نخدع ويغرر

بنا لأن بعضاً من الكافرين يكسب بعضاً من الشهرة والجاه والثروة نتيجة اختراعاتهم ؛ فكل ذلك أمور فانية ، وهم مستسلمون لسنة الله ، فإما أن يفوتهم النعيم وإما أن يفوتوا النعيم . والحساب الختامى يكون فى الآخرة ، فالكافر وإن أخذ شيئاً من الكسب فى ظاهر هذه الحياة الدنيا فهو خاسر فى الآخرة .

وبعد ذلك ينتقل الحق ليربط لنا كل قضايا الدنيا رباطاً وافياً . فبعد أن يتكلم عن مقومات الحياة وعن مقومات النوع بالإنكاح وغيره ، يوضح : كل هذه نعم أعطيتها لكم وأريد أن آخذ بأيديكم بعد أن بينت لكم فضل هذه النعم عليكم ؛ لتلتقوا بصاحب كل هذه النعم . هو سبحانه يريد أن يأخذنا من مشاغل الدنيا لنلقى المنعم . وحتى تلقى أيها المسلم الإله المنعم ـ سبحانه ـ فلا بد أن تعد نفسك لهذا اللقاء ؛ لأنها ليست مسألة طارئة ؛ فلا بد من الإعداد الروحى والإعداد البدنى والإعداد المكانى والإعداد الزمانى .

إن الإعداد البدنى يكون بالطهارة . والإعداد الزمانى هو مواقيت الصلاة . والإعداد المكانى هو وجود مكان طاهر لإقامة الصلاة وإعداد اتجاهى بتحديد وجهة الصلاة إلى القبلة . وهذه كلها مواصفات تهيىء النفس البشرية للوقوف بين يدى من أنعم على الإنسان بكل النعم . ولذلك نقول : إن الصلاة إعلان استدامة الولاء الإيمانى للخالق الممد المنعم ؛ فهو الذى خلق من عدم وأمد من عدم . وقد فرض الحق سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات فى اليوم ؛ ليقطع على الإنسان سبيل الغفلة عنه . وإذا ما أراد الإنسان أن يلقى الله فى الأوقات التى بين الصلوات ؛ وأراد أن يعلن استدامة الإيمان وهو يقوم بأى عمل غير الصلاة فليذكر الله ؛ لأننا نعرف القاعدة الشرعية القائلة :

[ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب] .

مثال ذلك أن الإنسان حين يصلى فهو يحتاج إلى قوة . والقوة تتولد فى الجسم نتيجة تناول الطعام . إذن عملية صناعة الطعام أمر واجب وكل ما يترتب على ذلك عملية واجبة . ولذلك عندما يأتى واحد ويقول : أريد أن أنقطع للعبادة وأعتزل حركة الحياة . لنقل له : افعل ذلك بشرط واحد هو ألا تنتفع بحركة متحرك واحد

فى الحياة ، ولا تتناول أى طعام ، ذلك أن الرغيف الذى يقدمه لك إنسان هو من عمل بشر كثيرين لم ينقطعوا عن الحياة . ولنقل أيضاً : لماذا ترتدى هذا الجلباب ؟ . إنه نتيجة حركة حياة بشر آخرين ، فهناك من زرع القطن وآخر حلج هذا القطن وثالث حوله إلى غزل ورابع نسجه وخامس قام بتفصيل هذا الجلباب . ولتنظر إلى ما خَلْف كل واحد من آلات . وإياك أن تنتفع بحركة واحد مشغول بالأسباب مادمت قد قررت الانقطاع عن حركة الحياة .

إن الشغل بالأسباب عبادة ؛ لأن العبادة لا تتم إلا به . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ولذلك فَتَعَلُّم المهارات المفيدة للحياة هو فرض كفاية ؛ والفرض الواجب على الإنسان : أحد اثنين : إما فرض عين وهو الأمر المكلف به الفرد ولابد أن يؤديه ولا يجوز أن يؤديه أحدٌ نيابة عنه ؛ كالصلاة ، وإما فرض كفاية : وهو ما لا يتم الواجب إلا به لذلك كان واجباً ، فكل منا يريد الطعام .

لذلك لا بد من تقسيم العمل ، فهذا يزرع وهذا يصنع ، فلا بد من زراعة القمح ولا بد من إقامة المطاحن ولا بد من إقامة الأفران . ولا بد من مهندسين يصممون هذه الآلات . وكل ذلك أمور تسهل للإنسان أن يمتلك القوة لأداء الصلاة ؛ وأن يقف بين يدى الحق ليؤدى الصلاة . إذن فكل ذلك أمر واجب ، وهو فرض كفاية . أى أنه فرض إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وإن لم يقم به بعضنا يكون الإثم على الجميع .

ومثال آخر هو الصلاة على الميت هى فرض كفاية ، فمن يصلى على الميت فهو يؤدى عنا ، وإن لم يصل أحد على الميت يكون الإثم على كل مسلم ، هكذا تتسع رقعة الإثم . وكل الأعمال التى لا يتم الواجب إلا بها فهى واجب ، ولذلك فهى فرض كفاية ، إن قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، وإن لم يقم به البعض فالإثم على الجميع .

وما موقف ولى الأمر فى هذا ؟. على ولى الأمر أن يفرض القيام بفرض الكفاية على أحد الناس ، وإلا تعطلت الواجبات التى نقول عنها : إنها واجبات دينية . فحين يذهب المسلم إلى السوق فلا يجد خبزاً ؛ يضعف ولا يملك الفكاك من

المجاعة ؛ ولن يقدر على الصلاة أو العمل لينتج أو يجد ادخاراً يكفيه أن يحج . إذن : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ؛ لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما حثنا على أداء الصلاة فى يوم الجمعة يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

هو سبحانه يخرجنا من العمل إلى الصلاة ، ولم يخرجنا إلى الصلاة من فراغ ، لنلتفت إلى دقة الأداء القرآنى حين يقول الحق : « وذروا البيع » وحين يذر الإنسان البيع ، فهو يذر الشراء من باب أولى ؛ لأن البيع والشراء وجهان لعملية واحدة . والخلاف فقط أن المشترى قد يشترى السلعة وهو كاره لأن يشترى ؛ لأنه يستهلك نقوده فيما يشتريه ، أما البائع فيريد أن يحصل على ثمن البيع فوراً ، وغالبا ما يحصل على ربح من وراء ذلك ، وتلك هى قمة الكسب . فكسب الزارع ـ على سبيل المثال ـ يأتيه بعد شهور من الزراعة . وكسب الموظف يأتيه أول الشهر . لكن البائع يحصل على الكسب فوراً . ولذلك يأمرنا الحق أن نذر البيع إذا سمعنا نداء الصلاة يوم الجمعة ، وماذا بعد انتهاء الصلاة ؟ .

ها هوذا الحق يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فلا يقولن أحد أنا منقطع طوال حياتى للصلاة . فلن يستطيع أحد أن يذهب إلى الصلاة ما لم يكن يملك مقومات حياته . ومقومات الحياة تقتضى أن يضرب الإنسان فى الأرض . ولا بد أن يبتغى الإنسان من فضل الله . إذن ، فالسعى فى الأرض هو عبادة ؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ويريد الحق سبحانه وتعالى ألا يعزل قضية تتعلق بمقومات الحياة طعاماً وإنكاحاً عن الصلاة . فيأتى الحق سبحانه وتعالى بشروط الوضوء استعداداً للصلاة بعد أن يتحدث عن

أحكام تحليل الأطعمة وتحريم بعضها ، وبعض من أحكام النكاح ، وذلك لنعرف أن مسئوليات الإيمان كلها مترابطة ، فلا يصح أن نعزل عملاً ونقول: هذا عمل تعبدى وذاك عمل غير تعبدى .

والمؤلفون عندما يضعون الكتب فى الفقه ويخصصون أقساماً فى هذه الكتب للعبادات وأقساماً للمعاملات ، فهذا التقسيم تقسيم تصنيفى تأليفى ، لكن كل ما يطلبه الكون لينصلح فهو عبادة لخالق هذا الكون ، بدليل أنه قال : « فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » وهذا أمر . ويتلوه أمر آخر : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » .

إن الإنسان لا ينفذ أمراً ويهمل أمراً آخر ، ولكن عليه بمقتضى الإيمان أن ينفذ الأمرين معاً ، فإن تأخر الإنسان فى أى من الأمرين فهو مذنب ؛ لذلك يخبرنا سبحانه ـ من بعد الحديث عن النعم التى أنعم بها علينا ـ بما أحل لنا من بهيمة الأنعام ، وبما قص علينا من الزواج من المحصنات ؛ ها هوذا يدخلنا إلى رحابه بالاستعداد للصلاة لأنه واهب كل النعم . ويأمرنا بالاستعداد للصلاة وأن يعد كل واحد منا نفسه لها .

وهذا الإعداد يؤهل المسلم ليلقى الحق فقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً

فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

سبحانه يأمرنا بوضوح محدد : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلا بد لكم من تنفيذ عملية الوضوء .

وتتعرض الآية إلى الأركان الأساسية فى الوضوء . وقد يلتبس الأمر على بعض الناس ولا يستطيع أن يميز بين سنن الوضوء وأركان الوضوء ؛ لأن السنن تقتضى أن يغسل الإنسان يديه ثم يتمضمض ، ثم يستنشق الماء وهكذا . هذه هى السنن التى تمتزج بالأركان الأساسية للوضوء .

ويبدأ الحق أركان الوضوء الأساسية بقوله : « فاغسلوا وجوهكم » والغسل يتطلب إسالة الماء على العضو وأن يقطر منه الماء بعد ذلك . والمسح هو اللمس بالماء ليصيب العضو ولا يتقطر منه الماء ؛ إنه مجرد بلولة بالماء . والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم فى هذه الآية عن الوضوء ، تكلم عن أشياء تُغسل وعن شىء يُمسح . فالأمر بالغسل يشمل الوجه واليدين إلى المرافق والرجلين إلى الكعبين . والأمر بالمسح يشمل بعض الرأس . والغسل قد يكفى مرة أو اثنتين أو ثلاثا ليتأكد الإنسان تماما من الغسل ، ولكن إذا كانت المياه قليلة فيكفى أن يغسل الأجزاء المطلوبة مرة وأن يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة .

إن الزيادة على المرة الواحدة إلى ثلاث مرات أمر مسنون لا واجب وغسل الوجه معروف تماما للجميع ، فالوجه هو ما به المواجهة . والمواجهة تكون من منبت الشعر إلى الذقن ، وتحت منتهى لحييه وهما العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى ، هذا فى الطول، وفى العرض يشمل الوجه ما بين شحمتى الأذنين. ولا أحد يختلف فى

تحديد الوجه ، ولذلك أطلق الحق الوجه ولم يعينه بغاية ، فلم يقل : اغسل وجهك من كذا إلى كذا ؛ ولكنه أمر بغسل الوجه ، فلا اختلاف في مدلول الوجه لدى الجميع . والكل متفق عليه ، هذا إذا ما بدأنا بالفروض الأساسية . لكن إذا ما بدأنا بالسنن فنحن نغسل الكفين إلى الرسغين أولا ثم نتمضمض ونستنشق .

وبعض العارفين بالله يقول عن هذه المقدمات التى هى من السنن : إنها لم تأت اعتباطا ؛ لأن تعريف الماء هو : السائل الذى لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، وإن تغير أى وصف من هذه الأوصاف يكون السائل قد خرج عن المائية . فساعة تأخذ الماء بيديك ستطمئن على لون الماء ، وتعرف أنه لا لون له ، وعندما تتمضمض فأنت تطمئن إلى أنه لا طعم له ؛ وعندما تستنشق فأنت تطمئن على أن الماء لا رائحة له ، وبذلك تطمئن إلى أن الماء الذى تستعمله فى الوضوء يكون قد استوفى الأوصاف قبل أن تبدأ فى عمل المطلوب من أركان الوضوء التى يطلبها الله ، والسنة تقدمت هنا على الأركان لحكمة هى أن توفر للإنسان الثقة فى الماء الذى يتوضأ منه . وبعد ذلك يغسل الإنسان الوجه من منابت شعر الرأس وتحت منتهى لحييه وذلك طولا وما بين شحمتى الأذنين عرضًا .

وبعد غسل الوجه قال الحق : « وأيديكم إلى المرافق » وميز الحق هنا الأيدى بتحديد المساحة المطلوب غسلها بأنها إلى المرافق ، أى أنه زاد غاية لم توجد فى الوجه ، ولكن جاء الأمر بغسل اليدين إلى المرافق ؛ لأن اليد تطلق فى اللغة ويراد بها الكف ، مثال ذلك فى حكم الحق على السارق والسارقة :

﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وتطلق اليد أيضا ويراد بها الكف والساعد إلى المرفق . وتطلق اليد أيضا ويراد بها إلى الكتف . فلليد ثلاث إطلاقات . ولو أن الحق قد أمر بغسل اليد ولم يحدد الغسل بـ « إلى المرافق » لغسل البعض كفيه فقط ، وغسل البعض يديه إلى المرافق ، ولغسل البعض يديه إلى الكتفين ؛ ولأن الحق يريد غسل اليد على وجه واحد محدد ؛ لذلك قال : « وأيديكم إلى المرافق » .

إذن فساعة يريد الحق شيئا محددا ، فهو يأتى بالأسلوب الذى يحدده تحديدا يقطع

الاجتهاد فى هذا الشيء . وكلمة « إلى » تحدد لنا الغاية ، كما أن « مِن » تحدد الابتداء ، ولكن هل تدخل الغاية هنا أم لا ؟ هل تدخل المرافق فى الغسل أم لا ؟ إنّ « إلى » قد تدخل الغاية ومرة أخرى لا تدخل الغاية .

فمثال إدخالها الغاية قوله تعالى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

هل أسرى الحق برسوله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى ولم يدخله ؟ لا أحد يعقل ذلك . إن « إلى » هنا تقتضى أن تدخل الغاية ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب إلى المسجد الأقصى بمراد الإسراء إليه والدخول والصلاة فيه . ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

فهل يدخل الليل فى الصيام ؟ لا ، لأننا لو أدخلنا الليل فى الصوم لصار فى الصيام وصالٌ أى نصل الليل بالنهار صائمين . إذن فمع « إلى » تجد الغاية تدخل مرة ، وتجدها لا تدخل مرة أخرى . واختلف بعض العلماء حول المرفق هل يدخل فى الغسل أو لا ؟ وصار فى عموم الاتفاق أن يدخل المرفق فى الغسل احتياطيا ؛ لأن أحداً لا يستطيع تحديد المرفق من أين وإلى أين . ونعرف أن هناك احتياطات للتعقل ، فمرة نحتاط بالاتساع ومرة نحتاط بالتضييق .

مثال ذلك عندما نصلى فى البيت الحرام . ونحن نعرف أن الكعبة بناء واضح الجدران ، وبجانب جدار من جدران الكعبة يوجد الحطيم وهو حجر إسماعيل وهو جزء من الكعبة يحيطه قوس . وعندما يصلى إنسان حول الكعبة ، هل يتجه إلى الحطيم أم إلى بناء الكعبة ؟ لأنه مقطوع بكعبيته ، والاحتياط هنا احتياط بالنقص ، فنتوجه إلى الكعبة وهى البناء العالى فقط ، ولكن عند الطواف . فإننا نطوف حول

الكعبة والحطيم ، أى ان الاحتياط هنا يكون بالزيادة ؛ لأننا إذا ما طفنا حتى من وراء المسجد فهو طواف حول البيت الحرام .

إذن فالاحتياط يكون مرة بالنقص ومرة يكون بالزيادة . وفى مجال الوضوء يكون غسل المرافق هو احتياط بالزيادة ؛ ذلك أن « إلى » تكون الغاية بها مرة داخلة ، ومرة تكون الغاية بها غير داخلة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك : « وامسحوا برءوسكم » الأسلوب هنا يختلف ؛ فالمطلوب هو المسح . كان المطلوب أولاً هو الغسل للوجه على اطلاقه ؛ لأنه لا خلاف على الوجه ، ثم غسل اليدين إلى المرافق ، وتم تحديد الغاية لأن الحق يريد الغسل لليدين على لون يقطع الجدل والاجتهاد فيه . ولو قال الحق : « امسحوا رءوسكم » مثلما قال : « اغسلوا وجوهكم » لما كان هناك خلاف . لكن لو قال : « امسحوا بعض رءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم فذلك البعض لم يحدد . ولو قال : « امسحوا ربع رءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم قد يوجد خلاف لأن تحديد الربع عسير وشاق .

لماذا إذن اختار الحق هنا هذا الأسلوب « امسحوا برءوسكم » مع أن فى الآية أساليب كثيرة ، منها أسلوب مجرد عن الغاية ، وأسلوب موجود به الغاية ، وهذا الأسلوب لا هو مجرد ولا هو موجود به الغاية ؟ وقال الحق : « امسحوا برءوسكم » ولنا أن نبحث عن كيفية استعمال حرف (الباء) التى تسبق « رءوسكم » .

إن « الباء » فى اللغة تأتى بمعان كثيرة . قال ابن مالك فى الألفية :

بالباء استعن وعد عوض الصق
ومثل « مع » و« من » و« عن » بها انطق

ومقصود بها أن تعطى الحرية للمشرع ؛ لأن الباء تأتى لمعان كثيرة ، للاستعانة مثل : كتبت بالقلم ، ولتعدية الفعل اللازم نحو : ذهبت بالمريض إلى الطبيب ، وللتعويض مثل : اشتريت القلم بعشرين جنيها ، والالتصاق نحو : مررت بخالد ، وتأتى بمعنى « مع » مثل : بعتك البيت بأثاثه أى مع أثاثه ، وبمعنى « من » مثل : شرب بماء النيل أى من ماء النيل ، وبمعنى « عن » مثل قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » أى عن عذاب واقع ، وتأتى أيضا للظرفية نحو : ذهبت إلى

فلان بالليل أى فى الليل ، وتكون للسببية نحو : باجتهاد محمد منح الجائزة أى بسبب اجتهاده ، إلى غير ذلك من المصاحبة نحو : « فسبح بحمد ربك » أى سبح مصاحبا حمد ربك .

إن الذى يقول : امسحوا بعض رءوسكم ولو شعرة ، فهذا أمر يصلح ويكفى وتسعفه الباء لغة ، والمسح يقتضى الإلصاق ، والآلة الماسحة هى اليد . وهناك من يقول: نأخذ على قدر الأداة الماسحة وهى اليد أى مسح مقدار ربع الرأس .

إذن كل حكم من هذه الأحكام يصلح لتمام تنفيذ حكم مسح الرأس ، ولو أن الله يريدها على لون واحد لأوضح ما أراد ، فإن أراد كل الرأس لقال : « امسحوا رءوسكم » كما قال : « فاغسلوا وجوهكم » ، وإن كان يريد غاية محددة ، لحدد كما حدد غسل اليدين إلى المرفقين . ومادام سبحانه قد جاء بالباء ، والباء فى اللغة تحتمل معانى كثيرة ؛ لذلك فمن ذهب إلى واحدة منها تكفى ، لأن أى غاية محتملة بالباء أمر صحيح .

والأمر هنا أن يتفهم كل منفذ لحكم محتمل ألا يُخَطِّئ الحكم الآخر . بل عليه أن يقول : هذا هو مقدار فهمى لحكم الله . والله ترك لنا أن نفهم بمدلول الباء كما أرادها فى اللغة . وقد خلقك الحق أيها الإنسان مقهورا لأشياء لا قدرة لك فيها ؛ كحركة الجوارح ، وكالأشياء التى تصيب الإنسان كالموت .

إن هناك أشياء أنت مخير فيها ، ولذلك كان تكليف الحق لك مبنيا على هذا ؛ ففى أشياء يقول لك : « افعل كذا » أو « لاتفعل كذا » وفى أشياء أخرى يترك لك حرية التصرف فى أدائها . وذلك حتى يتسق التكليف مع طبيعة التكوين الإنسانى . فلم يَصُب الله الإنسان فى قالب حديدى . ولنا فى سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة ؛ هذا الرسول الذى أوكل إليه الحق إيضاح كل ما غمض من أمور الدين ؛ فقال له الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

وحينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين فى غزوة الأحزاب التى قال عنها الحق :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

هذه المعركة كانت قاسية ، حرك الحق فيها الريح وتفرق فيها أعداء الإسلام ، وصرف الحق الأحزاب ورجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وكان من المفروض أن يرتاح المؤمنون المقاتلون . لكن قبل أن يخلعوا ملابس الحرب جاء جبريل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : أَوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم : فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم . فـ (أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤذنا فأذن فى الناس : « لا يصلين أحدٌ العصرَ إلا فى بنى قُريظة فأدرك بَعْضَهُم العصرُ فى الطريق ، فقال بعضهم لا نصلى حتى نأتيها وقال بعضهم بل نصلى لم يُرِدْ منا ذلك فذُكر للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يُعَنِّف أحدًا منهم »[1] .

هى مسألة كبرى إذن . والتزاما بأمر النبوة خرج الصحابة إلى مواقع بنى قريظة . وكادت الشمس تغرب وهم فى الطريق ؛ وانقسموا إلى قسمين ؛ قسم قال : ستغيب الشمس ولم نصل العصر فلنصله قبل أن تغيب الشمس . وقال القسم الثانى : لقد أمرنا النبى ألا نصلى العصر إلا فى بنى قريظة ، ولن نصليه إلا هناك وإن غابت الشمس . وصلى القسم الأول ولم يصل القسم الثانى .

وعندما ذهبوا إلى المشرع وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا له الأمر لم يعب على أى جانب منهم شيئا ، وأقر هذا وأقر ذاك . وتلك فطنة النبوة ، فالنبى صلى الله عليه وسلم يعلم أن كل حدث من الأحداث يتطلب زمانا ويتطلب مكانا ، والذين صلوا نظروا إلى عنصرية الزمن ، وخافوا أن تغيب الشمس قبل ذلك . والذين لم يصلوا نظروا إلى عنصرية المكان فلم يصلوا العصر إلا فى مواقع بنى قريظة . وأقر رسول الله الأمرين معا .

إن هذا يدلنا على أن هناك أشياء يتركها الحق قصدا دون تحديد قاطع لأنه يحبها على أى لون ، مثال ذلك أن فعل من يمسح ربع رأسه فى الوضوء جائز ، وفعل من يمسح رأسه كلها جائز ، وجاء الحق بالباء الصالحة لأى وجه من وجوه مسح الرأس ،

---

(١) رواه البخارى فى صلاة الخوف وفى المغازى .

وكذلك شأن الخلافات فى الأمور الاجتهادية . وإذا كانت القاعدة الشرعية تقول : « لا اجتهاد مع النص » فهذا لا يكون إلا مع النص الذى لا يحتمل الاجتهاد .

وليس كل التشريع هكذا ؛ لأنه سبحانه أوضح ما لا يحتمل الاجتهاد ، وأوضح ما يحتمل الاجتهاد ؛ وحينما كلف الله عبده الإنسان بتكليفات ، إنما كلفه بما يتناسب وتكوينه ، وكما أن تكوين الإنسان فيه أشياء هو مقهور عليها . فهناك الأحكام التى لا اختيار له فيها ، وهناك أمور اختيارية ، وما وصل إليه المجتهد هو حق وصواب يحتمل الخطأ ، وما وصل إليه غيره خطأ يحتمل الحق والصواب . وكل ما وصل إليه طرف من الاجتهاد حق لأن النبى صلى الله عليه وسلم صوّب من صلى العصر قبل أن يصل إلى أرض بنى قريظة ، وصوب كذلك من صلى العصر بعد أن وصل إلى مواقع بنى قريظة . فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعتبر فعل كل فريق منهما صوابا .

ويقول الحق من بعد الأمر بمسح الرأس : « وأرجلكم » . وكان سياق النص يقتضى كسر اللام فى « أرجلكم » ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على غسل الوجه واليدين . وغير معطوفة على « برءوسكم » وهذا يعنى أن الرجلين لا تدخلان فى حيز المسح ؛ إنما تدخلان فى حيز الغسل .

ونبه الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على الجزء المصرح بمسحه ، ولكنها معطوفة على الأعضاء المطلوب غسلها . ولم يأت الحق بالممسوح فى جانب والمغسول فى جانب ليدل على أن الترتيب فى هذه الأركان أمر تعبدى وإلا لجاء بالمغسول معا والممسوح معا ، ويحدد الحق أيضا غسل الرجلين إلى الكعبين : « وأرجلكم إلى الكعبين » . والرجل تطلق على القدم ، وتطلق على القدم والساق إلى أصل الفخذ . ويريد سبحانه غسل الرجلين محدودا إلى الكعبين .

وحتى نعلم أن هذه مسائل تعبدية ؛ عرفنا أن اليد تطلق على الكف ، ومن أطراف الأصابع إلى الكتف يطلق عليه « يد » أيضا ، والمرفق فى اليد هو الحد الوسط ، و« الكعبين » هو الحد الأول فى الساق ؛ لأن الوسط بعد الساق هو الركبة . إذن . ترتيب المسألة فى اليدين كف وساعد وعضد ؛ والمرفق فى وسط اليد ، وفى الرجلين يقف الأمر عند الحد الأول وهو الكعبان . هى ـ إذن ـ مسألة تعبدية وليست مسألة قياسية .

وبين الحق لنا أنه إذا أراد أمراً بدقة فهو يحدده بلا تدخل أو خلاف . أما إذا جاء بأمر غير واضح فهو إذْنٌ منه سبحانه أن نجتهد فيه لنشعر أن لنا بعض الاختيار فى بعض ما تعبدنا الله به ، وكله داخل في مرادات الله ؛ لأن إيراد النص ـ شاملا ـ لكل المفهومات هو إذْنٌ بهذا المفهوم وإذْنٌ بذلك المفهوم .

« فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا » . إنّ الوضوء شرع لغير الجنب . أى أنه لمن يُحْدِث حدثا أصغر . وهناك فرق بين إخراج ما ينقض الوضوء وهو ما يؤذى ، وبين إخراج ما يُمتع ، فإنزال المنى أو حدوث الجماع يقتضى الطهارة بالاغتسال . ونعلم أن الإنسان حين يستمتع بطعام ؛ أو يستمتع برائحة ، أو بأى شىء هو محدود بوسيلة الاستمتاع به ، أما الاستمتاع بالجماع فلا يعرف أحد بأى عضو أدرك لذته . وهى مسألة معقدة إلى الآن . ولا يعرف أحد كيف تحدث ، مما يدل على أن جميع ذرات التكوين الإنسانى مشتركة فيها . ومادام الأمر كذلك فالطهور يقتضى أن يغسل الإنسان كل جسمه :

« وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » .

وقد يقول قائل : أليست « لامستم النساء » كالجنابة ؟

ونقول : إن الذى يجىء هنا هو حكم ثان يوضح لنا ما ينوب عن المياه ، لأن الحق يرتب لعبادة لا تسقط عن المكلف أبداً ، لذلك لن يكلفه بشىء قد لا يجده ، فقد لا يجد الإنسان المياه ، وعليه إذن بالتيمم ؛ لأن الصلاة عبادة لا تسقط أبدا عن المكلف حتى فى حالة مرضه الذى لا يستطيع أن يحرك معه أى عضو من جسمه ، هنا يسمح سبحانه للمريض أن يصلى جالسا ، أو مستلقيا أو يصلى بالإيماء برأسه ، أو يصلى بأهداب عينيه ، وحتى مريض الشلل عليه إجراء خواطر الصلاة وأركانها على قلبه ؛ لأن فرض الصلاة عبادة لا تسقط أبدا عن الإنسان مادام فيه عقل .

إننا نعرف أن الصلاة هى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى يتطلب الاستدامة ، فيكفى المرء أن يقول الشهادة مرة واحدة فى العمر ، ويسقط الصوم عن

الإنسان إن كان مريضا ، ويطعم غيره ، أو يؤديه فى أوقات أخرى إن كان مريضا مرضا مؤقتا أو على سفر . وقد لا يؤدى الإنسان الزكاة لأنه فقير ، وكذلك الحج لا يجب على من لم يملك الاستطاعة من مال أو عافية ، ولا تبقى من أركان الإسلام غير الصلاة فإنها لا تسقط أبداً .

إن عظمة الصلاة توضحها كيفية تشريعها ؛ لأن تشريعات أركان الإسلام كانت بالوحى ، أما تشريع الصلاة فقد جاء وحده بالمباشرة ولم يقل الله لجبريل : « قل للنبى التكليف بالصلاة » . بل استدعى الله النبى صلى الله عليه وسلم إليه وكلفه بالصلاة .

وقلنا من قبل ـ ولله المثل الأعلى ـ حين يريد الإنسان أن يقدم أمراً لمرءوسيه ، فالموضوع قد يأخذ دوره فى الأوراق اليومية التى تنزل منه إليهم . أما إذا كان الموضوع مُهمًّا فهو يتصل بالقائد التنفيذى للمرءوسين ويوضح مدى أهمية الموضوع ، أما إذا كان الموضوع غاية فى الأهمية فالرئيس يستدعى القائد التنفيذى للمرءوسين ويبلغه أهمية الموضوع . إذن فكيفية إنزال التكليف تكون على قدر أهمية الموضوعات فما بالنا ـ إذن ـ بركن استدعى الله فيه محمداً إلى السماء ليكلفه به ؟

وقد رأينا أن بعض التكليفات تجىء إلى رسول الله بالإلهام أن يفعله ، وبعضها جاء بالوحى من جبريل أن يفعله ، أما الصلاة فقد فرضها الله عندما استدعى محمداً إلى السماء إلى الرفيق الأعلى وفرض الله عليه الصلاة بالمباشرة ، وعلى أمة محمد أن تؤدى هذا الفرض خمس مرات فى اليوم ، ولا تسقط أبداً . ولذلك جعلها الحق فارقة بين المسلم والكافر ، إن المسلم ساعة أذان الصلاة يقوم إلى الصلاة ، وهى استدعاء من الخالق لمن خلقه ليحضر فى حضرته كل يوم خمس مرات . وأنت حر بعد ذلك ألا تبرح لقاء ربك ، ولا يمل الله حتى يمل العبد .

وإياكم أن تجعلوا للزمان مع الله تخطيطا ؛ فتقولوا : هذا للعمل والضرب فى الأرض ، وذلك لذكر الله ؛ فمع ضربكم فى الأرض لتبتغوا من فضل الله ، إياكم أن تنسوا الله ؛ لأن ذكر الله أمر دائم فى كل حركة يقصدها الإنسان لعمارة هذا الوجود ، وقد أراد الحق منا بوجودنا أن نعبده وحده لا شريك له :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة هود)

إذن فكل ما يؤدى إلى عمارة الكون والارتقاء به هو أمر عبادى ، والحق سبحانه وتعالى يربط « العبادة » الاصطلاحية فى الفقه بحركة الحياة كلها . ونجد مثالا لذلك حينما تكلمنا فى سورة البقرة عن الأسرة كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ذلك أمر الدنيا ومصالح الأسرة ، وهو كلام فى شئون تنظيم الأسرة ، ثم ينقلنا من بعد الكلام فى تنظيم الأسرة إلى أمر نقول عنه إنه العبادة وهو قوله الحق :

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم يعود بعد ذلك إلى شئون تنظيم الأسرة فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

إذن فقد أخرجنا من كلام فى نظام الأسرة إلى الصلاة ، ثم عاد بنا مرة أخرى إلى نظام الأسرة حتى تتداخل كل الأمور لتكون عبادة متماسكة متحدة فلا تقول : « هذه عبادة وتلك ليست عبادة » ، وأيضا ؛ لأن الكلام فى الصلاة وسط كلامه عن أمور الأسرة ينبهنا : إذا ذهبت إلى الصلاة فربما هدَّأت الصلاة من شِرة غضبك وحماسك ونزلت عليك سكينة تعينك ألا تنسى الفضل بينك وبين زوجك .

فى هذه السورة ـ سورة المائدة ـ صنع الحق معنا مثلما صنع فى سورة البقرة ؛ فبعد أن تكلم فى أشياء وقص علينا أمر النعمة ، ها هوذا يدخل بنا إلى رحاب المنعم ، إلا إنه سبحانه لم يدخلنا على المنعم إلا بتهيئة طهورية . طهارة أبعاض ؛ كالوضوء بأن نغسل الوجه ونغسل اليدين إلى المرفقين ونمسح على الرأس ونغسل الرجلين إلى الكعبين . وأحكم فى أشياء وترك للاجتهاد مدخلا فى أشياء ، أحكمها فى ثلاثة ؛ غسل الوجه ، وغسل اليدين إلى المرفقين ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، لكنه حينما تكلم عن الرءوس لم يقل : « امسحوا رءوسكم » ولا : « امسحوا ربع رءوسكم » ، ولا « امسحوا بعض رءوسكم » مما يدل على أن للمجتهد أن يفهم فى « الباء » ما تتيحه اللغة من « الباء » . إذن أعطانا الحق أشياء محكمة وأشياء للاجتهاد . وبعد طهارة الأبعاض يذكرنا بطهارة البدن من الجنابة .

ونلتفت إلى الكلام الذى تقدم حيث أورد الحق فيه ما أحل لنا من بهيمة الأنعام من طعام وشراب ، ثم تكلم فى النكاح حتى أنه وسع لنا دائرة الاستمتاع ودائرة الإنسال بأن أباح لنا أن نتزوج الكتابيات ، وفى هذا توسيع لرقعة الزواج فلم يقصر الزواج على المسلمات .

ولما كان الطعام الذى أحله الله ينشأ عنه ما يخرج منا من بول وغائط ، والنكاح الذى أحله الله يغير كيماوية الجسد ؛ لذلك جعل الله الوضوء لشىء ، والجنابة لها شىء آخر ؛ فعن الطعام ينشأ الأخبثان ، وعن الجماع أو خروج المنى ينشأ الحدث الأكبر ؛ فكان ولا بد بعد أن يتكلم عن طهارة الأبعاض فى الحدث الأصغر أن يتكلم عن التطهير الكلى فى الحدث الأكبر ؛ فقال : « وإن كنتم جنباً فاطهروا » .

الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن نستديم اتصالاتنا به ولم يشأ أن يجعل الوسيلة للصلاة بأمر الماء فقط ؛ لأننا قد نفقد الماء وقد يوجد الماء ولا نقدر على استعماله ؛

فلم يشأ الحق أن يقطع الصلة بأن يجعل الوسيلة الوحيدة للتطهر هى الماء ، فأوجد وسيلة أخرى . فإن فقدت الماء أيها الإنسان فلا بد أن تدخل إلى لقاء الله بنية تطهير آخر وهو التيمم . هذا أمر لا يفقده من عاش على الأرض . إذن فعندنا تَطَهُّر بالماء وعندنا تَطَهُّر بالتراب . لذلك يقول سبحانه :

« وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » فإن كان الإنسان مريضاً لا يقدر على استعمال الماء ، أو كان على سفر ولا يجد الماء ؛ أو جاء أحد من الغائط ، أى من قضاء الحاجة فى مكان غويط وهو الوطىء المنخفض من الأرض ، وكانت العرب قديماً تفعل ذلك حتى لا يراهم أحد ويكونوا فى ستر ، رجالاً أو نساءً ، وحتى بعد ملامسة النساء . إن لم يجد الإنسان بعدها ماء فالتيمم هو البديل، وإياكم أن تقولوا إن الماء هو الوسيلة الوحيدة للتطهر ، فقد جعل للماء أيضاً خليفة وهو التراب . والتراب أوسع دائرة من الماء . فكأنه سبحانه وتعالى يريد أن يديم علينا نعمة اللقاء به . ولكى يديم علينا نعمة اللقاء به جعل للماء ـ الذى يكون محصوراً ـ خليفة وهو التراب وهو غير محصور .

ولا نريد أن ندخل فى متاهات الخلاف عن الطهارة من ملامسة النساء ، بين اللمس والملامسة ؛ فاللمس لا يقتضى المفاعلة ، أما الملامسة فتقتضى المفاعلة . واقتضاء المفاعلة ينقل المسألة من مجرد اللمس إلى معنى آخر هو الجماع .

وفى حالة الجنابة وعدم وجود الماء فالتيمم هو البديل « فتيمموا صعيدا » و« الصعيد » هو ما صعد على وجه الأرض من جنس الأرض بحيث لا تدخله صناعة الإنسان كالتراب والحجر ، لكن الطوب الأحمر (الأُجُرّ) الذى نصنعه نحن فليس من الصعيد الصالح للتيمم ؛ لأن صنعة الإنسان قد دخلته .

والأركان المفروضة فى طهارة الأبعاض أربعة ، أما طهارة الجسم فهى طهارة واحدة تشمل كل الجسم . وفى حالة التيمم جعل الحق الطهارة استعداداً للصلاة عوضاً عن الوضوء بمسح الوجه واليدين ، وكذلك فى الطهارة من الجنابة . ونلحظ أنه سبحانه جاء بالمسح فى الوضوء على بعض من الرأس كإيناس متقدم ، وذلك حتى يكون لنا إلف بالمسح حينما نتيمم .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » وجعل الحق الطهارة بالماء أو التراب إزالة للحرج ؛ فالإنسان الذى لن يجد ماء سيقع فى الحرج بالتأكيد ؛ لأنه يريد أن يصلى ولا يجد وسيلة للطهارة . وإذا كان عنده القليل من الماء ليشرب فهل يتوضأ أو يستديم الحياة ويُبقى على نفسه بشرب الماء ؟. ولا يريد الله أن يُعْنت خلقه ولا أن يوقعهم فى الحرج ، بل خفف عليهم وجعل عنصر التراب يكفى كبديل للماء . « ولكن يريد ليطهركم » .

وإياك أن تفهم أن الطهارة هى للتنظيف ، لأن معنى الطهارة لو اقتصر على التنظيف لكانت الطهارة بالماء فقط ، فلماذا إذن نمسح وجوهنا بالتراب ؟ إن هذا يوضح أن الطهارة غير النظافة ، فلو قال قائل : سأنظف نفسى بـ« الكولونيا » . نقول له : لا . ليس هذا هو المطلوب . والله لا يطلب نظافة بهذا المعنى ، ولكن يطلب التطهير . والتطهير يكون بشرط من تدخل عليه ـ وهو الله سبحانه ـ وقد وضع الحق لذلك أمرين : إما بالماء وإما بالتيمم بالتراب . فالطهارة تجعل المرء صالحاً ليستقبل ربه على ضوء ما شرع به . والذى يضع الشرط لذلك هو الله وليس أنت أيها العبد . وسبحانه قد أوضح أن العبد يكون طاهراً بالماء أو بالتراب ، وبهذه الطهارة يكون صالحاً لاستقبال الله له . وأعاد الله الإنسان فى قربه منه إلى أصل إيجاده وهو الماء والتراب .

« وليتم نعمته عليكم » والإنسان مغمور بنعم كثيرة . فهب أن إنساناً غاب عنه أبوه لكن خير الأب يصله كل يوم من مال وطعام وشراب ووسائل ترفيه ، وبذلك يأخذ الإنسان نعمة الغاية من وجود أب له . ومع ذلك يشتاق هذا الإنسان المستمتع بنعمة والده الغائب إلى أن يكون مع والده ، هذا هو تمام النعمة بين الأب والابن وكلاهما مخلوق لله ، فما بالنا بتمام النعمة من الخالق لعباده ؟

إن العبد الصالح يتمنى أن يرى مَن أنعم عليه ؛ لذلك وضع الحق شرط الطهارة للقائه . وعندما يحضر الإنسان لحضرة ربه بالصلاة ويكبر : « الله أكبر » فهو منذ تلك اللحظة يوجد فى حضرة الله . وإذا كانت الفيوضات تتجلى على الإنسان من نعمة مخلوق مثله سواء أكان أخاً أم أباً أم قريباً وهى نعمة مادية يراها الإنسان سواء أكانت طعاماً أم شراباً أم لباساً . فما بالنا بفيوضات المنعم الخالق الذى أنعم على

الإنسان ، إنها فيوضات من غيب ؛ فكرمه لك غيب كالاعتدال فى المزاج والعافية ورضا النفس وسمو الفكر .

إذن فقوله الحق : « وليتم نعمته عليكم » أى أنكم عشتم قبل ذلك مع نعمة المنعم ، وسبحانه يدعوكم إلى لقاء المنعم ، ذلك تمام النعمة . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إننا نجد الابن ينظر إلى هدايا الأب الغائب ويقول : أنا لا أريد هذه الأشياء ولكنى أريد أبى .

إن تمام النعمة ـ فى المستوى البشرى ـ أن يرى الإنسانُ المنعِمَ عليه وهو إنسان مثله ، أما تمام النعمة على المخلوق من الخالق فيستدعى أن يتطهر الإنسان بما حدده له الله وأن يصلى فيلقى الله .

« وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ساعة نسمع : أنا فعلت ذلك وذلك لعلك تشكر ، فهذا يعنى أنك إن فعلت ما آمرك به فستجد أمراً عظيماً . والأمر الطبيعى يقتضى أن تَشْكُر عليه كأن ما فعله الله للإنسان يوجب عند الإنسان نعمة أخرى لا يمكن أن يستقبلها إلا بالشكر ، مثلما قال الله :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إنّ السمع والأبصار والأفئدة هى منافذ الإدراك . ومادام الحق قد خلقنا ولا نعلم شيئاً ، وجعل لنا أدوات الإدراك . وأوضح : أنا خلقت لك هذه الأدوات للإدراك لعلك تشكر ، أى تلمح آثارها فى نفسك مما يربى عندك ملكة الإدراك للمدركات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى

وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

وللإنسان أن يسأل : وما هو الذكر ؟ . الذكر هو حفظ الشيء أو استحضاره ، فإذا كان حفظ الشيء فهو حفظ لذاته ، لكن الاستحضار يكون لمعنى الشيء . إذن فهناك فرق بين حفظ الشيء واستحضار الشيء ، هذا هو معنى الذكر . وقد يكون الذكر بمعنى القول ؛ لأنك لا تقول الشيء إلا بعد أن تستحضره . ولذلك نجد في تكوين الجهاز العصبي الأعلى ذاكرة ، وحافظة ، ومخيلة .

ومن عجيب أمر التكوين الخلقي أن تمر أحداث على الإنسان في زمن مضى ولا يذكرها الإنسان لمدة طويلة تصل إلى سنوات ، ثم يأتي للإنسان ظرف من تداعي المعاني فيذكر الإنسان هذا الشيء الذي حدث منذ عشرين عاماً .

إذن فالشيء الذي أدركه الإنسان منذ عشرين سنة على سبيل المثال لم يذهب ، ولو ذهب ما ذكره الإنسان ، لكنه غاب فقط عن الذهن عشرين عاماً أو أكثر ؛ فلما تداعت المعاني تذكره الإنسان . ومعنى ذلك أن هذاالشيء كان محفوظاً عند الإنسان وإن توارى عنه مدة طويلة .

فالذاكرة ـ إذن ـ معناها أن يستدعي الإنسان المحفوظ ليصير في بؤرة شعوره . مثال ذلك : حادث وقع بين إنسان وآخر منذ أكثرمن عشرين عاماً . ونسي الإنسان هذا الحادث . فلما التقى بصديقه ، وجلسا يتذاكران الماضي تذكر الصديق الحادث الذي حدث له منذ أكثر من عشرين عاماً .

إذن فالحادثة لم تذهب من الذاكرة ، ولكنها محفوظة موجودة في حواشي الشعور البعيدة ، وكلما بعد الإنسان في الزمن يبدو وكأنه نسي الحادثة ، لكن عندما يأتي تداعي المعاني فالحادثة تأتي في بؤرة الشعور . فإذا ما جاءت في بؤرة الشعور من حواشي الشعور حيث مخزن الحافظة ، يتذكرها الإنسان . وهذه هي قوة الخالق جل وعلا .

وقد يسجل أحدنا على شريط تسجيل بعضاً من الكلام . ومن بعد ذلك يجب أن يسجل كلاماً آخر على الشريط نفسه فيمسح الكلام الذى سجله أولاً ، ولكن ذاكرة الإنسان تختلف ، فساعة تأتى المسائل فى بؤرة شعوره فالإنسان يتذكرها . وإذا ما جاءت مسألة أخرى بعدها فلا بد أن تتزحزح المسألة الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ؛ لأن بؤرة الشعور لا تستقبل إلا خاطراً واحداً ، فإن شغلت بؤرة الشعور بخاطر آخر فهى تحفظ الخاطر الأول فى حواشى الحافظة . ولا يمسح خاطر خاطراً آخر . فإن أراد الإنسان أن يستدعى الخاطر القديم ، كان ذلك فى مقدوره ، وهذا هو الفارق بين تسجيل الخالق وتسجيل المخلوق .

وبعد ذلك نجد أن التذكر يكون للمعانى ، فالذى يخزن فى ذاكرة الإنسان ليس أجْرَاماً ، فلو كانت أجراماً لما وسعها المخ . ولهذا فالمعانى لا تتزاحم فيه ، بل تتراكم بحيث إذا ما جاء تداعى المعانى فالإنسان يتذكر ما يريد أن يذكره ، وذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان المخ من صنع الخالق الأعلى . ومادامت المعانى ليس لها حيز فالإنسان يقدر على حفظها فى الذاكرة .

الإنسان قد يجلس ليتذكر أسماء الجبال فى العالم فيقول : من جبال العالم قمة « إفريست » ، وجبال « الهمالايا » ، وجبل « أحد » وجبل « ثور » . وساعة يتذكر هذه الأسماء فهو يتصور معانيها ، فالموجود فى ذهن الإنسان معانى هذا الكلمات وليس أجرام هذه الكائنات ؛ لذلك فلا تزاحم أبداً فى المعانى بل تظل موجودة ومختزنة فى الذاكرة وحاشية الشعور .

وإياكم أن تفهموا أن إنساناً يملك من الذكاء ما يحفظ به الشىء من مرة واحدة : وآخرَ أقل ذكاء يحفظ بعد قراءة الشىء مرتين ، وثالثاً يحفظ عن ثلاث مرات لا ؛ لأن الإنسان يملك ذهناً كآلة التصوير يلتقط من مرة واحدة ، لكن لو أخذ الإنسان صورة لمكان وجاء شىء يضبب عدسة الصورة فهو يعيد التصوير ، وكذلك الذهن إن أراد الإنسان أن يأخذ لقطة لشىء ما لتستقر فى بؤرة الشعور وفى بؤرة الشعور شىء آخر ، فالشىء لا يستقر فى الذهن ، بل لا بد من قراءة مضمون اللقطة مرة ثانية ليؤكد الإنسان المعلومات لتنطبع فى بؤرة الشعور .

ومثال ذلك الطالب الذى يدخل ساحة المدرسة التى يُعقد بها الامتحان . وقبل أن

يدق جرس الامتحان بخمس دقائق يأتى له واحد من زملائه ويقول له : هل ذاكرت الموضوع الفلانى . فيقول الطالب : لا لم أستذكره . فيقول الصاحب : هذا الموضوع سيأتى منه سؤال فى الامتحان . فيخطف الطالب كتابا ويقرأ فيه هذا الموضوع لمرة واحدة . هذا الطالب فى هذه اللحظة لا يتذكر ماذا سيأكل على الغداء هذا اليوم ، أو من سيقابل . بل يعرف أنه بصدد أمر فرصته ضيقة ، ويركز كل ذهنه ليستقبل ما يقرأه . وفى لحظة واحدة يحفظ هذا الموضوع . وإذا جاء الامتحان ووجد السؤال فهو يجيب عليه بأدق التفاصيل . وقد نجد طالبا آخر جلس لأيام يحاول استذكار هذا الدرس بلا طائل .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، شريطة ألا يستقبل الإنسان ما يقرأه أو يسمعه من معلومات والذهن مشغول بأشياء أخرى . والدليل على ذلك : أن الإنسان قد يسمع القصيدة مرة واحدة أو يسمع الخطبة مرة واحدة فيحفظ من القصيدة أكثر من بيت ، أو يحفظ من الخطبة أكثر من مقطع ؛ لأن ذهن الإنسان فى تلك اللحظة كان خاليا فالتقط الأبيات التى حفظها ، وكذلك الخطبة ، أما بقية أجزاء القصيدة أو الخطبة فقد يكون الذهن شرد إلى أشياء أخرى . ولذلك يحاول الإنسان أن يكرر الاستماع والإصغاء والقراءة أكثر من مرة ليهيىء ويعد بؤرة الشعور ، فيحفظ الإنسان ما يريد .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، أما الذاكرة فهى تتذكر أى تستحضر المعانى التى قد تختفى فى الحافظة ، ولا شىء يضيع فى الحافظة أبدا ، بحيث إذا جاء الاستدعاء طفت المعانى على السطح . كأن انطباعات الإنسان فى نعم الله لا تُنسى أبدا . وهى موجودة عند الإنسان ، ولكنها تريد من الإنسان أن يستدعيها من الحافظة ويطلبها .

ولنر دقة الأداء القرآنى : « واذكروا نعمة الله عليكم » سبحانه يقول هنا « نعمة » مع أن نعم الله كثيرة ، ولكن الله قد آثر أن يأتى بالمفرد ولم يأت بالجمع . وذلك ليبين للإنسان أن أية نعمة فى أية زاوية من حياة الإنسان تستحق أن يذكرها الإنسان ؛ فنعم الله كثيرة ،ولكن ليتذكر الإنسان ولو نعمة واحدة هى نعمة الإيجاد من عدم ، أو نعمة البصر ، أو السمع . وكل نعمة من هذه النعم تستحق من الإنسان أن يتذكرها دائما ، ولا تطرد نعمة نعمة أخرى ، فما بالنا إذا كانت النعم كثيرة ؟

ولو تمعن الإنسان فى كل نعمة لاحتاجت إلى أن يتذكرها دائما ، أو أن النعمة اسم للجنس كله ، لأن المفرد يطلق على كل الجنس ، مثل الإنسان فإنها تطلق على كل فرد من أفراده مثل محمد وعلى وخالد .

وكلمة « النعمة » قد تُنسب إلى سببها كنعمة سببها مروءة واحد من البشر ، وهى محدودة بمقدار الأثر الذى أحدثته . لكن نحن هنا أمام نعمة المسبب وهو الله ، ولا بد أن تناسب نعمة الله جلال وجمال عظمته وعطائه .

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به » و« واثق » تقتضى أمرين : فالإنسان طرف الاحتياج والفقر والأخذ ، والرب صاحب الفضل والعطاء والغنى ، إنه هو الربوبية وأنت العبودية ، وهو الحق القائل :

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة)

إذن فـ « واثقكم » تعنى التأكيد من طرفين ؛ لأن « واثق » على وزن « فاعَلَ » ، ولا بد فى « فاعَلَ » أن تكون من اثنين . ومثال ذلك « شارك » تقولها لاثنين أو أكثر ؛ فنقول : « شارك زيد عمراً » ؛ وكذلك « قاتل زيد عمراً » . وحين يقول الحق : إنه « واثق عباده » أى أنه شاركهم فى هذا الميثاق وقبله منهم . لكن أى ميثاق هذا ؟

ونحن نعرف الميثاق الأول الذى هو ميثاق الذر :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهو ميثاق الفطرة قبل أن توجد النفس وشهواتها . وبعد ذلك هناك ميثاق العقل الذى نظر به الإنسان إلى الوجود واستطاع أن يخرج من تلك الرؤية بأن الوجود محكم ومنظم وواسع ، ولا بد لهذا الوجود من واجد وهو الله . وبعد ذلك ميثاق الإيمان بالله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما عرض منهج الإسلام آمن به بعض

الناس ، أى أخذ منهم عهداً على أن ينفذوا مطلوبات الله ، ألم يأخذ الرسول عهداً فى العقبة حين قالوا له :

خذ لنفسك ولربّك ما أحببت . فتكلم ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب فى الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الحرب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرا عن كابر[1] .

وحدث هذا ـ أيضا ـ عند بيعة الرضوان تحت الشجرة . إذن فمعنى « واثقكم به » إما أن يكون العهد العام الإيمانى فى عالم الذر ، وإما أن يكون العهد الإيمانى الذى جاء بواسطة الرسل .

« وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » وحين يؤمن الإنسان يقول : سمعت وأطعت ، وهكذا تنتهى مسألة التعاقد . ويتبع الحق ذلك بقوله : « واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » . واتقوا أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، فالمطلوب منا أن نلتحم بمنهج الله إلتحاما كاملا ، وعلينا كذلك أن نجعل بيننا وبين صفات غضب الله وقاية . وعرفنا أن قوله الحق : « اتقوا الله » متساوٍ مع قوله : « اتقوا النار » ، وقد يقول قائل : وهل للنار أوامر ونواه ؟

ونقول : أحسن الفهم عن ربك واجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، فالنار جند من جنود الله . وسبحانه يوضح : اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأن الحق له صفات جلال هى الجبروت والانتقام والقهر ، وللحق صفات جمال فهو الغفور الرحيم المغنى ، الحكيم إلى غير ذلك من صفات الجمال ، إذن فلنجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية تقينا من جنود صفات الجلال ومنها النار .

وقلنا من قبل: إن الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغنا أنه فى الليلة الأخيرة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة . والنظرة السطحية تتساءل : ولماذا لم يقل : يتجلى الغفار

---

(١) رواه أحمد وذكر فى السيرة النبوية لابن هشام .

بالمغفرة ؟ ذلك أن (الجبار) صفة من صفات الجلال التى تقتضى معاقبة المذنب ، والذنب متعلق بصفات الجلال لا بصفات الجمال ، إذن فالمنطق يقتضى أن يقف المذنب أمام شديد الانتقام ، لأن المقام يناسب صفات الجلال ، ولكن علينا أن نتذكر جيدا أن الله يرخى العِنان للمذنب لعله يتوب ، وأن الله يفرح بتوبة عبده وأن رحمته تَغْلب غضبه .

ويذيل الحق الآية : « إن الله عليم بذات الصدور » والتقوى ـ كما نعلم ـ لا تنشأ من الأفعال المحسة المدركة فقط ، بل تنشأ أيضا فى الأحوال الدخيلة المضمرة . ومثال ذلك نية سيئة ونية حسنة . فالحقد ، الحسد ، التبييت ، المكر ، كل ذلك صفات سيئة ؛ فإياكم أن تقولوا إن التقوى للمدركات فقط ؛ بل للمحسات أيضا . وعمل القلوب له دخل فى تقوى الله . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾

إنّ الحق ـ كما علمنا ـ حين ينادى المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » إنه سبحانه لم يقتحم على الناس تصرفاتهم الاختيارية لمنهجه ، بل يلزم ويأمر من آمن به ويوجب عليه ؛ فيوضح : يا من آمنت بى إلها حكيما قادرا خذ منهجى . ولكن الحق يقول : « يا أيها الناس » حين يريد أن يلفت كل الخلق إلى الاعتقاد بوجوده ، أما من يؤمن به فهو يدخل فى دائرة قوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا » وهذا النداء يقتضى بأن يسمع المؤمن التكليف ممن آمن بوجوده .

ونعلم أننا جميعا عبيد الله ، لكن لسنا جميعا عباد الله . وهناك فرق بين « عبيد » و« عباد » . فالعبيد هم المرغمون على القهر فى أى لون من ألوان حياتهم ، ولا يستطيعون أن يدخلوا اختيارهم فيه . قد نجد متمرداً يقول : « أنا لا أؤمن بإله » ولكن هل يستطيع أن يتمرد على ما يقضيه الله فيما يجريه الله عليه قهرا ؟ فإذا مرض وادعى أنه غير مريض فما الذى يحدث له ؟ أيجرؤ واحد من هؤلاء المتمردين على ألا يموت ؟!! لا أحد يقدر على ذلك .

إذن فكل عبد مقهور لله ، وكلنا عبيد الله يستدعينا وقتما يريد ويجرى علينا ما يريد بما فوق الاختيارات . أما « العباد » فهم الذين يأتون إلى ما فيه اختيار لهم ويقولون لله : لقد نزعنا من أنفسنا صفة الاختيار هذه ورضينا بما تقوله لنا « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » . إذن فالعبيد مقهورون بما يجريه عليهم الحق بما يريد ، والعباد هم الذين يرضون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضاه ؛ إنهم أسلموا الوجه لله . فهم مقهورون بالاختيار ، أمّا العبيد فمقهورون بالإجبار .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله » . و« قوام » صفة مبالغة والأصل فيها قائم ، فإن أكثر القيام نطلق عليه كلمة « قوام » . ومثال ذلك رجل لا يحترف النجارة وجاء بقطعة من الخشب وأراد أن يسد بها ثقبا فى باب بيته ؛ هذا الرجل يقال له : « ناجر » ولا يقال له : « نجار » ، ذلك أن تخصصه فى الحياة ليس فى النجارة . وكذلك الهاوى الذى يخرج بالسنارة إلى البحر ؛ واصطاد سمكتين ؛ يقال له : « صائد » لكنه ليس صياداً ؛ لأن الصيد ليس حرفته .

إن الحق يطلب من كل مؤمن ألا يكون قائما لله فقط ، ولكن يطلب من كل مؤمن أن يكون قواما ؛ أى مبالغ فى القيام بأمر الله . والقيام يقابله القعود . وبعد القعود الاضطجاع وهو وضع الجنب على الأرض ثم الاستلقاء ، وبعد ذلك ينام الإنسان . ونحن أمام أكثر من مرحلة : قائم وقاعد ومستلقٍ ، ونائم . والنائم ليس عليه تكليف . والمستلقى هو المستريح على ظهره والحق يقول :

﴿ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

أى اجعلوا الله دائما على بالكم ؛ فالإنسان يملك فى حالته الطبيعية نشاطا يمكنه أن يقوم ويقعد ؛ فإن قيل : « قام فلان بأمر القوم » أى أنه بذل كل جهد لإدارة أمور الناس ، والقيام فى حركات الناس أصعب شيء . وسبحانه لا يريد منا أن نكون قائمين فقط ؛ بل يريد أن نكون قوامين . ومادمنا قوامين فلن تخلو لحظة من قيامنا أن نكون لله ؛ لله توجها . لا نفعا ؛ لأن أية حركة من أى عبد لا تفيد الله فى شيء ؛ فالله خلق خلقه بمجموع صفات الكمال فيه ، ولم ينشيء خلقه له صفة جمال أو كمال جديدة . وعندما يؤدى الإنسان أى عمل لله فهو يؤديه طاعة وتقربا لله . وإذا أراد الله من المؤمنين أن يكونوا قوامين لله ، عندئذ تكون كل حركات المجتمع الإيمانى حركات ربانية متساندة متصاعدة . وإذا كانت حركات المجموع الإيمانى متساندة فسوف تكون النتيجة لهذه الحركة سعادة البشرية ؛ فالإنسان إذا ما كان قواما فهو قوام لنفسه وللآخرين .

والمراد أن نكون مداومين على قيامنا فى كل أمر لله . ولا تعتقد أيها المؤمن أنك تعامل خلق الله ، إنما تعامل الله الذى شرع لك ليضمن لك ويضمن منك ، فأنت إن طولبت بالأمانة ، فقد طولب كل الناس بالأمانة فيما هو خاص بك لا بغيرك ، وحين ينهاك الله عن الخيانة فقد أمر الحق الناس جميعاً بالانتهاء عن الخيانة لك .

إذن إن نظرت إلى تكليفات الله لوجدتها لصالحك أنت.فلا يظنن ظان أن الدين إنما جاء ليقف أمام نفسه هو ، فالدين وقف أمام النفس لدى الناس جميعاً ، فحين يأمرك : ألاّ تمد يدك إلى مال غيرك فأنت واحد من الناس ، وفى هذا القول أمر موجه لكل الناس : لا تمدوا أيديكم إلى مال فلان لتسرقوه . فانظر إلى أن الحق حين شرع عليك شرع لك . ولذلك يجب أن يكون كل قيامك لله سبحانه . ولذلك يظهرالحق سبحانه وتعالى فى بعض خلقه أشياء وأحداثاً تُفهم الناس أن الذى يعمل لخلق الله مسلوب النعيم ، و الذى يعمل لله يكون موصول النعيم ؛ فنجد الواحد من الناس يقول : « لقد فعلت لفلان كذا وكذا وأنكرنى » . نقول له : أنت تستحق لأنك صنعت له ، ولكنك لو صنعت لله لكفاك الله كل أمر . ولذلك يقول الحق عن هؤلاء الذين صنعوا لله :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾

(من الآية ٣٠ سورة آل عمران)

إذن فالمؤمن يجب أن يوضح حركة قيامه وينميها ؛ بمعنى أن يجعل كل حركته لله ؛ فإن كانت كل حركته لله ، فالله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا . والخاسرون هم الذين يعملون للناس ؛ لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً وربما تخلوا عنهم وربما أضمرت وحملت قلوبهم الضغن والحقد لمن أحسن إليهم ، وربما تحولوا إلى أعداء لهم ، فالمصنوع له الجميل قد يعطيه الله بعضاً من الجاه ، وحين يلقى صانع الجميل بعد ذلك قد تتخاذل نفسه وتذل ، ونرى فى بعض الأحيان واحداً يجلس بين الناس وقد أخذته العزة ، ثم يدخل عليه إنسان كان له فضل عليه ، وساعة يراه يكره وجوده فى مجلسه ، ويتمنى ألا يحدث هذا اللقاء ، وإذا ما لقيه بعد ذلك فى طريق فهو يشيح بوجهه ؛ لأن الذى صنع الجميل يسبب حرجاً له ، ويجعل نفسه تتضعضع ، وهو يريد أن يستكبر على الناس . إذن فالله يوضح : اعملوا لله ؛ لأنه لا يضيع عنده شيء . واعلموا أن الله رقيب عليكم ولن يضيع عملٌ عنده .

وعندما سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] .

أتستطيع أنت أيها الإنسان أن تصنع فى إنسان آخر ما يسوؤه أمامه ؟ . أنت تسيء إلى الآخر من وراء ظهره . فلماذا إذن يُسيء الواحد منكم إلى الله بالعصيان ، وهو الناظر إليكم جميعاً ؟

إذن حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن تحسن معاملة نفسك وغيرك فعليك أن تحتسب كل عمل لك عند الله . فقد سخر لنا الحق كل الوجود وأعطانا كل مقومات الحياة ، ويوضح لكل واحد منا : يا عبدى اجعل كل قيامك لله ؛ ولا تكن قائماً فقط ولكن كن قوّاماً . . بمعنى أنه مادامت فيك بقية من العافية للعمل فاعمل ، ولا تعمل على قدر حاجتك فقط ، ولكن اعمل على قدر طاقتك ؛ لأنك لو عملت على قدر حاجتك فإن الذى لا يقدر على العمل لن يجد ما يعيش به .

إذن فاعمل على قدر طاقتك لتتسع حركتك للناس جميعاً . ويكون الفائض من

---

(١) رواه البخارى . باب سؤال جبريل عن الإيمان بالإسلام والإحسان ، ورواه مسلم فى كتاب الإيمان .

عملك لغيرك . وحين يقول سبحانه : « كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط » يعلمنا ألا نضيع مجهودنا هباء ، بل نوجه المجهود للعمل ونقوم به لوجه الله ، لأنه سبحانه لا ينسى أبداً جزاء عبده ، وهو الذى يرد كل جميل . إنه ـ سبحانه ـ يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

ويقول أيضا :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة التوبة)

وحين يكون الواحد منا قوّاماً لله يكون قد استغل حركة وجوده لخير خلق الله ، وهذا العمل مطلوب منك . ولا يكفى أن تكون حركتك محصورة فى ذلك ، بل يجب أن تمتد أيضا حركة حياتك لتكون شاهداً بالعدل . وكذلك توجه للعدل من تحدثه نفسه أن ينحرف . وحين تكون قوّاماً لله فهذا أمر حسن ، وعليك أن تحاول إقناع غيرك بأن يكون قيامه لله بأن تكون شاهداً بالقسط والعدل . وحين تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتمادى ظالم فى ظلمه . فالذى يجعل الظالم يشتد ويستشرى ظلمه ويتفاقم شره هو أنه يجد من يدلسون على العدالة ويسترون ويخفون العيوب ويخادعون الناس .

لكن لو وُجِد الإنسان الذى ينير الطريق أمام العدالة لما وجد ظلم . لكن الظالم يحب من يدلس عليه ؛ فيقول لنفسه : إن فلاناً ارتكب جريمة مثل جريمتى ونال البراءة . وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات . ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هى شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كل فرد فى المجتمع إذا هَمَّ بظلم يرتدع قبل أن يفعلِ الظلم ، ولكان الظالم ينال عقابه ويصير مثالاً لارتداع غيره . والمؤمن مطالب أولاً بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالب ثانياً أن يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

وكلمة « القسط » تأتى منها اشتقاقات كثيرة ، وهى من الألفظ التى قد تدل على العدل وقد تدل على الجور ، وهى من الألفاظ التى تستعمل فى الأمر وفى نقيضه . وهذا من محاسن اللغة . ويتطلب ذلك أن يمحص السامع الكلمة ويتعرف على معناها بما يتطلبه السياق .

« وقَسَطَ » معناها « عدل » . والفعل المضارع لها هو يقسط . والمصدر « قِسطا » ، ومرة يكون المصدر « قُسوطا » . والمصدر هو الذى قد يحول المعنى من العدل إلى الجور . فالقِسط بمعنى العدل . وقَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطاً . أى جار وظلم . هنا نجد الفعل يأتى بالمعنى وضده ؛ حتى يمتلك السامع اليقظة والفطنة التى تجعله يعرف التمييز بين معنى العدل ومعنى الجور .

وحين نقول « أقسط » فإنها بمعنى عدل ، وهنا ننتبه إلى ما يلى : أن هناك فرقاً بين عَدْلٍ يأتى من أول الأمر وذلك هو القِسط ، وهناك حكم ظالم يحتاج إلى حكمٍ آخر يزيل الظلم . وذلك الذى نستعمل له « أقسط » أى أزال الظلم ، فكأن جوراً كان موجوداً وأزاله الحكم . فالقِسط ـ إذن ـ هو العدل الابتدائى . ولذلك نسمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

والقاسطون هنا هم الظالمون ، فالقسط هنا من قسط يقسط قُسوطا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « شهداء بالقسط » أى شهداء بالعدل . واللباقة فى السامع هى التى توجه اللفظ إلى معناه المراد من خلال السياق ، فالسامع للقرآن يُفْترض فيه الأريحية اللغوية بحيث يستطيع أن يفرق بين الشيء والمشابه له من شيء آخر . إذن فهناك قسط وأقسط ، قسط بمعنى عدل ، وأقسط بمعنى أقام القسط بإزالة الجور . والقسوط معناه الجور .

والحق يقول : « إن الله يحب المقسطين » و« المقسطين » هى جمع « مُقسط » ؛ من : أقسط أى أزال الظلم والجور ، إذن فالذى يرجح المعنى هنا سياق الكلمة ومصدرها . وقد يراد بالكلمة المعنى المصدرى . والمعنى المصدرى لا يختلف باختلاف منطوقه ، فيقال : « رجل عدل » ويقال : « امرأة عدل » . ويقال : « رجلان عدل » ، ويقال : « امرأتان عدل » ، و« رجال عدل » ، و« نساء عدل » . إذن فإن أردنا بالكلمة المصدر فهى لا تتغير فى المفرد والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث . والقرآن الكريم يقول :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنبياء)

وهناك قول آخر:

﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وفى الريف المصرى نجد أن التاجر يصنع لنفسه الموازين من الأحجار، فيعاير قطعة من الحجر بوزن الكيلو جرام، ويعاير قطعاً أخرى لأجزاء الكيلو جرام؛ ومن كثرة الاستعمال وملامسة الحجر يعرف التاجر أن الحجر يتآكل، لذلك يعيد وزن الأحجار التى يستعملها فى الميزان كل فترة متقاربة من الزمن. ويقال: إنه يعاير الأوزان. وسمى القسطاس؛ فالقسطاس هو الذى تعاير به الموازين، فإذا صنع الإنسان شيئاً للميزان مما يتآكل أو يتأثر باللمس فيجب عليه أن يعايره كل فترة حتى لا يظلم أحداً ولو بمقدار اللمسة الواحدة. ولذلك يقول الحق: «ذلكم أقسط عند الله» «أقسط» هنا معناها «أعدل». فموازين الله غير موازين البشر، فموازين البشر قد يحدث فيها اختلاف. ونرى بعض التجار ينقصون الميزان بأن يضعوا شيئاً تحت كفة الميزان أو غير ذلك من الخدع، لكن الحق هو العادل الحق. وهو صاحب الميزان الأعدل وهو القائل: «ذلكم أقسط عند الله».

جاءت هذه الآية لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدر حكماً؛ وهو حكم صحيح وعادل بقواعد البشر، فأوضح الحق له الحكم الأقسط، صحيح أن عدلك يا رسول الله لا يدخله هوى ولا يميل به غرض أو شهوة. ولكن العدل عند الله أكثر دقة وله مطلق الدقة. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم بمنطق القسط البشرى فى أمر زيد بن حارثة وكان مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كان عبداً لخديجة - رضى الله عنها - وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد فترة علم أهل زيد بخبر اختطافه وبيعه كعبد وكيف آل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء أهل زيد إلى رسول الله وطالبوا بابنهم. ورفض زيد أن يعود معهم وأراد أن يبقى مع رسول الله، وأراد رسول الله أن يكرم زيداً الذى فضله على أبيه وأهله مصداقاً لقول الله:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾

(من الآية ٦ سورة الأحزاب)

لذلك كان لا بد للنبى صلى الله عليه وسلم أن يقدر زيد بن حارثة ؛ فأعتقه ودعاه « زيد بن محمد » تكريماً له ، على عادة العرب فى تلك الأيام . لكن الله يريد أن يلغى مسألة التبنّى :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

وأجرى الله الأحداث ليصحح مسألة التبنى لكل العرب ، وكان بداية تطبيق ذلك على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينزل القول الحق :

﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

لم ينف الله القسط عن محمد ، ولكن الأقسط يأتى من عند الله . ويطيب الله خاطر زيد بعد أن عاد إليه اسمه الفعلى منسوباً لأبيه لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافىء الله زيداً بأن يجعل اسمه هو الاسم الوحيد فى الإسلام الذى يذكر فى القرآن ويتعبد المؤمنون بتلاوته إلى أن تقوم الساعة :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

لقد صار اسمه فى القرآن يتلوه المسلمون إلى قيام الساعة . وفى ذلك كل السلوى . إذن فـ « أقسط عند الله » جاءت فى محلها ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا أن يكون قيامنا مبالغاً فيه ؛ أى ألا نترك فرصة لعمل الخير وأن نبالغ فى الدقة فى أداء العمل ، وأن نَعْدل فى المجتمع بأن نكون شهداء بالقسط . وبذلك يأخذ كل إنسان حقه فلا يقدر قوى أن يظلم ضعيفاً ؛ لأن الضعيف سيجد أناساً يشهدون معه بالحق .

وإياكم أن تدخلوا الهوى فى مقاييس العدل . وهب أن المسألة تتعلق بعدوكم أو بخصومكم فالعدل هنا أكثر أهمية وأكثر وجوبا .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا فتعتدوا عليهم ، فمن له حق يجب أن يأخذه . ونعرف القصة التى حدثت ، عندما سرق مسلم درع مسلم آخر وأراد السارق وأهله أن يلصقوا التهمة بيهودى وأن يبرىء نفسه ، ولكن الله أنزل قرآناً :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد لصالح الخائنين مخاصما للبرآء . وقوله الحق هنا : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا ، وإلا سيكون البغض لصالح عدوكم ، وبغض المؤمن إذا حمله على اتباع هواه سيكون لصالح العدو ؛ لأن الله سيعاقب المؤمن لو أدخل الهوى والبغض فى إقامة الميزان العادل . فتحكيم البغض والعِداء والهوى يكون لصالح الخصوم ؛ لذلك لا يحملنكم أيها المؤمنون شنآن ـ أى بغض ـ قوم على ألا تعدلوا .

ويضيف الحق : « اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ » والعدالة حين تُطلب مع الخصم هى تقريع لذلك الخصم لأنه خالف الإيمان . ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه : إن عدالة هذاالمسلم لم تمنعه من أن يقول الحق ولا بد أن عقيدته تجعل منه إنساناً قوياً ، وأن دينه الذى أمره بذلك هو نعم الدين .

إذن ساعة تحكم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تقرعه لأنه ليس مؤمناً ، لكن لو رأى خصمك أنك قد جُرت ولم تذهب إلى الحق ، فأنت بذلك تشجعه على أن يبقى كافراً ؛ لأنه سيعرف أنك تتبع الهوى . أما إذا رآك وأنت تقف موقفاً يرضى الله مع أنه خصم لك ، فهو يستدل من ذلك على أن العقيدة التى آمنت بها هى الحق ، وأنك تقيم الحق حتى فى أعدائك . وهكذا يقرع الخصمُ العقدى نفسَه ، وقد يلفته ذلك إلى الإيمان .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » أقرب إلى أى تقوى ؟ أأقرب إلى تقوى المؤمن ؟ أم أن الخصم يكون أقرب إلى التقوى حين يرى المؤمن مقيماً للعدل والحق ، فلعله

يرتدع ويعاود نفسه ويقول : إن الإيمان قد جعل هذا المسلم يتغلب على البغض وحكم بالحق على الرغم من أنه يعلم أننى عدو له .

ولنا فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة ، فقد جاءه رجل غريب يسأله طعاماً أو مبيتاً ، فسأله إبراهيم عن دينه . فوجده كافراً ، فلم يجب مسألته . وسار الرجل بعيداً ، فأنزل الله سبحانه على إبراهيم وحياً : أنا قبلته كافراً بى ومع ذلك ما قبضت نعمتى عنه . وسألك الرجل لقمة أو مبيتَ ليلةٍ فلم تجبه . وجرى سيدنا إبراهيم خلف الرجل واستوقفه ، فسأل الرجل سيدنا إبراهيم ؛ ما الذى حدث لتغير موقفك ، فقال سيدنا إبراهيم : إن ربى عاتبنى فى ذلك . فقال الرجل : نعم الرب إله يعاتب أحبابه فى أعدائه ، وآمن الرجل .

وهذا يوضح لنا معنى « أقرب للتقوى » فقد صار الرجل الكافر أقرب للتقوى . إذن : فالمعنى النفسى الذى يصيب خصمك أو من يبغضك أو من بينك وبينه شنآن ، حين يراك آثرت الحق على بغضك له ، يجعله يلتفت إلى الإيمان الذى جعل الحق يعلو الهوى ويغلبه ويقهره ، ويصير أقرب للتقوى . وأيضاً من يشهد بالقسط هو أقرب للتقوى .

ويذيل الحق الآية بقوله : «واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» فهو ـ سبحانه ـ الخبير بما نعمل . وإياك أيها المؤمن أن تصنع ذلك لشهرة أن يُقال عنك إنك رجل حكمت على نفسك . ولكن اعمل من أجل الله حتى وإن كان الموقف يستحق منك الفخر .

إن كثيرا من الناس يحكمون بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل ، كيف ؟ لنفرض أنه قد عُرضت عليك قضية هى خصومة بين ابنك وابن جارك ؛ الشجاعة الأولى تفرض أن تحكم لابن جارك وهو غير محق على ابنك ، لكن الشجاعة الأقوى أن يكون الحق لابنك وتحكم له ، أما إن حكمت لابن جارك ـ وهو غير محق ـ ففى هذه الحالة تكون قد حكمت بالظلم لتشتهر بين الناس بالعدل !

يجب أن يكون الحق أعز عليك من ابنك وابن جارك ، وإياكم أن تعملوا أعمالاً

ظاهرها عدل وباطنها رياء ؛ لأننا نعلم أن لكل جارحة من الجوارح مجالاً تؤدى فيه وظيفتها ؛ فاللسان أداؤه ووظيفته القول ، والأذن فعلها أن تسمع ، والأنف أداؤه أن يشم ، ويجمع الجميع العمل . فالعمل إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلا .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول محله اللسان ، والفعل محله بقية الجوارح ، والاثنان يجمعهما العمل .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ ﴾

وعندما نتأمل كلمة « وعد » نجدها تأتى ، وتأتى أيضاً كلمة « أوعد » و« وعد » وكذلك أوعد إذا لم تقترن بالموعود به ، تكون وَعَد للخير ، و« أَوْعَد » للشر . ولكن لو حدث غير ذلك وجئت بالموعود به ، فالاثنان متساويان ، فيصح أن تقول « وعدته بالخير » ويصح أيضاً أن تقول « وعدته بالشر » . لكن إن لم تذكر المتعلق ، فإن « وعد » تستعمل فى الخير . و« أوعد » تستعمل فى الشر . والشاعر يقول :

وإنِّى إنْ أوعدته أو وعدته
لَمُخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ موعدى

وحين يقول : « وعد الله » فهذا وعد مطلق لا إخلال به ؛ لأن الذى يخل بالوعد هو الإنسان الذى تعتريه الأغيار ؛ فقد يأتى ميعاد الوفاء بالوعد ويجد الإنسان نفسه فى

موقف العاجز أو موقف المتغير قلبياً ، لكن ساعة يكون الله هو الذى وعد فسبحانه الذى لا تداخله الأغيار ، بل هو الذى يُجرى الأغيار ، لذلك يكون وعده هو الوعد الخالص الذى لا توجد قوة أخرى تحول دون أن ينفذ الله وعده . أما وعد البشر فقد تأتى قوة أخرى تعطل هذا الوعد .

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة » سبحانه وتعالى يوضح أن مغفرته لكل عباده ولا يختص فقط الصالحين الورعين بل إنه يوجه حديثه إلى هؤلاء الذين ارتكبوا المعاصى فإن تابوا ، فلهم مغفرة ؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ؛ فأنت قد تكون جالسا ويأتى واحد جهة اليمين ليقدم لك تفاحة ، وفى اللحظة نفسها التى تمتد يدك لتأخذ التفاحة تلتفت لتجد إنساناً آخر يريد أن يصفعك ، أى اتجاهات سلوكك تغلب ؟ . لا بد أنك سترد على من يضربك أولا . والحق يزيل الذنوب أولاً بالمغفرة . ونجده سبحانه وتعالى يأتى بأشياء تلفت القلب فهو يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فالخطوة الأولى للفوز هى الزحزحة عن النار ، والخطوة التالية بعد ذلك هى دخول الجنة . فسبحانه يمنع المفسدة ويقدم دفعها ودرأها على جلب المنفعة ؛ لذلك يقول الحق بداية : « لهم مغفرة » . والإنسان منا ساعة تأتى له الخواطر يفكر فى أشياء يطمح إليها ، وهناك أشياء يخاف منها . وينشغل الذهن أولاً بما يخاف منه ، يخاف من المفسدة ، يخاف من عدم تحقيق الآمال . إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

« لهم مغفرة وأجر عظيم » . وكل أجر على عمل يأخذ عمره بقدر حيزه الزمنى ، فأجر الإنسان على عمله فى الدنيا يذهب ويزول ؛ لأن الإنسان نفسه يذهب إلى الموت ، أما أجر الآخرة فهو الباقى أبداً ، وهو أجر لا يفوت الإنسان ولا يفوته الإنسان ، ذلك هو الأجر العظيم .

وحين يتكلم الحق عن معنى من المعانى يتعلق بالإيمان والعمل الصالح تكون

النفس مستعدة ؛ لأن هناك تأميلا فى الخير وترهيباً من الشر ؛ لذلك يتبع الحق هذه الآية بآية أخرى فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠ ﴾

وحين نسمع قوله : « أصحاب الجحيم » تتزلزل النفوس رهبة من تلك الصحبة التى نبرأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم وتعنى الارتباط معاً ، وألا يترك أحدهما الآخر ؛ كأن الجحيم لا تتركهم ، وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيم نفسها فى اشتياق لهم . وللجحيم يوم القيامة عملان ؛ العمل الأول : الصحبة التى لا يقدر الكافر على الفكاك منها ، والثانى : لا تترك الجحيم فرصة للكافر ليفك منها . ويقول الحق عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ ﴾

(سورة ق)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ ﴾

والذكر ـ كما عرفنا ـ يعنى استحضار الشىء إلى الذهن ؛ لأن الغفلة تطرأ على

الإنسان وعليه ألا يستمر فيها . وبعض أهل الإشراق والشطح يتلاعبون بالمواجيد النفسية فيقول واحد منهم : يعلم الله أنى لست أذكره . وحين يسمع الإنسان مثل هذا القول قد يوجه لصاحبه التأنيب والنقد العنيف ، لكن القائل يحلل الأمر التحليل العرفانى فيكمل بيت الشعر بالشطر الثانى :

« إذْ كيف أذكره إذْ لست أنساه » .

وهنا ترتاح النفس ، ويقول الحق هنا أيضاً : « نعمة الله » ولم يقل : « نعم » ؛ لأن كل نعمة على انفراد تستحق أن نشكر الله عليها ؛ فكل نعمة مفردة فى عظم وضخامة تستحق الشكر عليها ، أو أن نعمة الله هى كل فيضه على خلقه ، فأفضل النعمة أنه ربنا ، وسبحانه يقول : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » . ومادام قد جاء بـ « إذ » فالمراد نعمة بخصوصها ؛ لأن « إذ » تعنى « حين » فالحق يوضح : اذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك الوقت الذى حدثت فيه هذه المسألة ، لأنه جاء بزمن ويطلب أن نذكر نعمته فى هذا الموقف ، إنه يذكرنا بالنعمة التى حدثت عندما همّ قوم ببسط أيديهم إليكم .

وهناك « قبض » لليد و« بسط » لليد . والبسط المنظور أن ترى النعمة . وفى الآية تكون النعمة هى كف أيدى الكافرين ، ذلك أن أيديهم كانت ممدودة بالسوء والشر . ولو وقفنا عند بسط اليد ؛ لظننا أنه سبحانه قد جعل من أسباب خلقه معبراً للنعم علينا أى أن نعم الله تعبر وتصل إلينا عن طريقهم وبأيديهم ، لكن هذا ليس مرادا من النص الكريم ؛ لأننا حين نتابع قراءة الآية ، نعرف أن كف أيديهم هو النعمة ، فهؤلاء القوم أرادوا أن يبسطوا أيديهم بالإيذاء . ويقولون عن بذاءة اللسان : « بسط لسانه » ويقولون أيضاً : « بسط يده بالإيذاء » .

ونعرف أن الحق جاء بـ «إليكم » أو « عنكم » وكلاهما فيه ضمير يعود على المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فالمؤمنون ملتحمون بمنهج النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا همّ قوم أن يبسطوا أيديهم إلى رسول الله ، ففى ذلك إساءة للمؤمنين برسول الله ؛ لأن كل شيء يصيب رسول الله ، يصيب المؤمنين أيضاً . وكانت هناك واقعة حال فى زمن مقطوع وسابق، فهل يعنى الحق سبحانه وتعالى بحادثة بنى

النضير ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى النضير معاهدة ألا يعينوا عليه خصوم الإسلام وإذا حدث قتل من جهة المسلمين فعلى بنى النضير المعاونة فى الدية ، وكان النبى قد أرسل مسلماً فى سرية فقتل اثنين من المعاهدين خطأ ، فطالبوا بدية للقتيلين . ولم يكن عند النبى ؛ مالٌ فذهب إلى بنى النضير كى يساعدوه بدية القتيلين ، فقالوا له : « مرحبا » نطعمك ونسقيك وبعد ذلك نعطيك ما تريد ، ثم سلطوا واحداً ليرمى الرسول بحجر . فصعد الرجل ليلقى على الرسول صخرة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاعد إلى جانب جدار من بيوتهم فأخبر الحق رسوله فقام خارجاً ، ولم ينتظر شيئا .

« إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » لقد أخبر الحق نبيه بما يبيتون قبل أن يتمكنوا من الفعل . و « الهمّ » هو حديث النفس ، فإذا ما خرج إلى أول خطا النزوع فذلك هو القصد ، و« الهم » هو الشيء الذى يغلب على فكر الإنسان فى نفسه ويكون مصحوباً بغم .

وفى اللغة الدارجة نسمع من يقول : « أنا فى هم وغم » ؛ لأن « الهم » هو الأمر الذى لا يبارح النفس حديثاً ويسبب الغم . فالهم هو العدو الذى لا يقدر أن يقهره أحد ؛ لأنه يتسرب إلى القلب ، أما أى عدو آخر فالإنسان قد يدفعه ، ونعرف عن سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ أنه كان مشهوراً بأنه المفتى ؛ فهو يُستفتى فى الشيء فيجيب عليه ، لدرجة أن سيدنا عمر نفسه يقول : « قضية ولا أبا حسن لها » أى أنها تكون قضية معضلة إذ لم يوجد أبو حسن لها فيحلها ، وكان سيدنا عمر يستعيذ من أن يوجد فى مكان لا يوجد به سيدنا على . وعندما عرف الناس عنه ذلك تساءلوا : من أين يأتى بهذا الكلام ؟ . فجاءوا بلغز وانتظروا كيف يخرج منه . فقالوا : إن الكون متسع وفيه أشياء أقوى من كل الأشياء ، وقوى تتسلط على قوى ، وحاولوا الاتفاق على شيء أقوى من كل الأشياء ؛ فقال واحد : الجبل هو أقوى الأشياء . وقال الآخر : لكنا نقطع منه الأحجار بالحديد . وبينما هم يسلسلون هذه السلسلة جاء سيدنا على فقالوا له : يا أبا الحسن ما أشد جنود الله ؟ .

فأجاب سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ كأنه يقرأ من كتاب بدليل أنه عرف جنود الله وعرف الأقوى وحصر عددهم ، وقال سيدنا على : أشد جنود الله عشرة .

وكأنه انشغل بهذه المسألة من قبل ، ودرسها .

قال : الجبال الرواسى والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشىء ويمضي لحاجته ؛ والسُّكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله الهم . ولا يمكننا أن نمر على كلمة « الهم » فى القرآن إلا أن نستعرض مواقعها فى كتاب الله . وأهم موقع من مواقعها نتعرض له من أسئلة الكثيرين فى رسائلهم وفى لقاءاتنا معهم هو مسألة يوسف عليه السلام حينما قال الحق سبحانه وتعالى بخصوص مراودة امرأة العزيز له :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ولنحقق هذه المسألة ، فالذين يستبعدون على سيدنا يوسف عليه السلام هذا الأمر ، يستبعدون على صاحب العصمة أن يُفكر فى نفسه ، وإن كان التفكير فى النفس لم يبلغ العمل النزوعى فهو محتمل . بل قد يكون التفكير فى الشىء ثم عدول النفس عنه أقوى من عدم التفكير فيه ؛ لأن شغل النفس بهذا الأمر ثم الكف يعنى مقاومة النفس مقاومة شديدة . ولكنهم يُجِلّون ويعظمون ـ أيضاً ـ سيدنا يوسف عن أن يكون قد مر بخاطره هذا الأمر فضلاً على أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن قد أرسل إليه، أى أنه لم يكن رسولا آنذاك .

الآية تقول :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

أى أن امرأة العزيز هى التى بدأت المراودة ليوسف عليه السلام فهل تم نزوع إلى العمل ؟. لا ؛ لأن النزوع إلى العمل يقتضى أن يشارك فيه سيدنا يوسف . إذن فـ « همت به » أى صارت تحب أن تصنع العملية النزوعية وجاء المانع من سيدنا يوسف . وبالنسبة للمُرَاوَدِ وهو سيدنا يوسف ، قال الحق :

﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ونضرب لذلك مثلاً حتى نفهم هذا ؛ إذا قال لك قائل : أزورك لولا وجود فلان عندك ، هذا يعنى أن القائل لم يزرك ، وبالقياس نجد أن يوسف عليه السلام رأى البرهان فلم يهم . فمن أراد أن ينزه يوسف حتى عن حديث نفسه نقول : الأمر بالنسبة لها أنها همت به ، وحتى يتحقق الفعل كان لا بد من قبول لهذا الأمر ، وصار الامتناع لكنّه ليس من جهتها بل جاء الامتناع من جهته . وهو قد همّ بها لولا أن رأى برهان ربه .

لماذا جاء الحق : بأنه همَّ بها لو أن رأى برهان ربه ؟ جاء الحق بتلك الحكاية ليدلنا على الحكمة فى امتناع يوسف عن موافقته على المراودة ، فلم يكن ذلك عن وجود نقص طبعى جسدى فيه ، ولولا برهان ربه لكان من الممكن أن يحدث بينهما كل شيء . وأراد الحق أن يخبرنا أن رجولته كاملة وفحولته غير ناقصة واستعداده الجنسى موجود تماماً ، والذى منعه من الإتيان لها هو برهان ربه ، إنه امتناع دينى . لا امتناع طبيعى . وبذلك يكون إشكال الفهم لمسألة الهم عند امرأة العزيز ويوسف قد وضح تماماً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددها : « إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » وكلمة « قوم » إذا سمعتها ففيها معنى القيام ، والقيام هو أنشط حالات الإنسان . وكما أوضحنا من قبل نجد الإنسان إما أن يكون قائما وإما أن يكون قاعدا وإما مضطجعا وإما مستلقيا وإما نائما . ونجد أن الراحات على مقدار هذه المسألة ، فالقائم هو الذى يتعب أكثر من الآخرين ؛ لأن ثقل جسمه كله على قدميه الصغيرتين ، وعندما يقعد فإن الثقل يتوزع على المقعدة . وإذا اضطجع فرقعة الاحتمال تتسع . ولذلك يطلقونها على الرجال فقط ؛ لأن من طبيعة الرجل أن يكون قواماً ، ومن طبيعة المرأة أن تكون هادئة وديعة ساكنة مكنونة . فالقوم هم الرجال ، ومقابل القوم هنا « النساء» . إذن فالنساء ليس من طبيعتهن القيام .

والشاعر يقول :

وما أدرى ولست إخال أدرى
أقوم آل حصن أم نساء

وحين يقول الحق : « إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » فمعنى ذلك أنّه لم يكن هناك نساء قد فكرن فى أن يؤذين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجد هنا أيضاً أن البسط مجال تساؤل ، هل البسط يعنى الأذى أو الكرم ؟.

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

هذا (فى مجال العطاء) أما فى مجال الأذى فالحق يقول على لسان ابن آدم لأخيه :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة المائدة)

والأيدى لاتطلق إلا إذا أردنا حركة نزوعية تترجم معنى فى النفس سبق أن مرّ على العقل من قبل ، فمد الأيدى يقتضى التبييت بالفكر ، وهكذا نعرف أن القوم قد بسطوا أيديهم إلى رسول الله والمؤمنين .

وعندما ننظر فى التاريخ المحمدى مع أعدائه ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أى أنهم قعدوا للتبييت . ونحن لا نعرف ذلك التبييت إلا إذا امتدت الأيدى للعمل ، فقد مكروا وبيتوا للشر وأرادوا أن يثبتوا رسول الله أى أرادوا تحديد إقامته بحبسه أو تقييده أو إثخانه بالجراح حتى يوهنوه ويعجزوه فلا يستطيع النهوض والقيام أو يقتلوه أو يخرجوه من بلده . بإثباته ومنعه فلا يبرح ، أو يخرجوه من المكان كله أو يقتلوه ، فماذا كان الموقف ؟

لقد هموا أن يبسطوا إليه أيديهم . وبسط اليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يؤذى المؤمنين كلهم ، لأنه لا يستقيم أمر المؤمنين إلا برسول الله ، فلو بسط الكفار أيديهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لكان معنى ذلك بسط أيديهم على الكل . ويأتى التاريخ المحمدى بأمور يبسط فيها الكافرون أيديهم بالأذى إلى رسول الله وإلى المؤمنين ويكف الله أيديهم ويمكر بهم أى يجازيهم على ذلك بالعقاب .

والمكر ـ كما نعلم ـ هو الشجر الملتف بعضه على بعضه الآخر حيث لا نعرف أى ورقة تنمو من أى جذع أو فرع . والمكر فى المعانى هو التبييت فى خفاء . وهو دليل ضعف لا دليل قوة . فالأقوياء يواجهون ولا يبيتون ؛ ولذلك يقال : إن الذى يكيد لغيره إنما هو الضعيف ؛ لأن الإنسان الواضح الصريح القادر على المواجهة هو القوى . ونجد البعض يجعل ضعف النساء دافعا لهن على قوة المكر استنادا لقول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

وإلى قول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

فلا يكيد إلا الضعيف . ومن لا يقدر على المواجهة فهو يبيت ، ولو كان قادراً على المواجهة لما احتاج إلى ذلك . وقد يمكر البشر ويبيتون بخفاء عن غيرهم . لكنهم لا يقدرون على التبييت بخفاء عن الله ، لأنه عليم بخفايا الصدور . وأمر الحق فى التبييت أقوى من أمر الخلق ؛ لذلك نجد قوله سبحانه :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولنلحظ أن تبييت الله خير . وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعلم أعداء الإسلام أنه بعد هذا التبييت لن تنالوا من رسولى ، لن تنالوا منه بكل وسائلكم سواء أكانت تعذيباً لقومه أم تبييتا له . وعلى الرغم من أنهم بيتوا كثيراً إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من بيته فى مكة إلى المدينة وهم نائمون :

﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يس)

ونجد العجب فى كف أيدى الكافرين عن رسول الله . فكل أجناس الوجود قد اشتركت فى عملية كف أيدى الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكانت تلك الأجناس جماداً أم نباتاً أم حيواناً أم إنساناً ، نثر رسول الله التراب وهو جماد فأغشى به الكافرين ، وصار التراب من جنود الله .

وها هى ذى أسماء بنت أبى بكر تحمل الطعام لهم فى الغار وهى ترعى الغنم ، والأغنام تجد الحشائش فترعاها وتزيل الأثر الذى أحدثه ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اشترك النبات فى كف أيدى الكافرين عن رسول الله ، وكذلك الأغنام وهى من الحيوان ، وكذلك فرس سراقة التى ساخت وغاصت قوائمها فى الأرض ، ثم الحمامة التى بنت عشها على الغار ، وكذلك العنكبوت الذى بنى بيته على الغار ، ورضخت كل جنود الله لأمر الله فشاركت فى عملية كف أيدى الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأعجب من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد كف أيدى الكافرين بالكافرين ، فالرسول الذى جاء ليهدى الخلق ويسير بهم إلى النور من الظلمات ، نجد الذى يهديه فى طريقه إلى المدينة هو أحد الكفار . وهكذا نرى أن هداية المعانى تستخدم هداية المادة ، والرسول هو الحامل لهداية المعانى يستخدم هداية المادة ممثلة فى ذلك الكافر . ونعرف أن من جنود الإسلام فى دار الهجرة كان اليهود - برغم أنوفهم - ألم يقولوا للأوس والخزرج : سيأتى من بينكم نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ؟ فلما سمع الأوس والخزرج أن نبياً ظهر فى مكة ، قالوا : هذا هو النبى الذى توعدتنا به

اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فسبقوا إليه وأسلموا وبايعوه ، فقد ورد أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم[1] .

ثم كانت المدينة داراً للهجرة .

هكذا نرى أن الباطل يخدم الحق ، والكفر يخدم الإيمان ، فها هو ذا عبدالله بن أريقط ـ وكان كافراً ـ يضع نفسه كدليل للرسول وصاحبه أثناء الهجرة ولا ينظر إلى الجُعْل الذى رصدته قريش لمن يأتيها بمحمد . هكذا نجد أن كف الأيدى كانت له صور كثيرة .

وقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشياء ومواقف رآها الصحابة ، ونشأت له خوارق من الحق سبحانه وتعالى تؤيد صدقه ، وشاهد تلك الخوارق بعض الصحابة ولا نقول عنها معجزات ؛ لأن معجزة الإسلام إلى قيام الساعة هى القرآن . ولكن رسول الله لم تخل حياته من بعض المعجزات الكونية مثل التى حدثت لغيره من الرسل . وأرادها الحق لا للمسلمين عموماً ولكن شاهدها بعضهم كما شاهدها بعض الكفار ؛ لأن رسول الله كان فى حاجة إلى أن يؤكد له الله أنه رسول الله . فها هو ذا سيدنا جابر بن عبدالله يقول :

« كان بالمدينة يهودى وكان يسلفنى فى تمرى إلى الجذاذ ، وكان لجابر الأرض التى بطريق رومة فجلست[2] فخلا[3] عاما فجاءنى اليهودى عند الجذاذ[4] ولم أجد منها شيئا ، فجعلت استنظره[5] إلى قابل فيأبى فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) تفسير ابن كثير عن محمد بن إسحاق مرويا عن ابن عباس.

(٢) فجلست : أى فتأخرت الأرض عن الإثمار ، وفى رواية فخاست أى خالفت ما كان معهودا منها من التمر

(٣) فخلا : أى تأخر السلف عاما .

(٤) الجذاذ : (بكسر الجيم وفتحها وبالذال المعجمة ويجوز إهمالها) زمن قطع تمر النخل .

(٥) أستنظره : أطلب منه أن يمهلنى .

فقال لأصحابه : امشوا نستنظر لجابر من اليهودى ، فجاءونى فى نخلى فجعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلم اليهودى فيقول : أبا القاسم لا أُنظره ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم قام فطاف فى النخل ثم جاءه فكلمه فأبى ؛ فقمت فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأكل ثم قال : أين عريشك يا جابر ، فأخبرته فقال : افرش لى فيه ففرشته ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئته بقبضة أخرى فأكل منها ثم قام فكلم اليهودى فأبى عليه ، فقام فى الرطاب فى النخل الثانية ثم قال : يا جابر ، جذ واقض ؛ فوقف فى الجذاذ فجذذت منها ما قضيته وفضل منه فخرجت حتى جئت النبى صلى الله عليه وسلم فبشرته فقال : أشهد أنى رسول الله »[1] .

مثال آخر : كان الماء قليلاً عند قوم من الصحابة فيغمس رسول الله يده فى الماء ويشرب كل الناس . وهل يجرؤ أحد من الذين رأوا تلك المعجزة أن يجادل فيها ؟ طبعاً لا ، لكن هل هذه المعجزة لنا ؟ إن وثقنا فيمن أخبر فلن نستكثر على الله أن يكثر الماء لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن نحن نعلم أن الله قد تكفل بحفظ القرآن ليكون هو المعجزة الباقية فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقد ثبت أن رسول الله جمع قليلا من الزاد ودعا ما شاء الله أن يدعو وأطعم به جيشا . والذى عاش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم له أن يصدق تلك المعجزات أو لا يصدقها ، ولكن على المؤمن الذى علم مقام ومكانة الرسول عند ربه ، أن يصدق تلك الخوارق متى ثبت ذلك بطريق يقينى قطعى ، ولذلك لا ضرورة لإقامة الجدل مع هؤلاء الذين ينكرون المعجزات الكونية . ونقول لهم : ليس أحدكم مسئولا بهذه المعجزات ، أنت مسئول بمعجزة القرآن فقط . والخوارق التى وقعت إما أن تكون بغرض تثبيت رسول الله مصداقا لقوله الحق :

﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

---

(١) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

وإما أن تكون لتثبيت أصحاب رسول الله ؛ فقد كانت الأهوال تمر عليهم وتزلزلهم :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكان لا بد أن ترسل السماء لهم آيات لتثبت أقدامهم فى الإيمان .

والخلاصة أن كل الخوارق الكونية التى حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس المقصود بها عامة المسلمين ، ولكن المقصود بها من وقعت له أو وقعت أمامه ، ونفض بذلك أى نزاع حول تلك الخوارق ؛ لأن المعجزة الملزمة للجميع هى كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقد همّ بالأذى كثير من أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم ترد امرأة من اليهود أن تسمّه وكف الله يديها ؟ وحكاية بنى النضير الذين أرادوا أن يلقوا عليه الحجر ، فقام قبل أن يلقى مندوب بنى النضير الحجر عليه صلى الله عليه وسلم .

وها هو ذا صفوان بن أمية له ثأر عند رسول الله من غزوة بدر يستأجر عمير ابن وهب الجمحى ويقول له : اذهب إلى المدينة واقتل محمداً وعلىّ دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا .

ويذهب عمير إلى المدينة ويدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا إليه ـ وكان له ابن أسير لدى المسلمين ـ قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ فقال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ؟ قال : أصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحِجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبينى فقال عمير . أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى .

وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما آتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام »[١] .

ومثال آخر : ما رواه سيدنا جابر ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة ذات الرقاع . « قال : جاء رجل يقال له غورث بن الحارث فقام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك منى ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : (ومن يمنعك منى) ؟ فقال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : لا ، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلى سبيله فأتى أصحابه وقال : جئتكم من عند خير الناس »[٢] .

وعندما سمع الرجل لأول مرة أن الله هو الذى يمنع الرسول منه وقع السيف من يده ، ذلك أن ذرات الكفر فى الرجل تزلزلت وعاد إلى إيمان الفطرة ، وعندما أمسك النبى بالسيف وسأل الرجل : من يمنعك منى ؟ لم يقل الرجل:« هبل » أو « اللات » أو « العزى » فالرجل يعلم أن مسألة الأصنام كذب فى كذب ، ولو كان مؤمناً بآلهته لقال أحد أسمائها . وعندما تزلزلت ذرات الكفر فى كيانه عاد إلى الفطرة الأولى التى لا تكذب أبداً . وإن كذب الإنسان على الناس جميعاً لا يكذب على نفسه . وكلمة « الله » هى التى زلزلت كفر الرجل وأعادته إلى الحق .

وفى معركة بدر نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما ابنه عبدالرحمن كان مع الكفار ، وبعد أن أسلم ابنه بفترة جلس الولد مع أبيه يتسامران ، فقال الابن : لقد رأيتك يوم أحد فصدفت[٣] عنك فقال أبو بكر : لكنى لو رأيتك ما صدفت عنك[٤] . فقد رأى ابن أبى بكر والده ولم يقتله ، ولاشك أن مقارنة نفسية باطنية فكرية قد حدثت بين معزة أبيه وبين مكانة هبل أو تلك الحجارة ، وعرف ابن أبى بكر أن والده أفضل بكثير من تلك الأحجار . ولكن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير .

(٢) البيهقى عن جابر وفى البداية (٤/٨٤) .

(٣) صدفت عنك : أعرضت عنك .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة عن أيوب وأخرج الحاكم عن أيوب نحوه .

أبا بكر حينما يقول : ولو كنت رأيتك لقتلتك ، فالمقارنة النفسية هنا تكون بين الإيمان بالله وبين الابن ، ومن المؤكد أن الإيمان يغلب فى نفس أبى بكر . وكل من أبى بكر وابنه كان منطقيا مع نفسه .

ومثال آخر : « عن جابر بن عبدالله أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم - قفل معه فأدركتهم القائلة - شدة الحر فى وسط النهار - فى وادٍ كثير العضاه - شجر عظيم له شوك - فنزل رسول الله ، وتفرق الناس فى العضاه يستظلون بالشجر ونزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت سَمُرَة فعلق بها سيفه ، قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابى جالس فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتاً فقال لى : من يمنعك منى ؟ فقلت له : الله . فها هو ذا جالس ثم لم يعاقبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - »[١] .

ولماذا حدث ذلك ؟ لأن الفطرة المستلهمة بدون تدخل من أحد تنضح بالإيمان . وها نحن أولاء نرى الصحابة فى العهد الأول حينما اضطهدوا فى مكة وهاجروا هجرتهم الأولى إلى الحبشة ؛ هل ذهبوا إليها خبط عشواء ؟ أو ذهبوا بتخطيط نبوى كريم ؟ لقد درس النبى أولاً الأرض التى تصلح لاستقبالهم ويقبلهم فيها أهلها كمهاجرين . ودرس النبى أوضاع الجزيرة العربية ووجد أن قريشا تتمكن من كل قبيلة فى الجزيرة العربية عندما يأتى موسم الحج ؛ لذلك لن توجد القبيلة التى تحمى المهاجرين فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه »[٢] .

---

(١) رواه البخارى فى المغازى وعند ابن إسحاق بعد قوله : (الله) فدفع جبريل فى صدره فوقع السيف من يده فأخذه النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال : من يمنعك منى . قال : لا أحد . وعند الواقدى أنه أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق .

وبالفعل ذهب المسلمون إلى الحبشة مهاجرين . وحاولت قريش أن تسترد المسلمين من أرض النجاشي . وأرسلت قريش بعثة لاستردادهم ورفض النجاشي . وسمع النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلم أنه النبي الذى بشر به الإنجيل . ولاشك أن النجاشي قد أسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي عندما مات . وكان إسلام النجاشي مكافأة له من الله ؛ لأنه حمى المؤمنين بالله وبرسوله عنده . وما أعظم المكافأة التى نالها النجاشي أن يموت على الإسلام وأن يصلى عليه سيدنا رسول الله صلاة الغائب .

إن كل هذا من كف أيدى الكافرين عن المؤمنين وعن رسول الله ، ومن أجل أن يثبت الحق للجميع أن المؤمنين على حق وأن الله لن يخذلهم ، فلا يخطر ببال المؤمنين أن عدوهم أقوى منهم ؛ فالله أقوى من خلقه . « فكف أيديهم عنكم » وكف أيدى الكافرين عن المؤمنين لأنه ـ سبحانه ـ يعد المؤمنين ليكونوا حملة منهجه إلى الخلق . ولذلك يجب أن يداوم المؤمنون على تكاليف الإيمان وتقوى الله ليكف الله أيدى الكافرين عنهم ، فلا يتغلب كافر على مؤمن فى لحظة من اللحظات إلا إذا كان المؤمن قد تخلى عن شىء فى منهج الله ؛ لأن الحق لا يقول قضية قرآنية ثم يترك القضايا الكونية التى تحدث فى الحياة لتنسخ هذه القضية القرآنية . لقد قال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إذن فعندما ترى جنداً من المسلمين قد انهزموا فلتعلم أنهم قد تخلوا عن منهج الله فتخلى الله عنهم ، بدليل أن بعضاً من المسلمين ساعة لم ينفذوا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم غلبهم الكفار ، فالله لا يغير سنته من أجل أناس نُسبوا إليه ولم ينفذوا تعاليم منهجه . والحق يقول :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

إنك إن انتسبت إلى الإسلام فيجب أن تنتسب إلى الإسلام بحق ، وإن رأيت المؤمنين قد دخلوا معركة وانهزموا فلتبحث مصادر تخليهم عن منهج الحق ، فسبحانه يقول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد أصاب المقاتلين مع النبى شيء ، فلم يضعفوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق أن يغفر لهم ذنوبهم ، لقد عرفوا مصادر ضعفهم واستعانوا بالله على هذا الضعف ، فماذا فعل الله لهم ؟ . نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين . وكل ذلك السلوك الإيمانى الذى يقى من الهزيمة وكيد العدو ، هو من تقوى الله ، حتى يظل المؤمنون فى معية الله . وعندما يكون المسلم فى معية الله لا يجرؤ خلق من خلق الله أن ينال منه . وننظر إلى الهجرة كمثال لذلك ؛ لنجد أن سيدنا أبا بكر كان حريصاً على حماية النبى صلى الله عليه وسلم . فعن أنس بن مالك قال : « لما كان ليلة الغار ، قال أبو بكر : يا رسول الله دعنى فَلأدخُل قبلك فإن كانت حيّة أو شيء كانت لى قبْلك . قال : ادخل ، فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جُحراً جاء بثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، قال : فبقى جحر فوضع عقبه عليه ثم أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فلما أصبح قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فأين ثوبك يا أبا بكر ؟» فأخبره بالذى صَنع فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال : « اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة » فأوحى الله تعالى إليه « إن الله قد استجاب لك »[1] .

ويرى أبو بكر الكفار وهم يمرون أمام الغار فيقول لرسول الله : « لو أن أحدهم

(١) أبو نعيم فى الحلية .

نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما »[1] .

وفى ذلك رد كامل ؛ لأن الاثنين فى معية الله ، ومادام المؤمن فى معية من لا تدركه الأبصار فلن تدركه الأبصار ، كيف ؟. نحن لا نعرف كل أسرار الله ولكنه القادر الأعلى .

وفى حياة البشر نجد الطفل الصغير قد يخرج بمفرده فيصيبه غيره من الأطفال بالضرر ؛ ولكن إذا خرج الطفل مع عائله ، مع أبيه مثلاً أو مع أخيه الأكبر ، فالأطفال لا يقتربون منه ؛ فما بالنا ونحن جميعاً عيال الله ؛ وماذا يحدث عندما نتشبث بمعية الله ؟. إذن فتقوى الله هى التى تجعل المؤمن فى معية ربه طَوال الوقت . ومن يُرِدِ المؤمن بسوء فإن جنود الله تحمى المؤمن . **ويذيل الحق الآية : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون »** . وإياكم أن تقولوا:إننا بلا عَدَد أو عُدَّة . إنك مسئول أن تعد ما تقدر عليه وتستطيعه وأترك الباقى لله :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ويقول التاريخ الإيمانى لنا إنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . وقد يقول قائل : هذه المسألة مادية تحتاج إلى عدد وعُدد . ونرد : إن الحق قد طالب بأن نعد ما نستطيعه لا فوق ما نستطيعه . وهو سبحانه عنده من الجند اللطيف الخفىّ الدقيق الذى لا يُرى :

﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ومادام الله قد ألقى الرعب فى قلوب الأعداء فالمسألة تنتهى ولا تفلح عُدد أو عَدَد . **ويكون التوكل على الله بعد أن يعد الإنسان ما يستطيعه وهو الاستكمال الفَعَّال للنصر** ، ولنعلم أن التوكل غير التواكل . إن المتوكل على الله يقتضى أن يعلم الإنسان أن لكل جارحة فى الإنسان مهمة إيمانية ، أن تطبق ما شرع الله ؛ فالأذن تسمع ، فإن سمعت أمراً من الحق فأنت تنفذه ، وإن سمعت الذين يلحدون فى

(١) متفق عليه .

آيات الله فأنت تعرض عنهم . واللسان يتكلم ، لذلك لا تقل به إلا الكلمة الطيبة ؛ فلكل جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولنتذكر أن السعى للقدم ، والعمل لليد والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ؛ لأن التوكل الحقيقى أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عاملٍ بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذى لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ومتميز ثم تهب عليه عاصفة أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة **الإحباط** . واحذر إهمال الأسباب ؛ أو أن تفتنك الأسباب ؛ لأنك إن أهملت الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل . تنقل عمل القلب إلى الجوارح . وإذا قال لك واحد : أنا لا أعمل بل أتوكل على الله ، قل له : هيا نر كيف يكون التوكل . وأحضر له طبق طعام يحبه . وعندما يمد يده إلى الطعام ، قل له : اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

ويجعل الحق سبحانه وتعالى من قصص الرسل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تثبيتاً للإيمان وتربية للأسوة وإنماء لها ، حتى لا يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يفعله اليهود أو المشركون ، فإن كان قد حدث معك ـ يا محمد ـ شيء من هذا الإنكار والإيلام ، فقد حدث الكثير من تلك الأحداث مع الرسل من قبلك ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

يُذَكِّر الحق هنا رسوله بالميثاق الذى أخذه من بنى إسرائيل . وقد يكون المقصود هو ميثاق الذر أو يكون المراد بالميثاق ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(سورة آل عمران)

أو أن يكون المراد بالميثاق هو ما بينه بقوله سبحانه :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه : « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً » ولنر « التكتيك » الدينى الذى أراده الحق ، فهو لا يجمع أجناس الخلق المختلفة على واحد من نوع منها ؛ لأن ذلك قد يعرض الدعوة لعصبية ؛ فاختار سبحانه اثنى عشر نقيباً على عدد الأسباط حتى لا يقولن سبط : كيف لا يكون لى نقيب ؟. وحسم الله الأمر ، ولم يجعله محلا للنزاع ؛ فجعل لكل سبط نقيباً منهم . والنقيب هو الذى يدير حركتهم العقدية والدينية . وساعة نسمع كلمة « نقيب » نعرف أنها من مادة « النون و القاف والباء » ، « والنقب » هو إحداث فجوة لها عمق فى أى جسم صلب .

إن اختيار الحق لكلمة نقيب ، يَدل على أن النقيب الصادق ينبغى أن يكون صاحب عينين فى منتهى اليقظة حتى يختار لكل فرد المهمة التى تناسبه ويركز على كل فرد بما يجعله يؤدى عمله بما ينفع الحركة الكاملة . وبذلك يكون كل فرد فى السبط له عمله ومكانه المناسب . ولا يتأتى ذلك إلا بالتنقيب ، أى معرفة حالة كل واحد وميوله فيضعه فى المكان المناسب .

إذن فالنقيب هو المنقب الذى لا يكتفى بظواهر الأمور بل ينقبها ليعرف ظروف وأسباب كل واحد . واختار الحق من كل سبط نقيباً ، ولم يجعل لسبط نقيباً من سبط

آخر حتى يمنع السيطرة من سبط على سبط ، ويمنع أن يكون النقيب على جهالة بمن يريد حركتهم من الأسباط الآخرين .

ونحن نسمع فى حياتنا اليومية وصفاً لإنسان : فلان له مناقب كثيرة ، أى أن له فضائل يذكرها الناس ، كأنّ على صاحب الفضائل ألا يتباهى بها بنفسه بل عليه أن يترك الناس لينقبوا عن فضائله ، ولذلك كانت كنوز الأرض وكنوز الحضارات مدفونة ننقب عليها ، أما ما يظهر على سطح الأرض فتذروه الرياح وعواملُ التعرية ولا يبقى منه شيء .

إذن فكلمة « نقيب » فى كل مادتها تدور حول الدخول إلى العمق ، لذلك تصف الرجل الفاضل : فلان له مناقب أى إن نقبت وجدت له فضائل تذكر ، وقد أعطاه الله موهبة الخير ولا يتعالم بها ، بل يدع الناس هم الذين يحكمون ويذكرون هذه الصفات . ومن نفس المادة « النقاب » أى أن تغطى المرأة وجهها .

وقوله الحق:« إنى معكم » يعطيهم خصلة إيمانية ، فلا يظنن أحد أنه يواجه أعداء منهج الله بذاته الخاصة بل بمعونة الله فلا يضعف أحد أو يهن مادام مؤمناً ، وكما قال الحق :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وبعد أن يعد المؤمنون ما استطاعوا فليتركوا الباقى على الله .. وجاء أيضاً قوله : « وقال الله إنى معكم » أى أن كل نقيب على سبط ليس له مطلق التصرف ، ولكن الله يوضح : « أنا معكم وسأنظر كيف يدير كل نقيب هذه المسائل » أى أنه سبحانه وتعالى مطلع على واقعكم ، فليس معنى الولاية أن يكون للوالى مطلق التصرف فى جماعته ؛ لا ؛ لأن الله رقيب . وقوله الحق : « إنى معكم » تدل على أن من ولى أمراً فلا بد أن يتابعه ويراه .

وبعد ذلك قال : « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم » . و« لئن » تضم شرطاً وقسماً ، كأن الحق يقول : وعزتى لئن أقمتم الصلاة وفعلتم كذا وكذا ليكونن الجزاء أن أكفر

عنكم السيئات . ودلت « اللام » على القسم ، ودلت « إن » على الشرط فهى « إن » الشرطية .

والقسم - كما نعلم - يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج إلى جواب أيضاً ، فالواحد منا يقول للطالب : إن تذاكر تنجح . والواحد منا يقول:« والله لأفعلن كذا » ، و« الله » هى القسم . و« لأفعلن » جواب القسم المؤكد باللام . وحين يأتى القسم فى جملة بمفرده فجوابه يأتى ، وحين يأتى الشرط بمفرده فى جملة فجوابه يأتى أيضاً . ولكن ماذا عندما يأتى القسم مع الشرط ؟ هل يأتى جوابان : جواب للشرط وجواب للقسم ؟ . عندما تجد هذه الحالة فانظر إلى المقدم منهما ، هل هو القسم أو الشرط ؟؛ لأن المقدم منهما هو الأهم ؛ فيأتى جوابه ، ويغنى عن جواب الثانى . والمتقدم هنا هو القسم ، تماماً مثل قولنا :

- لئن قام زيد لأقومن ، وهنا يكون الجواب جواب القسم ، أما إن قلنا : إن قام زيد والله أكرمْه ، فالجواب جواب الشرط ؛ فقدم الشرط على القسم . هذا إن لم يكن قد تقدم ما يحتاج إلى خبر كالمبتدأ أو ما فى حكمه ، فإن جاء والخبر أى المحتاج إلى الخبر فالشرط هو الراجح ، أى فالراجح أن نأتى بجواب الشرط ونحذف جواب القسم ؛ لأن الشرط تأسيس والقسم توكيد . وابن مالك فى الألفية يوضح هذه القاعدة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم
جواب ما أخّرت فهو مُلتَزَمْ

وإن تواليا وقَبْلُ ذو خبر
فالشرط رَجِّحْ مطلقا بلا حَذَرْ

والقسم قد تقدم فى هذه الآية ، لذا نجد الجواب هنا جواب القسم ، وهو : « لأكفرن عنكم سيئاتكم » .

وقوله الحق : « أقمتم الصلاة » يوضح أن الإقامة تحتاج إلى أمرين ؛ فروض تؤدى ، وكل فرض فيها يأخذ حقه فى القيام به . وبعد ذلك « وآتيتم الزكاة » وفى كتب الفقه نضع الصلاة ، والزكاة فى باب العبادات . وجاء التقسيم الفقهى لتسهيل إيضاح الواجبات ، لكن كل مأمور به من الله عبادة ؛ لأن العبادة هى أن تطيع مَن

تعبد فى كل ما أمر به ، وأن تجتنب ما نهى عنه ، فكل أمر إلهى هو عبادة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه قال :

﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

هنا نجد أمراً تعبدياً أن نترك البيع إلى الصلاة ، وأمراً تعبدياً ثانياً أن ننتشر فى الأرض ابتغاء لفضل الله بعد انقضاء الصلاة ، وأى إخلال بالأمرين ، إخلال بأمر تعبدى ؛ فأنت مأمور أن تتحرك فى الأرض على قدر قوتك حركةً تكفيك وتفيض عن حاجتك ليعم هذا الفائض على غيرك .

وقوله الحق : «وآمنتم برسلى وعزرتموهم » أى أن ينعقد الإيمان فى القلب فلا يطفو الأمر بعد ذلك لمناقشته ، وأن تعزروا الرسل ، أى وقرتموهم ونصرتموهم ، والعَزْر فى اللغة معناه المنع ، ولكن المنع هنا مراد به أن يمنع الناس عن رسول الله من يريده بسوء ؛ فإن أراد أحد من الأعداء السوء برسول من الله فليمنع المؤمنون هذا العدو عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنت فى حياتك إن كان لك حبيب أراده إنسان بسوء ، وكنت لا تدركه لأنه بعيد عنك فأنت تتمنى أن تأخذ صاحبك وتحميه من أن يناله العدو . لكن إن كان العدو أمامك فأنت تصده عن حبيبك . فالعزر هو المنع ، أى أن تمنعه من عدوه وتحول بينه وبينه ، أو تمنع عدوه من أن يناله بشر . والرسول بالنسبة للمؤمنين به تكون حياته أغلى من حياتهم ، ففى أثناء المنع قد يصاب أحد المؤمنين ، وفى ذلك تعظيم للرسول ونصرة له وتوقير .

نقول ذلك حتى نرد على الذين يتصيدون ويقولون : علماء المسلمين لا يتفقون على شيء ، فمرة يقولون : إن « عزرتموهم » معناها « نصرتموهم » ، ومرة أخرى

يقولون : إن « عزرتموهم » معناها « منعتموهم » . ونقول : كل المعانى هنا ملتقية ، فالعزر هو الرد والمنع ، إما بمنع العدو عن الرسول ، وإمّا أن يمنع الناس الرسول من أن يناله العدو ، أو الاثنان معاً ، ويجوز أيضا أن يكون معنى « عزرتموهم » هو نصرتموهم . وكذلك يجوز أن يكون معناها « وقرتموهم » ؛ لأن التعظيم والتوقير هما السبب فى نصرة الإنسان للرسول .

وبعد ذلك يقول الحق : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً » . ويدبر الحق لنا سياسة المال ، سواء للواجد أو لغير القادر ، فالواجد يوضح له الحق : لا تجعل حركة حياتك على قدر حاجتك ، بل اجعل حركة حياتك على قدر طاقتك ، وخذ منها ما يكفيك ويكفى مَن تعول ، والباقى رُدّه على مَن لم يقدر . ولو جعل كل إنسان حركة حياته على قدر حاجته ، فلن يجد من لا يقدر على الحركة ما يعيش به . ولنذكر جيداً أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ ﴾

(سورة المؤمنون)

وحين قال سبحانه : والذين هم للزكاة فاعلون، ليس معناها مجرد أداء زكاة، بل تعنى أن يتحركوا فى الحياة بغرض أن يتحقق لهم فائض يخرجون منه الزكاة ، وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر يعمل ليقوت نفسه ويقوت من يعول وليس فى باله الله ، أما مزية المؤمن فهو يعمل ليقوت نفسه ، ويقوت من يعول ويبقى لديه فائض يعطيه للضعيف ؛ فكأن إعطاء الضعيف كان فى باله ساعة الفعل . وهذا هو المقصود بقوله الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ ﴾

(سورة المؤمنون)

أى أن كل فعل للمؤمن يُقصد منه أن يكفيه ويكفى أن يزكى منه . وهناك حق آخر فى المال غير الزكاة ؛ بأن يسد به ولى الأمر ما يحتاج إليه المجتمع الإيمانى بشرط أن يقيم ولى الأمر كل شرع الله .

والزكاة هى إخراج المال على نحو مخصوص ، أما الصدقة فهى غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة . وهناك القرض ، وهو المال الذى تتعلق به النفس ، لأن الإنسان يقدمه لغيره شريطة أن يرده ، ولذلك قيل إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما الذى تتصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة ، وأيضاً لأن نفس المتصدق تخرج من الشىء المتصدق به ولا تتعلق به ، أما الذى يقدم القرض فنفسه متعلقة بالقرض وكلما صبر عليه نال حسنة ، وكلما قدم نَظِرَةً إلى ميسرة فهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

فالحق يريد أن تفيض حركة الحياة بالكثير . وكيف يقول سبحانه : « وأقرضتم الله قرضا حسنا » وهو الواهب لكل النعم وهو الولى لكل النعم ؟ وكيف يهب الحق للإنسان النعم ، ثم يقول له : أقرضنى ؟

هو سبحانه وتعالى يحترم حركة الإنسان وعرقه مادام قد ضرب فى الأرض وسعى فيها ، فالمال مال الإنسان ، ولكن أخا الإنسان قد يحتاج إليه ، ولذلك فليقرضه ويعتبر سبحانه هذا قرضاً من الإنسان لله . ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبنائه : بما أنك تدخر من مصروف يدك فأعط أخاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرضا عندى ، صحيح أن العائل هو الذى أعطى المال لكلٍ من يعول ، فما بالنا بالذى أوجدنا جميعا ، وهو الحق سبحانه وتعالى ؟ لقد وهب كلاً منا ثمرة عمله واعتبر تلك الثمرة ملكاً لصاحبها . ويعتبر فوق ذلك إقراض المحتاج إقراضاً له .

ويصف الحق القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه مَنٌّ ، أو منفعة تعود على المقرض وإلا صار فى القرض ربا. ولنا الأسوة الحسنة فى أبى حنيفة عندما كان يجلس فى ظل بيتِ صاحبٍ له . واقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال . وجاء اليوم التالى للقرض وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفت أن يكون ذلك لونا من الربا . فقال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تقرضنى . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المتفضل على بظل بيتك فأخاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بالمال .

والقرض الحسن هو الذى لا يشوبه مَنٌّ أو أذًى أو منفعة ؛ ولأن القرض دَيْنٌ ، وضع الحق القواعد :

﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالحق يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدين مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليسد هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً .

وعندما يُكتب القرض فهذا أمرٌ دافع للسداد وَحَاثٌّ عليه . لكن إن لم يكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض . ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أى أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة ، ولذلك يقال فى الأمثلة العامية : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله . ويكون مال الدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

وفى ذلك حماية للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

وهكذا يحمى الله الحركة الاقتصادية . ونجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دين ، فقال للصحابة : صلوا على أخيكم . لكنه لم يصل على الميت . وتساءل الناس لماذا لم يصل رسول الله على هذا الميت وما ذنبه ؟ كأن رسول الله أراد أن يعلم المؤمنين عن دين المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حفزا للناس ودَفْعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين . وقال :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه . ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[1] .

فمادام قد مات وهو مدين وليس عنده ما يسد الدين ؛ فربما كان لا ينوى رد الدين ، وأن نفسه قد حدثته بألا يرد الدين .

(١) رواه البخارى وأحمد من حديث أبى هريرة .

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئا كبيرا لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يحرجه . ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض لأن المقترض يريد أن يسدد القرض . أما إن تحرك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيمة الدين ، فليُفهم أن عند الذى اقترض بعض ما يسدد به الدين ، أى أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه ، ذلك أن الله لا يُحرج من يَجِد ويجتهد فى السعى لسداد دينه .

« وأقرضتم الله قرضا حسنا » . وقد يقول قائل : كان السياق اللفظى يقتضى أن يقول : « أقرضتم الله إقراضا » ؛ لكن الحق جاء بالقرض الحسن ؛ لأن الإقراض هو العملية الحادثة بين الطالب للقرض والذى يقرض . وسبحانه يضع القرض الحسن فى يده ، ولنا أن نتصور ما فى يد الله من قدرة على العطاء . ومثل ذلك قوله الحق :

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة نوح)

و« أنبتكم » تعبر عن عملية الإنبات ، والأرض تخرج نباتا لا إنباتا. فمرة يأتى الله بالفعل ، ويأتى من بعد ذلك بالمصدر من الفعل ؛ لأنه يريد به الاسم . و« أنبت » يدل على معنى وينشىء الله لكم منها نباتا .

وهكذا قال الله عن القرض : « وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم » وفى ذلك جواب للقسم ، ومن بعد ذلك يقول سبحانه : « ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » وقد تكلمنا من قبل كثيرا عن الجنات . ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » ألم يكن الذى كفر من قبل ذلك قد ضل سواء السبيل ؟ بلى ، إنه قد ضل فعلا ، ولكن الذى ضل بعد أن جاء ذكر تلك النعم والثواب فيها فالضلال أكثر . وكلمة « سواء » نقرأها فى القرآن ونراها فى الاستعمالات اللغوية ؛ كمثل قوله الحق :

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ﴾

(من الآية ١١٣ سورة آل عمران)

وسواء معناها وسط ، ومتساوون . والمعانى ملتقية ؛ لأنه عندما يكون هناك وسط فمعنى ذلك أن هناك طرفين . ومادام الشىء فى الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما نقول:وسط ، فهذا يقتضى أن نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية . ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن كثيراً من الألفاظ تستعمل فى شىء وفى شىء آخر ، وهذا ما يسمى بالمشترك اللفظى .. أى اللفظ واحد والمعنى متعدد ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة البقرة)

والشطر هو الجهة . والشطر هو النصف . النصف هو الجهة بمعنى أن توجه إنسان ما إلى الكعبة يقتضى أن يكون الإنسان واقفاً فى نقطة هى مركز بالنسبة لدائرة الأفق . وهذه النقطة بالنسبة لمحيط الأفق تقطع كل قطر من أقطارها فى المنتصف تماماً . إذن . فعندما يقول:الجهة ، نقول : صدقت ، وعندما يقول النصف . نقول : صدقت .

« فقد ضل سواء السبيل » والقرآن قد نزل على أمة تعيش فى البادية وطرقها بين الجبال ، وقد يكون الطريق معبّداً من ناحية ، وقد يكون الطريق بين هاويتين . وقد يكون الطريق بين جبلين ، ومن يأخذ بالأحوط فهو يمشى فى الوسط . ولذلك قال الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : اليمين والشمال مضلة وخير الأمور الوسط ؛ لأن الإنسان قد يتجه يميناً فيقع . أو يتجه شمالاً فيقع ؛ أو تقع عليه صخرة . ونجد الوالد ينصح ابنه فيقول له : امش ولا تلتفت يميناً أو يساراً واتجه إلى مقصدك . ونجد الحق يصف الطريق الذى يمشى عليه المؤمن يوم القيامة :

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ ﴾

(سورة الصافات)

وسواء الجحيم هو نقطة المنتصف فى النار ؛ أى أنه لا يستطيع الذهاب يميناً أو شمالاً . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا

قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

وساعة يقول الحق: « ميثاقاً » فالميثاق يتطلب الوفاء . فهل وفوا بهذا الميثاق ؟. لا ، لقد نقضوا المواثيق فلعنهم الله . واللعن هو الطرد والإبعاد ، والحق فى ذلك يقول : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » أى بسبب نقضهم الميثاق لعنهم الله . لقد أثار وجود « ما » هنا بعض التفسيرات ، فهناك من العلماء من قال : إنها زائدة ، وهناك آخرون قالوا : إنها « صلة » . ولكن الزيادة تكون عند البشر لا عند الله . ولا يمكن أن يكون بالقرآن شيء زائد ؛ لأن كل كلمة فى القرآن جاءت لمقتضى حال يحتم أن تكون فى هذا الموضع . فها هوذا الحق يخبرنا بما وصى به لقمان ابنه :

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فى الآية الأولى لم يورد « اللام » لتسبق « مِن » ، وفى الآية الثانية أورد « اللام » لتسبق « مِن » ، وليس ذلك من قبيل التفنن فى العبارات ، فقوله : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » دعوة للصبر على مصيبة ليس للإنسان غريم فيها ، كالمرض ، أو موت أحد الأقارب ، وهذه الدعوة للصبر تأتى هنا كعزاء وتسلية ، أما قوله الحق : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لَمِن عزم الأمور » فالدعوة للصبر هنا مع الغفران تقتضى وجود غريم يسبب للإنسان كارثة .

هنا يطلب الله من المؤمن أن يغفر لمن أصابه وأن يصبر . ومادام هناك غريم ؛ فالنفس تكون متعلقة بالانتقام ، وهذا موقف يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى ؛ فليس فى الموقف الأول غريم واضح يُطلب منه الانتقام ، أما وجود غريم فهو يحرك فى النفس شهوة الانتقام ، ولذلك يؤكدها الحق سبحانه وتعالى : إن ذلك لمن عزم الأمور » . ويقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ مَاجَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وعندما يقوم النحاة بإعراب « بشير » فهم يقولون : « إنها فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخرة منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد . إنه التفاف طويل ، ولا يوجد حرف زائد ، فالإنسان يقول : ما عندى مال . وهذا القائل قد يقصد أنه لا يملك إلا القليل من المال لا يعتد به . وعندما يقول الإنسان « ما عندى من مال » فـ « من » هنا تعنى أنه لا يملك أى مالٍ من بداية ما يقال له مال.ولذلك فـ «مِن » هنا ليست زائدة ، ولكنها جاءت تعنى لمعنى . إذن « ما جاءنا من بشير » أى لم يأت لنا بداية من يقال له بشير .

وها هو ذا قول الحق :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة آل عمران)

وقد يحسب البعض أن « ما » هنا حرف زائد ، ولكنا نقول : ما الأصل فى الاشتقاق ؟. إن الأصل الذى نشتق منه هو المصدر . ومرة يأتى المصدر ويراد به الفعل ، كقول القائل : « ضرباً زيدا » أى « اضرب زيدا » . ومجىء المصدر هنا قول مقصود به الفعل ، وكذلك قوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » .

مادام النقض مصدراً فمن الممكن أن يقوم مقام الفعل . ومادام المصدر قد قام مقام الفعل فمن الجائز أن يأتى فعل آخر ، فيصبح معنى القول : فبما نقضوا ميثاقهم لعنّاهم . إذن « ما » تدل هنا على أن المصدر قد جاء نيابة عن فعل . وبقيت « ما » لتدل على أن المصدر من الفعل المحذوف ، أو أن « ما » جاءت استفهامية للتعجيب . . أى فبأى نقض من ألوان وصور نقضهم للعهد لعناهم ؟ وذلك لكثرة ما نقضوا من العهود على صور وألوان شتى من النقض للعهد .

وقوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » . والنقض هو ضد الإبرام ؛ لأن الإبرام هو إحكام الحكم بالأدلة . والنقض هو حل عناصر القضية ، كأن العهد الموثق الذى أخذه الله عليهم قد نقضوه . ونحن نسمى العقيدة الإيمانية عقيدة ، لماذا ؟ ؛ لأنها مأخوذة من عقد الشيء بحيث لا يطفو ليناقش من جديد فى الذهن . كذلك الميثاق إنه عهد مثبت ومؤكد . وعندما ينقضونه فهم يقومون بحله ، أى أنهم أخرجوا أنفسهم عن متطلبات ذلك العقد . وجاء اللعن لأنهم نقضوا الميثاق .

« وجعلنا قلوبهم قاسية » وهم عندما نقضوا المواثيق ، طبع الله على قلوبهم ؛ لأنه لم يطبع على قلوبهم بداية ؛ فقد كفروا أولاً ، وبعد ذلك تركهم الله فى غيهم وضلالهم وطبع على القلوب فَمَا فيها من كفر لا يخرجَ ، والخارج عنها لا يدخل إليها . و« قاسية » تعنى صُلبة . وفيها شدة . والصلابة مذمومة فى القلوب وليست مذمومة فى الدفاع عن الحق ؛ لأننا نقيسٍ كل موجود على مهمته . فعندما يكون كل موجود على مهمته يكون كل الكون جميلا . مثال ذلك ؛ نحن لا نقول عن الخُطاف ذمّاً فيه إنه أعوج . فالخُطّاف لا بد له من العوج ؛ لأن ذلك العوج مناسب لمهمته ، إذن فعوج الخطاف استقامة له . وكذلك القسوة غير مذمومة شريطة أن تكون فى محلها ، أما إن جاءت فى غير محلها فهى مذمومة . إن القلوب القاسية مذمومة ؛ لأن الحق يريد للقلوب أن تكون لينة :

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ بسورة الزمر)

والقسوة مأخوذة من القَسِيِّ وهو الصلب الشديد ، ونعرف أن الدنانير كانت تضرب من الذهب والدراهم تضرب من الفضة . وعندما يفحصها الصيرفى قد يُخرج واحداً منها ويقول : هذا زيف أو زائف لأنه قد سمع رنينها ، أهى صلبة فى الواقع أم لا ؟. وعندما تكون صلبة يقال لها : دراهم قاسية .

إنّ الذهب لين . والفضة لينة . فعندما نقول : إن هذا ذهب عيار أربعة وعشرين أى ذَهَبٌ ليس به نسبة من المواد الأخرى التى تجعله قابلاً للتشكيل ؛ لأنه عندما يكون ذهباً صافياً على إطلاقه فلن يستطيع الصائغ أن يصوغ منه الحلى ! لذلك يخلطه الصائغ بمعدن صُلب ، حتى يعطيه المعدن درجة الصلابة التى تتيح له

تشكيل الحلى منه . وتختلف نسبة الصلابة من عيار إلى عيار فى الذهب وكذلك الفضة . والمصوغات المصنوعة من عيار مرتفع من الذهب ليست عرضة للتداول ، كالسبائك الذهبية .

وإذا ما دخل المعدن الصلب إلى الذهب أو الفضة جعلها قاسية ؛ أى صلبة . الصلابة - إذن - فيما يناسبها محمودة . وفيما لا يناسبها مذمومة كصلابة القلوب وقسوتها .

ويقول الحق : « يحرفون الكلم عن مواضعه » مثل ذلك نقلهم أمر الله الذى طلب منهم أن يقولوا:« حطة » فقالوا:« حنطة » « ونسوا حظاً مما ذكروا به » وكانت وسائل النسخ فى الكتب التى سبقت القرآن هى نسيان حظٍّ مما ذكروا به ، والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكن على بالهم . فلو كانت كتب المنهج على بالهم لظلوا على ذكر منه ، كما أنهم كتموا ما لم ينسوه ، والذى لم ينسوه ولم يكتموه حرّفوه ولووا ألسنتهم به . وياليت الأمر اقتصر على ذلك ، ولكنهم جاءوا بأشياء وأقاويل وقالوا إنها من عند الله وهى ليست من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هى أربعة ألوان من التغيير ، النسيان ، والكتم ، والتحريف ، ودسّ أشياء على أنها من عند الله وهى ليست من عند الله .

ولنا أن نتأمل جمال القول الحكيم : « ونسوا حظاً مما ذكروا به » فهم على قدر كبير من السوء بدرجة أنستهم الشيء الذى يأتى لهم بالحظ الكبير ، مثل نسيانهم البشارات بمحمد عليه الصلاة والسلام وكتمانها ، ولو كانوا قد آمنوا بها ، لكان حظهم كبيراً ؛ ذلك أنهم نسوا أمراً كان يعطيهم جزاء حسناً ، إذن فقد جنوا على أنفسهم ؛ لأن الإسلام لن يستفيد لو كانوا مهتدين أو مؤمنين والخسار عليهم هم ، ولم يدعهم الله ويتركهم على نسيانهم ليكون لهم بذلك حجة ، بل أراد أن يذكرهم بما نسوه . وكان

مقتضى ذلك أن ينصفوا أنفسهم بأن يعودوا إلى الإيمان ؛ لأن الحق ذكرهم بما نسوا ليحققوا لأنفسهم الحظ الجميل . وقد يراد أنهم تركوا ذلك عامدين معرضين عنه مُغْفِلين له عن قصد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أن خيانتهم لك يا رسول الله ولأتباعك ولمنهج الله الحق فى الأرض ستتوالى ، ولا أدل على ذلك مما حدث منهم ضد رسلهم أنفسهم مع أنهم من بنى جلدتهم ومن عشيرتهم ، إنهم من بنى إسرائيل مثلهم ، فما بالك بنبى جاء من جنس آخر ليقتحم عليهم سلطتهم الزمنية ؟

إذن فخيانتهم لله متصورة. و« خائنة » بمعنى « خيانة » مثلها مثل « قائلة » وهى القيلولة أى المسافة الزمنية بعد الظهر ، وفعلها : قال يقيل أى نام وسط النهار أو « خائنة » أى « نفس خائنة » . أو « خائنة » مثل امرأة خائنة ، أو « خائنة » مبالغة كما نقول « راوٍ » و« راوية » ونحن نعنى رجلاً ، أو نقول « جماعة خائنة » .

إذن فالكلمة الواحدة هنا مستوعبة لكل مصادر الخيانة منهم ، رجل أو امرأة أو جماعة أو كل هؤلاء . والذى يتكلم هنا هو رب العالمين ، ويتكلم للعرب وهم أهل فصاحة ، إنه أداء لغوى عال .

ومن فرط دقة القرآن وصدقه يأتى الحق بقوله : « إلاّ قليلاً منهم » طبقا لقانون صيانة الاحتمال . فحين يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين له موقف اليهود منه ، ألا يُحتمل أن يُوجد قوم من اليهود يغلبهم الفهم العميق فيفكروا فى أن يؤمنوا بهذا الرسول ، ويهدئوا من شراسة ظنهم به ؟ وقد فكر بعضهم وأعلن الإسلام .

وهؤلاء القوم عندما يسمعون أحكام الله على اليهود أجمعين ، ألا يقولون : وما لنا

ندخل فى هذه الزمرة ؛ ونفكر فى أن ننطق بالإيمان ؟ فكأن قوله : « إلا قليلا منهم » صان قانون الاحتمال أن يكون إنسان منهم فكر فى الإيمان . ومن فكر فى الإيمان فسوف يجد قوله الحق : « إلا قليلا منهم » وسيرى هذا الإنسان فى نفسه أن القرآن دليل نزل على نور . وقد كان وأعلن قليل منهم إسلامه ، وماذا يكون موقفه صلى الله عليه وسلم بعد أن يخبره الحق : بأنك ستتعرض مستقبلا لخيانتهم ؟ ألا يحرك ذلك نفسية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عليهم ، فإذا فعل اليهود خائنة فلا بد أن ينتقموا منهم ، وتطبيقا للقاعدة الأساسية فى رد العدوان بأن من يعتدى عليك فاعتد عليه .

لم يشأ الله ـ سبحانه ـ أن يترك الموقف لعواطف البشر مع البشر بل قال : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » والعفو هو كما نقول : فلان عفّى على آثارى ، أى أن آثارك تكون واضحة على الأرض وتأتى الريح لتمسحها فتعفى على الأثر . والأمر بالعفو أى امسح الأثر لذنب فعلوه . والخطيئة التى ارتكبوها عليك أن تعتبرها كأنها لم تحدث ، ولكن أيظل أثرها باقيا عند رسول الله ؟ لا ، فالأمر بالصفح يأتى وهناك فرق بين أن تمحو الخطيئة وتبقى أثرها فى نفسك وتظل فى حالة من الغيظ والحقد .

والحق هنا يأمر بالعفو أى إزالة أثرها ويأمر بالصفح أى أن تُخْرِجَ أثر الخطيئة من بالك ؛ لأن الإنسان منا له مراحل ؛ المرحلة الأولى بعد أن يرتكب أحدهم ذنبا فى حقه ، فلا يقابل العدوان بمثله ، وهذا هو العفو ، والمرحلة الثانية : ألا يترك أثر هذا الذنب يعمل فى قلبه بل يأتى الصفح حتى لا ينشغل قلب المؤمن بشىء قد عفا عنه ، والمرحلة الثالثة : فرصة مفتوحة لمن يريد أن يتمادى فى مرتبة الإحسان وترقى اليقين والإيمان بأن يحسن الإنسانُ إلى من أساء إليه . وهذه المراحل الثلاث يوضحها قوله الحق :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وعملية الإحسان مع المسىء أو المعتدى : أهى عملية منطقية مع النفس الإنسانية ؟ قد تكون غير منطقية مع النفس الإنسانية ، ولكنك أيها الإنسان لا تشرع

لنفسك ، إنما الذى يشرع لك هو الأعلى من النفس الإنسانية . والخالق يقول لك : لو علمت ما قدَّمه لك من أساء إليك لأحسنت إليه . لأنك إن أسأت إلى خلق من خلق الله فالذى يثأر ويأخذ الحق لمن أسيء إليه هو رب هذا المخلوق . ويأتى الله فى صف الذى تحمل الإساءة .

إذن فإساءة العدو لك جعلت الله فى صفك وفى جانبك ، ألا يستحق ذلك المسىء أن نشكره ؟ ألا تقول لنفسك القول المأثور : ألا تحسن إلى من جعل الله فى جانبك . إذن هذا هو التشريع : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان هنا خرج بالترقى الإيمانى عن مرحلة :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

والإحسان أن تفعل شيئا فوق ما افترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ؛ والمحسن الذى يدخل فى مقام الإحسان هو من يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو سبحانه وتعالى يرى كل خلقه . ونعرف قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ ﴾

(سورة الذاريات)

ما الذى جاء بالإحسان هنا ؟ وتكون الإجابة :

﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ ﴾

(سورة الذاريات)

وهل يكلف الله خلقه ألا يهجعوا إلا قليلا من الليل ؟ لا . فقد كلف الله المسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه حر بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإن سمع أذان الفجر فليقم إلى صلاة الفجر . لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه فيزيد من صلواته فى الليل . ويضيف الحق مذكرا لنا بصفات المحسنين :

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ ﴾

(سورة الذاريات)

أكلف الله الخلق بأن يستغفروا بالأسحار ؟ لا . بل إن الرسول يجيب على رجل سأله عن الفروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة ، فقال الرجل : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أفلح إن صدق »(١) .

ويضيف الحق فى استكمال صفات المحسنين :

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ونلحظ أن الحق هنا لم يقل : « حق معلوم » إنما قال : « حق للسائل والمحروم » فالحق المعلوم هو الزكاة ، أما المحسن فللسائل والمحروم فى ماله حق غير معلوم ، وذلك ليفسح سبحانه المجال للطموحات الإيمانية ، فمن يزد فى العطاء فله رصيد عند الله . والحق يقول : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » ؛ لأن الإحسان إليهم يهيج فيهم غريزة العرفان بالجميل ، فيستل ذلك الإحسان الحقد من قلوبهم ، ويفتحون آذانهم وقلوبهم لكلمة الحق :

﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

لأن العداوة لا تشتد إلا إذا وُجد مُؤجج لها من عداوة فى المقابل . فعندما تعامل عدوك بالحسنى ولا ترد على عدائه بالعدوان فكم من الزمن يصير عدواً لك ؟ إنه اعتدى مرة وسَكَتَّ أنت عليه ، واعتدى ثانية وسكت أنت عليه . لا بد أنه يهدِّىء من نفسه .

إذن فالعداوة لا تتأجج إلا إذا قابلتها عداوة أخرى . ولذلك نرى ما حدث فى المعركة التى قامت بين فرعون وسيدنا موسى عليه السلام حين أراد الله أن يجعل العداوة لا من جهة واحدة ولكن من جهتين اثنتين لتكون معركة حامية ؛ لأن العداوة لو كانت من جهة واحدة لهدأ الطرف المعتدى :

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان .

فهل هم التقطوه ليكون عدواً ؟ لا . لقد التقطوه ليكون قرة عين . ولكن قدر الله سبق . كان الأمل فى أن يصير موسى قرة عين آل فرعون ، ولكن الله أراد أن يقوموا بتربيته ، ثم يصير من بعد ذلك عدواً لهم . وهكذا يتضح لنا أن تدبير السماء فوق تدبير الأرض . وموسى السامرى مثلاً ربته السماء بواسطة جبريل ، وولدته أمه منقطعا فى الصحراء ، فكان جبريل ينزل عليه بما يطعمه إلى أن كبر ، وموسى ابن عمران ذهب إلى فرعون ليربيه ، لكن موسى السامرى ـ الذى رباه جبريل ـ صار كافراً ، وموسى بن عمران الذى رباه فرعون أصبح رسولاً إلى بنى إسرائيل . وكلا القدرين أرادهما الله ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا لم تصادف فى بريق عناية
فقد كذب الراجى وخاب المؤمل
فموسى الذى رباه جبريل كافر
وموسى الذى رباه فرعون مرسل

كأن آل فرعون قد قاموا بتربية موسى بن عمران ليكون عدواً لهم لا قرة عين . والعداوة تكون من جهة موسى لفرعون ، وتجىء العداوة من فرعون لموسى ، فيقول الحق :

﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

هكذا صارت العداوة من طرفين . والحق سبحانه وتعالى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن الخيانات التى تحدث منهم ، لعل الوعى الإيمانى يستقيظ فيهم ، ويقولون : لم يعاملنا بمثل ما عاملناه به ، ويعترفون به نبياً رحيماً رءوفاً كريماً ، ولا يقفون فى وجه دعوته . لكن أيظل العفو والصفح هما كل التعليمات الصادرة من الحق إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ لا . فقد مر الأمر الإلهى بمرحليات متعددة ؛ فالرسول يستقطب النفس الإنسانية بأن يستعبدها بالإحسان ، فإن لم يستعبدها الإحسان فلا بد أن يشمر النبى عن الساعد ويفعل ما يأمره به الله ، ولنقرأ قوله الحق :

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ

﴿بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

إذن فهناك أمر خفى هو :

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه قد أمر بأن يتركهم الرسول مع الصفح والعفو لمرحلة قادمة يأتى فيها الأمر بتأديبهم . وهذه عملية إنسانية فطرية عرفها العربى الجاهلى وخَبَرها قبل أن يأتى الإسلام ؛ فقد كان العربى يحسن إلى عدوه مرة وثانية وثالثة ، وعندما يجد أن الإحسان لم يثمر ثمرته ؛ يقاتل العدو ، وكما قال الشاعر :

أناة فإن لم تغن قدم بعدها
وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه
إذا لم يسع بالحلم ما أنت عازمه

وقال الشاعر :

صفحنا عن بنى ذهل — وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعـ — ـن قوماً كالذى كانوا
فلما صَرَّحَ الشر — وأضحى وهو عريان
مشينا مشية الليث — غَدَا والليث غضبان
بضرب فيه تأييم — وتفجيع وإرنان
وطعن كفم الزق — غَدَا والزق ملآن
وفى الشر نجاة حيـ — ـن لا ينجيك إحسان
وبعض الحلم عند الجهـ — ـل للذلة إذعان

ومثل ما جرى للنبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود ، حدث مع النصارى وأورد الحق سبحانه وتعالى هذا فقال :

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ ﴾

لقد قالوا إنهم نصارى . وأخذ الحق الميثاق منهم ، إما ميثاق الذر وإما ميثاقهم لنبيهم عيسى ابن مريم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به وتركوا ما أمرهم به الإنجيل ونقضوا الميثاق ، فتفرقوا فى عداء ملحوظ فِرَقاً شتى ، وجاء أمر الله كما وعد :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ ﴾

كأن الحق سبحانه وتعالى يعطيهم الفرصة والعذر حتى لا يقولن واحد منهم : لم يبلغنى عن رسولى شىء . وهناك فترة لم يأت فيها رسول . وها هوذا رسول من الله يأتى حاملاً لمنهج متكامل . ومجىء الرسول يمنحهم ويعطيهم فرصة لتجديد ميثاق الإيمان . وهم قد أخفوا من كتبهم بعض الأحكام . مثل الرجم والربا ، وقال بعض من بنى إسرائيل فى الربا ما ذكره القرآن عنهم :

﴿ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة آل عمران)

أى أنهم أقروا الإقراض بالربا لمن هم على غير دينهم ، ولكن لا ربا فى تعاملهم

مع أبناء دينهم . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلم الشمل وأن يجمع أيديهم مع يده ؛ لأنه نبى انتظروه ولهم فى كتبهم البشارة به . وأن يقف الجمع المؤمن أمام موجة الإلحاد فى الأرض حتى يسيطر نظام السماء على حركة الأرض ، لذلك قال الحق : « قد جاءكم من الله نور » . ومعنى ذلك أن كتمانهم لبعض منهج الله قد صنع ظلمة فى الكون . ومادامت قد حدثت ظلمانية فى الكون ، وخاصة ظلمانية القيم ، إذن فالكون صار فى حاجة إلى من ينير له الطريق . ونعرف أن النور هو ما نتبين به الأشياء .

وحين يعرض الحق لنا قضية النور الحسى يريد أن يأخذ بيدنا من النور الحسى إلى النور المعنوى ؛ فالنور الحسى يبدد ظلام الطريق حتى لا نصطدم بالأشياء أو نقع فى هوة أو نكسر شيئاً ، لكن عندما يحمل الإنسان نوراً فهو يمشى على بينة من أمره . والنور الحسى يمنع من تصادم الحركات فى المخلوقات ، حتى لا تبدد الطاقة ، فتبديد الطاقة يرهق الكون ولا يتم إنجاز ما .

إن الشمس فى أثناء النهار تضىء الكون ، ثم يأتى القمر من بعد الشمس ليلقى بعضاً من الضوء ، وكذلك النجوم بمواقعها تهدى الناس فى ظلمات البر والبحر . وجعل الله هذه الكائنات من أجل ألا تتصادم الحركة المادية للموجودات ، فإذا كان الله قد صنع نوراً مادياً حتى لا يصطدم مخلوق بمخلوق ، فهو القادر على ألا يترك القيم والمعانى والموازين بدون نور ، لذلك خلق الحق نور القيم ليهدى الإنسان سواء السبيل ، فإذا كان الكافر أو الملحد يتساوى مع المؤمن فى الاستفادة بالنور المادى لحماية الحركة المادية فى الأرض ، ولم نجد أحداً يقول:أنا فى غير حاجة للانتفاع بالنور المادى ، ونقول للكافرين والملاحدة : مادمتم قد انتفعتم بهذا النور فكان يجب أن تقولوا : إن لله نوراً فى القيم يجب أن نتبعه . ويلخص المنهج هذا النور بـ « افعل ولا تفعل » .

فالمنهج ـ إذن ـ نور من الله . ولنقرأ :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يأخذ بيدنا فى الطريق بالنور المادى الذى يستفيد منه الكل ، سواء من كان

مؤمنا أو غير ذلك ، ويضرب سبحانه لنا مثل النور .

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والمشكاة هى الطاقة التى توجد فى الجدار وهى غير النافذة ، إنّها كوة فى الجدار يوضع فيها المصباح الزيتى أو « الكيروسينى » وتوجد فى المبانى البدائية قبل أن يخترع الإنسان المصابيح الكهربية والثريات . ولا تتجاوز مساحة الكوة ثلاثين سنتيمترا ، وطولها أربعون سنتيمتراً ولا يزيد عمقها على خمسة عشر سنتيمتراً ؛ أما الحجرة فمساحتها تزيد أحياناً على ثلاثة أمتار فى الطول والعرض والارتفاع .

ويتحدث الحق عن الكوة فقط ولا يتحدث عن الحجرة . وأى مصباح فى الكوة قادر على إنارة الحجرة . ولنتنبه إلى أن هذا المصباح غير عادى ، فهو مصباح فى زجاجة . ونعرف أن المصباح الذى فى زجاجة هو من الارتقاءات الفكرية للبشر . فالمصابيح قديماً كانت بدون زجاجة وكان يخرج منها ألسنة من السَّناج « الهباب » الذى يُسوّد ما حولها ، فالسِّناج أثر دخان السراج فى الحائط وغيره . وقد ينطفىء المصباح لأن الهواء يهب من كل ناحية ، ثم وضع الإنسان حول شعلة المصباح زجاجة تحمى النار وتركز النور وتعكس الأشعة ويأخذ المصباح من الهواء من خلال الزجاجة على قدر احتياج الاشتعال .

﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

أى أن النور من هذا المصباح أشد قوة ؛ لأن الزجاجة تعكس أشعة المصباح وتنشر الضوء فى كل المكان . والزجاجة التى يوجد فيها هذا المصباح ليست عادية :

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والكوكب نفسه مضىء ، وتكون الزجاجة كأنها هذا الكوكب الدرى فى ضيائه ولمعانه . والمصباح يوقد من ماذا ؟ .

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

وهذا ارتقاء فى إضاءة المصباح من زيت شجرة زيتون ، والشجرة غير عادية :

﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

فهى شجرة يتوافر لها أدق أنواع الاعتدال :

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

ذلك هو من قدرة الله فى نور الكونيات المادية ، ولذلك فليس من المعقول أن يترك القيم والمعنويات بدون نور . فكما اهتدى الإنسان فى الماديات فينبغى أن يفطن إلى قدرة الحق فى هداية المعنويات ، بدليل أن الله قال :

﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

يهدى الله بنور القيم والمنهج والمعانى من يريد . وقد يهتدى الملحد بنور الشمس المادى إلى الماديات ولكن بصره أعمى عن رؤية نور المنهج والقيم ؛ لذلك يوضح سبحانه أن هناك نوراً إلهياً هو المنهج . وضرب هذا المثل ليوضح المعانى الغيبية المعنوية بالمعانى الحسية . ونحن على مقاديرنا نستضىء ، فالفقير أو البدائى يستضىء بمصباح غازى صغير ، والذى فى سعة من العيش قد يشترى مولداً كهربياً . وكل إنسان يستضىء بحسب قدرته . ولكن عندما تشرق الشمس فى الصباح ما الذى يحدث ؟ .

يطفىء الإنسان تلك المصابيح ، فالشمس هى نور أهداه الله لكل بنى الإنسان ، ولكل الكون . كذلك إذا فكرنا بعقولنا فيما ينير حياتنا فكل منا يفكر بقدرة عقله . ولكن إذا ما نزل من عند الله نور فهو يغنى عن كل نور آخر . وكما نفعل فى الماديات نفعل فى المعنويات :

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والذى يدلنا على أن النور الثانى هو نور القيم الذى يكشف لنا بضوء « افعل ولا تفعل » أن الله قال بعد ذلك :

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النور)

ولو بحثت عن متعلق الجار والمجرور لم تجده إلا فى قوله : (فى بيوت أذن الله أن ترفع) كأن النور على النور يأتى من مطالع الهدى فى مساجده . فهى بيوت لله نقبل عليها ليفيض منها نور الحق على الخلق .

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(سورة النور)

وكلمة « لا تلهيهم تجارة » لا تعنى تحريم التجارة ، فالإنسان الصادق لا تلهيه التجارة عن ذكر الله . وليكن الله على بال المؤمن دائما ، فعندما يكون الإنسان على ذكر لله فالله يعطيه من مدده .

إذن يا أهل الكتاب قد جاءكم النور ، وبين لكم الرسول كثيراً مما تختلفون فيه . وتسامح عن كثير من خطاياكم ، ويريد أن يجرى معكم تصفية شاملة . فعليكم أن تلتفتوا وتنتبهوا وتُعَدِّلوا من موقفكم من هذا الدين الجديد . ولتبحثوا ماذا يريد الله بهذا المنهج . والله قد ضرب المثل بالنور ، وهذا النور يهدى إلى « افعل ولا تفعل » . ومن الذى يقول لنا إن هذا النور قادم من الله ؟ إنه الرسول ، ومن الذى يدلنا على أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله ؟ الذى يدل على صدقه هو قول الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالذى جاء أولا من ربكم هو البرهان على أن رسول الله صادق فى البلاغ عن

الله ، وليبلغنا أن الكتاب قد جاء بالمنهج . والقرآن يتميز بأنه البرهان على صدق النبى وهو المنهج النورانى ؛ لأن البرهان هو الحجة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله .

ونعرف البرهان فى حياتنا التعليمية أثناء دراسة مادة الهندسة عندما نقابل تمرينا هندسيا فنأخذ المعطيات وبعد ذلك ننظر إلى المطلوب إثباته . ونعيد النظر فى المعطيات لنأخذ منها قوة للبرهنة على إثبات المطلوب . وإن كانت المعطيات لا تعطى ذلك فإننا نتجه إلى خطوة أخرى هى العمل على إثبات المطلوب . وهذا الكون فيه معطيات ، وهو كون محكم ، ونلمس إحكامه فيما لا دخل لحركتنا فيه :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

كون موزون بالسماء والأرض وحركة الرياح وغير ذلك ، وتلك الأمور التى لا دخل للإنسان فيها نجد القوانين فيها مستقيمة تمام الاستقامة وكمالها . فإن أراد الإنسان أن يأخذ المعطيات من الكون ، فليأخذ فى اعتباره النظر إلى الأمور التى للإنسان دخل فيها ولسوف يجدها تتعرض للفساد ؛ لأن الهوى فى البشر له مدخل على هذه الأشياء . لكن الخالق الأعلى لا تطوله ولا تتناوله أمور الهوى . ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فلا السماء تنطبق على الأرض ، ولا كوكب يزاحم كوكبا آخر . ويبين لنا الحق كيفية السير بنظام الكون :

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تكون حركتكم منتظمة فانظروا إلى ما لأيديكم دخل فيه واصنعوه كصنع الله فيما ليس لأيديكم مدخل فيه .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن كنتم معجبين باتزان الكون الأعلى فذلك لأنه مصنوع بنظام دقيق . وإذا كان الحق قد وضع لنا نظاما دقيقا هو المنهج بـ « افعل كذا ولا تفعل كذا » فذلك حتى لا تفسد حركتك الاختيارية إن اتبعت المنهج ، وتصرفت فى حياتك بمنهج الله ويكون الميزان معتدلاً . إذن فقد أعطانا الحق معطيات عندما ينظر الإنسان فيها نظرا فطريا بدون هوى فإنها تأخذ بيده إلى الإيمان . وهذه الكائنات الموزونة لا بد لها من خالق ؛ لأن الإنسان طرأ عليها ولم تأت هى من بعد خلق الإنسان . ولا أحد من البشر يدعى أنه صنع هذا الكون .

إذن لا بد من البحث عمن صنع هذا الكون الدقيق ، والدعوى حين تسلم من الضعف ، أتكون صادقة أم غير صادقة ؟ تكون صادقة تماما . والله هو الذى قال إنه خلق السماء والأرض والكون . ولم يأت مدع آخر يقول لنا : إنه الذى خلق . إذن يثبت الأمر لله إلى أن يوجد مدعٍ ، ومع توالِى الأزمنة وتطاولها لم يدع ذلك أحد .

وكان لا بد أن تكون مهمة العقل البشرى أن يفكر ويقدح الذهن ليتعرف على صانع هذا الكون ، وكان لا بد أن يتوجه بالشكر لمن جاء ليحل له هذا اللغز .

وقد جاءت الرسل لتحل هذا اللغز ولتدلنا على مطلوب عقلى فطرى ، ولو أننا سلسلنا الوجود لوجدنا أن الإنسان هو سيد هذا الوجود ؛ لأن كل الكائنات تعمل وتجهد فى خدمته . وأجناس الوجود كما نعرفها التى تخدم الإنسان هى الحيوان ويتميز عنه الإنسان بالعقل ، وهناك جنس تحت الحيوان هو النبات فيه النمو ، وهناك جنس أدنى وهو الجماد . وكل هذه الأجناس مهمتها خدمة الإنسان . والجماد ليس هو الشىء الجامد ، بل الهواء جماد والشمس جماد والتربة جماد ، وكل ذلك يمارس مهمته فى الوجود لخدمة الأجناس الأعلى منها ويستفيد الإنسان منها جميعا والحيوان يستفيد من الجماد وكذلك النبات يستفيد من الجماد ، والحيوان يستفيد من النبات والجماد ، والمحصلة النهائية لخدمة الإنسان .

أليس من اللائق والواجب ـ إذن ـ أن يسأل الإنسان نفسه من الذى وهبه هذه المكانة ؟ فإذا جاء الرسول ليحل هذا اللغز ويبلغنا أن الذى خلق الكون هو الله وهذه صفاته ، ويبلغنا أن هذا المنهج جاء من الله ويحمل معه معجزةً هى دليل صدقٍ

البلاغ عن الله ، وهى معجزة لا يقدر عليها البشر ، ويتحدى الرسول البشر أن يأتوا بمثل معجزته . إذن فلا بد أن يؤمن كل البشر لو صَدَقُوا الفهم وأخلصوا النية .

ما هو البرهان إذن ؟ البرهان هو المعجزة الدالة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله . هذا البلاغ عن الله الذى بحث عنه العقل الفطرى وآمن أنه لا بد أن يكون موجودا ، لكنه لم يتعرف على أنه « الله » . إن الرسول هو الذى يبلغنا عن اسم الخالق ، وهو الذى يقدم لنا المنهج .

إذن فمجىء الرسل أمر منطقى تحتمه الفطرة ويحتمه العقل . ولذلك أنزل الحق النور العقدى ، أنزل ـ سبحانه ـ المنهج ليحمى المجتمع من الاضطراب ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فالدين جاء من الله ليتدخل فى الأمور التى تختلف فيها الأهواء ، فحسم الله النزاع بين الأهواء بأن انفرد سبحانه أن يشرع لنا تشريعا تلتقى فيه أهواؤنا ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »[١] .

أى أن تتحد الأهواء تحت مظلة تشريع واحد ؛ لأن كل إنسان إن انفرد بهواه ، لا بد أن نصطدم ، ولا نزال نكرر ونقول : إن خلافات البشر سواء أكانت على مستوى الأسرة أم الجماعة أم الأمة أم العالم ، جاءت من اختلاف الأهواء ، ولكن الأشياء التى لا دخل للأهواء فيها فالعالم متفق فيها تماما ، بدليل أننا قلنا : إن المعسكر الشرقى السابق والمعسكر الغربى الحالى اختلفا بسياستين نظريتين ، هذا يقول : « شيوعية » ؛ وهذا يقول : « رأس مالية » .

إنه لا يوجد معمل مادى كى ندخل فيه الشيوعية أو الرأسمالية ونرى ما ينفعنا . إنَّها أهواء ، لذلك تصادما فى أكثر من موقع ، وانهزمت الشيوعية وبقيت آثارها تدل

(١) أخرجه الديلمى .

عليها . لكن الأمور المادية المعملية . لم يختلفوا فيها . ونقول الكلمة المشهورة : « لا توجد كهرباء روسى ولا كهرباء أمريكانى » . « ولا توجد كيمياء روسى ولا كيمياء أمريكانى » ؛ فكل الأمور الخاضعة للتجربة والمعمل فيها اتفاق ، والخلاف فقط فيا تختلف وتصطدم فيه الأهواء .

فكأن الله ترك لنا ما فى الأرض لنتفاعل معه بعقولنا المخلوقة له ، وطاقاتنا وجوارحنا المخلوقة له ، ويوضح : إن التجربة المعملية المادية لن تفرقكم بل ستجتمعون عليها . وسيحاول كل فريق منكم أن يأخذ ما انتهى إليه الفريق الآخر من التجارب المادية ولو تلصصها ، ولو سرقها ، أما الذى يضركم ويضر مجتمعكم فهو الاختلاف فى الأهواء . وليت الأمر اقتصر على الاتفاق فى الماديات والاختلاف فى الأهواء ، لا ، بل جعلوا مما اتفقوا عليه من التجارب المادية والاختراعات والابتكارات وسيلة قهرية لفرض النظرية التى خضعت لأهوائهم . فكأننا أفسدنا المسألة . . أخذنا ما اتفقنا فيه لنفرض ما اختلفنا عليه .

إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا كل هذه المسائل كى تستقيم الحياة ، ولا تستقيم الحياة إلا إن كان الحق سبحانه وتعالى هو الذى يحسم فى مسائل الهوى ، ولذلك حتى فى الريف يقولون : « من يقطع إصبعه الشرع لن يسيل منه دم » ؛ لأن الذى يقول ذلك مؤمن ، أى أن الحكم حين يأتى من أعلى فلا غضاضة فى أن نكون محكومين بمن خلقنا وخلق لنا الكون ، وتدخلت السماء فى مسألة الأهواء بالمنهج : افعل هذا ولا تفعل هذا ، لكن ما ليس فيه أهواء أوضح سبحانه : أنتم ستتفقون فيها غصبا عنكم ، بل ستسرقونها من بعضكم ، إذن فلا خطر منها .

إن الخطر فى أهوائكم . ولذلك اذكروا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمهات المسائل التى يترتب عليها حسن نظام المجتمع كما يريده الله كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتحمل هو التجربة فى نفسه ، ولا يجعل واحداً من المؤمنين به يتحمل التجربة ، فمسألة التبنى حين أراد ربنا أن ينهيها حتى لا يدعى واحد آخر أنه ابنه وهو ليس أباه ، أنهاها الله فى رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

وفى مسألة الماديات والأهواء يقول أنس بن مالك رضى الله عنه: إن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » قال : فخرج شيصا ، فمر عليهم فقال : « ما لنخلكم » قالوا : قلت كذا وكذا قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1] . إنه - صلى الله عليه وسلم - تركهم لتجربتهم .

السماء - إذن - لا تتدخل فى المسائل التجريبية ؛ لأنه سبحانه وهب العقل ووهب المادة ووهب التجربة ، ورأينا رسول الله يتراجع عما اجتهد فيه بعد أن رأى غيره خيرا منه كى يثبت قضية هامة هى أن المسائل المادية المعملية الخاضعة للتجربة ليس للدين شأن بها فلا ندخلها فى شئوننا ، فلا نقول مثلاً : الأرض ليست كروية ، أو أن الأرض لا تدور . فما لهذا بهذا ؛ لأن الدين ليس له شأن بها أبداً ، وهذه مسائل خاضعة للتجربة وللمعمل وللبرهان وللنظرية ، بل دخل الدين ليحمينا من اختلاف أهوائنا ؛ فالأمر الذى نختلف فيه يقول فيه : افعل كذا ولا تفعل كذا بحسم ، والأمر الذى لم يتدخل فيه بـ« افعل ولا تفعل » أوضح لك : سواء فعلته أم لم تفعله لا يترتب عليه فساد فى الكون ، وخذوا راحتكم فيما لم يرد فيه « افعل ولا تفعل »، وأريحوا أنفسكم واختلفوا فيه ؛ لأن الخلاف البشرى مسألة فى الفطرة والجبلّة والخلقة .

وهنا يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » و« النور » أهو الكتاب أم غيره ؟. وفى آية أخرى يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهذا القول يدل على أن النور هنا هو « القرآن » وجمع بين أمرين ؛ برهان . . أى معجزة ، ونور ينير لنا سبيلنا .

« فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا » والإيمان بالله مسألة تطبيقية مرحلية . « الله » هو قمة الإيمان و« رسوله » هو المبلغ عن الله ؛ لأنه جاء لنا بالنور . إلا أن أهل الشطح يقولون : النور مقصود به النبىّ صلى الله عليه وسلم، ونقول: نحن لا نمانع

(١) رواه مسلم وأحمد وابن ماجه .

أنه نور ، وإن كان النص يحتمل أن يكون عطف تفسير ، وحتى لا ندخل فى متاهة مع بعض من يقولون : لا ليس الرسول نوراً ؛ لأنه مأخوذ من المادة وسنجد من يرد عليهم بحديث جابر : ما أول ما خلق الله يا رسول الله ؟ قال له : نور نبيك يا جابر .

فعن جابر بن عبدالله قال : قلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى أخبرنى عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء . قال : « يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيّك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن فى ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنّة ولا نار ولا مَلَك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنى ولا إنسى »[1] .

وحتى لا ندخل فى مسألة غيبية لا تستوى الأذهان فى استقبالها ونفتن بعضنا . ويقول فلان كذا ويقول علان كذا . هنا نقول:من تجلى له أن رسول الله نور ، نور ، نور ، فليعرفها هو ويلزمها . وليس من المفروض أن يقنع بها أحداً كى لا ندخل فى متاهة ، وعندما يتعرض أحد لحديث جابر ـ رضى الله عنه ـ نسأل : أهو قال : أول خلق الله نبيك يا جابر أم نور نبيك يا جابر ؟ . قال الحديث : نور نبيك ولم يقل النبى نفسه الذى هو من لحم ودم ، فمحمد صلى الله عليه وسلم من آدم وآدم من تراب ؛ لذلك ليس علينا أن نتناول المسائل التى لا يصل إليها إلا أهل الرياضات المتفوقة ، حتى لا تكون فتنة ؛ لأن من يقول لك : أنت تقول:النور هو رسول الله ، ونقول : على العين والرأس ، فرسول الله نور ولاشك ؛ لأن النور يعنى ألا نصطدم ، وجاء محمد صلى الله عيه وسلم بالمنهج كى ينير لنا الطريق ، والقرآن منهج نظامى ، والرسول منهج تطبيقى ، فإن أخذت النور كى لا نصطدم ، فالحق يقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

إذن فسنأخذ بالمنهج النظرى الذى هو القرآن ، ونأخذ بالمنهج التطبيقى .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » و« مبين » أى محيط بكل أمر وكل شيء مصداقاً لقوله الحق :

(١) رواه عبدالرزاق بسنده عن جابر وذكر فى كتاب كشف الخفا .

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

أى مما تختلف فيه أهواؤكم ، وسُئل الإمام محمد عبده ، وهو فى باريس : أنتم تقولون « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فكم رغيفاً فى أردب الدقيق ؟. فقال : انتظروا : واستدعى خبازاً وسأله : كم رغيفا فى أردب القمح ؟. فقال له : كذا رغيف . فقالوا له : أنت تقول إنه فى الكتاب . فقال لهم : الكتاب هو الذى قال لى :

﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النحل)

إن قوله:« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » أى مما تختلف فيه الأهواء أو تفسد فيه حركة الحياة فى الأرض . فربنا هو ـ سبحانه ـ جعل أناساً تتخصص فى الموضوعات المختلفة .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يعنى : يا أهل الكتاب انتبهوا إلى أن هذه فرصتكم لنصفى مسألة العقيدة فى الأرض وننهى الخلاف الذى بين الدينين السابقين ونرجع إلى دين عام للناس جميعاً ، ولا تبقى فى الأرض هذه العصبية حتى تتساند الحركات الإنسانية ولا تتعاند ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

انظر كيف يجمع الإسلام بين أمرين متناقضين : فلم يجىء الإسلام كى يطبع الإنسان ليكون شديداً ؛ لأن هناك مواقف شتى تتطلب الرحمة ، ولم يطبعه على الرحمة المطلقة لأن هناك مواقف تتطلب الشدة ، فلم يطبع الإنسان فى قالب ، ولكنه جعل المؤمن ينفعل للحدث .

ويقول الحق :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

أى لا تقل إنّه طبع المؤمن على أن يكون ذليلاً ولا طبعه ليكون عزيزاً ، بل طبعه ليكيّف نفسه التكييف الذى يتطلبه المقام ، فيكون مرة ذليلاً للمؤمن وعزيزاً على الكافر . وقال الإسلام لنا :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

أى لا بد أن تعرف الطرفين أولاً ، ثم تحدد ، لأن الوسط لا يعرف إلا بتحديد الطرفين ؛ فاليهودية بالغت فى المادية ، والنصرانية بالغت فى الروحانية والرهبانية :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الحديد)

وعندما سئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث قال : « أنا لم أبعث مورثاً » ؛ لأنه جاء ليجدد الشحنة للطاقة الدينية ، وبرغم الخلاف العميق بين اليهودية والنصرانية جاء أهل الفكر عندهم ليضعوا العهد القديم والعهد الجديد فى كتاب واحد ، ومع ذلك فقد جاء من اعتبر الإسلام خصماً عنيفاً عليهم على رغم أن الإسلام ليس خصماً إنما جاء ليمنح الناس حرية الاختيار ، وعندما ننظر إلى المنهج المادى والمنهج الروحانى نجد أن اليهود أسرفوا فى المادية وقالوا :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

لقد أسرفوا فى المادية لدرجة أن المسألة المتعلقة بقُوتِهم حينما كانوا فى التيه وأنزل ربنا عليهم المن والسلوى ، و« المن » كما نعرف طعام مثل كرات بيضاء ينزل من السماء على شجَر أو حجر ينعقد ويجف جفاف الصمغ وهو حلو يؤكل وطعمه يقرب من عسل النحل ، وجاء لهم الحق بالسلوى وهو طائر يشبه الدجاج وهو السُّمانى فقالوا :

﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إننا نريد مما تخرجه الأرض من بقلها ، والذى دعاهم إلى غلوهم فى الأمر المادى أنهم قالوا : قد لا يأتى المن ، وقد لا نستطيع صَيْد الطير ، نحن نريد أن نضمن

الطعام . إذن فالغيبيات بعيدة عنهم فهم قد أسرفوا فى هذه المادية وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعدل هذا النظام المادى المتطرف فأنزل منهجية روحانية متمثلة فى منهج عيسى عليه السلام ، وشحنهم بمواجيد دينية ليس فيها حكم مادى ، كى تلتحم هذه بتلك ويصير المنهج مستقيماً ، لكن الخلاف دب بينهم ، فكان ولا بد أن يأتى دين جديد يجمع المادية المتعقلة الرزينة المتأنية ، والروحانية المقسطة التى لا تفريط فيها ولا إفراط ، إنها الروحانية المتلقاة من السماء دون ابتداع دين يأتى بالاثنتين فى صلب دين واحد . فقال لنا :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وهذه كلها قيم تعبدية . فيكون هؤلاء ماديين وروحانيين فى آن واحد . ويتابع الحق :

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

كأن الله ضرب فى التوراة مثلاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم : يا من أسرفتم فى المادية سيأتى رسول ليعدل ميزان العقائد والتشريع ، فتكون أمته مخالفة لكم تماماً . فأنتم ماديون وقوم محمد ركع سجد ، يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . أى : مافقدتموه أنتم فى منهجكم سيوجد فى أمة محمد . ويقول الحق :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فمثلهم فى التوراة ما فُقد عند اليهود ؛ ومثلهم فى الإنجيل ما فُقد عند النصارى . إذن فدين محمد صلى الله عليه وسلم جمع بين القيم المادية والقيم الروحية فكان ديناً وسطاً بين الاثنين . فقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » أى

انتهزوا الفرصة لتصححوا أخطاءكم ولتستأنفوا حياة صافية تربطكم بالسماء رباطاً يجمع بين دين قيمى يتطلب حركة الدنيا ويتطلب حركة الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾

ومادام الله هو الذى يهدى فسبحانه منزه عن الأهواء المتعلقة بهم ، وهكذا نضمن أن الإسلام ليس له هوى . لأن آفة من يشرع أن يذكر نفسه أو ما يحب فى ما يشرع ، فالمشرع يُشترط فيه ألا ينتفع بما يشرع ، ولا يوجد هذا الوصف إلا فى الله لأنه يشرع للجميع وهو فوق الجميع .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه » إنَّ من اتبع رضوانه يهديه الله لسبل السلام ، إذن ففيه رضوان متبع ، وفيه سبل سلام كمكافأة . وهل السلام طرق وسبل ؟. نعم ؛ لأن هناك سلام نفس مع نفسها ، وهناك سلام نفس مع أسرتها ، هناك سلام نفس مع جماعتها ، هناك سلام نفس مع أمتها وهناك سلام نفس مع العالم ، وسلام نفس مع الكون كله ، وهناك سلام نفس مع الله ، كل هذا يجمع السلام . إذن فسُبل السلام متعددة ، والسلام مع الله بأن تنزه ربك أيها العبد فلا تعبد معه إلهاً آخر ، ولا تلصق به أحدا آخر . . أى لا تشرك به شيئا ، أو لا تقل : لا يوجد إله .

ولذلك نجد الإسلام جاء بالوسط حتى فى العقيدة ؛ جاء بين ناس تقول : لا يوجد إله ، وهذا نفى ؛ وناس تقول : آلهة متعددة ؛ الشرُّ له إله ، والخير له إله ،

والظلمة لها إله ، والنور له إله ، والهواء له إله ، والأرض لها إله !!

إن الذين قالوا بالآلهة المتعددة : استندوا على الحس المادى ونسى كل منهم أن الإنسان مكون من مادة وروح ، وحين تخرج الروح يصبح الجثمان رمّة ؛ ولم يسأل أحدهم : نفسه ويقول : أين روحك التى تدير نفسك وجسمك كله هل تراها ؟، وأين هى ؟. أهى فى أنفك أم فى أذنك أم فى بطنك أين هى ؟، وما شكلها ؟. وما لونها ؟. وما طعمها ؟. أنت لم تدركها وهى موجودة . إذن فمخلوق لله فيك لا تدركه فهل فى إمكانك أن تدرك خالقه ؟. إن هذا هو الضلال . فلو أُدْرِك إلهٌ لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً قدرت على تحديده ببصرك ، ومادام قد قدرت على تحديده يكون بصرك قد قدر عليه ، ولا ينقلب القادر الأعلى مقدوراً للأدنى أبداً .

وحينما أراد الله أن يدلل على هذه الحكاية قال :

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

(سورة الذاريات)

انظر فى نفسك تجد روحك التى تدير جسدك لا تراها ولا تسمعها ومع ذلك فهى موجودة فيك ، فإن تخلت عنك صرت رمة وجيفة، فمخلوق لله فيك لا تقدر أن تدركه ، أبعد ذلك تريد أن تردك مَنْ خَلَقَ ؟ إن هذا كلام ليس له طعم ! والاتجاه الآخر يقول بآلهة متعددة ؛ لأن هذا الكون واسع ، وكل شىء فيه يحتاج إلى إله بمفرده ، فيأتى الإسلام بالأمر الحق ويقول : هناك إله واحد ؛ لأنه إن كان هناك آلهة متعددة كما تقولون ، فيكون هناك مثلا . إله للشمس وإله للسماء وإله للأرض وإله للماء وإله للهواء ، حينئذ يكون كل إله من هذه الآلهة عاجزا عن أن يدير ويقوم على أمر آخر غير ما هو إله وقائم عليه ولنشأ بينهم خلاف وشقاق يوضح ذلك قوله تعالى :

﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

فإله الشمس قد يفصلها عن الكون ، وإله الماء قد يمنعه عن بقية الكائنات ، ويحسم الحق الأمر فيقول :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

إذن فالنواميس التى تراها أيضاً محكومة بالإله الواحد ، ويأتى الرسول ليقول لك : هناك إله واحد ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا إله إلا الله ، و« لا إله » نفت أنه لا آلهة أبداً . وبعدها قال : إلا الله ، وهذه من مصلحة الإنسان حتى لا يكون ذليلاً وخاضعاً وعبداً لإله الشمس أو لإله الهواء أو لإله الماء . وقال الحق :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فربنا يريد أن يريحنا من « الخيْلة » ، والوهم والاضطراب والتردد . . إنه إله واحد ، وعندما يحكم الله حكماً فلا أحد يناقضه ، وسبحانه يهدينا بما يشرعه لنا ؛ لأنه سبحانه ليس له هوى فيما يشرع ؛ لأن معنى الهوى أن تجعل الحركة التى تريدها خادمة لك فى شىء ، والله لا يحتاج إلى أحد لأنه خلق الوجود كله قبل أن يخلق الخلق ، وليس لأحد ممن خلق ـ مهما أوتى من العلم ورجاحة العقل أن تكون له قدرة أو أى دخل فى عملية الخلق أو تنظيمه .

« يهدى به الله من اتبع رضوانه » ، مادام قد اتبع رضوانه فيهديه إلى سبل السلام ، إذن فإن هناك هدايتين اثنتين : يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، وقال فى آية أخرى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

فإياك أن تظن أن التقوى لن تنال ثوابها وجزاءها إلا فى الآخرة ؛ لأنه كلما فعلت أمراً وتلتفت وجدت آثاره فى نفسك ، تصلى تجد أمورك خَفَّت عن نفسك ، فلا ترتكب السيئة فى غفلة من الناس ، قلبك لا يكون مشغولاً بأى شىء ، ويحيا

المؤمن فى سلام مع نفسه أبداً . إذن فسبل السلام متعددة : سبل السلام مع الله ، سبل السلام مع الكون كله ، سبل السلام مع مجتمعه ، سبل السلام مع أسرته ، سبل السلام مع نفسه .

ويقول الحق :

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فهناك سبل سلام وسبل ضلال .

وفى هذه الآية يقول الحق : « ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، والظلمات هى محل الاصطدام ، وعندما يخرجهم من الظلمات إلى النور يرون الطريق الصحيح الموصل إلى الخير ، والطريق الموصل إلى غير الخير . وبعدما يخرجون من الظلمات إلى النور تكون حركاتهم متساندة وليست متعاندة ، ولا يوجد صدام ولا شىء يورثهم بغضاء وشحناء ، أو المراد أنّه يهديهم إلى الصراط المستقيم وهو الجنة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾

وقال سبحانه من قبل :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فمن اتبعوا اليعقوبية قالوا شيئاً ، والنصرانية قالت شيئاً ، والملكانية قالت شيئاً ثالثاً ؛ فجاء بالقمة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » .

ويأتى قوله سبحانه : « قل » ، رداً عليهم : « فمن يملك من الله شيئاً » أى من يمنع قدر الله أن ينزل بمن جعلتموه إلهاً « إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً » .

لقد زعموا أن الله هو المسيح عيسى ابن مريم وفى هذا اجتراء على مقام الألوهية المنزهة عن التشبيه وعن الحلول فى أى شىء . وفى هذا القول الكريم بلاغ لهؤلاء أن أحداً لا يستطيع أن يمنع إهلاك الله لعيسى وأمه وجميع من فى الأرض . فهو الحق الملك الخالق للسموات والأرض . وما بينهما يخلق ما يشاء كما يريد . فإن كان قد خلق المسيح دون أب ؛ فقد جاءنا البلاغ من قبل بأنه سبحانه خلق آدم بدون أب ولا أم ، وخلق حواء دون أم ، جلت عظمته وقدرته لا يعجزه شىء . إن عيسى عليه السلام من البشر قابل للفناء ككل البشر .

« ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء » جاء الحق هنا بالسماء كنوع علوى والأرض كنوع سفلى ، وقوله : « يخلق ما يشاء » يرد على الشبهة بإيجاز دقيق : « يخلق ما يشاء » ؛ لأن الفتنة جاءت من ناحية أن عيسى عليه السلام مُيّز فى طريقة خلقه بشىء لم يكن فى عامة الناس ؛ فأوضح الحق : لا تظنوا أن الخلق الذى أخلقه يشترط علىّ أن تكون هناك ذكورة وأنوثة ولقاح ، هذا فى العرف العام الذى يفترض وجود ذكورة وأنوثة ، وإلا لكان يجب أن تكون الفتنة قبل عيسى فى آدم ؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم . إذن فالذى يريد أن يفتتن بأنه من أم دون أب ، كان يجب أن يفتتن فى آدم لأنه لا أب له ولا أم . ويوضح لهم : الله يخلق ما يشاء فلا يتحتم أو يلزم أن يكون من زوجين أو من ذكر فقط أو من أنثى فقط .

إن ربنا سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة فى أن يخلق ما يشاء ، وقد أدار خلقه على

القسمة العقلية المنطقية الأربعة : إما أن يكون من أب وأم مثلنا جميعاً ، وإما أن يكون بعدمهما مثل آدم ، وإما أن يكون بالذكر دون الأنثى كحواء ، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كعيسى عليه السلام ، فأدار الله الخلق على القواعد المنطقية الأربعة كي لا تفهم أن ربنا يريد مواصفات خاصة كي يخلق بل هو يخلق ما يشاء . والدليل على ذلك أن الزوجين يكونان موجودين مع بعضهما ومع ذلك لا يُنْجَبُ منهما ، فهل هناك اكتمال أكثر من هذا ؟!

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

(سورة الشورى)

إذن فالمسألة ألا يُفرض على ربنا عناصر تكوين ، لا ، بل هى إرادة مُكَوِّن لا عنصرية مَكوَّن . إنه « يخلق ما يشاء » ، ومشيئته مطلقة وقدرته عامة . ولذلك لا بد أن يأتى القول : « والله على كل شىء قدير » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

وهل كل اليهود قالوا : نحن أبناء الله ؟ هل كل النصارى قالوا : نحن أبناء الله ؟ لا . فبعض من اليهود قال : إن عزيراً ابن الله وبعض النصارى قالوا : إن

عيسى ابن الله ، وجاء مسيلمة الكذاب وادّعى النبوة ، وكان كل أهل مسيلمة يقولون : نحن الأنبياء ، أى منا الأنبياء حتى أنصار سيدنا عبدالله بن الزبيرأبى خبيب، قال أنصاره : نحن الخبيبيون أى نحن أتباع ابن الزبير الذى هو أبوخبيب، فكانوا ينسبون لأنفسهم ما لغيرهم . فمعنى « نحن أبناء الله » يعنى : نحن أشياع العزير ، الذى هو ابن الله ؛ ونحن أشياع عيسى الذى هو ابن الله . هذه نأخذ لها دليلاً من القرآن ، نعرف قصة مؤمن آل فرعون :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(سورة غافر)

والقوم جماعة . بالله أكان القوم كلهم ملوكا ؟ . لا ، فالذى كان ملكاً هو فرعون فقط . لكن مادام فرعون هو الملك ، فيكون كل الذين كانوا أتباعا وأنصارا له ومن شيعته ملوكا لأنهم يعيشون فى كنف ورعاية الملك . وأيضاً قال لليهود : « وجعلكم ملوكاً » ، ولذلك عندما أرادوا أن يحددوا معنى « ملك » قالوا : إن « الملك » هو الرجل الذى عنده دار واسعة وفيها ماء يجرى ، وواحد آخر قال : « الملك » هو الذى يكون عنده حياة رتيبة وعنده من يخدمه ولا ينشغل بخدمة نفسه فى بيته ، وفى الخارج يخدم نفسه . وقال آخر : من عنده مال لا يحوجه للعمل الشاق ، فهو ملك ، ولذلك قال سيدنا الشيخ عبدالجليل عيسى فى هذه المسألة : لا تستعجبوا ذلك فالأميون ينطقون وبلسانهم يقولون : هذا ملك زمانه ، أى رجل مرتاح لا يعمل أعمالا شاقة وعنده النقود يصرفها كما يريد . إذن فأبناء الله يعنى ليس

كلهم أبناءه ، ولذلك قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « قل » رداً عليهم : « فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق » ، وستدخلون فى مشيئة المغفرة .

« يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ، ولن تخرجوا عن المشيئة الغافرة أو المشيئة

المعذبة ، « ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير » .

ويقول الحق تصفية للمسألة العقدية فى الأرض :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ ﴾

ورسولنا هو محمد صلى عليه وسلم ويبين لكم ـ يا أهل الكتاب ـ ما اختلفتم فيه أولاً وما يجب أن تلتقوا عليه ثانياً ، وما زاده الإسلام من منهج فإنّما جاء به ليناسب أقضية الحياة التى يواجهها إلى أن تقوم الساعة . وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، ومعنى الفترة : الانقطاع . وفترة من الرسل أى على زمن انقطعت فيه الرسالات ، وهى الفترة التى بينه صلى الله عليه وسلم وبين أخيه عيسى عليه السلام ، وقام الناس بحسابها فقال بعضهم : إنها ستمائة سنة وقال البعض : خمسمائة وستون عاماً . ولا يهمنا عدد السنين ، إنما الذى يهمنا هو وجود فترة انقطعت فيها الرسل ، اللهم إلا ما كان من قول الحق سبحانه :

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يس)

هؤلاء المرسلون أهم مرسلون من قبل الله بين عيسى وبين محمد صلى الله عليه

وسلم ؟ . أم هم مرسلون من قبل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية ؟ . وقد كفر الناس أولاً بهذين الرسولين ، فعززهم الحق بثالث .

وقال الناس لهم :

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة يس)

وهنا قال الرسل :

﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يس)

فما الفرق بين « إنا إليكم مرسلون » وبين « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ؟ . إن الأخبار دائماً تُلقى من المتكلم للسامع لتعطيه خبراً ، فإن كان السامع خالى الذهن من الخبر ، أُلقى إليه الكلام بدون تأكيد . وأما إن كان عنده شبه إنكار ، أُلقى إليه الكلام بتأكيد على قدر إنكاره . فإن زاد فى لجاج الإنكار يزيد له التأكيد . فأصحاب القرية أرسل الله إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززهما بثالث ، وهذا تعزيز رسالى ، فبعد أن كانا رسولين زادهما الله ثالثاً ، وقال الثلاثة :

﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة يس)

صحيح ثمة تأكيد هنا . لأن الجملة إسمية ، وسبقتها « إنّ » المؤكدة ؛ فلما كذبوهم وقالوا لهم: «ماأنتم إلا بشر مثلنا وماأنزل الرحمن من شيء» وكان هذا لجاجاً منهم فى الإنكار فماذا يكون موقف الرسل ؟ أيقولون : « إنا إليكم مرسلون » كما قيل أولاً ؟ . لا . إن الإنكار هنا ممعن فى اللجاجة والشدة ، فيأتى الحق بتأكيد أقوى على ألسنة الرسل :

(ربنا يعلم) .

وذلك القول فى حكم القسم ؛ هذا هو التأكيد الأول ، والتأكيد الثانى :

(إنا إليكم لمرسلون) .

وكما نعلم فـ « إن » هنا مؤكِدّة ، واللام التى فى أول قوله : « لمرسلون » لزيادة التأكيد . وحين تأتى كلمة تدور على معانٍ متعددة ، فالمعنى الجامع هو المعنى الأصلى ، وكذلك كلمة « فترة » ، فالفترة هى الانقطاع . فإن قلت مثلاً : ماء فاتر أى ماء انقطعت برودته ، فالماء مشروط فيه البرودة حتى يروى العطش . وعندما يقال : ماء فاتر أى ماء فتر عن برودته ، ولذلك يكون قولنا : « ماء فاتر » أى ماء دافىء قليلاً ؛ أى ماء انقطعت عنه البرودة المرغبة فيه .

ويقال أيضاً فى وصف المرأة : فى جفنها فتور أى أنها تغض الطرف ولاتحملق بعينيها باجتراء . بل منخفضة النظرة . إذن فالفترة هى الانقطاع . ولقد انقطعت مدة من الزمن وَخَلَتْ من الوحى ومن الرسل . وكان مقتضى هذا أن يطول عهد الغفلة ، ويطول عهد انطماس المنهج ، ويعيش أهل الخير فى ظمأ وشوق لمجىء منهج جديد ، فكان من الواجب ـ مادام قد جاء رسول ـ أن يرهف الناس آذانهم لما جاء به ، فيوضح الحق أنه أرسل رسولاً جاء على فترة ، فإن كنتم أهل خير فمن الواجب أن تلتمسوا ما جاء به من منهج ، وأن ترهفوا آذانكم إلى ما يجىء به الرسول صلى الله عليه وسلم لسماع مهمته ورسالته .

وقد أرسل الله إليهم الرسول على فترة حتى يقطع عنهم الحجة والعذر فلا يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » فقد جاءهم ـ إذن ـ بشير وجاءهم نذير . والبشير هو المعلم أو المخبر بخير يأتى زمانه بعد الإخبار . ومادام القادم بشيراً فهو يشجع الناس على أن يرغبوا فى منهج الله ليأخذوا الخير . ولا بد من وجود فترة زمنية يمارس فيها الناس المنهج ، ولا بد أيضاً أن توجد فترة ليمارس من لم يأخذوا المنهج كل ما هو خارج عن المنهج ليأتى لهم الشر .

مثال ذلك قول الأستاذ : بَشّرْ الذى يذاكر بأنه ينجح . وعند ذلك يذاكر من الطلاب من يرغب فى النجاح ، أى لابد من وجود فترة حتى يحقق ما يوصله إلى ما يبشر به . وكذلك النذارة لا بد لها من فترة حتى يتجنب الإنسان ما يأتى بالشر .

« قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » . ومجىء « أن تقولوا » إيضاح بأنه لا توجد فرصة للتعلل بقول: « ما جاءنا من بشير ولا نذير » .

ويقول الحق : « فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » وسبحانه وتعالى القدير أبداً . فقد جعل الخلق يطرأون على كون منظم بحكمة وبكل وسائل الخير والحياة على أحسن نظام قبل أن يطرأ هؤلاء الخلق على هذا الكون ، فإذا ما طرأ الخلق على هذا الخير ، أيتركهم الخالق بدون هداية ؟ . لا . فسبحانه قد قدر على أن يُوجد خلقه كلهم ، ويعطى لهم ما يحفظ لهم حياتهم ويحفظ لهم نوعهم .

ألا يعطى الحق الخلق إذن ما يحفظ لهم قيمهم ؟ .

إنه قادر على أن يعطى رزق القوت ورزق المبادىء والقيم وأن يوفى خلقه رزقهم فى كل عطاء . وإرسال الرسل من جملة عطاءات الحق لعلاج القيم . ثم يرجع ثانية إلى قوم موسى ولكنه فى هذه المرة يجعل المتكلم رسولهم :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وساعة تسمع « إذ » فاعلم أنها ظرفية تعنى « حين » كأن الحق يقول : اذكر حين قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم . ويقول الحق لرسوله ذلك لأن هذا اللون من الذكر يعين الرسول صلى الله عليه وسلم على تحمل ما يتعرض له فى أمر الدعوة والرسالة سواء من ملاحدة أو من أهل كتاب .

إن الحق حينما قال : « وإذ قال موسى لقومه » أى اذكر يا محمد ، أو أذكر يا من تتبع محمداً ، أو اذكر يا من تقرأ القرآن إذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . ولا يقول موسى لقومه : « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التى أنعم الله بها عليهم ، وذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ كما يقول الواحد منا لولد عاق : اذكر ما فعله والدك معك . ولا يقولن

الواحد منا ذلك إلا وقد بدرت من الابن بوادر لا تتناسب مع مقدمات النعم ومقدمات الفضل عليه . فكأن قوم موسى قد أرهقوه وتحمل منهم الكثير ؛ لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزجر ما قد يجعلهم يفيقون وينتبهون ويفطنون إلى ذكر نعمة الله عليهم ، ومعنى ذكرالنعمة هو الاستماع إلى منهج الله وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهى .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وعرفنا أن « النعمة » يقصد بها الجنس والمراد بها النعم كلها، أو كأن كل نعمة على انفرادها خليقة وجديرة أن تُذكر وتُشكر ، والدليل على أن النعمة يراد بها كل النعم أن الله قال :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

ومادام عدّ النعمة لا نستطيع معه أن نعرف إحصاءها ؛ فهى نعم متعددة . إذن فالمراد بالنعمة كل النعم لأنها اسم جنس .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وذكر النعمة يؤدى إلى شكر المنعم ويؤدى أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصى من أنعم ، ويجعلنا نستحى أن نأخذ نعمته لتكون معينا لنا على معصيته . « اذكروا نعمة الله عليكم » وهى نعم كثيرة تمتعوا بها ، ألم يفلق الحقُ لهم البحرَ :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وبعد أن ضرب الماء بالعصا :

﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

فقد صار الماء السائل جبالاً . وضرب لهم الحجر ؛ بأمر الله فانفجرت منه المياه :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم ، وتبين القدرة مجالات تصرفها ، فقد ضرب موسى البحر فصار كل فرق كالطود العظيم ، وكأن الماء صار صخرا . وضرب موسى الصخر فتفجرت المياه . إنها عجائب القدرة . ألم يظللكم بالغمام ؟ ألم ينزل عليكم فى التيه المن والسلوى ؟ وكل هذه النعم ألا تستحق الذكر لله والشكر لله والاستحياء من أن تعصوه أو أن ترهقوا الرسول الذى جاء لهدايتكم ؟

إن كل هذه النعم تستحق الشكر ، والشكر ذكر . « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً » وكلما أدركتهم غفلة فإن الحق يرسل لهم نبياً كأسوة سلوكية . ولم يغضب عليهم ولم يقل : أرسلت لهم رسولا واثنين وثلاثة وأربعة . ولم يهتدوا ، بل كلما عصوا الله واستعصت داءاتهم أرسل لهم رسولا ، مثلهم فى ذلك مثل المريض الذى لا يضن عليه عائله بطبيب أو بطبيبين أو ثلاثة أو أربعة ، بل كلما لاحظ عائله شيئا فإنه يرسل له طبيباً . وفى ذلك امتنان ؛ لأن الله أرسل إليهم كثيراً من الرسل . وكان عليهم أن يعلموا أن داءاتهم قد كثرت وصار مرضهم مستعصيا ؛ لأنه لو لم يكن المرض مستعصيا ؛ لما كانوا فى حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأنبياء . ومع ذلك رحمهم الله وكلما زاد داؤهم أرسل لهم نبيا .

ولم يكتف الحق بأن جعل فيهم أنبياء ؛ بل قال : « وجعلكم ملوكا » وليس معنى ذلك أنهم كلهم صاروا ملوكاً ؛ ولكن كان منهم الملوك . « والملك » كلمة أخذت اصطلاحاً سياسياً ، فكل إنسان مالك ما فى حوزته ؛ مالك لثوبه ، أو مالك اللقمة التى يأكلها ، أو مالك البيت الذى ينام فيه ، لكن المَلِك هو الذى يملك وَيْملِك مَن مَلك .

إذن فكل واحد عنده القدرة أن يملك شيئاً ويملك مَن مَلَك يكون مَلِكاً ، فرجل عنده رُعيان يقومون برعى القطعان من الماشية التى يملكها ، وعنده أناس يخدمون فى المنزل وأناس يعملون فى المزرعة ، وعنده أكثر من سائق ، وعنده أناس كثيرون يأتمرون بأمره ولا يدخلون عليه إلا بإذنه ولا يتكلف فى لقائهم أى حرج أو مشقة ، هذا الرجل لا بد أن يكون ملكاً . إذن فقد أعطاهم الحق نعمة وفيرة .

والنبى صلى الله عليه وسلم يحدد الملكية الواسعة التى تحدد الفرد تحديداً إيمانياً

فقال : « من أصبح منكم آمنا فى سربه معافًى فى جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[١] .

ومادام قد حيزت له الدنيا بحذافيرها بهذه الأشياء فهو ملك . وقد أعطاهم هذه المسائل أى جعلهم ملوكاً . « وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » أى أنه سبحانه أعطاهم ما لم يعطه لأحد مِمَّن حولهم ؛ ووالى عليهم ذلك العطاء ، ألم يعط ـ سبحانه ـ نبى الله سيدنا سليمان وهو من بنى إسرائيل مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ؟ تلك الواقعة لم يقلها موسى عليه السلام لأنها حدثت من بعد موسى بأحد عشر جيلاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

وهذا بلاغ من موسى بما أوحى الله به إليه ، ومتى حدث ذلك ؟ نعرف أن صلة بنى إسرائيل بمصر كانت منذ أيام يوسف عليه السلام ، وعندما جاء يوسف بأبيه وإخوته وعاشوا بمصر وكونوا شيعة بنى إسرائيل ، ومكن الله ليوسف فى الأرض وعاشوا فى تلك الفترة . والعجيب أن المس القرآنى للأحداث التاريخية فيه دقة متناهية ، ولم نعرف نحن تلك الأحداث إلا بعد مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر . فعندما جاءت تلك الحملة صحبت معها بعثة علمية . وكانت تلك البعثة تنقب عن المعلومات الأثرية ليتعرفوا على سر حضارة المصريين ، وسر تقدم العرب القديم ، الذى سبق أوربا بقرون ، وأخذت منه أوربا العلوم والفنون ، فى حين صار هذا العالم العربى إلى غفلة .

إن العرب المسلمين هم الذين اخترعوا أشياء ذهل لها العالم الغربى ، ويحكى لنا

---

(١) أخرجه الترمذى .

التاريخ عن هدية من أحد ملوك العرب إلى شارلمان ملك فرنسا وكانت الساعة دقاقة ، وظن الناس من أهل فرنسا أن بهذه الساعة الدقاقة شيطانا . وفكرة تلك الساعة أن العالم الذى صممها وضع فيها إناء من الماء به ثقب صغير تنزل منه القطرة بثقلها على شيء يشبه عقرب الساعة ، فتتحرك الساعة دقيقة واحدة من الزمن . وكانت الساعة تسير بنقطة الماء . وكان ضبطها فى منتهى الدقة . وحين رآها الناس فى بلاط شارلمان ملك فرنسا ظنوا أن بداخلها شياطين . وهذا نموذج من نماذج كثيرة لا حصر لها ولا عدد تدخل فى نطاق قوله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

وحينما جاء الفرنسيون إلى القاهرة كان معهم تلك البعثة العلمية ومعهم مطبعة ، وعرض هؤلاء العلماء الفانوس السحرى ، وجعلوا الناس البسطاء يذهلون من تقدمهم العلمى . واستترت تلك الحملة بعروض أقرب إلى « الأكروبات » . وكان عمل العلماء هو البحث عن سر حضارة المصريين والمسلمين ؛ لأنهم يعلمون أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى مصر بالإضافة إلى حضارة المصريين القدماء .

لقد كانوا يعرضون ألعابهم السحرية العلمية بدرب الجماميز ، وذلك حتى ينبهر الناس بالحضارة الفرنسية . وكان علماؤهم فى الوقت نفسه يكتشفون ما نقش على حجر رشيد ، وهو الحجر الذى اكتشفه ضابط فرنسى شاب اسمه شامبليون ، وعلى هذا الحجر كتبت الكلمات الهيروغليفية . واستطاع شامبليون أن يفصل أسماء الأعلام الهيروغليفية ومن خلال ذلك استطاع أن يصل إلى أبجدية تلك اللغة . وكأن الله أراد أن يسخر الكافرين بمنهج الله ليؤيدوا منهج الله .

إن فى كل لغة شيئا اسمه « منطق الأعلَام » ومثال ذلك أن يوجد اسم رجل أو أمير أو إنسان ، فهذا الاسم مكون من حروف لا تتغير ، مثال ذلك نأخذه من اللغة الإنجليزية ؛ كان اسم رئيس وزراء انجلترا فى وقت من الأوقات هو « تشرشل » هى كلمة إذا ترجمناها ترجمة حرفية لم تدل على صاحبها ولم تعرفنا به لأننا عندما نترجمها نكتفى بكتابة الاسم بالحروف العربية بدلاً من اللاتينية .

إذن فالأعْلَام لا يتغير نطقها .

وكشف شامبليون عن الحروف التى لم تتغير . واهتدى إلى فك طلاسم حروف اللغة الهيروغليفية ؛ فعرف كيف يقرأ المكتوب على حجر رشيد ، واستطاع أن يقدم لنا بدايات اكتشاف تاريخ مصر القديمة . واستطاع أن يقرأ اللغة المرسومة على ذلك الحجر .

ولنا أن نرى عظمة القرآن حينما تعرض للأقدمين . . تعرّض لعادٍ وتعرَّض لثمود وتعرض لفرعون . تعرض لتلك الحضارات كلها فى سورة الفجر ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ﴾

(سورة الفجر)

وإرم ذات العماد هى التى فى الأحقاف ـ فى الجزيرة العربية ـ ولم نكتشفها بعد ، ولم نعرف عنها حتى الآن شيئاً ، وهى التى يقول عنها الحق :

﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ ﴾

(سورة الفجر)

ثم يتكلم بعدها عن فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ﴾

(سورة الفجر)

والأهرام أقيمت بالفعل على أوتاد ، وكذلك المسلات المصرية القديمة والمعابد . وغيرها من العجائب التى بهرت الناس فى مختلف العصور .

﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ ﴾

(سورة الفجر)

ثم جاء بحضارة ثمود .

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ ﴾

(سورة الفجر)

وقد رأينا هذه الحضارة التى كان الناس أثناءها ينحتون البيوت فى الصخر ، كما رأينا حضارة مصر . وحضارة عاد هى التى لم نرها حتى الآن ؛ ولا بد أن تكون مطمورة تحت الأرض . ونعرف أن الهبة الرملية الواحدة عندما تهب فى تلك المناطق تطمر القافلة كلها ، فما بالنا بالقرون الطويلة التى مرت وهبت فيها آلاف العواصف الرملية ، إذن لا بد أن ننقب كثيراً لنكتشف حضارة عاد . والحق تكلم عن حضارة مصر القديمة فقال : (وفرعون ذى الأوتاد) ، وعندما تكلم عن موسى عليه السلام ، تكلم - أيضاً - عن المعاصرين له وكان أحد هؤلاء الفراعنة ، فقال سبحانه لموسى ولأخيه هارون عليهما السلام :

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة طه)

ويذهب موسى إلى فرعون حتى يخلص بنى إسرائيل من ظلم فرعون . ولماذا ظلمهم فرعون ؟ نحن نعرف أن كل سياسة تعقب سياسة سابقة عليها تحاول أن تطمس السياسة الأولى ، وتعذب من نصروا السياسة الأولى ، وتلك قضية واضحة فى الكون . وهذا ما يتضح لنا من سيرة سيدنا يوسف الذى صار وزيراً للعزيز ودعا أباه وأمه وشيعته إلى مصر ، ولم تأت سيرة فرعون فى سورة يوسف .

وعندما تكلم القرآن على رأس الدولة فى أيام يوسف قال :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يوسف)

لم يقل الحق : « فرعون » على الرغم من أنه قال قبل ذلك عنه إنه : « فرعون » وأيام موسى ذكر فرعون ، لكن فى أيام يوسف لم يأت بسيرة فرعون إنما جاء بسيرة مَلِك . وعندما جاء اكتشاف حجر رشيد ، ظهر لنا أن فترة وجود يوسف عليه السلام فى مصر هى فترة ملوك الرعاة أى الهكسوس الذين غَزَوْا مصر وأخذوا الـمُلْكَ من المصريين وحكموهم وصاروا ملوكاً ، وسمى عصرهم بعصر الملوك .

وقال القرآن : (وقال الملك آئتونى به) . ولم يأت بذكر لفرعون . وعندما استرد الفراعنة ملكهم وطردوا ملوك الرعاة ، استبد الفراعنة بمن كانوا يخدمون الملوك وهم بنو إسرائيل . هكذا تتأكد دقة القرآن عندما ذكر فرعون لأنه كان الحاكم أيام موسى ، لكن فى زمن يوسف سمى حاكم مصر باسم الملك . وتلك أمور لم نعرفها

إلا حديثاً . ولكن القرآن عرفنا ذلك . وكانت تحتاج إلى استنباط . وهى تدخل ضمن الآيات التى لا حصر لها فى قوله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فسبحانه وتعالى بعد أن أيد موسى بالآيات وأغرق فرعون ، هنا قال لهم موسى :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فقد انتهت المهمة بتخليص بنى إسرايل من فرعون ، وخلصوا أهل مصر من فرعون . وكانت الدعوة لدخول الأرض المقدسة . وكلمة الأرض إذا أطلقت صارت علماً على الكرة الجامعة . ووردت كلمة « الأرض » فى قصة بنى إسرائيل فى مواضع متعددة لمواقع متعددة .

فها هو ذا قول الله فى آخر سورة الإسراء :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

فهل هناك سكن إلا الأرض ؟ إن أحداً لا يقول : اسكن كذا إلا إذا حدد مكاناً من الأرض ؛ لأن السكن بالقطع سيكون فى الأرض ، فكيف يأتى القول : « اسكنوا الأرض » ؟ والشائع أن يقال : اسكن المكان الفلانى من المدن ، مثل : المنصورة أو أريحا ، أو القدس . وقوله الحق : « اسكنوا الأرض » هو لفتة قرآنية ، ومادام الحق لم يحدد من الأرض مسكوناً خاصاً ، فكأنه قال : ذوبوا فى الأرض فليس لكم وطن ، وانساحوا فى الأرض فليس لكم وطن ، أى لا توطن لكم أبداً ، وستسيحون فى الأرض مقطعين ، وقال سبحانه :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

وحين يأتى القرآن بقضية قرآنية فلنبحث أأيدتها القضايا الكونية أم عارضتها ؟ القضية القرآنية هنا هى تقطيع بنى إسرائيل فى الأرض أمما ، أى تفريقهم وتشتيتهم ولم يقل القرآن : « أذبناهم » بل قال : « قطعناهم » وتفيد أنه جعل بينهم أوصالاً ولكنهم مفرقون فى البلاد. وعندما نراهم فى أى بلد نزلوا فيها نجد أن لهم حيا مخصوصا، ولا يذوبون فى المواطنين أبداً ، ويكون لهم كل ما يخصهم من حاجات يستقلون بها ، فكأنهم شائعون فى الأرض وهم مقطعون فى الأرض ولكنهم أمم ، فهناك « حارات » وأماكن خاصة لليهود فى كل بلد .

حدث ذلك من بعد موسى عليه السلام ، لكن ماذا كان الأمر فى أيام موسى ؟ قال لهم الحق : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » أى بعد رحلتكم مع فرعون اذهبوا إلى الأرض التى كتبها الله لكم . ونلحظ هنا أن كلمة « الأرض المقدسة » فيها تحييز وتحديد للأرض .

ولكن ما معنى « مقدسة » ؟ المادة كلها تدل على الطهر والتطهير . فـ « قَدَّس » أى طهّر ونزّه ، ومقدسة يعنى مطهرة . والألفاظ حين تأتى تتوارد جميع المادة على معانٍ متلاقية . ففى الريف المصرى نجد ما نسميه « القَدَس » أو « القادوس » وهو الإناء الذى يرفع به الماء من الساقية ، وكانوا يستعملونه للتطهير ، فالقادوس فى الريف المصرى هو وعاء الماء النظيف . وعندما يقال : « مقدسة » أى مطهرة .

إن من أسماء الحق « القُدُّوس » ، ويقال : « قُدِّس الله » أى نزه ، فالله ذات وليست كذات الإنسان ، وله سبحانه صفات منزهة أن تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له أفعال ، ولكن قدسه وطهره منزهة أن تكون كأفعالك . فذات الحق واجبة الوجود وذات الإنسان ممكنة الوجود ؛ لأن ذات الإنسان طرأ عليها عدم أول ، ويطرأ عليها عدم ثانٍ ، وهو سبحانه واجب الوجود لذاته ، والإنسان واجب لغيره وهو قادر سبحانه أن ينهى وجود العبد . ولله حياة وللإنسان حياة ، لكن أحياتك أيها الإنسان كحياة الله ؟ لا .

إن حياته سبحانه منزهة وذاته ليست كذاتك ، وصفاته ليست كصفاتك ، فأنت قادر قدرة محدودة وله سبحانه طلاقة القدرة ، وهو سبحانه سميع والعبد سميع ؛ لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدود له .

إذن فصفاته مقدسة ، ولذلك فعندما تسمع أنه سبحانه سميع عليم فليس سمعه كسمعنا ،وله فعل غير فعلنا . وعندما يقول الحق : إنه فعل ، ففعله منزه عن التشبيه بفعل البشر ؛ لأن البشر من خلق الله ، وفعل البشر معالجة ، ويكون للفعل بداية ووسط ونهاية ويفرغ من الأحداث على قدر الزمن . ونحن نحمل الأشياء فى أزمان متعددة ويحتاج من يحمل الأشياء إلى قوة . ولكن فعل الحق مختلف ، إنه فعل بـ « كن » لذلك قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أنه سبحانه وتعالى منزه عن التعب ، فهو يقول : « كن فيكون » ولذلك قلنا فى مسألة الإسراء :إننا يجب أن ننسب الحدث إلى الله لا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى نعرف أن الذين عارضوا رسول الله فى مسألة الإسراء كانوا على خطأ ؛ فقد قالوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟!

إن رسول الله لم يدع لنفسه هذا الأمر ، لأنه لم يقل : سريت من مكة إلى بيت المقدس » حتى تقولوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة » .

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : أُسْرِىَ بى . أى أنه صلى الله عليه وسلم ليس له فعل فى الحدث . والفعل إذن لله . ومادام هو من فعل الله فهو لا يحتاج إلى زمن ؛ لذلك كان يجب أن يفهموا على أى شىء يعترضون . ولكنا نعرف أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة ؛ لأنه سيأتى أناس من المتحذلقين المعاصرين ويقولون : « إن الإسراء كان بالروح » نقول لهم : بالله لو قال محمد للعرب : أنا سريت بروحى أكانوا يكذبونه ؟ تماما مثلما يقول لنا قائل : « أنا كنت فى نيويورك الليلة ورأيتها فى المنام » فهل سيكذبه أحد ؟ لا . إذن لقد كذب العرب لأنهم فهموا أنه أُسْرِىَ به بمعنى كاملٍ . . أى كان الإسراء بالجسد والروح معا ، بدليل أنهم قارنوا فعلاً بفعل ، وحدثاً بحدث ، ونقلة بنقلة ، وقالوا قولهم السابق . لقد جاءت هذه المسألة لتخدم الإسلام .

إذن فـ « قدوس » يعنى مطهر ومنزه . وساعة ترى شيئاً مخالفاً لقضية العقل اقرنه

بفعل الله ، ولا تقرنه بفعلك أنت أيها العبد ؛ لأن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل طرداً أو عكسا . فإن كان الفاعل صاحب قدرة قوية . فزمنه أقل . مثال ذلك : نقل أردب من القمح من مكان إلى مكان ، فإن كان الذى يحمل الأردب طفلاً فلن ينقل الأردب إلا قدحا بقدح ؛ وإن كان رجلا ناضجا سينقل الأردب « كيلة بكيلة » . وإن كان صاحب قوة كبيرة قد ينقل الأردب كله مرة واحدة . إذن فالزمن يتناسب مع القوة تناسبا عكسيا . فإن كثرت القوة قل الزمن . وهات أى فعل بقدرة الله فلن يستغرق أى زمن .

إذن قدس الله فى كل شيء . والأرض المقدسة هى المطهرة ، وذلك بإرادة الحق سبحانه ، تماما كما أراد سبحانه أن تكون بقعة من الأرض هى الحرم ، لا يتم فيها الاعتداء على صيد أو نبات أو اعتداء بعضكم على بعض ، وهل ذلك كلام كونى أو كلام تشريعى ؟

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة العنكبوت)

لو كانت المسألة إرادة كونية ، فكان لا بد ألا يحدث خلل أبداً وألا يعتدى أحد على أحد. وما الفرق بين الكونى والتشريعى؟ إن الكونى يقع لأنه لا معارض فى الأمور القهرية ، فالحق يريد أن يكون عبداً طويل القامة ، فتلك إرادة كونية تحدث ولا دخل للعبد بها . ولكن إن أراد الحق أن تكون طائعا مصليا ، فتلك إرادة تشريعية . والإرادة تكون تشريعية فيما إذا كان للمريد اختيار ، يصح أن يفعلها ويصح ألا يفعلها ، لكن الإرادة الكونية هى فيما لا إرادة للإنسان فيه وواقع على رغم أنف الإنسان .

والله سبحانه وتعالى يريد الحرم آمناً . وتلك إرادة تشريعية لأنه حدث أن أهيج فيه أناس ولم يأمنوا . ولو كانت إرادة كونية لما حدثت أبداً . لذلك فهى إرادة تشريعية ، فإن أطعنا ربنا جعلنا الحرم آمنا ، وإن لم نطعه فالذى لا يطيع يهيج فيه الناس ويفزعهم ويخيفهم . فمراد الله عز ومطلوبه شرعا « أن يكون الحرم آمنا » .

«ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم» فهل هذه الأرض المقدسة كتبها الله لهم

كتابة كونية أو كتابة تشريعية ؟ إن كانت كتابة كونية لكان من اللازم أن يدخلوها ولكنه قال :

﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن هى إرادة تشريعية وليست إرادة كونية . فإن أطاعوا أمر الله وتشجعوا ودخلوا الأرض المقدسة فإنهم يأخذونها ، وإن لم يطيعوه فهى محرمة عليهم . إذن فلا تناقض بين أن يقول سبحانه : إنه كتبها لهم ، ثم قوله من بعد ذلك : إنها محرمة عليهم ، لقد كتبها سبحانه كتابة تشريعية . فإن دخلوها بشجاعة ولم يخافوا ممن فيها واستبسلوا ووثقوا أن وراءهم إلهاً قوياً سيساندهم ؛ فإنهم سيدخلونها ، أما إن لم يفعلوا ذلك فهى محرمة عليهم .

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وجاءت الأرض هنا أكثر من مرة :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

وعرفنا مراد ذلك القول . والدقة هنا أنه سبحانه جاء بأمر السكن فى الأرض لبنى إسرائيل أى فى الأرض عموما ومحكوم عليهم أن يكونوا قطعا ومشردين .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه يجمعهم من كل بلد ويجىء بعد ذلك وعد الآخرة الذى جاء فى أول سورة الإسراء :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لأن الحق حينما قال :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه وتعالى يدخل بهذه الآية المسجد الأقصى فى مقدسات الإسلام . وأوضح الحق لهم : يا أيها اليهود أنتم ستعيشون فى مكان بعهد من رسولى ، ولكنكم ستفسدون فى المكان الذى تعيشون فيه وسيتحملكم القوم مرة أو اثنتين وبعد ذلك يسلط الله عباداً له يجوسون خلال دياركم ويشردونكم من هذه البلاد .

والحق يبلغنا : نحن أعلمنا بنى إسرائيل فى كتابهم ما سيحدث لهم مع الإسلام :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ﴾

(سورة الإسراء)

وبعض الناس يقولون : إن هذا كان أيام بختنصر ؛ ونقول لهم : افهموا قول الحق : « فإذا جاء وعد أولاهما » وكلمة « وعد » لا تأتى لشىء يسبق الكلام بل الشىء يأتى من بعد ذلك . إذن فلم يكن ذلك فى زمان بختنصر . فـ « إذا » الموجودة أولاً هى ظرف لما يُستقبل من الزمان ، أى بعد أن جاء هذا الكلام . ثم هل كان بختنصر يدخل ضمن عباد الله ؟. إن قوله الحق : « عباداً لنا » مقصود به الجنود الإيمانيون ، وبختنصر هذا كان فارسيا مجوسيا .

وهذا القول الحكيم يشير إلى الفساد الأول مع رسول الله بعد العهد الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أجلاهم . وهل هى تقتصر على هذه ؟ يقول سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ

ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ولنا أن نسأل : وهل لم يفسد بنو إسرائيل فى الأرض إلا مرتين ؟. لا ، لولا أنهم لم يفسدوا فى الأرض سوى مرتين ، لكان ذلك بالقياس إلى ما فعلوه أمراً طيباً ؛ فقد أفسدوا أكثر من ذلك بكثير . ولابد أن يكون إفسادهم فى الأرض المقصودة هو الفساد الذى صنعوه بالأرض التى كانت فى حضانة الإسلام ، وسبحانه قد قال : « بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد » فمادام يوجد « عباد الله » خالصو الإيمان وأعدوا العدة فلا بد أن يتحقق وعد الله ، لكن إذا ما تخلى الناس عن هذا الوصف ؛ فعلى الناس الذين يعانون من إفساد بنى إسرائيل أن يتلقوا ما قاله الله :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فكأن الكَرَّة لا ترد إلا إذا كان القوم المؤمنون على غير مطلوب الإيمان . فإذا ما تساءل بعض المؤمنين : ولماذا تجعل يا الله الكَرَّة لبنى إسرائيل ؟. تكون الإجابة : لأنكم أيها الناس قد تخلفتم عن مطلوب العبودية الخالصة لله . ومادمنا قد تخلفنا عن مفهوم « عباد الله » فلا بد أن تحدث لنا تلك السلسلة الطويلة التى نعرفها من عدوان بنى إسرائيل . ونحن الآن فى مواجهة اليهود فى مرحلة قوله الحق :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فإذا كنا عباداً لله فلن يتمكنوا منا . والله سبحانه وتعالى حينما يتكلم بقضية قرآنية فلا بد أن تأتى القضية الكونية مصدقة لها .

ولو استمر الأمر بدون كرّة من اليهود علينا ، بينما نحن قد ابتعدنا عن منهجنا وأصبح كل يتبع هواه ، لكانت القضية القرآنية غير ثابتة . ولكن لا بد من أن تأتى أحداث الكون مطابقة للقضية القرآنية . ولذلك رأينا أن بعض العارفين الذين نعتقد قربهم من الله حينما جاء أحدهم خبر دخول اليهود بيت المقدس سجد لله .

فقلنا : « أتسجد لله على دخول اليهود بيت المقدس » . فقال : نعم . صدق ربنا

لأنه قد قال : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » هكذا قال الحق ، وهل يكون دخول لثانى مرة إلا إذا كان هناك خروج من أول مرة ؟. لقد حمد ذلك العارف بالله ربنا لأن قضايا القرآن تتأكد بالكونيات ، فإذا ما قال الحق :

﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فليست المسألة أنهم لكونهم يهوداً لا يعطيهم الله الكَرَّةَ . ولكن القضية هى أننا عندما نكون عباداً لله حقيقة .. اعتقادا وسلوكا .. قولا وعملا ننتصر عليهم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهم أغنياء لأنهم يديرون معظم حركة المال فى العالم المعاصر . ولأنهم جميعاً فى الجيش المدافع عن دولتهم . وذلك معنى بنين وأكثر نفيرا . النفير هو ما يستنفره الإنسان لنجدته ؛ لأن قوة ذاته قاصرة عن الفعل . واليهود ليسوا قوة ذاتية بمفرد دولتهم ، ولكن وراءهم أهم قوى فى العالم المعاصر .

إذن فقوله الحق :

﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

ثم بعد ذلك يحسم الله قضيته ويقول لليهود :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وهل تستمر الكرَّة يارب ؟ .

لا . فها هو ذا الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

كأن الحق يعطينا البشارة بأننا سننتصر ؛ ويكون الانتصار مرهونا بتنفيذ القاعدة التى شرعها الله بأن نكون عباداً لله حقا ، عندئذ سَيكِلُ الله لنا تنفيذ وعده لليهود :

﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وأشرف ما فى الإنسان هو الوجه ، وعندما نكون عباداً لله سنسوء وجوههم ، وفوق ذلك :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

ولم يأت الحق بذكر المسجد من قبل ، فها هو ذا قوله الكريم :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فالحق هنا لم يأت بذكر المسجد فى أول مرة . فكيف يكون دخولنا المسجد إذن ؟. لقد دخلنا المسجد الأقصى أول مرة فى الامتداد الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه . والمسجد الأقصى أيام عمر بن الخطاب لم يكن فى نطاق بنى إسرائيل ، ولكن كان فى نطاق الدولة الرومانية ، فدخولنا المسجد أول مرة لم يكن نكاية فيهم . ولكن الحق جاء بالمرة الثانية هنا والمسجد فى نطاق سيطرة بنى إسرائيل :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

سنكون نحن إذن عبادًا لِلَّهِ ذوى البأس الشديد الذين سندخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة ، وجاء الحق سبحانه بالمسجد هنا ؛ لأن دخول المسجد أول مرة لم يكن إذلالاً لليهود ، فقد كانت السلطة السياسية فى ذلك الزمن تتبع ـ كما قلنا ـ الدولة الرومانية .

ويضيف الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وحتى نتبر ما يُعْلُونه ـ أى نجعله خرابا ـ لا بد أن تمر مدة ليعلوا فى البنيان .

وعلينا أن نعد أنفسنا لنكون عباداً لله لنعيش وعد الآخرة وقد جعلها الله وعدا تشريعياً ، فإذا عدنا عباداً لله فسندخل المسجد ونتبر ما علوا تتبيرا ، والحق سبحانه وتعالى فى آيات سورة المائدة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يأتى بلقطة عن بلاغه لسيدنا موسى بعد خروجه مع قومه من مصر ، فقال :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقلنا إن الكتابة هنا تشريعية وليست كونية ، فلو كان الأمر كونياً لدخلوا الأرض

المقدسة بدون عقبات وبدون صراع وبدون قتال . والدليل على أن الكتابة تشريعية هو قوله الحق : « ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » أى أنكم إن ارتددتم على أدباركم انقلبتم خاسرين . فإن أطعتم الله ودخلتم الأرض دون إدبار ، فستدخلون الأرض ، وإن لم تفعلوا فلن تدخلوها . إذن ليست كتابة الأرض هنا كونية ، ولكنها تشريعية .

وقوله الحق : « ولا ترتدوا على أدباركم » يشرح لنا طبيعة مواجهة الخصم ؛ فالإنسان حين يواجه خصمه فهو يواجهه بوجهه . فإن فرّ الخصم من أمامه فهو يولى أدباره . والتولى على الأدبار يكون على لونين : لون هو الإدبار من أجل أن ينحرف الإنسان إلى جماعة وفئة لتشتد قوتهم ويقووا على هزيمة العدو أو يصنع مكيدة ؛ ليعيد مواجهة الخصم ، ولون آخر وهو الفرار وذلك مذموم ، ومن المعاصى الموبقات المهلكات . وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالارتداد على الأدبار ليس مذموماً إن كان من أجل حيلة أو صنع كمين للعدو . وفى هذه الحالة لا بأس أن يرتد الإنسان ، أما خلاف ذلك فهو مذموم . وهل الارتداد على الأدبار رجوع بالظهر إلى الوراء مع الاحتفاظ بالوجه فى مواجهة الخصم ؟ . أو هو التفات بالوجه ناحية الدبر وفرار من العدو ؟ . كلا الأمرين يصح . وقد جاء الأمر إلى بنى إسرائيلَ بعدم الفِرار ليدخلوا الأرض فماذا كان موقفهم مادامت الكتابة لهذا الأمر تشريعية ؟ .

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

كيف إذن يعلنون هذا التمرد على أمر الحق ؟. وكيف علموا أن فيها قوماً جبارين ؟. ولنا أن ننتبه إلى أن الحق قد قال من قبل :

﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة المائدة)

فقد ذهب النقباء أولاً وتجسسوا ونقبوا وعرفوا قصة هذه الأرض المقدسة ، وأن فيها جماعة من العمالقة الكنعانيين . وساعة رأوا هؤلاء القوم ، قالوا لأنفسهم : هل سنستطيع أن نقاوم هؤلاء الناس ؟ إن ذلك أمر لا يصدق ؛ لذلك لن ندخلها ماداموا فيها . إذن فقد تخاذلوا وارتدوا على أدبارهم . « قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين » .

وساعة أن تسمع كلمة « جَبَّار » تجدها أمراً معنوياً أُخذ من المحسات ؛ فالجبارة هى النخلة التى لا تطولها يد الإنسان إذا أراد أن يجنى ثمارها . وعندما تكون ثمار النخلة فى متناول يد الإنسان حين يجنى ثمارها فهى دانية القطوف ، أما التى لا تطولها يد الإنسان لحظة الجنى للثمار فهى جَبَّارة ؛ لذلك أخذ هذا المعنى ليعبر عن الذى لا يقهر فسمى جباراً ، وقد يكون الجبار مُكرِهاً ولكن على الإصلاح ، وفى بلادنا نطلق على من يصلح كسور العظام « المجبراتى » .

أى أنه يجبر العظام على أن تعود إلى مكانها الطبيعى . وقد يتألم الإنسان من ذلك ، ولكن فى هذا إصلاح لحياة الإنسان . و« الجَبَّار » اسم من أسماء الله ؛ لأنه سبحانه يَقْهَر ولا يُقهَر . وقد يُكرهنا سبحانه وتعالى حتى يصلحنا . ويختبرنا بالابتلاءات حتى يمحصنا وتستوى حياتنا .

إذن فـ « الجبار » صفة كمال فى الحق لأنه يستعمل جبروته فى الخير ويقهر الظالمين والمعاندين والمكابرين ، وذلك لمصلحة الأخيار الطيبين . وهو سبحانه وتعالى لا يُقهَر . فعندما يكون فى صف جماعة فإن أحداً لا يغلبهم ، أما الجبار كصفة فى الخلق فهى مذمومة ؛ لأن التجبر هنا بدون أصالة كالبناء الأجوف . فالمتجبر قد يصيبه قليل من الصداع فيرقد متوجعاً .

إننا نرى أمثلة لذلك فى حياتنا ، نجد المتجبر يصاب بأزمة قلبية فيحمل على نقالة

إلى المستشفى ، ونجد جباراً آخر يصاب بقليل من المغص ، فيجرى وهو ممسك ببطنه فيضحك عليه الأطفال . ويقولون له ما معناه : العب بعيداً فلست جباراً ولا فتوة ولا أى شيء . والجبار إن أراد أن يكون كذلك فعليه أن يكون صاحب رصيد مستمر ، فلا تراه يوماً غير جبار . ولا يكون التجبر صفة ذاتية إلا لله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » وساعة نسمع « لن » تسبق الفعل فلنعرف أنها للنفى . والنفى قد يأخذ زمناً طويلاً ، وقد يأخذ زمناً تأبيدياً . والفرق بين الدخول فقط والدخول التأبيدى ، أن الدخول الأول له زمن ينهيه ، والدخول الثانى لا زمن له لينهيه كدخول المؤمنين الجنة .

وإذا عين الدخول بغاية كقولهم : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » أى أن النفى التأبيدى مرتبط بغاية وهى خروج القوم الجبارين . والتأبيد هنا إضافى لأنهم قالوا : إنهم لن يدخلوا الأرض فى مدة وجود الجبارين .

« فإن يخرجوا منها فإن داخلون » ونقول : وهل الأمم التى تخطو إلى الشر وتمارسه يمتنع فيها وجود عناصر الخير ؟ . لا ؛ لأن الحق يبقى بعضاً من عناصر الخير حتى لا ينطمس الخير ، وهذا ما يوضحه الحق فى بنى إسرائيل عندما قالوا لموسى هذا القول ، فقد خالفهم رجلان منهم :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وهما رجلان يخافان النكوص عن أمر الله ، بينما بنو إسرائيل ـ كمجموع ـ لم يفهوا عن الله

حق الفهم ؛ لأنهم لو نفذوا أمر الله لهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ولم ينكصوا لمكنهم الله من ذلك . لكن لم يفهم عن الله فيها إلا رجلان . وهما كالب ، ويوشع بن نون ، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط افرايم ، وهما ابنا يوسف عليه السلام ، فقد قالا : مادام الله قد كتب لكم الدخول ، فهو لا يطلب منا إلا قليلاً مــن الجهاد .

فحين يأمر الله الإنسان بعمل من الأعمال ، فيكفيه أن يتوجه إلى العمل اتجاهاً والمعونة من الله . وسبحانه يقول للعبد :

(أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإٍ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرّب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة)[1] .

فإذا كان الشأن فى المشى أن يتعب الذاهب والسائر ، فالله لا يريد أن يرهق بالمشى من يقصده ويطلبه ؛ لذلك يُهرول فضله ورحمته ـ سبحانه ـ إلى العبد . فالرغبة الأولى أن يكون العمل لك أنت أيها العبد . ومن عظائم فضل الله أنه فعل ونسب إليك . وسبحانه يسعد بالعبد الساعى إليه . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ لنفترض أنك أردت أن تمسك سيفاً ، لماذا لا تحلل المسألة ؟. السيف الذى تمسكه ، صنعته من الحديد ، والحديد استخرجته من الأرض .

والحق قال :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إن الحق هو الذى أنزل الحديد ، وهو الذى علمنا كيف نصقل الحديد ونشكله بالنار :

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

---

(١) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

وأنا أريد من علماء وظائف الأعضاء أن يحددوا لنا ساعة أن يمسك الإنسان بشيء وليكن السيف . فبأى عضلة يمسك الإنسان السيف ؟. وكيف يأمرها الإنسان بذلك ؟. وكم عضلة وكم خلية عصبية تحركت من أجل أداء هذا الفعل ؟ . على الرغم من أن الإنسان بمجرد إرادته أن يمسك شيئاً . فهو يمسك به . والإنسان إذا ما مشى خطوة واحدة ، فبأى العضلات بدأ المشى .

إن الإنسان عندما يحرك ذراعاً آلياً فى جهاز آلى ؛ يصمم عشرات الوصلات والأدوات والدورات الكهربية من أجل تحريك ذراع آلى ، فكم إذن من عضلات فى الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة ؟ إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة . إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك لمجرد الإرادة منه !! . فإذا كانت إرادة الإنسان تفعل لمجرد أن يريد سواء أكانت هذه الإرادة هى الإمساك بالسيف أم حتى المشى لخطوة واحدة ، أم حتى الإمساك بالقلم بين الأصابع للكتابة . فليعلم الإنسان أن الإرادة عطاء من الله والإنسان لا يستطيع تحديد مواقع إرادته من جسده فما بالنا بالحق حين يريد أمراً ؟

ولنعد إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الآن :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

لقد أنعم الله على هذين الرجلين بحسن الفهم عن الله ، فقالا لبنى إسرائيل : ساعدوا أنفسكم بدخول هذه الأرض وسينصركم الله . ومثل الرجلين كمثل الأم التى طلب منها ابنها أن تدعو له بالنجاح ، فقالت الأم لابنها : سأدعو لك ولكن عليك فقط أن تساعد الدعاء بالإقبال على الاستذكار . وكأن الخوف من مخالفة أمر الله نعمة على هذين الرجلين ، وكأن الفهم عن الله لعباراته نعمة .

« ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » كأنهم بمجرد الدخول سيغلبون هؤلاء العمالقة . فلم يطلب الله منهم قتال هؤلاء العمالقة . بل ساعة يراهم القوم الجبارون يدخلون عليهم فجأة فسوف يذهلهم الرعب .

وهم عندما نسجوا الأساطير حول هذه القصة قالوا : إن أحد هؤلاء العمالقة واسمه عوج بن عناق خرج إلى بستان خارج المدينة ليقطف بعض الثمار لرئيسه ؛ فخطف اثنين من هؤلاء الناس وخبأهما فى كمّه ، وألقاهما أمام رئيسه وهو يقدم الفاكهة إليه وقال الرجل العملاق لرئيسه : هذان من الجماعة التى تريد أن تدخل مدينتنا . هذه هى المبالغة التى صنعها خوفهم من هؤلاء العمالقة ، برغم أن رجلين منهما أحسنا الفهم عن اللّه بقولهما : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ لأن هذا هو مراد الله ، وهو الذى يحقق لهم النصر .

وبعض المفسرين قالوا فى شرح هذه الآية : إن الرجلين اللذين قالا ذلك ليسا من بنى إسرائيل ؛ لأن هؤلاء المفسرين فهموا القول الحكيم : « قال رجلان من الذين يخافون » قالوا هما رجلان من الذين يخاف منهم بنو إسرائيل ، وقالا لبنى إسرائيل: لا يُخيفكم ولا يُرهبكم عظم أجسام هؤلاء فإن جنود الله ستنصركم :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ويختتم الحق الآية بهذا التذييل : « وعلى اللّه فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أى لا تتوقفوا عند حساب العدد فى مواجهة العدد ، والعُدة فى مواجهة العُدة ، ولكن احسبوا الأمر إيمانياً لأن اللّه معكم « إن تنصروا الله ينصركم » .

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣ ﴾

(سورة الصافات)

وعلى المؤمن باللّه أن يضع هذا الإيمان فى كف قوته . فإن كان هؤلاء الناس من بنى إسرائيل المأمورين بدخول تلك الأرض مؤمنين بحق فليتوكلوا على اللّه .

فماذا قال هؤلاء القوم :

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

كأن خلاصة قولهم لموسى عليه السلام : لا ترهق نفسك معنا ووفّر عليك جهدك فنحن لن ندخل هذه الأرض ، مادام هؤلاء العمالقة فيها . وإن كنت مصرّاً على دخولنا هذه الأرض فاذهب أنت وربك فقاتلا ونحن بانتظاركما هنا قاعدون . هكذا بلغ بهم الخوف أن سخروا من موسى وربّ موسى . وهكذا وصل بهم الاستهزاء إلى تلك الدرجة المُزرية . ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليهم فقد قالوا من قبل :

﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

ومن قبل ذلك أيضاً عبدوا العجل . فماذا يقول موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وكان هارون أخاً لموسى عليه السلام ومُرسلاً مثله ؛ فكأن موسى عليه السلام قد أعلن عدم ثقته فى هؤلاء القوم الذين أرسله اللّه إليهم ؛ حتى ولا يوشع بن نون ولا كالب ، وهما الرجلان اللذان قالا لبنى إسرائيل : إنه يكفى دخول الباب لتهزموا هؤلاء الناس العمالقة . لكن أكانت نفس أخيه مملوكة له ؟ أم أنه قال ما فحواه : إنى لا أملك إلا نفسى وكذلك أخى لا يملك إلا نفسه ، أما بقية القوم فقد سمعت منهم يارب أنهم لن يدخلوا هذه الأرض مادام بها هؤلاء العمالقة . إذن فأنا وأخى فى طرف وبقية القوم فى طرف آخر ؛ لذلك افصل بيننا وبين هؤلاء القوم الفاسقين .

والحق سبحانه وتعالى فى هذا التعبير القرآنى يأتى بهذه الكلمات على لسان سيدنا

موسى والتى تحتمل أن يرقّ لها قلب واحد من أتباع موسى عليه السلام فيقول لموسى : إننى معك . ولذلك جاء قول موسى : « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » . ومعنى الفاسقين - كما عرفنا - هم من خرجوا عن الإيمان ، كما تفسق الرطبة ؛ فالبلحة عندما ترطّب فإن قشرتها تتسع عن حجمها ؛ فتخرج الرطبة من قشرتها ؛ ويقال فسقت الرطبة ؛ فكأن الإيمان كالجلد والجلد كالقشرة . وهو كغلاف يحيط بالإنسان . وعندما يفسق الإنسان عن الإيمان فهو يخرج عن قانون الصيانة ، وكذلك كان فسق بنى إسرائيل ؛ لذلك قال الحق :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فهل كان التحريم مدته أربعون عاما ؟ أو أنه قال : « إنها مُحرّمة عليهم » وانتهى الأمر لأنهم تأبّوا على أن يدخلوها ؟ . ولذلك فكل الذين قالوا : « لن ندخلها أبداً ماداموا فيها » لم يعش منهم أحد ليدخل هذه الأرض . وبعد ذلك صدر الحكم الآتى : « أربعين سنة يتيهون فى الأرض » فهل هذا القول هو استئناف للقول السابق فيكون ظرفاً لـ « مُحرّمة » . أو هو حكم منفصل ؟ .

تصح هذه ، وتصح تلك . والتيه هو كما نقول : فلان تاه أى سار على غير هدى ولا يعرف لنفسه مدخلاً ولا مخرجاً ، والواحد عندما يدخل فى مجال متشعب المسالك ومتعرج الطرقات ، فهو لا يعرف كيفية الخروج منه ، هذا هو التيه . ولكن كم فرسخاً هى مساحة التيه ؟ . حدّدها العلماء بستة فراسخ [والفرسخ قدر ثلاثة أميال] . كيف يتيهون فى تلك المساحة الضيقة من الأرض ؟

لقد أراد الله ذلك ، لأنهم ساعة يمشون ويرهقون فينامون ويأتى عليهم الصباح ليجدوا أنفسهم عند النقطة التى بدأوا منها ، وكانوا يضعون العلامات لإيضاح الطريق ، لكنهم كل صباح كانوا يجدون العلامات قد انتقلت من مكانها . وظلّوا

على هذا الوضع وفى هذا التيه إلى الأمد والوقت الذى حدده الله وهو أربعون سنة يتيهون فى الأرض . وحين يؤدبّ الله عاصياً يحفظ له من القوت والرزق ما يبقى به حياته ولو كان كافرا؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعاهم إلى الوجود، ولهذا لم يضنّ عليهم فى التيه بما لم يضنّ به على الكافرين به سبحانه .

إذن حفظ الحياة أمر ضرورى . وعندما يرتكب إنسانٌ مَا ذنباً كبيراً فى حق المجتمع فإننا نضعه فى السجن ، ولكننا نطعمه ونسقيه ، وعندما يرتقى المجتمع الإنسانى ، فهو يوفّر للسّجين عملاً يتناسب مع مواهبه ويحبس عنه حُرية الحركة فى المجتمع ، والسجين المذنب يظل فى السجن ، ولكنه يأكل ويشرب وينام ويعمل ، فقط تختلف المسألة فى النقطة المهمة فى الحياة وهى أن يتحرك المتحرك وفق حريته ، فما بالنا بالحق الأعظم عندما سجنهم فى التيه ؟. لقد أطعمهم الله وسقاهم وأنزل عليهم المَنّ والسّلوى .

وقد يقول قائل : إن الله قد أنزل عليهم المَنّ والسّلوى ليعيشوا كُسَالى وغرقى فى التَكبر والغرور . ونقول : لا . فذلك الإجراء الإلهى من ضمن حكمه البالغة أن يطيل عليهم الوقت . فلو أنه سبحانه وتعالى قد جعلهم يزرعون ويحرثون لانشغلوا بأمور الحياة اليومية ، لكن الحق أراد أن يُطيل عليهم الإحساس بالزمن . فالمسألة ليست طعاماً وشراباً . ولكن هناك كرامة فوق الطعام وفوق الشراب .

إننا نرى ذلك عندما نسمع عن اعتقالات لبعض الأفراد الذين أساءوا للمجتمع . وتسمح لهم السلطات بالطعام الذى يأتيهم من منازلهم . ولكنّ هؤلاء المعتقلين يشعرون بالضيق من تقييد الحركة . إذن أراد الحق لهم عقاباً صارماً فى فترة التيه . ولذلك نجد بعضهم يحسب المسألة والزمن فى فترة التيه ، فيقول الواحد منهم ما ذكره الحق :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾

(من الآية ١٤٢ من سورة الأعراف)

وبعد أن رحل موسى عن القوم عبدوا العجل الذى صنعه لهم موسى السامرىّ ، وعاد إليهم موسى وعاتب أخاه هارون العتاب القاسى ، وعاقبهم ربهم على كفرهم أربعين سنة. كأن كل يوم من عبادة العجل صار سنة من العقاب فى التيه . ولأنه ربٌّ ورحيم لم يتركهم دون أن يحفظ لهم حياتهم بالقوت ، فكان القوت هو المَنّ والسّلوى . هل كان موسى عليه السلام معهم فى التيه أم لا ؟ وهل مات معهم فى التيه أم لا . ؟ تلك أسئلة لا تهمنا الإجابة عنها بالرغم من أن بعض العلماء قد شغلوا أنفسهم بها ؛ فتلك أمور لا تنفع ولا تضر . المهم أن بنى إسرائيل لم يدخلوا أريحا إلا على يد يوشع بن نون بعد الأربعين سنة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نقرأ هذا القول الحكيم كما يلى : « قال ربِّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها مُحُرمة عليهم » . وهذا الوقف يعطينا الفهم بأن الأرض المقدسة صارت مُحرّمة عليهم إلى الأبد . وبعد ذلك يأتى أمر الله بعقابهم فى التيه أربعين سنة : « أربعين سنةً يتيهون فى الأرض فلا تأسَ على القوم الفاسقين » . أما لو قرأنا هذا القول الحكيم كما يلى : « قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » فهذه القراءة تتيح لنا الفهم بأن مدة العقوبة لهؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة فى التيه . ودخلوا بعدها مدينة أريحا .

ويأمر الحق موسى ألّا يحزن على هؤلاء القوم الفاسقين ، ذلك أن موسى عليه السلام عندما دعا الله بقوله : « فافرق بيننا » انتابه قدرٌ من الضّيق من هذا الدُّعاء وقال لنفسه : لماذا لم ادعُ لهم بالهداية بدلاً من أن أدعو بالفراق ؟ ، ولذلك قال له الحق : « فلا تأس على القوم الفاسقين » أى فلا تحزن عليهم لأنهم أوْلَى بالعذاب لفسقهم ومخالفاتهم .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وساعة يتلو الإنسان ـ أى يقرأ ـ فهو يتكلم بترتيب مارآه من صُور؛ ذلك أن الإنسان عندما يرى أمراً أو حادثة فهو يرى المجموع مرة واحدة ، أو يرى كل صورة مكّونة للحدث منفصلة عن غيرها . وعندما يتكلم الإنسان فهو يرتّب الكلمات ، كلمة من بعد كلمة ، وحرفاً من بعد حرف ؛ إذن فالمتابعة والتلاوة أمر خاص بالكلام . « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر . ولكن النبأ هو الخبر اللافت للنظر . مثال ذلك قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النبأ)

إذن فكلمة « نبأ » هى الخبر المهم الشديد الذى له وقع وأثر عظيم .

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » وساعة نسمع قوله الحق : « بالحق » فلنعلم أن ذلك أمر نزل من الحق فلا تغيير فيه ولا تبديل . ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أى أن ما أُنزل من عند الله لم يلتبس بغيره من الكلام ، وبالحق الجامع لكل أوامر الخير والنواهى عن الشّر نزل . وعندما يقول سبحانه : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » فسبحانه يحكى قصة قرآنية تحكى واقعة كونية . ومادام الله هو الذى يقصّ فهو سيأتى بها على النموذج الكامل من الصدق والفائدة . ولذلك يسمّيه سبحانه « القصص الحق » :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة آل عمران)

ويُسمّيه سبحانه :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾

(من الآية ٣ سورة يوسف)

وسبحانه يقول : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر » ونعرف أن آدم هو أول الخلق البشرى ، وأن ابنى آدم هما هابيل وقابيل ، كما قال المفسرون . وقد قرّب كل منهما قرباناً . والقُربان هو ما يتقرب به العبد إلى الله ، و« قربان » على وزن « فعلان » . فيقال : « كَفَر كُفرانا » و« غَفَر غُفرانا» . وهى صيغة مبالغة فى الحدث . وهل قدّم الاثنان قرباناً واحداً ؛ أم أن كلا منهما قدّم قرباناً خاصّاً به ؟ مادام الحق قد قبل من واحد منهما ولم يتقبّل من الآخر فمعنى ذلك أن كلاًّ منهما قدّم قرباناً منفصلاً عن الآخر ؛ لأن الله قبل قربان واحد منهما ولم يتقبل قربان الآخر .

و« القربان » مصدر . والمصادر فى التثنية وفى الجمع وفى التذكير والتأنيث لا يتغير نطقها أو كتابتها . فنحن نصف الرجل بقولنا : « رجل عدل » وكذلك « امرأة عدل » و« رجلان عدل » و« امرأتان عدل » و« رجال عدل » و« نساء عدل » . إذن فالمصدر يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . ونعلم أن آدم هو أول الخلق الآدمى ، وجاءت له حواء ؛ وذلك من أجل اكتمال زوجية التكاثر ؛ لأن التكاثر لا يأتى إلا من ذكر وأنثى :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فكل موجود أراد له الحق التكاثر فهو يخلق منه زوجين .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ونرى ذلك حين نقوم بتلقيح النخلة من طلع ذكر النخل . وهناك بعض الكائنات لا نعرف لها ذكراً وأنثى ؛ إما لأن الذكر غير موجود تحت أعيننا ، ولكن يوجد على بعد والريح هى التى تحمل حبوب التلقيح :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

فتأتى الريح بحبوب التلقيح من أى مكان لتخصب النبات ، وإما أن الذكورة والأنوثة يوجدان معاً فى شىء واحد أو حيز واحد ، مثال ذلك عُود الذّرة ؛ حيث نجد ذكورته وأنوثته فى شىء واحد ؛ فقمّة العود فيها الذكورة ويخرج من كل « كوز » ذرة قدراً من الخيوط الرفيعة التى نسمّيها « الشّوشة » . وهذه هى حبال الأنوثة . وينقل الهواء طلع الذكورة من سنبلة الذرة إلى « الشوشة » ، وكل شعرة تأخذ من حبوب اللقاح كفايتها لتنضج الحبوب ، وعندما تلتصق أوراق كوز الذرة ولا تسمح بخروج الخيوط الرفيعة لحبال الأنوثة ، ولا تصلها حبوب اللقاح ، فيخرج كوز الذرة بلا نضج وبلا حبوب ذرة . وعندما نمسك بكوز الذرة ونفتحه قد نجد بعضا من حبوبه ميتة وهى تلك التى لم تصلها حبوب اللقاح ؛ لأنها لم تملك خيطا من الحبال الرفيعة لتلتقط به حبوب اللقاح . وحبّة الذّرة التى لم يخرج لها خيط رفيع لالتقاط حبوب اللقاح لا تنضج . إذن فكل شىء فيه الذكورة والأنوثة .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

وكذلك قوله : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) .

وكل ما يقال له شيء لا بد له من ذكر وأنثى ، حتى المطر لا بد أن يلقح فلو لم يتم تلقيح المطر بالذرات لما نزل المطر ، وحتى الحصى فيه ذرات موجبة وذرات سالبة . وعندما اخترعنا الكهرباء واكتشفنا الموجب والسالب ارتحنا . إذن فعندما يقول الحق :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

وهذا أول علم للعرب ، فلم يكونوا من قبل القرآن أمّة علم .

وقد أوصل القرآن كل العلم للعرب حتى فاقوا غيرهم ، عندما أخذوا بأسباب الله ، لكن عندما تراخوا وواصل غيرهم الأخذ بالأسباب تقدمت الاكتشافات ، وهذه الاكتشافات نجدها مطمورة فى القرآن :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن فكل ما يجدُّ ويحدث ويكتشف من شيء فيه موجب وسالب أى ذكورة وأنوثة ؛ يدخل فى نطاق :

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

والإنسان سيد الوجود لا بد له من زوجين ذكر وأنثى وذلك للتكاثر لا للإيجاد ، أما الإيجاد فهو لله سبحانه وتعالى الذى أوجد كل شيء مِن لا شيء . وعندما جاء آدم وحواء وبدأ اللقاح والتكاثر أخذ عدد سكان الأرض فى النمو . ولو أننا رجعنا بالأنسال فى العالم كله رجعة متأخرة نجد العدد يقل إلى أن يصل إلى آدم وحواء . مثال ذلك لو عدنا إلى الوراء مائة عام لوجدنا تعداد مصر لا يتجاوز خمسة ملايين نسمة على الأكثر ، ولو عدنا إلى الوراء قروناً أكثر فإن التعداد يقل ، إلى أن نصل إلى الخلق الأول الذى خلقه الله وهو آدم وخلق له حواء . فالإنسان بمفرده لا يأتى بنسل .

إذن عندما نجرى عملية الإحصاء الإنسانى فى العالم ونرجع بها إلى الوراء ، نعود

إلى الخلق الأول . وكذلك كل شيء متكاثر سواء أكان حيواناً أم نباتاً . وعندما نسير بالإحصاء إلى الأمام فإننا سنجد الأعداد تتزايد ، وتكون القفزة كبيرة . وعندما يبلغنا الحق أنه خلقنا من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، فإن عِلم الإحصاء إنما يؤكد ذلك . والتكاثر إنما يأتى بالتزاوج . والتزاوج جاء من آدم وحواء . وأراد الحق أن يرزق آدم بتوائم ليتزوج كل توأم بالتوأم المخالف له فى النوع من الحمل المختلف . أى يتزوج الذكر من الأنثى التى لم تولد معه فى بطن واحدة .

وجاء ربّنا لنا بهذه القصة كى يبين لنا أصل التكاثر بياناً رمزياً . أوضح سبحانه : أن التباعد الزوجى كان موجوداً ، ولكنه التباعد الإضافى ، صحيح سيكون هذا الولد أخا للبنت هذه ، وهذه البنت أخته ؛ لكن حين تكون مولودة مع هذا ، وتأتى بطن ثانٍ فيها ذكر وأنثى ، فسيكون فيها بُعد إضافى ، فتتزوج البنت لهذا البطن بالذكر فى البطن الثانى . والذكر للبطن الثانى للبنت فى البطن الآخر ، وهذا هو البُعد الإضافى الذى كان مُتاحاً فى ذلك الوقت ؛ لأن العالم كان لا يزال فى بداية طفولته الواهية .

ونلحظ مثل هذا الأمر فى الريف ، حين يقول فلاح لآخر : « الذرة بتاعك خايب » ، يقول الفلاح الثانى : إنى آخذ من الأرض التى أخذت منها الذرة وأعطيها تقاوى منها ، فأنا قد زرعت فداناً من ذرة ، وأحجز كيلتين أو ثلاثا أستخدمها تقاوى لأزرعها ، فتخرج الذرة ضعيفة ، فيقول الفلاح الناضج : يا شيخ هات من ذرة جارك . فيكون ذرة جارى فيه شيء من البُعد . وبعد ذلك تصير النوعية واحدة ، فيقول الفلاح الناضج : هات من بلد أخرى . وبعد ذلك من بلد ثالثة ، ولذلك فالتهجين والتكاثر كيف نشأ ؟ من أين نأتى بالتقاوى ؟ كلما جئنا بها من الخارج يكون الناتج قوياً .

كذلك التزاوج ليكون فى هذه الزوجية مواهب ، ولذلك فطن العربى قديماً لها ، ومن العجيب أن هذا العربى البدوى الذى لم يشتغل بثقافة ولم نعرف له تعليما ولا علماً، يهتدى إلى مثل هذه الحقيقة اهتداءً يجعلها قضية عامة فطرية . ويريد أن يمدح رجلاً بالفتوة ، فيقول عنه :

فتى لم تلده بنتُ عمٍ فيضوى ... وقد يضوى سليل الأقارب

كيف اهتدى هذا الشاعر لهذه ؟! وبعد ذلك يقول :

تجاوزت بنت العَمِّ وهى حبيبة إلىّ
مخافة أن يضوى على سليلها

أى هو يحبها ، لكنه تجاوزها ، حتى لا يضوى سليلها .

ولذلك يقول الشاعر فى هذه القضية :

أنصح من كان بعيد الهم
تزويج أولاد بنات العم
فليس ينجو من ضوى وسقم

الشاعر العربى الذى ليس فى أمة مثقفة ولا تعرف التهجين ولا تعرف هذه الأشياء ، انتبه إلى هذه المسألة ، كيف ؟ إما أن يكون قد اهتدى إليها فى واقع الكون فوجد أن زواج القريبات يُنشىء نسلاً ضعيفاً ، وإما أن يكون ذلك من رواسب الديانات السابقة القديمة والعظات الأولى التى ظل الإنسان محتفظاً بها ، فإذا أراد الله أن يبدأ تكاثر فلا بد أن يتزوج أخ بأخته ، ولكن سبحانه يريد أن نتباعد ، نعم أخ وأخت لكن نتباعد فنأخذ البطن المختلف ، ولذلك حينما جاءوا لينسبوا قصة ابنى آدم قابيل وهابيل ، صحيح اختلفوا . مثلا : « سِفْر التكوين » تكلم ، ونحن نأخذ من « سفر التكوين » لأن التغيير فيه لا يهمهم . فقد كان التغيير فى المسائل التى تهمهم ، كمسألة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما المسائل الأخرى لا تهم ، ومع ذلك ففيها أيضا الكثير .

إنهم يقولون : إن هابيل هو أول قتيل فى الإنسانية وقتله « قابيل » وبعض القصص تقول : لم يكن يعرف كيف يُميته أو يقتله ، فالشيطان مَثَّل له بأنه جاء بطير ووضع رأسه على حجر ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسه حتى قتله ، فعلّمه كيف يقتل ، مثلما سيأتى الغراب ويعلّمه كيف يدفن ، أما مسألة كيف يقتل هذه لم تأت عندنا ، إنما كيف يدفن فقد جاءت عندنا .

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

فهذا هو أول من توفّى وقتل ، لكن كيف تقولون : إنه لم يكن يعرف القتل حتى جاءه الشيطان وعلّمه كيف يقتل أخاه ؟ نقول : أنتم لم تنتبهوا . فالحق قال :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾

فقابيل - إذن - فاهم للقتل ، فلا تقل إنه تعلم القتل ، صحيح مسألة الدفن هذه جديدة ، والقصة جاءت لتثبت لنا كيف بدأ التكاثر ، ليجمع الله فيه بين الزوجين البُعد الإضافى ؛ لأن البُعد غير الإضافى غير مُمكن فى هذا الوقت فتكون هذه بالنسبة لهذا أجنبية ، وهذا بالنسبة لهذه أجنبى إلى أن يتوسع الأمر ، وبعد ذلك يُعاد التشريع بأن الأخت من أى بطن محرّمة على أخيها تحريماً أبديًّا ، وبعد ذلك نتوسع فى الأمر وننقله إلى المحرمات الأخريات من النسب والرضاع فلا بد أن لهذه القصة أصلا . هم قالوا نقرب قرباناً . . لماذا ؟ « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

لماذا يريدان أن يُقرِّبا قُرباناً ؟ قالوا:ان أخت قابيل التى كانت فى بطن معه كانت حلوة وجميلة ، وأخت هابيل لم تكن جميلة ، فطبقا لقواعد التباعُد فى الزوجية كان على هابيل أن يأخذ أخت قابيل ، وقابيل يأخذ أخت هابيل ، فَحَسد قابيل أخاه وقال : كيف يأخذ الحلوة ، أنا أولى بأختى هذه . وكان سيدنا آدم مازال قريب العهد بالوحى ، فقال : قربوا قرباناً وانظروا . لأنه يعلم جيداً أن القربان سيكون فى صف التباعد. « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ». وبعض المفسرين يقول : والله نحن لم نعرف طريقة التقبّل هذه . نقول له : فلنبحث عن « قُربان » فى القرآن . ننظر ما هو القُربان ؟ قد وردت هذه الكلمة فى القرآن فى أكثر من موضع . قال :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٖ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

والحق يقول لهم ردًّا عليهم :

﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

« وبالذى قُلتم » ما هو ؟ إنه القُربان الذى تأكله النار . إذن كان القُربان معروفاً والاحتكام إلى قربان وتأكله النار علامة التقبّل من السماء ويكون صاحبه هو المُقرَّب ، والقُربان فى مسألة هابيل وقابيل لكى يعرف كل منهما من يتزوج الحلوة ومن يتزوج الأخرى ، وتقبل الله قربان هابيل . لكن أرضِى المهزوم ؟ لا ، بل حَسَده ، وهذا أول تأب على مُرادات الحق فى تكليفه . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقالت لنا القصص : إن هابيل كان صاحب ضرع أى ماشية وبذلك يكون عنده زبْد ولبن وجبن ، وحيوانات للحم ، والثانى صاحب زرع ، وقالوا : إن قابيل قدّم شِرار زرعه ، وهابيل قدّم خيار ماشيته . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . « قال لأقتلنك » وسبحانه قال : « أحدهما » ولم يقل قابيل أو هابيل ، « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . فقوله : « قال لأقتلنك » من الذى قال ؟ الذى قال هو من لم يتقبل قربانه ؛ لأنه لم يحقق مُراده وغرضه .

« قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتّقين » . وهل هذا الرّد مُناسب لقوله : « لأقتلنك » ؟ نعم ؛ لأن « لأقتلنك » بسبب أن قربانك قُبِل وقربانى لم يُقبَل . قال: فما دخلى أنا بهذه العملية ؟ الدخل فى العملية للقابل للقربان ، فأنا ليس لى دخل فيها ، وربّنا لم يتقبله لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين . وهو يعلم أنك لست بمتقٍ ؛ فلن يتقبل منك لأنك تأبيت عن حكاية الزواج بابنة البطن المخالف ، وهذا أول تمرُّد على منهج الله وعلى أمره لذلك قال هابيل : لا تلُمنى فأنا لا دخل لى فى القربان المتقبل ؛ لأن هذا من عند الله . والله لم يظلمك ؛ لأن ربنا يتقبل من المتقين . وأنت لست بمتقٍ ؛ لأنك لم ترْضَ بالحكم الأول فى أن تبتعد البطون « إنما يتقبل الله من المتقين » .

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وكلمة « البسط » ضد « القبض » ، وهناك : « بسط له » ، و« بسط إليه » .

وتجد « بسط له » كأن البسط لصالح المبسوط له .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

ولم يقل : « إلى عباده » بل قال : « لعباده » ، إذن فالبسط لصالح المبسوط له ولذلك لا يكون بإلى إلاّ فى الشر ، وشرحنا من قبل هذه المسألة فى قوله الحق :

﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

إذن فالذى يبسط لك يعطيك نفعا والذى يبسط إليك يكون النفع له هو .

« لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك » . وبيّنت « لتقتلنى » مدلول « إلىّ » . والعلة لا عجز عن مقابلة قوّتك بقوة ، لا ، وإنما لأننى أخاف الله ، فليس فى هذا تقصير فى الدفاع عن نفسى لأننى أريد أن أُحَنِّنك تحنيناً يرجعك إلى صَوابك . وساعة يأتى واحد يريد أن يقتل واحداً يقول له : والله لن أقاتلك لأننى أخاف ربنا .

إذن فبينّ له أن خَوفه من الله مسألة مُستقرة فى الذهن حتى ولو كانت ضد استبقاء الحياة ، وقد يعرفها فى نفسه لأن أخاه كان يستطيع أن يقدّم دفاعاً قويا ، لقد ردّ الأمر إلى الحقّ الأعلىٰ . فلا تقل كان هابيل سَلبيّا لا . إنه صعّد الأمر إلى الأقوىٰ .

ويقول الحق :

﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

و« تبوء » أى ترجع من صفقة قتلى بأن تحمل إثم تلك الفعلة وتنال عقوبتها

و« إثمك » وكذلك الإثم الذى كان من أجله أنك أردت أن تقتلنى ؛ لأنك تأبيت على المنهج ، حين لم يتقبل ربنا قربانك . فقد أثمت فى عدم قبولك التباعُد المطلوب فى الزوجية . إذن فأنت عندك إثمان : الإثم الأول : وهو رفضك وعدم قبولك حكم الله ومنهجه وهو الذى من أجله لم يَقبل الله قربانك ، والإثم الثانى : هو قتلى وأنا لا دخل لى فى هذه المسألة ؛ لأن الظالم لا بد أن يأخذ جزاءه .

إن هابيل يقول: « إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك » لم يتمن أن يكون أخوه عاصياً. بل قال : إن كان يعصى بهذه يبوء بإثمى ويأخذ جزاءه ؛ فيكون قد تمنى وأراد له أن يعود إلى العقاب ويناله إن فعل وهو لا يريده أن يفعل .

« إنى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » وجزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سُعارات الظلم من الظالمين ؛ لأن الحق لو تركها للآخرة لاستشرى الظُلم ، والذى لا يؤمن بالآخرة يصبح مُحترفاً للظُلم ، ولذلك قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى ضرب لنا ذلك المثل فى سورة « الكهف » حينما ذكر لنا قصة ذى القرنين : الذى آتاه الله من كل شىء سببا فأتبع سببا ، وبعد ذلك بين لنا مُهمة من أوتى الأسباب واتبع الأسباب ، وجعل قضيته فى الأرض لعمارة الكون وصلاحه ، وتأمين المجتمع . ماذا قال :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِى عَيۡنٍ حَمِئَةٍ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الكهف)

هذا فى رأى العين ، فحين تكون راكباً البحر . ترى الشمس تغرب فى الماء ، هى لا تغرب فى الماء ؛ لأن الماء هو نهاية امتداد أُفقك .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِى عَيۡنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمًاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد خيره : إما أن تعمل هذا وإما أن تعمل ذاك .

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ذلك هو القانون الذى يجب أن يسير فى المجتمع . حتى لا أترك لمن لا يؤمن بإله ولا يؤمن بآخرة أن يستشرى فى الظلم . فَلْيأخذ عقابه فى الدنيا .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى قبل الآخرة لهم عذاب.ولذلك حين يرى الناس مصرع الظالم ، أو ترى الخيبة التى حدثت له فهم يأخذون من ذلك العظة ، وجيلنا نحن عاصر ظالمين كثيرين نكل بعضهم ببعض ؛ ولو مُكِّن المظلومون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض ، وأراد الحق أن يجرى عذابهم أمامنا لتتضح المسألة .

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ولا ينتهى أمره بذلك ، وبعد ذلك يُردّ لمن ؟ يُردّ لله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

يعنى عذاب الدنيا،إن عذابها سيكون محتملا لأنه عذاب منوط بقدرة العاجزين ، إنما العذاب فى الآخرة فهو بقوة القادر الأعلىٰ :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

تلك هى مهمة الله القوى المتين : إنَّ الذى يظلم يضرب به على يده ، والذى يحسن عمله يعطيه الحوافز .

والحق يقول هنا فى الآية التى نحن بصددِ خواطرنا عنها :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولا يقال : طوعت الشيء إلا إذا كان الشيء متأبيا على الفعل ، فلا تقل : أنا طوّعت الماء ، إنما تقول : طوّعت الحديد ، وقوله : « فطوَّعَت له نفسه قتل أخيه » فهل نفسه هى التى ستقتل وهى نفسه التى طوَّعَت ؟

ولننتبه هنا أن الإنسان فيه ملَكتان اثنتان ؛ ملكة فطرية تُحبّ الحق وتُحبّ الخير ، وَملَكَة أهوائية خاضعة للهوى ، فالملكتان تتصارعان .

« فطوَّعَت له نفسُه قَتْلِ أخيه » كأن النفس الشريرة الأهوائية تغلبت على الخيّرة ، فكأن هناك تجاذبا وتصارعاً وتدافعاً ؛ لأن الإنسان لا يحب الظلم إن وقع عليه . لكن ساعة يتصور أنه هو الذى يظلم غيره فقد يقبل على ذلك .

« فطوَّعتَ له نفسه » إنه لايزال فيه بقيّة من آثار النُّبوة ؛ لأنه قريب من آدم ، ولاتزال المسألة تتأرجح معه ، والشر من الأخيار ينحدر ، والشر فى الأشرار يصعد . فقد تأتى لرجل طيب وتثير أعصابه فيقول : إن رأيته لأضربنه رصاصة أو أصفعه صفعتين ، أو أوبِّخه ، والشرِّير يقول : والله إن قابلته أبصق فى وجهه ، أو أضربه صفعتين ، أو أضربه رصاصة . إذن فالشر عند الشرِّير يتصاعد ، ويجد العملية لا تكفى للغضب عنده فيصعدها . إنما نفس الخير تُنفِّس عن غضبها وبعد ذلك ينزل عنها بكلمة ، ولذلك نلاحظ فى سورة سيدنا « يوسف » :

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

والعجيب أنهم جاءوا بالتعليل الذى ضدّهم ؛ كى يعرفك أن الهوىٰ والغضب والحسد والحقد تقلب الموازين ، « ونحن عُصبة » هذه تدل على أنهم أقوياء . وهى التى جعلت أباه يعقوب يعطف على الصغير . أنتم تقولون : « ليوسف وأخوه أحب

إلى أبينا منا » نعم ؛ لأنه صغير ، وسألوا العربى : مالك تُحب الولد الصغير ، قال : لأن أيامه أقصر الأيام معى ، البكر مكث معى طويلاً ، فأنا أعوض للصغير الأيام التى فاتته ببعض الحب وأعطيه بعض الحنان ، قولهم : « نحن عُصبة » هذه ضدهم ، مما يدل على أن الرجل ساعة تختلط عليه موازين القيم ، يأتى بالحُجّة التى ضده ويظن أنها معه ! وبعد ذلك يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

واتفقوا . فبدأوا بقولهم :

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

وقالوا :

﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

ولأنهم أسباط وأولاد يعقوب تنازلوا عن القتل والطرح فى الأرض وقال قائل منهم :

﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يوسف)

وهل يرتب أحد النجاة لمن يكرهه ؟

كأن النفس مازال فيها خير ، فأولا قالوا : « اقتلوا يوسف » هذه شدة الغضب . أو « اطرحوه أرضاً » يطرحونه أرضاً فقد يأكله حيوان مفترس ، فقال واحد : نلقيه فى غيابة الجب ويلتقطه بعض السيارة ، إذن فالأخيار تتنازل .

« فطوّعَت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » . ونعرف الخسران فى قضية التجارة ؛ لأن هناك مكسبًا وهناك خسارة ، و« مكسب » أى جاء رأس المال

بزيادة عليه ، و« الخسارة » أى أن رأس المال قد قلَّ ، فلماذا قتل أخاه وكان أخوه الوحيد وكان يأنس به فى الدنيا ؟ إن هذا حدث من حكاية البنت . فقد أراد أن يأخذ أخته الحلوة ويترك الأخرى ، ولما قدّما القربان ولم يقبل منه تصاعد الخلاف وقتل أخاه ، إذن فَفَقد رأس المال ، بينما كان يريد أن يكسب « فأصبح من الخاسرين » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ونعرف السوءة وهى ما تَتكرّهه النفس . وهى من « ساء ، يسوء ، سوءا » أى يتكره ، وسمينا « العَورة » سَوْءَة ؛ لأنها تتكره .

« فبعث الله غُراباً يبحث فى الأرض » . هل بعثه الله حتى يُرِى قابيل كيف يوارى سوءة هابيل ، أم أن الغراب هو الذى سيقول له ؟ كلا الأمرين متساو ؛ لأن ربنا هو الذى بعث ، فإن كنت ستنظر للوسيلة القريبة فيكون الغُراب ، وإن كنت ستنظر لوسيلة الباعث يكون هو الله ؛ فالمسألة كلها واصلة لله ، وأنت حين تنسب الأسباب تجدها كلها من الله .

« قال يا ويلتى » . ساعة تسمع كلمة « يا ويلتى » يكون لها معنيان فى الاستعمال : المعنى الأول للويل : هو الهلاك ، وإن أردنا المبالغة فى الهلاك نأتى بتاء التأنيث ونقول : ويلة ، ولذلك عندما نحب أن نبالغ فى وصف عالم نقول : فلان عالم وفلان علّام وفلان عَلّامة ، وتأتى التاء هنا لتؤكد المعنى ، إذن فالويل : الهلاك ، و«ويلة » تعنى أيضا الهلاك ، وماذا تعنى « يا ويلتى » ؟

إننا نعرف أن النداء يكون بـ « يا » فكيف تُنادى الويل والهلاك ؟ وهل يُنادىٰ غير العاقل ؟ نعم ، يُنادىٰ ؛ لأنه مادام « الويل » و« الويلة » : الهلاك . كأنك تقول : أنا لم أعد أطيق ما أنا فيه من الهم والغم ، ولا يُخلصنى فيه إلا الهلاك ، يا هلاكى تعال فهذا وقتك ! إذن فقوله : « يا ويلتى » يعنى يا هلاك تعال ، والمتنبى فطن لهذه المسألة وقال :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

فأى داء هذا الذى تقول فيه : يارب أرحنى بالموت !! إذن فالذى يراه من ينادى الهلاك هو أكثر من الموت . المعنى الأول : أنك تنادى الهلاك أن يحضر ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

إنهم يتمنّون الموت ، وكذلك قال قابيل : « يا ويلتى » .

وهل تأتيه الويلة عندما يطلبها ؟ لا ، فقد انتهت المسألة وصار قاتلاً لأخيه .

والمعنى الثانى : أن تأتى « ياويلتنا » بمعنى التعجب من أمر لا تعطيه الأسباب ، وهناك فرق بين عطاء الأسباب وبين عطاء المُسبّب . فلو ظل عطاء الأسباب هو المُتحكّم فى نواميس الكون ، لكان معنى هذا أن الحق سبحانه قد زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة ، وكأنه خلق الأسباب والنواميس وتركها تتحكم ونقول : لا . فبطلاقة القدرة خلقت الأسباب ، وهى تأتى لتثبيت ذاتية القدرة وقيّوميّتها ، فيقول الحق حينما يشاء : توقفى يا أسباب .

إذن فهناك أسباب وهناك مُسبّب . والأمر العجيب لا تعطيه الأسباب . وحين لا يعطى السبب يتعجب الإنسان ، ولذلك يَرُدّ الأمر إلى الأصل الذى لا يتعجب منه . وها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما جاءه الضيوف وقدم لهم الطعام

ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهَم ونفر منهم ولم يأنس إليهم وأوجس منهم خِيفة .
ويقول الحق عن هذا الموقف :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وقال الحق أيضاً فى هذا الموقف :

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة هود)

وهنا قالت امرأة سيدنا إبراهيم :

﴿ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة هود)

أى أن الأسباب لا تعطى ، ورُدّت إلى المُسبّب . (أتعجبين من أمر الله) ؟ كان لك أن تتعجبى من الأسباب لأنها تعطلت ، أما حين تصل الأسباب إلى الله ، فلا عجب .

وقال سيدنا زكريا عليه السلام مثل قولها ؛ فحين رأى السيدة مريم وهو الذى كَفلها ، وكان يجىء لها بمطلوبات مقومات حياتها ، وفُوجىء بأن عندها رزقا من طعامٍ وفاكهة . فسألها :

﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

كيف يقول لها ذلك ؟ لا بد أنه رأى شيئا عندها لم يأتِ هُو به ، وهنا ردَّت عجبه لتنبهه بالحقيقة الخالدة :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

ويشاء الحق أن تقولها سيدتنا مريم وهى صغيرة السن ، وكأنها تقول ذلك كتمهيد ؛ لأنها ـ كما قلنا سابقا ـ ستتعرض لمسألة لا يمكن أن يحلها إلا المُسبِّب ، فسوف تلدِ بدون رُجولة ، وهى مسألة عجيبة ، لذلك كان لا بد أن تفهم هى وأن تنطق :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

وكأن الحق ينبئها ضمناً بأن عليها أن تتذكّر أنها هى التى قالت هذه الكلمة ؛ لأن المستقبل سوف يأتى لك بأحداث تحتاج إلى تذكُر هذا القول . وهى التى تُذكِّر سيدنا زكريا عليه السلام بهذه الحقيقة . ولنر دِقّة إشارة القرآن إلى الموقع الذى ذكرت له مريم فيه تلك الحقيقة :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

كأن ساعة سمع هذه المسألة قرّر أن يدعو الله بأمنيته فى المحراب نفسه . وهل كان سيدنا زكريا لا يعرف تلك الحقيقة ؟ كان يعرفها ، ولكن هناك فرق بين حكم يكون فى حاشية الشعور ، وبين حكم يكون فى بؤرة الشعور .

وقول مريم لزكريا : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » جعل القضية تنتقل من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

لماذا لم يدعُ ربَّه من البداية ؟ . كان سيدنا زكريا سائراً مع الأسباب ورتابة الأسباب قد تذهل وتُشغل عن المُسبِّب ، وعندما سمع من مريم : « يرزق من يشاء بغير حساب » أراد أن يدخل من هذا الباب ، فدعا ربه ؛ وبشّره الحق بأنه سيأتى له بذرّية ، وتعجّب زكريا مرّة أخرى من هذا الأمر شارحاً حالته :

﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة آل عمران)

ومادمت يا زكريا قد دعوت الله أن يهبك الذُرّية وقفزت قضية رزق الله لمن يشاء من حاشية شعورك إلى بؤرة شعورك . فقد جاء أمر الله :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

إذن فلا بحث فى الأسباب والمسببات . فهى إرادة الله . ويوضح الحق حيثيّات « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ويأتيك بالولد ؛ فيقول سبحانه :

﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

وكل هذه مقدمات من مريم ومن سيدنا زكريا الكفيل لها ؛ ذلك أن سيدنا زكريا سوف يكون عنصراً شاهداً عندما يأتيها الولد من غير أب وتلد ، وهو كفيل لها ، وهو الذى سيتعرض لهذا الأمر .

ولماذا كل هذا التمهيد ؟ ؛ لأن خرق الأسباب وخرق النواميس وخرق السُنن إنما حدث فى أمور أخرى غير العِرْض ، لكن عند مريم سيكون ذلك فى العِرض وهو أقدس شيء بالنسبة للمرأة ، لذلك لابد من كل هذه التمهيدات . إذن ، هو أمر عجيب لكنه ليس بعجيب على الله .

وها هوذا قابيل يقول : « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب » كأن عملية الغراب أظهرت لقابيل أنه لم يعرف شيئاً يفعله الطائر الذى أمامه ، فها هى ذى مسألة يفعلها غراب ولا تفعلها أنت يا قابيل ، لقد امتلكت قدرة لتقتل بها أخاك ، لكنك عاجز أن تفعل مثل هذا الغراب . فقابيل لا يقولها ـ إذن ـ إلا بعد أن مرّ بمعنى نفسىّ شديد قاسٍ على وجدانه .

لقد قدر على أخيه وقتله وهو لم يعرف كيف يواريه ، بينما عرف الغراب كيف يوارى جثة غراب آخر . وهكذا أصبح قابيل من النادمين « فأصبح من النادمين » .

إن علينا أن ننتبه إلى الفارق بين « نَدَمٍ » و« نَدَمٍ » . وعلى سبيل المثال : هناك إنسان قد جرؤ على حدود الله وشرب الخمر بالنقود التى كان عليه أن يشترى بها طعام

الأسرة . وعندما عاد إلى منزله ووجد أهله فى انتظار الطعام ، ندم لأنه شرب الخمر ، فهل كان ندم الرجل على أنه عصى الله ، أو ندم لأنه لم يشتر الطعام لأهله ؟ . لقد ندم على عدم شراء الطعام وذلك ندم مرفوض ، ليس من التوبة .

وقد يكون هذا الشارب للخمر قد ارتدى أفخر ثيابه وخرج فشرب الخمر ووقع على الأرض ، وهنا ندم لأن شُرب الخمر أوصله إلى هذا الحال ؛ فهل ندم لأنه عصى ربه ؟ . أو ندم لأنه صار هُزْأة بين الناس ؟ . وكذلك كان ندم قابيل ، لقد ندم على خيبته ؛ لأنه لم يعرف ما عرفه الغراب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

نجد الحق قال:إنه قد كتب على بنى إسرائيل ما جاء بهذه الآية من قانون واضح ؛ لأن معنى كلمة « من أجل » هو « بسبب » ؛ و« أَجْل » مِن أَجَل شرا عليهم يأْجُله ،،أى جنى جناية ؛ أى من جريرة ذلك .

أو من هذه الجناية شرعنا هذا التشريع : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . إذن فساعة تسمع « من أجل » فاعرف أنها تعنى « بسبب ذلك » أو « بوقوع ذلك » أو « بجريرة ذلك » أو « بهذه الجناية كان ذلك » .

ولكن هل هذا الكَتْب خاص ببنى إسرائيل ؟ . بعض العلماء قال:إن ابنى آدم ليس ابنى آدم مباشرة ؛ ولكنهما من ذُرّية آدم وهما من بنى إسرائيل . ونَردّ : من هو إسرائيل أولاً الذى نُسب إليه أبناء إسرائيل ؟ . إنه يعقوب بن إسحاق ؛ بن إبراهيم ، وإبراهيم يصل إلى نوح بأحد عشر أباً ويصل نوح إلى شيث . وبعد ذلك إلى آدم ؛ **فهل كانت كل هذه السلسلة لا تعرف كيف تدفن الميت إلى أن جاء بنو إسرائيل ؟**

طبعاً لا ؛ ومادام الحق أوضح أنه سبحانه قد بعث غُراباً يبحث فى الأرض لِيُرِيَه كيف يُوارى سَوْءَة أخيه ، فهذا دليل على أن هابيل هو أول إنسان تَمَّ دفنه ، ومن غير المقبول ـ إذن ـ أن نقول:إن الإنسان لم يعرف كيف يوارى جثمان الميّت إلى أن وصلت **البشرِّية إلى زمن بنى إسرائيل ، وأنهم هم الذين علموا البشرية ذلك !**

ولماذا جاء الحق هنا ببنى إسرائيل ؟ . سبب ذلك أن بنى إسرائيل اجترأوا لا على قتل النفس فقط بل اجترأوا على قتل النفس الهادية ، وهى النفس التى تحمل رسالة النّبوة ، ولذلك كان التخصيص ، فقد قتلوا أنبياءهم الذين حملوا لهم المنهج التطبيقى ؛ لأن الأنبياء يأتون كنماذج تطبيقية للمناهج حتى يِلفِتوا الناس إلى حقيقة تطبيق منهج الله . الأنبياء ـ إذن ـ لا يأتون بشرع جديد ، ولكنهم يسيرون على شرع من قبلهم . فلماذا قتل بنو إسرائيل بعضاً من الأنبياء ؟ لقد تولّدت لدى بنى إسرائيل حفيظة ضد هؤلاء الأنبياء .

ونعلم أن الإنسان الخيِّر حين يصنع الخير ويراه الشرّير الذى لا يقدر على صناعة الخير فتتولد فى نفس الشرّير حفيظة وحقد وغضب على فاعل الخير . ففاعل الخير كلما فعل خيراً إنما يلدغ الشرّير ، ولذلك يحاول الشرّير أن يُزيح فاعل الخير من أمامه . وكان الأنبياء هم القدوة السلوكية ، وقد قال الحق عن بنى إسرائيل :

﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ٩١ سورة البقرة)

وجاء الحق هنا بـ «من قبل » هذه لحكمة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى عداءٍ مع اليهود ، وقد تَهبّ عليهم الخواطر الشرّيرة فيحاولون قتل النّبى .

وقد حاولوا ذلك . مثلما أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ، ودسُّوا له السّم ، ولذلك قال الله : « من قبل » أى إن قدرتكم على قتل الأنبياء كانت فى الماضى ؛ أما مع محمد المصطفى فلن تُمكّنُوا منه .

ويقول سبحانه : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . وهذا توضيح لإرادة الحق فى تأسيس الوحدة الإيمانية ليجعل من المجتمع الإيمانى رابطة يوضحها قول رسول الله فيما رواه أبو موسى الأشعرى عنه :

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .

وإياك أن تنظر إلى مجترىء على غيرك ، بالباطل ، وتقف مكتوف اليدين ؛ لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسدالواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسّهر والحُمى . فإن قَتل إنسان إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيمانى موقف العاجز . فهذا إفسادٌ فى الأرض ، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفسا واحدة ، بل كأنه قتلٌ للناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد فى الأرض .

ويكمل الحق سبحانه الشق الثانى من تلك القضية الإيمانية : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » ، وهذه هى الوحدة الإيمانية ، فمن يعتدى على نفس واحدة بريئة ، كمن يعتدى على كل الناس ، والذى يسعف إنساناً فى مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً .

وفى التوقيع التكليفى يكون التطبيق العملى لتلك القاعدة ، فالذى يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويعذبه الله ، وكأنه قتل الناس أجمعين ، وإن نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد .

« ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » . وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيمانى مجترئاً بباطل على حق إلا أن يقف كل المجتمع أمامه ، فلا يقف

المعتدَى عليه بمفرده ؛ لأن الذى يُجرِّىء أصحاب الشّر هو أن يقول بعض الناس كلمة « وأنا مَالِى » .

و« الأنا مالية » هى التى تُجرِّىء أصحاب الشرور ، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود والثور الأحمر والثور الأبيض ، فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمحا له بأكل الثور الأبيض . واحتال الأسد على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر ؛ وجاء الدور على الثور الأسود ؛ فقال للأسد :

ـ أكِلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض . كأن الثور التفت إلى أن « أنا ماليته » جعلته ينال مصرعه . لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه .

وهاهوذا الحديث النبوى الشريف الذى يمثل القائم على حدود الله والواقع فيها :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجوا جميعاً »[1] .

كذلك مثل القائم على حدود الله ومثل الواقع فيها ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظر إلى أن نفساً قتلت نفساً بغير حق ، ولكن انظر إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً ؛ لأن الناس جميعاً متساوون فى حق الحياة . ومادام القاتل قد اجترأ على واحد فمن الممكن أن يجترىء على الباقين .

أو أن يكون فعله أُسْوَة لغيره ، ومادام قد اسْتَن مثل هذه السُّنة ، سنجد كل من يغضب من آخر يقتله ، وتظل السلسلة من القتلة والقتلى تتوالى .

(١) رواه البخارى فى الشركة والشهادات ، ورواه الترمذى فى الفتن ، ورواه أحمد فى مسنده .

والحديث النبوى يقول :

« من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

إنه الاحتياط والدقة والقيد : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض » ولو كان التشريع تشريعاً بشرياً فمرّت عليه هذه المسألة يمكن أن يستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل ، ولكن المُشرّع الأعلى لا يستدرك .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض » . فكأن من قتل نفساً بنفس أو بفساد فى الأرض ، لا يقال عليه : إنه قتل الناس جميعاً ، بل أحيا الناس جميعاً ؛ لأن التجريم لأى فعل يعنى مجىء النص الموضح أن هذا الفعل جريمة ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة . ولا يمكن أن تأتى لواحد ارتكب فعلاً وتقول له : أنا أؤاخذك به وأعاقبك عليه بغير أن يوجَد نص بتجريم هذا الفعل .

وهناك توجد قاعدة شرعية قانونية تقول : « لا تجريم إلاّ بنص ولا عُقوبة إلاّ بتجريم » . أى أننا نُرتّب العقوبة على الجريمة ، أو ساعة يُجرّم فعل يُذكر بجانب التجريم العقوبة ، فهل القصد هو عقاب مُرتكب الجُرم ؟ لا إنما القصد هو تفظيع العقاب حتى يراه كل إنسان قبل أن يرتكب الجريمة ، والهدف هو منع الجريمة ، ولذلك تجد الحكمة البشرية القائلة : « القتل أنفى للقتل » ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن ترقى تلك الحكمة إلى قول الحق :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

لأننا يمكن أن نتساءل : أىّ قتل أنفى للقتل ؟ . وسنجد أن المقصود بالحكمة ليس القتل الابتدائى ولكن قتل الاقتصاص . وهكذا نجد الأسلوب البشرى قد فاتته اللمحة الفعّالة فى منع القتل الموجودة فى قوله الحق : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . وكلمة « أحياها » لها أكثر من معنى . وبالتحديد لها معنيان : المعنى الأول : أنه أبقى فيها

الروح التى تحرك المادة ، والمعنى الثانى : إحياء الروح الإيمانية ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ولنا أن نلتفت إلى أن الحق وضع الفساد فى الأرض مُستحقاً لعقوبة القتل . والفساد هو إخراج الصالح عن صلاحيته ، والمطلوب منا إيمانياً أن الأمر الصالح فى ذاته علينا أن نُبقيه صالحاً ، فإن استطعنا أن نزيده صلاحاً فلنفعل وإن لم نستطع فلنتركه على صلاحه .

ولماذا جاء الحق بعقابٍ للفساد فى الأرض ؟. مدلول الأرض : أنها المنطقة التى استخلف الحق فيها البشر ، وساعة يقول الحق : « أو فساد فى الأرض » فمعنى ذلك أن كل فساد عائد على كل مظروف فى الأرض . وأول مظروف فى الأرض أو السيد لها هو الإنسان . وعندما نفسد فى الإنسان ، فهذا معناه قتل الإنسان .

إذن لا بد أن يكون الفساد فى أشياء أخرى : هى الأكوان أو الأجناس الأخرى ؛ الحيوانات والنباتات والجمادات . والفساد فى هذه الكائنات بكون بإخراجها عن مستحوزها ملكيةً ، كأن تسطو جماعة على بضاعة إنسان آخر ، أو أن يأخذ واحد ثمار زرع لأحد ، أو أن يأخذ بعضاً من إنتاج منجم منجنيز أو حديد أو خلافه .

إن الفساد نوعان : فساد فى الأرض وهو متعلق بالمظروف فى الأرض ، والمظروف فى الأرض سيد وهو الإنسان ، والفساد فيه قتله أو أن تُسبب له اختلالاً فى أمنه النفسى كالقلق والاضطراب والخوف . ونلحظ أن الحق سبحانه قد امْتَنّ على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

إذن فمن الفساد تفزيع الناس وترويعهم وهو قسمان : قسم تُفَزِّع فيه مَن لك عنده ثأر أو بينك وبينه ضغينة أو بُغض ، أو أن تُفَزِّع قوماً لا علاقة بينك وبينهم ولم يصنعوا معك شيئاً . فمن يعتدى على إنسان بينه وبينه مشكلة أو عداوة أو بغضاء ، لا نُسمّيه خارجاً على الشريعة ؛ بأخذ حقه ، ولكنه لا يستوفى فى حقه بيده بل لا بد

من حاكم يقوم بذلك كى ينضبط الأمر ويستقيم ، إنه يخرج على الشريعة فقط فى حالة العُدوان .

أما الذى يذهب للاعتداء على الناس ولم يكن بينه وبينهم عداء ؛ فهذه هى الحرابة . كأن يخرج ليقطع الطريق على الناس ويخيف كل من يلقاه ويُسبِّب له القلق والرّعب والخوف على نفسه وماله ، والمال قد يكون من جنس الحيوان أو جنس النبات أو جنس الجماد . وذلك ما يسميه الشرع حرابة وستأتى لها آية مخصوصة .

إذن . فالفساد فى الأرض معناه إخراج صالح عن صلاحه مظروف فى الأرض ، والمظروف فى الأرض سيده الإنسان ، والإفساد فيه إما بقتله أو إهاجته وإشاعة الرّعب فيه ، وإما بشىء مملوك له من الأشياء التى دونه فى الجنسية مثل الزروع أو النباتات أو الحيوانات . فكأن الفساد فى الأرض - أيضاً - يؤهل لقتل النفس :

« منْ قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جَمِيعاً » . أى أن القتل بغير إفساد فى الأرض ؛ هو القتل الذى يستحق العقاب . أما القتل بإفساد فى الأرض فذلك أمر آخر ؛ لأن هناك فارقا بين أن يُقتل قِصاصاً أو أن يقتل حدًّا من المُشرِّع ؛ وحتى عفو صاحب الدم عن القاتل فى الحرابة وقطع الطريق لا يشفع فى ذلك ولا يسقط الحد عن الذى فعل ذلك؛لأنها جريمة ضد المجتمع كله .

ويتابع سبحانه : « ولقد جاءتهم رُسلنا بالبيّنات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » والمُسرف هو المُتجاوز للحَد ، وهو من لا يأخذ قدر تكوينه وموقعه فى الوجود ، بل يحاول أن يخرج عن قدر إمكاناته فى الوجود .

مثال ذلك : رجل حاول أن يسطو على حق غيره فى الوجود ؛ متخطياً منزلة الاعتدال فلا يأخذ حقه فقط . مثل قطاع الطريق أو النهابين يأخذون عرق غيرهم وتعودوا أن يعيشوا كذلك وبراحة . والمصيبة لا تكون فى قاطع الطريق وحده ، ولكن تتعداه إلى المجتمع . فيقال : إن فلاناً يجلس فى منزله براحة وتكفيه ساعة بالليل ليسرق الناس .

إن الأمـر لا يقف عند حدود ذلك الإنسان إنما يتعـدّاه إلى غيره . ويحيا من

يملك مالاً فى رُعب ، وعندما يُفجَع فى زائد ماله ، يفقد الرغبة فى أن يتحرك فى الحياة حركة زائدة تُنتج فائضاً لأنه لا يشعر بالأمن والأمان . وعندئذ يفقد العاجز عن الحركة فى المجتمع السند والعون من الذى كان يتحرك حركةً أوسع . إذن من رحمة الله أنه فتح أمام البشر أبواب الآمال فى التملُّك ، مادام السعى إلى ذلك يتم بطرق مشروعة .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ : الرجل المُرابى الذى يُقرض مُحتاجاً مائة جنيه ، كيف يطلب المرابى زيادة مِمّن لا يجد شيئا يقيم به حياته ؟ إنه بذلك يكون قد أعطى مَن وجد أزيد مما أخذ منه مع فقره وعجْزه . إن ذلك هو الإسراف عينه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡىٌ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

أول شيء فى الحرب هو الاستيلاء ؛ فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أى يرغبون فى الاستيلاء على خيرات أو ممتلكات الطرف الآخر . فكيف يحارب قومٌ اللَّهَ وهو غيب ؟. وأول حرب للَّه هى محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريعه . فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرع أنت على غير منهج الله فأنت تريد أن تستولى على حق الله فى التشريع . وهذه أول حرب لله .

والذين يحاربون الله أَهُمُ الذين يريدون أن يستولوا على ملك الله ؟ لا ؛ لأن يد الله فى مُلكه أزلا ، وستبقى أبدًا وسبحانه لن يسلّمه لأحد من عباده . فعلى ماذا

ـ إذن ـ يريدون الاستيلاء ؟ . إنهم يريدون تزييف تشريعات الله ، بينما سبحانه هو المُشرّع وحده . والتشريع ـ كما قلنا ـ هو قانون صيانة للصّنعة . إذن لماذا لا نترك خالق الإنسان ليضع القواعد التى تصون البشر ؛ لذلك فأول افتيات يفعله الناس أنهم يُشرّعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان ، فإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان ـ الذى هو منه ـ قانون صيانة نقول له : إنك تستولى على حق الله .

وكيف يحاربون الرسول ؟ .

نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم له وضعان ؛ فالله غيب ؛ لكن الرسول كان مشهداً من مشاهدنا فى يوم من الأيام ، وقد حورب بالسيف ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله ، فنأخذ سلطته فى التشريع ، وهى السلطة الثانية ونقول لها : نحن سنشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول ، أو أن يقول نظام ما : سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما ينتشر فى بعض البلدان . ونقول لكل واحد من هؤلاء : أتؤدى الصلاة ؟ . فيقول : نعم . نسأله : كم ركعة صليت المغرب ؟ . فيجيب ثلاث ركعات . نسأله : من أين أتيت بذلك ؟ . ومن أين عرفت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهى لم تذكر فى القرآن الكريم ؟ هنا سيصمت .

ونسأله : كيف تخرج الزكاة وبأى حساب تحسبها ؟ فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف بالمائة فى النقدين والتجارة مثلا .

نقول له : كيف ـ إذن ـ عرفت ذلك ؟ . وأيضا كيف عرفت الحج ؟ . إذن فللرسول صلى الله عليه وسلم مهمة ، وحرب النبى تكون فى ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه الصلاة والسلام .

ومثال ذلك هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة . ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها ، وكل كلام سمعهُ وأقرّه من غيره حديث ، وكل

فعل فعله غيره أمامه وأقرّه ولم يعترض عليه حديث ، فكم تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التى وصلتنا بعد قدر هائل من التنقية البالغة ؟ ؛ لأنهم قالوا : لأن نبعد عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يفعله . إنهم يدعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن فاتهم أن الله حافظ دينه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع القواعد لغربلة الأحاديث فقال :

« من كذب على مُتعمداً فليتبوّأ مقعده من النار »[1] .

وها هوذا البخارى ينقل عن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذين قابلوه ، وسيدنا مُسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنّها مظنّة المقابلة وتحرى كل منهما الدقة الفائقة . وأى شخص كان به خدشة سلوكية لا يؤخذ بقوله ، ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم : « أنا يكفينى أن أقول لا إله إلا الله » ، تساءلت : كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله ؟ وكيف يمكن أن يؤدى الأذان للصلاة ؟ وكيف يؤدى الصلاة ؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهذا تفويض من الله فى أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريع .

وكذلك الاجتراءات على الأئمة ، هم يجترئون أولاً على النبى ثم يزحفون على الدين كله . وجاء فيهم قول الحق : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً » أى يخرجون الصالح بذاته عن صلاحه ليكون فاسداً . الجزاء أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبُوا ، وهذا التفعيل فى قوله : (أن يقتلُّوا أو يصلّبُوا) جاء للشدة والتقوية ؛ حتى يقف منهم المجتمع الإيمانى العام موقف القائم على هذا الأمر ، والسلطة الشرعية قامت عن الجميع فى هذا الأمر ، كما يقال : إن النائب العام نائب عن الشعب فى أن يرفع الدعوى ، حتى لا ينتشر التقتيل بين الناس ، دون أن يفقهوا حكمة كل أمر .

« أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من

[1] رواه أحمد والترمذى والحاكم عن على كرم الله وجهه .

الأرض » . وهل « أو » هنا تخييرية ، أو أنّ هنا ـ كما يقال ـ « لف ونشر » ؟ واللف هو الطى . والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه .

فما اللف ، وما النشر ـ إذن ـ ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى . .

لقد ذُكر مُتعدّد ولكن الأحكام غير مذكورة ، هذا هو اللف ؛ فجمع المبتدءات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره ؛ ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه . فأكمل بيت الشعر بقوله :

راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

ولنقرأ البيت كاملاً :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى
راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

والحق يقول :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فقوله : « لتسكنوا فيه » راجع إلى الليل ، وقوله : « ولتبتغوا من فضله » راجع إلى النهار . وهنا جاء باللف ، ثم جاء بالنشر .

والفساد ـ كما نعلم ـ له صُور متعددة ، فالفساد فى الإنسان قد يعنى قتله . أو قتله وأخذ ماله . أو الاستيلاء على ماله دون قتله . أو إثارة الرعب فى نفس الإنسان دون أخذ ماله أو قتله . فكأن كلمة الفساد طوى فيها ألوان الفساد ، نفس تقتل ، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ ، أو مال يُؤخذ دون نفس تقتل ، أو تخويف وتفزيع .

ويقول الحق : « أو ينفوا من الأرض »، والنفى معناه الطرد والإبعاد ، والطرد لا يتأتى إلا لثابت مُستقر ، والإبعاد لا يتأتى إلا لمُتمكن . إذن ، فقبل أن يُنفى لا بد

أن يكون له ثبوتٌ وتمكُّن فى موضع ما ، وهو ما نسميه اصطلاحاً السكن ، أو الوطن ، أو المكان الذى يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه . ومعنى ثابت فيه . أى له حركة فى دائرته ، إلا أنه يأوى إلى مكانٍ مُستقر ثابت ، ولذلك سُمى سكناً ؛ أى يسكن فيه من بعد تحركه فى مجالاته المختلفة . ومعنى النفى على هذا هو إخراجه من مسكنه ومن وطنه الذى اتخذه موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه . ولكن إلى أى مكان نُخرج إليه هذا الذى نحكم عليه بالنفى ؟ قد يقول قائل : أنت إن أخرجته من مكان أفسد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فساده !

لا ؛ لأن النفى لا يتيح له ذلك الإفساد ، ذلك أن التوطن الأول يجعل له إلفاً بجغرافية المكان ، وإلفاً بمن يخيفهم ؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يخيف فلانا وكيف يغتصب بضاعة آخر وهكذا . ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه ، ومواطن الضعف فيهم . وعلى ذلك يكون النفى هو منعٌ لإفساد الفاسد .

وحين يقول سبحانه : « أو ينفوا من الأرض » نعرف أن كلمة « الأرض » لها مدلول ونسمى الأرض الآن : الكرة الأرضية . وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه ، وبعد أن عرفنا أن جَوَّ الأرض منها صار جو الأرض جزءا من الأرض . ولذلك قلنا فى المقدسات المكانية : إن كل جو يأخذ التقديس من مكانه ؛ فجو الكعبة كعبة ؛ بدليل أن الذى يصلى فى الدور الثالث من الحرم ؛ ويتجه إلى الكعبة . يصلى متجها إلى جو الكعبة . ومن يستقل طائرة ويرغب فى إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة ، وعندما ازدحم الحجيج وصار المسعى لا يتسع لكل الحجيج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسعى الناس فيه . إذن فالمسعى ليس هو المكان المحدد فقط ، ولكن جوه أيضا له قدسية ؛ فإن بنينا كذا طابقا فهى تصلح أيضا كمسعى .

إذن فجو الأرض ينطبق عليه ما ينطبق على الأرض . ولذلك كانوا يُحرمون ـ قبل أن يوجد طيارون مسلمون ـ أن يُحَوِّم فى جو الحرم طيار غير مسلم ؛ لأن الطيار غير المسلم مُحرم عليه أن يدخل الكعبة والحرم . ومادام هناك إنسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضا ممنوع من الطيران فى جَوّ الكعبة .

لأن جَوّ المكان يأخذ قُدسية المكان أو حكمه ؛ فالجَوّ من الأرض ، ونعرف أن الغلاف الجوى يدور مع الأرض . ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه . ومادام القائل للقرآن هو الخالق للكون ، إذن لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية . وإنما يوجد التضارب من أحد أمرين : إما أن نعتبر الأمر الذى لايزال فى طور النظرية حقيقة فى حين أنها لم تصبح حقيقة بعد ؛ وإما أن نفهم أن هذا حقيقة قرآنية ، على الرغم من أنه ليس كذلك ، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق وحقيقة قرآنية بحق ، فلا تضارب على الإطلاق . ودليل ذلك على سبيل المثال قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

ويأتى العلم الحديث بالبحث والتحليل ، ويقول بعض السطحيين :

لا ، إن العلم يعرف ما فى الرّحم من ذكر أو أنثى . ونقول : نحن لا نناقش ذلك ؛ لأنها حقيقة كونية وهى لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية ؛ لكننا نسأل : متى يعرف العلماء ذلك ؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مُضى مُدة زمنية ، ولكن الحق يعلمه قبل مرور أية مدة زمنية . ثم مَن قال : إن الحق يقصد بـ«ويعلم ما فى الأرحام» ذكراً أو أنثى فحسب؟ وهل لمدلولها وجه واحد؟ لا ، بل له وجوه متعددة فلن يعرف أحد أن ما فى الرحم سيكون من بعد إنسانا طويلاً أو قصيراً ؛ ذكيا أو غبياً ؛ شقياً أو سعيداً ؛ طويل العمر أو قصير العمر ؛ حليماً أو غضوباً . فلماذا نحصر « ما » فى مسألة الذكر والأنثى فقط ؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أزلاً قبل أن يعلم أى عالم وقبل أن يحصل العالم على أية عينة . ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملياً ما الذى تحمله فى بطنها ؟ طبعاً لا ، ونحن لا نعلم ماذا فى بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم . ثم هل تذهب كل النساء الحوامل فى العالم لطبيب واحد ؟ بالطبع لا ، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما فى كل الأرحام .

إذن فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأية حقيقة كونية ، لكن الصدام يحدث عندما

نفهم فهما خطأ أن الحقيقة القرآنية فى قوله الحق : « ويعلم ما فى الأرحام » مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط .

ومثال آخر ، يقول الحق :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾

(من الآية ١٩ سورة الحجر)

ويُخطىء البعض الفهم عن الله فيظن أن المقصود بذلك أن الأرض بساط أمام الإنسان . وقد ثبتت للبشر حقيقة كونية هى أن الأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة ؛ وظهور أعالى الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك ، ثم صارت فى عصرنا مُشاهدة من الأقمار الصناعية . إذن هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها ، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية والفهم الصواب فى مدلول الحقيقة القرآنية الخاصة بقوله تعالى : « والأرض مددناها » ؛ إننا كلما وقفنا فى مكان نجد أرضا ، أى أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

إذن فسبحانه قد مَد الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار الإنسان فى أى اتجاه ؛ يجد أرضاً . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية . لهذا كان الخطأ فى فهم مدلُول الحقيقة القرآنية ؛ لأن التضارب إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهى ليست كذلك ، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية على نحو خاطىء ، إنهما لا تتعارضان ، فالقائل هو الخالق عينه . ولهذا عرفنا متأخراً أن الجو من الأرض وأن الغلاف الجوى يدور مع الأرض ، وكنا نقول : سرنا على الأرض ، لكنه سبحانه قال وهو العليم :

﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

وهو سبحانه علم أزلاً أن الجو جزء من الأرض . فمهما سار الإنسان على اليابسة ففوقه الغلاف الجوى . إذن فالإنسان إنما يمشى فى الأرض وليس على الأرض . أما إن سار الإنسان فوق الغلاف الجوى فهو يسير فوق الأرض .

ونعود إلى قوله الحق : « أو ينفوا من الأرض » وقد عرفنا أن النفى هو الطرد والإبعاد ، فأى أرض ينفون منها وإلى أى أرض ؟ ولا يكون الطرد إلا لمستقر

ولا الإبعاد إلا لثابت . وحتى فى اللغة نعرف ما يسمى النفى والإثبات . وكل ذلك مأخوذ من شيء حِسى ؛ فعندما نأخذ الماء من البئر نُنزل إلى قاع البئر دلواً ، وكل دلو ينزل إلى البئر له « رِشاء » وهو الحبل الذى نُنزل بواسطته الدلو .

إننا ساعة نُخرج الدلو من البئر ، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه . فهل لدينا حركة ثابتة نستطيع بها المحافظة على استطراق الماء إلى تمام حافة الدلو ؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن ؛ بل نجد قليلا من الماء يتساقط من حوافى الدلو ، وهذا الماء المتساقط يُسمى « النِّفِى » ؛ لأننا لا نستطيع استخراج الدلو وهو ملآن لآخره بحركة ثابتة مستقرة بحيث تحافظ على استطراق الماء .

إن الماء ـ كما نعلم ـ له استطراق دقيق إلى الدرجة التى جعلت البشر يصنعون منه ميزاناً للاستواء . ومن « النَّفْى » تؤخذ معان كثيرة ، فهناك « النفاية » وهى الشيء الزائد . إذن كيف يكون النفى من الأرض ؟ وهل نأخذ الأرض بمفهومها العام أو بمعناها الخاص ؟ أى الأرض التى حدث فيها قطع الطريق ؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنفى يكون لأى أرض أخرى . وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النفى ؟ ونرى أن الحق سبحانه قد قال فى موضع آخر من القرآن :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

هم بلا جدال يسكنون فى الأرض . وجاء هذا القول لمعنى مقصود ، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تحييز مكان فى الأرض ، كأن يقول قائل : « اسكن ميت غمر » أو « اسكن الدقهلية » أو « اسكن طنطا » ، وهذا تحديد لموقع من الأرض للاستقرار ، والمعنى المقصود إذن أن الحق يبلغنا أنه سيقطعهم فى الأرض تقطيعاً بحيث لا يستقرون فى مكان أبدا . وذلك مصداقا لقول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

فليس لهم وطن خاص . وتمت بَعْثَرَتُهم فى كل الأرض ، وهذا هو الواقع الذى

حدث فى الكون . أُوجِدَ لبنى إسرائيل استقرار فى أى وطن ؟ . لا . وحتى الوطن الذى أقاموه بسبب وعد بلفور لم يترك الحق أمره . بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسنوا العمل لاسترداده . ومازال اليهود بطبيعتهم شتاتاً فى أنحاء الأرض . ولهم فى كل وطن حىّ خاص بهم . وتحتفظ كل جماعة منهم فى أى بلد بذاتيتهم ولا يذوبون فى غيرهم :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين يأتى بهم الحق فى الجولة الآخرة سيأتون لفيفاً أى مجتمعين ؛ لأن الأُمّة المؤمنة حين يقوّيها الله لتضرب على هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مُجتمعين . وكأن الله قد أراد أن يكون هذا « الوطن القومى » حتى يتجمعوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيفاً ؛ لذلك لا نحزن لأنه قد صار لهم وطن ، فقد جاء بهم لفيفاً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددها . كيف يكون النفى من الأرض ؟ حين يريد الله تَحيِيز مكان فهو يقول على سبيل المثال :

﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

إذن فقد نفى غيرها . وهو يقول أيضاً :

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة الأعراف)

وكان المقصود بها مصر .

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فحكمها حُكم « اسكنوا الأرض » . والنفى هو صورة من صور العقوبات للإفساد ، والإفساد فى الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام ؛ قتل ، قتل وأخذ مال ، أخذ مال فقط ، ترويع . وقد زاد رسول الله صلّى الله عليه وسلم شيئاً وفعله فى سيرته ، فقد جاء لنا بأمر جديد فى أمر الإفساد . وكان على

العلماء أن يتنبهوا له ، فأول نفى حصل فى الإسلام كان نفى رسول الله الحَكَم بن أبى العاص من المدينة إلى الطائف ؛ لأن الحكم ـ والعياذ بالله ـ كان يُقلِّد مِشْيَة النبىّ باستهزاء ، وكان النبى صلّى الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما يَتحدَّر من صَبَبٍ . فقد كانت مشية النبى مشية خاصة . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحَكَمَ يقلد مِشيته فى استهزاء والتفت النبى ـ ذات مرة ـ فجأة ، فوجد الحكم يقلده فى مِشيته فنفاه من المدينة إلى الطائف ، وظل الحكم فى الطائف طوال حياة رسول الله صلىّ الله عليه وسلم . فلما جاءت خلافة أبى بكر الصديق ، ذهب أهل الحَكَم إلى أبى بكر ، فقال :

ـ ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق . وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضى الله عنه حَيياً وخجولاً فقال : لقد أخذت كلمة من رسول الله صلىّ الله عليه وسلم تحمل شبهة الإفراج عنه . ويفرج عنه عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وأثناء حياة الحَكَم فى الطائف كان يربى بعض شُويهات وبعض غُنيمات وكان يرعاها عند جبيلات الطائف . وكان لهذه المسألة آثار من بعد ذلك . فأنتم تعلمون أن معاوية رضى الله عنه أنجب يزيد الذى تولّى الخلافة من بعده . وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحَكَم .

وكان خالد بن يزيد الذى ترك الخلافة لمروان عالماً كبيراً فى الكيمياء وله أخ اسمه عبدالله ، وكان لعبدالله جياد يتسابق بها . وكان لولد من أولاد عبدالملك بن مروان جياد أيضاً ، وجرت جياد عبدالله مع جياد ابن عبدالملك فى مضمار سباق ، فلما جاءت خيل عبدالله لتسبق . . حدث خلاف بين عبدالله وابن عبدالملك ؛ فنهر ابن عبدالملك عبدالله ، فذهب عبدالله واشتكى لأخيه خالد . وهنا ذهب خالد لعبدالملك بن مروان ، وقال له :

ـ لقد حدث من ابنك لأخى كذا وكذا . وكان عبدالملك فصيحاً فى العرب وما جربوا عليه لحناً أبداً . وربّى أولاده على ألا يلحنوا فى اللغة . وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون لحن .

فلما دخل خالد إلى عبدالملك أراد أن يجد فيه شيئاً يعيبه به ، قال عبدالملك لخالد : أتكلمنى فى عبدالله وقد دخل علىّ آنفاً فلم يخل لسانه من اللحن ؟

وقال خالد ـ معرضا بالوليد ـ : والله يا عبدالملك لقد أعجبتنى فصاحة الوليد . فقال عبدالملك : إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن . فقال خالد : وإن كان عبدالله يلحن فإن أخاه خالداً لا يلحن .

فقال عبدالملك : اسكت يا هذا فلست فى العيرِ ولا فى النفير .

وأظن أن قصة العير والنفير معروفة . فالعير هى التى كانت مع أبى سفيان وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نجا بها أبو سفيان . والنفير هم الجماعة التى استنفرها أبو سفيان من مكة لأنه خاف من المسلمين وكانت زعامتهم لعتبة . فالعير كانت زعامته لأبى سفيان والنفير كانت زعامته لعتبة بن ربيعة ، وكان عتبة هو جدّ خالد لأمه ، وأبو سفيان هو جدّه لأبيه . فقال خالد : ومن أولى بالعير وبالنفير منى ، جدّى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عُتّبة صاحب النفير ، ولكن لو قلت غنيمات وشويهات وجبيلات وذكرت الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى . وأسكته .

إذن . فالنفى كان أول عقاب أنزله الرسول صلىّ الله عليه وسلم ، فهل ما فعله « الحَكَم » يُعتبر فساداً ؟ . ونقول : إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذى يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحَكَم يستهزىء بِمشية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يقول مُشرّع ما : إن السجْن يقوم مقام النفى ونقول : لا ، إن السجن الآن فيه الكثير من الرفاهية . فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة . والهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شرور المُفسِد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه . وذلك أمر متروك للحاكم يفعله كيف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة . بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض إلى أرض أخرى .

ويتبع الحق هذا بقوله : « ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »

وهذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين فى الأرض المحاربين لله ورسوله وهو : « أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » . وهذه العقوبات خزى لهم .

إن كلمة « خزى » ترد فى اللغة بمعنيين ؛ مرة بمعنى الفضيحة ، « خَزِىَ ، يَخْزَى ، خِزياً » ، أى انفضح ، ومرة ثانية هى « خَزِى ، يَخْزَى ، خَزاية وَخَزًى » بمعنى استحى . والمعنيان يلتقيان ، فمادام قد افتضح أمر عبدٍ فهو يستحى مما فعل . وتلك الأفعال خزى ، كالذى قطع طريقاً على أناس آمنين ، ونقول لمثل صاحب هذا الفعل : إن قوّتك ليست ذاتية بل قوّة اختلاسية ؛ فلو كانت قُوّتك ذاتية لاستطعت أن تتأبّى لحظة أن يأخذوك ليقتلوك أو يصلبوك أو يقطعوا يدك ورجلك . فقد اجترأت على العُزّل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم ، وفى هذا خزى لك . خصوصاً وأنت ترى من كانوا يخافونك وأنت تنال العقاب . وخزيك الآن هو مقدمة لعذاب آخر فى الآخرة ، فسوف تنال عذاباً عظيماً .

« ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » . وكل جزاء فى الدنيا إنما يأتى على قدر طاقات البشر فى العقاب ، ولكن ماذا إذا وُكِلُوا إلى طاقة الطاقات ؟. ها هى ذى عدالة الحق تتجلّى ، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال للمُسرفين على أنفسهم ؛ أولاً بالتوبة ؛ لأن الله الرّحيم بعباده لو أخذ كل إنسان بجريرة فعلها أو عاقب كل صاحب ذنب بذنبه لاستشرى فى الأرض فساد كل من ارتكب ذنباً لأنه يئس من رحمة الله فتشتد ضراوته وقسوته . وسبحانه فتح باب التوبة لكل من أسرف على نفسه . وإن لم توجد التوبة لصار المُسرف فاقِدا . وهب أن واحداً من الذين فعلوا ذلك استيقظ ضميره ، فإن تاب قبل أن تقدروا عليه فهناك حُكم ، أما إن تاب بعد أن يقدر عليه المجتمع فلا توبة له .

ويقول الحق :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾

ومادام الإنسان قد تاب وقام بتسليم نفسه دون أن يقدر عليه المجتمع فقبول التوبة حَقٌّ له ، ويجب أن نأخذ « أن الله غفورٌ رحيم » فى نطاق ما جعله الله لنفسه ، أما ما جعله الله لأولياء المُعتدى عليهم فلا بد من العقاب للمعتدى إن طلبه أصحابه .

« إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم » . والقرآن يجعل من المنهج الإيمانى عجينة واحدة . لذلك يُقسّم المسائل إلى فصول كالتقنينات البشرية التى تُبوّب ؛ لذلك نجد القرآن يعامل الأقضية وكأنها فُرص استيقاظ للنفس ؛ لذلك يأخذ النفس إلى أمرٍ توجيهى بالطاعة .

وضربنا من قبل المثل حينما تكلم القرآن عن مسائل الأسرة فى سورة البقرة :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومن بعد ذلك يأتى إلى أمر الصلاة :

﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سور البقرة)

وضع الله ـ إذن ـ الصلاة بين أمرين من أمور الأسرة ، حيث قال من بعد أمره بالحفاظ على الصلاة حتى أثناء القتال :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

وجاء بأمر الحفاظ على الصلاة بين المشكلات الأسرية ، وذلك ليجعل الدين لبنة واحدة ، وأيضاً لأن النفس المشحونة بالبغضاء وزِحام أمور الزواج والوصيّة والطلاق ؛ هذه النفس عندما تقوم إلى الصلاة لله فهي تهدأ . ولنا في رسول الله صلىّ الله عليه وسلم أُسوةٌ حسنة . فقد كان إذا حَزَبَه أمرٌ واشتد عليه قام إلى الصلاة .

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يأتي بأمور الدين كأبواب منفصلة ، باب للصلاة ، وآخر للصوم ، وثالث للزكاة ، لا . بل يمزج كل ذلك في عجينة واحدة . ولذلك فعندما أنزل بالمفسدين المحاربين لله عقاب التقتيل والتصليب والتقطيع والنفي . كان ذلك لتربية مهابة الرُّعب في النفس البشرية . وساعة يستيقظ الرُّعب في النفس البشرية يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لقد أخرجنا من جَوٍّ صارمٍ وحديث في عقوباتٍ إلى تقوى الله . والتقوى ـ كما نعرف ـ أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يؤذيه وقاية .

وعرفنا أن الحق سبحانه الذى يقول « اتقوا الله » هو بعينه الذى يقول « اتقوا النار » ، وعرفنا كيف نفهم تقوى الله . بأن نجعل بيننا وبين الله وقاية . وإن قال قائل :

إن الحق سبحانه يطلب منا أن نلتحم بمنهجه وأن نكون دائماً فى معيّته . فلنجعل الوقاية بيننا وبين عقابه . ومن عقابه النار .

إذن فقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله » أى أن نتقى صفات الجلال ،

والنار من خلق الله وجنده . وقوله سبحانه : « وابتغوا إليه الوسيلة » أى نبحث عن الوُصْلة التى تُوصّلنا إلى طاعته ورضوانه وإلى محبّته . وهل هناك وسيلة إلا ما شرَّعه الله سبحانه وتعالى ؟ وهل يتقرَّب إنسان إلى أى كائن إلا بما يعلم أنه يُحبّه ؟ .

وعلى المستوى البشرى نحن نجد من يتساءل : ماذا يُحب فلان ؟. فيقال له : فلان يُحب ربطات العُنق ؛ فيُهديه عدداً من ربطات العُنق . ويقال أيضاً : فلان يحب المسبحة الجيدة ، فيحضر له مسبحة رائعة . إذن كل إنسان يتقرّب إلى أى كائن بما يُحب ، فما بالنا بالتقرب إلى الله ؟. وما يُحبه سبحانه أوضحه لنا فى حديثه القدسى :

(من عادى لى وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه)[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يفسح الطريق أمام العبد ، فيقول سبحانه فى الحديث القدسى :

(ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل) .

أى أن العبد يتقرب إلى الله بالأمور التى لم يلزمه الحق بها ولكنها من جنس ما افترضه سبحانه ، فلا ابتكار فى العبادات . إذن فابتغاء الوسيلة من الله هى طاعته والقيام على المنهج فى « افعل » و« لا تفعل » .

والوسيلة عندنا أيضاً هى منزلة من منازل الجنة . والرسول صلّى الله عليه وسلم طلب منا أن نسأل الله له الوسيلة فقال :

(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا علىّ فإنه من صلّى علىَّ صلاة

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق ، ورواه ابن ماجه فى العين .

صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبدٍ من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لى الوسيلة حلّت له الشّفاعة)[1] .

ولا نريد أن ندخل هنا فى مجال التوسل بالنبى أو الأولياء ؛ لأنها مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد . فبعضهم يحكم بكفر هؤلاء .

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبى أو الولى : هذّبوا هذا القول قليلاً ؛ إنّ حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم ، فالذى يتوسل إلى الله بالنبى أو الولى هو يعتقد أن له منزلة عند الله . وهل يعتقد أحد أن الولىّ يجامله ليعطيه ما ليس له عند الله ؟. طبعا لا . وهناك من قال : إن الوسيلة بالأحياء مُمكنة ، وأن الوسيلة بالأموات ممنوعة . ونقول له : أنت تضيق أمراً مُتسعاً ؛ لأن حياة الحى لا مدخل لها بالتوسل ، فإن جاء التوسل بحضرته صلّى الله عليه وسلم إلى الله ، فإنك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله ؛ فحُبك له هو الذى يشفع . وإياك أن تظن أنه سيأتى لك بما لا تستحق .

والجماعة التى تقول : لا يصح أن نتوسل بالنبى ؛ لأن النبى انتقل إلى الرفيق الأعلى ، نقول لهم : انتظروا قليلاً وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عُمر ـ رضوان الله عليه ـ ؛ قال : كنا فى عهد رسول الله إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقى به . ولما انتقل رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، توسل بعمه العباس . وقالوا : لو كان التوسل برسول الله جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن التوسل بالنبى بعد انتقاله ، وذهب إلى التوسل بعم النبى . ونسأل : أقال عمر « كنا نتوسَّل بنبيك والآن نتوسَّل إليك بالعباس؟أم قال:والآن نتوسل إليك بعم نبيك » ؟.

ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم ؛ لأن التوسُّل لا يكون بالنبى فقط ولكن التوسل أيضاً بمن يمت بصلة إلى النبى صلّى الله عليه وسلم . فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعنى أنه يعتقد أن الذى توسل به لا يقدر على شىء، إننى أتوسل به إلى الغير لأنى أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ لى مطلوبى . إذن فلنبعد

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

مسألة الشرك بالله عن هذا المجال ، ونقول : نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن المتوسل إليه هو القادر وأن المتوسل به عاجز . وهذا هو منتهى اليقين ومنتهى الإيمان .

ولكن المتوسَّل به قد ينتفع وقد لا ينتفع ، وعندما توسَّل سيدنا عمر بالعباس عَمّ النبى كان يفعل ذلك من أجل المطر . والمطر فى هذه الحالة لا ينتفع به رسول الله لذلك جاء بواحدٍ من آل البيت وكأنه قال : « يا ربِّ عمُّ نبيك عطشان فمن أجله نريد المطر » .

إذن فتوسُّل عمر بن الخطاب بعم النبى دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبى بعد الانتقال إلى الرفيق الأعلى . وحتى نخرج من الخلاف . نقول : إن العمل الصالح المتمثل فى « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » هو الوسيلة الخالصة . وبذلك نخلص من الخلاف ولا ندخل فى متاهات .

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » ولنر الإيثار الإيمانى الذى يريد الحق أن يُربّيه فى النفس المؤمنة بتقوى الله التى تتمثل فى الابتعاد عن محارِمه ، وابتغاء الوسيلة إلى الله فى اتباع أوامرِه .

إن الدِّين لم يأتِكَ من أجل نفسك فحسب ، ولكن إيمانك لن يصبح كاملاً إلا أن تُحب لأخيك ما تحبه لنفسك ، فإن كنت قد أحببت لنفسك أن تكون على المنهج فاحرص جيداً على أن يكون ذلك لإخوانك أيضاً . وإخوانك المؤمنون ليسوا هم فقط الذين يعيشون معك ، ولكن هم المقدر لهم أن يوجدوا من بعد ذلك . ولذلك عليك أن تجاهد فى سبيل الله لتعلو كلمة الله . وهكذا تتّسع الهِمَّةُ الإيمانية ، فلا تنحصر فى النفس أو المعاصرين للإنسان المؤمن . ولذلك يضع لنا الحق الطريق المستقيم ويوضحه ويبيّنه لنا .

وكانت بداية الطريق أن المؤمن بالله حينما وثق بأن لله نعيماً وجزاءً فى الآخرة هو خير مما يعيشه قدَّم دمه واستشهد ؛ لذلك قال صحابى جليل : أليس بينى وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فإما أن أقتلهم وإما أن يقتلونى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وألقى الصحابى تمرات كان يأكلها ودخل المعركة .

لا بد إذن أنه قد عرف أن الحياة التى تنتظره خير من الحياة التى يعيشها ؛ ومع ذلك لم يضع الله الجهاد كوسيلة فى أول الأمر ، بل ظل يأمرهم بالانتظار والصبر حتى يُرَبِّىَ من يحملون الدعوة . فلن يجعلها سبحانه عملية انتحارية .

وبعد ذلك نرى أثناء رحلة الدعوة للإسلام أن صحابياً يحزن لأنه فى أثناء القتال قد أفلت منه عَمرو بن العاص ، وأن خالد بن الوليد قد هرب . وتثبت الأيام أن البشر لا يعرفون أن علم الله قد ادّخر خالداً وأنجاه من سيف ذلك الصحابى من أجل أن ينصر الإسلام بخالد . وكذلك عَمرو بن العاص قد ادَّخره الله إلى نصرٍ آخر للإسلام .

إذن فالجهاد فى سبيل الله ضمانٌ للمؤمن أن يظل المنهج الذى آمن به موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، وذلك لا يتأَتّى إلا بإشاعة المنهج فى العالم كله . والنفس المؤمنة إذا وقفت نفسها على أن تجاهد فى سبيل الله كان عندها شىء من الإيثار الإيمانى . وتعرف أنها أخذت خير الإيمان وتُحب أن توصّله إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها فى غير ديار الإسلام ، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤمناً ، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجدها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالناس إذا كانوا أخياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرِّهم شىء .

إذن فمن مصلحة الخيِّر أن يشيع خيره فى الناس ؛ لأنه إن أشاع خيره فهو يتوقع أن ينتفع بجدوى هذا الخير وأن يعود عليه خيره ؛ لأن الناس تأمن جانب الرجل الطيب ولا ينالهم منه شر . لأنه يحب أن يكون كل الناس طيبين وعلى ميزان الإيمان ؛ لأنهم إن كانوا على ميزان الإيمان فالطيب يستفيد من خيرهم . أما إن بقى الناس على شرِّهم وبقى الإنسان الطيب على خيره ، فسيظل خير الطيب مبذولاً لهم ويظل شرُّهم مبذولاً للطيب .

إذن من حكمة الإيمان أن « يعدّى » الإنسان الخير للغير . وإن دعوة المؤمن إلى سبيل الله ، ومن أجل انتشار منهج الله لا بد من الإعداد لذلك قبل اللقاء فى

ساحات المعارك ؛ فقبل اللقاء مع الخصم فى ساحة المعركة لا بد من حُسْنِ الإعداد . وعندما يعدّ المؤمن نفسه يجد أن حركة الحياة كلها تكون معه ؛ لأن الدعوة إلى الله تقتضى سُلوكاً طيباً ، والسُلوك الطيب ينتشر بين البشر ، وهنا يقوى معسكر الإيمان ، فيرتقى سلوكاً وعملاً ، وعندما يقوى معسكر الإيمان يمكنه أن يستخرج كنوز الأرض ويحمى أرض الإيمان بالتقدم الصناعى والعلمى والعسكرى . والحق يقول :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

سبحانه أنزل القرآن وأنزل الحديد ، ويتبع ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وجاء معنى البأس من أجل ذلك ، وهذا هو السبب الثانى الذى أوصانا به الحق :

إياكم أن تأخذوا منهج الله فقط الذى ينحصر فى « افعل ولا تفعل » ولكن خذوا منهج الله بما يحمى منهج الله وهو التقدم العلمى باستخراج كنوز الأرض وتصنيعها كالحديد مثلاً ، فسبحانه كما أنزل القرآن يحمل المنهج ، فقد أنزل الحديد وعلى الإنسان مهمة استنباط الحديد والمواد الخام التى تُسهّل لنا صناعة الأجهزة العلمية ونقيم المصانع التى تنتج لنا من الحديد فولاذاً ، ونحوّل الفولاذ إلى دروع ، ونصنع أدق الأجهزة التى تهيىء للمقاتل فُرصة النصر . وكذلك نَدّخر المواد الغذائية لتكفى فى أيام الحرب .

إذن حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أن تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة ، ولكن أعدّ نفسك للمعركة ؛ لأنك إن أعددت نفسك جيّداً وعلم خصمك أنك أعددت له ، ربما امتنع عن أن يحاربك . والذى يمنع العالم الآن من معركة ساخنة تدمره هو الخوف من قِبَل الكتل المتوازنة لأن كل دولة تُعدّ نفسها للحرب . ولو أن قوة واحدة فى الكون لهدمت الدنيا .

وقول الحق : « وجاهدوا فى سبيله » نأخذه على أنه جهاد فى سبيل منهج الله ؛

وندرس هذا المنهج ونفهمه وبعد ذلك نجاهد فيه باللسان وبالسِّنان ، ونجاهد فيه بالكتاب ونجاهد فيه بالكتيبة .

إذن فقوله الحق : « وجاهدوا فى سبيله » يصنع أمة إيمانية مُتحضرة ، حتى لا تترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره فى الكون . فمن يعبد الإله الواحد أولى بسرّ الله فى الوجود ، ولو فرضنا أنه لن تقوم حرب ، لكننا نملك المصانع التى تنتج ، وعندنا الزراعة التى تكفى حاجات الناس ، عندئذ سنحقق الكفاية . وما لا تستعمله فى الحرب سيعود على السلام . ويجب أن تفهموا أن كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب . وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

الحق سبحانه تحدث من قبل عن العقوبات والقصاص والتقتيل والتقطيع ، ثم ينقلنا من هذا الجو إلى أن نتقى الله ونبتغى إليه الوسيلة ونجاهد فى سبيله حتى نفلح ، وكان لا بد أن يأتى لنا الحق بالمقابل ، فالعقاب الذى جاء من قبل كقصاص وقتل هو عقاب دنيوى . ولكن ما سيأتى فى الآخرة أدهى وأمرّ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نتصور الجماعة الكافرة التى تتكبر فى الدنيا ويعتلون ويرتفعون بالجبروت ،

فماذا عن موقفهم يوم القيامة ؟. لقد أقمتم الجبروت بقوّتكم على غيركم ، وها هى ذى القُوّة تضيع وتفلت . لقد كانت القوة تعيش معكم فى الدنيا بالأسباب الممنوحة من الله لكم . ولم تَضِنّ عليكم سُننُ الله أن ترتقوا ، وسبحانه قد خلق السُنَن ومن يبحث فى أسباب الله ، ينلْ نتيجة ما بذل من جهد ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، وها أنتم أولاء تعرفون أن الأسباب ليست ذاتية . وأن قوّتكم لم تكن إلا عطاءً من الله . ها أنتم أولاء أمام المشهد الحيّ ، فلو أن ما فى الدنيا جميعاً معكم وحتى ولو كان ضعف ما فى الدنيا وتريدون أن تقدّموه فِدْيةً لكم من عذاب جهنم فالله لا يتقبله ، وتلك قِمّة الخِزْى ، ولن يستطيعوا تخليص أنفسهم من عذاب جهنم .

وهذا المشهد يجعل النفس تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا هزلاً ، ولكن هى جِدّ فى منتهى الجدّ . وعلى الإنسان أن يقدِّر العقوبة قبل أن يستلذّ بالجريمة . والذى يجعل الناس تستشرى فى الإسراف على أنفسهم ، أن الواحد منهم يعزل الجريمة عن عقوبة الجريمة . ولو قارن الإنسان قبل أن يسرف على نفسه العقوبة بالجريمة لما ارتكبها . وكذلك الذى يكسل عن الطاعة ؛ لو يقارن الطاعة بجزائها لأسرع إليها .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نفترض أن إنساناً فى صحراء نظر إلى أعلى الجبل ورأى شجرة تفاح ، واسْتَدَلّ على التفاح بأن رأى تُفاحة عَطبة واقعة على الأرض ، وقال الرجل لنفسه : هأنذا أرى مصارع الناس ؛ فهذا يصعد إلى الجبل فيقع من على حافته . وذلك تهاجمه الذئاب . وثالث يتوه عن الطريق . كل ذلك على أمل أن فى الشجرة ثماراً . ولا بد لى من أن أختار الطريق السليم إلى الثمار . والطريق إلى ثمار الدنيا الطاعة لمنهج الله ، وهو الطريق إلى ثمار الآخرة .

وأيضاً : الطالب المجتهد الذى يتغلب على النعاس ويتوضأ ويُصلّى ويخرج إلى مدرسته فى برد الشتاء ليحصل الدروس . ويعود إلى المنزل لتقدّم له أمه الطعام ، ولكنه مشغول بالدرس . إن هذا الشاب يستحضر نتيجة هذا الجهد ؛ لذلك فكل تعب فى سبيل التعلّم صار سهلاً عليه ، ولو أهمل ونام ولم يقم مبكراً إلى المدرسة ، وإن استيقظ وخرج من المنزل ليتسكع فى الطرقات مع أمثاله ؛ يكون فى مثل هذه الحالة غير مُقدِّر للنتيجة التى تقوده إليها الصَّعْلَكة . والعيب فى البشر أنهم يعزلون

العمل عن نتيجته ، ويفصلون بين الجريمة وعقوبتها ، والطاعة عن ثوابها . إننّا لو وضعنا النتيجة مقابل العمل لما ارتكب أحد معصية ولا أهمل أحد فى طاعة .

ولنا أن نتصور مشهد الجبارين فى الدنيا وهم فى نار الآخرة ، هم بطشوا فى الدنيا ونهبوا، ولنفترض أن الواحد منهم قد امتلك كل ما فى الدنيا ـ على الرغم من أنّ هذا مستحيل ـ وفوق ذلك أخذ مثل ما فى الدنيا معه ويريد أن يقدمه افتداء لنفسه من عذاب جهنم فيرفضه الحق منه « ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » وتلك هى قمة الخزى التى يجب أن يبتعد عنها الإنسان .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

وكلما مَسَّهم لفحُ النار يريدون أن يخرجوا منها ، لكن كيف تأتى لهم إرادة الخروج من النار . لا بد ـ إذن ـ أن لحظة لفحها عليهم وتقلبهم هنا وهناك تدفعهم ألسنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أن العذاب قد انتهى . ألم يقل الحق سبحانه من أجل أن يضع أمامنا التجسيد الكامل لبشاعة الجحيم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

هذا القول يُوحى أولاً بأن رحمةً ما ستصل إليهم ، ولكن ما يأتى بعد هذا القول يرسم الهول الكامل ويجسده :

﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذه قمة الهول . وهناك فرق بين الابتداء المُطمع والانتهاء المُوئِس .

مثال ذلك السجين العطشان الذى يطلب كوب ماء . ويستطيع السجّان أن يقول له : لا. ليس هناك ماء. أما إذا أراد السجان تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سآتى لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال ، ويمد السجين يده لكوب الماء ، لكن السجان يسكب كوب الماء أرضاً . هذا هو الابتداء المُطْمع والانتهاء المُوئِس . وكذلك رغبتهم فى الخروج من النار ؛ فلا إرادة لهم فى الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء :

﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وتثير البُشرى فى النفس الأمل فى العفو ، فيفرحون ولكن تكون النتيجة هى :

﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم الموئس بعد الرجاء المطمع .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وبعد ذلك ينقلنا الحق إلى قوله سبحانه :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

جاء الحق من قبل بعقاب قطاع الطريق والمفسدين فى الأرض ، وهنا يأتى بقضية أخرى يريد أن يصون بها ثمرة حركة المؤمن فى مجتمعه ؛ لأن الإيمان يحب من المؤمن أن يتحرك ، وحتى يتحرك الإنسان لا بد أن يضمن الإنسان ثمرة حركته . أما إن تحرك الإنسان وجاءت الثمرة ثم جاء من يأخذها فلا بد أن يزهد المتحرك فى

الحركة ، وحين يزهد الإنسان فى الحركة يتوقف تقدم الوجود ؛ لذلك من حظنا أن تستمر حركة الحياة ، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته ، وأن تكون حركته فيما شرع الله .

وحين يتحرك الإنسان فيما شرع الله ويكسب من حلال ؛ فليس لأحد دخل ؛ لأن حركة هذا الإنسان تفيد المجتمع سواء أكان ذلك فى باله أم لم يكن .

وقلنا من قبل : إن الرجل الذى يملك مالاً يكتنزه يجد الحق يأمره بأن يستثمر هذا المال ؛ لأنه سبحانه أمر بفتح أبواب الخير لمن يجد المال ، فيدفع بخاطر بناء عمارة شاهقة فى قلب صاحب المال ، فيقول الرجل لنفسه : إن المال عندى مكتنز فلأبنى لنفسى عمارة ، ويزين له الحق هذا الأمر . ويفكر الرجل فى أن يبنى عمارة من عشرة طوابق وفى كل طابق أربع شقق ، وليكن إيجار كل شقة مائة جنيه . وهو حصيلة شهرية لا بأس بها .

لقد حسب الرجل المسألة وهو لا يدرى أن الله سبحانه وتعالى يقذف فى باله الخواطر ، فيُسرع ليشترى قطعة الأرض . وبعد ذلك يأتى بمن يُصمّم بنيان العمارة ومن يقوم بالبناء ، وتخرج النقود المكتنزة . وهكذا نرى أن الثرى قبل أن ينتفع بعمارته كان غيره قد انتفع بماله حتى أكثر طبقات المجتمع فقرا . ويحدث كل ذلك بمجرد الخاطر . ولكل إنسان خواطره ، فالبخيل له من يسرف فى ماله ، والكريم له من يكتنز من ماله . وإياك أن تظن أن هناك حركة فى الوجود خارجة عن إرادة الله . فالحق يقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة آل عمران)

وهم يفعلون ذلك لأن الذنوب تطاردهم ، فيعوضون ذلك بإصلاح أعمالهم . ولذلك نجد أن الخير إنما يأتى من المسرفين على أنفسهم فيريدون إصلاح أمورهم وليس هناك من يستطيع أن يأخذ شيئاً من وراء الله .

﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

كأن الحق سبحانه وتعالى بمجرد الخواطر يدفع الناس إلى ما يريد . نعم . فهو غيب قيّوم ؛ ولذلك يكون تدبيره فى الكون غيباً . وفى قرانا يخصّصون يوماً للسّوق ونرى ساحته فى اليوم المُخصص ونتأملها فنتعجب من إبداع مُحرّك الكون ؛ ففى الصباح يسير رجال إلى السوق ومعهم عصيّهم ولا يحملون شيئاً . وهؤلاء ذاهبون لشراء ما يحتاجون إليه ، وآخرون يسوقون أمامهم العجول أو الحمير ، وهؤلاء يذهبون لبيع بضائعهم . ونرى نساء تحمل كل واحدة منهن صنفاً من الخضار فنعرف أنهن يذهبن للبيع فى السوق . ونرى أخريات يحملن سِلالاً فارغة ، ونعرف أن كلاً منهن ذاهبة للشراء . وفى آخر النهار نرى المسألة معكوسة ، من كان يحمل فى الصباح شيئاً حمله غيره ، فمن الذى هيّج الخواطر ليذهب من يرغب فى البيع إلى السوق ليبيع ؟

من الذى حرّك الشارى للشراء ؟ هو الحق سبحانه يحقق للرّاغب فى البيع أن يوجد المشترى ، ويحقق للراغب فى الشراء أن يوجد البائع . إنه ترتيب الحىّ القيّوم . ونسمع من يقول : لقد أنزلنا فى السوق اليوم عشرين طناً من الطماطم وأربعين طناً من الكوسة . وغيرها من الأطنان . ونجد آخر النهار أن كل شىء قد بيع . إنها خواطر الله المتوازنة فى الناس والتى توازن المجتمع .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المُتحرّك . ويُريد أيضاً ألاّ يقتات الإنسان أو يتمتّع بغير مجهود ؛ لأن من يسرق إنما يأخذ مجهود غيره . وهذا الفعل يُزَهِّدُ الغير فى العمل .

إن فى الإسلام قاعدة هى : عندما تكثر البطالة يقال لك لا تتصدق على الناس بنقود من ملكك ، ولكن افتح أى مشروع ولو لم تكن فى حاجة إليه كأن تحفر بئراً وتردمها بعد ذلك وأعط الأجير أجره حتى لا يتعوّد الإنسان على الكسل ، بل يجب تعويده على العمل ، ومن لا يقدر على العمل فلا بد له من ضمان . فضمان الإنسان لقوته يكون من عمله أولاً ، فإن لم يكن قادراً على العمل ، فضمانه من أسرته وقرابته ، فإن لم توجد له أسرة أو قرابة ، فأهل محلّته مسئولون عنه ، وإن لم يستطع أهل القرية أو المحلّة أن يوفروا له ذلك ، فبيت المال عليه أن يتكفّل بالفقراء .

إذن فالأرضية الإيمانية تَحُثُّنا على أن نضمن للإنسان العمل ، أو نعوله ونقوم بما

يحتاج إليه إن كان عاجزاً . ولكن الآفة أن بعضاً من الناس يحبُّون عملاً بذاته ، فهذا يرغب في التوظّف في وظيفة لا عمل فيها ، ونقول له :

في العالم المعاصر أزمة عمالة زائدة فتعلّم أى مهارة ؛ فما ضنت الحياة أبداً على طالب قوت من عمل .

ولنا في رسول الله صلّى الله عليه وسلم الأُسْوَة حين أقام أول مزادٍ في الإسلام . عندما جاء له رجلٌ من الأنصار يسأله ، فقال له :

(أما في بيتك شيء . قال الرجل : بلى ، حِلْسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقَعْبٌ - أى قدح - نشرب فيه من الماء . قال : إيتنى بهما . فأتاه بهما . فأخذهما رسول الله صلّى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشترى هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال : من يزيد على درهم ؟ - مرتين أو ثلاثاً - قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصارى وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه - أى أَلْقِهِ - إلى أهلك ، واشتر بالآخر قَدُوماً فائتنى به)[١] .

إذن أشار النبى صلّى الله عليه وسلم على الرجل وأمره بأن يحضر الحِلْس الذى ينام عليه والقدح الذى يشرب فيه ، حتى يعرف الرجل أنه تَاجَر في شيء يملكه ، لا في عطاء من أحد . وجاء الرجل إلى حضرة النبى عليه الصلاة والسلام ووجد أن النبى قد سوّى له يداً للقدوم وقال للرجل :

(اذهب فاحتطب وبعْ ، ولا أرينَّك خمسة عشر يوماً)[٢] .

وذهب الرجل يحتطب ويبيع امتثالاً لأمر النبى صلّى الله عليه وسلم وجاء بعد خمسة عشر يوماً وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً .

فقال النبى صلّى الله عليه وسلم :

(هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة)[٣] .

---

(١) رواه أبو داود في الزكاة ، وابن ماجه في التجارات ورواه أحمد .

(٢) ، (٣) رواه أحمد وأبو داود في الزكاة وابن ماجه في التجارات .

هذه هى التربية .

إذن فالغرض الأساسى أن يحمى الإسلام أفراد المجتمع ، فالذى لا يجد قُوتَه نساعده بالرأى وبالعلم والقدرة والقوة . والخير أن نعلّمهم أن يعملوا لأنفسهم . ولذلك جاء الحق لنا بقصة ذى القرنين المليئة بالعِبر :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أنه لا توجد صلة للتفاهم . ولكنهم قالوا :

﴿ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وها هو ذو القرنين يعلن أنه فى غير حاجة إليهم ، ولكن يكلفهم بعمل حتى يحقق لهم مُرادهم :

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومن العجيب أن القرآن عندما يحكى أمراً فهو لا يحكيه إلا لهدف ، هم طلبوا من ذى القرنين أن يبنى سدّاً ، لكنه اقترح أن يجعل لهم رَدماً ، ما الفرق ؟ لقد تبين من العلم الحديث أن السَدّ قد تحدث له هزّة من أى جانب فينهدم كله ، أما الرَدْم فإن حدثت له هزّة يزددْ تماسكاً . ولم يعمل ذو القرنين لهم ، ولكن علّمهم كيف يصنعون الرَّدْم ، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز . وهكذا يُعلمنا القرآن أن الإنسان لا بد له من عمل . لكن ماذا إن سَرَق ؟ .

أولاً ما هى السَّرقة ؟ إنها أَخذُ مالٍ مقوّم خفية . فإن لم يكن الأخذ خفية فهو اغتصاب ، ومرة أخرى يكون خطفاً ، ومرة رابعة يكون اختلاساً .

فالأَخْذُ له أنواع مُتعددة ؛ فالتاجر الذى يقف فى دكانه ليبيع أى شىء ، وجاء طفلٌ صغير وخطف قطعةً من الحلوى وجرى ولا يستطيع التاجر أن يطول الطفل أو أن يقدر على الإمساك به ، هذا خَطْف . أما الذى يغتصب فهو الذى قهر صاحب الشىء على أن يتركه له . أما الاختلاس فهو أن يكون هناك إنسان أمين على مال فيأخذ منه ، أما السرقة فهى أخذ لمال مقوَّم خفية وأن يكون فى حرز مثله ؛ أى يكون فى مكان لا يمكن لغير المالك أن يدخله أو يتصرف فيه إلا بإذنه . أما الذى يترك بابه مفتوحاً أو يترك بضاعته فى الشارع فهو المُقصّر ، فكما يأمرنا الشرع بألا يسرق أحد أحداً ، كذلك يأمر بعدم الإهمال ، بل لابد للإنسان أن يعقل أشياءه ويتوكّل . وسبحانه هو المُشرّع العَدْل الذى يُقيم اليقظة على الجانبين . حدّد الشّرع السرقة بما قيمته ربع دينار . وربع الدينار فى ذلك الزمن كان يكفى لأن يأكل إنسان هو وعياله ويزيد ، بل إن الدرهم كان يكفى أن يقيم أود أسرة فى ذلك الوقت .

وكيف نقوِّم ربع الدينار فى زماننا ؟. إن كان لا يكفى لمعيشة ، فيجب أن ترفع النصاب إلى ما يُعيش ، ومادام الدينار كان فى ذلك الزمان ذهباً ؛ فربع الدينار ترتفع قيمته . وقديماً كان الجنيه الذهب يساوى سبعة وتسعين قرشاً ونصف القرش . أما الجنيه الذهب حاليا فهو يساوى أكثر من مائتين وسبعين جنيهاً ، وقد يكون هناك إنسان يسرق لأنه محتاج أو جائع ، ولذلك وضع الشرع له قدرا لا يتجاوزه المحتاج لحفظ حياته وحياة من يعول هو الدرهم . وسرقة الدرهم لا حد فيها كما لا إثم فيها ، وذلك إذا استنفذ كل الطرق المشروعة فى الحصول على القوت ، ونعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الدرهم للرجل وقال :

(اشتر طعاماً لك ولأسرتك) .

وكان الدرهم ـ كما قلنا ـ يكفى فى ذلك الزمن . والدرهم جزء من اثنى عشر جزءا من الدينار ، فربع الدينار ثلاثة دراهم ، والدرهم يساوى فى زمننا هذا أكثر من عشرين جنيها .

والسطحيون يقولون : إن سيدنا عمر ألغى حَدّ السّرقة فى عام الرّمادة ؛ ونقول لهم : لا . لم يسقط عمر بن الخطاب الحد ، فالحد باقٍ ولكنه لم يدخل الحادثة التى حصلت فيها يوجب الحد . والحادثة التى حدثت فى عام الرمادة أو عام الجوع هى

وجود الشبهة . وبفطنته كأول أمير للمؤمنين ، لم يدخل الحوادث فيما يوجب الحد . وفى مسألة عبدالرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة . عندما سرق غلمانه ، فماذا حدث ؟ قال الغلمان لعمر : كنا جوعى ولم يكن ابن أبى بلتعة يعطينا الطعام . ودرأ سيدنا عمر الحَدَّ بالشُّبهة .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المتحرك وثمرة حركة المتحرك . ، لكن بعض السطحيين فى الفهم يقولون مثل ما قال المعرّى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قطعت فى ربع دينار

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وهنا ردّ عليه العالِم المؤمن فقال :

أنت تعترض لأننا نعطى دية اليَد خمسمائة دينار ، وعندما يسرق إنسان . نقطع يد السارق لأنها أخذت ربع دينار .

وقال العالم المؤمن :

عِز الأمانة أغلاها وأرخصها
ذُل الخيانة فافهم حكمة البارى

ونلاحظ أن التشريعات الجنائية وتشريعات العقوبات ليست تشريعات بشرية ، لكنها تشريعات فى منتهى الدقة . بالله لو أن مُقنّنا يقنن للسارق أو السارقة ، ويُقَنّن للزانى والزانية ماذا يكون الموقف ؟

إن الذى يتكلم هو رب العالمين ، فقال هنا : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم « . والسرقة عادة ما تكون رغبة فى الحاجة وهى غالبا ما تكون من عمل الرجل . أما فى الزانى والزانية ، فلو أن الرجل لم يُهَيّج ويستثر بجمال امرأة لما فكر فى الزِّنا . إذن فهى صاحبة البا 'ية . وينص سبحَانه على العقوبة وجاء بالحكمة . وعندما يُشرع للقصاص وهى الحالة التى يغلى فيها دم أقارب القتيل ، فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

ولنر الحَنانَ الموجود فى كلمة « أخيه » . ولا نجد تقنينا يدخل التحنين بين سطوره ، إلا تقنين الرَّب الذى خلق الإنسان وهو أعلم به .

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . هذا ما انتهى إليه حَد السّرقة فى تشريعات السماء ، وحتى فى زمن سيدنا موسى كان السّارق يُستَرَق بسرقته ؛ أى يتحوَّل الحُرّ إلى عَبد نتيجة سرقته . ولذلك نلاحظ ونحن نقرأ سورة سيدنا يوسف :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة يوسف)

و« السقاية » هى الإناء الذى كان يشرب فيه الملك ، وكان اسمها « صواع الملك » وأخذوها ليكيلوا بها . وبعد أن جعل السقاية فى رحل أخيه ، ماذا حدث ؟

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وهنا قال إخوة يوسف بأنهم لم يأتوا ليفسدوا فى الأرض ، لذلك ترك لهم يوسف الأسلوب فى تحديد الجزاء ، ولم يحاكمهم بشرع الملك :

﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد جعلهم يعترفون ، ويحاكمهم حسب شريعتهم لأن شرع الملك أن من يسرق شيئا عليه أن يغرم ضعفى ما أخذ .

وهذا ما يوضح معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

أى أنها حيلة ليستبقى يوسف أخاه معه . ولو استعمل قانون مصر فى ذلك الزمن لما أخذ أخاه معه . وهذا كيد لصالح يوسف ؛ لأن « اللام » تفيد الملكية أو النفعية . وأضاف إخوة يوسف قائلين :

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة يوسف)

ولماذا قالوا ذلك ؟ أصل هذه المسألة أن يوسف كان يحيا عند عمته . وعندما كبر وأرادوا أن يأخذوه أرادت العمة أن تستبقيه فدست فى متاعه تمثالاً . أو منطقة كانت لها من أبيها إسحاق وادعت أنها فقدت ذلك ؛ ففتشوا الولد فعثروا معه على الشيء الذى ادعت عمته سرقته فاستبقته بشرع بنى إسرائيل . وكان جزاء السرقة فى الشريعة هو الاسترقاق . ونسخ هذا الشرع وجاءت آية حد السرقة تأكيداً للنسخ . وإن لم يكن قد نسخ فهذه الآية هى بداية للنسخ . « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

والسُّنة هى التى تبين لنا كيفية القطع ، وكان القطع لليد اليمنى؛لأنها عادة التى تباشر مثل ذلك العمل . وفى إحدى رحلاتى إلى أمريكا ، حدثنى أخ مسلم ضمن جماعة تحضر إحدى محاضراتى وقال : إن التَّيمُّن يجب أن يكون فى كل شيء ، فلماذا يأكل البعض بيده اليسرى ؟

قلت : إن هذه مسألة تكوينية بدليل أن بعض الناس أجهزتها تختلف ، فليست المسألة ميكانيكية . وأضفت : إن من خيبة بعض الاختراعات البشرية أنها لا تخطىء كالحاسب الآلى . ولو كان ينتقى ويختار لأمكن أن يخطىء ، أما العقل فهو يعرف الانتقاء . وقلت : إننى أطلب من السائل أن يقف . فلما وقف طلبت منه أن يتقدم جهتى فلما تقدم جهتى مَد رجله اليمنى ، فقلت تعليقا على هذا : « إنه تكوين خلقى » . ولذلك فالذى عنده ولد تتأبى عليه يمينه فإياك أن تُرغِمه على ذلك لأن مثل هذه العملية أرادها الخالق لتَشُذّ فى الخلق ، ولتظهر قدرة الخالق .

فلا داعى لقهر الابن الذى تتأبى عليه يَمينه ؛ لأن العلماء قالوا إن مراكز السيطرة ليست فى اليد ولكن فى المخ . وقد أوجد الحق تلك الأمور فى الكون حتى نفهم أن

خالق الكون لم يخلق الكون وتركه بسننه ، لا . إنه يخرق السنن كلما أراد . لكن لو تأبى إنسان على استعمال اليد اليمنى فى الأكل مثلا وهو قادر على ذلك فإنه يكون مخالفا لسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومجافيا للفطرة .

« فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا » وإذا سمعنا كلمة « كسب » فهى تعنى الأخذ لأكثر من رأس المال . والسارق يكسب السيئة لأنه أخذ ما فوق الضرورة . والنكال : العقاب أو هو العبرة المانعة من وقوع الجرم سواءً لمن ارتكب الجريمة وكذلك لمن يراها . والحق يقول عن بعض الأمور :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤثِّم من أجل الاعتبار والعظة ، فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق . والخالق هو الذى صنع الصنعة فلا تتعالم على خالق الصنعة . والشريعة لا تقرر مثل هذا العقاب رغبة فى قطع الأيدى ، بل تريد أن تمنع قطع الأيادى .

وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد . والذين قالوا « قطع الأيدى فعل وحشى » ، نقول لهم : إن يداً واحدة قطعت فى السعودية فامتنعت كل سرقة . وإذا كان القتل أنفى للقتل ؛ فالقطع أنفي للقطع ، أما عن مسألة التشويه التى يتلطنون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عدداً من الناس وكذلك حادثة انفجار لأنبوبة « بوتاجاز » تفعل أكثر من ذلك . فلا تنظروا إلى القصاص مفصولا عن السرقة إن انتشرت فى المجتمع . وإبطاء القائمين على الأمر للإجراءات التى يترتب عليها العقوبات يُنسى المجتمع بشاعة الجريمة الأولى ، وعندما يحين وقت محاكمة المجُرم تكون الرحمة موجودة .

لكن إن وُقِّعَ العقاب سَاعَة الجُرم تنته المسألة . وساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجُرم ؛ لأن المُراد من الجزاء العبرة والعِظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله عنده إن أخذته الغفلة فى سياسة الحياة فالجزاء هنا نكالا أى عقابا و« نكولا » وهو

الرجوع عن فعل الذنب أى العبرة المانعة من وقوع الجُرم . فكأن الجزاء كان المقصود منه أن يرى الإنسان من قطعت يده فيمتنع عن التفكير فى مثل ما آلت إليه هذه الحالة .

أو أن يحافظ الذى قُطعت يده على ما بقى من جوارحه الباقية ؛ لأنه قد قُطِعت يمينه وإن عاد قُطِعت يساره ، فإن عاد قُطِعت رجله اليمنى ثم إن عاد قطعت رجله اليسرى ويكون النكال لمنع الرجوع للجريمة ، وهو إما رجوع ممن رأى العقوبة تقع على السارق أو الرجوع من السارق نفسه إن رأى أى جارحة من جوارحه قد نقصت . فيحرص أن تظل الجوارح الباقية له . ويعامل الحق خلقه بسُنة كونية هى : أن من يأخذ غير حقه يُحَرم من حَقه . ومثال ذلك قوم من بنى إسرائيل قال الله حكما فيهم : لقد استحللتم ما حرمته عليكم فلا جزاء لكم إلا أن أضيق عليكم وأحرم عليكم ما أحللت لكم . فقال :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن ليس فى قدرة أحد أن يضحك على الله أو أن يخدع الله أو أن يأخذ ما ليس حقا له . فإن أسرف الإنسان فى تعاطى أشياء حرمها الله عليه فسيأتى وقت يحرمه الله فيه من أشياء حللها له كالذى أسرف فى شُرب الخمر أو فى تناول المواد المخدِّرة التى تغيب عن الوعى ، يبتليه الحق بما يجعله محروماً من مُتع أخرى كانت حلالا . وإن أسرف الإنسان مثلا فى تناول الحلوى . فإن المرض يأتيه ، ويحرم الله عليه أشياء كثيرة .

ولو قاس المسرف على نفسه ما أحله لنفسه بما حرمه الله عليه لوجد الصفقة بالنسبة له خاسرة . فالذى أسرف بغير حق فى أن يأكل مال أحد ، يرى ماله وهو يضيع أمام عينيه . ولنا فى ذلك المثل . كان السادة فى الريف ـ قديما ـ يقومون بتنقية الدقيق إلى درجة عالية حتى يصبح فى تمام النقاء من « الردة » . ويسمون هذا النوع من الدقيق « الدقيق العَلاَمَة » وكانوا يأكلون منه ويتركون البقية من الدقيق مختلطا بالردة ليأكله الخدم أو الفقراء ، فتأتى فترة يُحرِم الأطباء عليهم هذا الدقيق الأبيض ، ولا يجد الواحد منهم طعاما إلا الدقيق « السِّن » الذى كان يرفضه قديما فعلينا ـ إذن ـ أن ننظر إليها كقضية سائدة فى الكون كله ، ولنجعل قول الله أمامنا :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فأنت إن أخذت كسب يد واحدة يحرمك الحق من يدٍ لا من كسب . فإن زدت حرمك الله من جارحة أخرى ، وهكذا . وتلك سُنَّة كونية تعدل نظام الكون بالنسبة للناس ، وخصوصا من يستبطئون جزاء الآخرة ، ومن يُغْريهم ويَغُرهم ويطمعهم حِلْم الله عليهم .

وأنت إذا ما نظرت وصنعت لنفسك رُقعة جغرافية فى البيئة التى تعيش فيها فى أسرتك ، أو حيك ، أو بلدك أو أمتك ، فأنت تجد قوما قد حرموا بأنفسهم من غير أن يحرم عليهم أحد ، فتجد واحداً مصاباً ـ والعياذ بالله ـ بالبولينا : ولا يقدر أن يأكل قطعة من اللحم ، أو آخر مصابا بمرض السكر ؛ وتراه غير قادر على أن يأكل قطعة من الحلوى ، أو ملعقة من العسل . لأن أحداً لن يستطيع أن يأخذ شيئا بدون علم الله . وصنع الله ذلك لأنه عزيز لا يُغلَب . فإياك أن تظن أن بإمكانك أخذ شيء من وراء شرع الله أو تظن انك خدعت شرع الله ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلَب أبداً . ونرى فى حياتنا الذين يأخذون أموالاً بغير حق رشوةً أو سرقةً أو اختلاساً ، نرى مصارف هذه الأشياء أو الرشاوى أو الأموال قد ذهبت وأنفقت فى مهالك ومصائب ؛ إننا نجدها قد أخذت ما أخذوه من حرام ، ومالت وجارت على ما كسبوه من حلال . وأريد من المسرفين على أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم كشف حساب ، فيكتبوا فى ناحية القرش الذى كسبوه من حرام ، ويكتبوا فى ناحية أخرى كل قرش كسبوه من حلال . وليشاهد كل مسرف على نفسه فى أكل حقوق الناس المصائب التى سيبتليه الله بها ، ولسوف يجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضا من الحلال . ولذلك قال الأثر الصالح : « من أصاب مالا من نهاوش أذهبه الله فى نهابر »[1] .

وكنت أعرف اثنين من الناس ، ولكل واحد منهما ولد فى التعليم . وكنت أجد أحدهما يعطى ولده خمسة قروش . فيقول الابن لأبيه : « معى مصروف الأمس » .

(١) رواه القضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعا ، وعزاه الديلمى ليحيى بن جابر وليس صحابيا ، والمعنى من أصاب مالا من غير حله أذهبه الله فى مهالك وأمور متبدّدة .

وكان الآخر يعطى ولده عشرة قروش فيقول الابن له : « إنها لا تكفى شيئاً » . وشاء الحق أن يجمعنا نحن الثلاثة فى مكتب يتبع وزارة الرى بالزقازيق ، فلما جئنا لنخرج إذا برئيس كتاب تلك المصلحة يأتى بظرف أصفر كبير به أشياء كثيرة ويناوله لواحد منهما ، فسألته : ما هذا ؟ فقال : بعض من الورق الأبيض وبعض من ورق النشاف وعدد من الأقلام حتى يكتب الأولاد واجبهم المدرسى . فقلت له : هذا سر خيبة أولادك الدراسية وإسرافهم والدروس الخصوصية التى تدفع فيها فوق ما تطيق وسر قول ابنك لك : إن القروش العشرة لا تكفى شيئا . أما الشخص الآخر فابنه يقول له : لا أريد مصروف يد اليوم لأن معى خمسة قروش هى مصروف أمس ولا أريد أن آخذ دروسا خصوصية لأنى أحب الاعتماد على نفسى .

وسبحانه الحق القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . ويقول لنا بلاغا :

قال أبو الجلد : « أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ؟ إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فَلِمَ تجعلوننى أهون الناظرين إليكم »[1] .

إذن قوله الحق : « جزاء بما كسبا نكالا من الله » واضح تماما ، ويردف الحق قوله هذا : « والله عزيز حكيم » . وسبحانه عزيز لا يغلبه أحد ، حتى الذى يسرق ، إنما يسرق الرزق المكتوب له ؛ لأن العلماء اتفقوا على أن الشيء المسروق رزق أيضا لأنه يُنتفَع به . ووالله لو صبر لجاءه وطرق عليه بابه . فإياكم أن تحتالوا على قدر الله ؛ لأنه حكيم فى تقديره .

وكلمة « حكيم » لها فى حياتنا قصة ، كنا ونحن فى مقتبل حياتنا التعليمية نحب الأدب والشعر والشعراء ، وبعد أن قرأنا للمعرى وجدنا عنده بعضا من الشعر يؤول إلى الإلحاد ، فزهدنا فيه وخصوصا عندما قرأنا قوله فى قصيدته :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

(١) أورده ابن رجب فى شرحه فى كتاب (جامع العلوم والحكم) .

وأخذنا من ذلك القول أنّه ينكر البعث ؛ فقلنا : يغنينا الله عنه . ولكن صديقنا الشيخ فهمى عبداللطيف ـ رحمه الله ـ رأى المعرى فى الرؤيا وكان مولعا بالمعرى ، فجاء إلى ذات صباح ونحن فى الزقازيق وقال لى : يا شيخ لقد رأيت المعرى الليلة فى الرؤيا وهو غاضب منك أنت لأنك جفوته . فقلت : أنا جفوته لكذا وكذا وأنت تعلم السبب فى ذلك . وقال الشيخ فهمى عبداللطيف : هذا ما حصل .

وقلت لنفسى : يجب أن أعيد حسابى مع المعرى ، وجئنا بدواوينه « سقط الزند » و« لزوم ما لا يلزم » . ووجدنا أن للرجل عُذراً فى أن يعتب علينا ؛ لأن آفة الناس الذين يسجلون خواطر أصحاب الفكر أنهم لا ينظرون إلى تأريخ مقولاتهم ، وقد قال المعرى قوله الذى أنكره عليه وقت أن كان شابا مفتونا بفكره وعندما نضج قال عكسه . وكثير من المفكرين يمرون بذلك ، مثل طه حسين والعقاد ، بدأ كل منهما الحياة بكلام قد يؤول إلى الإلحاد ولكنهما كتبا بعد النضج ما يحمل عطر الإيمان الصحيح ؛ لذلك لا يصح لمن يحكم عليهم أن يأخذهم بأوليات خواطرهم التى بدأوها بالشّك حتى يصلوا إلى اليقين . وجلست أبحث فى المعرى الذى قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

فوجدته هو نفسه الذى قال بعد أن ذهبت عنه المراهقة الفكرية :

زعم المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولى فالخسار عليكما

كأنه عاد إلى حظيرة الإيمان :

وكذلك قال المعرى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قُطِعَت فى ربع دينار

وقال بعد ذلك :

تناقض ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وقلت للشيخ فهمى عبداللطيف : للمعرى حق فى العتاب وسأحاول أن أعاود قراءة شعره ، والأبيات التى أرى فيها خروجا سأعدلها قليلا . وعندما جئت إلى ذلك البيت . قلت : لو أنه قال ـ وأنا أستأذنه ـ :

لحكمة ما لنا إلا الرضاء بها
وأن نعوذ بمولانا من النار

فَلكل شىء حكمة . وحين نرى طبيباً يمسك طفلا قلبه لا يتحمل المُرِقد ـ أى البنج ـ أثناء إجراء عملية جراحية ، فهل يظن ظان أن الطبيب ينتقم من هذا الطفل ؟ طبعا لا ، إذن فلكل شىء حكمة ، ويجب أن ننظر إلى الشىء وأن نربطه بحكمته . والله عزيز أى لا يغلبه أحد ولا يحتال عليه أحد . وهو حكيم فيما يضع من عقوبات للجرائم ؛ لأنه يزن المجتمع نفسه بميزان العدالة . ومن بعد ذلك يفتح الحق سبحانه باب التوبة رحمة لمن يتوب ورحمة للمجتمع ؛ لذلك يقول الحق :

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾

والسارق ظالم ؛ لأنه أخذ حق غيره ، فإن تاب أى ندم على الفعل وعزم على ألا يعود شريطة ألا تكون التوبة بالكلام فقط ، بل يصلح ما أفسده ، هنا تُقبَل التوبة . ولكن كيف يفعل ذلك ؟

إذا كان الشىء المسروق فى حوزته فعليه أن يرده إلى صاحبه . وإن كان قد تصرف

فيه فعليه أن يأتى لصاحب الشىء ويستحله ويقول له : كنت فى غفلة نفسى وفى زهوة الشيطان منى ففعلت كذا وكذا . وأعتقد أن أى إنسان سرق من إنسان آخر وبعد فترة اعترف له وطلب العفو منه فأنا أقسم بالله أنه سيعفو عنه راضيا . وبذلك يستحل الشىء الذى أخذه . لكن ماذا إن كان السارق لا يعرف صاحب الشىء المسروق . كلص « الأتوبيسات » ؟

إن كان قد سرق محفظة نقود من شخص ووجد العنوان يستطيع أن يرد الشىء المسروق بحوالة بريدية من مجهول تحمل قيمة المبلغ المسروق ويطلب فيها السماح عن السرقة . وإن لم يعرف من سرقه فعليه أن يقول : الله أعلم بصاحب هذا المبلغ وأنا سأتصدق به فى سبيل الله وأقول : يارب ثوابه لصاحبه .

إذن فوجوه الإصلاح كثيرة . وإن كان يخجل من رد الشىء المسروق فليقل : فُضوح الدنيا أهون من فُضوح الآخرة . وفى القرآن تأتى آيات كثيرة عن التوبة :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

كأن توبة الله مكتوبة أولا ؛ ثم يتوب العبد من بعد ذلك . وسبحانه يقول :

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة طه)

وللتوبة ـ كما نعلم ـ ثلاث مراحل . فالحق حين شرع التوبة كان ذلك إذنًا بها . وبعد ذلك يتوب العبد ، فيتوب الله عليه ويمحو عنه الذنب ويكون الغفران بقبول الله للتوبة . ولذلك يقول الحق : « فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم » .

وَصِفَةُ المغفرة وصِفَةُ الرحمة كل فى مطلقها تَكُون لله وحده ، وهى توبة للجانى ورحمة للمجنى عليه . وكلمة « إن الله غفور رحيم » توضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يغفر وأن يرحم . فإياك أن تقول : إن فلانا لا يستحق المغفرة والرحمة ؛ لأنه سبحانه مالك السماء والأرض ، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه ، وله طلاقة القدرة فى الكون ؛ ولذلك يقول من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ويستخدم الحق سبحانه من أساليب البيان ما يخرجنا عن الغفلة ، فلم يقل : « الله له ملك السموات والأرض » ، ولو كان قد قال ذلك لكان الأمر خبَراً من المتكلم وهو الله ، ولكنه يريد أن يكون الخبر من المُخاطَب إقراراً من العبد . ولا يخرج الخَبَر مَخرج الاستفهام إلا وقائل الخبر واثِقٌ من أن جواب الاستفهام فى صالحه ؛ والمثال على هذا هو أن يأتيك إنسان ويقول : « أنت تهملنى » . فتقول : أنا أحسنت إليك .

ولكن إن أردت أن تستخرج الخَبَر منه فأنت تقول : ألم أُحسِن إليك ؟ وبذلك تستفهم منه ، والاستفهام يريد جوابا . فكأن المسئول حين يجيب عليه أن يدير ذهنه فى كل مجال ولا يجد إلا أن يقول : نعم أنت أحسنت إلىّ . ولو جاء ذلك من المتكلم لكانت دعوى ، لكن إن جاءت من المُخاطَب فهى إقرار ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الشرح)

إنه خبرٌ من المتكلم والإقرار من المتلقى . وقد يقول قائل ولماذا لم يقل الحق : « أشرحنا لك صدرك » ؟ كان من الممكن ذلك ، ولكن الحق لم يقلها حتى لا يكون فى السؤال إيحاء بجواب الإثبات بل جاءت بالنفى .

وفى وقوله الحق :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

نجد منطوق الآية ليس دعوى من الحق ، ولكنه استفهام للخلق ليديروا الجواب على هذا ، فلا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا : « لله ملك السموات والأرض » . وهذا أسلوب لإثبات الحجة والإقرار من العباد ، لا إخباراً من الحق : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » ، وقد يقول إنسان : إن هناك أجزاء من الأرض ملكا للبشر . ونقول : صحيح أن فى الأرض أجزاء هى ملك للبشر ، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لا يقدر على الاحتفاظ به . . كملك البيت والأرض ، إنه مِلْك ـ بكسر الميم ـ لمالك . وهناك « مُلْك » ـ بضم الميم ـ لِمَلِكٍ هو الله . وفى الدنيا نجد أن لكل إنسان ملكية ما . ولكن المَلِك فى الأرض يملك القرار فى أملاك شعبه ، وهذا فى دنياالأسباب ، أما فى الآخرة فالأسباب كلها تمتنع :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فلا أحد له مُلكٌ يوم القيامة .

« ألم تعلم أن الله له مُلك السموات والأرض يُعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء » والقارىء بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين أحدهما يتقدم ، والآخر يتأخر . ويأتى الأمر فى أحيان أخرى بالعكس . ولكن هذا القول هو الوحيد فى القرآن الذى يأتى على هذا النسق ، فكل ما جاء فى القرآن يكون الغفران مقدّماً على العذاب ؛ لأن الحق سبحانه قال فى الحديث القدسى :

(إن رَحمتى سبقت غَضبى)[1] .

فلماذا جاء العذاب فى هذه الآية مقدماً على الغُفران : « يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء » هل السبب هو التّفنّن فى الأساليب ؟ لا ؛ لأن جمهرة الآيات تأتى بالغفران أولاً ، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه . ولننظر إلى السّياق . جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة ، وبعد ذلك عمّن تاب . فالسرقة إذن تقتضى التعذيب ، والتوبة تقتضى المغفرة ، إذن فالترتيب هنا منطقى .

(١) رواه البخارى فى التوحيد وبدء الخلق ، ورواه مسلم فى التوبة ورواه الترمذى فى الدعوات ، وابن ماجه فى المقدمة .

ونلحظ أن هذا القول قد جاء بعد آية السرقة وبعد آية الإعلام بأن له مُلْكَ السموات والأرض . ولذلك كان لا بد من تذييل يخدم الاثنين معاً . ليؤكد سيطرة القدرة . وحين يريد الحق أن يرحم واحداً . فليس فى قدرة المرحوم أن يقول : « لا أريد الرحمة » . وحين يعذب واحداً لن يقول المعذَّب ـ بفتح الذال ـ : « لا داعى للعذاب » . فسيطرة القدرة تؤكد أنه لا قدرة لأحد على رَدِّ العذاب أو الرحمة . إذن فالآية قد جاءت لتخدم أغراضاً مُتعددة . فإن حسبناها فى ميزان الأحداث فللحق كل القدرة . وإن حسبناها فى ميزان الزمن ، فكيف يكون الأمر ؟ .

نعرف أن التعذيب للسّرقة قسمان . . تعذيب بإقامة الحَدّ ، وفى الآخرة تكون المغفرة . إذن فالكلام منطقى مُتَّسق .

إننى أقول دائماً : إياكم أن تُخدَعوا بأن الكافر يكفر ، والعاصى يعصى دون أن ينال عقابه ؛ لأن من تعوَّد أن يتأبَّى على منهج الله ، فيكفر أو يعصى لا بد له من عقاب . لقد تمرَّدَ على المنهج ، ولكنه لا يجرؤ على التَمرُّد على الله .

إن الإنسان قد يتمرد على المنهج فلا يؤمن أو لا يقيم الصلاة ، لكن لا قدرة لإنسان أن يتمرّد على الله ، لأنه لا أحد يقدر على أن يقف فى مواجهة الموت ، وهو بعضٌ من قُدْرةِ الله . وسبحانه وتعالى يحكم ما يريد . وقد أراد أن يوجِد للإنسان اختياراً فى أشياء ، وأن يقهر الإنسان على أشياء ، فيا من مرَّنت نفسك على التمردّ على منهج الله عليك أن تحاول أن تتمرّد على صاحب المنهج وهو الله . ولن تستطيع لا فى شكلك ولا لونك ولا صحتك ولا ميعاد موتك . وليفتح كل مُتمرِّد أذنيه ، وليعرف أنه لن يقدر على أن يَتمرَّد على صاحب المنهج وهو الله . إذن صدق قول الله : « والله على كل شىء قدير » .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ

فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

نأتى فى النِّداء بحرف الإقبال وهو « يا » وندخله على « المُنادى » أى أنك تطلب إقباله . فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشىء آخر ؟ مثال ذلك قول الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إذن النِّداء هنا لتلاوة التكليف عليهم . وحين يُنادى الحق سبحانه وتعالى أشرف من ناداهم وهم رُسُله ، نجد أنه نادى كل الرُّسل بمُشخِّصاتِهم العَلَمِيّة . (يا آدم) ، والمُشَخِّص العَلَمى هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا تشخيص الذات بدون صفاتها .

وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات)

وكذلك نادى الحق نوحاً :

﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

كُل الرُّسُل ناداهم الحق بالمُشَخِّص العَلَمى الذى لا يعطى إلا التشخيص ، ولكن رسول الله صلّى الله عليه وسلم خاتم الرُّسُل ما ناداه الله باسمه أبداً ، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مُشَخِّصات الذات فيقول : (يا أيُّها الرسول) ، ويقول : (يا أيّها النبى) .

حقًّا إنّ الجميع رُسُل ، ولكنه سبحانه يريد أن يبلغنا أن محمداً صلّى الله عليه وسلم هو الرسول الذى جاء ناسخاً للكُلّ ومؤمناً بالكُلّ ، هو الذى يستحق النّداء بالوصف الزائد عن مُشَخّصات الذات : « يا أيّها الرسول » . وهو الرسول الذى تقوم عليه الساعة . ولذلك نجد خطاب الحق لرسوله دائما : « يا أيُّها الرُّسُول » أو : « يا أيُّها النبى » ، وهذا نوع من التكريم .

والحق يقول هنا : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » . أى لا تحزن يا رسول الله من الذين يسارعون فى الكفر . وحين يخاطب الحق رسوله فى ألا يحزن ، علينا أن نعرف على ماذا يكون الحزن ؟ . سبحانه يوضح لرسوله : إياك أن تحزن لأنى معك فلن ينالك شر خصومك ولا يمكن أن أختارك رسولاً وأَخْذُلَك ، إنهم لن ينالوا منك شيئاً .

وقد يكون حزن النبى صلى الله عليه وسلم حزناً من لون آخر ، اسمه الحزن المُتَسامِى الذى قال فيه الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لأن الحق لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لما جعل لديهم القدرة على الكفر .

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهل الله يريد أعناقا ؟ لا . بل يريد قلوباً ؛ لأن سيطرة القُدرة بإمكانها أن تفعل ما تريد ، بدليلِ أن السماء والأرض والجبال وكل الكائنات أتت للخالق طائعة . فلا يمكن أن يتأبَّى الكون على خالقه . والقدرة أفادت القهر وأفادت السيطرة والعزة والغلبة فى سائر الكون ، ولكن الله أَحَب أن يأتى عبده ـ وهو السيد ـ للإيمان مختاراً ؛ لأن الإيمان الأول هو إيمان القهر والقدرة ، ولكن الإيمان الثانى هو إيمان المحبة .

وقد ضربنا من قبل المثل على ذلك ولنوضحه : هب أن عندك خادمين ربطت أحدهما فى سلسلة لأنك إن تركته قليلاً يهرب ، وعندما تريده تجذب السلسلة فيأتى ، إنه يأتى لسيطرة قُدرتك عليه والقهر منك ، أما الخادم الآخر فأنت تتركه حُرّاً ويأتيك من فور النداء . فأيهما أحب إليك ؟ لاشك أنك تحب الذى يجىء عن حُب لا عن قهر . وكل أجناس الكون مُسخَّرة بالقدرة ، وشاء الحق أن يجعل الإنسان مُختاراً لذلك قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فقد رفضت كل الأجناس حمل الأمانة . خوفا وإشفاقا من أنها قد لا تستطيع القيام بذلك . والحق يقول لرسوله : « لا يحزنك » فأمّا إذا كان الحزن بسبب الخوف على المنهج منهم ، فالحق ينصره ولن يمكنهم منه . وأما إن كان الخوف عليهم فلا ،

لأنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً غير مقهور على القيام بتعاليم المنهج . وسبحانه يُحب أن يعرف من يأتيه حُباً وكرامة .

ويقول الحق لرسوله محمد صلّى الله عليه وسلم : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهذه رُبوبية التعبير ، فنحن نعلم أن السرعة تكون إلى الشىء ، لا فى الشىء كما قال الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْـفِرَةٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

ولكن هنا نجده يقول : « يسارعون فى الكفر » . ولو قال الحق : « يسارعون إلى الكفر » لكان قد ثبت لهم إيمان وبعد ذلك يذهبون إلى الكُفر ، لا . الحق يريد أن يوضح لنا : أنهم يسارعون فى دائرة الكفر . ويعلمنا أنهم فى البداية فى الكفر ، ويسارعون إلى كفر أشد . ونعرف أن « فى » فى القرآن نستطيع أن نضع من أجلها المجلدات . فقد قلنا من قبل قال الله تعالى : (سيروا فى الأرض) .

ولم يقل سبحانه سيروا على الأرض .

والحق سبحانه : وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وهى ليست أموال المخاطبين ، ولكنها فى الأصل أموال السفهاء . ولكن سبحانه يبلغنا أن السُّفهاء غير مأمونين على المال ، ولذلك يأتى الحق بالوصىِّ والقيِّم على المال ويأمره أن يعتبر المال ماله حتى يحافظ عليه . ويأمره بألا يخزن المال ليأكل منه السُّفيه ؛ لأن المال إن أكل منه السُّفيه ودفع له الزكاة ، قد ينضب وَينْفد . لذلك قال الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لم يقل ارزقوهم منها ، ذلك أنه سبحانه شاء أن يعلمنا أن الرزق مطمور فى رأس المال ويجب أن يتحرك رأس المال فى الحياة حتى لا ينقص بالنفقة ، وحتى لا تستهلكه الزكاة ، وحتى يبلغ السَّفيه رُشده ويجد المال قد نما . هذه بعض من معطيات « فى » . وهناك آية الصَّلب :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

بعض المفسرين يقولون فى هذه الآية : « لأصلبنكم على جذوع النخل » ونقول : إن الذين قالوا ذلك لم يُفسِّروا هذه الآية وكان يجب أن يقولوا فى تفسير ذلك :

لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً يدخل المصلوب فى المصلوب فيه . ومثال ذلك لو جئنا بعدو ثقاب وربطناه على الأصبع بخيط رفيع وأوثقنا الربط ، فعود الثقاب يغوص فى الأصبع حتى يصير وكأنه داخل الأصبع . وعندما يقول الحق : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » فيجب ألا نفهم هذا القول إلا على أساس أنه تصليب على جذوع النخل تصليباً قوياً يُدْخِلُ المصلوب فى المصلوب فيه . وتلك هى العِلّة فى وجود « فى » وعدم وجود « على » .

والحق يقول هنا : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » فكأن المسارعة إما أن تكون بـ « إلى » وإما أن تكون بـ « فى ». فإن كانت بـ « إلى » فهى انتقال إلى شىء لم يكن فيه ساعة بدْء السرعة ، وإن كانت بـ «فى » فهى انتقال إلى عمق الشىء الذى كان فيه قبل أن يبدأ المسارعة .

« لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » فالإيمان محلّه القلب ، والإسلام محلّه الجوارح ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

إنهم يسارعون إلى الصف الأول فى الصلاة وهذا إسلام ، أما الإيمان فمحلّه القلب . إذن فالذين قالوا بأفواههم آمنا ، لهم أن يعرفوا أن منطقة الإيمان ليست الأفواه ولكنها القلوب . وهم قالوها بأفواههم وما مرّت على قلوبهم . وماداموا قد قالوا بأفواههم آمنا وما مرّت على قلوبهم فهؤلاء هم المنافقون ، ومعنى ذلك أنهم فى كل يوم ستظهر منهم أشياء تُدخِلهم فى الكفر ؛ لأنهم من البداية قد أبطنوا الكفر ، وبعد ذلك يسارعون فى مجال الكفر .

« من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا » هم إذن صنفان اثنان يسارعان فى الكفر ؛ المنافقون الذين قالوا بأفواههم آمنا ، والذين هادوا . ويصفهم الحق بقوله : « سماعون للكذب » وساعة تسمع مادة « السين والميم والعين » فهذا يعنى أن الأذن قد استقبلت صوتاً من مُصَوِّت ، هذا المُصوِّت إما أن يكون مُتكلماً بالكلام الحقّ فيجذ من الأذن الإيمانية استماعاً بإنصات ؛ ثم يتعدى الاستماع إلى القبول ؛ فيقول المؤمن : أنا استمعت إلى فلان ، لا يقصد أنه سمع منه فقط ولكن يقصد أنه سمع وقبل منه ما قال .

إننا نعلم أن كثيراً من الورعين يسمعون كذباً ، لكن الفيصل هو قبول الكذب أو رفضه . وليس المهم أن يكون الإنسان سامعاً فقط ، ولكن أن يصدق ما يسمع . ونرى فى الحياة اليومية إنساناً يريد أن يصلح شيئاً من أثاث منزله فيأتى بالأدوات اللازمة لذلك ، ويقال هنا عن هذا الرجل :« نجر فهو ناجر » ولا يقال له : « نجّار » ؛ لأن النجار هو من تكون حرفته النّجارة .

إذن كلمة : سامع للكذب لا تؤدى المعنى ، ولكن « سمّاع » تؤدى المعنى ، أى أن صناعته هى التسمّع ، وعندما يقول الحق : « سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك » أى ألِفُوا أن يقبلوا الكذب . وكيف يكون مزاج من يقبل الكذب ؟. لا بد أن يكون مزاجاً مريضاً بالفطرة .

وما معنى الكذب هنا ومن هم السّماعون ؟ إما أن يكون المقصود بهم الأحبار والرهبان الذين قالوا لأتباعهم كلاماً غير ذى سندٍ من واقع من أجل الحفاظ على مراكزهم . وإما أن يكونوا سماعين للكذب لا لصالحهم هم ، ولكن لصالح قوم

آخرين . كأنهم يقومون بالتجسس . والتجسس ـ كما نعلم ـ يكون بالعين أو بالأذن . وتقدمت هذه الوسائل فى زماننا حتى صار التجسس بالصوت والصورة . وكأن الحق يريد أن يبلغنا أنهم سماعون للكذب ، أى أنهم يسمعون لحساب قوم آخرين . والقوم الآخرون الذى يسمعون لهم هم القوم الذين أصابهم الكبر والغرور واستكبروا أن يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم فى الوقت نفسه لا يطيقون الانتظار ويريدون معرفة ماذا يقول رسول الله ، لذلك يرسلون الجواسيس إلى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم لينقلوا لهم .

أولئك السماعون للكذب هم سماعون لحساب قوم آخرين لم يأتوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبُّراً . وهؤلاء المتكبرون هم كبار اليهود ، وهم لا يذهبون إلى مجلس رسول الله حتى لا يضعف مركزهم أمام أتباعهم . وعندما يُنقَل إليهم الكلام يحاولون تصويره على الغرض الذى يريدون ، ولذلك يقول عنهم الحق : « يحرِّفون الكَلم من بعد مواضِعهِ » . أى أنهم يُحرِّفون الكلام بعد أن استقر فى مَواضعه ويستخرجونه منها فيهملونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها وذلك بتغيير أحكام الله ، وقال الحق فيها أيضاً من قبل ذلك :

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أنهم حَرَّفُوا الكلام قبل أن يستقر . « سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه » وهم الذين يقولون لأتباعهم من جواسيس الاستماع إلى مجلس رسول الله : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » . فكأنهم أقبلوا على النبى بهذا ، فإن أخذوا من رسول الله معنى يستطيعون تحريفه فعلوا . وإن لم يجدوا ما يحرفونه فعليهم الحذر .

ومن دراسة تاريخ القوانين الوضعية نعرف معنى السلطة الزمنية . فالقوانين التى تواضع عليها بشر ليحكموا بها نظام الحياة تأخرت فى الظهور إلى الواقع عن نظام الكهنة ، فقد كان الكهنة يَدَّعُون أن لهم صلة بالسماء ولذلك كان الحكم لهم ، أى أن التقنين فى الأصل هو حكم السماء والذى جعل الناس تتجه إلى وضع قوانين خاصة بهم أنهم جربوا الكهنة فوجدوهم يحكمون فى قضية ما حُكْماً . وفى القضية المشابهة يحكمون حُكْماً آخر . لقد كان كلام الكهنة مقبولا عندما ادعوا لأنفسهم

الانتساب إلى أحكام السماء . لكن عندما تضاربت أحكامهم خرج الناس على أحكام الكهنة ورفضوها ووضعوا لأنفسهم قوانين أخرى .

والحكاية التاريخية توضح لنا ذلك : فقد زَنَى أحد أتباع ملك فى العصر القديم وحاولوا أن يقيموا عليه الحد الموجود بالتوراة . لكن الملك قال للكهنة : لا أريد أن يُرجَم هذا الرجل وابحثوا عن حكم آخر .

ورضخ الكهنة لأمر الملك وقالوا : نُحَمِّم وجه الزَّانى - أى نُسَوِّد وجْهه بالحُمم وهو الفحم - ونجعله يركب حماراً ووجه إلى الخلف ونطوف به بين الناس بدلاً من الرَّجم . وهكذا أعطت السلطة الزمنية السياسية الأمر للسلطة الزمنية الدينية ليُغيِّروا فى القوانين . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حاولوا أن يستغلوا وجوده فى استصدار أحكام فيها هوادة ولين . وعرضوا عليه بعضا من القضايا من أجل ذلك ، فإن جاء الحكم بالتخفيف قبلوه ، وإن كان الحكم مُشدّداً لم يقبلوه . وتكررت مسألة الزّنا . وحاولوا الحصول على حكم مخفف من سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم .

وجاء رسول الله بالحكم الذى نزل من السماء وهو الرَّجم . ولكنهم قالوا للرَّجم لا . يكفى أن نجلده أربعين جلدة وأن نُسَود وجهه وأن نجعله يركب حماراً ووجهه للخلف ويُطاف به . وهنا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أليس عندكم رجل صالح له علم بالكتاب ؟ وهنا صمتوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن « فدك » يقال له : « ابن صوريا » . فقالوا : نعم ، هو أعلم يهود على وجه الأرض . فأمر الرسول بإحضاره ليرى الحُكم النازل فى الزِّنا بالتوراة ، وجاء الرجل وناشده رسول الله بالذى لا إله إلا هو وبحق من أرسل موسىٰ ، وبحق من أنزَل التوراة على موسىٰ ، وبحق من فلق البحر ، وبحق من أغرق فرعون ، وبحق من ظللهم بالغمام . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُزلزل فيه كل باطل وأن يشحنه بالطاعة حتى ينطق الحق ، فقال ابن صوريا : نعم نجد الرَّجم للزِّنا . وهنا سَبَّ اليهود الرجل الصالح .

لقد أرادوا أن يحصلوا على حُكم مُخفف من رسول الله ليُنقذوا الزانى صاحب المقام

العالى ، وكذلك الزانية ذات الحسب والنسب ؛ لذلك قال الحق على لسانهم : « إن أوتيتم هذا ». أى التخفيف المراد فخذوه، وإن وجدتم العقاب القاسى فاحذروه ولا تقبلوه .

إذن فهم لم يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق ولكنهم يبتغون التخفيف . فإن وافق الحكم هواهم قالوا : إن محمداً هو الذى حَكَم ، ومن العجيب أنهم أعداء لمحمد وكافرون به . وبرغم ذلك يُحكِّمونه .

هذه الواقعة يرويها الإمام مسلم رضى الله عنه وهى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى يهودى ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال : ما تجدون فى التوراة على مَنْ زنى ؟ قالوا : نسوّدُ وجوههما ونحمّمهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ، ويُطاف بهما ، قال : (فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين) قال : فجاءوا بها ، فقرأوها ، حتى إذا مرّ بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: مُرْهُ فليرفع يده، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُجما ، قال عبدالله بن عمر : كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه »(1) .

إنهم يريدون الحكُم السهل الهين اللين . وقال البعض : إن سبب نزول هذه الآية هى قصة القَوَد . والقود هو القصاص .

وقصة القود فى إيجاز هى ـ كما رواها الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنه ـ أن طائفتين من اليهود هما بنو النضير وبنو قريظة كانتا قد تحاربتا فى الجاهلية ، فقهرت بنو النضير بنى قُريظة ، فكانت النضير وهى العزيزة إذا قتلت أحداً من بنى قُريظة وهى الذليلة لم يُقِيدوهم أى لم يعطوهم القاتل ليقتلوه بقتيلهم . إنما يعطونهم الديَّة . وكانت قُريظة إذا قَتَلت أحداً من بنى النَّضير لم يرضَوا منهم إلا بالقود . فلما قدم النبى صلىٰ الله عليه وسلم المدينة تحاكموا إليه فى هذا الأمر فحَكَم بالتَّسوية بينهم ، فسَاءَهم ذلك ولم يقبلوا . وأى قصة منها هى مؤكِّدة للمعنى .

---

(1) رواه مسلم .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » والفتنة هى التعذيب بالنار ، وسبحانه يقول :

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

والفتنة أيضاً هى الابتلاء والاختبار ، ويقال : « فتنت الذهب » أى وضعت الذهب فى بوتقة وحوّلته بالحرارة العالية من جسم صُلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً . والفتنة فى ذاتها ليست مذمومة . ولكن المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليها ؛ أينجح الإنسان فيها أم يرسُب ؛ لأن الاختبارات التى يمر بها الإنسان كلها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنة بالنسبة إليه طيبة . والذى يرسُب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة . وعندما يريد الله فتنة بشر أى يريد اختبارهم : أيأتون طوعا واختياراً أم لا ؟

ومادام الحق سبحانه وتعالىٰ أعطىٰ للإنسان قدرة الاختيار حتى يُثبت صفة المحبوبية فسبحانه أراد ذلك ، ولا أحد بقادر أن يجعل الإنسان مقهوراً . وقد أراده الله مُختاراً وأن يبتلى وأن يختبر . أينجح أم يرسُب ، أيكون مُؤمناً أم كافراً :

« ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . وجعل سبحانه ذلك قانونا لخلقه بمنتهى الوضوح ، وهناك جانب فى الإنسان مُسَخَّر ، وجانب آخر مُخيَّر . « ومَن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . أى أن أحداً لا يجرؤ أن يغير نواميس الكون ولن يغير الله نواميس الكون من أجل أى أحد ؛ لأن النواميس لا بد أن تسير كما أرادها الله حتى على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم .

وقد عرفنا ما حدث فى أُحُد ؛ عندما تخاذل الرُّماة ولم يستمعوا إلى نصيحة القائد الأعلىٰ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أَغيَّر الله سُنَّته من أجل وجود حبيبه معهم ؟ لا ، وانهزموا على رغم وجود رسول الله معهم ؛ لأن الله أراد للسُّنة الكونية أن تسير كما هى من أجل إصلاح الأمر . فلو فُرِض أنهم انتصروا من أجل خاطر النبى ، ماذا يكون الموقف فى أوامره صلى الله عليه وسلم فيما بعد ؟ كان من الممكن أن يقول شخص منهم : « خالفناه وانتصرنا » . إذن لا بد لسُنَّة الله أن تُنَفَّذ .

﴿ ومَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

لماذا لم يرد الله أن يُطهِّر قلوبهم ؟ لأنهم منافقون . وفي قلب المنافق مرض . وعندما تأتى أحداث ينتفع بها المسلمون فالمنافق يزداد حِقداً ومَرضا لأنّ قلبه مُمتلىء بالغل ، ولا يريد الله تطهير قلب إنسان إلا أن يقبل على الله ولذلك قال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وقال سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

فهل عدم هداية الله لهم نشأت أولاً ، ثم نشأ الكُفر ، أو نشأ الكُفر منهم فجاء عدم الهداية ؟ نعلم أن عدم الهداية مرتبة على أنه ظالم أو كافر ، وقلنا من قبل: إن هناك إرادة كونية وإرادة شرعية . والإرادة الكونية هى ما يحدث فى كون الله . ولا شيء قد حدث في كون الله غصبا عن الله . والاختيار خلقه الله فى الإنسان ليصير الإنسان مُخيراً بين الكُفر والإيمان . ومادام الحق قد خلق الإنسان مُختاراً لهذا أو لذلك إذن فهو سبحانه مُريد كَوْنيًّا ما يصدر عن الإنسان اختياراً كفراً أو هدايةً . لكن أمُريد هو سبحانه ذلك شرعاً ؟ لا .

إن الشرع أمر سماوى إما أن يُنفّذه العبد وإما أن يعصيه . ونعرف أن هناك أشياء مُرادة كونياً وأشياء مُرادة شرعيا . والمُراد الكونى هو الذى يكون : أما الإنسان فقد خلقه الله وله الاختيار ، فالذى يسرق لا يسرق غصبا عن الله ولكن ما أعطاه له الله من اختيار ومن طاقة ، إما أن يوجهها إلى الخير وإما إلى الشر .

ونحن حين ننظر إلى الساعة التى نضعها حول المعصم وقد صنعها الصانع صالحة

لأن يديرها الإنسان على توقيت أى بلد ، فهل هذا يتم غصبا عن الصانع ؟ لا . وكذلك جهاز « التليفزيون » ؛ إن أذعنا فيه برامج دينية فهو صالح للهدف ، وإن أذعنا فيه حفلة راقصة فهو صالح لذلك أيضا . والذى صنع التليفزيون جعله صالحاً لهذا ولذاك ، المهم هو توجيه الطاقة وكذلك الإنسان . والإرادة الكونية هى كل ما يكون فى ملك الله ، والإرادة الشرعية هى كل ما يكون فى شرع الله « افعل ولا تفعل » . ومادام هناك أمرٌ كونى وأمر شرعى فالكون قد أوجده الله لخدمة المؤمن والكافر والعاصى ، لكن الأمر الشرعى جعله الله للمؤمن .

إذن فإيمان المؤمن أراده الله كونا ؛ لأنه سبحانه قد وضع الإيمان منهجا ، وأراد الله إيمان المؤمن شرعا . وكفر الكافر لم يتم غصبا عن الله . ولكن الإنسان بخلْقِه مختاراً . صار كُفره أمراً كونياً ، ولكنه غير مُراد شرعاً ، فكفر الكافر مُراد كونا غير مُراد شرعا . وإيمان الكافر غير مُراد كوناً وكفر المؤمن غير مُراد كونا . وبهذا نكون أمام أربعة أقسام فى المُراد كونا وشرعا . وهذه هى القسمة العقلية .

إذن من يُرِد الله فتنته كوناً فلا راد لإرادة الله ؛ فإذا لم يطع الشرع ، فذلك لأنه مخلوق صالح للطاعة وصالح للمعصية .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ الوالد يعطى لابنه جنيها ويقول له : أنت حُر فى هذا المبلغ فإن اشتريت مصحفا أو كتاب دين أو شيئاً تأكله أنت وإخوتك فسأكافئك وأستأمنك على أشياء كثيرة . أما إن اشتريت ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » فسأغضب منك .

وحين يذهب الولد ليشترى ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » ، هل اشترى ذلك غصبا عن أبيه ؟ لا . لكن الولد يصبح غير محبوب من أبيه . هذا هو الفارق بين المُراد كونا والمُراد شرعا . وبين المُراد كونا لا شرعا . والمُراد شرعا لا كونا .

« أولئك الذين لم يَرِد الله أن يُطهِّر قلوبهم » كان ذلك كونا ؛ لأنه سبحانه خلقهم قابلين للتطهير وقابلين لغيره ، فإن فعلوا أى شىء فهم لن يفعلوه غَصبا عن الله ؛ لذلك يذيل الحق الآية : « لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » فكأن

معنى ذلك أن فى قلوبهم أشياء ضد الطهارة ، ولهم فى الدنيا خزى . والخزى يطلق على الفضيحة ويطلق على الاستحياء ، والمعنيان يلتقيان . وهنا فى مجال هذه الآية : أى خزى وأى فتنة ؟ إنهما فتنتان ؛ المنافقون واليهود . وكان المنافقون كلما فعلوا شيئا ينفضح . وعندما يبيِّتون أى شىء فإن الله يخبر رسوله بما يبيِّتون .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

وكذلك الذين هادوا : يأتيهم الخزى أى الافتضاح ، أى أن يصيروا إلى المُسترذل بعد أن كانوا فى المُستحسن . والرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واليهود سادة هذه البقعة ؛ سادتها علما لأنهم أهل كتاب ، أما الأوس والخزرج فأميون لا يعرفون شيئا. وكان اقتصاد المدينة فى أيدى اليهود، من مال وصنعة وزراعة. وعنجهية الجاه. وعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يجدهم السادة ، ثم ينفضح أمرهم وكذبهم ، ويتم إجلاؤهم ، وتُسبى نساؤهم ويُقتل بعضهم . وعندما يدبرون كيدا لرسول الله ، يفضحهم الله ، وكل ذلك خزى ، وليس الخزى هو الجزاء الوحيد لهم ، بل يلقون فى الآخرة عذاباً أليماً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وفى اللغة ألفاظ مفردة ، مثال : « سجنجل » وتفتح القاموس فتجد معناها

« البلور » ، وكذلك الصفا والمروة ؛ وعندما تبحث فى القاموس عن كلمة « مروة » تعرف أن معنى اللفظ بعيد عن النسبة ، فأول عمل للغة أن تعرف معنى الألفاظ بعيداً عن نسبتها . ومهمة القاموس أن يشرح لك معنى اللفظ بعيداً عن النسبة دون إثبات أو نفى ، مثال ذلك « الجو » معناها هو ما يحيط بك من هواء أو غير ذلك ، لكن القاموس لايشرح هل الجو مُكفهر أو صافٍ أو باردٌ .

وإن تقدمنا مرحلة أخرى وأخذنا اللفظ لنصنع له نسبته ، كأن نقول : « الجو صحو » ، هنا ننتقل من فهم معنى كلمة « جَوّ » ، إلى أننا نسبنا الصحو إليه . والكلام المفيد يأتى فى النِسب . ولا تأتى النِسب إلا بعد معرفة معانى الألفاظ . والنِسب تعنى أن ننسب شيئا إلى شيء ، كأن نقول : « محمد مجتهد » هنا نسبنا لمحمد الاجتهاد ، وذلك بعد أن عرفنا معنى كلمة « محمد » بمفردها ، ومعنى « مجتهد » بمفردها .

إذن الكلام المفيد يتأتى فى النسب . وقد تكون الإفادة بضميمة كلمة إلى ما سبقها ، فعندما يسألك إنسان : « من عندك » ؟ فتقول : « محمد » ؛ هذا القول أفاد ؛ لأنه انضم إلى كلمة أخرى فصار المعنى : « محمد عندى » .

إذن هناك نسب ، والنسب هى أن تنسب حكماً إلى شيء إما إيجابا وإما نفياً .

والنسبة تنقسم إلى قسمين ؛ نسبة واقعة ، ونسبة غير واقعة . وإن كانت النسبة واقعة فهل تعتقدها ؟ وهل تستطيع أن تقيم عليها دليلاً ؟ إن كانت النسبة الواقعة ومقام عليها الدليل تكون علماً . وإن كانت نسبة وواقعة وأنت تعتقدها ولا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تقليد ، مثل الطفل الذى يقلد أباه فيقول : « الله أحد » ، والطفل فى هذه الحالة لا يستطيع أن يقيم على هذه النسبة دليلاً .

إن العلم أعلى مراتب النسب لأنه نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل . أما إذا كانت نسبة معتقدة وغير واقعة ، فهذا هو الجهل ؛ لأن الجاهل هو الذى يعرف الشيء على غير وجهه الصحيح . أما الأمى فهو الذى لا يعرف شيئا ونجد صعوبة فى الشرح للجاهل ، مثال ذلك الذى يقول الأرض مبسوطة ويدافع عنها ، إنه يقول نسبة يعتقدها ، ولكنها غير الواقع لأنها كروية .

والجهل ـ إذن ـ أن تعرف نسبة تعتقدها وهى غير واقعة . ولا يرهق الدنيا غير الجاهل ، لا الأمى ؛ لأن الأمى له عقل فارغ يكفى أن تقول له الحقيقة فيصدقها ، أما الجاهل فيحتاج إلى أن نخلع من أفكاره الفكر الخاطىء ونضع له الفكر الصحيح .

أما إن كانت النسبة غير واقعة . فالنفى فيها يساوى الإثبات ، وهذا هو الشك . وإن كانت هناك نسبة راجحة فهو الظن . والنسبة المرجوحة هى الوهم . إذن هناك عدد من النسب : نسبة علم ، نسبة تقليد ، نسبة جهل ، نسبة شك ، نسبة ظن ، نسبة وهم . وعلى ذلك يكون الكذب نسبة غير واقعة ، فإن كنت تعتقدها فأنت من الجاهلين .

ويقابل الكذب الصدق ، وعندما يقول الحق : « سماعون للكذب » . فالنسبة هنا غير مطابقة للواقع . ويقتنص الملبِّسون بعض النسب التى تأتى فى بعض من أسلوب القرآن ويقولون : فى القرآن كلام لو محَّصناه لوجدناه غير دقيق . مثال ذلك :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

كلام المنافقين هنا قد طابق كلام الله ، ولكن لماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

النسبة واحدة ، لكن الله يكذب المنافقين . وإن فطنا إلى قول الله حكاية عنهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

أى أن الله يُكذِّب شهادتهم ، لأن محمداً رسول الله بالفعل ، ولكنهم كاذبون لأنهم لا يعتقدون ذلك ، فالشهادة هى ما يوافق اللسان ما فى القلب .

إذن قوله الحق : « سماعون للكذب أكالون للسُّحت » أى أن عملهم الاستماع

للكذب ، وأكل السُّحت وكأنهم يرهقون إن أكلوا حلالاً ، وأكّال صيغة للمبالغة ؛ وتكون إما فى الحدث ، وإما فى تكرار أنواع الحدث . فيقال : « فلان أكال » ، و« فلان أكول » وهو الإنسان الذى يأكل بشراهة أو يأكل كثيراً ، والمبالغة ـ إذن ـ إما أن تكون فى الحدث وإما فى تكرير الحدث .

« أكّالون للسُّحت » ومادة « سَحت » تعنى « استأصل ومحا » ، ولكنها تزيد أنها استأصلته استئصالاً لم يبق له أثراً وتعدى الاستئصال إلى ظرفه . مثال ذلك عند ظهور بقعة من زيت أو طعام على ثوب ، نستطيع استئصال البقعة ، ونستطيع المبالغة فى استئصالها إلى أن تنحت من الثوب . والسُّحت استئصال مبالغ فيه لدرجة الجوْر على الأصل قليلاً . أى يستأصل الذى جاء ومعه بعض من الأصل أيضاً ؛ لذلك جاء المفسرون إلى هذا المعنى فى شرح الرِّبا لأن الله يصفه بالقول :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

والربا فى مفهومنا أنه زيادة ، ولكن الحق أوضح لنا أنه ليس بزيادة ؛ لأنه يَدْخل ويستأصل ويأكل ويكحت أصل المال . وظاهر الرِّبا الزيادة وباطنه محق واستئصال .

أما الزكاة فظاهرها نقص ، ولكنها نماء ، وبذلك نرى اختلاف مقاييس الخلق عن مقاييس الحق . والمثل الواضح : أن النفس تلتفت دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا تلتفت إلى رزق السلب . فرجل راتبه خمسمائة جنيه ، وآخر راتبه مائة جنيه ، صاحب الراتب البالغ الخمسمائة فتح الله عليه أبواباً تحتاج إلى ألفٍ من الجنيهات ، والذى يأخذ مائة جنيه سَدَّ الحق عنه أبواباً لا تأخذ منه كل راتبه بل يتبقى له عشرة جنيهات .

هناك ـ إذن ـ رزق إيجاب يزيد الدخل ، ورزق سلب أن يسلب الحق عنك المصارف فى المصائب والمهالك ويبارك لك فيما أعطاك .

والسُّحت هو كل شيء تأخذه من غير طريق الحلال ؛ كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف . وكل أنواع المقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سُحت .

« سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » وهذا القول دليل على أن أُذُنَهُم اعتادت سماع الكذب ويقبلون عليه . وعندما نقول نحن فى الصلاة : « سمع الله لمن حمده » ، أى أننا ندعو الله أن يقبل الحمد . وهم سماعون للكذب أى يقبلون الكذب . والسماع جارحة ، والأكل بناء ما به الجارحة لأنه مقوم لها . مثلما يأكل لينمو ، وإن كان ناضجاً يحفظ له الطاقة والقدرة .

فالنّمو ـ إذن ـ معناه أن يدخل جوفه أكثر مما يخرج منه . وبعد فترة يدخل إلى جسمه على قدر ما يخرج منه ، ثم الشيخوخة نجد فيها أن ما يخرج أكثر مما يدخل . وماداموا سماعين للكذب أكّالين للسُّحت ، فهم فى بوارٍ دائم ، لأن أكل السُّحْت حيثية من حيثيات الاستماع المصدِّق للكذب ؛ لأنهم قد بنوا ذرات أجسادهم من حرام ، فكيف ترفض آذانهم الكذب ؟ بل آذانهم تستدعى الكذب ، وألسنتهم تحترفه . وعيونهم تستدعى المحارم ، وأيديهم تستدعى السرقة ، إنها الأبعاض التى بناها أصحابها من حرام .

ولم يقل الحق عنهم : « سامعون » ، بل قال : « سماعون » أى جعلوا صناعتهم أن يتسمعوا ، وهم الجواسيس ، وإلا فإذا كان الأمر غير ذلك لكان كل من سمع كذبا يُعَد من هؤلاء . والقول مقصود به من جعل السماع صنعة له ، ولا يجعل إنسان السماع صنعة له إلا إذا كان عينا لغيره ، والعين للغير يتلصص على أمانة المجالس ، ولكل مجلس أمانة . فإذا ما حضر إنسان مجلسا فليس له أن ينقل ما فى ذلك المجلس إلى غيره إلا أن يكون ذلك هو صناعته ، وتلك هى مهمته .

« سماعون للكذب أكّالون للسُّحْت » وهنا قضيتان . فهل السماع للكذب سببه أكل السُّحت ، أم أكل السُّحت سببه السماع للكذب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان من طينة الأرض وصوره على شكل آدم نفخ فيه من روحه ، وحين صوره من طينة الأرض جعل كل مقومات حركة حياته من طبيعة طينة الأرض ، فإذا ما أخذ الإنسان شيئاً من حِلٍ ، اعتدلت الذرات فى نفسه على الهيئة التى خلقها الله . وإن تدخل فيها بحرام جعل فى الذرات اختلالا تكوينيا . وهذا الاختلال التكوينى هو الذى جعل آكل الحرام سماعا للكذب . ولو لم

يكن فيه ذلك الاختلال التكويني الذى صنعه بنفسه لما سمع الكذب أبداً .

أو أنه عندما أكل السُّحْت صار سماعا للكذب . أو سمع كذبا فصار أكَّالاً للسُّحْت . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : « آكل للسُّحْت » ، ولم يقل : « سامع للكذب » ؛ ولكنه قال : « سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » أى أنهم تعودوا سماع الكذب وتعودوا أكل السُّحت ، فالواحد منهم أخذ حراما من أول الأمر ، وعندما صار أكالا وسمَّاعًا للكذب فى آن واحد ، اختلت ذرَّات تكوينه ، ولم يعد فى أعماقه نور ليرفض الكذب . بل أقبل عليه ، ويغريه الكذب ثانية بأن يأكل السُّحْت ، والأمر دائر بين سماع كذب وأكل سحت .

وقضية الكذب هى قضية صراع الباطل مع الحقِ . ومادام الكذب غير مطابق لوازع كونى أو لواقع منهجى تكليفى فهذا يصنع خللاً فى الكون . وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا المثل فى ذلك جاء بالمثل فى أمرٍ حسى حتى نراه جميعا :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن كل وادٍ تحمَّل على قدر طاقته . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

فقبل أن ينزل السيل من على الجبال إلى الوديان ، يأخذ كل الأشياء التى تصادفه على الجبل من آثار الرياح ، ومن أوراق النبات ، فينزله إلى الوادى ، وتلك هى الأشياء التى تصنع الزَّبَد ونقول عنه فى لغتنا العامية : « الرَّغاوى » .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

و« رابياً » أى عائماً وعاليا وطافيا فوق المياه ، لماذا ؟ لأنه مادام زبداً ففيه فقاقيع هواء تجعل حجمه أكبر من وزنه . وتصبح كثافته أقل من المياه ؛ لذلك يطفو فوقها . وماذا يكون الموقف بعد ذلك ؟

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومن العجيب أنه سبحانه جعل المثلين فى الماء والمضاد له وهو النار ، فالماء يأتى بزبد وغثاء يطفو على المياه ، وكذلك النار حين ندخل فيها المعادن . ومن رأى الحداد ينفخ فى كيره على قطعة من الحديد يرى الخبث ، والمواد الغريبة الممتزجة بالحديد والتى تنفصل أثناء الصهر عن الحديد ليصير صافيا . إذن فهناك زبد فى الحديد تخرجه النار عند صهره ، وزبد يطفو فوق الماء .

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ولهذا نرى الباطل وقد أتى عليه زمن ليطفو فوق السطح ، ويخرج الخَبَث طافيا على أصيل الحديد . لكن أيظل الباطل كذلك ؟ يُطمئننا الحق أنه يحمى الحق فيقول :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وحين نرى الباطل وقد طفا على السطح نفاجأ بعد وقت من الزمن أن الزبد ينتهى ويصبح الماء صافياً ، وكذلك الزبد الذى يطفو على الحديد ، ينفضه الحديد ليبقى صافياً . فإذا رأينا الباطل مرة يعلو ، فلنعلم أنه لا بقاء لهذا العُلو ؛ لأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض .

ولماذا لا يُعلن الحق عن نفسه من البداية ؟ أراد الله ذلك ليجعل الباطل من جنود الحق ، ولو لم يَعض الباطل الناس ويُتعبهم أيتجهون إلى الحق ؟ لا ؛ لذلك كان لا بد أن يأتى إليهم الباطل ويتعبهم ليبحثوا عن الحق . وهكذا نرى الباطل كجندى من جنود الحق . وضربنا المثل من قبل وعرفنا أن الألم عند المريض من جنود العافية ، فلولا ذلك الألم لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض ، فكأن الألم يلفته إلى موضع الداء ويدفعه للبحث عن وسائل الشفاء . وبذلك يتعرف على حلاوة العافية .

إذن فالباطل من جنود الحق والألم من جنود الشفاء ؛ لأن أمور الحياة لو سارت على وتيرة واحدة لما عرف الإنسان أوجه الحياة ، فلو لم يأتِ الألم إلى المريض لأكله المرض . فإذا كان الألم من جنود الشفاء ، فالكفر أيضاً من جنود الإيمان ؛ لأننا عندما نرى الكُفر ونشهد آثار الكُفر فساداً فى المجتمع ، نتساءل : ما الذى يخلِّصنا من ذلك ؟ ونعرف أن الذى يخلصنا من الفساد هو الإيمان .

وأكرِّر دائماً : كلمة الكُفر بذاتها هى الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكُفر هو السَّتْر ، ومادام الكفر هو السَّتر ، والكافر يستر الإيمان ، وظهور الكفر على السطح دليل وجود الإيمان فى الأصل .

ومادام الحق قد قال : « سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » فلا بد بعد هذا التشخيص أن يرسم لرسوله أسلوب التعامل معهم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » . فأنت يا رسول الله بالخيار بين أن تحكم بينهم فى القضية التى جاءوا من أجلها أو تعرض عنهم ، فليس عليك تجاههم إلزام ما ؛ لأنهم السماعون للكذب الأكّالون للسُّحْت . وهم حينما يأتونك يا رسول الله طلباً لحكم إنما يفعلون ذلك لا رغبة فى معرفة الحق ولا هم يلتمسون العدل . بل جاءوك مظنة تيسير أمر الباطل وأكل السُّحت لنفوسهم . وقد طلبوا الحكم فى قضية الزِّنا وعندهم فى التوراة كان الرَّجم عقاباً للزنا .

لقد ذهبوا لرسول الله لأنهم أرادوا أن يستروا حكم الزِّنا فى التوراة ، والاكتفاء بالجلد وتسويد وجه الزانى وركوبه حماراً فى الوضع العكسى بحيث يكون وجهه فى اتجاه الذيل وقفاه فى اتجاه رأس الحمار ، وأن يطوفوا بالزانى وهو على هذه الهيئة حول البلدة . ولما لم يسمعوا ذلك الحكم من الرسول ابتعدوا عنه . إذن هم يطلبون التخفيف لأنهم كانوا سماعين للكذب وأكّالين للسُّحت . ولأن الذى سيطبق عليه الحد رجل له جاه وله مكانة وهم يريدون التقرب إليه بتخفيف العقاب عنه . وهل هناك تعارض بين قول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها وبين قول الحق :

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

لا تعارض . والبعض يقول : إن فى قوله الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » إلزاماً . ونقول : المعنى الواضح هو أنك يا رسول الله ، إن رجحت جانب أن تحكم وتقضى بينهم فاحكم بما أنزل الله ، ولننظر إلى الأداء القرآنى لأن المتكلم إله وحكيم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . ونلحظ أن الأمر هنا جاء بطريقة تؤكد أن الإعراض ممكن ؛ لأنهم أرادوا أن يحكم لهم رسول الله على هواهم ، وطمأنه الله بأنه سيحميه من شرهم إن أعرض عنهم ، وكأن الحق يقول لرسوله : إياك أن تفكر حين تعرض عنهم أنهم سينالونك بالشر لأنك لم تحقق لهم التيسير الذى ابتغوه عندك « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا » وإياك أن تجعل الضرر منهم مُرجِّحاً للحكم ؛ فأنت بالخيار ؛ إما أن تحكم وإما أن تعرض . ولا تخش من شرهم لأن الذى أرسلك يحميك .

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » والحكم فى هذه الآية يأتى كالقوس فى البداية وفى النهاية ، والحكم بينهم يكون بالقسط ؛ أى بالعدل . والعدل ليس كما يراه الهوى ولكن حسب ما أنزل الله . أى أن الله يحب الذين يزيلون الجْور . ومادام الحكم بالعدل يأتى ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جوْرٌ مُقنن ؛ إذن فـ « أقْسط » أى أزال جورًا مقننًا وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون . والكون كله يسير بميزان ؛ الأرض تدور والشمس تؤدى مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر :

﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

فإن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التى حولكم ، فإن كانت بنظام وميزان واعتدلت الأمور ، اعدلوا - إذن - فى إدارة شئونكم حتى تنسجموا كما انسجم الكون ، ولذلك نقرأ قوله تعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

أمامكم الموازين العليا فى الكون ، ولا تستطيعون إفسادها لأنها تسير بنظام لا دخل لكم به ؛ لذلك عليكم أن تتعلموا منها وأن تديروا أمور حياتكم بميزان حتى تستقيم أموركم الاختيارية .

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن رأيت حولك كونا غير مُضطرب ، وغير مُتصادم ، ويؤدى حركته دون تعارض أو تصادم ، فافهم أنه قائم على ميزان الحق ، ووضع سبحانه لك ميزاناً فى الأمور الاختيارية ، والمرجحات الاختيارية هى أحكام التكليف من الله ، فإن أردت أن تستقيم لك الأمور الاختيارية فسر بها على الميزان الذى وضعه الله .

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يوضح سبحانه : كيف يأتون طلبا للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا بك يا محمد رسولاً من الله ، فكيف يرضاك من لم يؤمن بك حَكَما ؟ لا بد أن فى ذلك مصلحة مناقضة لما فى التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لنفذوا الحكم الذى عندهم ، وهم إنما جاءوا إليك يا رسول الله طمعا فى أن تعطى شيئا من التسهيل وظنوا ـ والعياذ بالله ـ أنك قد توفر لهم أكل السُّحت وسماع الكذب .

« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة » وهى مسألة عجيبة يجب أن يُفطن إليها ؛ لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو حكموك فى أمر ليس فى التوراة لكان الأمر مقبولاً ، لكن أن يحكموك فى أمر له حكم فى التوراة ، وبعد ذلك يطلعك الله عليه

لتكشفه فتقول يا رسول الله : هاتوا ابن صوريا ليأتى بحكم التوراة . ويعترف ابن صوريا بوجود حكم الرَّجم فى التوراة . إذن هم رغبوا فى الاحتيال ، وأراد الله أن يثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم لوناً فى الإعلام عن هؤلاء المارقين على أحكام الله ، هم يعلمون أن الرسول أمّى ، لم يقرأ ولم يكتب ، فمن الذى أخبره بالحكم الموجود بالتوراة ؟

إذن أخبره من أرسله ، وإذا كانوا قد أرادوا البحث عن حكم مُخفَّف فالحق أراد ذلك ليكون سَبباً من أسباب الخزى لهم .

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا دليل على أن الرسول عندما حكم بغير مطلوب تيسيرهم . أعرضوا عن الحكم . ولو كانوا طالبين للحكم بادىء ذى بدء لقبلوا الحكم بالرجم كما قاله لهم رسول الله ، لكنهم غير مؤمنين حتى بتوراتهم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

الهدى هو الطريق أو الدرب المُوصِّل للغاية . وتأتى على الطريق أحقاب الليل والنهار ، فالطريق مُظلم ليلاً ، وقد تعترض السائر فيه عقبات ، أو قد لا يمشى السائر فى سواء السبيل أى وسط الطريق ، فيقع فى حفرة أو يصطدم بحجر .

ويوضح الحق هنا : لقد صنعت لكم الدرب وأنرته لكم حتى لا تصطدموا بشىء أو تأتى لكم عقبات ، وتمثّل ذلك فى المنهج الذى جاء به موكب الرُّسل كلهم . وقديما كان العالم مفككا ، متناثر الجماعات ، فلا توجد مواصلات ، وتعيش كل جماعة فى انعزال وشبه استقلال ، فإن حصلت داءات فى بقعة ما تظل محصورة فى هذه البقعة ، ويأتى رسول ليعالج هذه الداءات ، فهذا يعالج أمر عبادة الأصنام ، وذلك يعالج مسألة الكيل والميزان ، وثالث يعالج الأمور المنظمة للحياة الزوجية عند اليهود .

هذه الداءات كانت متعددة بتعدد الجهات ، وعندما أراد الحق سبحانه أن يبصر الناس بأسرار كونه ليستنبطوا منها ما يقرب المسافات ويمنع المشقات لتلتقى الأمم . وعندما تلتقى الأمم لا يوجد فصل بين الداءات ، فالداء الواحد يحصل فى الشرق لينتقل إلى الغرب . وكأن الداءات تتحد فى العالم أيضاً .

إذن لا بد أن يجىء الرسول الجامع ليعالج الداءات كلها ، فيأتى صلّى الله عليه وسلم الجامع المانع ، فإذا ما قال الحق : إنه أنزل التوراة فيها هدى ونور ، فالإنجيل أيضاً فيه هدى ونور ، وكل هدى ونور فى أى كتاب إنما هو للداءات الموجودة فى البيئة المنعزلة . مثال ذلك أن سيدنا إبراهيم كان موجوداً ، ومعه فى الزمن نفسه سيدنا لوط . وها هوذا سيدنا موسى كان موجودا . وكذلك سيدنا شعيب ، إذن كانت الرُّسل تتعاصر فى بعض الأحيان لأن كلا منهم يعالج داء معينا . وهكذا كانت الرسالات تأتى محدودة الزمان ومحدودة المكان .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بعثه الله للناس كافة بكل أجناسهم وتقوم على منهجه الساعة ؛ لذلك لم تعد الأرض فى حاجة إلى رسول آخر ، وصار من المنطقى أن يكون هو الرسول الخاتم .

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا » لماذا إذن يأتى

الحق بإسلام الأنبياء هنا ؟ جاء سبحانه بأمر إسلام الأنبياء تشريفا للإسلام لأنه جوهر منهج كل نبى .

إننا نجد الشعراء يتفننون فى هذا المعنى :

ما إن مدحت محمداً بمقالتى
لكن مدحت مقالتى بمحمدِ

والشاعر الآخر يقول :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبان

فالقبيلة بالنسبة لأبى الصقر هى التى تنتسب إليه وليس هو الذى ينتسب إليها .

ويردف قائلا :
وكم أبٍ قد علا بابن ذُرَا شرفٍ
كما علا برسول الله عدنان

إذن فالنبيون عندما يصفهم الحق بأنهم أسلموا ، إنما يريد الحق أن يشرف الإسلام بأن النبيين أسلموا قيادهم وزمامهم إلى الله لأنهم وجدوه الخير لهم . وإسلام النبيين هو الإسلام بمعناه الكامل ، أى هو الانصياع لأوامر الله ، فكلما فكر نبى منهم فى أن هناك شراً سيأتى له بسبب دعوته ، أو أن يضطهده أحد ، أو يحلو لأحدٍ أن يسىء إليه فهو يسلم أمره لله ؛ لأن الرسول منهم إنما يقول كلمة الحق ولا يبالى بما يحدث بعدها .

« يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » وهم يحكمون بالتوراة بين الذين هادوا ، أى من يهود ، وكذلك يحكم بها الربانيون والأحبار . والربانى منسوب للرب ، أى أن كل تصرفاته منسوبة إلى الله . والأحبار هم العلماء حملة أوعية العلم ، لكن هل ينفذونه أو لا ينفذونه فهذا شىء آخر . صحيح أن كل عالم وعاءُ

علم ، لكن قد ينتفع هو بعلمه ، وقد لا ينتفع ، لكنه ينقل علمه إلى من ينتفع به . ولذلك يقول أحد العلماء :

فخذ بعلمى ولا تركن إلى عملى
واجْنِ الثمار وخلِّ العود للنار

فلا تقل : إن هذا العالم يقول لنا كذا وكذا ، ونراه فى تصرفاته عكس ما يقول ، لأن عليك أن تأخذ ثمرة العلم ، واترك العود للنار . ولكن على العالم أن يكون أول من يمتثل ويطبق ما يقوله حتى لا يعذب ولا يدخل تحت قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

« والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » وعرفنا أن التوراة فيها نور وهدى ويحكم بها النبيون والربانيون والأحبار بالوسيلة التى طلب الله منهم أن يحفظوها ، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة . وقال الحق : « استحفظوا » ولم يقل : « حفظوا » ليبين لنا الفارق بين كل كتاب سابق للقرآن وبين القرآن ؛ لأننا عرفنا أن كل رسول قد جاء بمعجزة تدل على أنه صادق البلاغ عن الله .

ولكل الرسل من السابقين على رسول الله معجزة منفصلة عن المنهج ، مثال ذلك سيدنا موسى فمعجزته العصا وفلق البحر ، أما منهجه فهو التوراة . وسيدنا عيسى معجزته إبراء الأكمه والأبرص ، والمنهج الذى جاء به هو الإنجيل . أما سيدنا رسول الله فمعجزته هى عين منهجه ، وهى القرآن . وكان الأمر الموجود بالنسبة لكل رسولٍ مرتبطا بزمانه وجماعته ومحتاجا إلى معجزة مناسبة ومنهج مناسب ، لكن الرسول الذى أرسله الله إلى الناس جميعا وخاتما للأنبياء لا بد أن تظل معجزته عين منهجه بحيث يستطيع أى مسلم أن يقول حتى قيام الساعة : محمد رسول الله وهذه معجزته وهى عين منهجه .

وسيظل القرآن معجزة ظاهرة إلى أن تقوم الساعة ؛ لأن الله أرادها مختلفة عن بقيةٍ المناهج والمعجزات . فالمعجزات السابقة كانت كعود الثقاب الذى يشتعل مرة

واحدة ؛ فمن رآه لحظة الاشتعال فالأمر بالنسبة إليه واضح ، أما من لم يره فهو لن يصدق تلك المعجزة إلا أن يخبره من يصدقه . وقد استحفظ الله الربانيين والأحبار بالتوراة ، أى طلب منهم أن يحفظوها ، وكان هذا أمراً تكليفياً ، والأمر التكليفى عُرضة لأن يُطاع وعُرضة لأن يُعصى . واستحفظهم الله التوراة والإنجيل :

﴿ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

وصار أمر المنهج منسياً . وليس على بالهم كثيراً ؛ لأن الأمر إذا توارد على البال واستقر دائما فى بؤرة الشعور يظل فى الذهن ، لكن النسيان يأتى عندما يكون الأمر بعيداً عن البال .

والحق طلب منهم أن يحفظوا المنهج ، ولكنهم ـ ماعدا النبيين ـ لم ينفذوا ، وكل أمر تكليفى يدخل فى دائرة الاختيار ، ولذلك نجد أن الأحبار والربانيين قد نسوا ، وما لم ينسوه كتموه . وأول مرحلة من مراحل عدم الحفظ أنهم نسوا ، والمرحلة الثانية هى كتمان ما لم ينسوه ، والثالثة هى : ما لم يكتموه حرَّفوه ولووا به ألسنتهم . وياليتهم اقتصروا على هذه المراحل فقط ، ولكنهم جاءوا بأشياء وقالوا : هى من عند الله وهى ليست من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

إذن فالحفظ منهم لم يتم ؛ لذلك لم يدع الله القرآن للحفظ بطريق التكليف ؛ لأنه سبحانه اختبر البشر من قبل ، ولأنه أراد القرآن معجزة باقية ؛ لذلك لم يكل الله سبحانه أمر حفظه إلى الخلق ، ولكنه تكفل ـ سبحانه ـ بأمر حفظ القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجر)

ومصداق هذا النص ، أن بعضاً من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى هجر منهج الإسلام ومنهج القرآن إلا أنك تجد عجباً ، فبمقدار بُعدهم عن منهج الإسلام تطبيقاً يحافظون على القرآن تحقيقاً ، فيكتبون القرآن بكل ألوان الكتابة وبكافة الأحجام ، فهناك حجم ذهبى ترتديه النساء فى صدورهن ، وحجم يوضع فى اليد ، وبعد ذلك

نجد الكفرة أنفسهم يخترعون طريقة لكتابة القرآن فى صفحة واحدة .

إذن فالله يُسخر لحفظ القرآن حتى من لم يكن مسلماً . وتلك خواطر من الله . ونحن نرى كل يوم من يبتعدون بسلوكهم عن المنهج لكنهم يرصدون المال لحفظ القرآن . ونجد القرآن محققاً بألف وسيلة حفظ : الرجل يضع فى سيارته مصحفاً ، وفى حجرة نومه مصحفاً ، وقد تكون المرأة سافرة وصدرها مكشوف ولكنها تعلق مصحفاً ذهبياً . وهذا يثبت لنا أن حفظ القرآن ليس أمراً تكليفياً . بل هو إرادة الله .

فلو كان الأمر تكليفياً لكان نسيان القرآن وارداً ؛ لأن المسلمين ابتعدوا فى بعض أمورهم عنه كمنهج ، ويناسب ذلك أن ينفصلوا عنه حفظاً . ولكن الأمر صار بالعكس . فعلى الرغم من بُعد المسلمين عن المنهج ، لكن حفظ القرآن لا يقل أبداً ، ومن العجيب أن الكثيرين من المسرفين على أنفسهم ، إن سمع واحد منهم أنّ شيئاً يمس المصحف ، يقيم الدنيا ويقعدها ، فالمسألة ليست مسألته ، ولكنها مسألة الحافظ جل شأنه . وإن حدث أى تحريف يسير فى القرآن من أعداء الإسلام ، نجد أمة الإسلام تقف وقفة رجل واحد . ولقد أراد بعض المدلسين أن يدسوا على القرآن ما ليس فيه وجاءوا إلى آية فى سورة الفتح وهى :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وقالوا : « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكأنهم يرغبون فى زيادة التكريم لرسول الله ، فلما عرف المسلمون ذلك قامت ضجة وأحرقوا تلك المصاحف . ومنع المسلمون التحريف مهما كان باب الدخول إليه .

« فلا تخشوا الناس واخشون » والخشية : خوف متوَهَّم ممن تظن أنه قادر على الضر ، ولا أحد غير الله قادر على النفع والضر ؛ لذلك لا يصح أن يخاف الإنسانُ مِن سواه ، أما أن تظن أن السلطان أو القريب منه قادر على الضر ، فهذا أمر غير صحيح ، وليخشَ كل إنسان الحق سبحانه وهو جل وعلا نصحنا أن تكون الخشية منه دون سواه .

وإن غيَّر أحد أحكام المنهج من أجل السلطان أو أقارب السلطان أو أصدقاء

السلطان فذلك عين الفساد . والآفات والشرور تأتى من ذلك . بل قد لا يدرى السلطان شيئاً عن ذلك، وقد يتدخل قريب للسلطان ـ دون علم السلطان ـ ليطلب من العلماء تغيير بعض من المنهج ولا يستسلم له إلا الضعاف منهم ، وقد فطن سيدنا عمر رضى الله عنه إلى هذا الأمر فقال : إن الفساد قد لا يأتى من السلطان ، ولكن من الذين حول السلطان .

والخشية هنا تكون من غير الله ، ولذلك كان سيدنا عمر يجمع أقاربه والملتفين حوله ويقول لهم : لقد اعتزمت أن أصدر كذا وكذا فوالذى نفسى بيده من خالفنى منكم إلى شيء من هذا جعلت نكالاً للمسلمين .

هذا هو أسلوب من أراد أن يخدم ويحكم ولا يحمل أوزاراً ، ونرى صور الفساد إنما جاءت نتيجة مخالفة القاعدة الحكيمة : « فلا تخشوا الناس واخشون » .

ويتابع الحق من بعد ذلك : « ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً » وثمن آيات الله مهما بولغ فى تقييمها فلن يتجاوز نفعه هذه الدنيا ؛ لأن الدنيا ـ كما قلنا سابقا ـ لا تقاس بعمرها الحقيقى أى إلى أن يُفنى الله البشر ، وإنما دنيا كل حىّ تقاس بعمره فيها .

فهب أن الحياة طالت لملايين السنين فما نفع الفرد المحدود العمر بهذه الملايين من السنين ؟ إذن فدنيا كل إنسان هى مقدار عمره فى الحياة . وعمر الفرد فى الدنيا له حد محدود غير معروف لأحد غير الله ، فلكل أجل كتاب . ولذلك تجد واحداً يعيش متوسط الأعمار وهو سبعون عاماً . ويختلف العمر من إنسان لآخر ، وقد يموت آخر عند الستين وثالث يموت فى الأربعين ورابع يموت فى المائة ، وخامس يموت وهو طفل رضيع .

إذن فدنيا الفرد قد تكون لحظة . ومادامت مسألة العمر لا يحكمها زمن ولا يحكمها سبب فهى ـ إذن ـ بإرادة الحق غيب .

وأقضية الموت فى الوجود جعلها الله شائعة فى كل زمن ولم يجعلها الحق بعد الميلاد . بمعنى أن يولد الإنسان ليموت من بعد ذلك ، لا ، فقد يموت الكائن

البشرى وهو جنين فى بطن أمه ؛ فهذا حمل يسقط من بعد ساعة ، وذاك حمل يسقط من بعد شهر أو شهور ، وجعل الحق لنا ذلك لنأخذ من الأمر الغيبى وهو الجنين فى البطن مراحلَ تكوينه . إنه يعطينا شكل الجنين بعد نصف ساعة من التكوين ، ويعطينا شكل الجنين من بعد ساعة . وكل الأزمنة فى الحياة والموت موجودة . وعندما نحلل تلك الأشكال نجد أمامنا كل أطوار الجنين ، وكل أطوار الحياة ليكون ذلك واضحا جليا حتى لا يحسب أحد لنفسه عمراً فى هذه الدنيا .

ومادام الثمن الذى يأخذه المرتشون ليغيّروا آيات الله وأحكامه سينفعهم فى هذه الدنيا ، وأعمارهم فى هذه الدنيا محدودة ، كان عليهم أن يتذكروا أن حياتهم زمنياً قليلة بالنسبة لعمر الدنيا . وحتى يقوم الإنسان بعملية اقتصادية لا بد أن يتعرّف إلى أن عمره محدود بقدر سنوات مجهولة بالنسبة له فى هذه الحياة ، وهو عمر محدود مهما طال . وإن قارنها الإنسان بالحياة فى العالم الآخر فسيجد أن عمره الدنيوى منهى ، فإن قايضه بعمر غير منهى هو عمره فى الآخرة ، فذلك هو الفوز العظيم ؛ لأن وجود الإنسان فى الدنيا مظنون ، ووجود الإنسان بالنسبة للآخرة متيقن . ونعيم الفرد فى الدنيا هو على قدر إمكاناته ولو فى السلب . ونعيم الإنسان فى الآخرة ينسب إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .

إذن فأى صفقة تكون هى الرابحة ؟ محدود مقابل غير محدود ، ومظنون مقابل متيقن ، ونعيم على قدر مكنة وسلطان الفرد ولو بالسلب مقابل نعيم على قدر طلاقة قدرة الحق ، أى صفقة هى الرابحة ؟ إذن فصفقة الدنيا قليلة بالنسبة لما وعد الله به المتقين . ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

ماذا يعنى الحكم بما أنزل الله ؟ .

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل قضية مخالفة فى الكون حكماً ، فإذا أردت أيها الإنسان أن تحكم فى أمرٍ فعليك أن تبحث عن جوهره بسلسلة تاريخ هذا الأمر . ونجد أن قمة كل الأمور هى العقيدة ، وهو وجود الواجب الأعلى وهو الله ، فإن حكمت بأنه غير موجود فذلك هو الكفر . وإن آمن الإنسان بالله ثم جاء إلى أحكام

الله التى أنزلها وقال : لا ، ليس من المعقول أن يكون الحكم هو هكذا . فهذا لون من رد الحكم على الله وهو لون من الكفر .

أما إن آمن الإنسان بالحكم وقال : إننى أصدق حكم الله ، ولكن لا أقدر على نفسى فهل هذا كفر ؟ أم هذا ظلم ؟ . إنه ليس كفراً ، ويكون ظلماً إن كان حكماً بين اثنين . وهو فسق إن كان بين الإنسان وبين نفسه ؛ لأنه يفسق عن الحكم كما تفسق الرطبة عن قشرتها .

فالفاسق هو من له إطار من التكليفات ويخرج عن هذا الإطار كالرطبة التى خرجت من قشرتها . ومادامت الرطبة قد خرجت من قشرتها فهى عرضة للتلوث .

إذن فإن سمعت قول الله :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وعندما تسمع :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

وعندما نسمع :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة المائدة)

فتذكر أحكام الله وحاول أن تقدر على نفسك . وقيل : إن ذلك لليهود ؛ لأن الحق قال :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وقيل : إن الثانية جاءت للنصارى الذين لم يحكموا بالإنجيل .

ولنا أن نقول رداً على مثل هذه الأقوال : أمن الممكن أن يكون ذلك للأديان السابقة على الإسلام وليس موجوداً بالإسلام ؟ ذلك أمر لا يقبله العقل أو المنطق ، فهى آيات نزلت فى مناط الحكم عامة . فإن حكم إنسان فى قضية القمّة وهى العقيدة بغير الحق ، فذلك هو الكفر . وإن ردّ الإنسان الحكم على منشئه ـ وهو الحق الأعلى ـ فهذا لون من الكفر . وإن آمن الإنسان بالقضية وهو مؤمن بالإله فغلبته نفسه فهذا هو الفسق . وإن حكم إنسان بين اثنين وحاد ومال عن حكم الله فهذا هو الظلم .

إذن فـ « كافرون » و« ظالمون » و« فاسقون » تقول لنا : إن الألفاظ اختلفت باختلاف المحكوم به . فلا يقولن أحد : إن تلك آية نزلت لتلك الفئة ، وتلك الآية نزلت لفئة أخرى ، وثالثة نزلت لفئة ثالثة ، ولكنها أحكام عامة لمناط التكليف عامة . والحق قال فى بداية كل حكم « ومَن » ومَن كما نعلم كلمة عامة . والدليل على ذلك أن من يحكم بغير ما أنزل الله إنما هو يشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ورد الحكم على الله . وقال الحق فى الآية اللاحقة :

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

إنها أحكام تتعلق بجرائم ، وعقوبات على جرائم ، وهنا يكون الحكم بغير ما أنزل الله ظلماً . إذن فالأمر يختلف حسب المحكوم عليه .

وحينما تعرضنا لقضية الخلق الأول وهو خلق آدم ، وطلب الله من الملائكة المكلفين بتدبير أمور الخلق فى الأرض أن يسجدوا لآدم . وقلنا إن هذا السجود هو رمزية لأن يكونوا فى خدمة آدم ؛ لأن كل مظهر من مظاهر القوة فى الكون لا نرى الملك الذى يديره ، فكل قوة لها ملك معين ، ولأن ذلك الأمر من الغيب فنحن لا نراه ، إنها ملائكة مدبرات أمر . وحين يبلغهم الحق أن الطارىء على الكون وهو آدم ، وأنهم فى خدمته ، ومن أجل ذلك أمرهم بالسجود لآدم . ولذلك نجد أن بعضاً من الملائكة الذين ليسوا من المدبرات أمرا لم يشملهم الأمر . ويكلم الحق إبليس عندما رفض السجود قال سبحانه :

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

إن « العالين » هم الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يدرون ولا يعلمون بأمر آدم ، فقد سأل الحق إبليس : أأنت مستكبر عن السجود أم أنت من العالين الذين لم يشملهم أمر السجود ؟ وقلنا إن إبليس لم يكن من الملائكة ، لأنه بنص القرآن :

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ولذلك لا يصح أن يكون « إبليس » محل خلاف أهو من الملائكة أم لا ! فهو ليس من الملائكة . وفي القرآن نص صريح يثبت جنسية إبليس . وهو من الجن . وكان من المختارين ، له أن يطيع أو أن يعصي . لأن الجن داخلون في قانون الاختيار . فإن ألزم الجنّي نفسه بمنهج الله إلزاماً يتساوى به مع الملائكة وجب عليه أن يقوم بذلك . ولكنه لم يفعل . وكان من الواجب أن يطيع إبليس الأمر . ومادام الحق هو الذي أمر بالسجود ، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أن يسجد ؛ لأن المراتب محفوظة كما نعلم ، فرئيس الجمهورية عندما يدخل على الوزراء فهم يطيعون أمره ، وإن كان يجلس مع الوزراء بعض وكلاء الوزارات فهم يطيعون أوامره ؛ ذلك أنهم يدخلون في الأمر من باب أولى . ولو كان إبليس أعلى من الملائكة لكان أولى له أن يستجيب لأمر الخالق الأعلى ولا يعصي ويتأبى ، أما وإنّه كان أقل من الملائكة فكان لا بد من باب أولى ـ أن ينصاع لأمر الله . لكن إبليس علل أمر عدم السجود ، فقال :

﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وفي آية أخرى قال سبحانه :

﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وحين يتأبّى كائن على الحكم ، أيتأبّى على الحكم الأصم ، أي على الحكم من حيث هو حكم دون النظر إلى الحاكم ، أم على مَن حكم بالحكم وهو الأعلى سبحانه ؟ . تأبى إبليس على من حكم بالحكم ، ولذلك طرده الحق من الجنة وصار ملعوناً . لكن آدم عصى ربه وقرب من الشجرة التي نهاه الله عنها . ومن رحمة الله

تعالى أنه جعل فى التكليفات مقدمات تنطبق على حالة المكلف نفسه ، فلم يقل الحق لآدم : لا تأكل من الشجرة . ولكنه قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

لأن الحق علم أن آدم إنسان ، والإنسان من الأغيار ، وهو عندما يرى الشجرة بثمارها قد لا يقدر على نفسه ، ولذلك كان من الأفضل ألا يقرب من هذه الشجرة . وسبحانه يريد أن يحمى الإنسان ؛ لأن التكليفات التشريعية لا يرفعها الحق ، ولا يعفى المكلف من القيام بها إلا فى الأمر الذى ليس للإنسان فيه اختيار ، ولذلك أراد الحق أن يحمى الإنسان من الاقتراب من تلك الشجرة حتى لا تغريه وجاء الحق بمثل هذا الأمر فى الخمر فلم يقل : لا تشربوا الخمر . ولكنه قال :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

لأن الإنسان لو جلس فى مجلس خمر ورأى السُّكارى قد سعدوا وضحكوا فقد تراوده نفسه على شرب الخمر . إذن فالأمر بالاجتناب هنا أبلغ من « لا تشربوه » . ونجد أن تكليفات الحق إنما تأتى للعمل النزوعى ، ومعنى العمل النزوعى أن يتحرك الإنسان للعمل . أما بالنسبة للإدراكات فمن الجائز أن يدرك الإنسان الأمر . ويترك الحق لنا حرية حب من نشاء وكراهية من نشاء . ولكن هذا الحب لا يصح أن يصدر عنه عمل نزوعى فنجامله بالباطل . وكذلك الكراهية فليس هناك أمر بالكراهية ، ولكن إن كره إنسان إنساناً فلا يصح أن يظلمه . فالمنهىّ عنه هو الظلم ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾

(من الآية ٨ سورة المائدة)

أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا . إذن فالحق لم يحرم البغض لأنه مسألة عاطفية . ولكن التحريم ينحصر على الإقدام على عمل يخل بميزان العدل مع من تكره . ويجب أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن من ظلمه بمعصية ، فلا يجازيه الإنسان إلا بطاعة الله . وآدم أكل من الشجرة ، فهو ـ إذن ـ قد تجاوز مسألة

الاقتراب إلى مسألة الأكل من الشجرة ؛ لأنه لو قرب منها لكان مخالفاً ، فما بالنا وهو قد أكل منها أيضاً ؟ إذن فقد أوغل آدم فى المعصية ، لكنه قال : (ظلمنا أنفسنا) .

وهذا اعتراف واضح بأن حكمك يا الله هو الحكم الحق ، لكنى لم أقدر على نفسى يا ربى . إذن فهو لم يَرُدَّ الحكم على الله ، ولكنه اعترف بأنه لم يقدر على تنفيذ الحكم ، لذلك أعطاه الله كلمات ليقولها فيتوب عليه . وسبحانه هو الذى علم آدم كيف تكون التوبة . فآدم ـ إذن ـ ليس كإبليس الذى رد الحكم على الله ؛ لأن آدم قال : أنا لم أقدر على نفسى .

إذن فمن لم يحكم بما أنزل الله رادّاً للحكم على الله ومخطّئاً لله ـ سبحانه ـ فهو كافر . وإن كان حكماً بين اثنين وحكم بغير ما أنزل الله فهو ظالم . أما إن كان حكماً على النفس ولم يقدر عليه الإنسان فهذا فسق . وكل وصف جاء حسب حكمه . ولا داعى ـ إذن ـ للجدل ولا للخلاف ولا ادعاء أن هناك قولاً يقصد به اليهود ، وآخر ورد فى النصرانية ، ولا يصح أن يزين الإنسان الباطل لأحد ، لأن ورود الحكم بما أنزل الله فى الإسلام أمر جازم يوجب الالتزام به .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لقد كتب الحق على اليهود فى التوراة التى وصفها من قبل بأنها هدى ونور ، كتب

وأوجب عليهم أن النفس بالنفس ، وعلينا أن نأخذ كل أمر وما يناسبه من الحدث . أى أن النفس تُقتل بالنفس . ولكن عندما يقول الحق : « والعين بالعين » ، فهل يعنى ذلك أن تقتل العين؟ لا . ولكن العين تقلع مقابل عين . وكذلك « والأنف بالأنف » . أى الأنف المجدوعة ، مقابل جدع أنف أخرى . وكذلك قوله الحق : « والأذن بالأذن » أى إصابة أذن بالصمم مقابل إصابة أذن بالصمم . إذن فلكل ما يقابله . فهناك النفس تقتل بالنفس وهناك العين تفقأ بالعين ، وكذلك الأمر فى جدع الأنف ، وصلم الأذن .

إن تعبيرات اللغة واسعة تعطى لكلٍ وصف ما يناسبه . فالإنسان مثلاً قد يكون جائعاً . ولكن إلى ماذا ؟ إن كان جائعاً لطعام فهو جوعان . وإن أراد خصوصية أكل ويشتهيه كاللحم فلا يقال له:جوعان ، ولكن يقال « قَرِم » . وإن كان يشتهى اللبن يقال له : « عَيْمان » ، وإن كان فى حاجة للماء يقال له : « عطشان » . وإن كان جائعاً للجنس فهو « شَبِق » .

وذلك يكشف لنا أن الإنسانية تحتاج إلى أمور متعددة ، وكل أمر له اسم . وكل شيء له تعبير . ومثال آخر : يقال:فلان جلس ، أى قعد . وهذا فى المعنى العام . ولكن الجلوس يكون عن اضطْجاع . أما قعد ، فهى عن قيام ، أى كان قائماً وقعد . ولذلك قال الحق : « قياماً وقعوداً » .

ومثال آخر : يقال : « نظر » و« رمق » و« لمح » ؛ وكل كلمة لها موقفها ؛ فالنظر يكون بجميع عينيه . و« رَمِق » أى لحظ لحظا خفيفاً . و« لَمَحَ » أى اختلس النظر إليه . وكذلك قوله الحق معناه : أننا كتبنا عليهم فيها أن النفس مقتولة بالنفس ، والعين مفقوءة بالعين ، والأنف مجدوعة بالأنف ، والأذن مصلومة بالأذن ، والسن مخلوعة بالسن . وبعد ذلك يقول الحق عن الجروح : « والجروح قصاص » لأن الجرح قد يكون فى أى مكان . والقصاص يكون بمثله ومساوياً للشيء ، وهو مأخوذ من قص الأثر ؛ أى السير تبعاً لما سارت عليه القدم السابقة دون انحراف . ولما كان القصاص هو أمر مطلوب فيه المماثلة فذلك أمر صعب ، صحيح أن الحق قال :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

لكن القصاص أمر صعب ، فالصفعة من يد جائع متهافتة بعكس الصفعة التى تأتى من يدٍ صاحبُها فى منتهى النشاط والقوة . فكيف يكون القصاص مناسباً لقوة الذى فعل الفعل ؟

إذن لا يصح أن يدخل الإنسان فى متاهة . ويمكنه أن يتصدق بالقصاص فلا يأخذه . ونحن نعلم حكاية « تاجر البندقية » ذلك المرابى اليهودى الذى أقرض نقوداً مقابل رطل من لحم صاحب القرض ، وكتب الاثنان التعاقد وجاءا بالشهود . ولم يستطع الرجل أن يُسدّد المال فى الميعاد ولكن القاضى أنار الله بصيرته . فقال : خذ الرطل من لحم الرجل ولكن إن أنقصت أوقية فسنأخذها منك أو إن زدت أوقية فسنأخذها منك . فقال المرابى : لا أريد .

وقد قنن الحق للجريمة ، ولم يغلق سبحانه باب الطموحات الإيمانية ، فقال : « فمن تصدق به فهو كفارة له » . ومعنى « تصدق » أنه دفع وأعطى شيئا غير مستحق ، ولا واجب عليه أى تبرع به ابتغاء وجه الله . إن الذى يتعب البشر فى تقنيناتهم أنهم يطيلون إجراءات التقاضى ، فساعة تقع جريمة يستمر التحقيق فيها بواسطة القضاء لأكثر من عام فتنبهت بشاعة الجريمة فى النفس البشرية. ومن الواجب كذلك أن يكون الأمر لولى القصاص ؛ لأنك إن مكنته أرضيت نفسه بأول شفاء . وساعة يُعطى الإنسان ذلك الحكم فقد يزهد فيه ؛ لأن الأمر حين يكون فى يده ويقدر على القصاص فمن المحتمل أن يعفو .

وسيظل المتصدَّق عليه طيلة حياته يدين بحياته أو بجارحة من جوارحه لصاحب القصاص . وبدلاً من إيعازات الثارات تنشأ المودة . وحين يشرع المشرع الأعلى يوضح لنا : لا تحكم بأنك دائماً معتدى عليك ، بل تصور مرة أنك معتد ، ألا تحب فى مثل هذه الحالة أن يتصدق عليك صاحب القصاص ؟ فإذا أرادت الحكومات أن تنهى الثارات فلهم فى التشريع الأعلى الحكم الواضح .

وفى صعيد مصر ، ساعة يُقتل إنسان نجد الذى عليه الثار يأخذ كفنه ويذهب إلى العائلة الطالبة للثار ، ولحظة يدخل عليهم حاملاً كفنه بيديه ، تشفى النفوس من طلب الثار . ويحيا ، وصاحب الثار متفضل عليه بالعيش « فمن تصدق به فهو كفارة

له » تكون الصدقة هنا من ولى القصاص . والفعل « تصدق » يحتاج إلى اثنين هما : « متصدِّق » و« متصدَّق عليه » . وسبحانه الحق يكفر عن المتصدق من الذنوب بقدر ما تسامح فيه لأخيه ، وهنا يحنن الله الخلق بعضهم على بعض ؛ لذلك تأتى المسألة هنا من ناحية صاحب القصاص لترغبه فى التصدق .

وينهى الحق الآية بقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وعرفنا من قبل ضرورة الحكم بما أنزل الله . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وقفينا أى أتبعنا ، فعيسى جاء من بعد موسى ، فعندما يمشى رجل خلف رجل نجد أن قفا الأول يكون فى وجه الثانى . وعندما يقول الحق : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه » أى مصدقاً لموسى الذى جاء بالتوراة . « وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور » . وعرفنا أن « الهدى والنور » يناسبان البيئة التى نزلت إليها تلك الهداية وذلك النور .

إن هناك مقولات اسمها « المقولات الإضافية » ، كأن يقول إنسان فى قرية لابنه : أشعل الضوء . ويشعل الولد المصباح الكيروسينى ؛ أما إذا قال إنسان فى مدينة لابنه : أضىء النور ، فالابن يضغط على الزر ليضىء المصباح الكهربائى . وهذه الإضافات قد تجعل اللفظ يحمل معنيين . ومثال آخر أكثر وضوحاً : يسكن الإنسان فى منزل ما ، ويعرف أن السقف عال بالنسبة له ، ولكنه أرض بالنسبة لأصحاب الدور الثانى ، إنه علو وسفل وهذا هو المعنى الإضافى . وكذلك عندما

نقول : فلان ابن فلان ، فهذا لا يمنع أن هذا الابن يكون أباً بالنسبة لابنه .

إذن « هدى ونور » هى معان إضافية . وكل « هدى ونور » يناسب البيئة التى نزل فيها . فالبيئة المادية الأولى كانت فى حاجة إلى تقنين ؛ لذلك جاءت التوراة ، ومن بعد ذلك صارت هذه البيئة المادية فى حاجة إلى طاقة روحية ؛ لذلك جاء الإنجيل بكل الروحانيات ، وعندما سئل عيسى ابن مريم عليه السلام فى قضية الميراث قال : أنا لم أرسل مورِّثاً ، فهو يعلم أنه جاء بشحنة روحية فيها مواجيد ومواعظ .

ويتابع الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

والحق أنزل فى الإنجيل أن الأحكام تؤخذ من التوراة . أى أن الإنجيل تضمن إلى جانب روحانياته أسس الأحكام الموجودة فى التوراة . ولذلك أوضح الحق : من لم يحكم بما أنزل الله فهو فاسق مادام قد خرج على الطاعة . فإن خرج أحد على الطاعة فى أمر الألوهية والربوبية فهو كافر . ومن خرج على الأحكام بالنسبة للحكم بين الناس فهو ظالم . إذن فالمسألة كلها متداخلة ، فالشرك ظلم عظيم أيضاً .

وبعد أن تكلم الحق عن التوراة والإنجيل ، جاء بما نزل إلى النبى الخاتم :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » نعرف أن هناك تشريعاً جاء من أعلى . وهناك من يريد أن يلبس الناس أهواءه ، فيقول : إن الإسلام دين تقدمى ، أو يقول : الإسلام دين رجعى ، وكلاهما يحاول أن يلبس الإسلام بما ليس فيه ، ونقول : لا تقولوا ذلك ولكن قولوا الإسلام فوقى ؛ لأنه جاء من الله ، فإن كان للتقدمية مزايا فهو تقدمى ، وإن كان للرجعية مزايا فهو رجعى ، وإن كان لليمين مزايا فهو يمينى وإن كان لليسار مزايا فالإسلام يسارى ؛ فقد جاء الإسلام بالاستطراق الاجتماعى والتقدم العلمى الأصيل ؛ لأن مفهوم التقدم هو أن يرتقى الإنسان بنفسه ارتقاءً متقدماً يجعل الناس متكافئين .

إن الإسلام ليس تقدمياً فقط بالنسبة للحياة الدنيا ولكن بالنسبة لحياة أخرى خالدة فوق هذه الحياة . إن الذين يناقشون تلك الأفكار لا يحسنون فهم أفكارهم سواء أكانت تقدمية أم رجعية أم يمينية أم يسارية . ونرى أن المناهج المعاصرة التى تسبب كل هذا الصراع فى الدنيا من شرق وغرب هى : الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والوجودية وغيرها .

وعندما ننظر ـ على سبيل المثال ـ إلى القائمين على أمر الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ ، نجد قولهم : إنهم مازالوا فى بداية الطريق إلى الشيوعية ، ولكنه اختيار الطريق الاشتراكى .

كان يجب أن يتجهوا إلى ما نادوا به ، ولكن ها نحن أولاء نرى أنهم كلما تقدموا فى الزمن تراجعوا عن أفكارهم الأولى . حتى انقلبوا على أنفسهم . وذلك دليل على أن المنهج الذى اتخذوه لأنفسهم غير صحيح .

والمنهج الرأسمالى أظل كما هو؟ لا ؛ لأن الأحداث قد اضطرت الرأسمالية أن تعطى العمال حقوقاً وبذلك لم تبق لرأس المال شراسته . كما سارت الشيوعية إلى معظم أساليب الرأسمالية . والرأسمالية سارت إلى بعض من أساليب الاشتراكية وهما - إذن - يريدان أن يلتقيا . ولكن الإسلام أوجد هذا اللقاء من البداية ، فاحترم رأس المال ، واحترم العمل . وكل إنسان لزم حدوده . وضمن وجود واستمرار حركة الحياة . ولذلك نجد أن الرأسمالية تقول : يجب أن توفر الحوافز للعمل . ولم تصل الشيوعية أيضا إلى مداها ، بل قامت بإهدار حقوق الناس ، ثم ماذا عن الذين لم تمتد إليهم يد الشيوعية - قبل أن توجد - وكان فيهم من يستغل الناس ؟

كان العقل يحتم أن تؤمن الشيوعية بأن هناك آخرة يعاقب فيها من استغلوا الناس من قبل ، ومن مصلحتهم إذن أن توجد آخرة . وكان من اللازم أن يكونوا متدينين . وكذلك الرأسمالية التى لا تعترف إلا بالربح المادى ، امتلأت مجتمعاتها بالضحايا الذين فقدوا المعنويات . وقول الحق : « أنزلنا » يعتبر أن هناك منهجاً نزل من أعلى . وحين نأخذ معطيات البيان القرآنى ، نجده سبحانه يبلغنا تعاليمه : « قل تعالوا » . أى ارتفعوا إلى مستوى السماء ولا تهبطوا إلى حضيض الأرض .

ولذلك قال الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ونرى أن آيات القرآن تتآزر وتخدم كل منها الأخرى . ونزول الكتاب بالحق يحتاج إلى صدق دليل أنه ينزل من الله حقا ، وأن تأتى كل قوانين الحق فى حركة الحياة بالانسجام لا بالتنافر ، وهناك آية تشرح كلمة « الحق » :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أى أنه نزل من عند الله وليس من صناعة بشر . (وبالحق نزل) أى نزل بالمنهج من عند الله الذى يقيم منطق الحق فى كل نفس وكل مكان ، ويضمن كل حق يقيم حركة الحياة .

وهنا أجملت الآية ، فقالت : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » أى أن القرآن مصدق للكتب السماوية السابقة . وما الفارق بين كلمة « الكتاب » الأولى التى جاءت فى صدر الآية ، وكلمة « الكتاب » الثانية ؟

إننا نعلم أن هناك « ال » للجنس ، و« ال » للعهد ، فيقال « لقيت رجلا فأكرمت الرجل » ، أى الرجل المعهود الذى قابلته . فكلمة الكتاب الأولى اللام فيها للعهد أى الكتاب المعهود المعروف وهو القرآن ، وكلمة الكتاب الثانية يراد بها الجنس أى الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، فالقرآن مهيمنٌ رقيبٌ عليها ؛ لأنها قد دخلها التحريف والتزييف .

كلمة « الحق » ـ إذن ـ تعنى أن كتاب الله الخاتم لكتبه المنزلة وهو القرآن قد نزل بالحق الثابت فى كل قضايا الكون ومطلوب حركة الإنسان . ونزل بالحق بحيث لم يصبه تحريف ولا تغيير .

إذن فالحق هو فى مضمونه وفى ثبوت نزوله . وقد نزل القرآن بعد كتب أنزلها الله متناسبة مع الأزمنة التى نزلت فيها ؛ لأنه سبحانه خلق الخلق لمهمة أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن يعمروا هذا الكون بما أمدّهم به من عقل يفكر ، وطاقات تنفّذ ، ومادة فى الكون تنفعل ، فإن أرادوا أصل الحياة مجرداً عن أى ترقٍ أو إسعاد فلهم فى مقومات الأرض ما يعطيهم ، وإن أرادوا أن يرتقوا بأنفسهم فعليهم أن يُعملوا العقل الذى وهبه الله ليخدم الطاقات التى خلقها الله فى المادة التى خلقها الله ، وحينئذ يأخذون أسرار الله من الوجود .

إن أسرار الله فى الوجود كثيرة ، وتفعل لنا وإن لم نعرف نحن السر . فنجد الجاذبية التى تمسك الأفلاك تفعل لنا ، وإن لم نكن قد اكتشفنا الجاذبية إلا أخيراً . والكهرباء السارية فى الكون سلباً وإيجاباً تعمل لنا وإن لم نعرف ما تنطوى عليه من سرّ .

إن الحق سبحانه حين يريد ميلاد سر فى الكون سبحانه يمد الخلق بأسباب بروز هذا السر . واعلموا أن كل سر من أسرار الكون المسخر للإنسان له ميلاد كميلاد

الإنسان نفسه ، إما أن يصادف ـ هذا الميلاد ـ عمل العقل فى مقدمات تنتهى إليه ، وحينئذ يأتى الميلاد مع مقدمات استعملها البشر فوصلوا إلى النتيجة ، تماماً مثل التمرين الهندسى الذى يقوم الطالب بحله بعد أن يعطيه الأستاذ بعضاً من المعطيات ، ويستخدمها التلميذ كمقدمات ليستنبط ما يريد المدرس أن يستنبطه من مطلوب الإثبات . فإن صادف أن العقل بحث فى الشىء معملياً وتجريبياً وصل ميلاد السر مع البحث . وإن جاء ميلاد السر فى الكون ، ولم يشغل الإنسان نفسه ببحث مقدمات توصل إليه ، وأراد الله ذلك الميلاد للسر فماذا يكون الموقف ؟

أيمنع الله ميلاد السر لأننا لم نعمل ؟ . لا . بل يخرج سبحانه السر إلى الوجود كما نسمع دائماً عن مصادفة ميلاد شىء على يد باحث كان يبحث فى شىء آخر، فنقول: إن هذا السر خرج إلى الوجود مصادفة .

وإذا نظرت إلى الابتكارات والاختراعات وأمهات المسائل التى اكتشفت لوجدتها من الصنف الثانى ، ونجد المفكر أو العالم وقد غرق فى بحث ما ، ثم يعطيه الله سراً من أسرار الكون لم يكن يبحث عنه ، فيقال عن الاكتشاف الجديد : إنه جاء مصادفة، وحينما جعل الله لكل سر ميلاداً ، فهو قد أعطى خلقه حياة من واسع فضله ، وأعطاه قدرة من فيض قدرته وأعطاه علماً من عنده (وعلمناه من لدنا علما) ، ووهبه حكمة يُؤتى بها خيرا « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » . وهو سبحانه وتعالى يريد من خلقه أن يتفاعلوا مع الكون ليبرزوا الأشياء ، وإذا كان سبحانه يريد منا أن ننفعل هذا الانفعال فلا بد أن يضع المنهج الذى يصون طاقاتنا وفكرنا مما يبددهما .

والذى يبدد أفكار الناس وطاقاتهم هو تصارع الأهواء ، فالهوى يصادم الهوى ، والفكرة قد تصادم فكرة ، وأهواء الناس مختلفة ؛ لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن لنا اتفاق الأهواء حتى نصدر فى كل حركاتنا عن هوى واحد ؛ وهو ما أنزله الخالق الأعلى الذى لا تغيره تلك الأهواء . أما ما لا تختلف فيه الأهواء فتركنا لكى نبحث فيه ؛ لأننا سنتفق فيه قهراً عنا . ولذلك نقول دائما : لا توجد اختلافات فى الأفكار المعملية التجريبية المادية ، فما وجدنا كهرباء روسية ، وكهرباء أمريكية لأن المعمل لا يجامل . والمادة الصماء لا تحابى . والنتيجة المعملية تخرج بوضوحها واحدة .

إننا نرى اتفاق العلماء شرقاً وغرباً فى معطيات المادة التجريبية وتحاول كل بلد أن يسرق من البلد الآخر ما انتهى إليه من نتائج لتدخلها على حضارتها ، بينما يختلف الأمر فى الأهواء البشرية ، فكل بلد يحاول أن يبعد هوى الآخر عن حدوده ؛ لأن الأهواء لا تلتقى أبداً ، والحق قد وضع حركة الحياة لتنفعل بـ « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » مما تختلف فيه الأهواء ليضمن اتحادنا وعدم تعاند الطاقات فينا . بل تتساند معاً .

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فمنهج الله فى كونه إنما جاء لينظم حركة الإنسان فيما تختلف فيه الأهواء . أما الحركة فيما لا تختلف فيه الأهواء فقد تركها سبحانه حرة طليقة : لأن البشر يتفقون فيها قهراً عنهم ، لأن المادة لا تجامل والمعمل لا يحابى .

ولذلك قلنا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله نبياً خاتماً أعطى بـ « افعل ولا تفعل » . أما بالنسبة للأمر المادى المعملى فقد جعل أمره فى ذات النبى صلى الله عليه وسلم . فعندما قَدِمَ النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كان أهلها يأبرون النخل ؛ أى يلقّحونه ليثمر . فمر النبى صلى الله عليه وسلم بقومٍ يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » .

فلم يأبُروا النخل ، فخرج شيصا ؛ أى بُسْراً رديئاً ، وخاب النخل . ومرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنى إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنى لن أكذب على الله عز وجل » .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىءٍ من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلنها قضية كونية مادية تجريبية معملية : (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[١] .

أى أنه صلى الله عليه وسلم ترك للأمة إدارة شئونها التجريبية ، ولم يكن ذلك القول تركا للحبل على الغارب فى شئون المنهج ، فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفيصل فيما تتدخل فيه السماء ، وفيما تتركه السماء للبشر ، وأعمار الناس ـ كما نعلم ـ تختلف ، فنحن نقول للإنسان طفولة ، وله فتوة ، وشباب ، وله اكتمال رجولة ونضج ؛ لذلك يعطى الحق من الأحكام ما يناسب هذا المجتمع ؛ يعطى أولاً الاحتياج المادى للطفولة ، وعند عصر الفتوة يعطيه المسائل الإدراكية ، وعندما يصل إلى الرشد يعطيه زمام الحركة فى الكون على ضوء المنهج ، فكانت رسالة الإسلام على ميعاد مع رشد الزمان ، فأَمِن الحق سبحانه أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يقفوا ليحموا حركة الإنسان من أهواء البشر . وكانت الرسل تأتى من عند الله بالبلاغ للمجتمعات البشرية السابقة على الإسلام . وكانت السماء هى التى تؤدب . ولكن عندما اكتمل رشد الإنسانية ، رأينا الرسول يبلغ ، ويوكّله الله فى أن يؤدب من يخرج على منهج الله فى حركة الحياة ، لأنه صلى الله عليه وسلم أصبح مأموناً على ذلك .

وإذا نظرت إلى الكون قديماً لوجدته كوناً انعزالياً ، فكل جماعة فى مكان لا تعلم شيئاً عن الجماعة الأخرى ، وكل جماعة لها نظامها وحركتها وعيشها وداءاتها . والإسلام جاء على اجتماع للبشر جميعاً . فقد علم الله أزلاً أن الإسلام سيجىء على ميعاد مع إلغاء فوارق الزمن والمسافات ، وأن الداء يصبح فى الشرق فلا يبيت إلا وهو فى الغرب ، وكذلك ما يحدث فى الغرب لا يبيت إلا وهو فى الشرق .

إذن فقد اتحدت الداءات ولا بد أن يكون الدواء واحداً فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جامعاً للزمان وجامعاً للمكان ومانعا أن يجىء رسول آخر بعده ، وأن العالم قد وصل إلى قمة نضجه . فإذا ما جاء الإنسان ليعلم منهج الله بـ « افعل » ولا « تفعل » ، وجد أن المنهج محروس بالمنهج ، بمعنى أن الكتب السابقة على القرآن فيها « افعل » و« لا تفعل » ، والقرآن أيضاً فيه « افعل » و« لاتفعل » لكن المنهج

---

(١) رواه مسلم عن أنس وعائشة .

السابق على القرآن كان مطلوباً من المنزل إليهم أن يحافظوا عليه ، ومادام قد طلب الحق منهم ذلك فكان من الواجب أن يمتثلوا لطاعته لكنهم تركوا المنهج . فكل منهج عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى ، ولم يحفظوا الكتب وحدث فيها التحريف بمراحله المختلفة والتى سبق أن ذكرناها وهى النسيان وهو متمثل فى قوله الحق :

﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

وما لم ينسوه كتموا بعضه ، فقال الحق فيهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة البقرة)

وما لم يكتموه حرفوه ولووا ألسنتهم به وقال الحق :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة آل عمران)

ولم يقتصروا على ذلك بل وضعوا من عندهم أشياء وقالوا إنها من عند الله . وكان أمر حفظ كتب المنهج السابقة موكولاً لهم ولذلك قال الحق عنهم :

﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

أى أن الحق طلب منهم أن يحافظوا على المنهج ، وكان يجب أن يطيعوه ولكن أغلبهم آثر العصيان . فلما عصى البشر المنهج ، لم يأمن الله البشر من بعد ذلك على أن يستحفظهم على القرآن ، وكأنه قال : لقد جُرِّبْتم فلم تحافظوا على المنهج ، ولأن القرآن منهج خاتم لن يأتى له تعديل من بعد ذلك فسأتولى أنا أمر حفظه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(٩ سورة الحجر)

ومادام الحق هو الذى يحفظ المنهج فالقرآن مهيمن على كل الكتب ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد ضمن عدم التحريف فيه . إذن فالكتاب المهيمن هو القرآن ، ومادام القرآن هو المهيمن فهو حقيقة ما يسمى بالكتاب .

ودليل العهد هو قول الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب » أما قوله : « ومصدقا لما بين يديه من الكتاب » فالمقصود به الزبور والتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى ، ثم جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

وساعة نجد وصفاً وصف به غير الله وسمى به الله نفسه فما الموقف ؟ نعرف أن لله صفات بلغت فى تخصصها به مقامها الأعلى بالله ، مثل قولنا : « الله سميع » والإنسان يسمع ، و« الله غنى » ويقال : « فلان غنى » ؛ فإذا سمى الحق باسم وجد فى الخلق ، فليس من المتصور أن يكون هذا صفة مشتركة بين العبد والرب ، ولكننا نأخذ ذلك فى ضوء : « ليس كمثله شيء » .

إن أى اسم من هذه الصفات على إطلاقه لا ينصرف إلا لله ، فإن قلت : « الغنى » على إطلاقه فهو اسم لله ، وإن قلت : « الرحيم » على إطلاقه فهو اسم لله . فإذا أطلق اللفظ من أسماء الله على اطلاقه فهو لله ، واسم « المهيمن » يطلق هنا على القرآن وهو اسم من أسماء الله . ومن معنى « مهيمن » أنه مسيطر .

ومن أمثلة الحياة أننا نرى صاحب مصنع يطلق يد مدير فى شئون العمل ، وهذا يعنى أنه مؤمن ومسيطر وأمين ، ولا بد أن متنبه ، أى رقيب ، وهو شهيد ، إذن فالذين فسروا كلمة « مهيمن » على أنه مؤمن قول صحيح .

والذين فسروا كلمة : « مهيمن » على أنه « مؤتمن » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « رقيب » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « شهيد » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه قائم على كل أمر قول صحيح . وإذا رأيت اختلافات فى تفسير اسم واحد من أسمائه ـ سبحانه ـ فلتعلم أن الحق يصدق عليه كل ذلك ، وباللازم لا يكون « رقيباً » إلا إذا كان « شهيداً » ، ولا يكون شهيداً إلا إذا كان قائماً على الأمر ، ولا يكون كل ذلك إلا إذا كان مؤمناً ومؤتمنا .

إذن فـ « مهيمن » هو قيم وشاهد ورقيب . ومادام القرآن قد جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فعلى أى مجال يهيمن ؟ نحن نعرف مدلول الكتاب بأنه نزل من عند الله ، فإن بقى الكتاب الذى نزل من عند الله كما هو فالقرآن مصدق لما به ، أما إن لعبت فى ذلك المنهج أهواء البشر فالقرآن مهيمن لأنه يصحح المنهج وينقيه من أهواء البشر . « فاحكم بينهم بما أنزل الله » . و« احكم » مأخوذة من مادة « حكم » ، و« الحَكَمة » هى قطعة الحديد التى توضع فى فم الحصان ونربطها باللجام ؛ حتى نتحكم فى الحصان . والحكمة هى ألا تدع المحكوم يفلت من إرادة الحاكم .

وحين يقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » فهل يحدث ذلك أيضا مع غير المؤمنين ؟ نعم . فإذا ما جاء إليك يا رسول الله أناس غير مؤمنين وطلبوا أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل الله . ولذلك قال الحق :

﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

لكن لماذا جاءوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم برغم عدم إيمانهم به ؟

جاءوا إلى الرسول ليحكم بينهم ؛ لأنهم ألفوا أن يبيحوا ما حرم الله بشهوات الدنيا وأخذوا لأنفسهم سلطة زمنية ، ومادامو قد أخذوا لأنفسهم سلطة زمنية أنستهم حكم الله . وأرادوا ـ على سبيل المثال ـ أن يخرجوا على حكم الرجم وتخفيفه ، ولذلك ذهبوا إلى النبى ، فإن حكم هو بالتخفيف أخذوا بالحكم المخفف ، وإذا لم يحكم بالتخفيف فهم لن يأخذوا الحكم ، هم ذهبوا إليه صلى الله عليه وسلم بقصد التيسير وقالوا له : أنت تعلم أن لنا سلطاناً وأن لنا نفوذاً ونحن نريد أن تحكم لنا لأنك عندما تحكم لنا سنؤمن بك وبعد ذلك تأتى إليك باقى جماعتنا ليؤمنوا بك ويتبعوك .

لقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك تطبيقاً لقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » فإذا كان عندهم كتاب التوراة مصونًا من التحريف ، فالرسول يشير عليهم بالحكم الموجود فى التوراة ، ولذلك عندما استدعى صلى الله عليه وسلم أعلم علمائهم بالتوراة حاول بعضهم أن يضع يده على

السطور التى بها الحكم ؛ فالحكم بما أنزل الله يكون من التوراة إن لم يبدل ، أما إذا كان الحكم قد بدله الناس فالحكم من القرآن ؛ لأن القرآن هو المهيمن . « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » لأنهم بهذه الأهواء يريدون أن ييسروا على أنفسهم ليستبقوا لأنفسهم السلطة الزمنية ، ووصفهم الحق :

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

هم - إذن - يريدون أن يستبدلوا بآيات الله مصلحتهم فى الحكم . ويقول الحق : « ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ، وإن افترضنا أن بعضا من التوراة لم يحرف ، وبه حكم أراد الإسلام أن يبدله ، فأى أمر يتبع ؟ إن الاتباع هنا يكون للقرآن لأنه هو المهيمن ؛ فسبحانه أراد بالقرآن أن يصحح ويعدل ويغير .

إن مناهج الأديان فى العقائد ثابتة لا تغيير فيها ، وأما ما يتصل بالأحكام التى تحكم أفعال الإنسان فالله سبحانه وتعالى ينزل حكماً لقوم يلائمهم ثم ينزل حكما آخر يلائم قوماً آخرين . ولذلك نجد أن سيدنا عيسى قال :

﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة آل عمران)

أى أن هناك أشياء كانت محرمة فى دين اليهود . وجاء عيسى عليه السلام ليحلل بعضاً من هذه المحرمات ، وكان التحريم مناسباً بنى إسرائيل فى بعض الأمور ، وجاء المسيح عيسى ابن مريم ليحلل لهم بعضاً من المحرمات ، وكان تحريم بعض الأمور لبنى إسرائيل بهدف التأديب :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن فقد يكون تحريم الشىء بسبب الضرر الناشىء منه ، أو بهدف التأديب ؛ لأن الإنسان أحل لنفسه ما حرمه الله عليه .

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » والشرعة هى الطريق فى الماء . والمنهج هو الطريق فى اليابسة . ومقومات حياة الإنسان هى من الماء ومن الغذاء الذى يخرج من الأرض ، فكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى فى القيم هذين الاثنين ، الشرعة والمنهاج ، ومادام سبحانه قد جعل لكل منا شرعة ومنهاجاً ، فلماذا قال فى موضع آخر من القرآن :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

معنى هذا القول هو الاتفاق فى أصول العقائد التى لا تختلف أبداً باختلاف الأزمان . ففى بدء الإسلام نجد أنه جاء ليؤصل العقيدة أولاً بلا هوادة ، فنادى بوحدانية الله ، وعدم الشرك به ، وصفات الكمال المطلق فيه ، وعدم تعدد الآلهة . أما بقية الأحكام الفعلية فقد جعلها مراحل . وكان يخفف قليلاً فقليلاً . إذن فالمراحل إنما جاءت فى الأحكام الفعلية ، أما العقائد فقد جاءت كما هى وبحسم لا هوادة فيه .

إذن فقوله الحق : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » . هذا القول مقصود به العقائد . ومادام قد شرع لنا فى الدين ما وصى به نوحاً ، فهذا توصية بأفعال تتعلق أيضا بزمن نوح ، وسبحانه الذى وضع لنا المنهاج الذى نسير عليه فى زماننا . إذن فالأمران متساويان . والمهم هو وحدة المصدر المشرِّع .

ويقول الحق : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » . فلو شاء لجعل « افعل » ولا «تفعل » واحدة فى كل المناهج ، ولكن ذلك لم يكن متناسباً مع اختلاف الأزمان والأقوام الانعزالية قبل الإسلام بداءاتها المختلفة ؛ لذلك كان من المنطقى أن تأتى الأحكام مناسبة للداءات .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وسبحانه وتعالى لو شاء لجعلنا أمة واحدة فى « افعل » و« لاتفعل » ولكنه

ـ سبحانه ـ لم يرد ذلك حتى لا يألف الناس العبادة وتصير كالعادة عندهم ، فحينما يألف الناس أداء العبادات ، فهم بذلك يحرمون لذة التكليف والإيمان بالتكليف ، فكان لا بد أن يأتي التشريع مناسبا لكل زمان . وذلك ليفرق بين قوم وقوم ، ففى الصوم ـ على سبيل المثال ـ نجد أن الحق يسمح لنا بالطعام والشراب والجنس فى الفترة ما بين الإفطار والسحور ؛ فالحق يأتى إلى الشيء الرتيب ويأتى فيه أمر الله بالامتناع عنه لفترة زمنية معينة . ولا يقرب المؤمن هذه المحرمات فى زمان معين ، ولا يقرب غيرها فى أى زمان ومكان . مثل شرب الخمر ، أو أكل لحم الخنزير . والمؤمن لا يقرب هذه الأشياء بطبيعة اختياره . ويأتيه الصوم ليعلمه ويدربه على الانصياع للتكليف فيحرمه الحق من الطعام طول نهار شهر رمضان وكذلك الشراب والجنس .

المسألة ـ إذن ـ ليست رتابة أبداً . بل هي ابتلاء واختبار البشر « ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » والابتلاء ـ كما نعلم ـ ليس أمراً مذموماً فى ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تؤول إليه نهايته ، ومادام سبحانه يبتلينا فيما آتانا فيجب أن نكون حكماء وأن نتسابق إلى الخير :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح فى الابتلاء ، والنجاح يعطينا أكثر مما ننال بعدم الانصياع . إذن فالابتلاء فى مصلحتنا ؛ لأنه يعطى الناجحين فيه نجاحاً أخلد ، وقصارى ما يزينه الشيطان للناس أو ما تتخيله نفوس الناس ، أن تمر الشهوة العابرة وتنقضى فى الدنيا العابرة . وبعد ذلك يأتى العذاب المقيم . وعندما نوازن هذا الأمر كصفقة نجدها خاسرة ، لكن إن نجحنا فى ابتلاء الله لنا فذلك هو الفوز العظيم : « فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

أى تسابقوا فى الوصول إلى الخيرات ، لأن الخير إنما يقاس بعائده ، فإياكم أن تفهموا أن الله حَرمَكم شهوات الدنيا لأنه يريد حرمانكم ، ولكنه حرمكم بعضاً من شهوات الدنيا لأنها مفسدة . وكان التحريم لزمن محدود ليعطيكم نعيم ومتع الآخرة المُصلحة فى زمن غير محدود ، وهذا هو كل الخير .

« إلى الله مرجعكم جميعاً » والكل يرجع إلى الله سواء الملتزم أو المنحرف ، وأمام الحق نرى القول الفصل : « فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » . ومادام هناك اختلاف فلا بد أن يوجد من أخذ جانب الخير ومن أخذ جانب الشر ، ولو أن الله قال لنا : « ستأخذون الخير » وسكت عن الشر لكان ذلك كافياً ، لكنه يعطينا الصورة الكاملة . ويتبع ذلك قول الحق :

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وقد يقول قائل : إن الله سبحانه وتعالى قال من قبل :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وتكون الإجابة : أن الحق بيّن إن القرآن قد نزل مهيمناً ، وعلى الرسول أن يباشر مهمة التنفيذ ؛ لذلك يأتي هنا قوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » بلاغاً للرسول وإيضاحاً : أنا أنزلت إليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمناً فاحكم ، فإذا جاءك قوم بشيء مخالف لما نزل من القرآن ، فاحكم بينهم بالقرآن . والذى زاد فى هذه الآية هو قوله الحق : « واحذرهم أن يفتنوك » والحذر هو احتياط الإنسان واحترازه ممن يريد أن يوقع به ضرراً فى أمر ذى نفع، والذى يرغب الضر قد يزين لنفسه ولغيره الضر كأنه الخير ، على الرغم من أن ما فى باطنه هو كل الشر .

إذن فالحذر هو ضرورة الانتباه لمن يريد بالإنسان شراً حتى لا يدخل عليه ضُرّاً فى صورة نفع ، كأن يأتى خصم ويقول لك : سأضع لك كذا وافعل من أجلك كذا وكذا . يجب عليك هنا أن تقول له : لا .

والحذر - إذن - يقتضى عقلاً مركباً ، ولذلك كانوا يعرفون الحذر من الغراب . فها هوذا الغراب يعلم ابنه فى قصة شعبية فيقول الغراب لابنه :

احذر الإنسان ؛ لأن الإنسان عندما ينحنى ليلتقط شيئاً من الأرض فهو يلتقط قطعة من الطوب ليرميك بها . وهنا يقول الغراب الصغير لوالده : وماذا أفعل لو كان هذا الإنسان يخبىء قطعة الطوب فى جيبه ؟ إنها قصة توحى بأن الغراب حذر بفطرته .

ونرى مثل ذلك فى مظاهر الأشياء كالمرابى الذى يزين للناس أن يضعوا أموالهم عنده ويعطيهم فائدة تبلغ عشرين بالمائة ، هذه صورة شىء ينفع ولكنها ضارة بالفعل ؛ لأنها تزيد المال ظاهراً ولكن ينطبق عليها قول الله : ﴿ يمحق الله الربا ﴾ .

وهذا أمر ضار يزينه الخصم وكأنه أمر نافع . والحق يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون حذراً ، فماذا يكون المطلوب من الأتباع ؟ . إنه الحذر نفسه ؛ لأن أفضل البشر وَجَّهَهُ الله إلى الحذر : « واحذرهم أن يفتنوك » لأن الصورة التى دخلوا بها هى صورة تزين الخداع ، فقد قالوا : نحن جئناك لتحكم لنا ، فإن حكمت لصالحنا فلسوف نتبعك ، وهذا أمر يبدو فى صورة شىء نافع . وجاء القول الحق ليحسم هذه المسألة : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » وهنا يحذر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزله إليه سبحانه .

ويتابع الحق : « فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون » وهم إن تولوا ، فاعلم أن الله يحميك أن تنزلق إلى شبهة باطل. فهم قد اختاروا أن يوغلوا فى الكفر ، وفى الابتعاد عن منهج الله ، وسيصيبهم ببعض عذابه مقابل ذنوبهم ، وسبحانه لا يصيبهم ظلماً ، بل يصيبهم ببعض الذنوب التى ارتكبوها . وهو أعلم بهم ، لأنه الأعلم بالناس جميعاً .

ويختم الحق الآية بقوله : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » أى خارجون عن طاعة كتبهم ورسلهم ؛ لأن طاعة الكتب السابقة على القرآن تنص على ضرورة الإيمان بالرسول النبى الأمين صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾

(سورة الأعراف)

إذن فطريق الفلاح كان مكتوباً فى التوراة والإنجيل ، وكان الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم النبى الأمى موجوداً فى الكتب السابقة على القرآن ، وكانت البشارة بمحمد رسولا من عند الله يأمر بكل الخير وينهى عن كل الشر ويحل للناس كافة الأشياء التى تُحسِن الفطرة الإنسانية استقبالها ، ويحرم عليهم أن يزيفوا ويغيروا المنهج الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يستسلموا للعناد ، فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليزيل عنهم عبء تزييف المنهج . فمن اتبع نور رسول الله صلى الله عليه وسلم أحس بالنجاة والفوز . ومن لم يتبع هذا النور فهو الخارج عن طاعة كتاب السماء . ومحاولة إنكار رسالة رسول الله محكوم عليها بالفشل ، فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الكتب .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾

(سورة البقرة)

ونعلم جميعاً ما فعله عبدالله بن سلام عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه . قال عبدالله بن سلام :

ـ لأنا أشد معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم منّى بابنى .

فقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : وكيف ذلك يا بن سلام ؟ .

قال عبدالله بن سلام : لأنى أشهد أن محمداً رسول الله حقاً ويقيناً وأنا لا أشهد

بذلك على ابنى لأنى لا أدرى ، أحداث النساء . فقال عمر بن الخطاب :

ـ وفقك الله يا ابن سلام .

ولكن بعض علماء بنى إسرائيل وأحبارهم كتموا البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يرجون الرئاسة والطمع فى الهدايا التى كان يقدمها الناس إليهم . لذلك عمدوا إلى صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وكتموها . وماداموا قد فعلوا ذلك فلنعلم أن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم .

ونلحظ أن الحق حين أجرى على لسان رسوله خطاباً إلى اليهود . ولم يأت على لسانه صلى الله عليه وسلم اتهام شامل لليهود ، بل اتهام لبعضهم فقط ، وإن كان هذا البعض كثيراً ، فلنعلم أن ذلك هو أسلوب صيانة الاحتمال ؛ لأن بعضهم يدير أمر الإيمان بقلبه . صحيح أن كثيراً منهم فاسقون ، ولكن القليل منهم غير ذلك . فها هوذا أبو هريرة رضى الله عنه ينقل لنا ما حدث :

ـ زنى رجل من اليهود بامرأة وقال بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى هذا النبى فإنه نبى مبعوث للتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججناها عند الله وقلنا فتيا نبى من أنبيائك . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد مع أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى فى امرأة ورجل زنيا ؟ . فلم يكلمهم حتى ذهب إلى مِدْراسهم .

وهناك طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شاب رفض أن يتكلم بالكلام غير الصدق الذى يتكلمه قومه . وقال الشاب : إنا نجد فى التوراة الرجم . وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجم .

عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على النبى صلى الله عليه وسلم بيهودى مُحَمَّماً مجلودًا ، فدعاهم فقال : هكذا تجدون الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حدّ الزانى فى كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا

لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ ، فقلنا : تعالَوْا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذْ أماتوه) ، فأمر به فرُجم فأنزل الله : (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) إلى قوله : (وإن أوتيتم هذا فخذوه) يَقُولون ائتوا محمدًا فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا[1] .

إذن فالكثير منهم فاسقون ، والقليل منهم غير فاسق لأنهم يديرون فكرة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم. فلو أن الاتهام كان شاملاً للكل بأنهم فاسقون ؛ لما أحس الذين يفكرون فى أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالنور الذى جاء به . وعندما قال الحق : « وإن كثيراً منهم فاسقون » يعني أن الذين يديرون فى رؤوسهم فكرة الإيمان برسول الله سيجدون النور واضحاً فى كلماته .

ونتساءل : لماذا أرادوا أن يلووا أحكام الله ليحققوا لأنفسهم سلطة زمنية وثمناً تافهاً من تلك الأشياء التى يتقاضونها ، لماذا يفعلون ذلك ؟

ها هوذا قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

والجاهلية هى نسبة إلى جاهل . ولو كانت نسبة مأخوذة من الجهل لجاء القول « جهلية » ، لكن الحق يقول هنا : « جاهلية » نسبة إلى جاهل . وحتى نعرف معنى الجاهل بالتحديد لا بد لنا أن نتذكر ونستعيد تقسيم النسب الذى قلناه قديماً ، ونعرف أن كل لفظ نتكلم به له معنى ، وساعة نسمع اللفظ فالمعنى يأتى إلى الذهن

---

(١) رواه مسلم .

إفرادياً . مثلما نسمع كلمة « جبل » فيقفز إلى الذهن صورة الجبل ، لكن لا توجد حالة واضحة للجبل ؛ لأن الكلمة لم تكن مصحوبة بحكم .

إذن فهناك معنى للفظ ، ولكن هذا المعنى لا يستقل بفائدة . ولكن إن قلنا إن القاهرة مكتظة بالسكان ، أو أن مرافقها متعبة ، هنا نكون قد أتينا بحكم يوضح لنا ماذا نقصد بقولنا القاهرة .

إن هناك فرقا بين اللفظ حين يؤدى إلى معنى مفرد لا حكم له ، وبين لفظ له حكم ، ولذلك نجد العربى القديم حين يأتيه لفظ بلا حكم لم يكن ليقبله . وها هوذا رجل عربى قال : أشهد أن محمداً رسولَ الله ـ بفتح اللام فى كلمة « رسول » ـ وبهذا القول تكون « رسول الله » صفة لمحمد وليس فيها الخبر المطلوب . لذلك قال عربى آخر : وماذا يصنع محمدا ؟ ليلفت القائل إلى أنه لم يتلق الخبر . إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى مفرد ولا بد له من نسبة .

مثلما نقول لصديق : « محمد » ، ويعرف هذا الصديق محمدا ، فيسألك : « وما لمحمد » ؟ وبقوله هذا إنما يطلب الخبر ليعرف ماذا حدث له أو منه ، فتقول : « محمد زارنى أمس » . وهكذا تكتمل الفائدة .

إذن فكل لفظ من الألفاظ المفردة له معنى حين يفرد . فإذا ما جاء الحكم تنشأ عنه النسبة . وإن كانت النسبة واقعة ويعتقدها قائلها ؛ ويستطيع إقامة الدليل عليها فهذه نسبة علم ؛ لأن العلم نسبة مجزوم بها وواقعة ونستطيع إقامة الدليل عليها تماما مثلما نقول : « الأرض كروية » حيث توحى الكلمة أولاً بصورة الأرض وأضفنا إليها نسبة هى « كروية » لأننا نعتقد أنها كروية والواقع يؤكد ذلك ، فإذا ما جئنا بالدليل عليها فهذه نسبة علم . إذن فالعلم نسبة مُعتقَدة وواقعة وعليها دليل .

أما إذا كانت النسبة واقعة ومعتقدة ولا نستطيع التدليل عليها فذلك هو التقليد مثلما يكرر الطفل عن والده بعضاً من الحقائق ولكنه لا يستطيع إقامة الدليل عليها ، إنه يقلد من يثق به ، إذن فالمرحلة الأقل من العلم هى التقليد . أما إذا كان الإنسان يعتقد أن النسبة قد حدثت ولكن الواقع غير ذلك ، فهذا هو الجهل ، فالجهل ليس

معناه أنك لا تعرف ، ولكن أن تعرف قضية مناقضة للواقع . والجاهل يختلف عن الأمى ، فالأمى هو الذى لا يعرف ، أما الجاهل فهو الذى يعرف قضية مخالفة للواقع ومتشبث بها .

« أفحكم الجاهلية يبغون » والحق هنا يتساءل : هل يرغبون فى الاستمرار بالاعتقاد الخاطىء الجاهل ؟ والأمر مع الأمى ـ كما عرفنا ـ يختلف عن الأمر مع الجاهل ؛ لأنه يكفيك أن تقول للأمى العلم الذى تريد تعليمه إياه ويقبله منك ، أما الجاهل فلا بد للتعامل معه من عملين . . الأول أن تجعله يحذف ويستبعد من باله القضية الخاطئة ، والثانى أن تجعله يقتنع بالقضية الصحيحة . والذى يرهق الدعاة إلى الدين هم الجهلة هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً يتضمن قضايا باطلة .

لكن ماذا إن كانت النسبة مجالاً للنفى ومجالاً للإثبات ؟ إن كان النفى مساوياً للاثبات فهى نسبة شك . وإن غلب الإثبات فهذا ظن . وإن كان النفى راجحاً فذلك هو الوهم . وهكذا يتضح لنا أن قضية الجهل قضية صعبة ، والذى يسبب التعب فى هذه الدنيا هم الجهلة ؛ لأنهم يعتقدون فى قضايا خاطئة . فإذا كان هناك حكم من الله . فلماذا لا يرتضون إذن ؟ أيريدون حكم الجاهلية ؟ وكان أهل الكتاب أنفسهم يسفهون حكم الجاهلية .

ولنلحظ أن هذا التسفيه كان فى زمن المواجهة بين الجاهلية وبين أهل الكتاب . وكانوا يستفتحون على أهل المدينة ومكة . وكثيراً ما قالوا : لقد أظّلنا عهد نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . ولكن ما إن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قالوا العكس ، ماذا قالوا للجاهلين ؟ هاهوذا الحق يخبرنا بما قالوا :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وقد ذهب بعض من أحبار اليهود إلى قريش ، وسألهم بعض من سادة قريش : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عنا وعن محمد . فقال الأحبار :

ما أنتم وما محمد ؟ فقال سادة قريش : نحن ننحر الكوماء[1] ونسقى اللبن على الماء ونفك العانى[2] ونصل الأرحام ونسقى الحجيج وديننا القديم ودين محمد الحديث . فقال الأحبار : أنتم خير منه وأهدى سبيلا . وبذلك زوروا القول .

وينقل الرواة قصة أخرى فى هذا الموضع ، أن واحداً من أحبار اليهود قال لأبى سفيان : أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه . وقال الأحبار ذلك حسداً لرسول الله .

إذن فهل يرتضى أهل الكتاب حكم الجاهلية ؟ لا . ولكنه التناقض والتضارب . وماداموا قد تناقضوا مع أنفسهم صار من السهل أن يتناقضوا مع الكتاب الذى نزل إليهم . ولذلك يتساءل الحق :

« أفحكم الجاهلية يبغون » ثم يأتى من بعد ذلك بالمقابل وهو قوله : « ومن أحسن من الله حكماً » . وسبحانه لم يقل : إن الأحسن فى الحكم هم المسلمون لجواز أن يكون من المسلمين من ينحرف ، لذلك رد الأمر إلى ما لا يتغير أبداً وهو حكم الله . وحين يقرر سبحانه ذلك فإنه ـ أزلا ـ يعلم أنه سيأتى قوم مسلمون وينحرفون عن المنهج .

ونحن نرى فى بعض الأحيان سلوكاً منحرفاً من مسلم ، فهل نلصق هذا السلوك بالإسلام ؟ لا . بل ننظر إلى حكم الله فى كتابه . وعندما نرى أن حكم الله يجرم فعلاً وله عقوبة ، فالعقوبة تقع على المسلم المنحرف أيضاً . والمثال قوله الحق :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا الحكم يطبق على المسلم وغير المسلم ، إذن فلا نقول هذا حكم المسلمين وذلك حكم الجاهلية . ولكننا نقول : إنه حكم صاحب المنهج وهو الله .

ونلحظ أن هناك استفهاماً فى قوله الحق : « ومن أحسن من الله حكماً » . والاستفهام هو نقل صورة الشىء فى الذهن ، لا نقل حقيقة الشىء . وساعة يطلب

(١) الكوماء : الناقة العظيمة السَّنام .

(٢) العانى : الأسير .

المتكلم من المخاطب أن ينقل إليه الفهم ، هنا نقول : هل كان المتكلم لا يعلم الحكم ؟ قد يصح ذلك فى الحياة العادية . وقد نراه حين يقول إنسان لآخر :

من زارك أمس ؟ فنكون أمام حالة استفهام عن الذى زاره ، تلك هى حقيقة الاستفهام ، لكن ما بالنا إذا كان الذى يتكلم ويستفسر لا تخفى عليه خافية ، إنه ـ سبحانه ـ يطلب منا أن نجيب على سؤاله : « ومن أحسن من الله حكماً » . وتلك عظمة الأداء .

وأضرب مثالاً آخر ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يأتيك إنسان ويدعى أنك لم تحسن إليه لأنه كان سجيناً مثلاً وأنت الذى أخرجته من السجن . فتقول له : من الذى ذهب ودفع عنك الكفالة وأخرجك من الحبس ؟

إنك أنت الذى فعلت ولا تريد أن تقول له : لقد فعلت من أجلك كذا وكذا ، ولكنك تريده هو أن ينطق بما فعلته له ، ولا تقول ذلك إلا وأنت واثق أنه لن يجد جواباً إلا الاعتراف بأنك أنت الذى صنعت له كذا وكذا ، وبذلك تصبح المسألة إقراراً وليس إخباراً .

« أفحكم الجاهلية يبغون » فالحق عالم أنهم حين يديرون رءوسهم فى الجواب ، لن يجدوا إلا أن يقولوا : يارب أنت أحسن حكماً . وهذا إقرار منهم وإخبار أيضاً . أما عند المؤمن فالأمر يختلف تماماً ؛ لأن المؤمن يعترف ويقر بفضل الله عليه .

« ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » فالذى يفهم أن حكم الله هو الأفضل هم القوم الذين دخلوا إلى مرحلة اليقين . ونعلم أن مراحل اليقين تتفاوت فيما بينها ، فعندما يخبرك إنسان صادق فى قضية ما فأنت تعلم هذه القضية . كأن يقول لك : لقد ذهبت إلى نيويورك . وهذه المدينة تقع على عدد من الجزر وبها عمارات شاهقة والعنف منتشر فيها . والناس تبدو وكأنها ممسوسة من فرط الهوس على الثروة . وحين تسمع هذا الصادق فأنت تأخذه على محمل الجد وتعتبر كلامه يقيناً وهذا هو علم اليقين ، أى أنه إخبار من إنسان تثق فيه لأنه صادق .

وبعد ذلك يأتى هذا الإنسان ليوجه لك الدعوة ، فتركب معه الطائرة ، وتطير

الطائرة على ارتفاع يساوى أربعين ألف قدم ، وبعد إحدى عشرة ساعة تهبط الطائرة قليلاً ؛ لترى أضواء مدينة صاخبة ، ويقول لك صاحبك : هذه هى نيويورك ، وتلك هى ناطحات السحاب . هكذا صار علم اليقين عين يقين .

وعندما تنزلان معاً إلى شوارع نيويورك فأنتما تسيران إلى جزيرة مانهاتن . وتصعد إلى برج التجارة أعلى ناطحات السحاب فى نيويورك ، وهذا هو حق اليقين .

إذن : فمراحل اليقين ثلاث : علم يقين : إذا أخبرك صادق بخبر ما ، وعين يقين : إذا رأيت أنت هذا الخبر ، وحق يقين : إذا دخلت وانغمست فى مضمون وتفاصيل هذا الخبر . وقديماً قلت لتلاميذى مثالاً محدداً لأوضح الفارق بين ألوان اليقين ، قلت لهم : لقد رأيت فى أندونيسيا ثمرة من ثمار الموز يبلغ طول الثمرة الواحدة نصف المتر . وبالطبع صدقنى التلاميذ ؛ لأنهم يصدقون قولى . وقد نقلت لهم صورة علمية . وصار لديهم علم يقين . وبعد ذلك أدخل إلى غرفة وأفتح حقيبة وأخرج منها ثمرة الموز التى يبلغ طولها نصف المتر . وبذلك يصير علم اليقين عين يقين . وبعد ذلك أمسكت بسكين وقمت بتقشير ثمرة الموز ووزعت على كل واحد منهم قطعة . وهكذا صار لديهم حق يقين . وحين يطلق الحق « اليقين » فهو يشمل الذى علم والذى تحقق .

فأهل الأدلة ، علموا علم اليقين ، وأهل المرائى والمشاهدات علموا عين اليقين ، وأهل الفيوضات والتجليات وصلوا إلى حق اليقين . والمؤمنون بالله يقول الواحد منهم : أنا بمجرد علم اليقين موقن تماماً ولا أنتظر حق اليقين لأنى لا أجرؤ على التكذيب ؛ لذلك نجد أن سيدنا الإمام علياً ـ كرم الله وجهه ـ يقول : لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقيناً .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة فى قوله الحق :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

(سورة التكاثر)

والبداية تكون علم اليقين ، ثم نرى الجحيم ونحن نسير على الصراط فتصير عين اليقين ، ومن لطف الله أنه جعلنا ـ نحن المسلمين ـ لا نراها حق اليقين . وهو القائل :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة مريم)

هو يعطينا صورة الجحيم . لكن حينما أراد الحق أن يعطينا صورة حق اليقين ، فقد جاء بها فى قوله الحق :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

كل ذلك مقدمة ليقول الحق :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وما يذكره الحق هنا عن منزلة المصدق المؤمن إن هذه المنزلة هى الجنة ويرى ذلك عين اليقين . أما منزلة المكذب الكافر ، فله مكانه فى النار ؛ لذلك سيرى كل الناس النار كعين اليقين . أما من يدخله الحق النار ـ والعياذ بالله ـ فسيعانى منها حق اليقين ، وسينعم المؤمنون بالجنة حق اليقين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾

نلحظ أن الخطاب هنا للذين آمنوا . والمنهى عنه هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء . وما معنى الولىّ ؟ . الولىّ هو الناصر وهو المعين . وهذا القول مأخوذ من ولى يلى ؛ أى يقف فى جانبه . ونسمى الذى ينوب عن المرأة فى عقد النكاح « الولىّ » . وكذلك « ولىّ المقتول » . والمراد هو : يا من آمنتم لاحظوا تماماً أنكم أصحاب مهمة وهى أن تخرجوا الضلالات من البشر ، هذه الضلالات تمثلت فى تحريف ديانات كان أصلها الهدى فصارت إلى ضلال ، فإياكم أن تضعوا أيديكم فى أيديهم لطلب المعونة والنصرة .

إذن قوله الحق : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » هو حكم تكليفى . وحيثية الإيمان بالله . فما دمت قد آمنت بالله فكل من تقدح أنت فى إيمانه بمخالفته لمنهج ربه لا يصح أن يكون مؤتمناً على نصرتك ؛ لأنه لم يكن أميناً على ما معه فهل تتوقع منه أن يعينك على الأمانة التى معك ؟ لا ؛ لأنه لم يكن أميناً على ما نزل عليه من منهج . والولاية نصرة ، والنصرة انفعال الناصر لمساعدة المنصور . وهل تجد فيهم انفعالاً لك ينصرك ويعينك ، أو يتظاهرون بنصرتك ، ولتعلموا أنهم سيفعلون ما قاله الحق :

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

إنهم لو دخلوا فى صفوفكم لفعلوا فيكم مثلما يفعل المنافقون ، فما بالنا بالذين خانوا أمانة الكتب المنزلة عليهم ؟ إذن فالموالاة والنصرة والمعونة يجب أن تكون من متحد معك فى الغاية العليا . وما دام هناك من يختلف مع الإسلام فى الغاية العليا وهى الإيمان فلا يصح أن يأمنه المسلم . وسبحانه يقول : « بعضهم أولياء بعض » .

وقد يتساءل الإنسان : كيف يقول الحق فيهم :

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول جل شأنه :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

نحن - إذن - أمام ثلاثة أقسام ؛ يهود ، ونصارى ، ومشركون ، وقد قال مشركو قريش مثل قول أهل الكتاب بشقيهم برغم أنهم فى خلاف متضارب وكل منهم ينكر الآخر ، وسبحانه قال :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فكيف من بعد ذلك يقول سبحانه : « بعضهم أولياء بعض » ؟ وهذا أمر يحتاج إلى وقفة إيمان لنرى الصورة كاملة ، ونعلم أن الذين يخالفون منهج الحق قد يصح أن يكون بينهم خلاف على السلطات الزمنية ، لكنهم عندما يواجهون عملاقاً قادراً على دحر كل بنيان أكاذيبهم يتفقون معاً . وهذا ما نراه فى الواقع الحياتى : معسكر الشرق - الذى كان - يعادى معسكر الغرب ، ولكن ما إن يجىء شىء يتصل بالإسلام حتى يتفقوا معاً على الرغم من هزيمة المعسكر الشرقى ؛ لأن الإسلام بمنهجه خطر على هؤلاء وهؤلاء وعلى سلطاتهم ولكنه فى الحقيقة رحمة بهم إنه يخرجهم من الظلمات إلى النور وهم يتصرفون فى ضوء ما قاله الحق : « بعضهم أولياء بعض » .

وعندما ينفرد كل منهم بالآخر فإنه ينطبق عليهم قول الحق :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

هكذا نفهم طبيعة العلاقات بين أعداء الإسلام .

ويقول الحق : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » أى أن من يتخذهم نصراء ومعينين

فلا بد أنّه يقع فى شرك النفاق ؛ لأنه سيكون مع المسلمين بلسانه ومع أعداء الإسلام بقلبه .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ونعرف أن الظلم هو نقل حق إلى غير صاحبه ، وأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ؛ فالحق يقول :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

ذلك أن الإنسان حين يظلم إنساناً آخر ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر فهل هناك إنسان يقدر على أن يأخذ من الله شيئا ؟ لا ، فالإنسان لا يستطيع أن يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك وهذا ظلم خائب للنفس والذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الخيبة .

لأن الظلم حينما يحقق للظالم نفعاً فهو ظلم هين ، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان بالله ولا يأخذ إلا العقاب الصارم . فإذا كان المشرك يتأبّى على منهج الله فى الأشياء فهل يجرؤ على أن يتأبّى على قدريات الله غير الاختيارية فيه كالموت مثلاً ؟ .

والحق يأمر الإنسان بالإيمان . ومتعلقات الإيمان من شهادة بوحدانيته وإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . والمشرك يتأبّى على الإيمان والتكاليف فهل يجرؤ على التأبى على المرض أو الموت ؟. لا ؛ لذلك فهو يظلم نفسه ظلماً خائباً . والحق سبحانه لا يهديه ؛ لأن معنى الهداية هو أن يجد الإنسان من يدله على الطريق الموصل للغاية . فهداه أى دلّه على الطريق الموصل للغاية . ولا يتجنّى سبحانه على خلقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

المجال هنا كان عن النهى عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء من دون الله ، ومن سمع هذا النهى وفى قلبه الإيمان نفّذ النصيحة . ولكن الذى طمس المرض ـ وهو النفاق ـ قلبه فهو الذى يتولاهم . وهو يسارع إلى هذه الولاية . ونعرف أن المسارعة هى تقليل الزمن فى قطع المسافة الموصلة للغاية فإذا كانت هناك مسافة تقتضى السير لمدة خمس عشرة دقيقة فالمسارعة تفرض على الإنسان أن يقطعها فى وقت أقل من ذلك . وهناك « يسارع إلى » و« يسارع فى » ، مثل قول الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

والغاية هنا هى المغفرة من الله وعلى المؤمن أن يسارع إليها ، أما عندما يقال : « يسارع فى كذا » أى أنه كان فى الأصل منغمساً فى هذا الموضوع . وعندما يقول الحق : « يسارعون فيهم » أى كأنهم كانوا مع هؤلاء الكفار من البداية ، ولذلك فالمسارعة فى ظرفيتهم . وبذلك يتهافتون عليهم . والعلّة العامة أن فى قلوبهم مرضاً جعلهم يبتكرون ويلفقون أسباباً ، هذه الأسباب هى « نخشى أن تصيبنا دائرة »

والموالاة هنا من الخوف أن تدور الدوائر ، ونحتاج إليهم لأن عندهم الأموال والسلاح ، وهذا ما قاله المنافق عبدالله بن أبىّ ؛ فقد قال : أنا رجل أخشى الدوائر . أى أنه يخشى الأحداث والمصائب . مثلما نقول : « الأيام دول » . ولكن كلمة « دول » هى انتقالية وقد لا يكون فيها ضرر ، أما « دوائر » فهى انتقالية فيها ضرر . وعكس ذلك ما قاله عبادة بن الصامت قال رضى الله عنه :

ـ أنا سآخذ ولاية الله ورسوله والمؤمنين وسأنفض عنى ولاية اليهود والنصارى .

وأورد الحق قول المنافق : « نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح » وساعة نسمع كلمة « الفتح » ، فلنعرف أدلّ مدلولاتها أنه الحكم .

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

أى احكم يا رب بيننا وبينهم .

إذن فقوله الحق : « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » أى الحكم الذى يضع حدّاً لمسألة موالاة أهل الكتاب والذين لا يعلمون .

والأمر من عند الله هو حكم من الله أيضاً . يخاطب المؤمنين به . والمؤمن بالله له أعمال تؤدى كأسباب إلى مسببات ، وقد يأتى للمؤمنين أشياء بدون مقدمات منهم ، وهى الفضل من الله . إذن فعسى الله أن يأتى بالفتح ، أى بأسباب أنتم تصنعونها وتعدّون ما استطعتم من عِدَّة وعُدَّة وتؤذونهم ، ولذلك قال فى آية أخرى :

﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحشر)

مثال ذلك ما حدث لبنى النضير ، فكان الإجلاء ، واستولى المسلمون على أرض بنى قريظة ، وهذا هو الفتح من عند الله . وسبحانه ـ إذن ـ يعامل المؤمنين معاملتين : الأولى أن يصنع المؤمنون مقدمات تؤدى إلى نتائج :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

وهنا جعل الحق قتال المؤمنين سبباً ، أما الثانية فهى الأمر من عنده بالنصرة بالربوبية .

وساعة تسمع « عسى » و« لعل » فهذا معناه الرجاء . والرجاء أن المتكلم يرجو أن يقع ما دخلت عليه « عسى » . مثال ذلك قولنا : (عسى أن تكرم زيداً) . ومن يقولها إنما يرجو سامعها أن يكرم زيداً ، وهذا يعني أن القائل ليس فى يده إكرام زيد . أما إذا قال القائل : (عسى الله أن يكرم زيداً) ، فهذا نقل للرجاء من البشر

إلى الله . والقائل هنا بشر ويتكلم عن بشر ، والمرجو هو الله ، وقدرة الله أوسع من كل قدرة . هنا ندخل فى اتساع دائرة الرجاء فما بالنا إذا كان المتكلم هو الله ؟ إذن فهذا إطماع من كريم لا بد أن يتحقق .

ونتعرف بذلك على درجات الرجاء : رجاء من بشر لبشر ، رجاء بشر من إله لبشر ، رجاء إله من إله لبشر ، ولأن الرجاء الأخير من المالك الأعلى لذاته فهو الذى يعطى « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » وقد تحقق ذلك فى واقع الأمر ، وساعة قالوا : نخشى أن تصيبنا دائرة ونحن نحتفظ بالعلاقة مع أهل الكتاب من أجل الولاية والنصرة . جاءت من بعد ذلك النصرة بالفتح وبأمر من الله ، فماذا كان موقفهم ؟

صار الموقف هو « فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » أى أنهم صاروا إلى الندم . وبذلك صار قولهم : « نخشى أن تصيبنا دائرة » هو كشف لما فى قلوبهم من مرض النفاق ، وقد خلعوا على المرض وعبروا عنه بهذا الكلام سترا لما فى قلوبهم ، فكأن الذى أسروه فى نفوسهم هو كراهية هذا الدين وكراهية هذا المنهج وأنهم لا يحبون أن يستعلى هذا المنهج على غيره .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يدلنا على أن القول الذى نشأ منهم : « نخشى أن تصيبنا دائرة » لم يكن هو السبب المباشر . ولكن السبب هو المرض فى قلوبهم . والمرض : أنهم لا يحبون أن ينتصر منهج الإسلام ؛ لأنهم يعيشون على ثروات المخالفين للدين ، وساعة تكون السيطرة للإسلام ينتهى ثراؤهم . وكذلك كان أهل الكتاب فى المدينة قبل أن يأتى الإسلام كانوا أصحاب العلم والمال والجاه ، وكانت الأوس والخزرج يأخذون منهم المال بالربا ويشترون منهم السلاح ، ويأخذون منهم العلم . ولما جاء الإسلام ضاع من اليهود كل ذلك فتمكن من قلوبهم المرض ؛ لأن الإسلام سلبهم السلطة الزمنية ، هذه السلطة التى جعلتهم يحرفون كتب الله . فإذا كانوا قد دخلوا مع الله فى تحريف كتبه ، أفلا يدخلون معكم - أيها المسلمون - فى عداوة ويلبسون عليكم بأنهم يعينون وهم يُخَذِّلون ؟

« فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » وساعة يسمعون هذا القول الربانى

وهو قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته ويُقرأ فى المساجد ويسمعونه ، ولم يكن هناك فتح ، ولم يكن هناك أمر ، ويخبرهم الله بمصيرهم : « فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » ومعنى ذلك أنه سبحانه كتب الذى فى نفوسهم . مثلما قال من قبل : « ويقولون فى أنفسهم » . أى أنهم قالوا فى أنفسهم وسمعهم الخالق . ولو لم يقولوا فى أنفسهم لأعلنوا أنهم لم يقولوا ذلك ، لكنهم بهتوا حين كشفهم الحق وفضحهم وسجل ما فى أنفسهم وأورد مضمون القول ، وكان من اللازم أن يعترفوا بمضمون القول ، وكان لا بد لهم أن يتجهوا إلى الإيمان . لكنهم لم يفعلوا فصاروا إلى الندم . بنص الآية التى نزلت قبل أن يأتى فتح أو أمر من الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

هنا يرى المؤمنون رأى العين ندم هؤلاء . والندم انكسار القلب فى الحاضر على تصرف سابق مثلما يرتكب إنسان حماقة وتظهر آثارها من بعد ذلك ، فيقول : يا ليتنى لم أكن قد فعلت ذلك . إنه انكسار نفس على تصرف سابق . وانكسار النفس يتضح على بشرة الوجه . وساعة يأتى الفتح تجد المنافقين وأهل الكتاب مكبوتين كبتاً قسرياً وهو الكبت الذى لا يجرؤ صاحبه عليه فيدعى أنه فرحان ، إنه قسرى بإلحاح بِنْيَة ، وظهور أثر ذلك على وجوههم .

وهنا يفطن المؤمنون إلى ذلك فيقولون : « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم » . ولو كان هؤلاء المنافقون من الصادقين لفرحوا ولكانت أساريرهم متهللة ، ولظهرت عليهم الغبطة . لكنهم صاروا عكس ذلك ، صاروا نادمين مكبوتين .

« ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت » أى حبط عملهم وقولهم : « إنا معكم » . والحبط هو ـ كما قلنا ـ الانتفاخ الذى يصيب البهيمة التى تأكل طعاماً غير مناسب لها ، فيظن الناس أنها قد سمنت ولكنهم يلتفتون فيجدون أنها مصابة بانتفاخ قاتل .

« حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » والخسارة فى معناها الواضح أن يقل رأس المال . لقد فعل المنافقون ذلك ليستروا أنفسهم وراء المسلمين ولم يسلم لهم هذا الأمر وانكشفوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

والخطاب هنا للمؤمنين ، وكل نداء مثل هذا قد يجىء بعده حكم من الأحكام أو بشارة من البشارات أو وعيد للمخالف . والذى يأتى فيه شبه إشكال وليس بإشكال ، هو أن يأتى هذا القول ويكون ما بعده أمر بالإيمان كقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » فسبحانه يناديهم كمؤمنين ويطلب منهم الإيمان ، ومثال ذلك قول القائل : « يا قائم قم » برغم أن المفروض أن يكون القول : « يا قائم اجلس » أو « يا قائم تعال » ، أو « يا قائم انصرف إلى فلان » ، فكيف إذن يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » . هنا نقول : ما الإيمان ؟ الإيمان هو استقرار العقيدة فى القلب فلا تطفو للذهن لتناقش من جديد . ونسمى ذلك عقيدة ، أى أمراً معقوداً فى القلب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب مؤمناً ويطالبه أن يؤمن ، فمعنى ذلك أن

الحق يقول : أنت آمنت قبل أن أناديك وبسر الإيمان ناديتك فحافظ على هذا الإيمان دائماً . وجدد دائماً إيمانك لأننى ناديتك بوصف الإيمان الذى عرفته فيك .

إن الحق يوضح : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم ولتكن كل لحظة من لحظات حياتكم المقبلة فى إيمان عالٍ مرتقٍ قبل أن أتكلم معكم بوصف الإيمان أنتم آمنتم أولاً فناديتكم فحافظوا على ذلك واثبتوا على إيمانكم .

ومعنى قوله : « من يرتد منكم عن دينه » أى من يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعوض عنه ، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين . إذن فمن يرتد فعليه أن يفهم أنه لن ينقص جند الله واحداً ؛ لأن الذى أذن لشرعه أن ينزل على رسول ونبى خاتم لن يجعل هذا الرسول وهذا المنهج تحت رحمة أغيار الناس . فإن خرج أناس عن المنهج فالله يستبدل بهم غيرهم . وفى هذه الآية أسلوب يخالف آية البقرة فى الوجه الإعرابى ، وسبحانه يقول فى آية البقرة :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هنا وجدنا الحق يقول : « ومن يرتدد منكم عن دينه » أما فى الآية التى نحن بصددها فى سورة المائدة فهو سبحانه يقول : « من يرتد منكم عن دينه » ونجد الأسلوبين مختلفين . والحكمة العليا فى أن الحق سبحانه وتعالى يأتى فى كتابه بآيات متحدة فى المعنى إلا أن وجه الإعراب فيها يختلف ليدلنا أن القرآن نزل إلى الناس كافة . وقبل أن ينزل القرآن كانت هناك لغتان : لغة تميم ، ولغة الحجاز .

وكان الخلاف بين اللغتين محصوراً فى الكلمة التى بها تضعيف ، أى فيها حرفان

من شكل واحد أى متماثلان . وكلمة « يرتد » بها « دالان » وأصلها «يرتدد » . و« يرتد » بها مِثْلان والنطق بهما صعب . ولذلك حاول الناس فى مثل هذه الحالة أن يدغموا مِثْلاً فى مثل . ولذلك كان من اللازم أن نُسكن الحرف الأول من المثلين . والمفروض أن « الدال » الثانية ساكنة ؛ لأن « مَن » شرطية جازمة . والدال الأولى أصلها بالكسر . ولا بد من الإدغام . والإدغام يقتضى إسكان الحرف الأول . إذن فمن أجل الإدغام نفعل ذلك .

ونحن نعلم أن الساكنين لا يلتقيان ، وكان تسكين الحرف الأول لأنه ضرورى للإدغام ، أما الحرف الساكن الآخر فهو الطارىء . فنتصرف فيه ، ولذلك نحركه بالفتح حتى نتخلص من التقاء الساكنين . ولذلك نقول : « من يرتد » بالفتح .

وجاء لى ذات مرة سؤال يقول : كيف يأتى القرآن بـ « يرتد » بالنصب أى بالفتح ؟ وقلت : إنها ليست « فتحة نصب » والسائل يفهم أن « مَن » إما اسم موصول ، وإمّا هى « مَن » الشرطية ، فلو كانت اسماً موصولاً ؛ لكان القول « من يرتدُ » ـ بالضم ـ وإن كانت « مَن » الشرطية لجاءت بالتسكين ولأن ما قبلها جاء ساكناً للإدغام تخلصنا من السكون بالفتحة وهى « فتحة » التخلص من ساكنين ، لأنه ـ كما قلنا ـ لا يلتقى ساكنان .

والذى يُظهر لنا ذلك هو آية البقرة التى قال فيها الحق : « ومن يرتدد » بدليل أنه عندما عطف قال : « فيمت » بالجزم عطفا على يرتدد . أما السبب فى أن جواب الشرط واضحٌ فى آية المائدة أنه لم يأت فعل جوابى أو عطف ، وجواب الشرط هو قول الحق : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ويدل على ذلك دخول الفاء على كلمة سوف لكن لو كان الحق قد قال : من يرتد منكم عن دينه يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه كان يمكن الفهم بسرعة أن « مَن » شرطية ، لأن كلمة « يأت » جاءت مجزومة بحذف آخرها ، ومن هنا يتضح أن الفتحة فى « يرتد » هى فتحة التخلص من التقاء الساكنين .

وما السبب فى أن الحق يأتى بآية على هذا النسق ، وآية أخرى على ذاك النسق ؟ نحن نعلم أن القرآن قد نزل بلغة قريش . وكانت قريش تمتلك السيادة . ولم تكن

هناك قبيلة بقادرة على مواجهة قريش . ونعرف جميعاً أن رحلة قريش إلى اليمن لم يكن ليجرؤ إنسان أن يتعرض لها ، وكذلك فى رحلة قريش إلى الشام ؛ لأن قريشا تستوطن حيث يوجد بيت الله الحرام الذى يحج إليه كل عربى . ويوم أن يتعرض أحد لقوافل قريش فعليه أن ينتظر العقاب له أو لقبيلته ، إذن فالبيت الحرام هو الذى أوجد لهم تلك المهابة لذلك ينبههم الحق إلى ذلك عندما قال فى سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾

(سورة الفيل)

وقد تم وعيد الله لأصحاب الفيل ، لأنهم أرادوا هدم بيت الله الحرام . ثم يتبع الحق سورة الفيل بقوله فى سورة قريش ؛

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾

(سورة قريش)

ليوضح سبحانه أنه من ضمن أسباب صيانة بيت الله الحرام أن حفظ سبحانه لقريش الأمان فى رحلة الشتاء والصيف ، ولو انهدم البيت الذى يحقق لقريش السيادة لهجم الناس على القرشيين من كل جانب ؛ لأنه القائل فى شأن من قصدهم لهدم بيت الله الحرام .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ سورة قريش)

وما دامت تلك المسألة قد صنعها الله لقريش ، فلا بد لهم من عبادة رب هذا البيت :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾

(سورة قريش)

إذن فقريش أخذت السيادة بين العرب بمكانة البيت ، وأخذت السيادة أيضاً فى اللغة ، وكانت كل أسواق العرب تعقد هناك ، وأشهرها سوق عكاظ ، وكان ينصب فى قريش خلاصة اللغات الجميلة من القبائل المختلفة . وهكذا أخذت اللغة

المصفّاة المنتقاة ، فكل شاعر كان يقدم أفضل ما عنده من شعر . وكل خطيب كان يأتى بأحسن ما عنده من خطب . وبذلك كانت قريش تسمع أجود الكلمات . ولهذا كانت اللغة التى عندهم هى اللغة العالية . ولذلك عندما جىء لزمن كتابة القرآن كانت الوصية :

إن اختلف عليكم شىء فاكتبوه بلغة قريش ؛ لأن لغة قريش أخذت من اللغات محاسنها . وبنو تميم والحجاز كانوا مختلفين فى بعض الأشياء . ولذلك كنا نسمع ـ عندما نتعلم الإعراب ـ قول المعلم وهو يسألنا : هل « ما » حجازية أو تميمية ؟ وهذا يدلنا على أن هناك خلافاً بين النطق فى القبيلتين .

وفى الآية التى نحن بصددها ندغم ونقول : « من يرتد » وفى آية البقرة ننطقها دون إدغام فنقول : « ومن يرتدد » .

وكأن الحق جاء بآية على لغة الحجاز وآية على لغة تميم ، وذلك برهان جديد على أن القرآن لم يأت ليحقق سيادة لقريش ، إنما هو للناس كافة ؛ لذلك نجد من كل لهجة كلمة ، ليتضح أن القرآن لعموم الناس جميعهم .

وعندما نقرأ قول الحق :

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

نعلم أنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن يأتى بأهل إيمان غير الذين ارتدوا عنه ، تماماً كما أخبرنا من قبل :

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

والقول هنا : خبر عن مصير المرتد إلى جهنم بعد أن تقوم الساعة .

ولكن القول : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » يدل على أن إجراءً سيحدث قبل أن تقوم القيامة . ومن ذا الذى يستطيع أن يتصور أن إلهاً ينزل قرآنا يتحدى به ثم يأتى فى القرآن بقضية مازالت فى الغيب ويجازف بها ، إن لم تكن ستقع ؟. والحق يقول : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » و« سوف » تخبرنا بموقف قادم سيأتى من بعد ذلك . ونقول هنا : من الذى يستطيع أن يتحكم فى اختيارات الناس للإيمان ؟. لا أحد يستطيع أن يتحكم فى اختيارات الناس للإيمان إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى يتحكم ويحكم ويخبرنا بأنه سوف يأتى أناس يؤمنون بدلاً من المرتدين .

أما إن ارتد أناس ، وانتظروا أن يروا البديل لهم ، ولم يأت فماذا يكون الأمر ؟ لا بد أن تنصرف الناس عن الدين . ولم يكن الحق ليجازف ويجرى على لسان محمد بأن قوماً سيرتدون وهو لا يعلم أيأتى قوم مرتدون ؟ والعلم جاء فى هذه الآية كما جاء فى كل القرآن من الله جل وعلا . وقد قالها الحق قضية كونية : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وهل هناك قوم يحبهم الله وهم لا يحبونه ؟ ونقول : إن هذا لا يحدث مع الله ، وإن كان يحدث فى الحياة البشرية مثلما قال الشاعر العربى :

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به
من أن أكون محبّاً غير محبوب

وشقاء المحبين إنما يأتى من أن العاشق يحب أحداً ، وهذا الحبيب لا يبادله الحب ؛ لذلك يظل العاشق باكياً طوال عمره . ولنا أن نلحظ أن حب الله هو السابق فى هذا القول الكريم : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ؛ لأن هذه هى صفة الانكشاف للعلم ، لقد علم الحق أنهم سيتجهون إليه فأحبهم ، وعندما جاءوا فعلوا ما جعلهم محبوبين لله ، ثم ما هو الحب ؟. إنه ودادة القلب . وقلنا الكثير من قبل فى أمر ودادة القلب . ونعرف أن هناك لوناً من الحب يتحكم فيه العقل . ولوناً آخر من الحب لا يتحكم فيه العقل ولكن تتحكم فيه العاطفة .

ومثال هذا عندما نذهب إلى طبيب ويصف لنا دواء مراً غير مستساغ الطعم ، ونجد الإنسان الموصوف له الدواء يذهب إلى الصيدلية للسؤال عن الدواء ، فإن لم

يجده فهو يلف ويدور ويسأل فى كل صيدليات البلد فإن لم يجده فهو يوصى المسافر إلى الخارج لعله يأتى له بالدواء . وإذا جاء له صديق بهذا الدواء فهو يمتلىء بالامتنان بالسرور . أيقبل المريض على الدواء غير المستساغ بعاطفته أم بعقله ؟ إنه يقبل على الدواء غير المستساغ الطعم ويحبه بعقله . والحب العقلى - إذن - هو إيثار النافع .

ومثال ذلك نجد الوالد لابن غبى يحب ابناً ذكياً لإنسان غيره .

الوالد - هنا - يحب ابنه الغبى بعاطفته . ولكنه يحب ابن جاره لأنه يمتلك رصيداً من الذكاء . إذن هناك حب عقلى وحب عاطفى . وهذا ما يحدث فى المجال البشرى لكن بالنسبة لله فلا .

وعندما يقول الحق : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » أى أنهم يحبون الله بعقولهم ، وقد يتسامى الحب إلى أن يصير بعاطفتهم ، وقد يُجرب ذلك حين يجرى الله على أناس أشياء هى شر فى ظاهرها ، ولكنهم يظلون على عشقٍ لله . ومعنى ذلك أن حبهم لله انتقل من عقولهم إلى عاطفتهم . وسيدنا عمر جرى معه حل هذا الإشكال . كيف ؟

لقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[١] .

وهناك من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أحب إليه من ماله وولده لكن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : أنت أحب إلىّ من مالى وولدى أما نفسى فلا وأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[٢] .

وهنا علم عمر - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد الحب العقلى ؛ لأن عمر رضى الله عنه علم أيضا أن الحب العاطفى لا يكلف به ، ولذلك قال عمر : الآن أحبك عن نفسى ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن

(١ ، ٢) رواه أحمد ٣٣٦/٤ والسيوطى فى الدر المنثور ٢٢٣/٣ .

يا عمر . أى كأنه فى هذه اللحظة قد اكتمل إيمان عمر . إذن فحب الله لا تقل فيه أيها المؤمن هل هو حب عقلى أو حب عاطفى ؟؛ لأن المراد بحب الإله هو دوام فيوضاته على من يحب ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالحق يلقاه فى أحضان نعمه ويتجلى عليه برؤيته :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

والحسنى هى الجنة . أما الزيادة فقد قال المفسرون : إنها رؤية المحسن .

« فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وعندما يقول الحق : « فسوف » فلنعلم أن ما يأتى بعدها هو من إعلامات النبوة التى جاءت على لسان محمد فى قرآن الله ؛ لأن ذلك الأمر قد حدث كما جاء فى قرآن الله ، فقد ارتد قوم وانقسموا فى الردة إلى قسمين ؛ قسم ارتد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم ارتد على عهد أبى بكر ، ومنهم من ارتد على عهد عمر . وحين تنظر إلى ما بعد « سوف » لا بد أن تعرف أن هناك امتداداً زمنياً .

وأول الارتداد كان فى اليمن ، وكان ذلك بعد حجة الوداع وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان فى اليمن كاهن مشعوذ اسمه عَبْهَلة بن كعب ، ويقال له : ذو الخمار ، أو ذو الحمار فى رواية أخرى ، وهو الذى يعرف فى كتب التاريخ الإسلامى باسم الأسود العنسى . هو أحد الكذابين اللذين ذكرهما النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « بَيْنا أنا نائم إذ أوتيتُ خزائن الأرض ، فوُضع فى يدىّ سواران من ذهب فكبر علىّ وأهمّنى ، فأوحِى إلىَّ أن انفخهما فنفختهما فطارا فأوّلتهما الكذابَيْن اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة »[1] .

وكان لهذا الكاهن حمارٌ روّضه صاحبه رياضة من لون خاص تماماً كتدريب

---

(١) رواه البخارى فى التعبير والمناقب والمغازى ، ورواه مسلم فى الرؤيا ، والترمذى فى الرؤيا ، وابن ماجه فى الرؤيا ، وأحمد ٢٦٣/١ .

القرود ، فكان يقول له : قف . فيقف . ويقول له : سر . فيسير . واعتبر هذا الكاهن أن مثل هذا الأمر للحمار هو معجزة . أو كان الرجل اسمه « ذو الخمار » أى أنه كان يرتدى خماراً على وجهه . ومن العجيب أن أى مرتد لم يطالبه من يتعبه بعلامة صدقه فى النبوة .

إن أول شيء فى التأكد من صحة قول أى إنسان : « أنا نبى » أن يسأله الناس عن علامة الصدق فى النبوة وأن يتعرفوا على معجزته ، لكننا لا نجد ذلك فى مرتد أبداً . وكيف لا يسأل الناسُ الذين يتبعون المرتد عن نفسه وعن دعواه أنه نبى وعن معجزته التى تدل على صدق رسالته ، وهو ما يحدث مع أى رسول ، كيف يؤمن أناس بفرد بدون معجزة ؟ .

هنا نذهب إلى الجانب النفسى من الأمر ونقول : إن التدين أمر فطرى والإنسان الذى ليس له دين يغضب ويحزن عندما نقول له : يا قليل الدين . ولذلك نجد أن المبطل من هؤلاء يقول : أنا على دين . إنه لا يتصور أنه مبطل بلا دين . ولذلك قال الحق :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

(سورة الكافرون)

فكأن الأصل فى الفطرة الأصلية أن الدين ضرورة للإنسان ، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يقبل كل الناس على الدين ؟ لأن الدين ليس مجرد اسم أو صفة ، ولكنه التزام بتكاليف . والذى يجعل الناس فى خشية من الدين هو مشقة التكاليف ؛ لذلك فعندما يأتى إنسان ويقول : أنا نبى ومعجزتى أننى خففت عليكم الصلاة والزكاة والصيام وأبحت لكم النظر إلى نساء بعضكم .

لا بد أن يسيل لعاب أصحاب الهوى الذين لا بصيرة لهم ويقولون : إن مثل ذلك لدين جميل ، ويستسلمون ويخدعون أنفسهم بأنهم متدينون ورغم تحللهم من بعض التزامات التدين ، إن المرء ليتعجب من مدعى النبوة فى الزمن القديم وحتى عصرنا هذا لأننا لم نجد أحداً من المثقفين قد وقف أمام مدع وقال له :

ما معجزتك ؟ ولكن الكل سأل : ما منهجك ؟ وعندما سأل أهل اليمن ذا الخمار : ما منهجك ؟

كانت إجابته: إنه أسقط عنهم بعض التكليفات بداية من تقليل الصلاة والزكاة إلى إباحة الاختلاط بنساء غيرهم . واستراح بعضهم لذلك المنهج وذهلوا وغفلوا عن طلب المعجزة . وكل الذين ادعوا النبوة كانوا من هذا الصنف . ولذلك نجد أن كل مدع للنبوة يحاول التخفيف من المنهج ، فهناك من خفف الزكاة . وجاءت امرأة اسمها سجاح خففت الصلاة . وجاء ثالث ليخفف الربا فيبيحه . لكن أحداً منهم لم يأت بمعجزة . واتبعه بعضهم لمجرد تسهيل المنهج . ومدعى النبوة إنما يرضى النفوس التى لا تطيق ولا تقوى على مشقة المنهج بأن تكون متدينة ملتزمة به .

ومثال ذلك ما حدث فى الإسكندرية عندما ظهر مدع للنبوة . وأباح منكراً مثيراً ، وتبعه بعض من المتعلمين الذين أرادوا دينا على هواهم ، وكذلك كان الأمر فى البداية . وعندما جاء ذو الخمار ، أو ذو الحمار ، وهو كما قلنا : مشعوذ ، وكان كما يصفه المؤرخون يسبى قلوب من يسمع منطقه وكان يريهم الأعاجيب ، واستطاع بذلك أن يستولى على مُلْك اليمن ، وأعلن ارتداده . وغلب على صنعاء وعلى ما بين الطائف إلى البحرين . وجعل يستطير شره استطارة الحريق .

وكان سيدنا معاذ بن جبل هو الوالى على اليمن من قِبَل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبر سيدنا معاذ بن جبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إن كاهناً اسمه ذو الخمار أو ذو الحمار ، قد ارتد .

ويذهب سيدنا معاذ إلى حضرموت . وهناك يأتيه كتاب من النبى صلى الله عليه وسلم يأمره فيه أن يبعث الرجال لمصاولة ذى الخمار . ويحتال المسلمون للنهوض بما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يدخل على ذى الخمار رجل ديلمى اسمه فيروز فيقتله على فراشه .

وعلى الرغم من بعد المسافة بين اليمن والمدينة ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ليلتها : « قتل الليلة الأسود العنسى »[1] .

وبعد ذلك يأتى الخبر فى آخر الشهر أن مدعى النبوة قد قتل . وتلك من إعجازات

---

(١) كنز العمال .

النبوة . إذن فقد تعرض المؤمنون على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم للهزة فى العقيدة بحكاية ذى الخمار أو ذى الحمار . وكانت قصة ذى الخمار كالمصل الواقى الذى يربى المناعة ، وأخبرهم الله بها أولاً : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

وذلك ليعطى الحق سبحانه وتعالى المؤمنين مناعة إيمانية وكأنه يقول للمؤمنين : لا تظنوا أنكم لن تتعرضوا إلى هزات عقدية دينية بل ستتعرضون . وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : قد يجوز أن يفهم الناس أنى وأنا حى أقوم على منهج الله فى الأرض فإذا أنا مت ربما ارتدوا عن الدين .

ورسول الله عندما يبلغ ذلك للمؤمنين عن الله ـ سبحانه ـ إنما كان ذلك بقصد تربية المناعة . فلو فوجىء المسلمون بالردة ولم يكن الله قد خبرهم بها لما كان عندهم احتياط مناعى . والاحتياط المناعى هو أول عملية فى الوقاية . ونعلم أن العلم المعاصر استطاع فصل الميكروب أو الفيروس المسبب لمرض وبائى ، ويقوم العلماء بإضعاف هذا الميكروب أو الفيروس ، ثم يوضع قليل من هذا الميكروب أو الفيروس بعد إضعافه فى الجسم البشرى ، فتتحرك فى الجسم أجهزة الوقاية والحماية لتقاتل هذا الميكروب أو الفيروس وتنتصر عليه ، وبذلك تمتلك قوى الوقاية والحماية داخل الجسم القدرةَ على مقاومة هذا المرض ، وهكذا أراد الحق بهذا القول الكريم : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . إذن فحين يوجد الارتداد ، لا يفاجأ المسلمون بهذا الارتداد ، ويثقون تماماً أنه بمجرد مجىء الارتداد فإن وعد الله الآخر يجىء : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » فلا فزع عند المؤمنين ساعة يحدث الارتداد ولا زلزلة فى النفوس . وساعة يأتى الارتداد يقول المؤمن :

إن الذى صدق فى أنه يحدث الارتداد ، سيصدق فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وإذا رأيت « السين » تسبق قولاً فإن هذا يعنى أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث قريب وقليل مثل قوله الحق :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

أما عندما تقرأ « سوف » فأعلم أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث متسع وبعيد . ولذلك نحن نرى أن الردة قد امتدت فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وفى عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ .

وما هى ذى مواصفات القوم الذين يأتى بهم الله فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ؟ إنها مواصفات ست : يحبهم الله ، ويحبون الله ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم .

وكيف يكون الإنسان المؤمن ذليلاً وعزيزاً فى آن واحد ؟ لأن الحق لا يريد أن يطبعنا على لون واحد من الانفعال ، ولكنه يريد لنا أن ننفعل تبعاً للموقف . فعندما يحتاج الموقف إلى أن يكون المؤمن عطوفاً فالمؤمن يواجه الموقف بالعاطفة . وعندما يحتاج الموقف إلى الشدة فالمؤمن يواجه الموقف بالشدة . وإن احتاج الموقف إلى الكرم ، فالمؤمن يقابل الموقف بالكرم . فالمسلم ـ إذن ـ ينفعل انفعالاً مناسباً لكل موقف ، وليس مطبوعا على انفعال واحد . ولو انطبع المؤمن على موقف ذلة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب العزة فلا يجدها ولو طبع المؤمن على عزة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب الذلة فلا يجدها ؛ لذلك جعل الحق قلب المؤمن ليناً قادراً على مواجهة كل موقف بما يناسبه .

والمؤمن عزيز أمام عدوه لا يُغلب ، ويجابهه بقوة . والمؤمن يخفض جناح الذل من الرحمة لوالديه امتثالاً لأمر الحق سبحانه :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

وهل إذا خفض المؤمن جناح الذل لوالديه . أيخدش ذلك عزته ؟ لا . بل ذلك أمر يرفع من عزة الإنسان . والحق يريد المؤمن أن يكون غير مطبوع على لون واحد من الانفعال ، ولكن لكل موقف انفعاله . وحين ينفعل المؤمن للمواقف المختلفة فهو يميز ما يحتاج إليه كل موقف « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ويقال فى اللغة : « ذليل لفلان » فلماذا ـ إذاً ـ يقول الحق هنا : « أذلة على المؤمنين » ،

و« على » تفيد العلو . والذلة تفيد المكانة المنخفضة ، فكيف يأتى هذا التعبير ؟ لقد جاء هذا القول على هذا الشكل لحكمة هى : أن المؤمن ما دام يحب الله ويحبه الله . وساعة يكون فى ذلة لأخيه المؤمن فهذا يرفع من قدره . وهى ليست ذلة بالمعنى المتعارف عليه ، ولكنه لين جانب وعطف ورحمة . إذن فقوله الحق : « أذلة على المؤمنين » يعنى أن المؤمنين يعطفون على غيرهم من المؤمنين حتى يبدو هذا العطف وكأنه ذلة . وبعض العلماء يقول : إن المادة « ذال » و« لام » تدل على معنيين متقابلين ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُـمْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة يس)

أى جعلناها خاضعة لتصرفهم . وهذا التذليل ليس بقهرٍ من الإنسان للأنعام ولكنه بتسخير من الله . وهى ميسرة لخدمة الإنسان . ومثالٌ آخر . قوله الحق :

﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

أى متطامنة مهيأة . إذن فهذه ذلة اللين . وهناك « ذُل » ـ بضم الذال ـ وهو ضد العز . وهناك « ذِل » ـ بكسر الذال ـ وهو اللين . إذن فالذل بكسر الذال هو ضد الصعوبة ؛ أى اللين . والذُّل ـ بضم الذال ـ هو ضد العز ، فإذا أردنا ذِلّة اللين ؛ فذل المؤمن للمؤمن من الذِّل، وإن أردنا الذلة التى هى ضد العز، فهى من الذُّل . وعندما يكون المؤمن على ذِلة للمؤمن . فهى ذِلة اللين والعطف . وعندما يريد الحق الشىء ليتدانى للمؤمن ولا يتعبه ، فهو يقول :

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَـةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَـا تَذْلِيلًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الإنسان)

أى دُلِّيت عناقيدها . فالفاكهة تنزل إلى المكان الذى يوجد فيه المؤمن . وإن وقف المؤمن لطال بيده أن يقطف الثمار . وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار

لأنها تتدانى له . وإن نام المؤمن لتدانى قطاف الثمار إلى مكانه وبذلك يستطيع أن يأكل منها فى أى وقت وعلى أى وضع .

وهنا يأتى الحق بالقول الحكيم : « أذلة على المؤمنين » أى أن ذلة المؤمن لأخيه المؤمن ترفع منزلته . وبها يكون المؤمن أهلاً لأن ترفع منزلته ؛ لأنه مصطفى بأن الله يحبه وأنه يحب الله ، ولا توجد رفعة أكثر من هذه رفعة . ولذلك نجد القول المأثور : (من تواضع لله رفعه) .

أى من تواضع وفى باله الله فإن الله يرفعه .

« أعزة على الكافرين » وهذا هو الوصف الثالث للمؤمنين فى تلك الآية بعد قوله الحق : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين) .

إن المؤمن عزيز على الكافرين بأنه لا يُغلب ، وما دام هو يعرف ذلك فهو ينضم إلى الجهاد فى سبيل الله . « يجاهدون فى سبيل الله » وكلمة « الجهاد فى سبيل الله » تخصص لوناً من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أى انتماء آخر ، وكل هذه الانتماءات فى عرف الدين لا قيمة لها إلا إذا نبعت من الانتماء إلى منهج الله ، لتكون كلمة الله هى العليا .

وعندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل القتال :

فيما جاء عن أبى موسى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل لِيُرَى مكانه ، فَمَنْ فى سبيل الله ؟ قال : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »(١) .

وما دام المؤمن محبوباً من الله ويحب الله وذليلاً على المؤمنين وعزيزا على الكافرين ،

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد ، ومسلم فى الإمارة ورواه أحمد .

ما دام الأمر كذلك فعندما يتولى مؤمن أمر قيادة غيره من المؤمنين فلا أحد منهم يأنف أن يكون تحت قيادته . وبذلك يخرج المؤمن عن دائرة الاستعلاء والاستكبار ؛ لأنه يجاهد فى سبيل الله . ولو جاءه إنسان ليلومه على ذلك فهو لا يسمح له ، وكأنه سبحانه يوضح : تنبهوا جيداً إلى أن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله والذين هم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين ويجاهدون فى سبيل الله فلا نظن أنهم بمنأى عن سخرية الساخرين ، وهزؤ المستهزئين ، ولوم اللائمين ليردوهم عن هذه العملية .

ولذلك يقول الحق : « ولا يخافون لومة لائم » وقد وضح ذلك على مر تاريخ الإسلام وجاء الحق بقوم يحبهم ويحبونه وهم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين وجاهدوا فى سبيل الله وما خافوا لومة لائم .

وساعة نستقرىء هذه الآية نجد أن « سوف » ابتدأ مدلولها الأول فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين سئل رسول الله عن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم هذه الصفات ؛ أشار بيده مرة إلى أبى موسى الأشعرى ، وقال صلى الله عليه وسلم : « هم قوم من هذا »[1] .

وعندما نزل قوله تعالى :

﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾

(من الآية ٣ سورة الجمعة)

سأل أبو هريرة - رضى الله عنه - رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هم يا رسول الله ؟ . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء »[2] .

وقد حدثت الردة الأولى فى اليمن ، وكانت فى قوم أبى موسى الأشعرى ، وكتب رسول الله إلى معاذ بن جبل - كما أوضحنا - وبعد ذلك تطوع فيروز الديلمى ودخل على من كان يدّعى النبوة ذى الخمار أو ذى الحمار ، وقتله . وأخبر رسول الله صلى الله

---

(١) حديث شريف صححه الحاكم ورواه الطبرى فى التفسير .

(٢) رواه البخارى ومسلم فى فضائل الصحابة وأحمد ٤١٧/٢ .

عليه وسلم ليلتها بالأمر . ولكن خبر القتل جاء بعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وكانت تلك من علامات النبوة .

وحدث - أيضاً - فى زمانه صلى الله عليه وسلم أن ادّعى مسيلمة الكذاب أنه نبى . وكتب مسيلمة إلى رسول الله كتاباً ، يقول : مِن مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .

ولم يقدر على نزع صفة النبوة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء فى كتاب مسيلمة : « أما بعد . فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك » كأنه قد فهم أن المسألة بالنسبة لرسول الله تحتاج إلى قسمة ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات فيها هبات النبوة :

(من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[1] .

ولم يسمع مسيلمة كلام رسول الله ، وجهزت الحملة لترسل إليه لتأديبه . وجاء عهد أبى بكر - رضى الله عنه - ، وكانت المعركة على أشدها . وجاء « وحشى » الذى قتل حمزة - رضى الله عنه - فى موقعة أحد . وأراد أن يكفر عن سيئاته فذهب وقتل مسيلمة . ولذلك كان يقول كلمته المشهورة : أنا قتلت فى الجاهلية خير الناس - يقصد حمزة - وقتلت فى الإسلام شر الناس - يقصد مسيلمة - وانتهى أمر مسيلمة .

وجاء إنسان ثالث فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه « طليحة بن خويلد » من بنى أسد وادّعى النبوة ، وكلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن ذهب إليه وكان « خالد بن الوليد » وساعة علم الرجل أن خالداً هو الذى جاء لقتاله لاذ بالفرار ، ولكنه من بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه .

ونلاحظ أننا ننطق « الردة » بكسر الراء ، وصفاً لتلك الأمور التى حدثت وقوبلت

(١) رواه أبو حنيفة فى مسنده ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى ص ١٨٠ برواية الإمام الحصكفى .

هذه المقابلة . ولا نسميها « رد » فتح الراء ، لأن الرد ـ بفتح الراء ـ يكون عودة إلى حق ، أما الردة ـ بكسرة الراء ـ فتكون إلى باطل ، مثال ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

أما الذى يرتد فهو يرتد إلى باطل .

ومن العجيب أن كلمة « الردة » التى جعلها الإسلام علامة على الانتقال من الإيمان إلى الكفر يستخدمها أعداء الإسلام الذين لا يؤمنون بأديان ما ، فعندما يترك الشيوعية أحد أتباعها يقولون : لقد حدثت رِدة . وكان من الواجب لو أنهم أصحاب مبادىء أصيلة أن يختاروا لفظاً آخر لكن لا يوجد فى اللغة لفظ يعبر عن الرجوع إلى الباطل إلا كلمة « ردة » وكذلك كلمة « منبر » لا توجد ـ أيضاً ـ إلا فى الإسلام ، وهو موقف الواعظ من المصلين يوم الجمعة . وعندما يأتون إلى تصنيف جماعة متطرفة إلى اليسار فهم يقولون : « منبر اليسار » ونقول : لماذا تأخذون هذه الكلمة من عندنا ؟ .

ومثال آخر عندما يكتب كاتب : هذه الراقصة تتعبد فى محراب الفن . ونقول : لماذا تستخدم كلمة « محراب » ؟ . عليك أن تبحث عن كلمة أخرى . وكل ذلك يدل على أن كلمات الإيمان هى الكلمات المعبرة ولذلك يذهبون إليها .

ويؤخذ فى ظاهر الأمر على الإسلام أن من يرتد يُقتل .

ونقول : أيظن أحد أن هذه ضد الإسلام ؟ لا إنها لصالح الإسلام ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه عندما يقبل على الإسلام فهو يقبل على الدين الكامل ؛ لأن من يخرج عليه يهدر دمه ويقتل . وعلى من يفكر فى الدخول إلى الإسلام أن يحتاط لحياته . إذن فالإسلام لا يسهل لأحد الدخول فيه ، ولكنه يصعب عملية الدخول . وينبه كل فرد إلى ضرورة الانتباه قبل الدخول فى الإسلام ؛ لأنه دخول إلى دين كامل وليس لهواً أو لعباً .

إن على من يرغب فى الدخول فى الإسلام أن يفكر جيداً وأن ينتهى إلى الحق ؛

لأن حياته ستكون ثمن الرجوع عن الإسلام وهذا دليل على جدية هذا الدين وعدم السماح بالعبث فى عمليات الدخول فيه . وحين يصعب الإسلام عملية الدخول فيه إنما يعطى فرصة الاختيار ليعلم من يختار الدين الإسلامى أن يعى أن الرجوع عن الإسلام ثمنه الحياة . وساعة يطلب دين أن يفكر الإنسان جيداً قبل أن يدخل فيه فهل فى ذلك خداع أو نصيحة ؟ إنها النصيحة وهى عملية لصالح الإسلام ، وهى أمر علنى ليعلم كل داخل فى الإسلام أن هذا هو الشرط .

ولو أن الإسلام يريد تسهيل المسألة لقال : تعال إلى الإسلام واخرج متى تريد . لكن الدين الحق لا يخدع أحداً . وسبحانه يقول :

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وتكلمنا من قبل عن الردات التى حدثت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن كلمة « سوف » التى جاءت فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » تدل على الامتدادية . وقد حدثت ردة فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وظهر سبعة ادّعوا النبوة ، مثال ذلك : « بنو فزارة » قوم عيينة بن حصن ارتدوا وأرسل إليهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ من حاربهم . وكذلك قوم غطفان ارتدوا .

وكذلك قوم قرّة بن هبيدة بن سلمة ، وكذلك بنو سُلَيْم . قوم الفجاءة بن عبد ياليل ، فأرسل لهم أبو بكر من يؤدبهم . وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض من بنى تميم الذين ادعت فيهم النبوّة سجاح بنت المنذر والتى تزوجت مسيلمة . وكذلك « كِندة » قوم الأشعث بن قيس ، وكذلك قوم الحُطَم بن ضبيعة وهم بنو بكر بن وائل فى البحرين . وقضى عليهم سيدنا أبو بكر مما جعل كثيراً من القوم يقولون : إن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم كل تلك الأوصاف هم أبو بكر ومن معه . ولكن أيمنع ذلك أن كل جماعة سيكون فيها مثل أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ ؟ لا . ومثال ذلك على بن أبى طالب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر :

عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : كان على رضى الله عنه تخلف عن النبى

صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، وكان به رمد فقال : أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج علي فلحق بالنبى صلى الله عليه وسلم فلما كان مساء الليلة التى فتحها في صباحها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية ـ أو ليأخذنّ ـ غداً رجلٌ يحبه الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله . يفتح الله عليه . فإذا نحن بعليٍّ وما نرجوه ، فقالوا هذا على ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتح الله عليه »[1] .

وفى عهد سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لم تحدث إلا ردة واحدة ، جاءت من الغساسنة بقيادة جبلة بن الأيهم وهم من الشام وكانوا موالين للروم ، وكان جبلة هو رئيسهم وأسلم وجاء ليطوف بالبيت الحرام بهيلمانٍ كزعيم للغساسنة . وكان لهم العظمة فى الجياد والملابس . وكان يرتدى رداءً طويلاً فوطىء أحد الناس رداءه ؛ فسقط ، فلطمه جبلة ، وأبلغ الرجل عمر بن الخطاب . وقال عمر بن الخطاب : إنه القصاص . وقال سيد الغساسنة : إنى أشترى هذه اللطمة بألف دينار ولم يقبل الرجل فعرض سيد الغساسنة ألفين من الدنانير فرفض الرجل ، فزادها إلى عشرة آلاف ولم يقبل الرجل .

وقال جبلة لعمر : أنظرنى حتى أفكر فى المسألة . فلما أنظره عمر ، هرب الرجل إلى الشام وتنصر . هكذا يتضح لنا آفاق كلمة « سوف » وأى زمن تأخذ ، إن لها امتدادات حتى زماننا .

إن الردة فى زماننا جاءت من فارس ممثلة فى البهائية والبابية ، وهدف المرتد يكون جاه الدنيا ، إن كان يريد الحكم ، ووسيلة المرتد تيسير التكليف لمن يتبعه فى الارتداد . ومن يدعى لنفسه النبوة والقدرة على الإتيان بتشريع جديد إنما يطلب لنفسه جاه الدنيا ، والذى يتبع ذلك المدعى للنبوة إنما يقصد لنفسه تيسير التكليف .

ولماذا تيسير التكليف ؟ ؛ لأن الإنسان مؤمن بفطرته ودليل ذلك أننا إذا واجهنا إنساناً غير مؤمن ، وقلنا له : أنت قليل الدين . يغضب ويثور ؛ لأنه لا يتصور أن ينزع أحد منه أنه متدين بشكل ما . ونرى إنساناً قد يسرف على نفسه كثيراً لكنه

---

(١) رواه البخارى ـ واللفظ له ـ فى الجهاد وفى فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه مسلم فى فضائل الصحابة ، والترمذى فى المناقب ، وابن ماجه فى المقدمة ، وأحمد ١/٩٩ ، ٨٥ .

ساعة يسمع إنساناً آخر يسب الدين يثور ويغضب ويتحول إلى مدافع عن دين الله ، وتلك هى الفطرة الإيمانية التى فطر الله كل الناس عليها . والذى يجعل الدين أمراً شاقاً على النفس البشرية ليس فطرة الدين ، ولكنه تكليف التدين ؛ لأنه أمر يدخل فى الاختيار . وقد جعل الحق التكليفات الإيمانية كلها فى مناط الاختيار البشرى ، ولم يشأ أن تكون أمراً قهرياً . ولو شاء سبحانه أن يجعل كل الناس مؤمنين لما قدر أحد على الكفر :

﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾

(سورة الشعراء)

فليس فى قدرة أحد أن يتأبى على الله ، ولكنه شاء أن يجعل تكاليف الإيمان مسألة اختيارية . والإنسان حر فى أن يفعل تكاليف الإيمان أو لا يفعلها ، وفى كلتا الحالتين سيلقى الجزاء . مثال ذلك : « اللسان » خلقه الله صالحاً أن يقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وهذا اللسان نفسه صالح لأن يقول : ـ والعياذ بالله ـ « أنا لا أؤمن بالله » .

ولا يعصى اللسان صاحبه ، فقد خلقه الله مجهزاً للتعبير عن مكنونات قلب الإنسان وخاضعا لإرادة الإنسان . ومثال آخر من مصنوعاتنا نحن : جهاز التليفزيون الذى صممه البشر ليكون آلة منقادة ومسخرة لما يرسله الإنسان فيه من برامج ، فإن أرسل الإنسان فى جهاز التليفزيون أفلاماً وبرامج دينية وعلمية تستكشف آيات الله فى الكون وتثبت قيم الإنسان على الإيمان فهذا اختيار إيمانى . وإن أرسل الإنسان أفلاماً خليعة تحض على المجون والفسق فهذا اختيار يلحق الإنسان بدائرة المفسدين فى الأرض .

إذن فالحق خلق الإنسان صالحاً لتطبيق تكاليف الإيمان وصالحاً للخروج عن التكليف . وحين يأمر الله عباده أن يطبقوا أو ينفذوا التكليف الإيمانى فهو يعلم أن قدرة الإنسان تسع التكليف ؛ لأنه العليم بعباده ، ولو لم يكن باستطاعتهم تنفيذ التكليف لما كلفهم به . وكلنا نعرف الفرق بين « العباد » و« العبيد » ؛ فكل الكائنات عبيد لله ، والإنسان من عبيد الله إن كان متكبراً على التكليف ، وإن خرج

على التكليف فهو مسير فى أمور لا يقدر على الخروج منها ، فلا يستطيع أحد بإرادته أن يتوقف عن التنفس ، وهو - كما نعلم - أحد العمليات التى تجرى على الرغم من الإنسان .

ولا أحد يستطيع أن يتنفس عندما ينتهى أجله . كذلك لا أحد يستطيع أن يقاوم المرض إن أصابه . إذن فكِبْر الإنسان وخروجه عن طاعة الله فى أشياء لا تعنى أنه خارج فى مطلق أموره عن الله ؛ لأن الحق فعال لما يريد ، فلا أحد يتحكم فى بدايته حين يولد ، ولا أحد يتحكم فى نهايته حين يموت ، وهناك أمور بين قوسَىْ الميلاد والموت ما من أحد بقادر على التحكم فيها ، وإرادة الاختيار إنما توجد فى بعض الأمور فقط . أما كل ما عدا ذلك فهو قهرى ، وكلنا عبيد لله فى ذلك . لكن الحق تعالى أعطى لنا الاختيار فى بقية أمور الحياة .

والذكى حقاً هو من يسأل ربه : لقد خلقتنى يارب مختاراً . وماذا تحب أنت أن أفعل ؟ هنا يجد الإنسان نفسه أمام أوامر الله ونواهيه وأمام المنهج بمطلوباته ، هذا المنهج الذى يوضح للمؤمن ما الذى يمكن أن يفعله وما الذى يمكن أن يتجنبه . ويقول المؤمن : إننى أخرج من اختيارى إلى مرادك يارب . والعبد الذى يتنازل عن اختياره إلى مراد خالقه هو واحد من العباد الذين وصفهم الحق بأنهم عباد الرحمن .

ونرى فى حياتنا العادية نموذجا لما يحدث بين رب الأسرة وأفرادها ، فرب الأسرة يقول لأبنائه : أنتم تريدون التنزه ، فأى مكان تحبون الذهاب إليه ؟

يجيب أحد أفراد الأسرة : لنذهب إلى المكان الفلانى . ويجيب آخر : أنت حر فى أن تصحبنا إلى أى مكان تريد ، المهم فقط أن تكون معنا . ومن المؤكد أن الذى يقول مثل هذا القول لرب الأسرة ينال منزلة رفيعة فى قلبه . فإذا كان هذا يحدث بين إنسان وإنسان مثله فما بالنا بالاستحسان الذى يناله العبد حين يقول ذلك لخالقه الأكرم ؟ لا بد أن ينال منزلة راقية ؛ لأنه قد خرج من دائرة العبيد إلى دائرة العباد الذين قال عنهم الحق :

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ ﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين يحبهم ويحبونه . أما الذى يتمرد على منهج الله فعليه أن يعرف أنه غير قادر على أن يتمرد على قدر الله . وأراد الحق أن يعطينا مناعة إيمانية حين قال : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وتتجلى تلك المناعة فى أن المؤمن لا بد أن يلتفت إلى هؤلاء الذين يرتدون عن دين الله بادعاء أنهم أنبياء من بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هذه الآية توضح لنا ما جد وما يجد من أمر هؤلاء المرتدين ، والواحد منهم يعلن : أنا نبى مرسل . ويَجِدُ هذا النبى المزيف من يستمع له ويصدقه ويتبعه ، ولا يجد من يسأله : إن كنتَ نبياً فما معجزتك ؟ لكنه يجد من يصدقون هذا الزيف لهوى فى نفوسهم .

هذا الهوى يتلخص فى أن مثل هذا النبى المزيف يأتى بمنهج ميسر يخدع به أتباعه الذين يخدعون أنفسهم بأن الواحد منهم متدين ، لكنّه يتبع منهاجاً ضالاً . وكثير من الذين ادعوا أنهم أنبياء وأنّه هو المهدى المنتظر لم يسألهم أحد : ما المعجزة الدالة على صدق نبوتكم ؟ لأن النبى المزيف من هؤلاء يلهى الناس بالتخفيف من التكليف .

إننا نجد بعضاً من المثقفين أو الذين يدعون أنهم يعملون عقولهم فى كل شىء يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد رأينا منذ أعوام قليلة العجب العجاب ، عندما ادعى أحدهم النبوة . وآمن به واتبعه عدد من الرجال والنساء . وكانت المرأة المتزوجة تدخل على هذا النبى المزيف لتقبله ويقبلها من شفتيها وأمام زوجها . أين نخوة الرجل ـ إذن ـ فى مثل هذا الموقف ؟ إنه التدليس الضال الذى يدعى لنفسه الهداية ، إنّها هداية إلى الجحيم .

وهل تنبع تلك التيارات من الإسلام ؟ لا ، بل تأتى من قوم يبغضون الإسلام ،

ويصطادون الرجل الذى تظهر عليه المواهب والمخايل ، ويقنعونه بأنه يمكن أن يلعب دور النبى المزيف .

مثال ذلك الهندى ميزرا غلام أحمد الذى جاء بالقاديانية . ونعلم أن الإنجليز قد استعمروا الهند لسنوات طويلة ، وكانوا يعتبرونها درة التاج البريطانى . ونعلم أن خصوم الإسلام وعلى رأسهم الاستعمار يحاولون أن ينالوا من الإسلام ؛ لأنهم رأوا أن التمسك بالدين أتاح للمسلمين فتح الأمبراطوريات لا بالسيف ولكن بحماية حق الاعتقاد .

إذا كانت الدعوة قد نشأت فى الجزيرة العربية ؛ فقد امتدت إلى آفاق الأرض . وانهزمت الفرس والروم أمام الذين يحملون راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ومن بعد ذلك نجد أن الذين هزموا التتار هم المسلمون ، وكذلك اشتعلت الحروب الصليبية فى حملات متتابعة ، ولكن المقاتلين تحت راية الإسلام أنزلوا بهم الهزيمة الضارية .

إن الذى أرهق الاستعمار من الإسلام طاقة الإيمان والقتال فى سبيله ولذلك جاء ميزرا غلام أحمد وحاول أن يضعف القدرة على الجهاد عند المسلمين ، فقال : لقد جئت لكم لألغى الجهاد من العقيدة الإسلامية . وجرؤ ميزرا غلام أحمد ، وأعلن إلغاء القتال . والحق يقول فى كتابه الكريم :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وسبحانه بقدرته يمهل ولا يهمل . وجاء وباء الكوليرا فى الهند سنة ١٩٠٨ ليقضى على غلام أحمد وينهى وجوده تأكيداً لقوله الحق :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وظهر أيضاً فى فارس وهى موطن سلمان الفارسى مَن ادعى لنفسه النبوة ، وكان من الذكاء بحيث حاول التسلل إلى الإسلام ؛ لينقلب عليه من بعد ذلك ، قال الرجل : أنا الباب ومن بعدى سيأتى المهدى .

وعندما سأله الناس : وماذا تحمل من منهج ؟ أجاب : جئت لأخفف عنكم بعض التكاليف ؛ لأن الإسلام صار بتكاليفه لا يناسب العصر . واتبعه أناس ، وثار عليه أناس . ومن اتبعوه ، ذهبوا إليه بغية تخفيف المنهج ، ومن ثاروا عليه كانوا من القوم الذين يحبهم الله ويحبونه ، وجاءوا له بالعلماء يناقشونه ويحاجونه فاعترف بأنه مخطىء وأعلن التوبة فى المسجد الكبير . وعند ذلك تركه الناس .

لكن هذا الرجل وجد من يلتقطه ليعيده إلى ضلاله وتضليله ، التقطه قنصل روسيا فى فارس ، وهيأ له ملجأ ، وأوعز إليه أن يعلن أن توبته إنما كانت هرباً من القتل . واستطاع هذا الباب ، واسمه على محمد الشيرازى أن ينال دعاية واسعة وخاصة بعد أن انضمت إلى دعوته فتاة اسمها « قرة العين » وكانوا يلقبونها بالطاهرة . ووقفت لتخطب خطبة فى الناس . ومن يقرأ تلك الخطبة يعرف إلى أى انحلال كان يدعو ذلك الباب .

وأعلنت هذه المرأة أن الإسلام قد انقضت مدته كدين ، وأن الباب قد اختفى لفترة ؛ لأنه فى انتظار شرع جديد ، وأن العالم يمر بفترة انتقال ، وصار ينزل المنهج الجديد على الباب . وقالت تلك « الطاهرة » : إنّ التشريع المختص بالمرأة ، والذى جاء إلى الباب هو :

« المـــرأة زهـــرة خُـــلِقَـت لِـتُـشَـمّ ولِـتُـضَـمّ »
« فـــلا يمـنـــع ولا يُحَـــدّ شـــامّـــهـــا ولا ضـــامّـــهـــا »

وما دامت المرأة زهرة إذن فهى تجنَى وتقطَف « وإلى الأحباب تُهَدى وتتحف . . إلى أن تقول فى نهاية خطابها : لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم (!!)

ومن يرغب فى أن يعرف مسلسل الفضائح الخلقية التى جاءت فى خطاب « قرة العين » تلك فليقرأ كتاب « نقطة الكاف » للباب الكاشانى طبعة لندن صفحة ١٥٤ . هذا ما جاء به الباب من بعد أن أعلن إلغاء الإسلام :

لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم فإنه الآن لا منع ولا حد ، خذوا حظكم من الحياة ، فإنه ليس بعد الممات شيء . وهذه خلاصة الانحلال الذى جاء به هذا

المدعو بالباب ، لقد أعلن أنه لا حساب ولا يوم آخر ، وأن المرأة عرضها مشاع تضم وتشم . والغريب أن بعضاً من المتزوجين قد اتبعوه . وقالوا عن أنفسهم : إنهم متدينون ، لقد أخذوا ظاهر الأمر واعتبروا الفسوق الذى جاء به هذا الباب وأسموه دينا بعد أن سهل لهم بتعاليمه الفساد ، فأخذوا الانحلال عن التكاليف ، وادعو أن ذلك دين (!!)

هكذا أراد خصوم الإسلام للإسلام . وقنصل روسيا القيصرية هو الذى شجع هذا الرجل وحماه فى عام واحد وستين ومائتين بعد الألف من الهجرة . وبرغم ذلك حكم أهل فارس بإعدامه بعد موجة السخط العارم ، ولم يستطع أن ينقذه أحد ، وتم إعدامه فعلاً . والذين قرأوا أقواله لحظة الإعدام عرفوا كيف أنه تذلل وخضع وبكى . ولو كان مبعوثاً بحق من عند الله لما تذلل وخضع وطلب النجاة . ولامتلأ بالسرور والحبور ؛ لأنه ذاهب إلى الله .

لقد عرف هذا الرجل الدجال إلى أى عقاب سيذهب ؛ لذلك بكى واسترحم . ولما قتل الباب ، أعلن واحد من رجاله وهو ميرزا حسين أن الكتاب الذى جاء به الباب كتاب كاذب ، وكان اسمه « البيان » . وقال ميرزا حسين على : إنه جاء بكتاب اسمه « الأقدس » . كأن المسألة كلها خداع للناس وتبرير الخداع .

ولو رجعنا إلى كتاب يسمونه « بهجة الصدور » لمؤلفه حيدر بن على البهائى لوجدنا كل الانحرافات الممكنة ، فالبهاء يقول : استر ذهبك وذهابك ومذهبك ، أى لا تجعل أحداً يعرف ثروتك ، ولا إلى أى مكان تذهب ولا تقل للناس : إنك بهائى حتى لا يقتلوك . واعتبر البهائيون أن القرآن قد انتهت مدته وأن كتاب « الأقدس » هو كتاب فوق القرآن .

ويقرر كتاب « الأقدس » أن القدس لا بد أن تكون وطناً لليهود وأن موسى سيد الرسل جميعاً . ومما يدلنا على أن ذلك الرجل كان صنيعة الاستعمار والصهيونية ، أنهم أقاموا له حفل تكريم فى بريطانيا ومنحوه وسام الفروسية الإنجليزى ؛ لأنه رجل خدم الاستعمار .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ونجد أن شيخنا رشيد رضا الذى نقل لنا تاريخ الإمام محمد عبده يروى قصة لقاء بينه وبين ذلك المدعو « بهاء » فى بيروت ، وحكى الشيخ رشيد عن الإمام محمد عبده أن هذا البهاء كان يأتى للصلوات الخمس ويصلى الجمعة . وعندما سأله عن تلك المسألة المسماة بالبهائية . أجاب بأنها محاولة للتقريب بين الشيعة وأهل السنة . وعندما أمرت الدولة العثمانية بمحاكمة ذلك البهاء توسط قنصل روسيا فاكتفوا بنفيه إلى بغداد . وعاش فترة فيها ثم مات وقام الأمر من بعده لابنه عباس المسمى عبدالبهاء .

لقد كانت البداية برجل سمى نفسه الباب صاحب كتاب البيان وقال فيه : « ملعون مطرود من يدعى أنه جاء بشريعة بعد شريعتى إلا بعد مرور ألف سنة » . وما إن تمر سبع سنوات حتى جاء رجل ثان يسمى نفسه البهاء ، وأعلن أنه جاء بشريعة جديدة ، ويعقد الوصية لابنه المسمى « عبدالبهاء » . ثم يكون الأمر من بعده إلى ابنه المسمى « شوقى أفندى » وكان يقيم بعكّا . هكذا انفضحت أكاذيبهم . ورئيس البهائية الحالى هو يهودى اسمه بترسون .

إذن فالردة عن الإسلام لم تكن نابعة من نفوس المسلمين ولكن مدفوع إليها من خصوم الإسلام الذين يأخذون أى رجل ملحد فيه بعض من الذكاء وينفخون فيه بدعاياتهم حتى يشوهوا دعوة الإسلام . وأقاموا مراكز لمثل هذه الانحرافات فى بلجيكا وأمريكا وانجلترا . وحاولوا النفاذ إلى البلاد الإسلامية لينشروا فيها دعوتهم ومبادئهم . وكانوا يأخذون المرأة كنقطة هجوم على الإسلام . ويتهمون الإسلام بأنه يضع المرأة فى الحريم ، ويحبسها فى خيمة وإلى آخر تلك الدعايات التى تشوه تكريم الإسلام للمرأة .

ومن العجيب أنى سمعت بأذنى من واحدة هى بنت لتلك الحضارة الغربية . تقول : كنت أتمنى أن أكون مسلمة وأمًّا لشاب مسلم .

فعلينا نحن المسلمين ألا ننخدع بتلك الدعايات وتلك المذاهب التى تتسلل من باب تخفيف المنهج والمراد بها قتل قيم الإسلام التى تحمى الإنسان وتحترم مشاعره ؛ لذلك يجب أن ننتبه إلى دعوات المتسللين إلى مجتمعاتنا بغية هدم ديننا : وعلى

الحكومات أن تضرب على أيدى العابثين بدين الله لا أن تترك مسائل الدين لهبّات الأفراد . وكل منا مطالب بأن يرد عن دين الله كل دخيل عليه وكل محاولة لوضع أمور ليست من الدين فى شىء . وجزى الله قضاء مصر خيراً حينما تصدوا لمثل هذه الدعوات ووقفوا دفاعاً عن الإسلام لتبيين وإيضاح كل أمر دخيل عليه ، فدستور الدولة ينص على أن مصر بلد مسلم ، وإن كانت بعض التقنينات فى دور التشريع . وجزى الله قضاة مصر عنا خيراً ، فقد وضحوا تلك المسائل وبينوها . وعرفنا بسلوكهم أن خميرة الإيمان هى التى تحكم سلوك المسلم الحق ، وإن تخلت عنه بعض القوانين التى عليه أن يحكم بها .

وكلما حدث حادث من تلك الحوادث لنا أن نتذكر القول الصدق من الله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وكل هذه الحركات المناوئة للإسلام تنتهى ويبقى الإسلام قوياً بأبنائه الذين يحبهم الله ويحبونه . هؤلاء الذين وصفهم الحق :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

ويذيل الحق سبحانه هذا القول الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

نعم إنه فضل من الله ؛ لأنهم ما داموا يحبهم الله ويحبون الله وهم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين فقد جعلهم سبحانه حملة لواء منهجه لتكون كلمة الله هى العليا . وذلك تفضل من الله . ولنعلم أن الخير لا يعود منا على الله ؛ لأنه سبحانه هو واهب كل خير ، ولم يأت لنا الخير من بعد خلقنا ، ولكن نحن الذين طرأنا على الخير ، نحن طرأنا على الأرض ، وعلى السماء بما فيهما من كل كنوز الخير ،

ففى الأرض العناصر والمعادن والقوت ، وفى السماء الشمس والقمر والنجوم ، وكل ذلك فضل الخالق على المخلوق .

إن فضل الله يؤتيه سبحانه وتعالى من يشاء وتتسع قدرته لكل مطلوب ؛ لذلك لا يمن المؤمن على الله بإيمانه ، فليس عند الله أزمة فى الذين يؤمنون به ، وهو قادر على أن يأتى بقوم يحملون دعوته ، فإذا ما ارتفعت رأس الباطل فهذا دليل على أن قطافها قد حان ؛ لأن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث فى الأرض .

فكأن الله حين يندب المؤمنين لمهمة إيمانية فلا يقال : إن المؤمنين إنما يفعلون ذلك لمصلحة ربهم . لا ، ولكن ذلك فضل من الله على المؤمنين حين يختارهم لمهمة حمل البلاغ عن الله ، ويعود الخير إلى المؤمنين ثمرة مضاعفة . إذن فحين يكون اختيار الله للمؤمن لمهمة إيمانية فهذا فضل من الله على المؤمن . ونعرف أن الفضل هو الأمر الزائد عن العدل فالحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وكل تكليف من الحق للخلق هو فضل من الله ؛ لأنك إن نظرت إلى كل تكليف من الحق للخلق لوجدت أن التكليف إنما يعود لصالح الخلق وما دامت الفائدة من التكليف تعود إلى الخلق فليس من المطلوب إذن أن يثاب الخلق المؤمنون المكلفون ، لكن الله يأبى أن يكلف خلقه بتكاليف ويذهبون إلى هذه التكاليف بطاعة ومحبة دون أن يجازيهم على ذلك بحسن الثواب . ولهذا نجد الحق يقول :

﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحجرات)

المنّة إذن لله حين تفضل على الخلق الذين أطاعوه بحسن حياتهم فى إطار تكاليفه الإيمانية ، وفوق ذلك هناك الثواب ، وهذا هو عين التفضل من الحق على الخلق المؤمنين :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وساعة نسمع « بفضل الله » فلنعلم أن فضل الله لا حدود له . وقد نجد من يقول : ولكن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النجم)

ونقول : لنفترض أن إنساناً مات ، ونجد الأمر من الخالق سبحانه وتعالى بأن نصلى عليه ؛ لندعو له بالرحمة . ودعاؤنا للميت بالرحمة يأتى له بخير أكثر مما فعل هو فى حياته ، ولولا أن صلاتنا على الميت تثيب الميت وتثيبنا فى آن واحد لولا ذلك ما أمرنا الحق بأداء هذه الصلاة .

وقد يقول قائل : هذا الخير الذى يأتى إلى الميت من دعاء المصلين عليه ليس من سعى الميت .

ونقول : إن « اللام » فى قوله الحق :

﴿ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النجم)

هذه اللام تفيد الاستحقاق والملكية . وهو قول كريم يحدد العدل ولا يحدد الفضل . ونضرب مثلاً من حياتنا نحن البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ تجد السيد يقول للخادم عنده : إن لك أجراً عندى يساوى مائة جنيه . ثم يجىء السيد فى آخر الشهر ويقول للخادم : خذ مائة وخمسين جنيهاً . العدل إذن هو أن يأخذ الخادم أجره وهو مائة جنيه ، ولكن الخمسين جنيهاً الزائدة هى الفضل الزائد عن الأجر .

إننا حين يأمرنا الحق سبحانه وتعالى بأن نصلى على الميت فهذا تفضل من الله على الميت وعلينا أيضاً . هذا لون من تفضل الله على خلقه . وسبحانه يجازى كل إنسان بما عمل ويمنحه فوق ذلك ، ومن قصّر فى شىء من العمل . ويصلى عليه الناس ويدعون له بالرحمة فتفيض رحمة الله على العبد وعلى غيره من العباد . وهذا هو مناط قول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وعندما نحقق فى هذا الموقف وحده نجد أن الجزاء يكون أفضل من العمل .
وما الذى يجعل المؤمن يصلى على ميت مؤمن ؟ . إنه إيمان هذا الذى مات وإيمان من مات ملك له ، وعلى ذلك فملكية المؤمن لإيمانه تمتد بعد أن يموت لتشمل صلوات ودعاء من صلوا عليه .

وذلك يدخل فى فضل الله :

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وما دامت المسألة فضلاً من الله يشمل كل مؤمن فلا بد أن الحق عنده من السعة ما يعطى الكل . وسبحانه واسع عليم . والحديث القدسى يقول : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »[1] .

إذن فخزائن الله ملأى لا تنفد . وسعة الحق مطلقة .

ولهذا نحن أيضاً نجد أن الحب فى الله يزداد دائماً ، فساعة نشاهد اثنين يتحابان فى الله ، فحبهما يزداد كل يوم ؛ لأنه الحب فى الله . أما إن كان الحب لأمر محدود فذلك الحب ينتهى ويترك كل منهما الآخر بانتهاء السبب لذلك الحب .

ولنأخذ قضية واضحة أمامنا : من كان يحب فى الله فالحب لغير المحدود لا حدود له . ومن كان يحب فى غير الله ، فالحب هنا لمحدود ويرتبط طردا وعكسا بمدى الإثراء من هذا المحدود . ومن يحب لغرض من أغراض الدنيا يقيس ما يعطيه لمن يحب ، فإن زاد ما يعطيه على ما يأخذه يحس بالخسارة . وعندما نتبادل الحب فى الله فلا شىء ينقص عند الله أبداً ؛ لأنه سبحانه يعطى الاثنين معاً اللذين يتحابان فيه . وسبحانه العليم أزلاً ، وصاحب القدرة الذى يعطى كل إنسان المناط الذى يستحقه .

---

(١) رواه مسلم فى باب تحريم الظلم ، والترمذى ، وابن ماجه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وحين نهانا الحق عن أن نتخذ اليهود والنصارى أولياء فعلينا أن نأخذ بالقياس أن النهى إنما يشمل كل خصوم ديننا ، فلا نتخذ أياً من أعداء الدين ولياً لنا ؛ لأنه سبحانه وتعالى لم يتركنا بغير ولاية ، وهو ولّينا وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا .

إذا أردنا المقارنة بين ولاية الله وولاية أعداء الله فلنعرف أن كل عدو لله له قدرة محدودة لأنه من البشر . أما ولاية الله لنا فلها مطلق القدرة . وأى عدو له قد يتظاهر لنا بالولاية نفاقاً . أما ولاية الله لنا فلا نفاق فيها لأنه لا قوة أعلى منه . وإن كان الحق قد منعنا أن نتخذ من أعدائه أولياء فذلك ليحررنا من الولاية المحدودة ليعطينا الولاية التى لا تتغير وهى ولايته سبحانه وتعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وهكذا يكون التعويض فى الولاية أكبر من كل تصور . وساعة نرى « إنما » فلنعرف أن هناك ما نسميه « القصر » أو « الحصر » .

مثال ذلك نقول : « إنما الكريم زيد » : كأن القائل قد استقرأ آراء الناس ولم يجد كريماً إلا زيداً ، وكأنه يقول : « زيد كريم وغير زيد ليس بكريم » واختصر الجملتين فى جملة واحدة بقوله : « إنما الكريم زيد » وأثبت بهذا القول الكرم لزيد ونفاه عن غيره . أما إن قال القائل : « زيد كريم » فهذا القول لا يمنع أن يكون غيره من الكرماء .

إن الحق سبحانه يحصر الولاية فى قوله : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وهو قد نهانا من قبل عن ولاية أهل الكتاب ، وعن ولاية كل من لا توجد عنده مودة أو محبة تعين المؤمن على مهمته الإيمانية . فلو كان عند أحد من أهل الكتاب أو الملاحدة محبّة ومودّة تُعين المؤمن على أداء مهمته لما بقى هذا الإنسان على منهجه

المحرّف أو على إلحاده ، بل إن ذلك سيجعله يذهب إلى الإيمان برسالة الإسلام .

إننا نجد بقاء الكافر على كفره أو إلحاده أو عدم إيمانه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم دليلا على أنه لم يستطع الوصول إلى الهداية أو أنه ـ إن كان من أهل الكتاب ـ لم يستطع أن يكون مأموناً على الكتاب الذى نزل إلى نبيّه وفيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فكيف ـ إذن ـ يعين إنسان مثل هذا إنساناً مسلماً ؟. إنه لا يستطيع أن يعين ولا أن يوالى ولا أن يكون على هداية ؛ لأنه لم يستطع أن يهدى نفسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » .

لأن الذى لا يستطيع أن يهدى نفسه لن يستطيع هداية غيره .

وحين نهانا النبى صلى الله عليه وسلم عن سؤال أهل الكتاب كان يعلم أنهم فى ريب من أنفسهم ، وفى ضلال وخلط ، فهم إما يخلطون الحق بالباطل ، وإما فى غيظ من الذين آمنوا ؛ لذلك نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسألهم ، وهذا هو الاحتياط للدين ، فقد يسألهم المؤمن سؤالاً ، فيجيبون بصدق ، فيكذبهم المسلم ، وقد يجيبون بكذب فيصدقهم المسلم ؛ لذلك لا يصح ولا يستقيم أن يسألهم المسلم أبداً عن شىء ؛ لأنه عرضة لأمر من اثنين : إما أن يصدق بباطل ، وإما أن يكذب بحق . وأهل الكتاب أنفسهم قد تضاربوا ، ألم يقل الحق على ألسنتهم :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وكذلك قالت النصارى :

﴿ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فأى الموقفين نصدق ؟ أنصدق رأى اليهود فى النصارى ؟ أم نصدق رأى النصارى فى اليهود ؟ ولا نستطيع أن نكذب رأى اليهود فى النصارى ، ولا نستطيع

أن نكذب رأى النصارى فى اليهود ، إذن فحين يقول الحق سبحانه : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » فعلينا أن نفهم أنه سبحانه وتعالى ما دام قد نهاكم عن أن تتخذوا أولياء من دون الله فلن يترككم أيها المؤمنون دون ولى . بل منعكم فقط من ولاية من لا يمكن أن يكون صادقاً فى معونتكم ولا فى نصرتكم .

لقد أراد سبحانه أن يكون هو بطلاقة قدرته وليكم ، ورسول الله أيضاً وليكم ، وكذلك الذين آمنوا . ونجد من يقول : الحق هنا قد عدد الولاية فيه سبحانه وتعالى وفى الرسول صلى الله عليه وسلم وفى المؤمنين ، لماذا لم يقل - إذن - : أولياؤكم هم الله والرسول والذين آمنوا ؟

ونقول : هل كانت للرسول ولاية منفصلة عن ولاية الله والمؤمنين ؟ وهل كانت للمؤمنين ولاية منفصلة عن ولاية الله والرسول ؟ . لا ؛ لأن الولاية كلها منصبة لله ، فلم يعزل الحق الرسول عن ربه ، ولا عزل المؤمنين عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقسم الولاية إلى أجزاء ، بل كلها ولاية واحدة وأمر واحد ، ونلحظ أن الخطاب فى « كاف الخطاب » هو للجمع : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ، و« كاف » الخطاب هنا تضم المؤمنين ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله سبحانه وتعالى ولى الرسول وولى المؤمنين ، والرسول ولى المؤمنين . وجاء فى المؤمنين قول الحق :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة التوبة)

كم درجة من الولاية هنا إذن ؟ الله ولى الرسول وولى المؤمنين . ذلك أنه سبحانه شاء بفضله ألا يعزل الولاية أو يقسمها بل جعلها ولاية واحدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم ولى المؤمنين ، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ؛ لذلك نجد أن كل مؤمن مطلوب منه معونة ونصرة أخيه المؤمن .

إن الإنسان - كما نعلم - ابن أغيار ، وما دام الإنسان ابناً للأغيار فعلينا أن نعرف أن المؤمنين لن يظلوا كلهم فى حالة توجيه النصيحة . ولن يظلوا جميعهم فى حالة تلقٍ للنصيحة . وكل واحد منهم يكون مرة ناصحاً ومرة يكون منصوحاً ، فساعة يصيب

الضعف مؤمناً فى جزء من المنهج يجد أخاه المؤمن قد هبّ لنصحه ليعتدل . وساعة يصيب الضعف الناصح فى جزء من منهجه فالمنصوح السابق يهب لنصح أخيه ليعتدل . والذى خلق الخلق وهو أعلم بهم ، ويعلم كيف تستوعب الأغيار الخلق ، وكيف أن كل إنسان له خواطره وله ظنونه وله مواقف ضعف وله مواقف قوة . إنه ـ سبحانه ـ لم يطلب من الناس أن يوصوا بالخير فحسب ولكنه قال :

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾

(من الآية ٣ سورة العصر)

لماذا إذن التواصى بالحق ؟؛ لأن سبل الحق شاقة ، ولأن أصحاب الحق يلاقون المتاعب من أصحاب الباطل ؛ لذلك لابد أن يؤازر أصحاب الحق بعضهم بعضاً فيقول الإنسان من أهل الحق لأخيه ما يساعده على التمسك بما هو أعز من الراحة والصحة والمال . ولا بد أن نجعل الحق واضحاً فى حياتنا وسلوكنا ، وأن يتذاكر أهل الحق بما حدث لغيرهم وكيف صبروا ، هكذا يكون التواصى بين المؤمنين .

وتلك هى ولاية المؤمنين بعضهم لبعض : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) .

إذن فقوله الحق : « إنما وليكم الله » هو ما يسمونه فى اللغة « أسلوب الحصر » ، أى لاولى لكم غير الله . وحين يُرَدّ الإنسان من الولاية المحدودة القدرة ويجعل العوض له فى غير محدود القدرة فذلك كسب كبير للعبد ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة ، ومَن ستر على مسلم ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »(١) .

كيف تكون أنت أيها العبد فى عون أخيك ؟ يتحقق لك ذلك عن طريق أن تقدم لأخيك المؤمن المعونة والنصرة والمؤازرة والتواصى . وتقدم لأخيك من وقتك وطاقتك وقدرتك ومالك ما يعينه . وإياك أن تحسب المسألة بأنك كنت تستطيع أن تفعل كذا وكذا فى الوقت الذى أعطيته لأخيك المؤمن ، بل يجب أن تحسبها بأن الله هو الذى

---

(١) رواه الترمذى فى الحدود ، وأبو داود فى الأدب ، وابن ماجه فى المقدمة وأحمد ٢/٢٥٢ ، ٤١٤ .

أعطاك الوقت والمال والجهد وأنت لا تفعل شيئاً بقدرتك أنت ، وأن قدرتك المحدودة عندما تعطى بعضاً منها لأخيك فأنت تصل قوتك المحدودة بصاحب القوة غير المحدودة وهو الله . وبذلك يكون الله فى عونك وتكون أنت الأكثر كسباً . فمن يرد الله بجانبه فلا بد أن يكون مع الخلق دائماً بالمعونة ، وبهذا السلوك يرتقى المؤمن إلى أعلى درجات الذكاء .

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وسبحانه يريد أن يبين لنا مميزات أصحاب الإيمان ؛ لأننا حين نتعرف على شعب الإيمان وصفاته الجميلة إنما نميز بهذه الصفات المؤمنين من غيرهم . وإقامة الصلاة هى الصفة الغالبة فى وصف الذين يؤمنون بالله ؛ لأن الصلاة هى الصلة المتجددة بإعلان الولاء لله خمس مرات فى كل يوم . والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

« بُنى الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت »[١] .

وهذه الأركان الخمسة هى الدعائم والأسس التى تقام عليها عمارة الإسلام . وأى بيت لا يقوم بالأسس وحدها ، ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة وعشرات الفضائل والمطلوبات غير الأسس ، وإذا ما راجع كل واحد منا علاقته بأسس الإسلام فلسوف يجد أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرة واحدة فى العمر ، ومن بعد ذلك يقيم الصلاة . ثم يؤتى الزكاة ، لكن إن كان فقيراً فهو معفًى من أداء الزكاة . وحتى الذى يؤدى الزكاة فهو يؤديها فى وقت واحد فى السنة . ومن بعد ذلك يصوم رمضان . لكن المريض أو المسافر أو الذى له عذر فهو يفطر ويقضى الصوم ؛ ويفدى عن الصيام المريض الذى لا يرجى شفاؤه والعجوز الذى تصيبه بالصوم مشقة شديدة . ومن يحج البيت يفعل ذلك مرة واحدة فى العمر إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

هذه هى أركان الإسلام ، وفيها إعفاءات كثيرة للمسلم . اللهم إلا الصلاة فهى أساس يتكرر ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة »[٢] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى الإيمان وأحمد ٢/٢٦ ، ٩٣ والحميدى والطبرانى .

(٢) رواه الترمذى فى الإيمان ورواه أحمد .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة »[١] .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « إن العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر »[٢] .

لذلك لا تسقط أبداً ، فنحن نصلى ونحن قيام ، ونصلى ونحن قعود ، ونصلى ونحن على جنوبنا . ونصلى ونحن غير قادرين على أية حركة ، نصلى بالإيماء . ومن لا يقدر على هز رأسه بحركات الصلاة فى أثناء المرض الشديد فهو يصلى بعينيه . ومن أصابه ـ والعياذ بالله ـ شلل جعله لا يقدر على تحريك جفنيه بحركات الصلاة فهو يصلى بالخواطر وبالوعى أى يجرى أركان الصلاة على قلبه. أما من ذهب عنه الوعى فقد سقطت عنه الصلاة .

ولذلك يقول الحق : « والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة » ويقول بعد ذلك : « ويؤتون الزكاة » ؛ لأن إيتاء الزكاة معناه تقوية أثر حركتك لغيرك وتعدية أثر هذه الحركة للضعيف عنك ، وحينما تزكى إنما تعطى مالاً ، والمال هو ناتج من أثر حركتك فى الوجود ، وعطاؤك من مالك بالزكاة يدل أيضاً على الإيمان . ثم يذيل الحق الآية بقوله : « وهم راكعون » . وهل الركوع هنا بمعنى الركوع فى الصلاة ؟ أو بمعنى الخضوع لكل تكاليف منهج الله ؟ أو أنها نزلت هنا فى مناسبة خاصة لحالة خاصة ؟

هناك رواية تقول : إن عبدالله بن سلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن قوماً من قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا ألا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل . وشكا عبدالله مما يلقاه من اليهود ، فنزلت تلك الآية :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن جابر .

(٢) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة .

﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فقال بن سلام : رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء . وتزيد الرواية فى موقع آخر : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد والناس بين قائم وراكع ودخل إنسان إلى المسجد وسأل الصدقة فلم يعطه أحد فقال الرجل : أشهد الله أنى جئت إلى مسجد رسول الله وطلبت الصدقة وما أعطانى أحد شيئاً ، وسمعه على ابن أبي طالب ـ كرم الله وجهه وكان يصلى ـ فمد على يده بحيث يراها الرجل وأشار له أن يأخذ من يده الخاتم كصدقة ، فأخذه الرجل . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل فقال : هل أعطاك أحد شيئاً . فأجاب الرجل نعم خاتما ، وأشار إلى على بن أبي طالب . وهنا نزلت الآية بتمامها :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وأياً كانت المناسبة التى نزلت فيها الآية ، فالركوع معناه الخضوع ، والخضوع يكون لكل تكاليف منهج الله . فإذا كنا نقول : فلان ركع لفلان فهذا معناه أن فلاناً قد خضع لفلان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :



ونلحظ أن الحق أوضح فى الآية السابقة : إن الله هو الولى ، وهنا تكون أنت أيها العبد المؤمن من الذين يتولاهم الله ، تماماً مثل قوله : (يحبهم ويحبونه) .

وحين يكون الله فى معونتك فهو يعطيك من قدرته غيرالمحدودة فكيف تتولى أنت الله ؟ ويكون القول الحاسم فى هذا الأمر هو قول الحق :

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

والحق فى الآية التى نحن بصددها جاء بالمقابل لما جاء فى الآية السابقة عليها فهو القائل من قبل : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) .

وفى هذه الآية يأتى بالمقابل فيقول سبحانه :

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة المائدة)

هذه المقابلة توضح لنا كيف ينصر الله العبد ، وكيف ينتصر العبد لله . ولم يقل سبحانه فى وصف من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا : إنهم الغالبون فقط ، ولكنه أورد هذه الغلبة فى معنى عام فقال : « فإن حزب الله هم الغالبون » .

وكلمة « حزب » معناها : جماعة التف بعضهم مع بعض على منهج يرون فيه الخير. ولا يمكن أن يجتمع قوم بقوة كل فرد فيهم بفكر كل فرد منهم إلا إذا كان هذا الأمر هو خيراً اجتمعوا عليه ، إذن فحزب الله فى أى وضع وفى أى تكوين ولأَيَّةِ غايةٍ هو الحزب الغالب . وعلى المستوى الفردى نجد فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمر قام إلى الصلاة »[١] .

فما معنى حَزَبه هنا ؟ معناه أمر أتعبه وأرهقه وفكر فيه كثيراً . وبذلك يعلمنا رسول الله ألا نقصر رؤيتنا على رأينا وحده ، ولكن لنلجأ إلى الله . فنهزم الأمر الذى يحزبنا ولا نقدر عليه بأن نقيم مع الله حزباً بالصلاة .

إننا عندما نأخذ من سنة رسول الله المثل والقدوة نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يحزُبه أمر يتعلق بدنياه وإنما أمر يتعلق بمنهج الله وبالدين ؛ لذلك

(١) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة .

يذهب رسول الله إلى من يعطيه ويعطى أهل الإيمان كل الطاقة . إنّه يذهب إلى الصلاة . ويعلن أن أسبابه قد انتهت ولم يعد يقوى على تحمل هذا الأمر الذى حَزَبَهُ ، ولأن الله لا يغلبه شيء ؛ لذلك فسبحانه يرفع الهمَّ عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويغلب كل أمر صعب . وإن حَزَبَنا هذا الأمر فى نفوسنا فسنجد العجب .

إذن فحين تعز الأسباب على المؤمن فى أمر ما ويكون قد أعطى كل جهده ومازال هذا الأمر يحزب المؤمن ويشتد عليه ويرهقه فعلى المؤمن أن يقوم إلى الصلاة ، وييسر الحق هذا الأمر للمؤمن بالخير . والمؤمن عندما يحزبه أمر ما إنما يذهب بالصلاة إلى المسبب وهو الله ، لكن على المسلم ألا يذهب إلى الله إلا بعد أن يستنفد كل الأسباب ، فالأسباب إنما هى يد الله الممدودة ، ولا يمكن للمؤمن أن يرفض يد الله ويطلب ذات الله ، فإن انتهى الأخذ بالأسباب فليذهب إلى المسبب :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

وسبحانه الذى يجيب المضطر وهو الذى يكشف السوء وهو الذى جعل البشر خلفاء فى الأرض ، وسبحانه لا شريك له فى ملكه ، وهو القائل :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة النمل)

وإذا قال قائل : ولكنى أدعو الله ولا يستجيب لى . ونقول : أنت لم تدع دعوة المضطر ؛ لأنك لم تستنفد الأسباب . وعليك أن تستنفد الأسباب كلها . فإن استنفدت الأسباب فالحق يجيبك ما دمت مضطراً .

إذن فحزب الله عندما يَغْلِب إنما يعطينا قضية مكونة من « إن المؤكِّدة واسمها وخبرها » وهذه قضية قرآنية وهى تختلف عن القضية الكونية التى تصف واقع الحياة . ويقول الحق :

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة المائدة)

وسبحانه يعلم ما يكون فى كونه ، ولن تختلف قضية القرآن عن قضية واقع الكون . وساعة تجد قوماً تجمعوا وفى صورتهم الرسمية الشكلية أنهم رجال الله ، ولا يَغْلِبُون فعلينا أن نعرف أنهم خدعوا أنفسهم وخدعوا الناس بأنهم حزب الله وواقع الحال أنهم ليسوا كذلك ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

(سورة الصافات)

وهذه قضية قرآنية . ونأخذ الأمر دائماً بسؤال : هل غلبت أم لم تغلب ؟ فإن كنت قد غلبت فإن جنديتك لله صادقة . وإن لم تكن فأنت تخدع نفسك بأنها جنديّة لله وهى ليست كذلك . ولنا المثل الواضح من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان بين صحابته فى موقعة أُحُد وأمر الرُّماة أن يقفوا موقفاً خاصاً ، فلما وجد الرّماة استهلال نصر المؤمنين على الكافرين ، وأن الذين يحاربون أسفلهم يأخذون الغنائم ، ذهبوا هم أيضاً إلى الغنائم وخالفوا أمر الرسول حينما قال لهم : « إذا رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم »[1] .

فلما خالفوا أمر رسول الله أكانوا جُنوداً لله بحق ؟ لا ، بل اختلت جُنديتهم لله . ولم يمنع وجود رسول الله فيهم سُنَّة الله الإيمانية فى كونه ألا تقع ، ولو ظلوا مُنتصرين على الرغم من أنهم خالفوا الرسول لهان أمر رسول الله فى نظرهم ؛ لذلك أراد الحق أن يُوقِع بهم ألم الهزيمة المؤقتة من أجل أن يتأدبوا ، وحتى يَعضوا على أمر سيدهم وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنّواجذ . وقد أورد الحق ذلك الأمر ورسول الله فيهم من أجل مصلحة الإسلام ، فلو نصرهم على الرغم من مخالفتهم لرسول الله لجرأهم ذلك على أن يخالفوا .

---

(١) رواه ابن إسحق فى السيرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

والهُزُوُ هو السُّخرية والتَّنكيت . وهُزْء أهل الكتاب من أهلِ الحق لون من الانفعال العكسى . فساعة يرى بعض من أهل الباطل واحداً ملتزماً يُصلّى ولا يُحملق فى النساء قد يصفونه بصفات غير لائقة ؛ لأنهم لا يستقبلون التزامه إلا بلونٍ من السخرية ، وحتى لا يفهم أنه خيرٌ منهم ، وقد يضلونه فيتبعهم .

ولنفرض أن ثلاثة من الشباب جمعت بينهم الصداقة ثم انحرف منهم اثنان والْتزم واحد منهم . وكان لأحد المنحرفين أخت فيطلب زميله المنحرف يد هذه الأخت ، ويأتى له الصاحب الذى لم ينحرف ليطلب الأخت نفسها ، هنا نجد الأخ لا يوافق على زواج أخته بالمنحرف ، بل يوافق على زواجها من الذى لم ينحرف ؛ لأنه لن يخدع نفسه . وعندما يعاتبه المنحرف فهو يرد عليه : وهل أستأمنك على أختى ؟ أنا أعرفك حق المعرفة .

وهكذا نرى أن القيم هى القيم . وعندما يكون هناك إنسان على حق ويلتقى بأناس على باطل نجدهم لا يتركونه وشأنه ، ولأنهم لن يستطيعوا أن يكونوا مثله فلا أقل من أن يهزأوا منه حتى يحتفظوا لأنفسهم بفسادهم . وعندما ننظر إلى العادات الضّارة التى تنتشر ، مثل شمّ الهيروين أو تدخين المخدرات نجد أن الذى وقع فى مصيدة هذه المصائب يريد أن يجر غيره إلى مثل هذا المستنقع . ونجد فى القرآن ما يقوله لنا خالق الطباع والعليم بها :

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المطففين)

مثل قول أهل الباطل للمؤمن : احملنا إلى الجنة على جناحك . أو : أتريد أن تكون وليّاً .

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ويرجع الواحد منهم إلى أهله فيحكى بسرور : لقد قابلنا إنساناً غارقاً فى الإيمان وسخرنا منه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

بل قد نجد أن أهل الإضلال يتهمون المؤمن بأنه على ضلال ، فماذا يكون العقاب يوم الحشر ؟

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

وكأن الحق يسأل المؤمنين : ألم آخذ لكم حقكم ؟ إذن فالذين يتخذون الدين هُزُواً ولعباً . وادعوا الإيمان نفاقاً . إياكم أن تأمنوا لهم .

ولقد حذرنا الحق بداية :

﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٥١ سورة المائدة)

وهنا أمر بعدم اتخاذ الذين يتخذون الدين مادة للهزء أولياء ، وعلى المؤمنين اليقظة

والحذر ؛ لأن الحق يقول : « واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » فإن كنتم مؤمنين حقاً فعليكم الأخذ بيقظة الإيمان ، عليكم ألا توالوا اليهود والنصارى وكذلك من يتمسح فى الإيمان نفاقاً ويريد الانتفاع بمزايا الإسلام ليأخذ حقوقه الظاهرية وقلبه مع غير المؤمنين .وتقوى الله تبدأ من أن ينفذ المؤمن المنهج ، ويحاول أن يستبقى للمنهج مناعة اقتداره أمام خصومه بألا يُدخل المؤمنُ فى حماية المنهج من لا يؤمن من اليهود والنصارى والكافرين والمنافقين .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

والنداء هو دعوة بجهر . ومقابل النداء المناجاة . وتثبت هذه الآية أن الأذان مشروع بالقرآن ، وفى ذلك رد على الذين يقولون : إن الأذان قد شرع بالسنة . أو أن القرآن بهذه الآية قد أقر تشريع الأذان .

«وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً » ذلك أنهم كانوا يقولون عن الأذان : لقد صاحوا صياح الحمير . ووصفهم الحق بقوله : « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » والعقل ـ كما نعلم ـ هو الأداة التى تؤدى مهمة الاختيار ما بين البدائل ؛ أى أن يختار الصالح من الأمور فيدرس مزايا كل أمر ومضاره ويختار الأمر الرابح .

إن الهوى هو الذى يدفع العقل إلى أن يختار أمراً مخالفاً . فيجنح بالعقل إلى الضلال . وآفة الرأى الهوى . ولا يميل الإنسان عن جادة الصواب إلا إذا أراد أن يخدم هواه . ولذلك لا بد أن يكبح المؤمن جماح هواه بعقله ، والعقل مأخوذ من عقال البعير ، فصاحب الجمل يقيد ساقه بقطعة من الحبل حتى لا يجمح . ويحتاج الإنسان إلى العقل ليكبح جماح الهوى ، ولينقذ الإنسان من الضلال لا أن يبرر

الهوى . والذين يريدون العقل تحرراً من الفكر نقول لهم : أنتم لا تفهمون معنى كلمة العقل . فقد جاءت كلمة العقل لتمنع الهوى لا ليجترىء الإنسان بهواه على رأيه وسلوكه المستقيم ، والعقل هو الذى يمنع الفكر من أن يكون مبرراً للهوى .

فلو كانوا يعقلون لقلنا لهم : إن الأعمال التى تنادون بها عمر نفعها مظنون وقد تنفعكم فى دنياكم ، وعمر الدنيا لا يستطيع أحد أن يحدده بالنسبة لنفسه ، فدنيا الفرد قد لا تزيد على مائة سنة . ودنيا الإنسان هو عمره فيها . وقد ستر الله سبب الموت وكيفيته عن الخلق حتى يعرف الإنسان أن عمره مظنون وقد ينتهى قبل أن تطرف عينه . ولو كانوا يعقلون لما باعوا آخرتهم بدنياهم . ولو عقلوا لأداروا مسألة البدائل فى رءوسهم ولعلموا أنهم بموقفهم هذا من قضية الإيمان والإسلام إنما يقفون موقفاً خاسراً ليس فى مصلحتهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

و« قُلْ » هى خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين يخاطب الحق الرسول ، فالخطاب أيضاً لأمته صلى الله عليه وسلم ، فنقول نحن أيضاً :

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة المائدة)

و« نَقَم يَنْقِم » أى كره منى أن أفعل هذا ، فلماذا تكرهون إيماننا يا أهل الكتاب ؟ هل الإيمان مما يكره ؟ وجاء الحق هنا بسؤال لا يقدرون على الإجابة عنه ، فنحن آمنا بالله وبرسله وما أنزله علينا وما أنزل من قبل ، فما الذى يُكره فى هذا ؟ وأبلغ سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم اليهود أننا نؤمن بالله وبالرسل ومنهم سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، فغضبوا منه كثيراً . فكيف يكره أهل الكتاب إيمان المسلمين بالله ؟

مثال ذلك عندما يدعوك إنسان إلى تصرف غير مستقيم أو إلى الذهاب إلى مكان مشبوه فترفض ذلك فيكرهك هذا الإنسان ، فتقول له : أتكره فى سلوكى أن أكون مستقيماً ؟ ونعلم أن الإنسان الأمين هو ثروة لمن يعرفه والذى يستحق النقمة والكراهية هو الفعل الضار ، أما الإيمان بالله فهو أمر محبوب لأنه يُعلم الإنسان الأدب مع كل خلق الله ، ويعلم الإنسان الحفاظ على أعراض الناس ، ويعلم الإنسان ألَّا يعتدى على أموال ودماء الناس ولا يغتاب الناس ، ولا يرتشى ، وأن يخلص فى العمل وألا يكذب فى ميعاد ، فأى شىء فى هذا يستحق الكراهية ؟

إذن ، فمن يكره إنساناً لأى سبب من هذا فهو كره بلا منطق ، وكان من الواجب أن يكون سبب الكره سبباً للمحبة . وقد يأتى من يقول لك : ليس فى فلان من عيوب إلا كذا .

وقد يورد سبباً معقولاً . ولكن لا يقول أحد أبداً : لا عيب فى فلان إلا أنه شهم ؛ لأن الشهامة لا يمكن أن تكون عيباً ، كأن القائل قد أعمل ذهنه حتى يكتشف عيباً ، لم يجد إلا صفة رائعة ، وقال عنها : إن كنت تعتبر هذه الصفة عيباً فهذا هو عيبه . ويسمون ذلك من أساليب الأداء الأدبى عند العرب وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، فيقول قائل : لا عيب فى فلان إلا كذا . وساعة يسمع السامع هذا يظن أن العيب الذى سيورده هو صفة قبيحة فيفاجأ بأنها خصلة جميلة . وبذلك يؤكد القائل المدح بما يشبه الذم : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » .

أنتم تقولون : إنكم أهل كتاب وعندكم التوراة ، وكان يجب أن تعلموا كيف يشذب الإيمان النفوس ويدفع عنها الشر ؛ لأن لكم سابقة فى الإيمان ، فقد آمنتم بالله وبالرسل السابقين على موسى وآمنتم بموسى ، والمسلمون آمنوا بالله وآمنوا بما أنزل إليهم وآمنوا بالرسل ومنهم موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم فكيف يُكره ذلك ؟

وإن كان هذا مما يُكره فعلينا كمؤمنين أن نسألكم : لماذا تنكرون علينا ذلك ؟ لاشك أنكم تنكرون علينا إيماننا بالله لأنها قضية غير واضحة فى أذهانكم . ولو كانت واضحة فى أذهانكم ما كرهتم إيماننا . إذن فمسألة الإيمان بالله غير مستقرة فى وجدانكم كأهل كتاب بدليل أنكم تكرهون من آمن بالله ، ودليل ذلك أنكم أنزلتم الله منزلة لا تليق بكماله ، فجسمتموه وقلتم :

﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلتم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وقلتم :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

إذن فأنتم تكرهون لنا أن نؤمن بالله إيماناً يليق بكمال الله ؛ لأنكم لم تؤمنوا بالله صحيح الإيمان ، ولو طابق إيماننا إيمانكم ما كرهتمونا . وكذلك لم تؤمنوا بالكتب بدليل أنكم حرفتموها . ولم تؤمنوا بالرسل لأنكم وقفتم من عيسى عليه السلام هذه المواقف . إذن فأنتم تنقمون منا وتكرهون أموراً لا تُكره عند الطبع السليم ، وهذا دليل على أن طبعكم هو المختل . وإذا كنتم تكرهون هذا الإيمان فماذا تملكون لمن تكرهون ؟ لا قوة لكم لتفعلوا لنا أى شىء . ولكن حين يكرهكم الله فماذا يفعل بكم ؟ إنكم حين تكرهوننا لا تملكون قدرة لعقابنا ، لكن الذى يكرهكم هو الله وعنده القدرة المقتدرة لينتقم لنا منكم .

إذن فكراهيتكم لنا لا قيمة لها . وإذا كنا نجاريكم ، والمجاراة لون من جدال الخصوم فماذا يعنيكم من كوننا مؤمنين ؟

مثال ذلك أن يتهمك إنسان بأنك بخيل فتقول له : هب أننى بخيل فعلاً فماذا يعنيك من هذا ؟ وهذا ما نسميه مجاراة الخصوم ؛ لذلك نقول لأهل الكتاب : هب أن لكراهيتكم لنا رصيداً وأنكم تستطيعون إيذاءنا ، فلكم شر من هذا وهو عقاب

الله ، وسنرى ماذا سيحدث لكم عندما يكرهكم الله . وهو قادر على كل شىء . وعلى فرض أن إيذاءكم لنا هو شر ، فالأكثر فاعلية هو عقاب الحق لكم ؛ لأنه عندما يكرهكم يقدر أن يعاقبكم بما شاء . إذن فالصفقة ـ صفقة كراهيتكم لنا ـ خاسرة من ناحيتكم .

ولذلك قال الحق :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

فإن سلمنا جدلاً أنكم يا أهل الكتاب تعتبرون كيدكم لنا سيصيبنا بشر . على الرغم مِن أنكم لا تملكون أن تجازونا بشىء . وها هوذا الحق يخبركم على لسان رسوله بالأكثر شراً من هذا ، وهى العقوبة التى يصنعها الله لكم وهو قادر على إنزالها بكم وهى الأكثر ضرراً . وهذا لون ـ كما قلنا ـ من مجاراة الخصم . ويعلمنا الله ذلك على لسان رسوله فيقول لخصومه :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

والرسول على الهدى بالقطع وخصومه على ضلال بالقطع ، ولكن رسول الله يسلم الأمر طالباً من خصومه أن يراجعوا أنفسهم ليناقشوا القيم التى يدعو إليها الإسلام . وسيجدون أن قيم الإسلام هى الهدى وأنهم على ضلال . ونعلم أن الهدى والضلال لا يجتمعان ، فنحن كمسلمين على هدى ، وأنتم على ضلال . ووسيلة التمييز أن يحكم الإنسان عقله فى المسألة ، وبذلك يرى مَن الذى على هدى ومَن الذى على ضلال . فأنت لا تناقش الخصم فى أصل الدعوى ، ولكن سلم

للخصم جدلاً . والتمييز النهائى هو الفيصل . وسيجد المميز حيثية ضلال الخصم واضحة وضوح حيثية هدى المسلمين .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فإن كنتم تعيبون علينا أو تكرهوننا أو تأخذون إيماننا سُبَّة فهذا أمر لا يُكره الإنسانُ من أجله ؛ لأنكم تدعون أنكم مؤمنون بالله . وكذلك لا يمكن أن يُسب الإنسان من أجل الإيمان بما أنزله الله فى كتاب ؛ لأنكم أيضاً تقولون إنكم مؤمنون بالتوراة . وتقولون إنكم مؤمنون بالأنبياء السابقين على موسى . والخلاف أن عيسى عليه السلام جاء بعد نبيكم فكفرتم به ، لكننا آمنا به فنحن منطقيون مع أنفسنا ومع ربنا .

والحق يبلغنا : « وأن أكثركم فاسقون » . ونعرف أن صيانة الاحتمال تقتضى ألا يحكم الحق عليهم جميعاً بأنهم فاسقون ؛ لأن فيهم بعضاً من الناس تراودهم نفوسهم بالإيمان بالله وبالإسلام ؛ لذلك لم يكن الحق أبداً ليعمم الحكم على كل أهل الكتاب بالفسق ؛ ليعطى الفرصة لمن يفكر أن يعلن إيمانه .

ومن بعد ذلك يأتى الخبر على لسان الرسول بعقابهم : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله » إذن فهناك أمر أكثر ضرراً لكم لأنه ما كان يصح أن تكرهوا إيماننا ، والأكثر ضرراً من هذا هو لعنة الله « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » ويأتى سبحانه بالأوصاف التى فيهم ، من لعنة الله لهم وغضبه عليهم وجَعْلِه بعضًا منهم قردة وخنازير . وكيف يأتى الله بمثل هذه الأوصاف كمثوبة ؟ إن هذا لون من فتح باب الرجاء والأمل ثم يصدمهم من بعد ذلك تماماً مثل قوله تعالى :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

والعذاب الأليم يُنذر به ، وكذلك اللعنة لا يمكن أن تكون ثواباً ، لكن الأسلوب القرآنى يعطى النفس المخالِفة لوناً من الانبساط ، ثم يعطيها اللون المناقض له من الانقباض ، ليكون ذلك أبلغ فى الانقباض وأكثر إيلامًا .

ومثال ذلك ـ كما قلنا من قبل ـ المسجون الذى يطلب كوب ماء فيأتى له الحارس بكوب الماء ويقربه من فمه ثم يسكب كوب الماء على الأرض ، هذه العملية زرعت فى نفس السجين الأمل فى الارتواء أولا ، ثم يكون سكب الماء على الأرض سبباً فى التعذيب والإمعان فيه ، لكن لو رفض الحارس أولاً تقديم الماء لعاش السجين فى اليأس وهو إحدى الراحتين .

ونرى ذلك أيضا فيمن ينتظر حكماً قد يكون إعداماً وقد يكون براءة ، وتكون فترة الانتظار هى المليئة بالقلق . وعندما يضعون المنتظر فى الميزان يجدون وزنه فى انخفاض . وبعد الحكم بإعدامه يبدأ وزنه فى الزيادة ؛ لأن اليأس إحدى الراحتين . إذن فانبساط النفس ومجىء القبض بعدها هو الأمر الأنكى والأشد قسوة على النفس ، ولذلك يقول الحق :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

هذه البشارة تأتى بالانبساط للنفس ويتلوها الانقباض ، ومثل قول الحق :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

أى أنه قد وقع عليهم لون من العذاب يستدعى الإغاثة ، ومن بعد ذلك يغاثوا لا بما ينقذهم ولكن بما يزيد عذابهم .

وساعة يسمعون « يغاثوا » تنفرج أساريرهم وتسكن وتطمئن نفوسهم ، وبعد ذلك يحدث الانقباض بسماعهم : « بماء كالمهل يشوى الوجوه » ، إذن فكلمة « مثوبة » تأتى لهم بشىء من الانبساط يتلوه العذاب .

هذا وإنّ أفعل التفضيل يأتى على صورة « أفعل » ، « أكرم » ، « أجود » ، « أشجع » فهذا لون من زيادة الصفة فى طرف عنها فى الطرف الآخر . اللهم إلا كلمات قليلة جاءت فى اللغة على غير صيغة التفضيل منها كلمة « خير » وكلمة « شر » فلم تأت منها كلمة « أَخْيَر » بمعنى أكثر خيراً . ولا كلمة أشر بمعنى أكثر شرا ، ومرة تأتى كلمة « خير » ويقابلها الخير الأقل . والذى يميز المعنى هو وجود كلمة

« من » كقولنا : « فلان خير من فلان » . أما إن قيل : فلان خير » فمقابله هو « شر » لأنه لا توجد كلمة « أخْير » .

وهكذا نجد كلمة « خير » تأتى للوصف مرة وتأتى للمبالغة فى الوصف مرة أخرى ، والفاصل للتمييز بين الاثنين هو وجود « مِن » . فيقال : فلان خير من فلان ومثلها فى ذلك كلمة شر.وقد ورد استعمال كلمة خير للتفضيل ولغير التفضيل فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والحديث النبوى يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍّ خير »[1] .

إن فى كل مؤمن خيراً . ولكن فى المؤمن القوى خير أكثر مما فى المؤمن الضعيف . والمثال على أن كلمة « خير » . تقابل كلمة « شر » ، هو قول الحق :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

و« خير » هنا ليست أفعل التفضيل ولكنها للوصف العادى ؛ وإذا جاءت « مِن » تعرف أنها للتفضيل ، وعدم الإتيان بلفظة « مِن » يدلنا على أنها للوصف العادى ومقابله كلمة « شر » . وهنا يقول الحق : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك » . وجاءت كلمة « بشر » هنا للتفضيل ولا يعنى ذلك أن المؤمنين فى « شر » ولكنها مجاراة للخصم . واعتبار أن ما يقوله الخصم مقبول جدلاً . وهناك الأكثر شراً فى الواقع وعند الله وهو المراد من قوله تعالى :

﴿ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (من الآية ٦٠ سورة المائدة)

---

(١) رواه أحمد ٢ / ٣٧٠ ومسلم فى القدر والبيهقى فى السنن الكبرى ، وابن ماجه فى الزهد ومالك فى الموطا (التمهيد لابن عبدالبر ٩/ ٢٨٧) .

لماذا إذن يكون مصير هؤلاء إلى شر ؟ لأنهم كرهوا سلوك المؤمنين ولم يستطيعوا أن ينفسوا عن الغِل الذى فى صدورهم بعقوبة المؤمنين . ولكن الله يكرههم ويملك لهم العقوبة ويكون مصيرهم هو المصير الذى يوضحه الحق فى قوله : « لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » واللعنة هى الطرد من الرحمة . والطرد من الرحمة يعنى حرمانهم من الخير .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يكون هناك خادم فى خدمة إنسان ما وهو يسكن ويأكل ويلبس على حساب السيد ، فإذا لم يؤد هذا الخادم حقوق الخدمة على وجهها المطلوب ، لا يرضى عنه سيده ، ويطرده من الخدمة ، وحين يطرد الإنسان خادمه فهو يُعْلن للناس أن هذا الخادم لم يؤد حق الخدمة ، فلا يستخدمه أحد بعد ذلك . وهذا هو الغضب . وبهذا نعرف الفرق بين أن يُطرد من الرحمة فقط ولا يعقب ذلك شيء ، أو أن يستمر الغضب بالإعلان عن السبب فى الإخراج من الرحمة ، فهذا معناه أن الله بعد أن طردهم يلاحقهم بغضبه وسخطه وأن لعنه لهم لا ينفك عنهم .

والله سبحانه وتعالى يعلن لأهل الكتاب : إن طردى لكم من رحمتى وتواصل غضبى عليكم هو شر عظيم . وغضب الله ـ كما نعلم ـ يترتب عليه أشياء فى كل حركة من حركات حياتهم ، إنه يمنع الهُدى أن ينفذ إلى قلوبهم ، بأن يختم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر . أو أن يجعل منهم القردة والخنازير . وإن تساءلنا : كيف يكون نسلهم ؟ نعرف أن الذى يُمسخ لا يَتناسل ، إنه يُمسخ إلى أن يُرى مسخاً ثم يؤخذ إلى الموت .

وهل هم الذين اعتدوا فى السبت أو الذين عبدوا العجل أو الذين كفروا بعد نزول مائدة عيسى؟ إنهم كل هؤلاء . أو أنهم قردة ، أى فى خصال القردة ، كالطيش وخفة الحركة وانكشاف العورة ، أو طبائعهم وخصالهم كالخنازير ، فهؤلاء لهم خبث ونتن وزخم كزخم الخنزير . وأهم ميزة فى الخنزير أنه لا يغار على أنثاه . وهذه موجودة فيهم . وتفشت فيهم عادة تشغيل بناتهم فى الدعارة وغير ذلك من أعمال الباطل .

وهكذا نفهم قوله الحق : « وجعل منهم القردة والخنازير » إما على أساس أنه المسخ الحقيقى . والمسخ الحقيقى لا يظل متماثلاً ممسوكاً وإنما يكون المسخ لزمن محدود يراه الناس ممسوخاً ثم يموت وينتهى ، وإما أن نفهمها على أن سلوكهم كسلوك القردة والخنازير .

ويتابع الحق : « وعبد الطاغوت » والعبادة إنما هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر به وفيما نهى عنه . والطواغيت هم الذين يزينون لهم الشر والنفاق وأكل السحت والإثم . ويكون مصيرهم هو قوله الحق : « أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل » وهذا هو الواقع الذى يعيشون فيه وهو شر كله ، وهم لا يفكرون فى السير فى الطريق السليم .

وعندما نقرأ قول الحق كاملاً فى هذه الآية :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

نعرف أنهم فى حالة غفلة عن مسار الهدى الموصل للحق ؛ لأن « سواء السبيل » هو الأمر المستوى الموصل للغاية . وكانت طرق العرب إما فيها رمال وإما بين الجبال ، وكانوا يختارون السير فى وسط الطريق حتى لا ينالهم أذى من جرف هاوٍ من الرمال فيقع بهم أو أن تقع عليهم صخرة من جبل .

ولذلك قال الحق :

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أنه فى وسط الجحيم . ويقول الحق بعد ذلك عن الذين غضب عليهم :

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

وهؤلاء هم الذين اتخذوا الدين هزواً ولعباً وسخرية . وهم ساعة يدخلون على المؤمنين يدخلون ومعهم الكفر . وعندما جلسوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا أيضاً بالكفر . أى أنّ الكفر قد لازمهم داخلين وخارجين . وكأن جلوسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزدهم أى شيء . وكان من الممكن أن يدخل إنسان على مجلسه صلى الله عليه وسلم ، وهو كافر ، وبعد ذلك تمسّه عناية الهداية فيخرج مؤمناً .

ومثال ذلك : فضالة بن عمير الليثى الذى جاء ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عام الفتح . وعندما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضالة قال له : ما كنت تحدث به نفسك ؟ فقال : لا شيء ، كنت أذكر الله عز وجل . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال : أستغفر الله لك . ووضع يده عليه السلام على صدر فضالة . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلى منه [1] .

لقد مسته العناية ، فقد دخل ـ أولاً ـ بكفره وخرج ـ ثانياً ـ بعميق الإيمان . لكن هؤلاء دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر ، كأن الدخول كان نفاقاً ، بدليل قوله الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » وهذا القول دليل نفاقهم ، فقد أعلنوا الإيمان لكنهم دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر . وكانوا يكتمون أن الدخول إلى رسول الله هو محض نفاق . وهذه خاصية لمن قالوا آمنا ، ولكن كان دخولهم إلى الإسلام نفاقاً ؛ لأن كفرهم أمر مستقر فى قلوبهم لا يتزحزح ، وكان يكفى فى الأسلوب أن يقول الحق :

(١) رواه ابن عبدالبر فى الدرر وابن حجر فى الإصابة .

وقد دخلوا بالكفر وخرجوا به ، ولكنه قال : « وهم » وذلك تحديداً لهويتهم الكافرة ، فكأن عملية الدخول بالكفر والخروج بالكفر هى عملية مسبقة ؛ لذلك يكشفهم الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » .

وجاء سبحانه بأفعل التفضيل « أعلم » فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من إشراقات الله عليه وتنويره له كان يعلم أيضاً أنهم منافقون . ولكن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى علم الحق سبحانه وتعالى فعلم الله ذاتى وعلم رسوله فيض منه ـ سبحانه ـ .

إذن فقوله الحق : « والله أعلم » لم يمنع أن هناك أناساً قد علموا أنهم منافقون . وقد استقر فى ذهن النبى أنهم منافقون وأن الله أعلم بما كانوا يكتمون . والكتم هو حبس الإحساس النفسى أن يخرج وأن يظهر واضحاً ، ومحاولة الكتم عملية غير طبيعية لأنها قسرية . ويكاد كفرهم أن يظهر ويخرج فيحاولون أن يكتموه لأنهم يحرصون ألا ينكشفوا ، ولكن علم الله لا تخفى عليه خافية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

والمسارعة فى الإثم تعنى أنهم من بداية الأمر فى الإثم ، ويسارعون فيه ، أى أنهم كانوا على أولية الإثم ويجرون إلى آخرية الإثم ، فَضَلَالُهم واضح من البداية ، وكأن خلقهم الكفر يفضحهم ، برغم محاولتهم كتمان ذلك . ويجدون أنفسهم مسارعين إلى فعل الإثم ، أى أن عملهم ينزع إلى الكفر ، ويجعلهم الحق يغفلون عن الكتمان ، فتبدو منهم أشياء هى أكثر فضيحة من القول ، ذلك أن الإثم مراحل : مرحلة قول ، ومرحلة فعل . والفعل أكثر فضحاً من القول .

« وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان » ويقول الحق : « كثيراً منهم »

صيانة لاحتمال أن يوجد الإيمان فى قلب القليل منهم ، وذلك لتبرئة أى إنسان يفكر فى الإيمان . وهم أيضاً يسارعون فى العدوان ، فإذا كان الإثم هو الجُرم على أى لون كان ، فالعدوان هو إثم يأخذ به إنسان حقاً لغيره ، مثال ذلك الإنسان الذى يحقد ، إثمه لنفسه ولذلك يعانى من تضارب الملكات حتى يبدو وكأنه يأكل بعضه بعضاً .

إن الحقد - كما نعلم - جريمة نفسية لم تتعد الحد . ويقال عن الحقد : إنه الجريمة التى تسبقها عقوبتها ، عكس أى جريمة أخرى ، فأى جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحقد والحسد ، فتنال عقوبة الحقد صاحبها من قبل أن يحقد ؛ لأن الحاقد لا يحقد إلا لأن قلبه ومشاعره تتمزق عندما يرى المحقود عليه فى خير . ولذلك يقال فى الأثر : « حسبك من الحاسد أنه يغْتَمّ وقت سرورك » .

إذن فمن يرتكب إثماً فى نفسه لا يتعدى أثر إثمه إلى غيره ، أما الذى يرتكب العدوان فهو ينقل حق إنسان إلى غيره . وهو قسمان ؛ هناك من يعتدى ليعطى حقا لغير ذى حق . وهناك من يعتدى بالسكوت على الظالم ، فالظالم تتملكه شهوة الظلم ، لكن من يرى الظالم ويسكت ولا ينهاه فهذا عدوان أيضاً ؛ لأن الظالم عنده وفى نفسه ما يدفعه إلى أن يظلم ، أما الشاهد الذى يصمت فليس عنده فى نفسه ما يدفعه إلى أن يُسكته . فمن - إذن - الأكثر شرّاً ؟ إنه الذى يصمت عن تنبيه الظالم إلى أنه يظلم .

« وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان » نلحظ أن كلمة « سارع » مثلها مثل كلمة « نافس » تدل على أن هناك أناساً فى سباق ؛ كأنهم يتسابقون على الإثم والعدوان ، كأن الإثم والعدوان غاية منصوبة فى أذهانهم ، ومتفقة مع قلوبهم .

« وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون » والسحت هو كل مال مصدره حرام ، سواء أكان رشوة أَمْ ربا أم سرقة أم اختلاساً أم خطفاً أم اغتصاباً ، كل تلك الألوان وما ماثلها من السحت إنما أخذ لحق الغير . وأخذ حق الغير له صور متعددة ، فإن أخذه أحد خفية فتلك هى السرقة . وإن سارع إنسان لخطف شىء من بضاعة إنسان آخر فهذا هو الخطف . وإذا لحق به صاحب البضاعة وتجاذبا وتشادًّا فهذه المجاذبة تخرج بالخطف إلى دائرة الغضب . وإن كان الإنسان أميناً على شىء وأخذه فهذا هو

الاختلاس ، وكل ذلك أكل مال بالسحت . وبئس هذا اللون من العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

والربانيون هم الذين يُنسبون إلى الرب فى كل تصرفاتهم ، وكذلك الأحبار الذين يعرفون الدين ، ولا هؤلاء ولا أولئك ينهون هؤلاء الناس من أهل الكتاب عن ارتكابهم الإثم وأكلهم السحت ، فكيف يُنَصِّبُ هؤلاء الربانيون والأحبار أنفسَهم قادة للضمير الدينى دون أن يقوموا بواجبهم بوعظ الناس ؟ وفى هذا تأكيد على أن الربانيين والأحبار إنما يريدون فقط سلطة الهيمنة على الناس .

والربانيون هم رؤساء النصارى،والأحبار هم رؤساء اليهود . وكان من بين اليهود والنصارى من تتملكه شهوات أكل السحت والظلم وقول الإثم ، فلماذا لم يتحرك المنسوبون إلى الله للنهى عن ذلك وهم الذين أخذوا حظهم فى الدنيا من أنهم منسوبون إلى حماية منهج الله من انحرافات البشر ؟ . ألم يكن من واجبهم نهى الظالمين والآثمين عن الظلم والإثم ؟

إن الذى يظلم له شهوة فى أن ينتفع من الظلم ، أما أنتم أيها الربانيون والأحبار فلماذا لا تتحركون لوقف ذلك ؟ لاشك أنهم قد امتلأوا سروراً من هذا الإثم وذلك العدوان وأكل السحت ، ومبعث سرورهم أن الواحد من هؤلاء لو كان سليماً فى تصرفاته وأحكامه لغار على المنهج ، لكنه يقبل الانحراف ؛ لأن من مصلحته أن ينحرف غيره حتى لا يلومه أحد . وجاء الحق بـ« لولا » فى أول هذه الآية تحضيضية أى يقصد بها الحث على الفعل . . أى كان يجب أن ينهاهم الربانيون والأحبار عن

أكل السحت وقول الإثم والعدوان . ثم تتجلى دقة الأداء القرآنى - كما هو دائماً - فى قوله الحق : « لبئس ما كانوا يصنعون » .

ونذكر أن تذييل الآية السابقة قال فيه الحق عن سلوك العامة من أهل الكتاب : « لبئس ما كانوا يعملون » ، إذن فالحق يفرق بين بئس عن صناعة وبئس عن عمل . وبئس الربانيون والأحبار هو بئس الصناعة . ونعلم أن كل جارحة من جوارح الإنسان لها حدث خاص بها : فالعين حدثها أن ترى ، والأذن حدثها السمع ، واليد اللمس ومناولة الفعل ، والرِّجل تسعى ، واللسان مجال عمله الكلام . والجوارح تنقسم إلى قسمين : اللسان وحدثه القول ، وبقية الجوارح أحداثها أفعال ، بدليل أن الله يقول :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل . والقول عمل ، والفعل عمل . ومادام هناك قول وفعل من عامة أهل الكتاب فى ذلك المجال لذلك يقول الحق : « لبئس ما كانوا يعملون » .

وقال عن الربانيين والأحبار : « لبئس ما كانوا يصنعون » لإيضاح الفرق بين من يعمل ومن يصنع ، فمن فُتق ثوبه وجاء بإبرة وخيط ليصلحه ، فهو خائط ، ولكن الذى يحترف ذلك هو « الخيَّاط » ؛ فصاحب الحرفة هو من يأخذ وصفها لأنه يجيدها ، أما الذى يمارسها لمرة واحدة فلا يأخذ من الصنعة إلا بقدر ما يدل على أنه لم يتقنها .

وكان الربانيون والأحبار قد اتخذوا أمر الدين والكهنوت صناعة بتجويد كبير . وذلك هو الذى جعل السلطة التقنينية فى العالم كله تنتقل من منهج السماء إلى منهج الأرض . وحينما نرجع إلى تاريخ القانون نجد أن الأصل فى التقنين كان من الكهنة الذين كانوا منسوبين إلى الله وخبر السماء ، وهم الذين كانوا يحكمون بين الناس ، لكنهم أفسدوا ، ورأى المجتمع أنهم يحكمون فى قضية بحكم ، ثم فى قضية مشابهة يحكمون بنقيض الحكم السابق ، وأنهم ارتشوا فى سبيل ذلك ، ومايزوا بين الناس ، وعرف الناس أن الكهنة غير مأمونين على العدالة ؛ لذلك تركوا الكهنة وبدأوا يضعون

قوانين خاصة بهم بعيدة عن حكم الكهنة . وهكذا انتقلت المسألة من تقنينات وحكم الكهنة إلى المجتمع الذى لم يعد يتمسك بالدين بسبب انحرافات أحكام الكهنة عن العدل وأنهم باعوا الأحكام لصالح من يدفع أكثر ، أو يحكمون لصاحب النفوذ . وهكذا صارت المسألة صناعة لهم . وبئست تلك الصناعة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ونعرف أن اليد جارحة حرة الحركة تنفعل يميناً وتنفعل شِمالاً وتنفعل إلى أسفل وإلى أعلى ، ولها من الأصابع ما جعل الله لكل أصبع مع زميله مهمة . وليلاحظ كل منا أصابعه فى أثناء أى عمل ، سيجدها تتباعد وتتقارب بحركة إرادية منسجمة لتؤدى المهمة . وخلقة الأصابع بالمفاصل والعُقل وحجم كل عقلة يختلف عن الأخرى ؛ لتؤدى المهمة بانسجام . وساعة تعوّق هذه الجارحة عن أداء مهمتها فأنت بذلك تكون قد غللتها ، أى ربطتها عن التصرف المطلوب منها .

ومعنى قوله : « يد الله مغلولة » أى أن يد الله ـ والعياذ بالله ـ مشلولة الحركة .

وقد قالوا ذلك قبل ظهور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل زحف الإسلام عليهم لينقض باطلهم . وحدث أن تفرغوا لصناعة آلات الحرب وبناء الحصون والزراعة ، وانشغلوا عن الزراعة فخابت محاصيلهم وجاء وقت الحصاد فلم يجدوا ، فقال « فنحاص » وهو واحد من اليهود : لماذا قبض الله يده عنا ؟ إن يد الله مغلولة . ونلحظ أن الذى قال ذلك هو شخص واحد ، ولكن الحق يقول هنا : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » . ومعنى ذلك أن « فنحاص » عندما قال ذلك سمعوه وسرّهم ما قال ، ووافقوه عليها .

أو أنهم حينما شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الهجرة وقد آخى بين المهاجرين والأنصار ، وكانت تمر على المسلمين الليالى دون طعام فيراهم اليهود فيتندرون على تلك الحال ويقولون : إن يد الله مغلولة عن محمد وآله .

أو أنهم قالوا : إن يد الله مغلولة فى الآخرة عن عقابنا ؛ لأنه سيعقابنا أياماً معدودة . والذى يبيح لنفسه أن يجعل الله منفعلاً لأحداث خلقه إنما يكفر بالله ؛ لأنه يُنزِلُ الله من مكانته . فإذا كانت يد الله مغلولة ، فهذا الرباط والغَلُّ والمنع يكون من خَلْق الله . وكيف يقدر خلقٌ من خلق الله أن يربط يد الله ؟ . لقد اجترأوا على مقام الألوهية وهذا من سوء الأدب ، تماماً كما قالوا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وحينما قالوا : « يد الله مغلولة » وردّ الحق عليهم : « بل يداه مبسوطتان » وقال قبلها : « غلت أيديهم » فهل يدعو الحق عليهم ؟ طبعاً لا ؛ لأنه هو المصدر الذى يتجه إليه الخلق بالدعاء وهو القادر على كل الخلق . ولكن الحق حين روى ما قالوه إنما ينبه الذهن الإيمانى الذى يستقبل كلامه أنه ساعة يجد وصفاً لا يناسب الله فعليه أن يدفع هذا الكلام حتى قبل أن يرى الرد عليهم .

« وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم » وهذا يعلمنا أننا إذا سمعنا وصفاً لا يليق فلا بد أن ندحضه ؛ لأن الحق لا يدعو على عبيده ؛ لأن الدعاء هو أن يرفع عاجز طلبه إلى قادر لينفذ المطلوب له .

إذن فإن قالها الحق فهى إما أن تكون خبراً ، وإما تعليماً لنا ، فإذا كانت خبراً نلحظ أن الله كتب عليهم البخل ساعة قالوا هذا ومنذ لحظة هذا القول ، وإن كان القصد هو تعليمنا ، فنحن نتعلم الأدب الإيمانى ، ونرد أى وصف لا يليق بجلال الله .

وهذه المسألة لها نظير ، فعندما علم الحق سبحانه وتعالى تشوّق رسوله والمؤمنين أن يذهبوا إلى المسجد الحرام ؛ قال لرسوله :

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الفتح)

وهل هذا إخبار من الله ، أو هو تعليم لنا ؟ . إنه تعليم لنا أن نفعل ذلك عندما نشتاق إلى فعل . وكذلك هنا : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » لذلك يعلمنا سبحانه أن نقول : « غلت أيديهم » مثلما علمنا أن نقول : « إن شاء الله » حتى ننسب كل قدر لله . وقد حاول الفلاسفة أن ينسونا تقدير المشيئة ، فقالوا : إن الله خلق النواميس والأكوان وجعل لها قوانين تعمل فى الكون . وهل زاول الحق سلطانه ساعة خلق النواميس ثم ترك الأمور لذاتها ؟ لا ؛ لذلك جاء سبحانه بمعجزات تخرق النواميس ليدلنا على أن النواميس لم تأخذ هى الكلمة للتصرف بل إن يد الله مازالت فى كونه ، فالنار ـ على سبيل المثال ـ التى تحرق يأتيها الأمر :

﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأنبياء)

والماء الذى يُغرق يأتيه الأمر :

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وقال :

﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾

(من الآية ٧٧ ، ٧٨ سورة طه)

والعصا التى خلقت من غصن شجر جاف ، تتحول إلى أفعى ، أى نقلها كلها

إلى جنس آخر ، من نباتية إلى حيوانية . هذا هو خرق النواميس .

ويقول الحق عن هؤلاء الذين ادعوا أن يد الله مغلولة : « غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » أى أنهم طردوا من رحمة الله ، لأنهم هم الذين بشروا على أنفسم وقالوا إن يد الله مغلولة ، وسبحانه قادر أن يمنع عطاءه عنهم .

ويتابع سبحانه : « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » ، وهو يعطى من يريد ، وكلمة « اليد » فى اللغة تُطلق على الجارحة وتطلق على النعمة ، فيقول الرجل : إن لفلان علىّ يداً لا أنساها ؛ أى أنه قدم جميلاً لا يُنسى . واستعملت اليد بهذا المعنى لأن جميع التناولات تكون باليد . وتُطلق اليد ويراد بها الملكية فيقول سبحانه :

﴿ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

أى الذى يملك أن يُنكِح المرأة ، هو الذى يعفو . وفى القتال نجد القول الحكيم :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

أو تطلق اليد على من له ولاية فى عمل من الأعمال ، لذلك نجد الحق قد قال :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

وآدم هو الخلق الأول وكلنا من بعده مخلوقون بالتناسل من الزوجية . وقدكرّم الله الإنسان بأنه خلقه بيديه ، وخلق كل شيء بـ« كن » . إذن : كلمة « اليد » تطلق على معانٍ متعددة . والرسول يقول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم »[1] .

أى عندما تجتمع الأيدى تكون هى اليد القادرة . وعندما نقرأ كلمة « يد الله » فهل نحصرها فى نعمته أو ملكه ؟

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والبيهقى فى السنن الكبرى والحاكم فى المستدرك والمتقى الهندى فى كنز العمال وابن كثير فى التفسير .

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾

(سورة الملك)

والله سبحانه وتعالى أعلم بذاته فلنقف عند الوصف ، نعم له يد ، وله يدان ، وإياك أن تتصور أن كل ما يتعلق بالله مثل ما يتعلق بك ؛ لأن الأصل أن لك وجوداً الآن ، ولله وجود ، لكن وجودك غير وجود الله ، وكذلك يده ليست كيدك . حتى لا نشبه ونقول : إن له يداً مثل أيدينا ، فلنقل إن المراد باليد هو القدرة أو النعمة ، والهدف الراقى هو تنزيه الحق . وهناك من يقول : إن لله يداً ولكن ليست كأيدينا لأننا نأخذ كل ما يأتى وصفاً لله على أنه « ليس كمثله شىء » والتأويل ممكن . مثلما بيّن الحق : أنه قد صنع موسى على عينيه .

وتأخذ أى مسألة تتعلق بوصف الله إما كما جاءت ، بأن له يداً ولكن ليست كالأيدى ، وله وجود لا كالوجود البشرى ، وله عين ليست كالأعين ، ولكن كل وصف لله نأخذه فى إطار « ليس كمثله شىء » . وإما أن نأخذ الوصف بالتأويل ، ويراد بها النعمة ويراد بها القدرة . ويقول الحق : « بل يداه مبسوطتان » والمراد هنا هو « النعمة » . ولم يكتف سبحانه بأن يرد بأن له يداً واحدة تعطى . لا ، بل يرد بما هو أقوى مما يمكن ، فهو يعطى بيديه الاثنتين ، وهو القائل :

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾

(من الآية ٢٠ سورة لقمان)

إنه يُعطى الظاهر ويُعطى الباطن . وإياك أن تقول تلك اليد اليمنى وتلك اليد اليسرى ؛ لأن كلتا يدى الله يمين . « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » أى أنه سبحانه لا يمكن أن يكون بخيلاً ، حتى وإن منع الحق فذلك منح وعطاء وإنفاق ؛ لأن الذى يطغى بنعمة ، قد يذهب به الطغيان إلى بلاء وسوء مصير ؛ لذلك يقبض سبحانه عنه النعمة ليعطيه الأمن من أن ينحرف بالنعمة . ولذلك نجد القول الحق فى سورة الفجر :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ ﴾

(سورة الفجر)

ورد الحق بعد ذلك بقوله : (كلا) .

فلا الإعطاء هنا للإكرام ، ولا المنع للإهانة . فكيف يكون الإعطاء دليل الإكرام وقد يعطيك الله ولا تؤدى حق النعمة ؟ وكيف يكون المنع دليل الإهانة وهو قد منعك من وسيلة انحراف ؟ إذن فهو قد أعطاك بالمنع - فى بعض الأحيان - إنه قد أعطاك الأبقىٰ وهو الهداية . إذن فمنعه أيضاً عطاء .

« بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » والناس تنظر دائماً إلى عطاء الله بعطاء الإيجاب ، ولا تنظر عطاء السلب أى المنع ، وهو أن يصرف عنك الحق مصرف سوء . وسبق أن ضربت المثل بالرجل الذى تحرى الحلال فى مصدر ماله ويتقى الله فى عمله ويأخذ دخله ويدير حركة حياته فى إطار هذا الدخل ، وقد يعود هذا الرجل إلى منزله فيجد حرارة الابن مرتفعة قليلاً ، ولأن ماله حلال وذرات جسمه تعرف أن ماله حلال ؛ لذلك يستقبل الأمر بهدوء ويعرض الابن على طبيب فى مستوصف خيرى بقروش قليلة ، فيصف الطبيب دواء بقروش قليلة ويتم شفاء الابن .

هذا الرجل يختلف حاله عن حال رجل آخر أتى بماله من السحت ، وساعة يرى حرارة ابنه قد ارتفعت نجد باله يدور بين ألف خاطر سوء ، ويدور الرجل بابنه على الأطباء ولا يصدق طبيباً واحداً .

الرجل الأول رزقه الله الاطمئنان بمنع هواجس الحِدَّة من قلبه وخواطره ، أما الرجل الثانى فهو ينفق أضعاف ما أكله من سحت . إذن « بل يداه مبسوطتان » أى أن هناك عطاء السلب . والعطاء الذى يحبه الإنسان هو عطاء المال وهو عطاء يذهب إلى الفانية . أما المنع فهو يمنع الإنسان من ارتكاب آثام . وبعد ذلك يأخذ الإنسان نعيمه فى الآخرة . ونحن نجد كثيراً من الناس تدعو ، ولكنهم لا يعلمون أن الله قد أعطى بالمنع .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لذلك يعطى الحق أحياناً أشياء يكون العبد قد ألح عليها ، وبعد ذلك يتبين الإنسان أنها شر ، كأن الحق ساعة منع الإنسان لفترة كان ذلك صيانة له .

« بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » إذن فكله إنفاق . وسبحانه ينفق كيف يشاء ، فلا يبخل أبداً حتى وإن منع ، فالمنع فى موضعه الصحيح هو عين الإنفاق ، وهكذا يكون عطاء الله عطاء النعمة ظاهرة كانت أو باطنة . فإن أردت بـ « اليد » القدرة فيدا الله مبسوطتان بالثواب لقوم وبالعقاب لقوم آخرين ، وهو سبحانه وتعالى يعطى لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم المناعة الإيمانية ضد كل متمرد عليه ، أو ضد كل متأبٍ ومستكبر من الكافرين أو من أهل الكتاب .

فكأنه سبحانه وتعالى يوضح : وطِّنْ نفسك يا محمد ولتوطن أمتك نفسها على أن هؤلاء الكفرة لن يكتفوا بالقدر اليسير والقليل من الكراهية لك ، بل كلما جاءت لك نعمة بزيادة الهدى من الله سيحسدونك ، وسيبغضونك ، وسيزداد تمردهم وحقدهم عليك ، فوطن نفسك على ذلك . وفى هذا ما يعطى مناعة إيمانية ، يسد كل منافذ وسوسة النفس ويجعل النفس على استعداد لاستقبال ما يحدث حتى ولو كان من المكاره .

ولنقرب هذا الأمر من الذهن . لا تشبيهاً ولكن لمجرد تقريب الأمر من الذهن - ولله المثل الأعلى - لننظر إلى ما حدث فى أوروبا فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت انجلترا تخوض الحرب ضد النازية ، وكانت الأهوال تتساقط من الطائرات على المدن الإنجليزية . وجاء تشرشل ليقود الحرب فقال للإنجليز : إن الهول والصعاب هى التى تنتظركم فوطنوا أنفسكم على مواجهة الشدائد .

وإذا كان هذا قد حدث فى حرب بين شعبين ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وهو يعلم ضرورة التمحيص لأمته التى تحمل راية المنهج الكامل للهداية . كان لا بد إذن من أن يوطن نفس رسوله ونفوس المؤمنين معه على مواجهة الحسد والبغض والحقد والمكر والتبييت .

ويقول الحق : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » . ولا يأتى قول الحق : « بينهم » إلا إذا كان هناك طائفتان ، والمقصود إما الطوائف اليهودية فيما بينها ، وإما طوائف النصرانية فيما بينها ، أو بين اليهودية والنصرانية ، خصوصاً أن هذه الآيات مستهلة بقوله الحق : « يا أهل الكتاب » . فإذا كانت لليهود فالعداوة والبغضاء قائمة بين طوائفهم بعضها مع بعضها الآخر . وإذا كانت للنصارى فالعداوة والبغضاء حاصلان فيما بين طوائفهم ، وإن كانت بين اليهود كقسم وبين النصارى كقسم فهى مسألة ممكنة . وهذه العداوة والبغضاء لا تنتهى أبداً بل هى قائمة بينهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » وهذا خبر عما وقع فى حضن الإسلام ، ومثال ذلك خروج « بنى قينقاع » على العهد بعد أن جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق بنى قينقاع وقال لهم :

« يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا »[1] .

فرفضوا وقالوا : يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا . فنزل فيهم قول الحق :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكان « بنو قينقاع » أول اليهود الذين نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين موقعتى بدر وأحد .

وكان سبب ذلك أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ـ بضاعة ـ لتبيعها فى سوق « بنى قينقاع » ، فجلست إلى صائغ يهودى بالسوق ، وحاول اليهود إجبارها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، وهى

---

(١) رواه ابن إسحاق وابن كثير فى التفسير .

لا تشعر به ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها فصاحت المرأة . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، وحدثت بذلك الفتنة ، لكن الله أطفأ الفتنة وأجلى « بنى قينقاع » ، ثم « بنى النضير » وكان لهم ـ قبل ذلك ـ التجمع القوى فى المدينة بالثراء والعلم . وقاتل المسلمون « بنى قريظة » وأجلوا أهل خيبر ، وتملك واستولى المسلمون على وادى القرى . حدث هذا فى حضن الإسلام فماذا حدث فى غير حضن الإسلام ؟

لقد رأيناهم أيام المجوس وقد أهلكهم بختنصر ، وكذلك تيتوس الرومانى . ورأيناهم مقطعين فى الأرض فى كل زمان ومكان . وقد يقول قائل : إذا كان الحق قد قال : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » فلماذا لا تنطفىء الحرب الحالية بيننا وبينهم ؟ ونقول : إن الذى يطفىء نيران الحرب لا بد أن يكون من جنود الله . وعندما نصبح جنوداً لله فلسوف تنطفىء هذه الحرب .

والمثال القريب منا هو انتصارنا فى العاشر من رمضان . لقد كان انتصارنا بالعمل تحت راية « الله أكبر » وقد جزى الله بالخير الضباط والجنود الذين كانوا يعلمون أن العتاد فى جانب العدو كان أكبر من عتادنا ، لكن النتيجة كانت فى صالحنا لأننا دخلناها تحت ظل « الله أكبر » .

أما الذين ادعوا أنه انتصار حضارى فنقول : عن أى حضارة تتحدثون ؟ والإسلام هو نبع الحضارة المتوازنة ، وليس الادعاء بالحضارة هو الخروج عن منهج الله . إننا إن ثبتنا على مبدأ « الله أكبر » لا كشعار ولكن كتطبيق لأطفأ الله نيران أى حرب .

ويترك سبحانه فى كونه السنن التى تعطى التجارب الواقعية لمن يتشكك فى الإيمان . ومثال ذلك ما حدث من مخالفة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض المقاتلين فى غزوة أحد فكادت الهزيمة تلحق بهم . وفى غزوة حنين قالوا : لن نغلب اليوم من قلة ولذلك يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وقد ترك الله هذه السنن الكونية ليلفت أى غافل عن الدين أن الخصم ينال منه ؛ فالغفلة تؤدى إلى الانحراف ، والانحراف لا يمكن أن يؤدى إلى النصر . هكذا يحذر الحق معسكر الإيمان . أما معسكر الكفر فالحق يريد له الذلة ، فيعطيه فى بعض اللحظات نصراً على المؤمنين فى أوقات غفلتهم ، وما أن يُفيق المؤمنون من الغفلة حتى تأتى ضربتهم لمعسكر الكفر . وتأتى الضربة وقت أن يكون معسكر الكفر فى علو وغلو . ولنا فى المثل الريفى الإيضاح .

يقول المثل : لا يقع مؤمن من على حصيرة ، والمقصود أن التواضع يحمى الإنسان من وهم العلو والكبر ؛ لأن الذى يقع هو الذى يتخيل أنه علا فى الأرض ولذلك يعميه الله عن الحرص ، ويأتى قوله :

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

أى أن يتم العصف بكل شيء . وأهل السياسة عندما يريدون أن ينزلوا بخصومهم العقاب يرفعون خصومهم ويمدون لهم فى حبال الصبر والإمهال حتى يعلو الخصم كثيرا ثم ينكشف ويظهر سوء سلوكه فيقع أمام الناس . ولذلك نجد القرآن صريحاً مطلق الصراحة فى هذا المجال :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فسبحانه يمد ويملى لهم ليأخذوا وليبنوا وليترفوا ، وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شيء . وأمثلة ذلك فى الحياة كثيرة .

لقد رأينا الدول القوية تساعد خصومنا ، واتفق المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى لسنوات على مساعدة الخصم ، وقلنا لهم : أنتم الآن فى مقام : (فلما نسوا ما ذكروا

به) . وأنتم أيها الخصوم قد تنتقلون إلى مقام : (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) . وسوف تنتقلون من بعد ذلك إلى مقام : (أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) .

وقد حدث أن سقط الاتحاد السوفيتي بأكمله ، وأخذهم الله بغتة بأيدى أناس منهم ، وكثيراً ما تحدث الكوارث لمن يضطهد أهل الإيمان . إذن : فلا داعى لأن يغتر أحد بما وصل إليه .

ويقول الحق :

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

وهم مكبوتون دائماً . فالحق لايُمكِّنهم من كل أهوائهم . لذلك يسعون فى الأرض فساداً بأساليب الاختفاء . ومن يقرأ « بروتوكولات صهيون » يجد اعترافاتهم بأنهم أصحاب النظريات التى تقود إلى الأفكار الخاطئة كالماركسية والوجودية والداروينية وهى أمور مرتبة من قبل ليظهر أثرها الضار فى الشعوب غير اليهودية . أما اليهود فقد حصنوهم ضد هذه المبادىء الفاسدة ، هكذا أرادوا التبييت ضد العالم ، وهكذا يكون سعيهم بالفساد بين الناس . وإذا نظرنا إلى الانحراف الحالى فى الكون فإننا نجدهم وراءه .

فالرأسمالية الشرسة من اليهود . والشيوعية الشرسة من اليهود . وهؤلاء الذين يدعون أنهم أنبياء من بعد رسول الله إنما يحدث لهم ذلك بفعل اليهود ، وكذلك الجمعيات التى تتخفى وراء أسماء « الماسونية والروتارى والليونز » ، كلها من اليهود . ومع ذلك نتلفت إلى قوم يقولون إنهم متحضرون ويفخرون بأنهم أعضاء فى الروتارى ، ونسألهم : ماذا تفعلون فى تلك الأندية ؟ . يقولون : نقوم بالأعمال الخيرية والخدمات . ونقول لهم : لماذا لا تفعلون أعمال الخير باسم الإسلام ؟ . وهل تظنون أن هناك خيراً يأتى من خارج الإسلام ؟!

ويكتشف الكون كل فترة من الزمن أن الفساد الذى فيه إنما هو بسبب هؤلاء الناس وبسبب مكائدهم ؛ لذلك يصيبهم الحق بالكوارث كل فترة من الزمن ؛ لأنهم يسعون فى الأرض فساداً . وهذا السعى فى الأرض بالفساد إنما يأخذ صوراً متعددة ، مرة يأخذ شكل النظريات العلمية ، ومرة يأخذ شكل التطرف فى الأنظمة السياسية من رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة ، وكل ذلك تخريب لحياة الناس . والناس حين تجرب نظاماً فهى تقيس نجاحه أو فشله بمقدار ما يعود عليها من خير أو من شر .

لقد كانت روسيا ـ على سبيل المثال ـ تمد العالم بالقمح من سيبيريا . ولكنها الآن تشكو قلة الزراعة وتنتظر من يبيع لها القمح . وعلى الجانب الآخر نجد الرأسمالية الشرسة تطحن أبناء تلك البلدان فى الحياة غير المسئولية باسم الحرية . وقد شهدت ألمانيا ـ مثلاً ـ قسمة عاصمتها القديمة « برلين » إلى قسمين ، ولكل قسم حياة ، وشهدت إعادة التوحيد لأرض ألمانيا بما يصاحبه من مشكلات جمة .

وقد تذهب بعض المجتمعات إلى أيدى أناس لهم شراسة أشد كالحزب الحاكم فى كل دولة لا تتبع منهاجاً متوازناً ، ونجد رجال هذا الحزب كهيئة تأخذ الدعوة ونقيض الدعوة حتى لا يتمرد عليهم أحد ، فعَرق العامل فى أيديهم ومصنع الرأسمالى فى أيديهم وهم يعيشون حياة الأمراء ولا يجرؤ أحد على أن يسألهم .

ومثال ذلك أيضاً نظرية الوجودية التى تدعو كل إنسان ليثبت وجوده ، وصاحبتها موجة من الانحلال اللا مسئول ، ذلك أنهم لم يفهموا إثبات الوجود على أساس أنه مسئولية العمل الصالح فى الكون ، ولكن فهموا الأمر على أنه انطلاق غرائز على الرغم من أن المفترض فى كل إنسان إذا أراد أن يمد يده ، فعلى يده أن تتوقف حيث يوجد أنف إنسان آخر . لكن هؤلاء الناس عاملوا الناس كأطفال ، تماماً كما يأتى الأب لابنه بلعبة يلعب بها ولتكن آلة تليفون ، يقدمها الأب لابنه ليستغل طاقته قبل أن يكون مكلفاً ، ولكن الأب لا يسمح للابن أن يلعب بآلة التليفون الحقيقية ، وهؤلاء الناس يأخذون الكبار إلى اللعب واللهو حتى لا يتدخل الكبار فى أمور الجد .

ومثال ذلك لعبة كرة القدم ، إنهم ينفخون فيها بالبطولة وينقلون قوانين الجد إلى اللعب . وقبل المباراة بثلاث ساعات تجد قوات الأمن قد سدّت الطرق إلى الملعب

الذى يشهد المباراة . ولو أخطأ الحكم خطأ تافهاً فإنّ الجمهور يثور ويهيج . لكن عندما يخطىء الحكام والحكومات ألف خطأ فلا أحد يتكلم ، لماذا ؟ . لأنكم نقلتم قوانين الجِد إلى اللعب واللهو وتركتم الجِد بلا قوانين .

مثال آخر : نجد كل فاكهة أو محصول أو صناعة فى الوجود يقيمون لها الاحتفالات ويتوجون عليها ملكة ، ملكة الكروم ، ملكة القمح ، ملكة الأزياء ، وكل ذلك من أجل إبراز مفاتن النساء ، ولا يوجد تكريم للعقول التى تنتج . وعلى سبيل المثال نجد ملابس الشباب الرياضية تغطى جسد الشباب من الذكور ، لكنهم لا يفعلون ذلك بالنسبة للإناث ، لماذا لا يغطون أجساد البنات أيضاً أثناء ممارسة الرياضة ؟ . والغرض ـ بطبيعة الحال ـ هو دغدغة أعصاب الناس ، وكل ذلك إفساد فى الأرض .

« ويسعون فى الأرض فساداً » ومن العجيب أن سعيهم للفساد يلبسونه ثوب الحق وثوب الارتقاء وثوب الحضارة . ويأتى أناس من المسلمين ويشجعون مثل هذا الفساد ، وينسون الحقيقة البديهية وهى : « والله لا يحب المفسدين » فسبحانه وتعالى قد خلق الكون على هيئة الصلاح ، فإذا استقبلت خير الله بصلاح الوجود الذى طرأت أنت عليه فأنت تحسن حياتك وعملك ، أما إن لم ترد صلاح الكون فعليك ألا تأتى بفساد .

والحق خلق الكون على نظام دقيق ، ونرى ذلك فى الأشياء التى لا دخل للإنسان فيها ، ونجدها فى منتهى الدقة والاستقامة ، الشمس والكواكب والفصول والرياح ، لكن الفساد يأتى عندما تدخلت يد البشر بغير منهج الله . إذن فالفساد هو الذى يصرف الناس عن منهج الله . ونجد بعضاً من الناس يركبون رءوسهم ويظنون أن ما يفعلونه هو الصلاح ، فينطبق عليهم قول الحق :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذا هو حكم الحق فيهم . . إنهم يدّعون الصلاح ، ولكن يجب عليهم أن يرتدعوا فلا يفسدوا . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَٰبِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾

هذا القول يدل على أن أهل الكتاب جميعاً فى غير حظيرة الإيمان ، والحق يوضح لهم : إن فسادكم كان سابقاً على ظهور الإسلام ، ولهذا جاء الإسلام ليخرج الناس من فسادكم أنتم . لقد كان لكم منهج من الله ولكنكم حرّفتموه ، وإن لكم رسلاً أرسلهم الله إليكم ولكنكم أسأتم إليهم ، وطقوساً دينية ابتدعتموها . وجاء الإسلام لا ليهدى الملاحدة فقط ، ولكن ليهدى أيضاً الذين أضلهم أرباب أهل الكتاب . وكانوا من بعد الإسلام يحاربون الإسلام بالاستشراق ، وكانوا يؤلفون الكتب ليطعنوا الإسلام . لكنهم وجدوا أن الناس تنصرف عنهم ؛ لذلك جاءوا بمن يمدح الإسلام ويدس فى أثناء المديح ما يفسد به عقيدة المسلمين .

إننا نجد بعضاً من المؤلفات تتحدث عن عظمة الإسلام تأتى من الغرب ، ولكنهم يحاولون الطعن من باب خفى كأن يقولوا : إن محمداً عبقرى نادر فى تاريخ البشرية ويبنون كل القول على أساس أن ما جاء به محمد هو من باب العبقرية البشرية ، لا من باب الرسالة والنبوة . ونجد مثالاً على ذلك رجلاً أوروبياً يؤلف كتاباً عن مائة عظيم فى العالم ويضع محمداً صلى الله عليه وسلم على رأسهم جميعاً . ونقول له : شكراً : ولكن لماذا لم تؤمن أنت برسالة محمد بن عبدالله ؟

إن شهادتهم لنا لا تهمنا فى كثير أو فى قليل . لقد هاجمونا من قبل بشكل علنى . ويحاولون الآن الهجوم علينا بشكل مستتر . وهم أخذوا بعضاً من أبناء البلاد الإسلامية ليربوهم فى مدارس الغرب وجامعاته من أجل أن يجعلوا من هؤلاء الشباب

دعاة لقضاياهم فى إفساد المسلمين ، ولم ينجحوا إلا مع القليل ؛ لذلك نقول لشبابنا : احذروا أن تكونوا المفسدين وتدعوا أنكم المصلحون ، فلا تأخذوا المسألة بالطلاء الخارجى ولكن انظروا إلى عمق القضايا ، وتذكروا قول الحق :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

علينا أن نرقب كل فساد فى الكون ، وسنجد أن لأصابع أعداء الإسلام أثراً واضحاً . لقد كان من اجتراء الصهيونية إلى حد الوقاحة أن تقول : ليطمئن شعب الله المختار ، فثمانون فى المائة من وسائل الإعلام فى العالم خاضعة لإرادتنا ولا يمكن أن يُعلم فيها إلا ما نحب أن يُعْلَم . والحق سبحانه وتعالى عندما يقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فسبحانه وتعالى بهذه الآية يقدم الفرصة لهؤلاء الناس حتى يدخلوا إلى حظيرة الإيمان ويستغفروا الله عن خطاياهم الماضية وليبدأوا حياة جيدة على نقاء وصفاء بدلاً من التحريف والتضليل . وليعرفوا معرفة حقة قوله تعالى فى رسوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

هذا القول يجب أن يتهافت إليه غير المسلمين مع المسلمين ليأخذوا من ينبوع الرحمة ، وفى ذلك تصفية عقدية شاملة تتيح لكل إنسان أن يبدأ طريق إصلاح نفسه .

وقوله الحق : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا » إنما يدعوهم إلى الإيمان ، والتقوى . والإيمان محله القلب ، أى أن يستقر فى القلب الاعتقادُ بوجود إله أعلى ، وأن نؤمن بالبلاغ عن الإله الأعلى بواسطة الرسل ، وأن نؤمن بالرسل وبالمناهج التى جاءوا بها ، وأن نتبع هذه المناهج ، وأن نؤمن بأن المرجع إلى الله ، هذا الإيمان

ينعكس على الحركة الإيمانية فى الأرض ، ويحقق الإيمانُ مع التقوى اتجاهَ الإنسان إلى الصالح من العمل . وأن يبتعد عن غير الصالح من العمل اتباعاً لقول الحق :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

ولذلك نجد قولاً لأحد العلماء الصالحين من العرب هو : إن الإيمان كالعُمُد والأعمال كالأطناب . وعرف أن كل بيت له أساس من الأعمدة ، وله أوتاد تثبته . والخيمة العربية هى بيت من القماش السميك على عمود من الخشب وتشد الخيمة إلى الأوتاد بحبال ، وهذه الحبال هى الأطناب ولا تقوم الخيمة إلا إذا ربطت بأحبال وشدت إلى أوتاد . وكان العربى يفك هذه الخيمة ، ويحملها على ظهر بعيره لينصبها فى أى مكان . وكان العربى يختار القماش الذى إن نزل عليه المطر ، يمتص الماء ويمنع سقوطه داخل الخيمة .

إذن فالإيمان عمود ، والأعمال أطناب . وهكذا تكون دعوة الحق لأهل الكتاب حتى يؤمنوا ويتقوا الله حتى يكفر عنهم سيئاتهم ، والكفر ـ كما نعرف ـ هو الستر والتغطية والعفو هو محو الأثر ، كأن الحق سيغطى على سيئاتهم ثم يمحو أثرها وذلك بأن يعفو عنها ؛ لأن الإسلام إنما جاء رحمة يجب أن تستغل ليكفر الحق عن سيئاتهم التى ضللوا بها شعوبهم .

لقد كان من الواجب عليهم أن يعرفوا أن مجىء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فرصة للتراجع عن الكفر والبهتان . وقد جاء صلى الله عليه وسلم ليقيم تصفية عقدية فى الكون ، فالملحد يجب عليه أن يتعرف على خالق الوجود ويؤمن به ، والمبدل لمنهج الله ينبغى أن يعود إلى منهج الله . وتلك هى التصفية العقدية الشاملة . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم

مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)

أى أنهم لو طبقوا التوراة والإنجيل دون تحريف ، وآمنوا بالقرآن لكان خيرا لهم . والتوراة كتاب اليهود ، والإنجيل كتاب عيسى عليه السلام ، وقد أنزل الله بعد ذلك الكتاب الجامع المانع وهو القرآن الكريم ، وأراد لهم الحق بالإيمان بما جاء فى التوراة والإنجيل من بشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الإيمان بالتوراة والإنجيل - من قبل تحريفهما - إنما يقود إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزله الله إليه. واليهود - كما عرفنا - هم الذين توعدوا العرب بمجىء رسول الله ، لكن العرب سبقوهم إلى الإيمان بمحمد بن عبدالله « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد كانوا - أهل كتاب - يملكون المدخل الطبيعى للإيمان بالقرآن وهو الإيمان بالتوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح ؛ لأن فيهما نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان سيدنا عبدالله بن سلام وكان من أحبار اليهود يقول : « لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد » . وحينما يعد الحق أهل الكتاب إن آمنوا واتقوا بأن يكفر عنهم السيئات ويدخلهم جنات النعيم ، فسبحانه لن يكفر عنهم سيئاتهم ويقيهم من عذاب النار فحسب ، ولكن سيمحو هذه السيئات ويدخلهم الجنة . وسبحانه هو الأعلم بهم ، ويعلم أن منهم الماديين المرتبطين بالدنيا لذلك جاء لهم بخير الإيمان فى الدنيا فقال :

« ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » فسبحانه يمد لهم أيضاً يد الأسباب فى الدنيا ، والمؤمن هو من يرتقى فى الأخذ بالأسباب فيأخذ نعيم الدنيا والآخرة ، أما الكافر فيأخذ الأسباب دون أن يشكر الخالق عليها .

لقد أراد الحق لأهل الكتاب أن يحسنوا الإيمان أولاً بصحيح التوراة وبصحيح الإنجيل حتى يكون ذلك هو المدخل الطبيعى للإيمان بالقرآن ، فهذا هو السبيل إلى تكفير السيئات بألا يدخلوا النار بل ويدخلون الجنة فى الآخرة . وهم بالإيمان لا يأخذون خير الآخرة فقط بل يأخذون خير الدنيا أيضاً ؛ لأن الحق لا يضن على مجتهد فى الأسباب ، وهو القائل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فمن بقى منهم على الكفر يأخذ من أسباب الدنيا ولكنه لا يأخذ أبداً من عطاء الآخرة :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وبذلك يوضح الحق مصير أهل الكفر فى الآخرة أولاً ، ويوضح من بعد ذلك مصيرهم فى عاجل الدنيا ، فإن أخذوا بالأسباب أعطاهم الله نتائج الأسباب ، وهو سبحانه الذى يحتفظ بطلاقة القدرة ، فقد يعطل الأسباب ويسلب الأشياء خواصها ، فالمزارع قد يأخذ بكل الأسباب من حرث للأرض وتسميد لها وانتقاء لسلالة البذور ، ولكنَّ إعصاراً قد يهب فيقتلع كل شىء أو فيضاناً يغرق الزرع ، أو حشرة فتاكة كدودة القطن تأكل المحصول . إذن ، فالأسباب وراءها مُسَبِّبٌ له طلاقة القدرة ، وسبحانه هو الذى وضع القوانين الكونية ، وهو ـ أيضا ـ الذى يسلبها خواصها .

فأنت أيها الإنسان سيد الكون بإرادة الله ومقهور فى كثير من الأقضية لقهرية الجبار . صحيح أن لك بعض الاختيارات فى بعض الأشياء ، ولكن هناك قهريات فى أمور لا دخل لك فيها ، فالمرض قد يقتل ، والحادث المفاجىء قد يقتل ، وتلك أشياء من قهريات الله التى تخرج الإنسان عن الأسباب .

إن الحق سبحانه يرينا أن بلاداً كانت دائمة المطر ثم أصابها الجفاف ، لماذا ؟ لأن

الناس تغتر من رتابة النعمة ، ولذلك يمسك الحق الكون بيده ، وهو سبحانه لا يسلمه لأحد أبداً . لذلك يأتى فى بعض الأحادين ويقبض أسبابه حتى لا يفتن الإنسان بالأسباب ورتابتها .

وأمثلة ذلك فى حياتنا كثيرة ، نرى المزارع الذى يملك عشرات الأفدنة فتهاجمها الدودة فتأتى على الأخضر واليابس ، بينما جاره الذى لا يملك إلا قطعة يسيرة وقليلة من الأرض تطرح الخير كله لصاحبها ؛ لأنه دفع ما يسميه أهل الريف « غفرة الأرض » أى زكاتها . والدودة فى هذه الحالة تكون هى من جنود الحق فتأكل المال الباطل ولا تلمس المال الحلال .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ولذلك يقدم الحق أسبابه لمن يسعى فيها ، ويزيد للمؤمن . ويقول : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » والرزق ـ كما علمنا ـ قسمان : قسم مباشر وقسم يأتى بالرزق المباشر ، والرزق المباشر هو ما ننتفع به على الفور ، كطعام نأكله أو ماء نشربه ، أما الرزق الآخر فهو المال الذى قد نشترى به الرزق المباشر . وجاء سبحانه بأمور الحياة الواقعية حتى نفهم أن المنهج إنما نزل لينظم حركة الإنسان فى هذه الحياة ، والآخرة هى الجزاء على حسن العمل فى الدنيا .

وبعد أن وعدهم ـ سبحانه ـ بالجنة جزاءً للإيمان يمد لهم الأسباب فى الدنيا رخاءً وسعةً وترفاً وسعادة . ونجد من يسأل : وكيف يأكلون من فوقهم ؟ ونقول : إن الأكل هو المظهر الأساسى لحياة الإنسان ؛ لأن كل حركة يصنعها الإنسان هى فرع عن وجود حياته . ووجود حياة الإنسان يتوقف على ثلاثة عناصر مهمة هى الأكل والشرب والتنفس . فإذا ما أردنا استبقاء الحياة والتناسل فلا بد من توفير لهذه المصادر الثلاثة .

إننا عندما ننظر إلى ترتيب الثلاثة فى الأهمية نجد أن الإنسان قد يصبر على الطعام

شهراً . وقد يصبر على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام ، أما التنفس فلا يطيق الإنسان ألا يجد الهواء لمدة دقائق .

ومن رأفة الحق بالخلق أن جعل الحيازة لهذه الأنواع المقومة لاستبقاء الحياة تترتب حسب أهميتها . لذلك نرى من يملك على إنسان آخر طعامه ويتحكم فيه ، لكن الحق يجعل فى جسد الإنسان ما قد يقيته شهراً . ونرى أن الحيازة فى الماء أقل من الحيازة فى الطعام ؛ لذلك لم يُمَلِّكْها الحق إلا نادراً ؛ ذلك أن الإنسان لا يطيق الصبر على العطش إلا لمدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام . وأما الهواء فلم يجعله الحق ملكا لأحد على الإطلاق ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يستغنى عنه إلا بمقدار الشهيق والزفير ، ولا يستطيع الإنسان أن يدخره فى حجم رئتيه ؛ لذلك لم يأمن الحق أحداً من الخلق على ملكية الهواء .

وقوله الحق : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » مقصود به أن الاستقامة فى تطبيق منهج الله تُخْضِعُ الأسباب الكونية لهم ، أما إذا ما تمرد الإنسان على منهج الله فقد يعطيه الله زهرة الحياة الدنيا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فالنواميس الكونية لم تنعزل عن يد الحق .

لذلك يخاطب ـ سبحانه ـ الخلق خطاباً ، فإن انفعلوا للخطاب ، يسرّ لهم كل ما سخّره لهم فى الكون . وإن لم ينفعلوا فهو ممسك الأسباب ويمكنه أن يخرق قوانينها ، فلا الأرض ولا الهواء ولا أى شىء خرج عن طاعة الله ، فإذا ما تمردت جماعة على نعم الله أو على الله فسبحانه يجعلهم نكالاً لغيرهم ويقبض عنهم الأسباب .

والإنسان سيد هذه الكائنات فى هذا الكون ، وهو منفعل ـ أيضاً ـ بقدرة ربه وقد يمرض ، وقد يموت ، وقد ينكسر ، وقد يغرق ، فإذا كان الإنسان وهو المنفعل بـ« كن » من ربه فكيف حال الأشياء الأدنى منه ؟ . إنها أيضاً منصاعة بـ« كن » . والحق قادر أن يقول للأرض : كونى جدباً ، وهو القادر على أن يوقف المطر لأنه هو سبحانه الذى يجعل الأشياء تسير سيراً رتيباً . ألم يقل الحق سبحانه وتعالى فى خطابه لكل خلقه عن الأرض : (بأن ربك أوحى لها) . فإذا كان الحق قد أوحى للأرض

لتبرز الكنوز أو تحدث الزلازل ، فما بالنا بكل شيء آخر ؟. إن كل شيء إنما يسير بأمر الله ، ذلك أن كل شيء يسبح بحمد الله ، ولكن الإنسان لا يفقه لغات غيره من الكائنات : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

وخطاب الله لكل خلقه يفهمه المنفعل له من أى جنس من أجناس الوجود ، ولو علمك الله هذا الانفعال ، لسمعت لغة الكائنات الأخرى . مثال ذلك سيدنا سليمان عليه السلام الذى سمع قول نملة لبقية النمل :

﴿ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

وماذا قال سليمان من بعد ذلك ؟.

قال سليمان :

﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة النمل)

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)

والهدهد قال فى القرآن :

﴿ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن فكل كائن فى الوجود يعرف قضية الإيمان وقضية التوحيد . وكل من فى الوجود ينفعل لربه . وهكذا كل الأشياء التى تحفظ للإنسان حياته أو نوعه . فماذا عن حال من يتمرد على الله ؟. إنه سبحانه قد يقول للأسباب : انقبضى عنه . ونرى ذلك فى حال بعض البلاد على ألوان مختلفة ، فالبلاد التى تقع فى منطقة يعرف عنها أنها دائمة المطر ، يخرق الله طبيعة البيئة فتصير إلى جفاف ، وغيرها التى تستطيع أن تصل إلى الفضاء الخارجى . لا تقدر على مواجهة إعصار ، وذلك ليتأكد لنا أن يد المكوّن ـ سبحانه ـ فوق أسباب الكون .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » أى أن يأتى الخير من كل

ناحية . فإذا كان يراد بالأكل الأكل المباشر ، فالمطر هو الذى ينزل من أعلى يروى الأرض فيخرج الزرع ، وكذلك النخل يعلونا ويأتينا بالتمر ، وكذلك أشجار الفاكهة من برتقال وتفاح وغير ذلك . أما ما تحت الأقدام فهى الخضراوات ، والفواكه التى تنمو دون أن يكون لأى منها ساق على الأرض كالبطيخ والشمام وغير ذلك .

ولنا فى سقوط الفاكهة من على أشجارها العالية بعد تمام النضج الحكمة البالغة ، فالرزق الذى طاب وإن لم تسع إليه يأت إليك تحت قدمك .

وإن توسعنا فى فهم قوله الحق : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . فلله أسرار فوق الأسرار ، وله فيما تحت الأرض أسرار . ألَا نأخذ كل شىء يعيننا على الحياة من طبيعة الأرض سواء أكان حديداً أم نحاساً أم بترولاً ؟ . وهكذا نجد أن كل شىء فى الوجود يخدم بقاء نوع الإنسان أو استبقاء حياته هو من عطاء الله .

إذن فلو أن أهل الكتاب أقاموا التوراة والإنجيل والقرآن وساروا على المنهج لوهبهم الله كل خير . ويؤكد الحق هذا المعنى فى آية أخرى فيقول : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .

ونرى أن الحق قد أفاء على بعض الناس من النعمة الشىء الواسع والكثير ومن بعد ذلك يطغى أهلها بالنعمة فيمهلهم ربنا إلى أن يعلو أمرهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وحياتنا المعاصرة خير شاهد على ذلك ؛ فكل بلد أخذت نعمة الله لتحاج بها الله وتكون ضد منهج الله نجدها تبوء بالفساد . ويأتى بأس أهلها فيما بينهم شديداً ويخربون بيوتهم بأيديهم . وكم من بلاد كانت متعة الناس أن يذهبوا إليها للترف أو الانفلات . ثم يأتى بأس أهلها بينهم وتخرب بأيدى أبنائها . وفى واقع الكون ما يؤيد صدق ذلك ، وكأن الحق يقول لنا : اعتبروا يا أولى الأبصار .

ويقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

والمراد بالقرية ليس قرية الريف التى نتعارف عليها اليوم ؛ لأن القرية فى عرف العربى القديم هى المكان الذى يقابل العاصمة . وكانت البيئة العربية قديماً بيئة « التبدّى » أى أنهم يقيمون فى البادية وينتقلون من مكان إلى مكان ، ولم يكونوا متوطنين فى مكان واحد . وكانت عاصمة البدو هى القرية التى تتكون من عدد صغير من البيوت . ولذلك يسمى القرآن الكريم « مكة » بأم القرى . ويضرب الله مثلاً بالقرية الآمنة المطمئنة التى يأتيها رزقها واسعا من كل مكان ، أى أن خيرها ليس ذاتياً ولا نابعاً منها ولكن يأتيها من كل مكان . وفى العصر الذى نعيشه نجد أن خير الدنيا يصب فى قلب بعض القرى ، وما إن يكفر أهل القرية بأنعم الله فما الذى يحدث ؟

﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

وهذا واقع نراه فى كثير من البلاد التى أخذت نعمة الله فبدلتها كفراً فأحلوا قومهم دار البوار . ويرينا سبحانه القرى التى يلبسها الحق لباس الجوع والخوف . وعندما ننظر إلى قول الحق : « لباس » نرى أن الجوع له لذعة ، واللباس له شمول ويلفهم الجوع كما يلفهم الثوب ، وكذلك الخوف فتصير كل جارحة فيهم خائفة : أى أن الحق سلط عليهم الجوع فلا يجدون موادّ الاقتيات . وكذلك الخوف يأتيهم فإما أن يكون الخوف بسبب بأسهم فيما بينهم لأن عداوة بعضهم بعضا شديدة ، وإما أن يكون الخوف من عدو خارج عنهم . وهذا واقع معاصر .

وكيف يكون الكفر بنعم الله ؟ الكفر بنعم الله إما أن يكون بمعنى ستر النعمة . واستعمالها فى معاصى الله ، ومثله مثل الكفر بالله أى ستر وجود الله ، وقد يكون الكفر بنعمة الله بالتكاسل عن استنباط النعمة من مظانها . وفساد العالم الآن يأتى من أناس كسالى عن استنباط نعم الله المطمورة فى كونه ، وأناس يجدّون فى استنباط نعم الله ويحبسونها لأنفسهم ولا يعطون منها الضعاف ، ويستخدمون النعمة فى المعاصى . إذن فقوله الحق :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

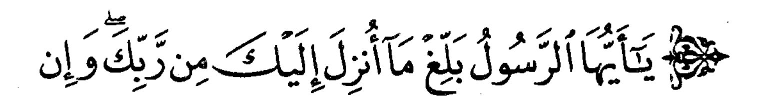
(سورة الأعراف)

وقوله الحق : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . هو حكم عام ؛ فهل وُجِدَ من يؤديه ؟ . نعم ؛ هناك أناس منهم عرفوا ذلك وساروا إلى السبيل المستقيم ، وعن هؤلاء يقول سبحانه : « منهم أمة مقتصدة » والمقتصد هو الذى يسير فى السبيل القاصد ، وهو السبيل المستقيم إلى الغرض فلا ينحرف هنا أو هناك .

إذن قوله الحق : « منهم أمة مقتصدة » . أى منهم أمة تسير إلى أغراضها وإلى غايتها على الطريق المستقيم . وهذه إشارة إلى أن بعضاً من أهل الكتاب يفعل ذلك ، والبعض الآخر لا يفعل ، وهذا القول أشار أيضاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يُخلى وجوده وكونه من خلية خير فيه ، وقد تكون خلية الخير هذه من أضعف الناس الذين لا شوكة لهم فى الدنيا ولا جاه ولا قوة . ولولا هؤلاء الناس لهدّ الله الأرض ومن عليها . ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بقوله : « لولا عبادٌ لله رُكع ، وصبية رضع ، وبهائم رُتّع لصُبّ عليكم العذاب صبا ثم رُصّ رَصّا »[1] .

كأننا مكرمون فى هذا العالم من أجل الضعاف فينا . وكأن الحق لا يحجب الخير عن كونه ، بل يجعل فى الكون ذرات استبقاء للخير . ولذلك نجد من يقول : إذا بالغ الناس فى الإلحاد زاد الله فى المد . وقد تجد بلداً كلها من الملاحدة ، وتجد فيها عبداً واحداً متبتلاً لربه ، ويكون هذا الرجل هو الذى يستبقى الله من أجله هواء تلك البلدة وماءها . ولذلك قال سبحانه : « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

ويقول الحق من بعد ذلك :



(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير والبيهقى فى السنن الكبرى .

﴿ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

تبدأ الآية بخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن عظمة رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلو مكانته عند من اصطفاه خاتماً لرسالاته فى الأرض أن الله ذكر الرسل فى خطابه لهم بنداء أسمائهم فقط كقوله الحق :

﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة البقرة)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

فسبحانه ينادى كل رسول له بالاسم المشخص للذات بصرف النظر عن أى صفة ، لكن رسول الله لم يُنَاد باسمه أبداً بل ناداه الحق بالمشخص للوصف : « يا أيها الرسول » . أو قوله الحق : « يا أيها النبى » .

فكأنك يا رسول الله قد اجتمعت فيك كل مسائل الرسالة لأنك صاحب الدين الذى سينتهى العالم عنده ولا يكون بعد ذلك لله فى الأرض رسالة إلا فهم يؤتيه الله لأحد فى كتاب الله .

ومن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أقسم بحياته ، على الرغم من أن الحق لا يقسم بحياة أحد من البشر إلا رسوله ، فقد أقسم بحياته . وهو سبحانه

يقسم بما يشاء على ما يشاء ، أقسم بالريح والضحى والليل والملائكة ، لكنه ما حلف بحياة بشر أبداً إلا حياة محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الحجر)

أى وحياتك يا محمد هم فى سكرتهم يعمهون أى يترددون حيارى . ويقول الحق هنا مخاطباً الرسول : « يا أيها الرسول » . ومادام محمد هو الرسول الخاتم الذى جاء مصدقاً لما بين أيديهم من الكتب ، فمعنى هذا أن كل خير فى أى كتاب سبق القرآن موجود فى القرآن وفيه أيضا زيادة مما تتطلبه مصالح الحياة المستجدة . ومادام الخطاب للرسول فهذا يعنى أنه رسول مرسل من قبل الله بمنهج لخلقه ليبلغه لهم : « بلغ ما أنزل إليك من ربك » . وكيف يقول الحق لرسوله : « بلِّغ » وهو يعلم أن مهمة الرسول هى البلاغ ؟

لقد أراد سبحانه بذلك إخبار الناس أنه إن أبلغهم بما يكره بعضهم فهو يبلغ التزاماً بأمر الله ، فهو لا يقول من عنده ، ذلك أن الرسول عليه البلاغ ، فإن أبلغ أحداً ما يكدره فليس له مصلحة فى ذلك . ويورد سبحانه ذلك حتى إذا بَلَّغ الرسول حكماً من الأحكام فعليهم أن يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من الله . وسبحانه يعلم أن رسوله لا يكتم البلاغ ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر ، فهو سبحانه حين يخاطبهم بشىء قد يكرهونه ، فهو بلاغ من الله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . أى أنه إن لم يفعل ولو فى جزئية يسيرة من المنهج فهذا معناه أن البلاغ ناقص والله يريد أن يكون البلاغ كاملاً بالدين المتكامل .

إن التركيبة الإيمانية تقتضى أن يأتى القول بهذه الطريقة حتى ينسجم البلاغ بشكل كامل ؛ فقد نزل المنهج بكليته ، ويجب أن يُطبق بكليته من أجل أن ينصلح الكون وحتى لاتفسد حركة الإنسان فى الكون، فقد أنزل سبحانه المنهج وأحكمه ليسير العالم على حسب تصميمه له دون أن يختل . ولذلك يقول الحق : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . وبذلك يعطى الحق رسوله المناعة الكاملة . فلم يأت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلا الخير الناس .

لقد سبق أنَ خلق الله آدم وأعطاه المنهج . وكان على آدم أن يبلغ المنهج إلى الذرية وقد فعل ، لكنَّ بعضاً من أجيال بنى آدم غفلت عن المنهج ؛ فيبعث الحق الرسل لتذكر بالمنهج . ولا يأتى رسول إلا بعد أن يكون الفساد قد فشا وانتشر بين الناس . وقد جعل الله فى النفس الإنسانية نفساً لوامة ، ونفساً تأمر بالسوء ، ونفساً مطمئنة .

إن مهمة النفس اللوامة هى أن ترد على كل ما توسوس به النفس الأمارة بالسوء . لكن إن لم تلم النفس اللوامة ، فالنفس الآمرة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادع . أما النفس المطمئنة فهى النفس التى تطمئن إلى منهج الله . ومثال ذلك الإنسان الذى تلح عليه شهوته لارتكاب معصية ما فيرتكبها ، ومن بعد ذلك يندم ويلوم نفسه ، ويتوب عن المعصية ، هذا الإنسان يردع نفسه ذاتياً . لكن إن سيطرت النفس الأمارة بالسوء فلا رادع .

وماذا إذا ساد الفساد بين عموم الناس ؟ وماذا لو لم يتناهَوْا عن المنكر الذى يفعلونه ؟ هنا لا بد أن يرسل الحق رسولاً بمعجزة جديدة ليأخذ العالم إلى منطق الرشاد ومنهج الحق .

ولا يختار الحق الرسول إلا إذا علم الرسول أنه مبلغ عن الله . وسبحانه فى الآية التى نحن بصددها يعطى رسوله المعذرة إن بلغ قومه شيئاً يسوؤهم ، فما على الرسول إلا البلاغ فى قوله : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . ونعرف أن الرسالة تقتضى : المرسِل وهو الله ، والمرسَل إليهم وهم الخلق ، ومرسَلاً وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمرسَل به وهو ما نزل على الرسول ليبلغه . وفى كل أمر مثل هذا نجد أن كلمة « أرسل » تتعدى إلى مفعولين ؛ المرسَل : مثال ذلك أرسلت فلاناً إلى فلان ، والمرسل إليه : وهو فلان . إذن فهنا مفعولان اثنان ، أولهما تعدى الفعل إليه بذاته والآخر تعدى إليه الفعل بحرف الجر .

وحرف الجر هنا هو : « إلى » . وبطبيعة الحال يعرف الرسول أنه مرسَل إلى الناس من الله رعاية لمصالحهم ؛ فليس فى أمر الرسالة شيء لصالح الله . وإن رأيت تعدياً بـ « إلى » فهو لتحديد الغاية المرسل إليها ، مثل قوله الحق :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة آل عمران)

وهذا يوضح أن عيسى ـ عليه السلام ـ جاء مبعوثاً بمنهج إلى بنى إسرائيل لصالح بنى إسرائيل . ومثلما يقول الحق : وأرسلناك للناس رسولا » . أى لصالح الناس . و« اللام » هنا تفيد المعنيين ؛ النفعية والغاية .

« بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » أى أنه صلى الله عليه وسلم إن لم يبلغ الرسالة كاملة فمعنى ذلك أن البلاغ يكون ناقصاً . ومعاذ الله أن يكون بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنقص شيئاً ، فمنهج الله كل متكامل .

وقد يقول قائل : ولكن الناس قد لا تؤدى فروض الله فى مواعيدها ، والمثال على ذلك هو الصلاة . ونقول : إن هذا عجز فى إدارة الناس لحياتهم حسب منهج الله . ومن واجب المجتمعات أن تنظم حركة الناس اليومية من بعد صلاة الفجر إلى الظهر . وفى ذلك قدر هائل من الحيوية والنشاط ، وينتهى العمل عند الظهر ، فلا تتصادم حركة الناس مع منهج الله ، ولا توجد عرقلة ولا نشاز فى حركتهم .

ثم يقول الحق : « والله يعصمك من الناس » . وكان لا بد أن يأتى هذا القول الحكيم ؛ لأننا نعرف أن الرسول لا يجىء إلا بعد أن يعم الشر ويسود الفساد ، ذلك أنه لو لم يسد الفساد ، ولم يعم الشر لاكتفى الله بالمجتمع ليردع بعضه بعضاً ، أو يكتفى الحق بأن تردع النفسُ اللوّامةُ النفسَ الأمارةَ بالسوء لتستوى النفس المطمئنة على عرش السلوك البشرى .

لكن عندما يعم الفساد الكونَ . فالسماء ترسل الرسول بمنهج يصلح حال البشرية . وبطبيعة الحال لن يترك المجتمعُ الشريرُ الرسولَ لحاله بل يقاومه ؛ لأن مثل هذا المجتمع يريد أن تكون كفة الكون غير متوازنة ؛ لأن هناك منتفعين بالفساد والشر ، وهم المدافعون عن الفساد ، فإن جاء من ينصف الضعفاء والمظلومين فلا بد أن يتعرض للمتاعب التى تأتيه من قبل الأقوياء المفسدين .

إن هذه المتاعب تبدأ أول ما تبدأ فى النفس ؛ ولأن الرسول مخاطب من الله فيمكنه أن يتحملها ؛ لأن الحق قد أعده لهذه المهمة ، ومثل تلك المتاعب تأتى أيضاً للأتباع ، لذلك يمدهم الله بالمدد الذى يجعنهم يتحملونها . والحق يحفظ للرسول ذاته على الرغم من كل ما يحدث : « والله يعصمك من الناس » .

فكأن الحق يقول لرسوله : اطمئن يا محمد ؛ لأن من أرسلك هداية للناس لن يخلى بينك وبين الناس . ولن يجرؤ أحد أن ينهى حياتك . ولكنى سأمكنك من الحياة إلى أن تكمل رسالتك . وإياك أن يدخل فى رُوعك أن الناس يقدرون عليك ، صحيح أنك قد تتألم ، وقد تعانى من أعراض التعب فى أثناء الدعوة ، ولكن هناك حماية إلهية لك . ونحن نعلم قدر المتاعب التى تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم تكسر رَباعيته[1] صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد ؟ ألم يشج وجهه ؟ ألم تدم أصبعه فيقول : « إن أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت »[2] .

لكن قول الحق سبحانه لرسوله : « والله يعصمك من الناس » لم يكن المقصود هو منع الجهاد فى سبيل الله والمعاناة فى سبيل نشر الدعوة . ولكن الحق يبيّن لرسوله : إن أحداً غير قادر على أن يأخذ حياتك .

ولم يمنع سبحانه المتاعب عن رسوله الكريم حتى لا يكون هناك أحد الداعين إلى الله لا يتحمل من الآلام أكثر مما تحمل رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولننظر ونستمع جيدا إلى ما ترويه عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ حول هذه الآية إنّها قالت :

« سهر رسول الله ذات ليلة وأنا إلى جنبه ، فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ قال : (ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة) . قالت : وبينما نحن فى ذلك إذ سمعت صوت سلاح فقال صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ فقالوا : سعد وحذيفة جئنا نحرسك. فنام صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه ونزلت هذه

(١) الرَّبَاعيَّة : السن بين الثنية والناب .

(٢) رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

الآية فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قُبّة أدَم وقال : « انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله »[١] .

وهناك باحثة بلجيكية عكفت على دراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصلت إلى هذه النقطة ، فتوقفت عندها لتقول : لو كان هذا الرجل يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته ، ولو لم يكن واثقاً من أن الله يحرسه لما فعل ذلك كتجربة واقعية تدل على ثقته فى خالقه . وأضافت الباحثة البلجيكية : ولذلك أنا أقول بملء اليقين : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . لقد أسلمت المرأة لمجرد وقوفها عند لمحة واحدة من لمحات حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك : «إن الله لا يهدى القوم الكافرين » . ونعرف أن الهداية تعنى الدلالة الموصلة إلى الغاية ، وهى أيضا المعونة التى توصل طالب الهداية إلى الغاية . وكان الكفار الذين يبيتون للرسول وينهكون أنفسهم فى المكر والتفكير والتبييت ، فيقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم كل سبيل ، وينصره عليهم ، ويأتى التطبيق العملى لنصر الله للمؤمنين فى بدر :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

لقد بيتوا ، ولكن عند المواجهة لم يقدروا على محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ولم يستطعوا إيذاءه ، برغم المكر والتبييت ؛ لأن الحق قطع عليهم كل سبيل لإيذاء محمد ، ولن توجد وسيلة من وسائل اللؤم والخبث قادرة على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تمثل ذلك يوم خرج رسول الله مهاجراً وغطى الله أبصار فتيان القبائل الذين حملوا سيوفهم ليقتلوا محمداً وليفرق دمُه بين القبائل فلم يبصروه لأن الله جعل على أبصارهم غشاوة .

إذن فكلما فكروا فى طريقة سد الله عليهم منافذ تنفيذ فكرتهم . وكأنه يقول لهم : لن تستطيعوا مصادمة محمد فى منهجه لا بالعلن ولا بالدس ولا بالخفية ، بل أنتم

---

(١) رواه القرطبى ، وروى مسلم قالت : ـ أى السيدة عائشة ـ فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح (أى صوته) فقال : من هذا ؟ قال سعد بن أبى وقاص فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : ما جاء بك ؟ فقال وقع فى نفسى خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أحرسه فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام .

ـ أيها الكفار ـ تخدمون الدعوة من حيث تريدون هدمها ، فقيامكم ضد محمد فى بداية الدعوة كان لإثبات أن الحق جل وعلا أراد أن يشتد عود الدعوة بكفر أهل قريش . وعندما أردتم قتل محمد وأن يتفرق دمه بين القبائل خرج محمد سالماً وأغشى الله أبصار الذين أرادوا القتل ، وهاجر صلى الله عليه وسلم . وفى الطريق إلى الهجرة يكون دليله من الكفار وهو عبدالله بن أريقط . كان ذلك لنعلم أن الكفر كان وسيلة الهداية إلى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عبدالله بن أريقط وهو كافر لا تغريه المكافأة أن يشىَ ويسعى بالرسول لدى مشركى مكة . ولكنهم لم يتخذوا من كل ذلك عبرة . وكذلك الغنم تُعفى الأثر ، والأرض تشد قوائم فرس سراقة لتغوص وتسوخ فيها .

إذن فكل جنود الله فى صف محمد بن عبدالله . وهكذا رأينا كيف لم يهد الحق القوم الكافرين إلى الغاية التى أرادوها وهى التمكن من محمد صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً لا يهديهم الله إلى الإيمان . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

و« قل » ـ كما نعرف ـ هى خطاب له صلى الله عليه وسلم ، وما يلى ذلك بلاغ من الله لأهل الكتاب إنهم بلا منهج لأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل بل حرفوهما ، ولم يؤمنوا بالقرآن ، وهو المنهج الكامل المنزل على محمد بن عبدالله .

وحين يقول الحق : « لستم على شيء » فكلمة « شيء » تقال لأدنى فرد من أى جنس ، فالقشة شيء ، وورقة الشجرة شيء ، وما يطلق عليه شيء - إذن - هو الأقل .

وقوله الحق : « لستم على شيء » أى إياكم أن تظنوا أنكم حين تقومون بتنفيذ جزء من تعاليم التوراة والإنجيل وتخفون الباقى وتهملونه تكونون قد أخذتم شيئاً من الهداية ، لا ؛ فأنتم لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وتؤمنوا بالكتاب الذى أنزل على محمد . والمنهج ليس عرضة لأن تأخذوا منه ما يعجبكم وأن تتركوا ما لا يعجبكم .

وعندما يقال : « لستم على شيء » . ونعرف أن الشيء هو أقل مرتبة فى الوجود ، ولذلك نقول : شيء خير من لا شيء . ويقال بالعامية : هاش خير من لاش و« هاش » هو الهالك من ثياب المنزل الممزقة ، أى أن الذى يملك ملابس ممزقة أفضل ممن لا يملك شيئاً على الإطلاق .

وقوله الحق : « لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » هو إيضاح لهم أنهم فى المرتبة الأدنى من الكائنات لأنهم بلا منهج . ويضيف : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » أى أنهم لن يظلوا على درجة واحدة ثابتة من الطغيان والكفر ، بل كلما أنزل الحق إليك آية يا محمد ، وكلما نصرك الله فى أمر ازدادوا هم طغياناً وكفراً . وكان من المفروض أن زيادة نزول الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم تكون إضعافاً لتشددهم وترقيقا لقلوبهم ، لكنه سبحانه أراد أن تشتد شراستهم وحقدهم فى أمر الاعتراف بالإسلام .

وقد حدث من خالد بن الوليد وكان فارس الجاهلية ضد الإسلام أن قال لعمرو ابن العاص : لقد استقر الأمر لمحمد . واتجه الاثنان إلى الإسلام على الرغم من أن كلا منهما يعرف قوته ومكانته بين قومه . وبعد أن رأى خالد وعمرو أن الخيبة هى نصيب الواقف ضد محمد مهما علا شأنه ، ذهبا إلى الإسلام ، وهذا هو موقف المتدبر للأمر دون حقد ولَدَد . أما الذى يزدحم بالمعاناة حقداً ولدداً فتزيده آيات الله لنصرة

منهجه حقداً ولدداً وطغياناً ؛ لأن الله شاء ألا يهديهم . ولذلك تصير كل آية فى صف الإيمان والمؤمنين مصدرَ إثارةٍ وغيظ ومرارة فى نفوس أهل الكفر . وهكذا يوطن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره تجاه هؤلاء الكفار .

إنك يا رسول الله لا تواجه طاقة محدودة ولكنك تواجه طاقة من الشر النامى . وكل آية إنما تهدى الذى فى أعماقه بذرة من خير ، أما الذى ينتفى الخير من داخله فالمسألة تزيده شراسة فى قلبه. إن الشرير يُصَعِّد الشر ويزداد جُرمه وإثمه، أما الخير فينزل من قِمّةِ الجرم إلى أقل درجة . ولنا المثل فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، فالحق يقول على لسان إخوة يوسف :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

ومن بعد ذلك قالوا لأبيهم : « مالك لا تأمنا على يوسف » . ثم أخذوا فى التبييت والتدبير وقالوا : « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب » . وكان أول تدبير لهم هو ما قاله الحق حكاية عنهم : « اقتلوا يوسف » .

ومعنى القتل هو إزهاق الروح ، وهذه أعلى درجات الشر ، لكنهم يتراجعون عنها ويقولون : « أو اطرحوه أرضاً » . فهم لم يرغبوا فى قتله ، واكتفوا بأن يتركوه فى مكان بعيد ، وتصوروا أن بعض السيارة قد يلتقطه فيبعدون يوسف عن أبيه . إذن هم بدأوا التدبير قتلاً ، ثم انتهوا بالتفكير لنجاة يوسف :

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

والمرحلة الثالثة قولهم : « ألقوه فى غيابة الجب » والجب فيه مياه ، وهناك أناس كثيرون يذهبون إلى مصادر المياه . هكذا يورد الحق لنا كيفية نمو الخير من بطن الكيد .

إذن . فقوله الحق : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » أى أن الكثير منهم سيواصل رحلة التصعيد فى الشر ، فوطن نفسك يا محمد على ذلك .

ونلحظ أن الحق قد وضع صيانة لاحتمال أن تفكر قلة منهم فى الإيمان ، لذلك لم يشملهم كلهم بالحكم ، ولكن الحكم شمل الكثرة من هؤلاء الكافرين . ولذلك يقول الحق لرسوله : « فلا تأس على القوم الكافرين » أى لا تحزن عليهم يا رسول الله . فعلى الرغم من عداوة وشراسة من صادموا دعوته صلى الله عليه وسلم ومحاولتهم كل تلك المحاولات ، كان لا يكف عن الدعاء لهم : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[1] . وكان لا يكف عن القول : « لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله »[2] وقد تم ذلك بالفعل .

وكان الصحابة بعد الغزوات الأولى يقول كل منهم للآخر : أنا حزين لأن عمرًا أفلت منى ولم أقتله . فيقول الآخر : وأنا حزين لأن عكرمة أفلت منى . ويقول الثالث : وأنا لا أدرى كيف أفلت منا خالد بن الوليد . ولم يمكن الحق الصحابة الأوائل من هؤلاء المقاتلين الأشاوس لأنه يدخرهم للإسلام ، فكان عدم تمكين المسلمين من هؤلاء تمكيناً للإسلام ليحملوا السيف للإسلام مدافعين وناشرين لدعوته . وها هوذا عكرمة بن أبى جهل يتلقى الطعنة الأخيرة فى حياته فيضع رأسه على فخذ خالد بن الوليد ويسأله : أهذه ميتة ترضى عنى رسول الله ؟ إذن فقد أراد الله من عدم تمكين المسلمين منهم فى أوائل الغزوات أن يكونوا جندًا للإسلام بقدراتهم القتالية فاستبقاهم أحياء ليخدموا الدعوة . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين ، والسيوطى فى الدر المنثور .

(٢) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ومسلم فى الجهاد .

هم - إذن - أربعة ألوان من الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله . وهذه الآية وردت فى صورتها العامة ثلاث مرات ، مرة فى سورة البقرة ، ومرة هنا فى سورة المائدة ، ومرة فى سورة الحج .

ففى سورة البقرة يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولنلحظ أن كلمة « الصابئين » فى هذه الآية منصوبة .

وفى سورة المائدة نجد قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنلحظ أن كلمة « الصابئون » هنا مرفوعة ومقدمة على كلمة « النصارى » .

وفى آية سورة الحج يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

هنا إخبار عن أربعة ، وزاد الحق عليهم اثنين فى آية الحج ، ونجد أن الإخبار يختلف ، وكذلك يختلف الأسلوب ، فمرة تتقدم النصارى على الصابئين ، ومرة تتقدم الصابئون على النصارى . ومرة تكون الصابئون مرفوعة ، ومرة تكون منصوبة بالياء .

وأما اختلاف الإخبار ، فهو سبحانه يخبرنا فى سورة البقرة فيقول :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة البقرة)

والخبر فى سورة المائدة هو :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة المائدة)

والخبر فى سورة الحج هو :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحج)

والآيات الثلاث فى مجموعها تتعرض لمعنى واحد ، ولكن الأساليب مختلفة وكذلك الغايات فيها مختلفة .

ونلحظ هنا أن الحق قال : « آمنوا » والإيمان هنا هو الإيمان اللفظى أى بالفم وليس بالقلب ، والمتصفون بذلك هم المنافقون والذين هادوا ، هم أتباع موسى ، والنصارى هم أتباع عيسى ، والصابئون ليسوا أتباعاً لأحد فقد كانوا أتباعاً لنوح ثم صبأوا عن ديانة نوح وعبدوا الكواكب ، أو هم قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة . والمجوس وهم عبدة النار . إذن فالحق يريد أن يجرى تصفية إيمانية فى الكون ، فمن يبادر ويدخل فى هذه التصفية . يسلم من شر ما فعله قبل مجىء الإسلام ، ذلك أنهم أضلُّوا أناساً أو حكموا بالظلم .

والحق فى سورة البقرة يقول : (فلهم أجرهم عند ربهم) أى أنه ـ سبحانه ـ غفر لهم ما فعلوا من سوء وجزاهم على عملهم الصالح الذى لم يحبطوه ويذهبوه بعمل السيئات والآثام . هذا ما يتعلق بالآيتين . . آية سورة البقرة ، وآية سورة المائدة ، ونلاحظ أن آية سورة المائدة لم يرد فيها قوله : (فلهم أجرهم عند ربهم) ولعل ذلك راجع إلى الاكتفاء بذكرها فى سورة البقرة ، وذلك له نظير فى القرآن الكريم . . كحمل المطلق على المقيد ونحو ذلك .

أما آية سورة الحج فهى التى يأتى فيها الحكم : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » كأنهم لن يؤمنوا ولن يعملوا الصالح ، فتكون هذه هى التصفية العقدية فى الكون .

وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصفى المسألة الإيمانية فى الأرض ويقول عن المؤمنين بألسنتهم وهم المنافقون : « إن الذين آمنوا » وهو ابتداء الخبر ، وتكون فيه « الذين آمنوا » فى محل نصب لأنه اسم « إن » كما يقول النحاة ، وهو سبحانه قال هنا : و« الصابئون » وهى معطوفة على منصوب . وهذا كسر للإعراب . إنّ الإعراب يقتضى أن تكون الكلمة منصوبة فتكون « الصابئين » لماذا إذن عدل الحق عن إنزال الكلمة حسب سياقها من الإعراب وأنزلها بكسر الإعراب مع أنه فى آية أخرى قال : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين) .

لقد جاءت هنا فى مكانها ودون كسر للإعراب ، وهى قد جاءت مرة قبل كلمة « النصارى » وجاءت مرة أخرى بعد كلمة « النصارى » . وهنا لا بد أن نتعرف على زمنية الصابئين ، فقد كانوا قوماً متقدمين قبل مجىء النصرانية ، فإن أردنا أن نعرف زمانهم نجد القول الحق يقدمهم على النصارى ، وإن أردنا أن نعرف منزلتهم فإننا نقرؤها فى موضع آخر فى القرآن ونجدهم يأتون بعد « النصارى » . إذن فعندما أرّخ الحق لزمانهم جاء بهم متقدمين ، وعندما أرّخ لكمّهم وعددهم ومقدارهم يؤخرهم عن النصارى ؛ لأنهم أقل عدداً فهم لا يمثلون جمهرة كثيرة كالنصارى .

وجاء بها الحق مرة منصوبة ومرة مرفوعة ، لنعرف ونلتفت إليهم . وكسر الإعراب كان لمقتضى لفت الانتباه . وكان الصابئة قوماً يعبدون الكواكب والملائكة ، وهذا لون من الضلال .

إذن فهناك اليهود الذى عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء موسى عليه السلام مبلغاً عنه ، وهناك النصارى الذين عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ مبلغاً عنه ، وهناك المنافقون الذى أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولكن لم يلمس الإيمان قلوبهم .

وأراد الحق أن يلفتنا إلى أن الصابئين هم قوم خرجوا عن دائرة التسليم بوجود إله خالق غيب ، ويحدثنا الحق أنه يغفر لهم إن آمنوا وعملوا صالحاً . فالإيمان بالله شرط أساسى لقبول العمل الصالح والإثابة عليه . وجاء بهم متقدمين على النصارى احتراسا وتوقيا من مظنة أنه لا يعفو عنهم إن آمنوا وعملوا العمل الصالح .

ونلحظ أنها جاءت أيضاً فى معرض جمع الله فيه بينهم وبين من يعبدون أغياراً من دون الله ؛ لأن من يلصق ألوهية بغير الله يكون كمن عبد الكواكب وخرج عن التوجيد .

إنه سبحانه وتعالى يتيح لكل إنسان أن يدخل حظيرة الإيمان ويقيم تصفية عقدية يدخل فيها الكل إلى رحاب الإيمان ويقطعون صلة لهم بالشرك . فلو آمن المنافقون واليهود والنصارى والصابئون وعملوا الصالحات فلهم الأجر والمثوبة من الله ولا خوف عليهم من عذاب الآخرة ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا ، وجاء العمل الصالح بعد الإيمان ؛ لأن الإيمان إذا لم يقترن بعمل صالح يكون عرضة للسلب والعياذ بالله ولا فائدة فيه ، وسبحانه يريد أن يسيطر الإيمان على حركة الحياة بالعمل الصالح فيأمر كل مؤمن بصالح العمل حتى يكون لهم الأجر عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما الذين يصرّون على موقفهم الكفرى ، فإن الله يفصل بينهم يوم القيامة لأنه على كل شيء شهيد . وكلمة « يفصل » تدلنا على أنه سبحانه وتعالى سيصدر الحكم الذى يبين صاحب الحق من غيره . ونعرف أن الذى يحكم إنما يحكم ببينة . والبينة هى الإقرار ، والإقرار ـ بلغة القانون ـ سيد الأدلة . أو الحكم بشهود ، أو الحكم باليمين ، وهو سبحانه يفصل بين المواقف المختلفة . والفصل هو القضاء بحكم . وعندما يكون الذى يحكم هو الذى شهد ، فهو العادل . لذلك قال الحق : « إن الله على كل شيء شهيد » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والميثاق هو العهد المؤكد الموثق ، الذى يقتضى الوفاء الشديد . ولا تُوثق العهود إلا مظنة المخالفة . والمواثيق فى الإيمان بالله كثيرة . فهناك الميثاق الأول عندما كنا جميعاً فى ظهور الآباء .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

أو الميثاق الذى أخذه الله لنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أو الميثاق الخاص الذى أخذ على كل أمة . وفى كل جزئية من جزئيات الدين يؤخذ ميثاق ، فنحن فى الإسلام مأخوذ علينا الكثير من المواثيق . وكذلك رأينا النبى وقد أخذ لنفسه الميثاق فى العقبة ، رأى الرسول أن ما يربطه بالأوس والخزرج الكثير ، كما يربطه بكل قوم يحنون إلى الوحدة تحت راية إيمان واحد ، وكان اليهود

يعتبرون عرب الأوس والخزرج مجرد همج وخدم يعملون لهم ، وارتأوا السيادة لأنفسهم . وكلما اختلفوا معهم هددوهم بمجىء رسول قادم سيؤمنون به وسيقتلونهم تقتيلاً .

وكان كل من الأوس والخزرج يحاول أن يستميل اليهود إليه ؛ فالأوس حالفت بنى قريظة . وحالف الخزرج بنى قينقاع وبنى النضير . وتلقى الاثنان الوعيد من اليهود بعد ظهور النبى القادم ، وذلك ما جعل كلاً من الأوس والخزرج يُسرع إلى التعرف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء فى موسم الحج نفر من ستة رجال ودعاهم صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فآمنوا به صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

وجاءوا فى العام الذى يلى ذلك إلى موسم الحج وزادوا حتى صاروا اثنى عشر رجلاً . وكانت المعاهدة ألا يشرك منهم أحد بالله وألا يسرق وألا يزنى وألا يقتل أولاده وألا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ، ولا يعصى رسول الله فى معروف . وعادوا إلى المدينة ومعهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن . وفى العام الثالث جاء ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما نسيبة بنت كعب أم عمارة ، وأسماء بنت عمرو بن عدىّ ، وكانت مبايعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزاد من ذلك إرباك قريش ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم :

(أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايِعْنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحَلْقَة (السلاح) وتكلم أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهركِ الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . وبسط يده صلى الله عليه وسلم فبايعوه . وكانت بيعة العقبة ميثاقاً يضمن لأهل البيعة الجنة إن أوفوا به . وقد أوفوا . وهذا

لون من العهود والمواثيق . وحين يخبرنا الحق هنا أنه أخذ من بنى إسرائيل الميثاق ، فمعنى ذلك أن هناك عهداً موثقاً مؤكداً :

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقد أخذ الحق الميثاق وأرسل رسلاً بالمنهج ، لكنهم كلما جاء إليهم رسول تباحثوا : هل المنهج الذى جاء به على هواهم أو لا ؟. فإن لم يكن المنهج على هواهم قتلوا الرسول أو كذبوه على الرغم من أن الميثاق عهد مؤكد باتباع الرسول إن جاء بمعجزة ومنهج بلاغاً عن الله وتنفيذاً له فى حركة الحياة .

لكنّ بنى إسرائيل كانوا يتمردون على مناهج الرسل لأنها لا تأتى بما تهواه أنفسهم . وأول التمرد التكذيب . وهو أول خطوة فى طريق الإخلال بالميثاق ، ولم يكتفوا بالتكذيب ، إنما حاولوا حصار الرسول حتى لا يصل المنهج إلى آذان تهتدى به . ولذلك لا يكتفون بالتكذيب بل قد يقتلون الرسول لأنه جاء بما لا تهوى أنفسهم .

ما هو الهوى أولاً ؟. هو من مادة « الهاء والواو والألف المقصورة التى ترسم ياء » ونجدها منطوقة مرة هَوى ومرة هواء . ومرة « هوى » بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء ، وكلها تدل على التغلغل والانحياز . والهوَى هو لطف الشىء فى النفس والميل إليه . فالشىء تستلطفه فى نفسك فتنزع إليه نزوعاً وقد يكون غير مستحب أو غير مقبول ولا مشروع .

وهل كل الهوى كذلك ؟. لا ، لأن هناك هوى الإيمان الذى علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

إذن فمن الممكن أن يتجه الهوى إلى الخير . وهو الهوى الذى يحمل النفس على أن يسير الإنسان تبعاً للحق . أما الهواء فهو الذى يتنفسه الإنسان ويستخلص منه

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، والتبريزى فى مشكاة المصابيح والمتقى الهندى فى كنز العمال .

الأوكسجين ليغذى به الجسم وتسير به الحياة . ولذلك يقول الأثر : وأقبلْت كالنَّفَس المرتَدِّ .

إنه الإقبال الرقيق ، فنحن نعرف أننا إن أكلنا شيئاً نحبه فإننا نشعر بطعمه ، وعندما نشرب شيئاً نحبه فنحن نتذوق طعمه ، أما التنفس فهو أمر لا إرادى ، فعندما نتنفس شيئاً نحبه يكون إحساساً لطيفاً .

وهناك نطق ثالث ويعبر عن السقوط ، وهو الهُوِىّ من هَوى يهوى - بالكسر للواو - ولذلك يقال : هُوِىّ الدلو ، أى نزول الدلو إلى المياه التى فى البئر . فأى نوع من الهوى تقصده الآية ؟

يقول الحق : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوَى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » إذن فالهوى الذى يُتَحَدّث عنه هنا هو هوى النفس المجردة عن المنهج ، وهو الذى يتحكم فى حركة هذه النفس ويقودها إلى غير طاعة الله . وهل ترك الحق النفس الإنسانية دون عاصم لها ؟ لا ؛ لأنه أنزل الرسل تحمل منهجاً ملخصه « افعل » و« لا تفعل » . وهكذا يمكن أن يصير المنهج قَيِّماً على خواطر النفس .

لكن مادام الحق قد أراد أن يكون المنهج قَيِّماً على خواطر النفس ، فلماذا أوجد النفس ؟ . لقد أوجد سبحانه النفس لأن وجودها ينبنى عليه أن يَهوَى إنسان الحق والحلال لاستبقاء النوع وتجويد العمل لحلال الرزق . إذن فالغريزة تكون موجودة وقد خلقها الله لمهمة ، ولكنه يعصمها بالمنهج من الخروج عن مهمتها .

ويقول قائل : مادام الله قد خلق غريزة الجنس . . فلماذا لا نتركها لتعبر عن نفسها ؟ ونقول له : اتق الله واعلم أن الغريزة الجنسية إنما جاءت لبقاء النوع ، واستخدامها فيما يغضب الله فناء للنوع وانحراف يعاقب عليه المنهج .

وكذلك أوجد الحق غريزة حب الطعام ليقيم الإنسان حياته ولم يوجدها للقضاء على الحياة بالنهم والتخمة والشره . وكذلك غريزة حب الاستطلاع ليست موجودة للتجسس على الناس ، ولكن هى لاستكشاف أسرار الكون واستنباط الجديد فيما

ينفع الناس . إذن فكل غريزة إنما توجد من أجل مهمة ، فإن خرجت عن مهمتها ، فالشرع يتحكم ويقول : لا . إن هناك إطاراً يمكن أن تستخدم فيه الغرائز ، والشرع إنما يأتى لا ليمحو الغزائر ، ولكن ليعليَ من الغرائز ليستعملها الإنسان فيما ينفع لا فيما يضر .

ويقال فى المثل العربى : « آفة الرأى الهوى » فإذا ما وقف اثنان أمام القاضى وأحدهما مظلوم والآخر ظالم فالقاضى العادل هو الذى يرفع الظلم عن المظلوم حتى وإن كان له هوى مع الظالم . ولذلك نجد الحق قد عصم رسوله فقال :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾

(من الآية ٣ سورة النجم)

والسطحيون هم الذين لا يلتفتون إلى عظمة هذا الأداء البيانى ويتساءلون : مادام الحق يصوب لمحمد فكيف إذن لا ينطق عن الهوى ؟ ونقول : أنتم لا تحسنون الفهم عن الله ولا عن رسول الله ، فعندما صوّب الله لرسوله لم يكن الرسول قد خرج عن حكم أراده الله ، ولم يعدل حكماً لله حسب هواه الشخصى ، وإنما هو ببشريته صلى الله عليه وسلم كان يصل إلى حكمٍ ما ويراه ثم ترى السماء تعديلاً له ، فينطق محمد بالتعديل كما أنزله الله . ولم يخالف صلى الله عليه وسلم ربه فى أى أمر . وجاء كل تصويب لله فى أشياء لم يسبق فيها لله حكم ، وكان كل تصويب قد جاء لاجتهاد بشرى من رسول الله ، ولم يكن فى ذلك أى هوى .

وحين قال الحق : (وما ينطق عن الهوى) . إنما يبلغنا أنه لم يكن عند محمد حكم من الله فخالفه الرسول صلى الله عليه وسلم اتباعاً لهوى ، فمعنى الهوى أن يكون هناك منهج ثم يعدل عنه ، وكل التصويبات التى صوّبها الله جاءت فى أمور لم يكن فيها حكم . ولهذا نجد تصويب الحق لرسوله يتسم باللطف ، فيقول سبحانه :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٤٣ ﴾

(سورة التوبة)

وهذا العفو لم يكن نتيجة لمخالفة حكم من أحكام السماء ، ولكن هو عفو سمح ؛ لأن رسول الله أخذ بالاجتهاد البشرى فى الأمور التى لم يكن فيها حكم الله ، وهو قول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾

(من الآية ١ سورة التحريم)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرّم أموراً على نفسه ، ولم يحرمها على الناس ، وهنا يوضح له الحق : لا تحرم على نفسك ما أحللتُ لك . إذن هذا أمر لمصلحة الرسول . وعندما جاء زيد بن حارثة ليخير بين أن يكون مع رسول الله كعبد له، وأن يكون مع أهله، آثر زيدٌ رسول الله ، فكافأه صلى الله عليه وسلم بأن جعله فى مقام الابن ، وكان التبنى معروفا عند العرب ، ونادى الناس زيدا بزيد بن محمد ، فلما أراد الله أن يبطل التبنى قال : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) .

وكلمة « أقسط » تعنى أعدل ، ومعناها أن القسط أيضاً فى دائرة العدل . وعندما يقال : فلان له القسط ، أى له العدل . إذن فالقسط أولاً لرسول الله ، والأكثر قسطاً هو حكم الله ، فكأنك يا محمد قمت بالقسط عند البشر ، ولكن الله يريد لك الأقسط .

إذن فقوله الحق سبحانه : (وما ينطق عن الهوى) . هو قول لا يستدرك عليه من مخالف لمنهج الإسلام ، فإذا ما قال مخالف لمنهج الإسلام : إن الله يصوب لمحمد ، فكيف لا ينطق محمد عن الهوى ؟ . نقول : وهل تعرف معنى الهوى ؟ إن الحكم بالهوى يعنى أنّه وجد حكما لله فيعدل الحكم لهواه ، ولم يحدث ذلك من سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكل تصويب من الله لم يأت على لسان رجل آخر ، إنما جاء على لسان رسول الله نفسه . وهذه هى منتهى الأمانة فى البلاغ عن الله .

والحق يقول عن بنى إسرائيل : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » إذن فهم فريقان : منهم من لا يقبل على الإيمان بالمنهج لهوى فى نفسه فيكذب . ومنهم من تمتلىء نفسه باللدد وشدة الخصومة على الرسول ، ويخشى أن يحيا الرسول لإبلاغ قوم آخرين ، فيحاول أن يقتل الرسول .

والتكذيب هو أول نقطة فى اللدد ، ثم هناك من يترقى فى اللدد ويخشى أن يصل البلاغ إلى قوم آخرين فيحاول أن يقتل الرسول . والتكذيب هو إنكار لقول أو فعل . أما القتل فهو إزالة لأصل الحياة . والذى يقتل هو الأكثر لدداً .

وتتجلى دقة القرآن حين يأتى الحق بصيغة الماضى ، لفئة وصيغة المضارع لفئة أخرى : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » لأن التكذيب هو تأبٍ من المكذَّب ، أما القتل فهو تأبٍ على وجود الرسول مِن الذين يكذبون . والأبشع هو القتل ؛ لأنه إزالة لكل أثرٍ من آثار وجود المقتول . وجاء التكذيب فى صيغة الماضى . وجاء فى المسألة البشعة بصيغة المضارع .

فالحدث حين يكون بشعاً فهو يبرد بعد مرور فترة من الزمن . وهذا ما يجعل المجتمع يثور عندما تحدث جريمة بشعة ، ولكن ما إن تمر عليها عشر سنوات ويصدر الحكم بقتل المجرم لا ينفعل الناس ، بل منهم من يتعاطف مع المجرم . ولذلك يحذرنا الحق أن ننسخ من الأذهان صورة قتلهم للرسل ، بل يجب أن نستحضر بشاعته دائما فلا نعطف على الذين قتلوا الرسل ، وقد قال علماء العربية : إن التعبير بالفعل المضارع يكون لاستحضار صورة الفعل .

وساعة يأمر القاضى العادل بالقصاص من إنسان قتل إنساناً آخر ، فهو لا يجعل القتل حدثاً منسياً لأنه ماضٍ ، بل يستحضره فى ذهنه وكأن دمه مازال ينزف ومكان الطعنة واضحاً ؛ لأنه لا يأخذ شيئاً مستوراً بالماضى ، بل يأخذ شيئاً واقعاً فى الحال . وكأن الحق يأمرنا باستحضار صورة ما حدث أمامنا . ومثال آخر لاستحضار الصورة : نجد الحق يقول لنا :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

إنه أنزل الماء ، لكنه يتبع ذلك :

﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

هو سبحانه يستخدم الفعل المضارع لتظل الصورة فى أذهاننا مستحضرة فى الحال وفى الاستقبال . والحق يقول : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » وكيف يقول الحق : إنهم يقتلون الرسل ، والرسل لا تقتل ،وأنه سبحانه يريد أن يجعل لهم من العمر ما يمكنهم من تمام البلاغ عنه ، إن الأنبياء فقط هم الذين يجوز عليهم القتل ؟ ونقول : إن الأنبياء رسل أيضاً بدليل أن الحق قال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إن كليهما مرسل ، والفرق أن الرسول يصحب وينزل معه منهجه ، والنبى مرسل كنموذج هداية بمنهج قد سبق . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

« وحسب » إن كانت بفتح الحاء وكسر السين فمعناها الظن ، وإن كانت بفتح الحاء وفتح السين فبمعنى « عد » ، والحسبان هو أن تظن وترجع وجود الشىء . والذين أخذ عليهم الله الميثاق وهم ـ بنو إسرائيل ـ ظنوا أن تكذيب الرسل وقتلهم لا يكون فتنة . ويعنى أنهم لم يعلموا علم اليقين ، وقد رجحوا ألا تكون فتنة . والأصل فى الفتنة ـ كما قلنا ـ عرض الذهب على النار ليتم تنقيته من الشوائب . والفتنة ـ كما نعرف ـ هى الاختبار ، إما أن ينجح فيه الإنسان وإما ألّا ينجح . فكيف جاءهم الظن أن هذا ليس اختباراً ؟ لقد جاءهم هذا الظن من الخطأ الذى وقعوا فيه عندما قالوا :

﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

والخطأ الذى تمادوا فيه عندما قالوا :

﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

لقد ظنوا أن الحق سيعاقبهم فقط على عبادة العجل ولن يعاقبهم على أى شىء آخر . وكان هذا ظناً خاطئاً . إن المنهج لم يأت لينجى أناساً بذواتهم مهما فعلوا ، ولكن المنهج جاء ليحاسب كل إنسان حسب ما عمل . ومن العجيب أنهم ظنوا الظن الخاطىء ولم يقوموا بحساب الأمر بحسابه الصحيح على الرغم من أنهم أهل تفوق فى العد والحساب ، فالحساب هو الذى يضمن صحة أمر أو يكذبه . ومن العجيب أن من رحمة الحق بالخلق ساعة يؤاخذهم فهو يقول : لك كذا وعليك كذا . لكن ساعة يرزقهم فهو يرزقهم بغير حساب .

ولكنهم لم يلتفتوا إلى ذلك وقال عنهم الحق : « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ظنوا أن ذلك الأمر لا اختبار فيه وأنهم غير محاسبين عليه. ونعرف أن « أنْ » تنصب الفعل. وقال لى سائل : لقد سمعت قارىء القرآن فى المذياع ينطقها « وحسبوا ألا تكونُ فتنة » .

وقلت له : إن هناك ثلاثة من أكابر القراء فى صدر الإسلام هم : « أبو عمرو » و« حمزة » و« الكسائى » ، وكان لكل منهم أسلوب متميز . وعندما نعلم أن « أنْ » تنصب الفعل لا بد أن يكون الفعل الذى يليها لا يدل على العلم واليقين والتبين ، « فأن » بعد العلم لا تنصب ، كقوله الحق :

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة المزمل)

وألفية ابن مالك تقول : (وبلن انصبه وكى كذابأنْ لا بعد علم) . أما « أن » التى من بعد ظن فمن الممكن أن تنصب ومن الممكن أن يُرفع الفعل بعدها ، فالذى رجح وجود الفعل وأدركه إدذراكا راجحا يرفع ، والذى لم يكن لديه هذا الإدراك الراجح ينصب ، والرفع هو قراءة الكسائى وأبى عمرو وحمزة . فقد بنوا الأمر على أنَّ الرجحان يقرب من اليقين . ومادام قد حدث ذلك تكون « أنْ » هنا هى « أن » المؤكدة ، لا « أن » الناصبة ويسمونها أن المخففة من الثقيلة فأصلها أنَّ . « وحسبوا

ألا تكون فتنة » . وتأتى « فتنة » بالرفع لأنها اسم تكون . و« تكون » من « كان » . و« كان » لها اسم مرفوع وخبر منصوب . وهى هنا ليس لها خبر ؛ لأنها مِن « كان التامة » . فهناك « كان الناقصة » وهناك « كان التامة » . ونقول ذلك حتى نتقن فهم القرآن ، مثلما نقرأ قوله الحق :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

و« كان » فعل ماض ، و« ذو عسرة » اسم كان التامة ؛ لذلك لا خبر لها ؛ لأن المقصود هو القول : وإن وُجِد ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . ولا بد لنا أن نعرف ما معنى « تام » وما معنى « ناقص » ؟ نعلم أن كل لفظ ننطق به يدور حول أمرين اثنين ، إما لفظ مهمل وغير مستعمل وإمّا لفظ مستعمل . والمستعمل هو الذى له معنى يصل إلى الذهن ساعة ننطقه ويستقل به الفهم ، فإن كان لا دخل للزمن فيه فهو الاسم ككلمة « أرض » و« شمس » و« قمر » . وهناك لفظ لا يستقل بالفهم كحرف الجر « فى » مثلاً . صحيح أنه يدل على شيء فى شيء ؛ ولكنه لا يستقل بالفهم ؛ لذلك لا بد أن ينضم لشيء ، كقولنا : الماء فى الكوب أو قولنا : التلميذ فى الفصل . فإن كان للفظ معنى ومستقل بالفهم ، والزمن له دخل فيه فهو الفعل .

مثال ذلك قولنا : السماء . إن السماء كانت فى الماضى وهى فى الحاضر وهى فى المستقبل . إذن فالزمن لا دخل له بها ، وكلمة : كَلُوا نجدها تأتى من الأكل ، وهى معنى مستقل بالفهم والزمن جزء منه . ولفظ « فى » يدل على معنى غير مستقل بالفهم فلا بد من أن ينضم لشيء آخر .

إذن كلٍ لفظ له معنى ، وهذا المعنى قد يكون مستقلاً بالفهم أو غير مستقل ، فإن كان مستقلاً بالفهم فإننا نسأل : هل الزمن جزء منه ؟ وفى هذه الحالة يكون « فعلا » وإن لم يكن الزمن جزءًا منه فهو الاسم . وإن كان غير مستقل بالفهم ويريد شيئاً آخر ليستقيم المعنى فهو « حرف » .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهكذا تعرف الألفاظ . والفعل هو « معنى زائد عليه زمن » كقولنا : أكل ؛ فهى تعنى تناول إنسان طعامًا فى زمن ماضٍ ، وهكذا نفهم قولنا : « كان » . فإن قلنا : « كان » بمعنى حدوث شىء فى الماضى ، كقولنا : « كان زيد مسافرًا » فهى ناقصة . وفى ضوء هذا نفهم قول الحق :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

فإن أردت الوجود فقط من غير شىء جديد طارىء عليه ، فالفعل يكون تاماً لا يحتاج إلى خبر . وإن أردت الوجود مع أى شىء آخر فهو الفعل الناقص الذى تكمله بخبر . مثل قوله تعالى : « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ألا توجد فتنة ، فهى لا تحتاج إلى خبر .

وكان مثل بنى إسرائيل كمثل التلميذ الذى يذهب إلى المدرسة ولا يعلم أن فيها اختباراً آخر العام فيُمضي الوقَت فى غير تحصيل ولا جد ولا اجتهاد بل فى لهو ولعب ، وكان هذا حسباناً خاطئاً ؛ لأن المنهج لم يأت اعتباطاً ، ولكنه جاء كنظام حركة للحياة ليعمله المؤمن . وكان المفروض أن يستقبلوا المنهج على حسب تعاليم المنهج . ومن العجيب أنهم ظنوا ولم يحسبوا بالحساب على الرغم من أنهم أهل علم بالحساب ، فهم حسبوا ـ بكسر السين ـ وما حسبوا ـ بفتح السين ـ وكان المفروض أن يقوموا بالحساب ، فالحساب هو الذى يضمن صحة المسائل .

وكل شىء عند الله يكون بالحساب ، حساب للعبد وحساب على العبد . « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ظنوا أنها ليست اختباراً . وظنوا أن الرسالات والمناهج هى مسألة لا اختبار لهم فيها ، فلما عرفوا تعاموا عن ذلك وصموا آذانهم عنه . ونعلم أن وسائل الإدراك فى النفس البشرية هى السمع والأَبْصار والأفئدة :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فوسائل الإدراك : سمع ، وبصر ، وفؤاد . وما تراه العين هو تجربة الإنسان بنفسه . أما ما يسمعه الإنسان فهو تجربة كل غير له . وبذلك يكون السمع أكثر اتساعاً من العين . والسمع هو وسيلة الإدراك التى توجد أولاً فى الإنسان حين يولد . ونجد المولود لا يهتز عندما يقترب شيء من عينيه ؛ لأنه لا يرى بدقة وقد يستمر ذلك لمدة عشرة أيام ومن بعد ذلك يبدأ فى الرؤية . لكن الطفل إذا سمع صوتاً بجانب أذنيه ينفعل ، كأن حاسة السمع هى التى توجد أولاً ، ولذلك يأتى لنا الحق بذكر السمع أولاً ومن بعد ذلك الأبْصار ثم الأفئدة .

« فعموا وصموا » وهو سبحانه يسألهم أولاً عن التجربة الشخصية فيهم ، ولم يسألهم عن الذى سمعوه عن غيرهم فقط ، « فعموا » أى لم يروا حتى الأمور المتعلقة بهم ، ولم ينظروا فى آيات الكون ولم يسمعوا البشير ولا النذير ولا المنهج من الله ولا اتفقوا على تنفيذه . وسبحانه يعاتبهم أولاً على ما يتعلق برؤياهم هم ، فالأذن تسمع من الغير ؛ لذلك أخذ عليهم أولاً أنهم لم يستعملوا عيونهم . وحتى لو افترضنا أنهم لم يروا آيات الكون بأنفسهم فما بالهم لا ينظرون وقد جاءهم الرسول ودعاهم لينظروا فى كون الله وأن يعتبروا .

فإذا كانوا أولاً فى غفلة فلم يروا ، فلماذا لم ينتبهوا ويسمعوا سماع إذعان وانقياد عندما جاءهم البشير والنذير لينبههم ؛ لذلك « فعموا وصموا » منطقية جداً هنا . وبعد ذلك قبل الله منهم ، وأنجاهم من فرعون وفلق لهم البحر ، وعبروا ، ولكنهم بمجرد خروجهم من البحر ، ومروا على قوم يعكفون ويلزمون ويقبلون على أصنام لهم يعبدونها . قالوا لموسى : نريد إلهاً كما لهم آلهة . وأمرهم موسى أن يتوبوا وقبل الله توبتهم . مع كثرة ما ارتكبوا من ذنوب . ومن بعد ذلك يتوب الله عليهم . « ثم تاب الله عليهم » .

والتوبة هى فتح مجال للنفس السوية لتنطلق فى الخير من جديد ، فلو لم يتب الله على من أذنب فماذا يكون موقف المذنب بلا توبة ؟ إنه يتمادى ويحس أنه ذاهب فى طريق الشر بلا عودة . وحين يقبل الحق توبة المذنب ، فذلك معناه أنه سبحانه يريد أن يحمى المجتمع من شره . والتوبة مراحل : الأولى حين يشرع الله التوبة ، والثانية : أن يتوب العبيد . والثالثة : هى قبوْل الله للتوبة . وهذا ما جاء به الحق :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

ماذا تعنى توبة الله عليهم ؟ سبحانه لن يتوب عليهم توبة القبول إلا بعد أن يتوبوا . إذن فتوبة الله عليهم الأولى هى التشريع لهم بالتوبة ، ثم توبتهم ، ثم قبول الحق للتوبة . لكن هؤلاء عموا وصموا ، وعلى الرغم من ذلك لطف الله بهم . فماذا حدث منهم بعد ذلك ؟ عموا وصموا مرة أخرى « ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » .

و« عموا » مأخوذة من الفعل « عمى » ، ومثلها مثل « أكلوا » و« شربوا » و« حضروا » ، فأين الفاعل ؟ الفاعل هو « واو الجماعة » . وابن مالك قعّد لهذه المسألة ، فساعة تسند الفعل إلى اثنين أو إلى جماعة ، فلا بد أن تجرد الفعل من علامة التثنية أو الجمع ، فلا تقول : « قاما زيد وعمرو » ولكن تقول : « قام زيد وعمرو » ، ولا نقول : « قاموا التلاميذ » بل نقول : « قام التلاميذ » ، لأن مدلول « الواو » هو مدلول « التلاميذ » ؛ قال ابن مالك :

وجرد الفعل إذا ما أسندا لاثنين أو جمع كـ« فاز الشهدا »

أى أن الفعل إذا أسند لمثنى أو مجموع وجب تجريده من العلامة التى تدل على التثنية أو على الجمع . أما كلمة كثير فتعرب إما على أنها البدل من واو الجماعة ، وإما على إضمار مبتدأ أى العُمْىُ والصُّم كثير منهم ، وإما على أنها فاعل ويكون ذلك قد جاء على لغة طائفة من العرب وهم بنو الحارث بن كعب ، وهؤلاء قد يأتون بعلامة تدل على التثنية أو الجمع إذا أسند الفعل إلى اسم ظاهر مثنى أو مجموع مثل : قاموا الرجال وسافرا محمد وعلى .

وحمل بعضهم قوله تعالى : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » على هذا ، وكان قول الحق : « كثير منهم » صيانة للاحتمال بأن قلة منهم تدير أمر الإيمان فى قلوبهم ، وكلمة « كثير » جاءت حتى ننتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يهمل أبداً القلة التى تدير أمر الإيمان فى خواطرهم . ليؤكد ويعاضد ما جاء فى قوله تعالى : « وأن أكثركم لفاسقون » . « ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » و« بصير » مثلها مثل « عليم » ، أى شاهد وليس مع العين أين . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَاءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾

وهناك ثلاث آيات تتعرض لهذه المسألة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » . والآية الثانية :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة المائدة)

والآية الثالثة :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَاهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

إذن فالخلاف فى المسألة جاء على ثلاث صور ؛ طائفة تقول : المسيح هو الله . وطائفة تقول : إن المسيح هو إله مع اثنين آخرين . وطائفة تقول : إن المسيح هو وأمه إلهان . ولكل طائفة رد . والرد يأتى من أبسط شيء نشاهده فى الوجود للكائن الحى ، فالإنسان ـ كما نعرف ـ سيد الكون والأدنى منه يخدمه . فالإنسان يحتاج إلى الحيوان من أجل منافعه ، وكذلك يحتاج إلى النبات والجماد ، هذا السيد ـ الإنسان ـ يحتاج إلى الأدنى منه . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على تأليه سيدنا عيسى وسيدتنا مريم ، فقال :

﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة المائدة)

وهذا استدلال من أوضح الأدلة . لا للفيلسوف فحسب ولكن لكل المستويات ، فمادام يأكلان الطعام فقد احتاجا إلى الأدنى منهما . والذى يحتاج إلى الأدنى منه لا يكون الأعلى ولا هو الواحد الأحد . والمتبعون لهذه الفرق الثلاثة مختلفون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولا تقولوا ثلاثة » وكلمة « ثالث ثلاثة » تستعمل على أنه واحد من ثلاثة لكنه غير معين . فكل ثلاثة يجتمعون معاً ، يقال لكل واحد منهم إنه « ثالث ثلاثة » . وليس هذا القول ممنوعاً إلا فى حالة واحدة ، أن نقول : ثالث ثلاثة آلهة ؛ لأن الإله لا يتعدد . ويصح أن نقول كلمة : « ثالث اثنين » لأن الله يقول :

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة المجادلة)

إذن فمن الممكن أن نقول : هو رابع ثلاثة ، أو خامس أربعة أو سادس خمسة . وهو الذى يصير الثلاثة به أربعة أو يصير الأربعة به خمسة أو يصير الخمسة به ستة . إننا إن أوردنا عدداً هو اسم فاعل وبعد ذلك أضفناه لما دونه ، فهذا تعيين بأنه الأخير . فإن قال قائل : الله رابع ثلاثة جالسين.فهذا قول صحيح . لكن لو قلنا إنهم آلهة.فهذا هو المحرم والممنوع ؛ لأن الإله لا يتعدد .

ويلاحظ أن الحق لم يقل : ما يكون من نجوى اثنين إلاّ هو ثالثهم ؛ لأن النجوى لا تكون إلا من ثلاثة ، فإن جلس اثنان معاً فهما قد يتكلمان معاً دون نجوى ؛ لأن النجوى تتطلب ألا يسمعهم أحد . والنجوى مُسَارَّة ، وأول النجوى ثلاثة ، ولذلك بدأها الحق بأول عدد تنطبق عليه . فإن قلت : « ثالث ثلاثة » فهذا قول صحيح إن لم يكونوا ثلاثة آلهة .

والحق أراد أن يدفع هذا القول بالبطلان حين قال : « كانا يأكلان الطعام » . والطعام مقوم للحياة ومعطٍ للطاقة فى حركة الحياة ؛ لأن الإنسان يريد أن يستبقى الحياة ويريد طاقة ، والطعام أدنى من الإنسان لأنه فى خدمته ، فإذا ما كانا يأكلان الطعام فهما فى حاجة للأدنى . وإن لم يأكلا فلا بد من الجوع والهزال .

ولذلك فهما ليسا آلهة . بعضهم يقول : « كانا يأكلان الطعام » هى كناية عن شىء آخر هو إخراج الخبث . ونقول : ليس إخراج الخبث ضرورياً لأن الله سيطعمنا فى الجنة ولا يخرج منا خبث . فهذا ليس بدليل . ويرتقى الحق مع الناس فى الجدل ، فاليهود قالوا فى المسيح ـ عليه السلام ـ ما لا يليق بمكانته كنبى مرسل وقالوا فى مريم عليها السلام ما لا يليق باصطفائها من الحق .

واليهود إذن خصوم المسيح . وأنصار المسيح هم الحواريون ! فإذا كان لم يستطع أن يصنع من خصومه ما يضرهم ولا مع حوارييه ما ينفعهم فكيف يكون إلهاً ؟ والنص القرآنى يقول عن مريم :

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والمسيح نفسه كان دائماً مع الله خاشعاً عابداً . والذى يعبد إنما يعبد من هو أعلى منه ؛ فالإله لا يعبد ذاته . وإذا كان هذا قول من ينتسبون إلى السماء إيماناً بإله وإيماناً بمنهج ، فماذا عن قول الذين لا ينتسبون إلى السماء من الملاحدة الذين ينكرون الألوهية ؟.

إذن كان من الواجب أن يؤمن المنسوبون إلى السماء بواسطة مناهج وبواسطة أنبياء وأن يصفوا هذه المسائل فيما بينهم . وعلى سبيل المثال كان العالم موجوداً ومداراً قبل المسيح فمن إذن كان يدير العالم من قبل ميلاده ؟ ولذلك أراد الحق سبحانه جل جلاله أن يحسم الموقف . والقرآن يعلمنا :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

أيمكن أن يكون المتناقضان محقين ؟ لا ؛ لأن أحدهما لا بد أن يكون على هدى ولا بد أن يكون الآخر على ضلال . ولذلك نقول : كلامكم لا يلزمنا وكلامنا لا يلزمكم . ونفوض الأمر إلى الإله الذى نؤمن به . وحتى نصفى هذه المسألة نذكر قول الحق :

﴿ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة آل عمران)

ونقول : اجعل لعنتك على الكاذبين . حتى تخرجنا من هذا الخلاف ولا تجعل واحداً منا يسيطر على الآخر ، فأنت صاحب الشأن ، فها نحن أولاء بأنفسنا ونسائنا وأولادنا ندعو دعاءً واحداً : اجعل لعنة الله على الكاذبين منا . وما تلاعن قوم وابتهلوا إلا وأظهر الله المسألة فى وقتها . ولم يقبل أحد من أهل الكتاب هذه المباهلة ، والحق يقول :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

إذن فالذين لا يعلنون التوبة عن ذلك يقعون فى الكفر ويعذبون . ثم يقول الحق :

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

فكأن هذا القول يقتضى التوبة واستغفار الحق .
ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

و« أفك » يعنى انصرف أو صُرِف ، أى يصرفهم غيرهم . وهذا يعنى أن هذا إيعاز من الشيطان ؛ لأن المسيح عليه السلام ما هو إلا رسول مثل من سبقوه من الرسل وأمه (صدِّيقة) مصدِّقة بما جاء به ، والدليل على بشريتهما أنهما يحتاجان كسائر البشر لما يَقوِّم حياتهما من طعام وشراب وكساء ، والألوهية المدّعاة منهم تتنافى مع هذا الاعتقاد وهذا هو الإفك بعينه الذى يتصادم مع العقل المجرد عن الهوى .
يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

والعقل يستنكر أن نعبد أحداً غير الله ، فغيره لا يملك أن يصنع الضر للخصوم ، ولا النفع لنفسه أو لأشياعه وأنصاره بدليل أن الأعداء فعلوا ما فعلوه وما ملك عيسى عليه السلام أو الحواريون أن يضروهم ولا استطاعوا أن يفعلوا شيئاً ينفعون به أنفسهم .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله هو السميع العليم » . وكلمة « السميع » تدل على قول . وكلمة « العليم » تدل على شيء يدور فى الخواطر ، والشيء الذى يدور فى الخواطر أهو حراسة سلطة زمنية جعلتهم يقولون هذا الكلام ؟ إنه سبحانه العليم

بذلك . فإن كان قد حصل كلام فهو قد سمعه ، وإن كانت قد دارت خواطر فى النفس فهو يعلمها ؛ لأن العاقل قبل أن يتكلم لا بد أن يدير الكلام فى النفس . وكل كلام لا بد له من نزوع . وهو سبحانه السميع العليم أزلا وأبدًا .

ويقول الحق :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

عندما يوجد شىء مشترك بين النصارى واليهود يحدثهم الله بقوله : «يا أهل الكتاب» أما الشىء الخاص فهو يتحدث به لكل فئة بمفردها . والغلو هو أن يتطرف إنسان فى حكم ما إيجاباً أو سلباً . وهو إما الإفراط فى المنزلة العالية وإما التفريط فى المنزلة الدنيا . ولذلك نجد المتناقضات دائماً فى الغلو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لسيدنا علىّ ـ كرم الله وجهه ـ : « يا علىّ ، يهلك فيك رجلان . . محب غال ومبغض غال » ويقول : « يا علىّ لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق »[1] .

ويقول : (يا على ستقاتلك الفئة الباغية)[2] .

إن هناك من أحب سيدنا عليًا إلى درجة أنهم اعتبروه نبياً وقالوا : إن الوحى أخطأ عليًا وجاء إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أو اعتبروا عليًا إلهاً !! وكل ذلك غلو ، فقد أحبوه إلى منزلة فيها غلو وإفراط .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٢) رواه المتقى الهندى فى كنز العمال ، والخوارزمى فى جامع المسانيد .

أما الخوارج فقد قالوا عن سيدنا على : إنه كافر . جاء الغلو - إذن - من ناحية المحبين فجعلوه نبياً أو فوق ذلك مما يدخلهم فى الشرك، أو من المبغضين القائلين بتكفيره وإخراجه من دائرة الدين ، ولذلك يجب ألاّ نغلو فى الدين فلا نحب إنساناً ونرفعه فوق مستوى البشر ، ولا نبغض إنساناً وننزل به إلى الحضيض . بل يجب أن نعطى كل واحد قدره ومقداره الذى وضعه الله فيه ؛ لأن وضع الله له هو تكريمه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وجاء مثل هذا القول فى آية أخرى :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وحتى نفهم أن مسألة الغلو إنما جاءت فى ادعاءات ألوهية البشر ؛ قال الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

فلا داعى للغلو بنسب الألوهية له أو أنه ثالث ثلاثة . فإن كنتم متشككين ووصلتم إلى هذا الشك بسبب عدم عنصر الذكورة فى مجىء عيسى ، فافهموا أن كل الأشياء جاءت بـ « كن » ، لأنه وإن وُجدت مقدمات للإنسان ، فَرَقِّ هذه المسألة إلى واحد لم يأت من إنسال ، وستصل إلى آدم وآدم من تراب ؛ إذن كل الكون كلمة . وإن وجدت أسباباً فمها طمره الله فى الكلمة الأولى ، فحين يجىء إنسان أنشىء بكلمة فلا تقولن : إن هذا شىء عجيب ؛ لأن الكون كله إنما نشأ بكلمة :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وإن كانت الفتنة قد نشأت فى ظاهر الأمر من أن المسيح ليس له أب فى عالم الإنسال وقانون التناسل ، فما كان يجب أن تكون الشبهة فى هذا ؛ لأنه مخلوق من أم ، وآدم مخلوق بلا أب ولا أم . وكان يجب أن تكون الفتنة فى آدم أكبر . والكلمة من الله تنشىء حياة . والحياة إدخال روح فى مادة لتهبها الحركة والحس ومقومات

الحياة . إذن فالكلمة تقال من الله فتأتى الروح لتدخل فى المادة : (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) . « وروح منه » مثلها مثلها قال فى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فآدم كلمة ، وآدم روح منه ، وكذلك المسيح ، فلا شبهة هنا ولا شبهة هناك . ويطلب الحق من المنسوبين إلى السماء : (انتهوا خيراً لكم) . فإذا كنتم منسوبين إلى السماء فلا تذبذبوا أفكار الناس بمثل هذه المسائل ، وكان يجب أن تقفوا بعيسى عندما أراد الله له من تكريم ؛ لأن التكريم هو أن يكون أسوة حسنة ، فلو كان من جنس آخر غير البشر لامتنعت الأسوة فيه ؛ لأن الأسوة إنما تكون من جنس من يتبعها ، فلو رآه الناس خاشعاً متعبداً لما استطاعوا أن يفعلوا مثله لو كان من مادة أخرى غير مادة البشر .

وقلت مرة : لو أن إنساناً رأى أسداً يفترس فى الغابة ويصول ويجول على الحيوانات ، أيفكر واحد من الرائين أن يجعل نفسه أسداً ؟ . لا . لكن لو رأى فارساً مثله شجاعاً فى حرب يصول ويجول فى الأعداء فهو يقلده ويحاول أن يكون مثله . إذن فالأسوة لا تكون إلا مع وحدة الجنس ، فلو أنه لم يكن من جنس البشر لما صلح أن يكون رسولاً .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق » لقد جاء الحق هنا بالحديث شاملاً لكل أهل الكتاب ؛ لأن كلا منهما جاء بطرفى الأمور . . فاليهود اتهموا سيدتنا البتول المصطفاة مريم بما ليس فيها ، وأولئك جاءوا بالمغالاة فى الجهة الأخرى ؛ لذلك يأمرهما الحق بعدم المغالاة ؛ لأن الحق لا يتعاند ؛ فهو شيء ثابت لا يتغير أبداً ولا يتعارض . والإنسان إن رأى حدثاً من الأحداث بعينيه ثم طُلب منه أن يحكيه فهو يحكيه الآن ويحكيه غداً ويحكيه بعد عام وتظل روايته واقعاً لأنه شهده وهذا هو الواقع المشهود يفرض نفسه عليه ، لكن الكاذب لا يذكر ذلك ، وقد يقول قضية ويكون فيها كاذبا فلا بد أن يغير من الحقيقة عندما يحكيها لمرة ثانية . ولذلك يقال « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » .

إن الذى يحكم الحق هو واقعة ؛ لأن المتكلم به يستقرىء واقعاً . لكن الكاذب لا يستقرىء واقعاً فلا يعلم ماذا كذب فى المرة الأولى . ونذكر الكاذب الذي جلس يقول : مرة كنا سائرين وخرجنا من القرية ذاهبين إلى المدينة لنأتى بحاجات عيد الفطر . وكانت الدنيا قمراً كالظهر وقوله : « قمراً كالظهر » هى التى تكشف كذبه ، فكيف يكون فى ليلة العيد قمرٌ ، وأول ليلة فى عيد الفطر هى أول ليلة فى شوّال ، وليس فيها أى قمر ، الهلال يكاد يكون مخفياً .

إذن فالذى يستوحى واقعاً لا يتغير كلامه لأنه حق . والذى يستوحى غير الواقع لا يذكر ماذا قال فيخلط . لذلك لا يقولن إنسان غير الحق لأن قوله سيتضارب . وإذا تضارب هذا القول فى مسألة الألوهية فإن الناس قد تشك فى منهج السماء الذى يتبعونه . وإذا شك الناس فى منهج السماء فسيكون عليكم وزر إضلال الناس ؛ لأن الذى يتعرض لهذه القضية يجب ألا يجرب الناس عليه أى شىء من المخالفة . ولذلك قال سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٥ سورة الممتحنة)

لماذا قال سيدنا إبراهيم هذا الدعاء ؟ ؛ لأنه إن قال شيئاً ثم عمل بما يناقضه فقد يتصور من يراه أنه ـ والعياذ بالله ـ كذاب .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » ويا ليتهم ضلوا فقط فى ذواتهم بل هم يحاولون إضلال غيرهم . لذلك قال سبحانه :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه يوضح لهم : لا تفعلوا ذلك حتى لا تضلوا ؛ لأن وزرك أن تعمل ، وهناك وزر آخر هو أن تُضَلِّل غيرك . ولذلك يقول الحق :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

قال الحق ذلك مع أنه قال : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . وحتى نفهم الأمر علينا أن نعرف أن الوزر الأول هو وزر الضلال ؛ والثانى هو وزر الإضلال .

« ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا » أى لا تقلدوا أناساً اتبعوا الهوى . والهوى هو لُطف موقع الشيء وقربه إلى النفس فيصنعه الإنسان على طريقة لا تنبغى . ولذلك كل كلمة « هوى » فى القرآن جاءت فى مجال الخسران والضلال . وعندما نقرأ قوله الحق : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وهو القائل سبحانه : (واتبع هواه فتردى) .

وقد جاء الهوى فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1] .

أى أن المطلوب أن يطوِّع الإنسان هواه لمطلوب الله . ومادام قدْ طوَّع هواه لمطلوب الله ، فهذا يعنى أن هواه الشخصى قد امتنع . « ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » . إنّ هذا هو النهى عن اتباع الهوى الذى يضل ويكون سبباً فى الإضلال عن سواء السبيل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، والتبريزى فى مشكاة المصابيح ، والمتقى الهندى فى كنز العمال .

الحق سبحانه وتعالى يعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة تصبره على ما يلاقيه من خصومه من أهل الكتاب ، وكأنه يقول له : إن هذا الأمر ليس بدعاً وليس عجيباً ؛ لأن تاريخ أهل الكتاب الطويل يؤيد هذا ، فها هوذا موقفهم من نبى الله داود ، وكذلك موقفهم من عيسى ابن مريم عليه السلام . وهذا يجعل لك أسوة بهؤلاء الرسل الذين نالهم من أذى هؤلاء . فالمسألة ليست خاصة بك وحدك ، وإنما هى طبيعة فيهم ، ويبسط سبحانه فى التسرية عن رسوله صلى الله عليه وسلم حتى يجعل موقفه موقف الصلابة الإيمانية التى لا تخاف ولا تهتز ، فينسب هذه الأشياء لنفسه فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فمرة قالوا عن الرسول : إنه مجنون ، ومرة أخرى قالوا : « ساحر » وثالثة قالوا : « كذاب » . وهم يعرفون كذبهم ، فهم على الرغم من اتهامهم للرسول بالكذب والجنون والسحر إلا أنهم لا يأمنون أحداً على مصالحهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الأمين دائماً . وكان لهم أن يتعجبوا من موقفهم هذا ، ومن صدهم عن دين الله بالكفر ، وعلى الرغم من ذلك فعندما يكون هناك شىء ثمين ونفيس فلا يُؤمَن عليه إلا محمد بن عبدالله .

ما هذا الأمر العجيب إذن !!

لقد عرفوا صدق النبى صلى الله عليه وسلم وحقيقة رسالته ـ ما فى ذلك ريب ـ ولكن لأن لهم أهواء أصرّوا على الضلال تمسكاً بالسلطة الزمنية . هم يعرفون أن محمدا هو الأمين . ولذلك نرى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع عليّاً ـ كرم الله وجهه ـ ويتركه فى مكة ليؤدى الأمانات التى كانت عنده لهؤلاء جميعاً .

إذن (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك) . أى أنك يا رسول الله عندهم الصادق . أنت عندهم يا رسول الله الأمين . أنت عندهم يا رسول الله

فى منتهى السمو الخلقى . ولو لم تقل إنك رسول من الله لكانوا قد رفعوك إلى أعلى المنازل . ولكنك ببلاغك عن الله زلزلت سلطتهم الزمنية .

ولقد حاولوا أن يثنوك عن الرسالة ، فعرضوا عليك الملك ، وعرضوا عليك الثراء ، ولو كنت تقصد شيئاً من ذلك لحققوا لك ما تريد . ولكنك تختار البلاغ الأمين عن الله .

لقد عرضوا عليك الملك طواعية . وعرضوا عليك الثروة . وزينوا لك أمر السيادة فيهم شريطة أن تتخلى عن الرسالة . لكنك تختار السبيل الواضح الذى لا لبس فيه على الرغم مما فيه من متاعب ، تختار السبيل الذى يكلفك أمنك وأمن من يتبعك . إنك تتبع ما أنزل إليك من ربك .

ومن بعد ذلك جاءوا ليحاصروك فى الشِّعب ليمارسوا معك الحصار الاقتصادى بتجويعك وتجويع من معك ، ومع هذا كله ما تنازلت عن البلاغ . وكان يجب أن يفطنوا إلى أنك لا تطلب لنفسك شيئاً ، لا المال ولا الجاه بل أنت رسول من الله لا تأكل من صدقة أحد ، لا أنت ولا أهلك . وكان يجب أن يتساءلوا : لماذا تدخل بنفسك إلى هذه الحرب الضارية ؛ فلا أنت طالب جاه ولا أنت طالب مال ، ولا أنت طالب لمتعة من تلك المتع . وكان يجب أن يأخذوا العبرة ، فهم يعرضون عليه كل هذه الأشياء ، وهو يرفضها ؛ لأنه خاتم الأنبياء ؛ لذلك يتمثل فيه خير كل من سبقه من الأنبياء . يتمثل فيه على سبيل المثال ما قاله سليمان لوفد بلقيس ملكة سبأ :

﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

إذن كان يجب على الناس أن يفطنوا إلى أن النبوة حينما تأتى إنما تأتى لتلفت الناس إلى السماء وإلى منهجها ولتنتظم حركة حياتها فى الكون ، وأن المنتفع أولاً وأخيراً بالمنهج هم أنفسهم ؛ لأنهم هم الذين يشقون بمخالفتهم منهج الله .

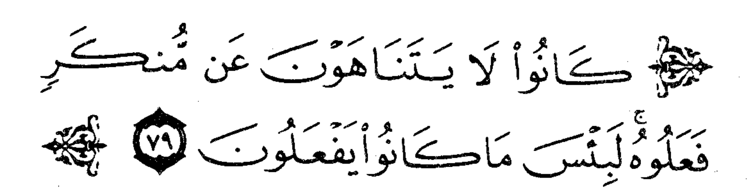
وليجرد كل إنسان نفسه من كل شىء ولينظر إلى المنهج ولسوف يجد أنه فى صالحه . فها هوذا سليمان الذى دانت له الدنيا وأُعْطِىَ ملكاً لم يعطه الله لأحد من

بعده فسخر الله له الريح وسخر له الجن يفعلون له ما يشاء . وكان سليمان يعطى الدقيق النقى للعبيد ليستمتعوا بالطيبات ، ويأكل هو ما تبقى من نخالة الدقيق ، وكان ذلك دليلاً من الله أن هذه المناهج ليست لصالح نبى ، ولكن كل نبى إنما يريد بالمنهج صالحَ مَن أُرسل إليهم .

وكانت مقاومة أهل الكتاب لنبى الله داود ، وكيف أنهم اعتدوا فى يوم السبت فدعا عليهم داود عليه السلام فمسخهم الحق قردة ، ولعنهم فى الزبور ، وكذلك قالوا الإفك فى مريم البتول ولعنهم الله فى الإنجيل ، ولم يكن اللعن إلا بناءً على ما فعلوا ؛ لذلك يذيل الحق الآية بالقول : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

والعصيان - كما نعلم - هو العصيان فى ذات الإنسان وفى أموره الخاصة التى لا تتعدى إلى الغير ، أما الاعتداء فهو أيضاً معصية ولكنها متعدية إلى الغير . مثال ذلك : الحاقد إنما يعاقب نفسه ، أما السارق أو المرتشى فهو يضر بغيره . إذن فهناك معصية وهناك عدوان ، المعصية تعود على صاحبها دون أن تتعدى إلى الغير ، أما العدوان فهو أخذ حق من الغير للنفس ، وضرر يرتكبه الفرد فينتقل أثرة إلى الغير .

ويقول الحق من بعد ذلك :



ونعلم أن حراسة منهج الله تعطى الإنسان السلامة فى حركة الحياة على الأرض . وقد جعل الحق سبحانه فى النفس البشرية مناعة ذاتية ، فساعة توجد فى الإنسان شهوة على أى لون سواء فى الجنس أو فى المال أو فى الجاه ، فقد يحاول الوصول إليها بأى طريق ، ولا يمنعه من ذلك إلا الضمير الذى يفرض عليه أن يسير فى الطريق الصحيح . هذا الضمير هو خميرة الإيمان ، وهو الذى يلوم الإنسان إن أقدم على

معصية ، هذا إن كان من أصحاب الدين .

ولنا أن ندقق فى هذا القول القرآنى لأنه يحمل الوصف الدقيق للنفس البشرية فى حالتها المتقلبة ، فها هوذا قابيل يتحدث عنه القرآن :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

ومن بعد ذلك ، قتل قابيل هابيل ، ثم هدأت النفس من سعار الغضب وسعار الحقد ، وانتقل قابيل إلى ما يقول عنه القرآن :

﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

فبعد أن غواه غضبه إلى أن قَتَل أخاه وسلبه الحياة . يبعث الله له غرابا ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ؛ لأنه لم يكن يعرف كيف يوارى جثمان أخيه . وانتقل بالندم من مرحلة أنه لم يرع حق أخيه فى الحياة فأراد أن يرعى حق مماته ، إذن فالنفس البشرية وإن كانت لها شهوات إلا أن لها اعتدالا مزاجيا يتدخل بالندم عندما يرتكب الإنسان إثماً أو معصية . ولذلك تجد كثيراً من الناس تعانى من متاعب لأنهم ارتكبوا معاصى ، لكنهم يريدون الاعتراف بها لأى إنسان وأى إنسان يتلقى الاعتراف ليست لديه القدرة على تدارك آثار تلك المتاعب ؛ لأنها وقعت وانتهى الأمر .

لكن لماذا يريد الإنسان أن يعترف لآخر بمعاصيه ؟ . إنه اعتراف للتنفيس ؛ لأن كل حركة فى النفس البشرية ينتج عنها تأثير فى النزوع ، فعندما يغضبك أحد فأنت تنزع إلى الانتقام ، ولهذا يأمرك الشرع حين يغضبك أحد أن تغير من وضعك وقل : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . حتى تصرف الطاقة السعارية عندك ، فإن أغضبك أحد وأنت قائم فاقعد ، وإن كنت قاعدا فاضطجع ، وإن كنت ثابتاً فى مكان فلتسر بضع خطوات . والشرع حين يطلب منك أن تتحرك لحظة الغضب فذلك ليزيل من جسدك بعض الطاقة الفائضة الزائدة التى تسبب لك الغليان فتقل حدّة الغضب .

ولذلك فالشاعر العربى ينصح كل مستمع للشكوى ألا يرد السماع بل يصغى لصاحب الشكوى ؛ لذلك يقول :

ولا بـد من شكوى إلى ذى مـروءة
يـواسيـك أو يسليـك أو يتـوجـع

وحينما تظهر المشاركة لصاحب الشكوى فأنت تريحه ، وتهديه إلى الاطمئنان . وينصح الشاعر صاحب الشكوى أن يضعها عند ذى المروءة ؛ لأن ذا المروءة إنما يعطيك أذنه ومشاعره وهو جدير أن تستأمنه على السرّ ، وكأن الأسرار فى خِزانة لن يعرف أحد ما بداخلها ، وبمثل هذا الاعتراف يريح الإنسان نفسه ، ويصرف انفعاله إلى شىء آخر . وعندما تكرر النفس البشرية فعل السوء ، ولا تجد من ينهها أو ينهاها ، فالسوء يعم وينتشر ، هنا تتدخل السماء بإرسال رسول .

ويوضح الحق أن السبب فى إرسال رسول لهؤلاء الناس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، والتناهى عن المنكر إنما يكون بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، ولا يظنن المؤمن أنه بمنجاة عن خاطر السوء فى نفسه لأن كلًّا منا بشر . وعرضة للأغيار ، ومن لطف الله لحظة أن يهب خاطر السوء على مؤمن أن يجد أخاً خالياً من خواطر السوء فيواصيه بالحق ويواصيه بالصبر ؛ لأن الفرد إن جاءه سعار الشهوة فى اللحظة التى يجىء فيه السعار نفسه عند صديق له فقد يتفقان على المنكر ، أما إن جاء سعار الشهوة لإنسان وكان صديقه مؤمناً خاليا من خواطر السوء ، فهو ينهاه ويوصيه بالحق والصبر . وهكذا . يتبادل المؤمنون التناهى بالتواصى ؛ فمرة يكون الإنسان ناهياً ، ومرة أخرى يكون الإنسان منهياً .

وكذلك أعطى الله هذه المسألة كلمة التواصى :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾

(سورة العصر)

ولم يخصص الحق قوماً ليكونوا الناهين ، وقوماً آخرين ليكونوا المنهيين ، لا ، بل كل واحد منا عرضة أن يكون ناهيا إن اتجهت خواطر صاحبه إلى الحرام ، وعرضة أيضا لأن يكون منهياً إن كانت نفسه تتجه إلى الحرام ، وبذلك نتبادل النهى

والتناهى ، ويسمون ذلك « المفاعلة » مثلما نقول : « شارك زيد عمرا » ، ولا يشارك الإنسان نفسه إنما يشارك غيره ، ومعنى هذا أن هناك شخصا قد كان فاعلا مرة ، ومرة أخرى يكون مفعولاً ، وكيف تكون صيغة التفاعل هذه ؟. إنها مثل « تشارك » و« تضارب » أى أن يأتى الفعل من اثنين . ومن السهل إذن أن ينهى إنسان صديقاً له أو ينهاه صديق له ، وقد نفسرها على أن الجميع ينهى نفسه بفعل القوة الخفية الفطرية التى توجد فى كل نفس ، أى أن كل نفس تنهى نفسها . إذن فالتفاعل إما أن يكون فى النفس وإما أن يكون فى المجتمع .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » ولننتبه هنا إلى أنهم قد فعلوا المنكر بالفعل ، فكيف يكون التناهى عن المنكر ؟. يمكن أن نفهم العبارة على أساس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر أرادوا فعله ، أى أن الإنسان منهم كان يرى زميلاً له يتهيأ لارتكاب منكر فلا ينهاه . ومثلها فى ذلك قوله الحق :

﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وهذا القول لا يعنى أبداً أن يتوضأ الإنسان بعد أن يدخل فى الصلاة . إنما يعنى أن نبدأ الوضوء لحظة الاستعداد للصلاة ، يعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأداءها .

وقوله الحق : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » يجعلنا فى حالة انتباه وفراسة إيمانية ويقظة . ويلتفت كل منا إلى نفسه ويرقبها ويراقبها ، وإلى أى اتجاه تسير ، فلا يترك الإنسان نفسه تتجه إلى أى مكان موبوء أو فعل غير مستقيم . وكذلك ينتبه الإنسان إلى أصدقائه وأخلائه حتى نتناهى عن أى منكر فلا نقع أبداً فى دائرة هذا الحكم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فكأننا جميعاً علينا أن نحيا فى يقظة إيمانية ، وأن نقول :« لا » لكل بادرة ولأى حركة من حركات المنكر .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » وساعة نسمع « لبئس » فلنعرف أن اللام إذا سبقت فهى للقسم ، وحين يقسم الله فهذا تأكيد

للقضية ، فهل هذا تأكيد على طريقتنا نحن البشر ؟ . لا . فليس أحد منا كالله ، ونحن فى حياتنا نعرف الأدلة على الحق ، إما إقرار ، وإما شهادة ، وإما قسم .

والقاضى لا يحكم إلا بإقرار المتهم أو بشهادة الشهود ، أو باليمين ، وحين يأتى الحق بالحكم فهو يأتى به على معرفة بالخلق . وعدم التناهى عن المنكر هو فعل وقول معا . وبما أن الحق لم يقل : لبئس ما كانوا يقولون ، ذلك أن القول مقابل للفعل ، وكلاهما أيضاً عمل ، فالقول عمل جارحة اللسان ، والفعل هو عمل الجوارح كلها ، ويجمع القول والفعل وصف « العمل » . ونلحظ أن المسألة لا تقتصر على القول ، إنما هى عمل قد نتج عن فعل .

ولنر الحديث النبوى القائل : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان »[1] .

وقوله الحق : « لبئس ما كانوا يفعلون » دليل على أنهم كانوا يفعلون المنكر والقبيح قولاً وعملاً .

ويتابع الحق من بعد ذلك فيقول :

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ونلحظ الفارق بين أن يخبر الحق رسوله بأمور حدثت من قبل مثل قوله الحق :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾
(من الآية ٧٨ سورة المائدة)

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى والترمذى ، وابن ماجه عن أبى سعيد .

وبين الواقع الذى يجرى فى زمن رسول الله ؛ فالخبر الأول هو خبر عن أمر صدر منهم مع من سبق من الرسل ، لكن هناك أشياء يا رسول الله أنت تراها بنفسك ، وهذا دليل على أن كفرهم لم يكن نزوة وانتهت ، لا ، بل كفرهم أصبح ملكة فيهم انطبعت عليها نفوسهم ، كيف ؟ نعلم أن الإسلام حينما جاء واجه معسكرات شتّى ، وهذه المعسكرات كانت تفسد حركة الإنسان فى الحياة ، والحق سبحانه وتعالى خلق الكون مسخّراً للإنسان ويريد أن يظل الإنسان حارساً لصلاح الكون أو أن يزيد صلاح الكون وألا يسمح بتسرب الفاسد إلى الصالح .

إن هذا هو مراد الحق من وجود منهج للإنسان . وهدف المنهج أن يحمى حركة الحياة كلها من الفساد وأن يزيد صلاحية الكون ، فعملنا فى الكون دائماً لصالحنا ؛ ولا يوجد عمل يفعله مخلوق يأتى للحق سبحانه وتعالى بصفة زائدة على كمالاته ـ سبحانه ـ ؛ لأن الحق له كمال الصفات ، وهو الذى خلقنا وأوجدنا وأمدنا ، وتكليفنا منه لم يزده سبحانه شيئا ، فهو ـ سبحانه ـ مستغن بذاته عن جميع خلقه .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذن ـ ليحارب معسكرات هى معسكر أهل الشرك فى مكة ، ومعسكر أهل الكتاب ، وكان المفترض فى أهل الكتاب أن لهم صلة بالسماء ولهم إلف بمناهج الرسل . وبمعجزات الرسل وعندهم البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ، ومعسكر المنافقين الذين ظهروا بعد أن قويت شوكة الإسلام ، فأعلنوا الدخول فى الإسلام وهم لم يؤمنوا بل أضمروا الكفر .

وعندما نتوقف عند معسكر أهل الكتاب ، كان من الطبيعى أن ينتظر منهم رسول الله أن يؤمنوا لأنه جاء بالمنهج الذى يقوى من صلة السماء بالأرض ، لو كانوا صادقين وحريصين على تلك الصلة . وخصوصاً أنهم كثيراً ما تباهوا بمقدم النبى قبل أن تأتى الرسالة . وكانوا يقولون للأوس والخزرج :

لقد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا ، يأتى سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وفى ذلك جاء قول الحق :

﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

وقالت لهم كتبهم : إن النبى إنما يأتى فى أرض ذات نخيل ، وهذا ينطبق على مكان مبعثه صلى الله عليه وسلم . إذن فقد عرفوا المكان ، وعرفوا الصفات ، وعرفوا الجبهات التى سيحارب فيها لأنه سبق لأنبيائهم أن حاربوا فيها . وعندما جاء محمد رسولاً من عند الله اهتزت سلطتهم الزمنية ، وأرادوا أن يستبقوها بتحريفهم منهج السماء . وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الربانى ليعيد حركة الكون إلى الإيمان . ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بينما كانوا ينسجون الإكليل كتاج لملك ينصبونه .

هكذا أوقف رسول الله سلطتهم الزمنية ولم يعد لهم الجاه ، ووحّد الأوس والخزرج ، وكان اليهود يعيشون على الشقاق بينهما ، ببيع الأسلحة والإقراض بالربا . ومع مجيء محمد صلى الله عليه وسلم تهدم بنيان سلطتهم ؛ لذلك حاولوا أن يشجعوا خصوم رسول الله وهو مازال فى مكة ليهزموا الدين الجديد حتى لا يزحف الدين إلى المدينة ويهدر سلطانهم .

وفى ذلك جاء القول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والثمن القليل هو الأبهة والرئاسة وسدة الحكم . وها هوذا كعب بن الأشرف كبير يهود وله ثراء ولسان ، يخرج إلى قريش ليناقشهم فى ضرورة وأد الدين الجديد والقضاء عليه . فقالت له قريش : إنك من أهل الكتاب ولك صلة بالسماء .

فيقول لهم : إنكم أهدى من محمد سبيلا !! كيف يصير المشركون عبدة الأصنام أهدى من محمد سبيلا ؟ .

وهكذا نرى قوله الحق : « ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا » . لقد تحالفوا مع معسكر الشرك الذى كان بينهم وبينه خصومة حتى لا تتسرب السلطة من أيديهم . وتعاونوا مع الذين أشركوا لإيقاف زحف الدين الجديد .

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ويتولونهم أى ينصرونهم ويعينونهم ويدعون أنهم على حق ، وكأن الدين الجديد على باطل . ويقسم الحق هنا أنه بئس ما زينت لهم النفس الأمارة بالسوء ، لأنهم افتقدوا النفس اللوامة ، وغلبت عليهم النفس الأمارة بالسوء .

وتتابع الآية : « أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » وينشأ عن السخط الابتعاد عن طريق الهداية . والبعد عن طريق الهداية يقود إلى العذاب الخالد . كأن الحق يوضح لهم : على فرض أنكم أخذتم متاعاً قليلا فى الحياة ، ولكنكم أتيتم لأنفسكم بمتاعب أزلية تنتظركم فى الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

فلو كان عندهم إيمان بالله حقيقة وبالمنهج المنزل من الله ، ما اتخذوا أهل الشرك أولياء ، ولكن كثرة هؤلاء أهل فسق . ونلحظ أن الكثير فاسق ، وهذا يعنى أن القليل غير فاسق .